٦ الخزانة التاريخية

الدكتور
شاكر الخوري

مجمع المسرّات

قدّم له
د. الياس قطّار





احتفظنا في النص بلغة وفواصل طبعة ١٩٠٨ .
العناوين للمؤلف ، ترقيم الصفحات تغيَّر .
مضامين الكتاب جديدة .

طبعة ثانية
بيروت ١٩٨٥



الخزانة التاريخية

الدكتور
شاكر الخوري

مجمع المسرّات

قدّم له
د. الياس قطّار





منشورات دار لحد خاطر -- ص.ب. — ١٦٦٠٢٠ — بيروت — لبنان .

مقدمة

عمّت لبنان ، في القرن التاسع عشر ، النهضة الأدبية والفكرية . وكان روّادها متعشقين للمعرفة . فجمعوا العلم الى الأدب والفكر الى الفنّ وغاصوا في ثقافة العصر ونحتوا من صخرها . بحيث صحّ فيهم التشبيه الشهير : « بحر من العلوم » .

وكان رجال النهضة المشرقية كرجال النهضة في الغرب غير ميّالين للتخصص في حقل واحد من حقول الأداب والعلوم ؛ فهم مصرّون على الاحاطة بكل شيء وذهنهم متوقّد ومنفتح لالتقاط أي شيء . ومن الذين ينطبق عليهم هذا الكلام بشكل أكيد الأديب الفرنسي الظريف « رابليه » . ومن غريب الصدف ان يكون « رابليه » طبيباً قبل أن يكون أديباً ظريفاً ثائراً وناقداً خاصة لرجال الدين . وأن يكون له . رديفٌ ونظيرٌ في النهضة الأدبية في لبنان هو الطبيب الأديب الفكاهي الناقد الدكتور شاكر بك الخوري .

شاكر الخوري هو أحد رواد النهضة التي شهدها لبنان وعمّت ارجاء المشرق العربي انطلاقاً منه وهو وإن لم يتبوأ مركز آل اليازجي والبستاني . على صعيد اللغة العربية وآدابها . فلقد لاقى شهرة عانية . لعلمه وعلومه ولثقافته ونوادره الطريفة ولأشعاره الفكاهية التي كان ولا يزال يذكرها المعمرون في أقليم جزين ، والعديد من اللبنانيين المثقفين الذين تيسرّ لهم سماع نكات شاكر الخوري أو قراءتها في كتابه الذي نفد من الأسواق منذ عشرات السنين وكان الناس يحرصون على تخبئته حرصهم على كنز ثمين .

ترك لنا شاكر الخوري جملة مؤلفات نفيسة ، بعضها في الطب والبعض الآخر في مواضيع شتى . ولكن يأتي في طليعتها جميعاً « مجمع المسرّات » وقيمة هذا الكتاب . كما سنبيّن ذلك وكما سيكتشف ذلك القارىء من تلقاء ذاته عند غوصه في صفحات هذا المؤلّف ، أنه يجمع الطب الى التاريخ الى الأدب الى الفكر عامة . من هنا . فمجمّع المسرّات أصل من الأصول التاريخية اللبنانية في جزء منه ومرجع مهم في الجزء الأخر . وهو يعكس بصدق في أحوال كثيرة واقع الحياة في عهد المتصرفية : تاريخياً ودينياً واجتماعياً وادارياً وثقافياً واقتصادياً وتربوياً .

فمن هو شاكر الخوري ؟ وما هي فوائد كتابه ، مجمع المسرّات ؟

١ — حياته

ولد في بكاسين من أقليم جزين صباح الأحد في ٢٥ تموز ١٨٤٧ « حساباً غربياً » ، وكان بكر والديه : يوسف الخوري من البلدة المذكورة اعلاه ونور من عائلة ناصيف من قرية جزين . تعمدّ مسيحياً مارونياً على يد نسيبه الرئيس العام للرهبانية اللبنانية القس ارسانيوس النيحاوي . وكان عرّاباه منصور افندي المعوشي من قرية جزين وحرمة جبر أبو عتمة من مزرعة مشموشة .

كان اسمه الحقيقي لويس ، وكذلك كان في المعمودية ، ولكن الأسم استبدل بشاكر نزولاً عند رغبة سعيد بك جنبلاط الذي كان والد الكاتب يعمل عنده كاتماً لاسراره .

بدأ دراسته في القرية ، فتعلّم القراءة والكتابة في اللغة العربية ، كما درس اللغة السريانية بحسب قانون المجمع اللبناني الشهير ، أي مجمع اللويزة ، وذلك لمجرد أن جدّه كان كاهناً وسليل عائلة من الكهنة تبدأ مع الخوري اسطفان المرتسم على رعية بكاسين في ٢٤ من كانون الثاني ١٧٢٩ والمذكور هو والد جدّ جدّ المؤلف (١)

في صغره ، كما في شبابه ، كان شاكر الخوري عصبي المزاج ، حادّ الطبع ، كثير الحركة ، ومبالاً للملاعيب المضحكة و « للشيطانيات » الصبيانية ؛ اضافة الى ذلك كان يكره كل اشكال العنف .

وبعد القرية تابع دراسته في المختارة الى جانب اولاد سعيد بك جنبلاط ، وكان معلّمه الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي . وقد تعلّم في مدرسة البكوات بعض الدواوين الشعرية العربية . ثم انتقل بعد ذلك الى مدرسة اسقف الابرشية في مشموشه المجاورة لقريته ، في عام ١٨٥٨ حيث تابع دروسه اللغوية .

في ٣٠ ايار ١٨٦٠ ، بدأت الفتنة بين الدروز والنصارى في أقليمي الشوف وجزين ، فهرب شاكر الخوري مع اخويه خليل وأمين واخته ليا وأبوه يوسف ثم لحق بهم بعد حين والدته وجدّه وبعض الاقارب ، واستقر الأمر بالنازحين في بلاد المتاولة ، في النبطية وجباع الحلاوي ، حيث لاقوا استقبالاً انسانياً ومروءة عربية ، ومن بلاد المتاولة رحل النازحون الى صيدا خوفاً من تهديد الدروز باجتياح تلك البلاد . وسكنت عائلة شاكر الخوري في صيدا قرب البحر وبقيت هناك الى شهر تشرين الأول . ففي

(١) راجع تسلسل نسب المؤلف في مقال للسيد جرجي نصر بعنوان : الطبيب الأديب : الدكتور شاكر بك الخوري ١٨٤٧ — ١٩١١ ، المشرق ، الجزآن الرابع والخامس السنة الرابعة والستون تموز — تشرين الأول (١٩٧٠) (ص ٤٠٧ — ٤٢٠) ، ص ٤٠٧ .

ذلك التاريخ حضر فؤاد باشا الى لبنان موفداً من الباب العالي ، فتوقف التعدي على النصارى ونشر سعيد بك جنبلاط تطميناً للأهالي وطلب منهم العودة الى قراهم . فعاد شاكر الخوري الى قريته ليجدها حيطاناً سوداً لا سقوف لها وخربة مهجورة .

وبانتهاء الفتنة قاد الوالد ابنه شاكر الى مدرسة عين طورا . فدخل اليها في ٢ تشرين الأول ١٨٦١ حيث تابع دراسة العربية من جهة وتعلّم الفرنسية واللاتينية من جهة اخرى [١] .

وأدخل شاكر الى عين طورا على حساب دولة فرنسا . ولأنه لم يكن تقّياً انتزعت منه المنحة الدراسية ، فاضطر والده الى دفع تكاليف السنتين التاليتين اللتين امضاهما في تلك المدرسة .

بعد عين طورا انتقل الى المدرسة الوطنية لمؤسسها المعلم الشهير بطرس البستاني . فدخل في الصف الأول في اللغة الفرنسية وفي اللغة العربية وفي الحساب . وكان معلمه في اللغة العربية الشيخ ناصيف اليازجي وفي غياب المذكور كان يحلّ محلّه ابنه الشيخ ابراهيم . وفي المدرسة تدّرب شاكر الخوري على تمثيل الروايات المسرحية ، ولكنه لم يحظ بممارسة التمثيل لأن وباء الهواء الأصفر أجبره على الرحيل الى الجبل ، الى قريته بكاسين . وبانتهاء الوباء عاد مجدداً الى بيروت والى المدرسة الوطنية بالذات . ولكن هذه المرة ليصبح معلماً وتلميذاً في آن معاً : معلماً للفرنسية في الصف الرابع وتلميذاً في اللغة الانكليزية والعربية ، وكان الشيخ ناصيف اليازجي ، استاذاً له ، ايضاً ، في اللغة العربية . وخلال تلك الفترة نظم المؤلف أول قصيدة له وكانت ، طبعاً ، غزلاً في صبية أعجب بها .

وبانتهاء الدراسة عاد الى بكاسين حيث افتتح مع أخيه مدرسة درّس فيها الفرنسية والعربية . وفي شهر أيار من العام نفسه ملّ من العمل في التدريس فطلب من أبيه ، عضو مجلس الادارة آنذاك ، السماح له بالتوجه الى بيروت لايجاد عمل ما . فأذن له والده . فسار الى بيروت واستقرت به قدماه في ١٧ ايار ١٨٦٧ في محل القريّة ، القرية التي اشتهرت بمعامل حلّ الحرير . وكانت وظيفة شاكر قيد وترجمة وصولات الشرانق التي ترسلها السماسرة الى المعامل وتسليمها للمكارية .

ومكث في عمله مدة ، عاد بعدها الى قريته حيث شجعه اسكندر المعوشي من قرية جزين على

(١) ثمة رأي للسيد نصر ، المقال المذكور ، يفيد بأن شاكر تعلّم مبادىء اللغة الفرنسية في مدرسة الآباء اليسوعيين في صيدا إبان اقامته فيها هارباً من وجه الدروز . ص ٤٠٥ . ولكن لا توجد أية اشارة في مجمع المسرّات الى هذا الموضوع . هذا وقد وافقه في هذا الرأي السيد أميل مراد في اطروحة ماجستير ، أعدّت في كلية التربية في الجامعة اللبنانية في عام ١٩٨٣ بعنوان « بكاسين من القرن التاسع عشر حتى مطلع الاستقلال » ص ٢٥١ .

الذهاب معه الى مصر لدراسة الطب .. فوافق والده على ذلك وحصل له من داود باشا على تحرير توصية الى وزير داخلية مصر ، وكان سفره نهار السبت في ١٩ تشرين الأول ١٨٦٧ .

وبعد شهرين تقريباً من مكوثه في مصر ، صدر الأمر بدخوله الى مدرسة الطب في ٤ رمضان ١٢٨٤/غرّة كانون الثاني ١٨٦٨ ، فدرس ست سنوات نال في نهايتها شهادة في الطب ، وكانت تلك المدة تفرض . فقط ، على الطلاب الآتين من بلاد الشام ، والذين كان عدد الداخلين منهم ، في كل فوج ، الى المدرسة ، عشرة فقط .

وفي مصر نظم المؤلف ، على حسب زعمه ، ديواناً من الشعر الغزلي ، أسماه الديوان المصري ، وقد أنتخب منه بعض الأشعار التي اثبتها في كتابه هذا ، وترك الباقي لأنه لا أهمية له في نظره كونه من عمل سن الجهل . وأثناء وجوده في مصر ، جاء اليها اخواه رشيد وأمين للدراسة . فدخل أمين الى المدرسة الطبية ورشيد الى مدرسة في الفجالة لبيت شكور اللبنانيّي الأصل .

واذ أصيب ، والده ، بمرض الدوسنطاريا ، وهو مرض كان يحسب له ألف حساب آنذاك ، استدعي للمجيء على عجل الى لبنان . فسافر الى بلده وأشرف على معالجة والده ، الذي كان الاطباء يسيئون معالجته . وفي نهاية العلاج أصرّ عليه والده البقاء في لبنان والعمل في ربوعه . فنزل عند تمني والده ، برغم احلام النجاح العظيم الذي كان يمّني نفسه به في مصر ، ونال في لبنان : « ما لم ينله سواي أن كان بالعلم او الشهرة او المال او الشرف » ، كما يقول .

بعد مصر ، أقام مدة في عكا ، وكان قبل توجهه اليها قد خطب فتاة في صيدا من أقارب زوجة أبن خاله . وبعد عكا انتقل الى دمشق الشام حيث استقرّ بها ، ففتح له عيادة في لوكندة الحموي بباب توما متخصصاً في مداواة أمراض العين على اختلافها . ثم استأجر له محلاً جديداً في شرقي بطريرخانة الموارنة في ملك السغبيني ، ثم أضاف الى العيادة صيدلية في منطقة يسكنها ذوات دمشق في صاروجا شاركه فيها اسرائيلي يدعى سلمون فارحي . واثناء وجوده في الشام فسخ الدكتور شاكر الخوري خطوبته السابقة معللاً ذلك بانشغاله بتدبير أحواله وبعدم حماس الفتاة لأن تكون متعلمة مهذّبة .

وخلال اقامته في الشام تعرّف الدكتور شاكر على وجهاء المدينة وعلى عظمائها وكان من بين اولئك الامير الشهير عبد القادر الجزائري .

في ٢٢ حزيران ١٨٧٩ تزوج في بيروت من مريم بنت خليل التيّان . وكان له من العمر اثنتان وثلاثون سنة . وكانت عروسه من أحسن عائلات بيروت ومن أقدمها ؛ وسرعان ما سافر الى دمشق مع عروسه ليعود منها بعد شهرين ليستقر نهائياً في بيروت .

عمل في بيروت طبيباً في المستشفى الفرنساوي الحديث ثم في مرحلة لاحقة أصبح استاذاً في مدرسة الطب الفرنساوي للجراحة الصغرى وكلينيك العين في عام ١٨٧٩ وابتدأ تدريسه فيها في عام ١٨٨٥ ، ونال على ذلك نيشان الاكاديمي . واستمر مدرساً في الطب الى عام ١٩٠٥ فاستعفى لمدة سنة ثم عاد اليها مجدداً لينهي خدماته فيها في عام ١٩٠٨ .

وتوالت المآسي العائلية على الكاتب في نهاية حياته ، فتوفي ولده يوسف وله من العمر اثنتا عشرة سنة في ١٨٩٣ ثم في العام التالي توفي اخوه خليل . واذ تعب شاكر الخوري من السنين ومن العمل قرر السياحة في العالم فسافر في السادسة والخمسين من العمر الى الاستانة وفرنسا وانكلترا ومصر وسوريا وفلسطين .

وفي ٢٤ آب ١٩١١ توفي شاكر الخوري [1] عن خمسة ذكور (توفي احدهم سابقاً) تاركاً وراءه صيتاً ذائعاً في جيله وفي الأجيال التي تلته في منطقته كما في العديد من المناطق اللبنانية ، والأوسمة التي نالها : المجيدي الرابع ، العثماني الرابع ، العثماني الثالث ، المجمع العلمي الفرنسي ، مجلس المعارف الفرنسي ، هي خير دليل على المقام الذي تبوأه ، هذا الرائد الكبير للنهضة الفكرية والعلمية في الشرق .

٢ — مؤلفاته

للدكتور شاكر بك الخوري مؤلفات عدة هي الآتية :

المؤلفات المطبوعة :

أ — تحفة الراغب في صحة المتزوج وزواج العازب : بدأ تأليفه في مصر وباشر طبعه في مطبعة خليل سركيس ، واستلمه مطبوعاً يوم زواجه في ٢٢ حزيران ١٨٧٩ ونال على أثره النيشان المجيدي الرابع من والي سوريا والشهادة الطبية العثمانية .

ب — نائب الطبيب . المطبعة اليسوعية . بيروت ١٨٨١ .

(١) نصر . المقال المذكور ، المشرق ، ٦٤ (١٩٧٠) ، ص ٤٠٥ .

(١) لم نتحقق شخصياً من هذه المؤلفات المطبوعة والمخطوطة وقد استندنا في ذكرها الى السيدين نصر ومراد المذكورين في الحواشي السابقة .

ج — صحة العين ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٨٩٠ .

د — مذكرات ، مطبعة الاجتهاد ، بيروت ١٩٠٠ .

هـ — مجمع المسرّات ، وهو أشهر مؤلفاته قاطبة ، مطبعة الاجتهاد ، بيروت ١٩٠٨ .

المؤلفات الضائعة وأكثرها قد بعثرته الأيدي ابان الحرب العالمية الأولى :

أ — ترجمة لحياة المؤلف (توجد نسخة منها عند السيد جرجي نصر) .

ب — الخالق والخليقة (كتاب علمي فلسفي) .

ج — الطبيب السائح (رواية علمية) .

د — تاريخ شيخ الجبل رئيس الاسماعيلية .

هـ — فن الموسيقى العبرية (أو العربية !) وعلاماتها .

و — قاموس طبي (في ثماني لغات : العربية ، التركية ، اللاتينية ، الايطالية ، الاسبانية ، الالمانية ، الانكليزية ، الفرنسية وهي الأساس) .

ز — ديوان مجمع الحشرات .

يضاف الى ذلك طائفة من الخطب والمقالات

٣ — ثقافته

شاكر الخوري كسائر أرباب النهضة ، تجتمع في شخصيته علوم متعددة بحيث ان ثقافته كانت مزيجاً من الفلسفة واللاهوت والتاريخ والآداب الانسانية والعلوم البحتة ، وهو من مدرسة « رابليه » ، الأديب والمربي الفرنسي الشهير في النهضة الاوروبية ، الداعي الى حَشوِ العقول بالعلوم قاطبة .

واذا امعنا النظر في مجمع المسرّات لوجدنا أن الكاتب يقمّش معلوماته من المصادر الآتية :

١ — مشاهداته الشخصية وخبرته في الحياة العامة .

٢ — اطلاعه على الوثائق والمراسلات العائدة لزمانه والتي من بينها على سبيل الذكر : وثائق دير سيدة مشموشه في أقليم جزين ولوائح اسماء الموظفين في عهد كل من المتصرفين .

٣ — قرآءاته في المصادر المحلية والغربية . ومن المصادر المحلية المؤرخ طنوس الشدياق — البطريرك الدويهي — المؤرخ الحتوني — أشعار العرب — أمثال العرب — قصص التراث العربي . ومن مصادره الغربية : المستشرق الأب مرتين اليسوعي ، المستشرق الأب لامنس اليسوعي ، المؤرخ هيرودوتس ، تواريخ فرنسا ، متاحف أوروبا ، الفرنسي موريس فونتان مؤرخ قناة السويس ، الفيلسوف سنيك الروماني ، الفيلسوف الفرنسي فولتير ، الفيلسوف الفرنسي روسو ، كتب شعبية أمثال « مذكرات حمار » الرحالة فولني ، المستشرق ماسبيرو الخ ...

طبعاً إضافة الى كل هذه المصادر المحلية والغربية نجد لدى شاكر الخوري اطلاعاً عميقاً على الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وعلى العديد من الكتب التي تدور حول مفهوم الدين وحول المتشرّعين والشريعة والشهداء ومنافع الدين وأصول الديانات والاختراعات البشرية .

و يبدو ان شاكر الخوري ذهب بعيداً في قرآءاته اذ كان من قرّاء « الجورنال الاسيوي » الذي كان في فترة من الزمن أفضل مجلة علمية متخصصة في تاريخ الشرق أشرف على أصدارها مجموعة من كبار المستشرقين في ذلك الزمان .

٤ — مذهبه ومنهجيته

يؤمن شاكر الخوري بالعقل ، وعلى ضوئه يشرح كافة مواقفه من الحياة . فالعقل لديه قوة الانسان . وقد اعطاه الله لنا لاستعماله بحرية . ولذلك فكل ما لا يتوافق مع العقل فهو مرفوض لدى شاكر الخوري ، حتى نكاته التي اشتهر بها هي أقرب الى الحكمة منها الى التهريج المجاني ، فهي أمثولة عاقلة في الحياة صيغت بطابع الظرف والفكاهة . وعلى ضوء العقل يشرح مؤلفنا رأيه في التربية القائمة وفي الخرافات المستحكمة وفي العادات المستهجنة وفي العبادات المسيطرة ، ولذلك فوقفه من الدين المسيحي هو موقف عقلاني لا عاطفي .

واذا قلنا العقل فذلك يعني أن للدكتور شاكر الخوري ثقة تامة بتطور العلم والاختراعات الانسانية .

ويطيب لنا التوقف بعمق عند مذهب شاكر الخوري الفكري . فهو في رأينا انعكاس للواقع الثقافي الذي كان سائداً في أوروبا الغربية وخاصة في فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث كان المفكرون يؤمنون ايماناً كلياً بالعقل .

ولكن ، ان يكن مفكرّو القرن التاسع عشر في أوروبا قد توصلوا الى الايمان بقدرة العقل على تحدي الطبيعة والسيطرة عليها بواسطة العلم القادر على تحقيق انجازات معجزات ، فشاكر الخوري ، الشرقي النزعة ، لم يستطع أن يجاريهم في ذلك . ففي أفكار الكاتب مسحة تشاؤمية وروح قدرية . وليس أدل على ذلك من قوله : « فمثلنا في هذه الدنيا مثل رجل حكم عليه بالسجن مدة معلومة ، فهو في معتقله لا يستطيع الخروج منه وكل عقله هو أن يخترع ملاعباً تلهيه عن التأمل بحال عذابه ... » والانسان في رأيه : « رغماً عن كل اختراعاته ومعارفه وفلسفته لم يستطع أن يقدّم أو يؤخّر قدر ذرة في النواميس الطبيعية المخلوقة فيه وفي الكون » . والفلسفة في زعمه هي جعل المصيبة هيّنة والراحة من طلب أمر لا نقدر على نواله . وأفضل فلسفة عنده هي فلسفة الاحتيال على المصاعب وتبسيط الأمور .

وبرغم عقلانية الكاتب تجاه أوجه الحياة فهو أسير اسلوب كثيراً ما طبع المؤلفات العربية ، عنيت بذلك الاستطراد . فالكتاب يفتقر الى التماسك واللحمة برغم كونه سيرة حياة غنية بالأحداث ، محورها الاساسي تطور حياة الكاتب .

وبرغم هذا المأخذ فثمة منطق داخلي واحد يسري على رواية الاحداث كافة : فالمؤلف يروي الحادثة ثم يعلق عليها ويحللها ويستخلص الحكمة منها مدعّماً ذلك بنوادر مستقاة من التاريخ ومن الحياة اليومية . باختصار ، مضمون الكتاب غربي الجذور ومنهجه شرقي على طريقة الجاحظ وغيره ممن اشتهروا في باب السرد الاستطرادي .

وبايجاز يمكن القول أن ثقافة المؤلف قد قادته الى شخصية فذة قائمة على دعائم ثلاث : العقل ، الفكر الواقعي التطبيقي والايمان بقوانين الطبيعة والتسليم بها .

٥ — فوائده

أ — فائدة أدبية :

إن مجمع المسرّات ، بشروحاته اللغوية وأبياته الشعرية واسلوبه في التعبير وتأريخه للحركة الأدبية والفكرية عامة ، هو انعكاس لواقع الحياة الأدبية في مطلع عصر النهضة ، طبعاً ، عند عامة المثقفين لا

عند أرباب النهضة الكبار من أمثال ناصيف وابراهيم اليازجي وبطرس البستاني وابراهيم الأحدب وغيرهم من علماء اللغة آنذاك .

وأول ما يطالعنا في الكتاب هو فائدته اللغوية على صعيد شرح أصول اسماء القرى والأمكنة خاصة في أقليم جزين وجواره ، ومن تلك القرى نذكر على سبيل المثال لا الحصر : الشقيف ، سنيًا ، كفرجرًا ، أرنون ، صيدون ، طورا ، الليطاني ، مجدلين ، قيتولي ، بسري ، الكحلونية ، السمقانية ، بعقلين ، بتدين ، بشتفين ، الدامور ، عيناب ، بسابا ، الشويفات ، دير القرقفة ، كفرشيما ، بيروت ، الذوق ، عينطورا ، عري ، بنواتي ، يافا ، مصر ، عكا ، بشراي .

وهو في شروحاته اللغوية ، يتميز بحسّ نقدي ، بحيث لا يتقبّل شروحات الآخرين على علاّتها ، ولنا في نقده لشروحات المؤرخ طنوس الشدياق حول تسمية شقيف طيرون ، مثال على ذلك .

إضافة الى هذه الفائدة اللغوية ، يعنى المؤلف بالترجمة لمشاهير الادباء في زمانه ، امثال : بطرس البستاني وخليل الخوري وحيدر شهاب وسليم الخوري وغيرهم . كما أن كتابه حافل باشعار بعض شعراء زمانه وباشهر الاحداث الأدبية والفنية المعاصرة له وبواقع المستوى العلمي . وهو في مؤلفه هذا ، له ميزة خاصة في الكتابة لها نكهة تعبّر عن شخصية المؤلف ، ولكن هذه النكهة لا تحول دون ركاكة اسلوبه في النثر كما يعترف هو نفسه بذلك ، في الوقت الذي كان مقتنعاً فيه بأن نظمه كان جيداً ، لأنه سليقة عنده ، وميزانه فيه سمعه .

ويحفل مجمع المسرّات بالعديد من ابيات الشعر ومن القصائد وهي تندرج ضمن الأبواب الآتية : المدح ، الغزل ، شعر المناسبات ، الرثاء ، الهجاء ، الموشحات ، النقد اللاذع . ويبدو ان قصائد الهجاء كانت أفضل ما ترك من اشعار ، وهو فيها على منهاج أبن الرومي في التصوير الكاريكاتوري الحيّ وهو في بعض اشعاره ذو نزعة وجدانية ، خاصة في الغزل ، وفي بعضها الآخر متصنّع يسعى للتلاعب بالالفاظ بحيث يدخل فيها مرادفات الطبّ حيناً ، ويحوّلها الفاظاً تثير الضحك مرّات اخرى .

وقد يكون من الأفضل لنا مراجعة ما قاله عنه الأديب الكبير مارون عبود [1] للتعرف بشكل عميق على قيمة شاكر الخوري الأدبية ، وتوضيح بعض خبايا حياته التي خبره فيه عبود اثناء مشاركته له في تصحيح مسودة كتابه مجمع المسرّات . واليك ما قاله مارون عبود :

(١) مارون عبّود ، روّاد النهضة الحديثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ ص ١٤٨ - - ١٥٧ .

« قال لي موسى صفير صاحب مكتبة المعارف : كلفني شاكر بك الخوري أن أفتش له عن واحد يقرأ عليه كتابه « مجمع المسرّات » فيصحّح له الخطأ النحوي والصرفي ، فخطرت أنت ببالي ، فما رأيك ؟

وكنت قد فُصلت من الكلية اليسوعية ومدرسة الفرير لأنني محرر جريدة « النصير » المطالبة بتأليف « مجلس مليّ » لأبرشية بيروت المارونية ، فأجبت : نعم .

فقال موسى : يدفع لك البيك عشر ذهبات عثمانية عند النهاية .

فوجمت ثم أجبت : لا بأس .

وبلغ الخبر أحد اصحابي فقال لي : شاكر بك « عملته رديّة » وهو هجّاء ، قلما سلم من لسانه أحد ، كبيراً كان أم صغيراً ، فلا تعرّض نفسك .

فقلت له : وأنا عندي ما عنده . أتخاف عليَّ !

واجتمعنا أول يوم في دار البيك وشرعنا نقرأ ، فمرّت كلمة « التقنيص » فقلت له : « التقمص » فتفكر قليلاً وقال : التقنيص مفهومة أكثر . وبعد قراءة جملة او جملتين ، مرّت كلمة « تقاصصه » فقلت له : تقاصّه . فقال : وهذي أضرب من هاتيك .

فقلت له : إذن ماذا تريد مني ؟ قال : إبداء الرأي ، وأنا أرى الموافق .

ثم جاء دور الشعر ، فعرض عليَّ ابياتاً نظمها لتكتب تحت رسمه ، كما جرت العادة في ذلك الوقت ، قال الدكتور :

لا بـــــد من وبختـــــه   لقبـــــاحـــــة يبـــــدي الغضب
أو من مـــــدحت قريـــــه   بزيـــــادة عنـــــه أنورب

فهززت رأسي . فقال : مالك أنوربت أنت ايضاً ؟ فقلت : لو غيّرنا هذا الشطر الأخير ، فأومأ برأسه أن لا ، وأنشد :

مهما فعلت فـــــأنني   مـــــا بين قومي في عتب
لي أسوة بمسيحنـــــا   فـــــأقـــــام ميتـــــاً وانصلب

وهنا وقعت الواقعة ، فأصررت أنا على القول : أحيا لعازرَ وانصلب ، وأصرَّ هو . واخيراً صاح بي :

أفضل كسر الشعر مـــع حسن سمعـــه على نظم موزون لسامعـــــه قتـــــل

ثم كانت الكلمة الأخيرة له ، فعلمت أن لا طب مع هذا الطبيب ، وأني شاهد زور لا أكثر ولا أقل . وكان البيك مصاباً بالسكري ، فكان يبول بلا حياء فيذكرني ببشار .... ورآني امتعضت فقال لي : مارون أنت مثل أولادي . لا تؤاخذني ، أنا ملازم سريري ، وفي روحتي ورجعتي ، كل نصف ساعة ، تضييع وقت كثير .

وكان الظهر فقمت ، فقال : اقعد . خبزي اسود ولكنه صحي أكثر من خبز السوق الأبيض . وأنا جبلي مثلك . تتغدَّى معي كل يوم ، وتأخذ أجرتك وحبَّة مسك ...

فضحكت والتفت الى « الكوميدينا » فأدرك حالا وقال : يظهر انك اخو راسي ...

ومضينا في عملنا ، فأنستني نظافة طعامه كل ما عداها . كان على المائدة يشرح لي أموراً كثيرة ويحدثني عن كتابه : « صحة المتزوج وزواج العازب » ويصارحني بما يتعلق بي من موضوع الكتاب ، ويقول : هذه دفعة ، قيّدها . فيدق قلبي وأتذكر قول صديقه « في عملته » . ثم حدثني عما ينفعني من كتابيه الآخرين « نائب الطبيب » و « صحة العين » وأفاض ، ولما انتهى قال : هذه دفعة ثانية ، قيّدها معك .

فقلت له : أنا لا اقبض « عملة حكي » هذي بضاعتي . ولو كانت تجوز كنت أغنى البشر .

فقال : قال لي صاحبنا موسى انهم خوَّفوك مني . لا تخف يا ابني . انت لستَ ممن أطمع فيهم . كل ملوخيا . كل لا تستح .

فقلت : أخاف ان « تملخ » رقبة حسابي ، فضحك وقال : خطيّتك في رقبتي . احرق دين « الحاط » . كله كلَّه . حسابك رقبته غليظة لا تتملخ ...

وكان شاكر يتنادر حتى على أولاده ، فلما دخل علينا ابن له طويل ، قال لي : تعرف ماذا انتقيت له وظيفة ؟ فبهت . فقال : ان يضويّ قناديل البلدية لأنه لا يحتاج الى سلم . طول بلا غلَّة .

وظللنا شهرين ثلاثة نقرأ ونتغدّى ، وقبضنا اجرتنا علاوة ...

هوذا حق خبزاتك أيها الرائد الذي لم يكذب أهله . فكتاب « مجمع المسرّات » فارياق من طراز آخر . كشكول طريف ، وصاحبه مطبوع على النكتة القارصة . كان يشتريها بالثمن الموجع كل من يتعرّض له ، ولذلك هابه معاصروه ، كما هابوا بشار بن برد . كان هجّاء محترفاً لا هاوياً كالحاج عمر الأنسي . وقد أبقى هجاءه السخن لديوان سماه « مجمع الحشرات » ولكنه لم يظهره في حياته . ولست أدري اذا كان « قبض » ممن هجاهم حين فتح باب الاشتراك بكتابه « مجمع المسرّات » فعدل عن ذاك كما حذف الكثير من هذا . لقد كان الاشتراك بكتابه جزيةً او ضريبة أداها الاغنياء عن يدٍ ، ليسلموا من لسانه ...

فكتاب « مجمع المسرّات » ترجمة حياة ، ومذكرات مكتوبة باسلوب ، طرافته في بساطته . ليس يسأل صاحبه عن الخليل ولا الفرّاء . فيه صفحات من تاريخ لبنان ووصف للحياة في عصر مؤلفه ، وفيه اشياء عن مصر وغيرها من الأمكنة التي حلتها ركابه . فالرجل بشّاري فارياقي ، ولو كان في عصر الشدياق وقرأ ركاكته ورطانته ولحنه لشمّرت الحرب عن ساقها . فهو من هذه الناحية فقير جداً جداً . وأما من ناحية الشخصية فغنيّ . الا انه يظل في الحالين هجّاء عصر النهضة ، ولوناً طريفاً من الوانه ، فكل كتابه نكات ونوادر . والذي لابسه كما لابسته ، ورآه في مباذله كما رأيته ، يقول مثلي : انه نكتة النكت ... » .

« ... هذا هو شاكر الخوري . أخاف الناس هجوه ربع قرن وأكثر . وهو اليوم لا يخطر لأحد ببال . الا عند ذكر بعض ما يؤثر عنه من نوادر . لقد نقلت منها ما يقبل ، أما الحامضة كثيراً فظلت في كتابه .

ان شاكر الخوري يقتبس من الكتب الدينية أكثر نكته ، فهو في هذا كأبي نواس . وان كان في غيره كابن الرومي وبشار .

ورب قائل قال : لم يذكر شاكر الخوري الا ليخبّرنا انه اصلح كتابه . عفواً سيدي ، فالكتاب من كفلك نوح بالغلط ، فلا فخر لي في هذا ، ولكن الرجل يستحق أن يقف مع كبار هجائي العرب ، لو صحّت عبارته . فما أصح قول مثلنا العامي فيه : يا حَينَهُ لولا عينه » .

ب — فائدة تاريخية

يقول شاكر الخوري : « فما كتابي هذا الا قصة ما رأيت وما روي لي وما أجريت وما جرى لي » . لذلك فمجمع المسرّات ، سجل تاريخي حافل بالأحداث اليومية العائدة للحياة الشخصية للمؤلف من جهة وبمجريات الوقائع والحدثان والأوضاع والأحوال القائمة في لبنان وبعض الدول المجاورة من جهة

اخرى . وبشكل أدق فالكتاب وثائقي النزعة وتأريخي كلاسيكي ، فالكاتب ، قبل كل شيء ، شاهد عيان واعٍ ودقيق ومطّلع بدقة وأمانة على تاريخ عهد المتصرفية في لبنان .

وفي الكتاب مجموعة لا يستهان بها من الوثائق القيّمة التي تنشر لأول مرة ، خاصة ، ما يعود منها لقرية مشموشه في قضاء جزين ولدير سيدة مشموشه ، في المحلة ذاتها ولأسرة المؤلف وللادارات المتعاقبة على المتصرفية حتى عام ١٩٠٧ ، وبعض نماذج المراسلات الادارية والتربوية . ولعل جداول موظفي أو مأموري المتصرفية هي أفضل وأهم وثائق الكتاب .

والكتاب كتأريخ لعهد المتصرفية يلقي اضواء على موضوعات متنوعة يمكن اختصارها بما يأتي : العائلات والشخصيات — النشاط الديني — فتنة ١٨٦٠ — الآثار اللبنانية — تاريخ بعض القرى — النشاط التربوي — النشاط الصناعي واخيراً تواريخ بعض البلدان المجاورة .

فبالنسبة الى العائلات ، وبرغم من انه يصدّر كتابه بالكلام عن عائلة كرم الطرابلسي في مصر . فإن عائلتي جنبلاط وشهاب تستحوذان أكثر ما يكون على اهتمام الكاتب : لذلك فهو يخصصها بلمحة تاريخية وتعريف بواقعها المعيشي والاقتصادي وباضواء على العديد من افرادهما . إضافة الى هاتين العائلتين نجد في الكتاب كلاماً — مختصراً حيناً ومستفيضاً احياناً — عن بعض العائلات الآتية : عتمة — البستاني — علي الصغير — الأمين — الحرّ — نصرالله — حماده — ابي نكد — تلحوق — ارسلان — ابي اللمع — رزق الله — بسترس — سرسق — الخوري — توبيي ، وعائلات دير القمر بشكل خاص . هذا فيض من غيض العائلات التي يؤرخ لها الكاتب وقد راعينا في ذكرها لا قيمتها المعنوية بل تسلسل ورودها في الكتاب . إضافة الى ذلك فالكتاب مصدر صالح لتراجم العديد من مشاهير القرن التاسع عشر خاصة . ومطلع القرن العشرين . سواء أكانوا من الشخصيات العلمية أو الأدبية او السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية . ولاكتشافها يكفي القاء نظرة على فهرست محتويات الكتاب المنظّم حسب الترتيب الابجدي ومن ثم التعرف عليها في متن الكتاب الذي يزخر بشروحات وافية عنها .

وليس من غريب الصدف ان يهتم شاكر الخوري برصد التاريخ الديني وهو سليل خمسة اجيال من الكهنة . لذلك فكتابه يعطي لمحات قيمة عن الادارة الدينية لأقليم جزين . كما يعطي فكرة ايضاً عن الأديار وتاريخها ونشوئها عموماً ونشوء الرهبانيات اللبنانية خصوصاً . ويخدم الباحث بشكل أدق بتقديمه جداولَ بالأديرة والاناطيش والمدارس المارونية . ولا يكتفي شاكر الخوري من التاريخ الديني بعرض واقعه المادي بل يتعدّى ذلك الى انتقاد واقع الرهبان داعياً اياهم الى ضرورة ممارسة واجباتهم الاساسية التي تكرسوا لأجلها . ولا تتوقف معلومات شاكر الخوري عند حدود الطائفة المارونية بل ان كتابه مرجع صالح للتأريخ للرهبانية اليسوعية والطوائف المسيحية . ولا يقتصر كلامه في الطوائف على تاريخها الديني فحسب بل يتعداه الى تاريخها كشعب . واذا اراد الباحث ان يتعرّف عن كتب على

الشخصيات الدينية البارزة من بطاركة واساقفة وكهنة ، وحتى رجال دين مسلمين ، في عهد المتصرفية ، فما عليه سوى أن يعوّل على شاكر الخوري ليجد عنده الخبر اليقين .

وتشاء الصدف أن يكون الكاتب من الذين عايشوا عن كثب الفتنة الكبرى التي عصفت بأقليم جزين في عام ١٨٦٠ . وما خلفته من دمار وخراب في القائمقامية الدرزية . فلقد بدأت الفتنة بمقتل خوري بتدين اللقش في الكحلونية ثم أنقضّ الدروز في ٣٠ ايار عند الغروب بالبنادق من باتر الى قرية بحنين ومنها الى أقليم جزين الذي تهجّر أهله وقتل العديد منهم في قراهم أو وهم هاربون لا يلوون على شيء . وفي خضمّ تلك المجازر وقف متاولة الجنوب موقفاً انسانياً لا مثيل له ، فاستقبلوا النازحين وأضافوهم ، وكان على رأس هؤلاء الشرفاء الشيعة كلٌ من : محمد بك شبيب ويوسف نصرالله وحسن الأمين والشيخ علي الحرّ والشيخ عبدالله نعمه وأسرة علي الصغير (الأسعد) بالعموم . ومن بلاد المتاولة لجأ المؤلف واسرته الى صيدا ، ثم عاد الى بلدته ليجدها خراباً ، بعد مجيء فؤاد باشا والأسطول الفرنسي الى لبنان وما استتبع ذلك ، من اعلان سعيد جنبلاط السماح للنصارى بالعودة الى منازلهم بآمان . بذلك كان شاكر الخوري وثيقة مهمة لتسجيل وقائع ودقائق الفتنة التي عايشها وعاناها كشاهد عيان يتمتع بميزة المراقبة الدقيقة .

ولما كان شاكر الخوري من كبار مثقفي زمانه ، فان حسّه الثقافي يتمثل في تقديره لقيمة الآثار التي تركتها الحضارات المتعاقبة . فهو يصف مقام النبي أيوب في نيحا ، وأثارات صيدا ومنها خان الفرنج وأثارات مرج العواميد في مرج بسري وقلعة طيرون وآثار بيروت ونهر الكلب ونهر بيروت في جوارها وأشهر الآثار اللبنانية الموجودة في متاحف اوروبا (باريس ، لندن ، اسطمبول) ؛ كما يكرّس وصفاً دقيقاً لآثار جبل طورا في أقليم جزين التي يربطها بتاريخ مملكة آفيق جاعلاً من طورا عاصمة لتلك المملكة التي يأتي على ذكرها الكتاب المقدس ، ويعتقد الكاتب بأن طورا هو بالذات الجبل الذي جرّب ابليس فيه السيد المسيح [١] .

ويمكن القول إنَّ كتاب شاكر الخوري مادة صالحة للعديد من الذين يرغبون بالتعرف الى ماضي بعض الأمكنة والقرى اللبنانية وجغرافيتها الانسانية . ومن هذه القرى نخصّ بالذكر : مشموشة ، النبطية ، صيدا ، جبل طورا ، جبل حرمون ، تومات نيحا ، مرج العواميد ، الكحلونية ، السمقانية ، بعقلين ، دير القمر ، جسر القاضي ، الدامور ، عيناب ، الشويفات ، كفرشيما ، بيروت ، نهر بيروت ، نهر الكلب ، الأزواق ، عينطورا ، عراي ، جبل ميشا ، رأس العين ، صور ، عكا ، مصر ، دمشق ،

(١) ثمة رغبة جامحة لدى سكان قرية المؤلف لربط طورا التي تخصّهم عقارياً بمملكة آفيق وربط عائلاتهم بأصول شريفة ، بالرغم من أن هذا لا يرتبط بحقائق علمية أكيدة .

وهو في شروحاته التاريخية يشرح ما للقرى الجبلية من أثر على الصحة والفكر وما لطبيعة الأرض من أثر على الطباع والاخلاق . فالأرض اللينة الخصبة في نظره تولّد اخلاقاً سهلة والأرض الجبلية الصخرية تولّد الصلابة والثبات والأخلاق السيئة والنشاط .

ويكرّس شاكر الخوري صفحات كثيرة للنشاط التربوي الذي سيأتي الكلام عليه في باب الفائدة التربوية من الكتاب .

وإضافة الى النشاط التربوي عبر مدارس ذلك الزمان ، نستفيد من الكتاب للتعرّف الى النشاطات الصناعية عبر مؤسسة بورتاليس التي كانت تعنى بحلّ الحرير الذي كان العماد الأول في الصناعة اللبنانية في تاريخ لبنان الحديث .

ومن فوائد الكتاب التاريخية ما نجده من كلام عن الدول المجاورة وتاريخها . فهناك معلومات عن يافا وعكا وعن تاريخ مصر وديانتها ولغتها منذ القديم حتى عهد اسماعيل باشا (١٨٦٣ — ١٨٧١) ، وعن ديانة الهند وتاريخها ولغتها ، وعن آلهة اليونان وعن التعليم والتربية الطبيّة في مصر . وأبعد من هذه العموميات فالمؤلف كان شاهد عيان لتدشين ترعة السويس وما رافقها من احتفالات ، وقد تشرّف شخصياً بمقابلة الخديوي اسماعيل ، ولذلك فهو يعطي معلومات دقيقة عن حياة الخديوي ونشاطاته ومشاكله السياسية والاقتصادية . إضافة الى هذا التاريخ الحيّ لمصر يفصّل لنا الكاتب مشاهداته في دمشق التي عاش فيها ردحاً من الزمن . واخيراً ففي الكتاب مشاهدات سياحية لرحلته عبر تركيا وأوروبا لا تخلو من متعة ومن قيمة تاريخية .

هكذا فمجمع المسرّات للدكتور شاكر الخوري هو من أفضل المصادر التاريخية العائدة لفترة المتصرفية هذا مع العلم بأن الكثير من معلوماته التاريخية خارج اطار المتصرفية ، قد عفا عنها الزمن الى حدّ ما . وهي عرضة للنقد اجمالاً على ضوء الأبحاث التاريخية الحديثة والعاديات الأثرية التي تطوّرت كثيراً في اكتشافاتها منذ زمن المؤلف حتى الآن . يضاف الى ذلك ما ذكره السيد جرجي نصر[1] من تصويبات خاصة في ما يتعلق بتسلسل نسب عائلة المؤلف وتواريخ بعض أفرادها الذي استند شاكر في ذكرها على العنعنة الضعيفة الاسناد . وقد تحرّى السيد نصر ذلك من السجلات الرعائية .

ويأخذ السيد نصر على الكاتب تحاشيه لذكر بعض اللامعين من أفراد قريته . وعرضه لمشاكله مع

(١) نصر ، المقال المذكور ص ٤١٣ — ٤١٦ .

بعضهم بطريقة تخدم مصالحه ، وهذه الملاحظات على قيمتها مع النقد غير المباشر الذي يوجهه شاكر الخوري الى معاملة أهل القربى لبعضهم البعض ، تصّب جميعها في خانة الحساسيات القروية التي كانت ولا تزال مشكلة المشاكل في القرى اللبنانية .

ج — فائدة تربوية

تظهر الفائدة التربوية في كتاب شاكر الخوري من جهة في وصفه لتاريخ التربية في لبنان ولنوعية التربية التي خضع لها شخصياً منذ نعومة أظفاره وفي إبراز مساوئها ومن جهة ثانية في الأمثولات والمواعظ الأخلاقية التي يستمدها من خبرته الشخصية ويخاطب بها القارىء ، وهو في نظرياته التربوية يبدو سابقاً لعصره .

بدأ شاكر دراسته في القرية ومنها انتقل الى المختارة [1] فشموشه ، ولم تكن تجربته الاولى في الدراسة لتمّر ، دون التوقف عند محاسنها وسيئاتها . فالعلم في نظره ، حسب الطريقة المتبعة شاق . ويتم بالرغم من ارادة الطالب ، ويظهر ذلك في تدريس اللغة السريانية التي يعتبرها الكاتب ميتة ؛ ويرى ان الولد يتكسّب اخلاق وعادات معلميه وأهله وبلاده . ويتخذها رغماً عنه . ومنها تتولد قيمه العليا التي تختلف باختلاف المجتمع الذي يتربى فيه . فالتربية والعادة هما كل شيء ، والانسان هو أبن تربيته . ولذلك . فمن الضروري ، برأيه ، وضع الولد وهو صغير في محلّ يوافق الأداب والراحة والحقائق . بحيث لا يعتاد الخرافات والاعتقادات الباطلة حتى لا يتعب منها مستقبلاً . ويقف الكاتب موقفاً حازماً من الدور السلبي الذي يلعبه حنان الامهات في تربية اولادهن . فحنانهنّ يجعلهنّ ضعيفات الارادة أمام رغبات اولادهن ، ولما كان كسر ارادة الولد يساهم في اراحته في حياته المستقبلية . من هنا يظهر خطر تساهل الامهات في تربية أولادهنّ . والدكتور الخوري يكره العنف وينبذه نبذاً قاطعاً في العملية التربوية . ويرى أن العقل هو لجام الانسان . ويلاحظ الكاتب الانعكاسات النفسية المتأتية عن التربية القاسية ، فيشرح لنا بأن الأولاد كانوا يخافونَ من والديهم ، نتيجة التربية القاسية وعدم وجود أي حوار عاقل بين الأهل والأولاد ، بحيث أن العصا كانت اداة تأديب من عصى ، وكذلك فان أكثر الأولاد يصبحون خبثاء ومحتالين وكذابين .

(١) راجع جبران مسعود ، لبنان والنهضة العربية الحديثة ، بيت الحكمة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٣٦ .

وينتقد الكاتب التربية الدينية المعتمدة ، فيجد بأنه ـ ليس فيها أثر للوعظ وللتعاليم الدينية ـ بل هي كناية عن ممارسة عمياء للواجبات الدينية.

واذ كانت الدراسة تركز على تلقين الطلاب الشعر ، يرى المؤلف أن في ذلك فائدة لا يستهان بها لأن الشعر يعلم اللغة العربية على حقها ـ ويعوّد الطالب على اللفظ الصحيح ويرسخ القواعد اللغوية في الذهن .

وفي مدرسة مشموشه تعلم شاكر الخوري اللغة العربية حرفاً ونحواً وكذلك السريانية حسب الأصول المعتمدة في عين ورقة . ولاختبار نوعية ما تلقنه الطلاب كان يفرض عليهم المشاركة في الصلاة على « القرّاية » ، حيث كان الطلاب يوضعون على المحك أمام جمهور الناس .

ومن مشموشه انتقل المؤلف الى عينطورا طالباً داخلياً . ويشبّه هذا النظام . بالنظام العسكري الرهباني القائم على التنظيم والصلاة والدرس . وأكثر ما كان يزعجه في هذا النظام المغالاة في كثرة الصلوات التي كانت تصل الى حدود الاثنتين وعشرين صلاة مما كان يعطي مفعولاً معاكساً لما كانت تسعى اليه المدرسة لاذكاء الروح الدينية في نفوس الطلاب . وفي عينطورا درس الطالب العربية والفرنسية ـ ولكن ما كان يزعجه ويؤلمه هو اعتماد العنف وسيلة للتربية والاتكال على بعض الأجانب الاوروبيين الذين كانوا يدرّسون بعض المواد باللغة العربية بشكل ممسوخ . ويبدو أن المؤلف كان يعرف قدر قيام تربية متوازنة مع عمر الطالب . ولذلك فهو يتشكى من اجبار الطلاب على قراءة نصوص لا تتناسب مفاهيمها مع اعمارهم . ونستخلص من الكتاب نوعية الدروس التي كانت تعطى للطلاب في عينطورا وهي الغراماطيق وقليلاً من الحساب والجغرافية يضاف اليها اللغة اللاتينية . ويعلّق شاكر الخوري على مستوى التعليم في عينطورا فيذكر أن ما تعلمه فيها خلال ثلاث سنوات لم يكن شيئاً يذكر .

ومن عينطورا انتقل الى المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني ـ ويبدو انه كان مرتاحاً للدرس وللتدريس فيها ـ خلافاً لما كان عليه في المدارس السابقة التي كان يئن ويشتكي دائماً من الاسلوب القاسي المعتمد فيها . ومن لبنان سافر الى مصر للتخصص في الطب بمنحة من الخديوي سعى له بها متصرف لبنان . فدرس في مصر علم الطبقات الارضية وعلم المعدنيات والكيمياء المعدنية وغير المعدنية وعلم الطبيعة وعلم النباتات والكيمياء النباتية والحيوانية وعلم الحيوانات وعلم المنسوجات وأركان البدن والتشريح الخاص والتشريح العملي ، وعلم تركيب الادوية والعلميات الجراحية وفن التعصيب والجراحة العامة والفسيولوجيا والباتولوجيا وفن العلاج وجراحة الانسجة والتشريح الجراحي والتشريح المرضي وقانون الصحة والمادة الطبية وامراض الجلد وامراض النساء والاطفال وجراحة الاقسام وفن الكحالة والطب الشرعي وفن الولادة وعلم السموم والاكلينيك الجراحي والباطني والرمدي يضاف الى ذلك تجارب جراحية في الجراحات المتعددة .

وفي مدرسة الطب كان شاكر الخوري مشاكساً ومعارضاً لكل أنواع التربية بالطرق العنيفة ، وقد قادته معارضته لذلك الى مقابلة الخديوي لتقديم شكوى بحق المسؤول عن ادارة مدرسة الطب في مصر .

واذ تخرّج شاكر الخوري من مصر طبيباً ثابر على نقل تجربته الطبية الى قرّائه ، وهو ما نقرأه جيداً في هذا المؤلف وفي سائر مؤلفاته التي تمتّ الى الطب بصلة ، حاملاً اليهم فائدة تربوية طبية جديرة بالتقدير . وهوكثيراً ما يقدّم النصائح في أنجع الوسائل لشفاء المرضى ، مظهراً المغالط التي كان يقع بها الاطباء الذين كانوا يطببون الناس بعكس المعالجة الطبيعية . ويقول بهذا الصدد : «فليعلم الطبيب ان الطبيعة هي المحامي الأعظم عن الجسم لأنها متى شعرت بمرض دخل في جسم الانسان تقاومه وتجهد ذاتها لطرده ... ».

ويسعى الكاتب جاهداً ، في كتابه هذا ، الى محاربة الاطباء الدجالين ، مبيناً أكاذيبهم وغشهم . ويذهب شاكر الخوري بعيداً في نصائحه التربوية الطبية فيشرح واجبات الطبيب نحو صنعته ونحو نفسه والطريقة التي عليه أن يمارسها في مهنته مع الأفراد على طبقاتهم ومع المؤسسات ، والاخلاق والمثل التي عليه أن يتحلى بها .

هكذا ، اذاً ، فجمع المسرّات مصدر مهم للتعرف عن كثب على تاريخ التربية في لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وفائدة هذا المؤلف التربوية تتعدى هذا الاطار ليصبح معها الكتاب وكأنه في الأساس موجّه لاعطاء الامثولات والحكم التي يستخلصها شاكر الخوري من تجربته المريرة مع الحياة .

يمجد شاكر الخوري في كتابه الصداقة ويمدح الفضيلة ويقدح بالرذيلة . ويعطي نصائح في كيفية اختيار الاصدقاء . فليس من يبش في وجهنا لحاجة يعتبر صديقاً . فالصاحب الحقيقي من يريد منفعة صديقه ويسعى له بها ويحامي عنه في غيابه كما في حضوره . ويعطي الكاتب نصائحه في العلاقات بين الأفراد وفي حسن اختيار الصديق وفي من ينبغي تجنب صداقته . وفي نظره ينبغي على المرء أن يبقى على مسافة معينة في علاقاته مع الآخرين ، فكثرة الاختلاط بالرفاق تكون سبباً للاختلاف ، وكذلك رفع التكليف بين الاصدقاء غير جائز .

ولشاكر الخوري نقمة على المرائين ، لا تعادلها الا نقمته على رجال الدين ، لسوء تصرفاتهم التي لا تتناسب كلياً مع رسالتهم والطريق التي اختاروها لأنفسهم . وهذه النقمة تشبه الحساسية وهي مرافقة للكاتب منذ طفولته . وهو غالباً ما يثور على الطريقة التي يتبعها رجال الدين لممارسة الدين وشرحه . وقد

قادته حساسيته لهؤلاء الى ما يشبه الكفر الذي لازمه حتى سن الثلاثين. فعندها بدأ يفتكر بالدين ، لا من خلال ما تعلّمه ، بل من خلال استنتاجاته الشخصية الفكرية . وهو يميز جيداً بين الدين ورجال الدين الذين يسيئون اليه بتصرفاتهم الرعناء . ولذلك فهو يوجه النقد لأصحاب الوظائف وللرئاسات وللتربية الدينية ويعطي حلولاً لأصلاح الخطأ في مسلك الرهبان ولمسألة زواج الكهنة .

ويدعو المؤلف الى المعروف ونجدة الملهوف والى الحشمة والى محاربة الذهنية الاجتماعية في نظرتها الى المرأة ، خاصة المرأة العاقر ، والى رفض الاكراه في الحياة والدين والتربية . ويتوقف مرّات عديدة أمام العلاقة مع الرفاق مظهراً الحسد الذي يدّمر العلاقات بينهم ، خصوصاً حسد أبناء القرى لبعضهم البعض .

وللمؤلف مواقف حذرة وجذرية من علاقة الخادم بالمخدوم ومن القمار ومضاره ومن كذب المنجمّين والاطباء المشعوذين ومن العملاء التجاريين .

فالقمار ينسي المدمن عليه : « كل لذة خلافه ... فيترك العلم والأدب والمسامرة وكل لذة عقلية ويصير وحشياً بالكاد يرد السلام ... ففكره دائماً في كدر ، ان ربح خشي من الخسارة وان خسر خاف من الزيادة ... » .

ويقف شاكر الخوري موقفاً صارماً من الخطوبة ، فاذا طالت فان الفساد يظهر بين الحسّاد . فالأحسن الزواج بدون خطبة ، واذا شاء المرء اختيار خطيبته فليختبر بدون خطبة .

أما موقفه من الزواج فهو أن الحب يزول سريعاً بين الرجل والمرأة عند فقدان المال . والزواج من فتاة جميلة وأديبة ولطيفة المعشر ومتعلمة يحمّل صاحبه مسؤولية كبرى اي يلزمه الاعتناء بها ومداراتها أكثر من سواها ، لأنها تصبح كالجوهرة الثمينة . وهو ككل الرجال الشرقيين يدعو المتزوجين حديثاً الى ضرورة ممارسة الرجل هيبته وسلطته على عروسه منذ أول لحظة حتى لا يدفع الثمن لاحقاً . وهو طبعاً يوجه الى عدم الزواج من نساء يكبرن الرجال للحصول على اموالهن وفي الادارة العامة والهيئات الاجتماعية ، لشاكر الخوري موقف عملي يدعو فيه الى ضرورة ممارسة السياسة في ادارة الهيئة الاجتماعية التي لا بدّ لها من رأس ونظام ، وعلى المرء ان يعامل الناس كما يجب ان يعاملوه : « فاذا شئت ان تعرف كيف يرضى عنك من هو أعلى منك فقارن بين ما يرضيك في من هو دونك وسر بموجبه » وبناء عليه ، يشرح لنا شاكر الخوري أيضاً كيفية تعامل الانسان مع من هم أدنى منه مرتبة .

ومن خلال خبرته الشخصية يذهب شاكر الخوري بالنسبة للمال المذهب الذي ذهبه كافة الحكماء فالمال اذا زار كريماً ازداد كرمه واذا زار بخيلاً ازداد بخله ، والمال والحاجة في نظره هما من أسباب اعتبار

الناس بعضهم البعض . وله في مسألة المال نظرية واقعية تستمد جذورها من الاخلاق والمثل المعروفة في المجتمعات الفلاحية الزراعية . ولذلك فهو يشبّه من يدخر مالاً نقدياً بالمسافر في البحر بينما صاحب الأموال غير المنقولة كالمسافر في البر ، فالسفر بالبحر أربح ولكن لو غرق المسافر لذهب مع ماله .

ويلقي ، شاكر الخوري ، الضوء ، ايضاً ، على أسباب البخل والكذب ، وما الى غير ذلك من فوائد تربوية يمكن قراءتها بمتعة في متن الكتاب .

د ـــ فائدة اجتماعية

يصور كتاب مجمع المسرّات حياة وعادات القرية وألعاب الأطفال فيها وحفلاتها وادارتها ومشاكلها وخلافاتها الداخلية والخارجية مع القرى المجاورة وذهنية أفرادها وملابسهم وجمعياتهم وتعارفهم وزواجهم واغانيهم واخلاقهم ومثلهم مركزاً على مشكلة الحسد واستعراض القوة والتباهي وهي علة غالبية القرى اللبنانية ، طبعاً ، نموذج هذه المعطيات الاجتماعية هي بكاسين قرية الكاتب .

ويعطي المؤلف نوادر متعددة تكشف عينات كثيرة من الحياة اليومية . ويشرح اسباب وجود امتيازات للاعيان فيربط ذلك بالشجاعة والكرم والاخلاق والعلم والقوة والعصبة والغنى ، فاذا تلاشت هذه الفضائل تلاشت الامتيازات وفقدت الاعيان حقها بالتقدم على غيرها من الناس . ومن هؤلاء الاعيان يركز ، الكاتب ، على اسرة جنبلاط فيقدم لنا وصفاً دقيقاً لموائدهم ولوسائل الطبخ ونوعه وتقنيته ولخيلهم ولدور حريمهم وللاهيهم .

ويوجه الكاتب النقد للموظفين وللرؤساء منهم خاصة ولعقليتهم ، ويسلط الضوء على تأثير الوسط الأدبي على طبائع ومعيشة الناس ، وينتقد الوساوس والخرافات الاجتماعية والطلاسم والاعتقاد بقراءة الغيب . ويتوغّل شاكر الخوري في المجتمع اللبناني فيصف موقفه من العشاق ويصف العشق وحالاته النفسية ويصور الحياة الزوجية ومشاكلها ، خصوصاً عندما تصبح عرضة للحقد والنكاية .

ويعطينا الكاتب صورة سيئة عن أوضاع المحاكم في عهد المتصرفية وعن المداخلات التي كانت تجري فيها من قبل رجال الدين والنساء . ولا يقتصر كلام الكاتب ، في تصوير الحياة الاجتماعية ، على الريف ، بل يتعدى ذلك الى الحياة المدنية ، فيصف الحياة في بيروت ويعطي وصفاً دقيقاً عن الحياة المترفة التي بدأت تغزوها مع المراقص الخاصة والعمومية ، وعن طريقة ممارسة البروتوكول في عائلات الاعيان والعائلات البورجوازية ، وعن الروايات التمثيلية لنقولا النقاش .

ولا ينسى الكاتب أن يذكّرنا بأنه في حياته السياسية كان يقف الى جانب الحرية والدستور ومعارضة الظلم على اشكاله .

ومجمع المسرّات هو أيضاً مصدر مهم من مصادر التاريخ الاجتماعي للبلدان المجاورة . فهو يصوّر الحياة الاجتماعية في مصر ووضع اللبنانيين فيها ووضع الادارة المصرية عموماً ؛ كما يصوّر افراح المصريين وملاهيهم وذهنيتهم وعاداتهم ومعتقداتهم الخرافية ، كالايمان بالعفاريت مثلاً ، وحالة السياحة في بلادهم . وهو ايضاً يصوّر الحياة الاجتماعية في دمشق فيعطي نماذج من الحياة اليومية ومن أوضاع الاكليروس الماروني في المدينة وأوضاع اليهود وأوضاع العائلات الميسورة وأعيان القبائل والمتدروشين والخدم ؛ كما يصوّر سيطرة عقلية التكفير لأدنى مخاصمة ، والتحزّب والغرض في معاشرة الانسان لأهل بلده .

طبعاً ، ما ذكرنا اعلاه هو جزء بسيط من فائدة الكتاب في تصويره للحياة الاجتماعية ، فالفائدة التربوية والفائدة التاريخية التي سبق ذكرها ، هي ايضاً جزء من فائدة الكتاب الاجتماعية .

هـ — فائدة طبية

يعطينا الكتاب فكرة واضحة عن واقع الطب من جهة وعن واقع الدروس الطبية من جهة اخرى . أكثر من ذلك ، فالكتاب يحتوي على العديد من الدروس الطبية ، وقد ذكرت في باب الفائدة التربوية ، والدروس في تركيب الادوية وطرق المعالجة . ويلقي الكتاب اضواء على اخطاء بعض المعالجات التي كانت معتمدة في زمانه ؛ وهو يصف كل الحالات المستهجنة التي كانت تعترضه في مهنته ، كما يصف الحالات التي كان يمر بها مرضاه . ولادخال مبادئه الطبية في ذهن القارىء ، كثيراً ما كان يحمل اليه تجاربه بقالب النكتة الظريفة .

وكطبيب مسؤول ، كثيراً ما يعقد شاكر الخوري العديد من الأبحاث التي تخرج عن اطار رواياته لتاريخ حياته فيشرح مضار بعض العادات السيئة كالتدخين واستعمال الكحل وما الى غير ذلك .

و — فائدة نقدية

مجمع المسرّات ، هو ، في الاساس ، رواية لحياة المؤلف ولتجاربه في الحياة ، ونقد عاقل لها . ولذلك ، فشاكر الخوري يعتمد في النقد وسيلتين ناجعتين : الأولى وسيلة غير مباشرة ، عبر نكاته الظريفة التي تترك أثراً في النفس لا يمحى ؛ والثانية مباشرة ، بتحليله للمشاكل وتعليلها وتبيان مساوئها . وهو في

الوسيلتين انسان ظريف متندر . هكذا سمع عنه الناس ، ولكن ، نادراً ما يتبادر الى اذهانهم ، أن ذلك الظرف كان يخفي نقداً لاذعاً وتصويراً مريراً وقاسياً لواقع الحياة الذي لم يكن شاكر الخوري راضياً عنه . ولقد أحسن الكاتب في اسناد أفكاره الى النكات الشخصية أو تلك المستمدة من عيون كتب الأدب . فالمخاطبة بالتشبيه وبالصور كانت دائماً الوسيلة الفضلى في شرح أفكار كتب الدين وكتب الحكمة .

وأكثر ما يوجّه اليه شاكر الخوري نقده ، والذي قد جرى ذكره في الصفحات السابقة ، هو الآتي : الصيارفة ، الشعراء ، الفلاسفة ، رجال الدين ، رجال اللاهوت ، اللغويون ، أصحاب الوظائف .

وفي الكتاب نقمة خاصة على رجال الدين والقضاة . ويظهر أن شاكر الخوري كان رفضياً بحيث انه يسخر من نفسه بالذات : فهو ينتقد مولده الذي لم يكن له فيه حيلة أو يد ، كما ينتقد معموديته لأنها جرت خارجاً عن ارادته ، وهو لا فضل له في اختيار دينه ووطنه وحمل اسمه وتعلّمه لغة والديه . وتعلّمه السريانية رغماً عنه . وبصورة عامة ينتقد شاكر الخوري كل ما يخرج عن المألوف ، في ممارسة الدين وفي ممارسة الكهنوت وفي التعلّق بالشعوذات وفي التفلسف على الكون وفي ممارسة الادارة والوظائف والمهن .

هذه النقمة ، صاغها الكاتب بشكل نوادر ونكات غنية بالمعاني نابضة بالظرف ، وهي تشهد لقيمة الكتاب ، لأنها لا تعبّر عن شخصيات اصحابها بالنسبة لزمن المؤلف ، بل تصوّر شخصيات وحالات اجتماعية نجدها في كل زمان ومكان ، ومن هنا سرّ استمرارية تناقل نوادر شاكر الخوري بالرغم من مرور الزمن عليها ،

وختاماً ، كان شاكر الخوري ثائراً على التقاليد البالية والذهنية التقليدية والتعصّب الاعمى وعدم ممارسة الافراد لواجباتهم المدنية والخلقية ؛ وكان يستوحي ، كل ذلك ، من عقلانيته الواقعية ومن ايمانه بالحرية العاقلة المقيّدة بالأنظمة والقوانين . وهو في آخر صفحات كتابه يحيّي الحرية بشرح لها ، وكأني به يوصي بها كوصية اخيرة له في عالم مشرقي كان ولا يزال يفتقد اليها كثيراً .

هكذا كان شاكر الخوري طبيباً للنفس وللجسد ، يداوي الناس بظرفه وبنكاته التي تسرّ الفؤاد بالرغم من مرارة الواقع الاجتماعي الذي تمثله .

بيروت ١٩٨٥/٤/٥

د . الياس القطّار

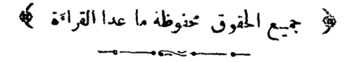


تأليف

الدكتور

شاكر بك الخوري

استاذ الاكلينيك الرمدي والجراحة الصغرى في المدرسة الطبية
الافرنسية في بيروت سابقاً . وطبيب اول لمستوصف راهبات المحبة في بيروت .
وعضو في الاليانس الفرنساوي سابقاً . وطبيب سكة الحديد من بيروت الى حوران
وبرجيك سابقاً . ورمدي جملة مدارس . مؤلف تحفة الراغب في صحة المتزوج
وزواج العازب . وكتاب نايب الطبيب . وكتاب صحة العين .
وجملة نشرات علمية . حامل النيشان المجيدي الرابع
والعثماني الثالث . ونخلة الاكادمي الفرنساوية
ونيشان مجلس المعارف الفرنساوي
الخ . الخ .



طبع في مطبعة الاجتهاد * يوسف غنام ثابت * بيروت
١٩٠٨

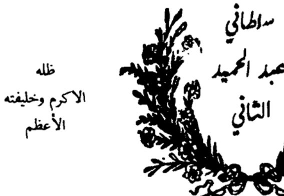


لا بدّ من وبختهِ   لقباحةٍ يُبدي الغضب
او من مدحتُ قريبهُ   بزيادةٍ عنهُ انورب
مهما فعلتُ فانني   ما بين قومي في عتب
لي ابنوة بمسيحنا   فأقام ميتاً وانصلب

الدكتور
شاكر بك الخوري



بعد
حمد مَن براني
أحمد



ظله
الاكرم وخليفته
الأعظم

ولد جلالته في ١٦ شعبان والهلال بدر

﴿ لعثمان الهلال غـــــــدا شعـــــــاراً   شعـــــارٌ يرفـــــع الانسان قـــدرا ﴾
﴿ ومـــذ عبـــد الحميـــد انـــار ارضاً   وشاهــــــدهُ الهلالُ فصار بـــــدرا ﴾

اليكم برهاني كيف كانت المملكة هلالاً واصبحت بدراً موضحاً التقدم الذي اتصلت اليه المملكة العثمانية في عهده وكيف رقيت الامة سلم العلوم والمعارف وكيف ازدادت المدارس والجوامع والكنائس عدداً وكيف عم الامن المملكة فترى الراحة مستتبة في كل انحائها عكس ما كانت عليه قديماً من الاضطراب بين الاهالي .

واهم معجزة لسلطاننا المعظم هي السكة الحجازية والسكك الحديدية الاخرى التي عمت المملكة ر وقبل تبوءه العرش لم يكن خط حديد في كل انحاء السلطنة واذا اردت تعداد اعماله العجيبة لاقتضتني مجلداً بقدر تأليفي هذا ولا ابالغ اذا قلت ان كل دقيقة من حياته له فيها عمل صالح لنهوض المملكة العثمانية وعلى ذكر العثمانية اقول .

كل مملكة من الممالك تحمل اسم بلادها فتنسب اليها كفرنسا وانكلترا والصين واليابان الا مملكتنا العثمانية فانها تنسب الى عثمان جد هذه العائلة وذلك لاعتباره فاتح البلاد ومالكها. والقابض على زمام

الحكم فيها وما من يدٍ بيضاء تذكر في فتحها الا له ولاسرته ولما كان هذا الفتح غير محصور في مملكة واحدة لتدعى باسمها بل عم ممالك كثيرة تحتم ان يطلق عليها اسم العثمانية اقراراً بجميل الفاتح وجمعاً لشتات امها المختلفة الاجناس والاسماء. والمملكة العثمانية مؤلفة من ممالك الفينيقيين والمصريين والكلدانيين والاشوريين والعرب وممالك اسيا الصغرى والبزنطيين الخ ... وكلها تنتهي الى عثمان جد هذه الاسرة المالكة ومن هنا نعرف ونتأكد اننا نحن العثمانيون نسمى باسم الاسرة المالكة ورعايا السلطان والخليفة الاعظم.

الخلافة العظمى

أولاً: اذا اعتقدنا ان كل من موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام هم انبياء الله وانهم اتوا وماتوا ودفنوا في المملكة العثمانية وان قبورهم مكرمة ومحافظاً عليها فيكون السلطان العثماني هو ذلك المحافظ والموكل من قبل الباري عليها فوكيله خليفته.

ثانياً: عدا عن قبور هؤلاء الانبياء العظام ترى قبور جميع الانبياء من كل ملة ودين فقبر آدم ونوح واولادهما وقبور جميع انبياء بني اسرائيل والصحابة والخلفاء والسلاطين العظام في مملكته وهو المحافظ عليها بعين لا تنام وطرف سهر على راحة رعاياه.

ثالثاً: نرى كل اصحاب المذاهب وروسائها الاحياء كبطاركة واساقفة ومشايخ طرق وحاخامات وغيرهم من زعماء المذاهب والامم التي لا توجد الا في مملكته هم جميعاً من رعاياه وهو يحافظ على رئاستهم وحقوقهم ومهما اختلفوا في اعتقاداتهم الدينية بحيث يحكم الواحد منهم بهلاك الكل والكل يحكم بهلاكه فهم يجتمعون على الاعتقاد بصحة طاعتهم وخضوعهم لسلطاننا الاعظم. أو ليس هذا من فضل الله.

رابعاً: اذا اعتقدنا حسب التوراة ان الانهر الاربعة سيحون وجيحون والدجلة والفرات خارجة من الفردوس الأرضي فتكون مملكة سلطاننا هي الفردوس فمن اعتناء الباري تعالى في هذه المملكة نرى انه اعطاها لخليفته لانها وطن انبياءه واذا لم تكن مولد الكل فالكل زاروها واتوا اليها ولم يسموا انبياء الا بعد زيارتهم لها وهذه الارض هي التي عرف فيها البشر الخير من الشر وفيها انشئت القراءة والكتابة وسفر البحار والتجارة ولبس الارجوان وعمل الزجاج وهي اساس كل تمدن والارض التي تفيض لبناً وعسلاً مثال الجنة وهي ارض بيسان التي فتحتها الان سكة الحجاز بهمة سلطاننا المعظم فكل من يؤمن بهؤلاء الانبياء يلزم ان يقول معي هذه الجملة التركية التي لا اعرف غيرها من هذه اللغة وهي :

« بادشاهم جوق ياشا »

وعندما افتكرت ان اجمع الحوادث التي مضت لا فرق بين حالتينا القديمة والحالية كنت قد دست الدرجة الستين من سلم الحياة واصبحت من عداد الراحلين فالتفت الى الوراء لارى ما لاقيت في هذه السنين واذا انا بهاوية عظيمة وتذكارات اليمة تذكرني ما قاسيت فهالني ما رأيت فرسمت امامي خريطة ايامي ونظرت تلك المدارس التي دخلتها وتلك العلوم التي تعلمتها وكم صبرت على جور معلم واستاذ وكم جبال صعدتها وكم اكلة اكلتها وكم تعب تعبته حيناً جلبتها وكم من ملقٍ عاشرتها ومن عادات تعودتها وكم جالست المؤمن والكافر والمقيم والمسافر والثقيل واللطيف والمرتكب والعفيف وامرَّ من كل هذا ان اقول للمرتكب عفيف وللوسخ نظيف وكم قطعت براً وخضت بحراً وكم من يد قبلتها وهي اولى بالقطع وكم من خد لثمته وهو اولى بالصفع وكم وكم قضيت في حياة ماضيها اجل وحاضرها عمل ومستقبلها امل فلو عرض عليّ الباري بان يخلقني ثانية ويعيد عليَّ كلما قضيته فوحقه لا اقبل وان قبلت يحرق ...

وقد راجعت كل هذه السنين وليس معي مفكرة غير ذاكرتي فكنت اسرد كل سنة من سني حياتي مبتدئاً من الثالثة واعيد على ذاكرتي كلما سمعت وقلت وعملت ونظمت وهكذا حتى تجمع لديَّ هذا الكتاب وحذراً من ضياع هذه الافكار كنت احررها بكل سرعة غير مراعٍ اللغة والقواعد الشعرية متكلاً على اصلاحها فيما بعد وقد تعبت جداً في تنظيمها مراعياً فيها موافقة السياسة والدين والاداب فكنت اكتب وامحي واحذف واراجع مرات كثيرة حتى يرتاح فكري الى نشرها ولم آخذ موادها من نسق قديم كتأليف قاموس أو قواعد نحوية أو حسابية بل خلقتها من فكري الخاص ولا اظن التاريخ يذكر رجلاً واحداً مرت عليه جميع هذه النكت وخلق كل هذه المعاني مع اشغاله في الطب وعمله ومداواة المرضى وتربية الاولاد وادارة الاملاك ورد العداة ومزاحمة المعاشات الخ ... ولما كان طبع هذا الكتاب في مصر وكلت الى من يدعي معرفة اللغة والشعر مناظرته فلم يأتِ بالمقصود وقد عرفت ذلك سلفاً ولذلك عملت هذه المقدمة لهُ وهي :

مقدمة المؤلف

لست مقدماً كتابي هذا الى صرفيّ تشغله العلة والنقص . ولا الى شاعرٍ يلذ له الزحاف والوقص . ولا الى منطقيّ تضيعه الكبرى والصغرى . ولا الى فيلسوف وهناك الداهية الكبرى . ولا الى لاهوتي يقسمه الى مميتة وعرضية . ولا الى لغويّ لم يسمح له سيبويه بانها عربية . ولست مادحاً قسيساً لانال البركة . ولا سياسياً ليكف عني الحركة . ولست متعرضاً لاية سياسة كانت دينية أو مدنية لانني لست ممن يفحص كلف الشمس بالعين العارية ويعرّض نفسه للعمى بلا فائدة . لكنني اعتبر كل من يعتبر

وادفع ما لقيصر لقيصر واكرم كل من علا وكل من على مذبح استوى . فالصورة عند مصورها يرميها في الارض ومتى علت يقدم لها الفرض . والهيئة الاجتماعية تخفض وترفع وكل عاقل الى اوامرها يخضع .

فما كتابي هذا الاّ قصة ما رأيت وما روي لي وما اجريت وما جرى لي . فهو صورتي الادبية يافعاً وصغيراً وشاباً وكبيراً مشيت بالطريق حسب الرفيق ادفع له نفس العملة واحمل عنه نفس الحملة كريم مع الكريم . بخيل مع البخيل . كتبته بلغة ليست محتاجة للفيروزبادي ولا قصدت فيه مدح الصديق ولا طعن الاعادي بل مدحت الفضيلة وقدحت بالرذيلة بقطع النظر عن الفاعل لانه زائل . ولا قصدت به الفلسفة والفصاحة بل كتبت ما كانت اليه النفس مرتاحة . ولا طمعت بنيل الشهرة عند العموم لان شهرتي متعلقة بالقارئ فهو الذي يجعلني عالماً جاهلاً منصفاً ظالماً حسبما تطابق افكاره افكاري أو كان بحالة توافق أو تضاد اشعاري . ولست بطامع ان ينال القبول عند العموم فمن الان اقسم قارئيه الى اربعة اقسام الى صديق يطرب والى مصاب يضطرب والى عدو ينقهر والى حسود ينفزر والكل لهُ يعتبر .

وقد حذوت به حذو الكتاب المقدس الذي يذكر عيوب الشخص وفضائله وهذا دليل على صدق قائله خالٍ من الغش والتمليق ولا آخذ بالوجوه والتفريق . لأن ذكر العيوب ليس بعيب لكن استحسانها هو العيب . فلا شك ان من يستحسن العيوب لا يستحسن كتابي ولا كتابي يرضيه وأنا لست اليه مهديه ومهما كان لا بد له من شاكر والى هذا الشاكر

يهديه شاكر

وأخيراً وجدت من أهدي له كتابي وذلك بدون اختيار مني فهذه قصته عندما توجهت الى الاسكندرية قابلت الخواجه أمين كرم وأخبرته عن مشروعي بمجمع المسرات ورأى في الدفتر الذي بيدي اسماء المشتركين فأخذه وكتب فيه مصروف طبع الكتاب عَلَيَّ (أمين كرم) فافتكرت انه موهوم بكمية الكلفة فأجبته سيدي ان طبع هذا الكتاب يكلف نحو مايتين جنيه ربما تكون موهوم فأجاب بكل بشاشة ولم يتعكر وجهه ولا فرك حاجبيه (واذا كان) فعند ذلك حرر لي التحرير الآتي :

جناب الدكتور شاكر بك الخوري

الرجاء أن تعتمدوا في طبع كتابكم مجمع المسرات عليَّ مهما كلف دوموا لأخيكم بالوطنية

امين كرم

فعند ذلك رجوته أن يقبل مني هدية الكتاب فأهديته له ثم حرر الى المطبعة ان تسحب على محله جميع المصاريف التي اصادق عليها فصادقت على ثمانين جنيه الى صاحب المطبعة طانيوس عبدو في

الاسكندرية بعد عمل كونتراتو بيننا قبضها وبعد ذلك اختلف مع شريكه في المطبعة وانتهت المسألة على ان الخواجه امين سامحه فيها تركت الطبع عنده وفي هذه المدة خسر الخواجه أمين خسائر عظيمة لكنه أصلح كل شيء وبقي شرفه محفوظاً وكل ذلك بسبب عملية الجبسين وعندما بلغني ذلك قلت :

لقـــــد خسر الأمين كنــوز مــــالٍ	ولا بـــــد لــــــه من ذي الخسارة
اذا ابقي لــــــــــه الجبسين غرشاً	فجــود امينــــــا لم يبـقِ بـــاره
كريم بـــالخسائـر كـــالعطـــايـــا	وفي الحالــين مـرفــوع المنــــــاره

ولم أزل للآن أهديه كتابي ومجمع مسرّاتي .

عائلة كرم

أصل هذه العائلة من طرابلوس الشام ولد جدها يعقوب ثلاثة أولاد سمعان وجرجي ووهبي وأول من حضر الى الاسكندرية وفتح محل تجاري هو المرحوم سمعان ثم تبعه الخواجه جرجي وسنة ١٨٥٦ حضر اليها الخواجه وهبي والد الخواجه أمين .

وهبي كرم

ولد في طرابلوس الشام ١٨٤٣ حضر الى الاسكندرية لمحلهم التجاري بالخشب المسمى سمعان كرم وشركاه سنة ١٨٥٦ وسنة ١٩٠٤ تحول هذا المحل الى شركة اسمها الشركة العقارية التجارية المصرية ذات أسهم . تزوج الخواجه وهبي سنة ١٨٦٩ بالسيدة سيدة ابنة المرحوم الياس زحلوط توفيت بعد ١٣ سنة من زواجها ولد سبع بنين لم يبقَ منهم ذكور سوى أمين وابنتين السيدتين نبيهة ولبيبة اللتان جعلتا صهرين للعائلة من أعظم الأصهرة فيليب بك فرعون التاجر الشهير والخواجه خلاط صاحب الادارة العظيمة .
ومن تأمل في صورة الخواجه وهبي كرم يرى رسم الكرم .

الخواجه أمين كرم

الذي ولد سنة ١٨٧٢ تعلم في مدرسة الياسوعيين في بيروت ودرس الحقوق في باريز فكان نتيجة علم الحقوق ان بكرمه يهب جميع حقوقه فأصبح بغناء عن هذا العلم .

وقد عرفت في بيروت الخواجه يعقوب كرم ابن المرحوم سمعان فهو كباقي العائلة بالكرم والانسانية ولم أنل الشرف بمقابلة الخواجه جرجي الذي لا شك فيه ان له أوصاف الباقين .

« المطبعة الجديدة »

قد افتكرت أن أطبعه بقطع أصغر وبالحرف الأول لسهولة القراءة فتصورت أن يكون ضخماً واعوذ بالله من الضخم ولكن الذي تجنبته من الكتاب وقعت به في المطبعة وقد وجدت اني سقطت على رجل آخر لا يلتفت الى الأغلاط الطبعية فكنت أسكت عنها أملاً ان القارئ يقدر أنها ليست من المؤلف وبقيت على ذلك الى ان وصلتني الصفحة **٣٩٢** سطر **٢٣** التي تقول (دخلت الحبس عوض دخلت المجلس) فالتزمت أن أشير اليها هنا وفي كراس آخر وجدته مسقطاً الواو من شاكر الخوري فجننت وأرسلت حالاً أن يغير الكراس كي لا يظن اني شاكره .

وجودي في هذا العالم

اتيت من عالم لا اعرفه ودخلت اخر لست ادركه ونزلت من هذا العالم الجديد في قرية تدعى بكاسين من اقليم جزين من لبنان بسوريا الواقعة في قارة اسيا وهي من القسم الشرقي الشمالي للكرة الارضية وذلك دون مشورتي وعلمي واحساسي وارادتي وقد أخبرتني فيما بعد والدتي (والذي عرفني بها حليبها) انني اتيت الى الارض يوم الاحد صباحاً في الساعة الواحدة حساباً عربياً في ٢٥ تموز سنة ١٨٤٧ حساباً غربياً واخبرتني انها سرّت جداً لولادتي اذ كان قد مرّ عليها سبع سنوات لم ترزق ولداً وكنت اول ذكراتاها فانتني عنها عار العقم الذي كانت النساءُ تعير به حسب اصطلاح الشرقيات غير انها لم تسألني رأيي بولادتي على الارض وهل شاركتها بسرورها ام قد اثرّ عليّ تأثيراً آخر لانني انما استقبلتها بالصراخ والبكاء والجوع فارضعتني ثديها فرضعت حليبها وبلعت وهضمت ونمت ثم قمت من دون ان يعلمني احد ذلك ولم ازل للان اعمل هذه الاعمال ورغماً عن معارفي وعلومي وفلسفتي ودراهمي واملاكي لم استطع تغيير أو تنويع ما عملته في اول دقيقة من وجودي في هذه الدنيا وبالعكس كانت الحالة حينئذ اسهل عليّ مما هي الان لان والدتي كانت تأتيني بالغذاء وانا لا همّ لي اما الان فانني مضطر للسعي ورآءه والتعب للحصول عليه .

لعن الله لـــــــــذّةً لاذانـــــــا	تـــــــالها الامهـــــات والابـــــاءُ
نحن لولا الوجود لم نـــــــــــألم	الفقـــد فـــاتجادنـــا علينـــا بلاءُ

فينتج مما تقدم ان وجودي على الارض واتخاذي وطناً في بقعة منها ووالدين انما كان دون علمي ولا مشورتي ولست مسؤولا عنها عدلاً وكذلك من وضعي في هذا العالم كان آلة لذلك لان قواه العقلية الخصوصية تقصر عن هكذا صنع فاذا كان بعض الاباء يدعى انه هو خلق ولده وركب له المعدة والدماغ الى اخره فليشف لهُ هذه الاعضاء اذا مرضت ويبدلها بغيرها اذا تلفت ويستدل من ذلك ان قوة عظيمة غير منظورة اجبرت والدي لا يجادي في هذا العالم ففعل خاضعاً لها وممتثلاً لامرها وقوتها .

فلا جدال مع القوي

فمثلنا في هذه الدنيا مثل رجل حكم عليه بالسجن مدة معلومة فهو في معتقله لا يستطيع الخروج منه وكل عقله هو ان يخترع ملاعباً تلهيه عن التامل بحالة عذابه حتى تمرّ عليه المدة المحكوم بها فيخرج من سجنه بسلام فالدنيا وما عليها من الاشغال ليس هو الا لينسى الانسان سجنه فيها ويتسلى بما راه لانه رغماً عن كل اختراعاته ومعارفه وفلسفته لم يستطع ان يقدم أو يؤخر قدر ذرة في النواميس الطبيعية المخلوقة فيه وفي الكون ...

قضى على احد الوزراء بالحبس مدة خمس سنوات وكان حبسه معتماً لا يرى النور وعندما دخله في هذه الحالة وجد لا شيء يشغله ان كان للكتابة أو للقراءة أو خلاف اشياء نظراً لظلمة المحل فطلب علبة من الدبابيس وصار يبذرها في أرض الحبس ويرجع يجمعها على الظلمة بالتفتيش عليها وعندما يجمعها يرجع يبذرها وهكذا حتى مضت الخمس سنوات وهكذا كل اشغالنا بذر دبابيس وجمعها ...

فالفلسفة والامل ، خلقا لتهوين المصيبة فلذلك كلما كان الانسان متضايقاً اكثر كلما كثر اماله ، ويقول المثل : حلم الجوعان خبز ويقلّ الامل عند قلة المصايب فالفقير كثير الامال والغني بالعكس وهكذا ...

واما الفلسفة على حسب فكري ما هي الاّ جعل المصيبة هينة والراحة من طلب امر لا يقدر على نواله فاول فيلسوف عندي واعظم من افلطون ورفاقه هو ذاك الثعلب الذي عندما عجز عن نوال العنب الشهي ، قال انه حصرم لا يأكل وتركه . وكذلك اول فيلسوفة بين الاناس تلك البغلة التي كانوا يكرمونها في صباها عندما كانت تلبس الحلل الفاخرة ويركبها الامير وكانت تقول في فكرها انه يليق لي هذا الاكرام لان الحصان خالي وعندما شاخت ووضعوها على الناعورة تزتع [1] بأن الحمار والدها وهذا شغله .

فالفيلسوف الحقيقي من يهون مصيبته ويجد سبباً لاحتمالها واما من يتفلسف على الخالق والخليقة فلا اسميه فيلسوفاً لانه يتعب خاله ويتعب افكار سامعه ويرى مضاددة له من كل جانب فيفعل عكس غاية الفلسفة ويقسم الناس .

فاذا سالت هذا الفيلسوف الاخير هذه المسألة وهي هل الباري تعالى يقاص أو يكافي الانسان عند وجوده في هذا العالم أو بعد خروجه منه لانه يكون عمل ما يستحق القصاص أو المكافات فما هو فضل ذاك الولد الذي يخلق ابن ملك أو ابن غني في بلاد متمدنة مرتاحة مخصبة ذات مياه عذبة وما هو ذنب الاخر الذي يولد ابن عتال أو فلاح ينقهر ويظلم في ارض قحطة ظمأنة .

فيجيب على ذلك اذا كان من الصين ويعتقد بالتقنيص ان هذا كان في دور ماضي شقياً وتقاص في هذا الدور وذاك كان صالحا وتكافي واذا ما كان من هذا المذهب يقول ان نيته أو نية والديه اوجبا هذا العمل فاذا افترضنا هذا في الانسان فنرى ان هذه المسألة تحدث للحيوان ايضاً فالحمار الذي يقع بيد حجار ويحمل الاحجار فهو خلاف الذي يقع في اسطبل امير أو مطران يُخدم ولا يخدم فاين نية والديه وكذلك اذا شئت تبليط بيتك تقع بلاطة على الشباك تنظفها كل ساعة واخرى تقع في الكنيف ومعاملتها حسب

(١) هكذا في الأصل .

نظافتك واذا اشتريت جوخاً لعمل طقم تقع قطعة منه على كتفك تنتظفها كلما تغيرت واخرى على قعدتك تهملها وتتلف عاجلاً من بجاويني .

فالفيلسوف الحقيقي يقول مالي ولهذه المسألة وتعب فكري بها وما هي المنفعة من معرفتها للعالم لكي يتعب الانسان في التفتيش عليها وياليت بعد ذلك تعرف الحقيقة فيجب لا اعرف شيئاً وهذا احسن فيلسوف واما الاخر يبتدي بالعلة والاسباب وينتهي ان لا يفهمك شيئاً .

حاصله حتى لا نعمل مثل الفيلسوف الاخير نرجع الى موضوعنا وهو ان بعد ولادتي واعطاني سجناً على هذه الارض سلمني خالقي الى سجاني وهما والديّ وابتدا يعملان معي كلما عمل معها وهو ما يأتي .

اولاً : (اعطائي دينهما) بعد عشرين يوماً من ولادتي احتفل والديّ يوسف الخوري ووالدتي نور ابنة ناصيف الجزيني باقامة حفلة شائقة دعيا اليها كثيرا من الاهل والمعارف وجعلا تلك الحفلة تيمنا بتليقني دينهما واعتقادهما وحيث انهما مسيحيا من الطائفة المارونية فقد دعيا حسب العادة كاهناً منها كان يومئذ رئيساً عاماً للرهبنة اللبنانية وهو القس ارسانيوس النيحاوي احد اقاربنا لكي يعطيني دين والديّ واحضرا شخصين رجلا وامرأة فالرجل يدعى منصور افندي المعوشي من جزين والامرأة تسمى اسما حرمة جبر أبو عتمه من مشموشه وهما المدعوان عرابين أي وكيلين عني بقبول دين والدي وتلاوة قانون ايمانهما وموافقة الكاهن على الكفر بالشيطان كل ذلك جرى بغير معرفتي بالدين الجديد ولا بالشيطان ولا بوالدي ولا بالكاهن الذي نصرني ولا بوكيلي وهذا الاحتفال يسمى بالمعمودية أو التنصر ولا فضل لي اذا كان دينهما صحيحاً ولا ذنب لي ان كان كفراً .

ثانيا : (اعطاءي اسماً) بعد التنصر اوجدا لي اسمين احدهما يوافق اسم احد القديسين ويسمونه اسم المعمودية فدعوني لويساً وبقيت معروفاً بهذا الاسم حتى سأل سعيد بك جنبلاط والدي الذي كان موظفاً عنده ككاتم سرّه عن اسمي فقال لهُ انه قد دعاني لويس اجابهُ سعيد بك ان هذا الاسم لا يوافق وصار يناديه يا ابا بيس بيس بيس لان العادة المتبعة ان يسمو الرجل باسم ابنه البكر ويترك اسمه الاصلي وناداني سعيد بك باسم شاكر وصار يدعو والدي ابا شاكر فعرفتُ بهذا الاسم واطلق عليّ وبقي لي لويس اسم المعمودية فكانت هذه الاجتماعات والاراء بغير علمي ومعرفتي أُعطيت اسماً بلا مشورتي . ولو انهم عرفوني الان فبدون شك لم يدعونني شاكراً .

ثالثاً : (تعلمي لغة والدي) كانت لغة والديّ اللغة العربية فتعلمتها أولاً وذلك دون مشورتي ايضاً .

رابعاً : (معرفتي بوالديّ) لما ابتدأت بفهم كلام والديّ اخذا يعرفاني بمن حولي واول من عرفتُ

والدتي واول كلمة نقطتها كلمة أبي وامي وهلمّ جرا فمثلي مثل رجل دخل بلاداً غريبة وصار يتعرف باهاليها والمعرّف لي كانت والدتي فلو عرفتني وقتئذ بغير الحقيقة لصدقتها فهي المسؤولة بذلك .

خامساً : (تعليمي القراءة) عندما ابتدأت اتذكر ما فعلته بالامس وما جرى لي فقد عرفوني ان هذه الخاصة تسمى ذاكرة وانني اتذكر ما جرى امامي من حين كان عمري ثلاث سنوات فانني اتذكر اني رايت ميتاً فهالني منظره والذي يبقى في مخيلة الانسان هو ما يؤثر عليه والذاكرة هي نقمة على الانسان فاذا تذكر الماضي وكان حسناً فيتاسف عليه ويتكدر لفواته وان كان عاطلاً تؤلمه تلك الذكرى كانه كان حاضراً كتذكره عزيز فقده وهلمّ جرًا فالذاكرة هي نقمة للانسان والسعيد من يستطيع نسيان امور لا يمكنه ارجاعها ولكنها هي معلمة الانسان لولاها لبقي كما خلق .

ولما راى والدي تولد ذاكرتي ارسلاني الى معلم القرية لا تعلم منه القراءة والكتابة بلغتها .

وكان خادم منزلنا يحملني على ظهره الى بيت المعلم غير اني لما كنت اشعر بذهابي اليه ابتدئ بالبكاء والصراخ وكنت افضل أعظم عذاب على القراءة والكتابة واتمنى الفلاحة وحمل الاحجار وشغل الفاعل من ان اتعلم .

فينتج من ذلك ان ما تلقيته من القراءة والعلوم اذ ذاك كان رغما عني فاول ما علموني قراءة اللغة السريانية والسبب هو ان جدّي كان كاهناً وهو وكيل مطران الابرشية وقد كان قبل ذلك وكيل البطريرك وبحسب قانون المجمع اللبناني كان تعليم اللغة السريانية الزامياً اولاً لاجل اداء الفروض الدينية فتعلمتها حسب ارادة جدي فيكون علمي ونوعه ليسا من ارادتي ومشورتي ومنفعتي لان لغة ميتة كالسريانية لا تنفعني ما لم اكن مستعداً لاكون كاهناً ويا ليتني عملته ولكنني لو خلقت مرة ثانية لا بد ان اعمله بشرط اتبع قوانينه لان فيها الراحة ومتى خرج عنها يتعب حاله ويهلك من معه .

سادساً : (اكتسابي اخلاق وعوايد بلادي) ان العوايد التي اكتسبتها والاخلاق التي تخلقت بها هي من معلمي واهلي وبلادي فكنت اطيع طبعاً والديّ ومعلمي ومن رباني واتقلد عوائد بلادي في الكساء والاحتياجات والاكل وما اشبه فاكون قد اتخذتها رغماً عني فلو خلقت عند البدو لكنت افتخر في السلب والنهب الذي هو عيب عند الحضر ولكن وجدت بين اناس عالمين الحلال من الحرام اختصاره كلما تعطيه من مالك وراحتك واسعافك وعلمك الى جارك بارادتك بدون عوض مادي فهو فضل وتسمى صاحب الفضيلة واما كلما تاخذه من ماله قهراً عنه وتسلب راحته وتضره فهي رزيلة وتسمى اذا عملتها رزيلاً وجعلوا للفضيل مكافات ولولاها لما يفعل الفضل لان الفضل يكلف وكله خسارة وجعلوا للرزيل قصاصاً ولولاه لاكثر من عمله لان الرزيلة ملذة للشخص الفرد لكن مضرة بالعموم ليعلم الاباء ان أولادهم الة بديهم وهم المؤثرون على اخلاقهم وعلومهم وعوائدهم وليس الولد مسؤولاً بشيء منها اذ يتخلق باخلاقهم

واخلاق معلميه وجيرانه وهلمَّ جرًا وكما انه ان عاش في منطقة باردة أو حارة أو معتدلة يعتاد على مناخها كذلك يعود عقله على ما يراه واول مسؤول بذلك هي الام لانها تستعبد الولد بحليبها وهي التي تعرفه بالجميع واول ما تعرفه به هو والده فان لم تعرفه به يشب وهو يجهله كذلك لو انكرت الولد لابيه فانه يطرده والعكس بالعكس فالام اذاً هي كل شيء والولد يعاشرها اكثر من سواها ويتعلم منها اكثر من الجميع فالمسؤولية عليها عظيمة .

(النتيجة) ان ولادتي في هذا العالم واتخاذي وطني وديني واسمي ولغتي وتعليمي كان دون علمي ومشورتي ولست مسؤولا به عدلاً والعجب ان هذه الاشياء مع كوني تلقنتها بلا علم ولا مشورة اصبحت كل شغلي وعملي وعليها وحدها احافظ .

اتيتُ الى العالم رغماً عني فصرت لا اتركه الاّ رغماً عني والوطن والوالدين والدين والاسم واللغة والعوائد فعليها أحافظ وبها اتعلق وما ذلك الا لانغراس هذه المبادئ فيَّ وتعودي عليها وابقائها في ذاكرتي فاجد ان كل نفعي ولذتي بها وافتخر فيها عندما اذكر والدي وعائلتي وبلدي واجادل انهم احسن ما يكون كما اقول عن بكاسين لان اراني اتذكر كل قطعة من ارض بلدي وكيف مررت بها واشتغلت فيها وقابلت اهلي ورفاقي اتذكر تلك الشجرة وكم ظللتني من هجير الشمس واطعمتني من فاكهتها وكم مرة تسلقتها وكيف كانت قوتي حينئذ . اتذكر ذلك الماء وكم روّى غليلي واطفأ ظمإي . اتذكر ذلك الجبل وكم مرة صعدت اليه . اتذكر تلك الوديان وكم مرة مررت بها والتقيت فيها بقريب أو حبيب .

فكل هذه التذكارات تربطني بتلك الاماكن وهي خير التذكارات عندي أُفضل ذلك المسكن على اعظم مسكن في الدنيا ولو كان اصغر مكان واتمسك بذاك الدين الذي ربيت عليه ولو ما فهمت منه شيئاً وكم من مرة سمعت الصلاة والابتهالات للخالق في تلك اللغة التي تعملتها صغيراً وقهراً عما سمعت مدة مدرستي دومنيس فوبيسكوم Dominus Vobiscum فانه يحلو لي سمع قديشات ولو كانت هذه اثقل من تلك فترى الانسان يفدي حياته للمحافظة على دينه وما ذلك الاّ من تعوده عليه .

وهكذا قل في كل ما ذكرناه فيستنتج ان التربية والعادة هما كل شيء وان الانسان ابن تربيته لذلك تراهُ يحافظ على وطنه ودينه والعوائد التي نشأ عليها لذلك من الضرورة وضع الولد وهو صغير في محل يوافق الاداب والراحة والحقائق ولا تعوده على الخرافات والاعتقادات الباطلة لانها تبقى في دماغه طول عمره فيتعب منها وان كان يزيلها في المستقبل فكم يلزم له من العلوم والمعارف والتعب حتى تزول فاذا اعتقد بصراخ البومة انها فأل فكم يهتز بدنه ويتكدر عندما يسمع صراخها وكنت اداوي بعض اولاد الذوات في الجبل ففي احد الليالي اتاني والده مرتعباً ايقظني من نومي يسألني اذا كان ولده مخطراً لانه سمع صراخ بومة عظيمة انظر ما فعل معه هذا الاعتقاد وقس على ذلك الغول وخلافه وندرك هذه الحقيقة من الانجيل قال المسيح : « دعوا الاطفال يأتون اليّ ولا تمنعوهم لان لمثل هؤلاء ملكوت السماء » لان الانسان يتمسك

دائما بالكلام الذي يسمعه اولا فكلٌ من ممارسة الصلاة والاجتماعات المدنية والدينية واللبس والادارة هي عوائد يكتسبها الانسان من الممارسة .

(الصلاة في الكنيسة) كانت تتلى الصلاة بالسريانية دون ان يفهم احد منا ما يقرأُ فلهذا كانت تلك الصلاة بدون خشوع فهي شبه درس يقرأه التلميذ على معلمه لان الصلاة هي الصلة بين الخالق والمخلوق اعني تذكرك في الله وفي وصاياه فترجع من غيك وضلالك ولاجل ذلك يلزمك فهم ما تقول وتطلب من الله وتتصوره امامك فعندي كل صلاة بلغة لا يعرفها المصلي لا تكون خشوعية .

(سلوكي في البيت) كنت عصبيَّ المزاج حادّ الطبع جداً كثير الحركة يوجد فيَّ نوع من الخوف ممن هو اكبر مني وهذا الذي جعلني ان اسلك حسناً في المدرسة وكان ميلي عظيماً لاعمال ملاعيب غير مؤذية بل مضحكة فقط وكنت اطلب من البيت كل ما اريده وان لم انلهُ بدأْ الخصام وخصوصاً مع اخويّ ومما جرأني على ذلك هو تغيب والدي في محل وظيفته وبعد محل سكن جدّي الذي كان متولياً امر تربيتي وحنان وحب والدتي اللذان جعلاها ضعيفة الارادة معنا كباقي النساء الشرقيات فكانت عندما نخرج الى حد لا يحتمل تضربنا ولكن لا تلبس أن يغلب عليها حنانها وصفاء سريرتها فتعود لمرضاتنا وتنيلنا ما طلبناه ومنعته عنا من قبل فلذلك بدأت ادخن بسن الاربع سنوات وساذكر تركي له فاول ضرر في التربية عدم كسر ارادة الولد لانه اذا عاش على ارادته يتعب في المستقبل لان جميع الناس ليست بامه ولا ظروف الاحوال طبق ارادته فاذا كان غير معتاد على كسر ارادته وحصل له مضادة يتكدر جداً ويتعب راجع ذلك في كتابي صحة المتزوج وزواج العازب .

وكانت والدتي امرأة موصوفة بذكائها وشاعرة عصبية المزاج حادّة الطبع كريمة النفس والاخلاق تنسى الاساءة اليها وليس لها من مبغض تفعل الرحمة والاحسان لاي كان وكانت تتداخل في شؤون ادارة البلدة وكثيرا ما كان يعوّل على رايها ويعمل بشورها وهي بنت ناصيف الجزيني ولدت سنة ١٨٢٤ ولم تزل الى الان حافظة جميع قواها العقلية .

(ملحوظاتي على هذه التربية) لا شك ان الخوف هو اللجام الوحيد لمن ليس له عقل والعقل نفسه هو نوع من الخوف ولذا كان كل عاقل يخاف فالتربية الوالدية في ذلك الزمن كانت قاسية جداً بحيث ان الولد يخاف والده كما يخاف العدو فلا يمكنه ان يتكلم بحضرته ولا الجلوس في مجلسه ولا الضحك ولا تناول القهوة ولا التدخين ولا يحدثهُ بالتعقل عندما يجني ذنباً بل يعامله بالضرب ولو بسن العشرين من عمره فيصبح الابن جباناً ولا يستنير عقله بشيء اذا ما عرف اضرار هذا الذنب الذي ارتكبه فهذه العوائد تجعل الولد محتالاً لان الحيلة ابنة الضعف وتصيره كاذباً خوفاً من القصاص ولكنها تبني في قلبه متى كبر اعتباراً لوالديه وطاعة لها .

(سلوكي مع باقي أولاد القرية)

لا شك ان الصغير يربى على عوائد الكبير في ذلك الزمان يوجد دائماً انقسام بين العائلات فكل قسم كان ينتصر لحزبه وهكذا كانت الصبيان كآبائهم فكنا في ايام الاحاد والاعياد نتقسم الى قسمين فيذهب احدهما الى سطوح البيت ونترامى بالحجارة ساعات متوالية حتى تغلب فيئة الثانية أو يجرح احدٌ أو يكسر فيه عضو وكثيراً ما كان يمضي النهار وتلك الحرب الصبيانية قائمة وقد تمتدّ الى الليل وخصوصاً في ضوء القمر .

وايام الهدنة كنا نذهب الى ساحة البلدة ونقيم الحرب بصفة العاب مثل لعب الطابة وذلك ان ينقسم اللاعبون الى قسمين ويأخذون كرّة من الجلد محشوة من الخرق ويحدفها كل قسم الى احد انفاره المخصوصين الذي يجب ان يتلقاها باحدى يديه ويضرب خصمه المجاور له بيده الثانية ضرباً كثيراً ما كان يؤدي الى عطب المضروب الذي لا يحق له المدافعة ولا الهرب من الضرب بل ان يأخذ بثأره عندما تصل الطابة الى يد قسمه ويتلقاها هو .

ومثل لعبة القرد المربوط وهي ان يربط حبل بشجرة ويمسكه واحد ويجتمع عليه الاولاد ويضربونه ويهربون منه ومن يرفسه ذاك المربوط يأخذ الحبل مكانه ويتلقى ضرب ضاربيه وهمّ رفسه الى ان يصاب احدهم وهكذا .

ومثل لعبة (الشلح) أو (فشختين وقزه) أو (الدلك أو الملق) وغيرها من الالعاب لولا ما تسببه من الاذى لكانت من اهم الالعاب الرياضية .

وكنا قبل الاجتماع غروباً نقرّر مركز الاجتماع ومن يسبق اليه يصعد الى اقرب سطح بيت منهُ وينادي زميله في اللعب .

وكان المرحوم جدّي قائماً لي بالمرصاد فكل ما ناداني زميلي يأتي اليّ ويضربني ويمنعني عن الذهاب .

فاوعزت الى زملائي ان ينادوني باسم غير اسمي وقد اخطرت اسم حنا جرجي لعدم وجوده في اولاد البلد فالضغط يولد الحيلة .

وكان اخواي يلعبان معي غير انني كنت دائماً من الحزب المضاد لهما .

ادارة القرية في ذاك الزمان

كانت تجتمع شيوخ كل عائلة مع الاخرى لفض مشاكل القرية وذلك عند الغروب على سطوح بيوت متسعة قرب كنيسة السيدة وكانت تعرف قديماً بالاخوية وهي سطوح بيت المرحومة عمتي شات .

ولم يكن جائزاً ان تحضر الشبان تلك الاجتماعات وكان كل الاعتبار الى الشيوخ ولذلك كان الرجل يلتحي عاجلاً ويضع عمة وهو بسن الاربعين فيظهر انه بسن الستين فيزيد اعتباره والان اعطى الحق لهذه العادة لان الشيخ يلزم ادابهُ اكثر من الشاب ويكون برد العمر اخلاقه وكذلك التجارب فيكون مصيباً في ارائه .

وتلك المشاكل كانت ادارية اكثر منها قضائية وذلك (تعيين ناطور) (خفير) لحماية الاملاك .

وكان لذلك الناطور تسريح مطلق بردع المعتدين على ملك غيرهم أو على الحرج بأي طريقة يستصوبها وعليه أن يجرّس المعتدي مهما كانت صنعته وذلك بأن يصعد الى سطح الكنيسة أول الليل ويقرع الجرس ثلاث قرعات متباعدة المسافات تنبيهاً للأهالي فتصغي له .

وحينئذ ينادي مبتدءا هكذا : « يا سامعين الصوت صلوا على المسيح . ان فلان ابن فلان فعل ما هو كيت وكيت الخ ... » وقد جازيته بكذا أي اما بالضرب للاولاد واما بحجز ماشيته واذا كان ما اخذه المعتدى لم يزل معهُ يأخذه منه ويقدر عليه ثمنه ليدفعه للمعتدى عليه وعندما يحضر بعض اوامر عمومية يفعل كذلك .

وربما احد القراء يقول تفضلوا مراده يعلمنا مناداة الناطور ولكن فليعلم هذا المعترض ان اغلب قارئي كتابي لا يعرفون هذا الاصطلاح فيلتذون بمعرفة العوايد القديمة النافعة المعقولة .

وكانت شيوخ القرية تجتمع لفصل الامور .

وكانت جمعية أخرى من الشبان تقوم بتحصيل الحقوق في البلدة وخلافها وهذه العصابة متألفة من عشرة شبان ورئيسهم صهري وابن عمي الشيخ منصور مبارك الخوري فاذا اعتدت احدى القرى على نفر من بكاسين كانت تجتمع هؤلاء الشبان ويذهبون الى البلدة المتعدية ويقتتلون كما حصل بين بكاسين وعاري .

ذلك أنه بينما كان احد ابناء بكاسين في النهر قرب عاريّ اتاه ثلاثة انفار اشداء من اهالي عاريّ

فاوسعوه ضرباً وتركوه بين ميت وحيّ فلما دري بذلك اهالي بكاسين تجمعوا وذهبوا الى عاريّ ولم يرجعوا عنها حتى قتلوا واحداً من اهاليها وامتدت الفتن الى القرى المجاورة فتوسط بالصلح الشيوخ وانصرف المشكل .

فعلى فهؤلاء الشبان كان جل الاعتماد في مثل هذه المسائل .

وكانوا عندما يخلوهم من مثل تلك المأموريات يذهبون في ايام الاحاد والاعياد الى عين ماء يرقصون ويطربون الى المغرب واحيانا الى العشي ويعودون الى منازلهم .

وكانت جمعية اخرى مؤلفة من الاولاد .

وكان الشيوخ يلبسون في ذاك الوقت العباءة من الصوف والشنتيان من الخام المصبوغ ومثله المتنيان وكان المركوب يدعونه المداس من السختيان الاحمر ونعله من جلد البقر وقليلٌ من جلد الجمل .

وكان لبس الشبان شنتيان من المقصور الابيض وقميص وصدرية من فوقها كوبران جوخ وكندره أو صباط أو سرماية هذا للوجوه والباقون يلبسون الخام المصبوغ أو القمباز .

اما الاولاد فبالمتنيان أو مثل اهلهم بالقمباز .

وكان للشابات العذارى والنساء جمعيات خصوصية وفي الافراح والمآتم كنَّ يجتمعن وينشدن الاناشيد المطربة ويرقصن مع الشبان ومن هذه الحفلات كان الرجل يختار لهُ زوجة عند الرقص فأحبها يقول لها تاخذيني تقول نعم فحالاً يطلبها من اهلها واذا ما رضوا اخذها وذهب الى كرسي المطران أو محل اخر ويتزوج بها بدون مقاولة على الدوتا ولا على الدراهم فهذا هو الزواج الحقيقي فلذلك ترى اولادهم بكل صحة ويحب احدهما الاخر محبة عظيمة واذا مرض الرجل تبيع المرأة كل مالها لتخدمه به وتكون له معينة حقيقية وكل ذلك حيث الدراهم لم تدخل في زواجها وكانو يتناشدون الغنا المسمى بالمعنا ويقولون قولاً جديداً وينكتون على بعضهم وهذا الفن مخصوص في لبنان وبالحقيقة انهم يجدون فيه معاني جميلة كالشعر وقد اشتهر منهم جملة اناس خصوصاً رجل امي اسمهُ ابو علي والخوري بولص لطفي ولهم اقوال جميلة يتناشدونها لليوم منذ ثمانين سنة ولولا ضيق المقام لكنا نذكر بعضها وكانت عجائزهن يلبسن القمباز وقميصاً طويلة للرجلين وتلبس طاسة وهي اسطوانة من فضة أو خلافها طول ذراع أو اكثر تضعها المرأة على راسها وطرحة من الشاش فوقها وتعلق في شعرها العاقوص وهو اشرطة من حرير أو من قطن احمر طول الشريطة ذراع تقريباً فتدلى على ظهرها وفي انتهاء كل شريطة قطعة من المعدن مستديرة .

فهذه كانت حلى ذاك الزمن عند المتقدمين وقيل انها كانت عمومية .

وقد استمرّ هذا الزيّ حتى سنة الستين فزال بتمامه إلاّ بعض العجائز حافظن عليه حتى ذهبن به الى القبر .

وهذا الزيّ مأخوذ من الوثنين قديماً حين كانوا يعبدون اعضاء الرجل .

وكان ملبوس الشابات الفسطان مع سلطة من الجوخ أو خلافها ويضعن على رؤوسهن منديلاً أو طرحة من الشاش الأبيض ويضفرن شعرهن بضفائر من الحرير وتضع الفتيات منهن في جدائلهنّ بعض المصاغ ان كنّ من الغنيات .

سهراتهم

كان اهل البلدة لا يسهرون عند بعضهم الا في دواعي افراح أو مآتم وفي غير ذلك .

كانوا يجتمعون في منازل المتقدمين من عائلتنا بيت الخوري .

وكانوا في ليالي الشتاء يجتمعون داخل المنازل فيجلس جدّي في زاوية احدى الغرف وعن شماله الخوارنة ثم الشيخ ثم الشبان وكانت النساء تجتمع في غرفة ثانية فيقرأ من يحسن القراءة فصلاً من التوراة أو اخبار القديسين أو تاريخاً من التواريخ المترجمة الى العربية أو المؤلفة بها واذا اغمض فهم شيء على الحضور يستعلمون عنهُ من جدّي وهو يشرحه لهم بكل طول اناءة ووضوح . واحياناً يضحكون ويقصون القصص ويتكلمون بالحوادث والاداب العصرية وفي مثل هذه الامور كان يجوز للشبان ان تحضر المجالس مع الشيوخ فكانت سهراتهم اشبه بمدرسة يفقهون فيها العقول ويدربون الشبيبة على النخوة والهمة والشهامة وكل ذلك خير من سهراتهم في القهاوي وخلافها وكانوا يحلون الغازاً ويسمونها حذيره ولذلك يشغلون عقولهم ويعودها على البحث .

وكانوا غالباً يصرفون سهراتهم بقراءة قصة عنتر بن شداد فحسنا كانوا يفعلون لان هذه القصة من احسن ما ألف في هذا المعنى فهي تاريخ العرب في الجاهلية وهي مثالٌ لكل من يريد التقدم بقطع النظر عن الاصل والفصل .

تمثل عبداً وصل بشجاعته وكرمه وحسن الانقياد لمن ربوه والخلق الشريفة والمحافظة على زمام زوجته

الى اعلى درجة واسمى مقام فهذه القصة من اعظم القصص الادبية ولا سيما فانها حقيقية لا تصورية نعم ان المؤلف يغالي في قوة عنترة احياناً فيزعم انه هجم على الفين وثلاثة فربما هذا كان ليسرّ اهل عصره وربما حصل ذلك لان الاهابة هي اعظم قوة فعندما يرون افعاله ترجع عنه الاعادي وهذا لا نقطع به بل نحكم ان هذه القصة الادبية نتيجتها كما قيل .

لا تقـــــل اصلي وفصلي ابـــــداً انما اصل الفتى مـــا قـــد حصل

فمثل عنترة يثبت هذا الشعر وعندي ان هذه القصة لهي افضل من كل الروايات العصرية لما تعلم من الشهامة ومكارم الاخلاق بخلاف تلك التي نراها طافحة بضروب الخلاعة والفساد .

الادارة الدينية

كان اقليم جزين في الاصل تابعاً للكرسي البطريركي راساً وكل بطريرك يرسل في كل عام نائباً عنه مطراناً يزور الرعية ويقضي لها مقتضياتها الدينية والمحفوظ حلها الى البطريرك . فلما سيم جدّي كاهناً كان وكيل البطريرك يومئذٍ على الاقليم المطران حنا الحلو ولما ترقى المطران حنا المذكور الى البطريركية ابدل « الاقليم » « بجبيل » ورسم مطراناً على اقليم جزين المطران عبدالله البستاني وهو اوّل المطارنة على ابرشية صور وصيدا .

وقبل سيامة المطران عبدالله وانفصال ابرشية صور وصيدا عن الكرسي البطريركي اقام البطريرك حنا الحلو المرحوم جدّي وكيلاً مفوضاً عنه واذنه بقضاء جميع المهام الدينية مهما كان حلها حتى في المحفوظ منها للبطريرك بموجب اوامر صادرة من غبطته ستذكرها بحرفيتها وتواريخها عند الكلام على المرحوم جدي .

فلما ارتسم المطران عبدالله على الابرشية وفصلت عن الكرسي البطريركي ابقى جدي وكيلا عنه كما كان من قبل وجعل كرسي المطرانخانة في بتدين حيث كان يقيم حاكم الجبل الامير بشير الشهابي الذي احب المطران كثيراً وقرَّبه اليه وجعله من اعظم مستشاريه .

فطلب المطران مساعدة الامير ببناء مطرخانة في مشموشة لتوسطها من الابرشية فبناها وكان المرحوم جدي ناظراً على ذلك البناء فشاده على ما يرام وسنذكر مشموشة ومدرستها .

ولم يكن للوعظ والتعاليم الدينية شأن في تلك الأيام رغماً عن تفقه المطران وبعض الكهنة بل كانت كل

التعاليم الدينية مقصورة على استماع القداس ايام الاحاد والاعياد واعلان ايام الصوم والقطاعة واستماع الاعتراف .

والخلاصة انهُ هكذا كانت التعاليم الدينية .

الادارة المدنية

كان اقليم جزين تابعاً لقائمقامية الدروز ومركزها الشويفات وآمرها من الامراء بني ارسلان والعامل على الاقليم سعيد بك جنبلاط ابن الشيخ بشير جنبلاط وساذكر هذه العائلة عند الكلام على المختارة .

فوالدي كان بمنزلة كاتم السرّ عند العامل أو المقاطعجي سعيد بك ولهُ عنده مكانة عظيمة وكان مع الشيخ قاسم حصن الدين يديران الامور .

وكان الاقليم يدفع جزية معلومة من المال وكثيراً ما كان يتأخر عن دفعها فيرسل حينئذ سعيد بك خيالة من قبله تصحب معها خيالة من الاقليم موظفين عند المقاطعجي المذكور لقبض الأموال .

وكان عندما يتعدى أحدٌ على الآخر ويشكوه الى الحاكم يرسل الحاكم يطلب المشكوّ الذي كان اما يهرب واما يحضر .

وكان الجزاء وقتئذ على حسب الذنب اما الحبس واما الضرب على الأرجل وعلى الاليتين واما البلص أي الغرامة هذا في الأحوال الجنائية وأما في الحقوق فكان في القائمقامية مجلس شرعي مكوّن من كل ملة كثيرة العدد من الجبل ومركزها الشويفات والقائمقام كان الأمير أمين أرسلان يصرف الدعاوى الحقوقية .

واما دعاوي القتل فكانت الاخصام ترسل الى بيروت حيث يحاكمون فيها وقد اشتهر بالشرع في ذاك الوقت بمجلس القائمقامية المرحوم الشيخ بشارة الخوري العضو عن الموارنة وكان من عائلة مشايخ بيت الخوري من رشميا .

وكان تعداد الانفس يومئذ بيد والدي تولاه بامر من والي صيدا .

وكانت كل قرية في الاقليم مقسومة الى حزبين كباقي البلاد وذلك تبعاً لكل عائلة معتبرة .

وسبب هذا الانقسام هو الحسد الذي يتولد اكثره بين الاهل بحيث ان الواحد من هذه العائلة يحسد الاخر لتقدمه بدون ان يلتفت الى الاتعاب التي قدمته فقط يلتفت ان والدي ووالده ابناء عمٍّ لا يلزم ان يكون احسن مني مع انه لو انصف لوجد ان هذا القريب الذي تقدم عليه تغرب وتعلم علوماً أو تاجر أو خاطر بحياته حتى اكتسب المال أو المقام ولكن ابن العم الاخر بقي في القرية يلعب بالطاولة طول النهار ويستنظر الصباح والمساء فبالطبع لم يحصل على الذي حصل عليه الثاني فلو افتكر بذلك لما حسده وكذلك اما الباري خلق في احدهما صفاتا ميزته عن الاخر ولكن كل هذا لا يقنع الحسود لانه لا اقناع لحاسد .

والبلدة التي لا يوجد فيها غير عائلة واحدة معتبرة كانت تلك العائلة تنقسم على ذاتها وتتبع الاهالي قسميها بحيث كان الخصام دائماً والمشاجرات مستمرة كجاهلية العرب .

وكان اذا تحكم الخصام بين الفريقين فان كان مع العائلة الواحدة توسط به شيوخ العائلات الآخر وان كان مع عائلتين توسطت به القرى الأخرى .

فكان كلُّ فردٍ قائماً بقوة ذراعه وحزبه فلا يخرج من القرية إلا مسلحاً أو محاطاً بحاشيته .

وكان السيف والرمح والقرابينة وطبنجات على قربوز سرج الفرس للفوارس وبارودة وسيخ وخنجر ويطقان للمشاة .

وكانت البواريد يومئذ بقداحة وصوانة وبعده صارت بكبسول .

وكان الشبان يعملون رياضة في كل مدة وذلك بان ينصبوا علاماً ويطلقوا عليه الرصاص تمريناً لحسن الرماية وكانوا يلعبون الميدان على ظهور الخيل ويتمرنون على رمي الجريد وهو عصا كان يحدفها الفارس على الاخر وكثيراً ما سببت جروحاً بليغة واحياناً قتلاً .

وخلاف ذلك لعب الطابة والشيلات الثقلة بيدٍ واحدة أو باليدين وكلها العاب رياضية تقوي الجسم وقد بطلت الان الا القليل منها لعدم امكان تحمل اجسام هذا العصر تلك المشاق الدالة على القوة والنشاط في الزمن الغابر ويلزم اعادة هذه الرياضات أو مثلها لاجل صحة الجميع .

أعيان لبنان

وحيث بيت جنبلاط هي العائلة الحاكمة في جهتنا واكثر الاملاك لها نبتدي بذكر انسابها واصلها وحكمها كمقاطعجية فقط تحت يد قائمقام الدروز الذي كان من الامراء الارسلانيين .

وكانت عائلة بيت جنبلاط وعيال اخرى ممتازة في لبنان من اسلام ونصارى ودروز ومتاولة تسمى مشايخ وكان من هؤلاء المقاطعجية أي حكام مقاطعة فقط وكانت عيال اخرى امراء مثل المعنيين والشهابيين اعلا من المشايخ ومنهم كان الحاكم العمومي للجبل من قبل الدولة العلية .

فالامير حيدر الشهابي هو الذي اعطى هذه المقاطعات الى هذه العيال التي نحن في صددها وهي التي رافقتهُ في حرب محمود باشا أبو هرموش أي الحرب التي شبت بين القيسية واليمنية وهو الذي سماهم مشايخ بكتابته لهم الاخ العزيز .

ولا شك ان جد هذه العيال الممتازة كان ذو فضيلة حتى تقدم وعلا على اقرانه وكان من بساطة القلب والامانة على جانب عظيم خصوصاً لجهة المال (رواية) ذكروا ان احد مستلمي مدخول ومصروف احد الاعيان كان يقيد في دفتره مبلغاً اجرة بيطرة جمال ففي احد الايام كان الدفتر مفتوحاً على الطاولة فدخل احد الزوار ونظر هذه النفقة فقال للامير كيف يا سيدي مقيد في هذه النفقة اجرة بيطرة جمال هل الجمال تتبيطر فبعد مدة حضر الكاتب فقال له الامير كيف تقيد هنا دفعه اجرة بيطرة جمال هل الجمال تتبيطر فاجاب الكاتب لما صار سيدنا يعرف ان الجمال لا تتبيطر ما عاد يخدم فتركه وذهب فهكذا كانوا يسرقوهم .

فاذا كان رجل راكباً حصاناً وانا بجانبه فيكون طبعاً اعلى مني ولكن متى ترك الحصان ونزل على الارض فيكون بطولي أو اقصر فحينئذ لم اعد اعده اعلى مني فاذا كانت هذه الفضيلة التي كانت تميز الاجداد سواء شجاعة أو كرم اخلاق أو علم أو قوة أو عصبة أو غنى ذهبت وتلاشت واقيم عوضها ضدها من الرزايل فهل لابناء هذه العيال حق في الامتياز والاعتبار اللذان كانا لاجدادهم كلا ثم كلا فاذا لا لوم على من لا يساوي الابناء بالجدود لان هؤلاء كانوا ذوي فضائل وبالعكس الابناء ولكن متى كانت الابناء لم تزل محافظة على فضايل الاجداد فلهم حق التقدم على سواهم ولهم المركز الاول لان الذي كان يرفع الاجداد لم يزل في البنين ولا يقال عنهم .

مـــــات اهـــــل الجود لم يبق سوى مقرف أو من على الاصل اتكـــــــل

فاذا لا عتب علينا اذا ذكرنا رزايل بعض ابناء هذه العيال اذا كانوا سقطوا عن فضايل الاجداد .

ولنبداء الان بآل جنبلاط لان عائلتهم تعد بعد الامراء .

انساب بيت جنبلاط

في سنة ١٦٣٠ م . حضر جانبولاد بن سعيد مع ولده رباح من بلاد حلب الى بيروت وكان بينهما وبين آل معن صداقة ووداد وذلك بسبب طرد مراد باشا لعلي باشا جنبلاط في حلب سنة ١٦٠٧ فتشتت اقاربه وحضر جانبولاد المذكور الى بيروت وكان ذلك في ايام فخر الدين المعني الثاني .

فجاءت اكابر لبنان الى بيروت ودعوا جانبولاد للاقامة عندهم فقبل دعوتهم واتى معهم واقام في مزرعة الشوف .

فاتفق مع الشيخ ابي نادر الخازن مدبر امور الامير فخر الدين ومن ثمة بدأت العلائق الودادية بين الاسرتين .

وعائلة جنبلاط من الاكراد الايوبيين تولى جدها جانبولاد معرّة النعمان وغيرها من البلاد وفي سنة ١٥٧٢ تولى مدينة كلس وتولى نسله من بعده مدينة حلب الى ان تغلب عليهم مراد باشا كما ذكرنا .

وتوفي جانبولاد سنة ١٦٤٠ في قلعة شقيف ارنون التي كان فيها محافظاً على خمسين نفر من قبل الامير فخر الدين .

فاقام ولده رباح في مزرعة الشوف مع اولاده الثلاثة وهم علي وفارس وشرف الدين .

وكان في ذلك الوقت شيخ على الشوف من اكبر مشايخها هو الشيخ قبلان القاضي التنوخي فتزوج علي بن رباح من ابنته الوحيدة وذهب بها من المزرعة الى بعزران وبنى فيها مسكناً .

وفي سنة ١٧١٢ توفي الشيخ قبلان القاضي بلا عقب فاتفق اكابر الشوف على اقامة الشيخ علي صهره مقامه فدفع اهل الشوف الى الامير حيدر الشهابي الذي كان حاكماً وقتئذٍ خمسة وعشرين الف غرش فولاه مقاطعة الشوف وسلمه املاك حميه وهذه الاملاك تسمى بالسميه وقد تقدم هذا المال من الدروز والنصارى وخمسة الاف من بيت الخازن .

ووهب الشيخ علي المذكور ارضاً من املاكه شرقي جون في اقليم الخروب الى رهبان الروم الكاثوليك لبناء دير على اسم المخلص وسلمهم عقارات لمعاشهم .

وسنة ١٧٧٧ جعل الامير يوسف ضريبة على البلاد فالتمست الاهالي من الشيخ علي ابطالها فرجا الامير بها فلم يستجب طلبه فدفعها من ماله الخاص فاحبتهُ لذلك البلاد وعلت منزلته فيها .

فاوجس منه الامير يوسف شراً فسعى برمي الفتنة بينهُ وبين الشيخ عبد السلام العماد فنال غرضه وانقسمت البلاد منذ ذلك الى قسمين جنبلاطي ويزبكي ولم تزل .

وأخيراً رضخ الشيخ عبد السلام الى الشيخ علي واصطلحا وكيفية ذلك هي ان الشيخ عبد السلام حضر الى بعزران ليلاً حيث يقيم الشيخ علي وطلب منه الصلح لانه لم يمكنه صرف المال على المجتمعين عنده بسبب الفتنة .

فاعطاه الشيخ علي عشرة آلاف غرش ليصرفها على المجتمعين عنده وقال له ارجع من حيث اتيت ونحن نسعى بالاتفاق فذلك اشرف لك وابقى لمقامك وهكذا حصل .

وفي سنة ١٧٨٨ توفي الشيخ علي في بعزران وعمره ٧٨ سنة عن ستة اولاد وهم يونس وجانبولاد ونجم ومحمود وقاسم وحسين فتولى بعده ولده قاسم سنة ١٧٨٨ وقد توفي الشيخ قاسم في عكا عند الجزار وحكم محله ولده الشيخ بشير بسن ١٤ سنة وذلك في سنة ١٧٩١ .

وساعد الشيخ بشير بتجديد عمار دير مشموشة في اقليم جزين فارسل له البابا مرسوماً يشكره به على ذلك .

وفي سنة ١٨٠٦ اجرى الشيخ بشير قناة ماء من نهر الباروك الى المختارة .

وفي سنة ١٨١١ ارسل دروز الجبل الاعلى يستغيثون به على حاكم حلب فارسل الشيخ حسون مع اربعين فارسا من عنده واربعين من عند الامير بشير فحضر اربعمائة عائلة الى زحلة ووزعوها على البلاد في الشوف والمتن وغرب البقاع .

وفي سنة ١٨١٤ بني جامع المختارة على نسق جامع الجزّار في عكا .

وفي سنة ١٨١٩ توفي الشيخ حسن بن قاسم في بعزران وعمره إحدى وخمسون سنة .

وفي سنة ١٨٢٠ بني الشيخ بشير كنيسة المختارة للموارنة .

وفي سنة ١٨٢٤ حارب الامير بشير الذي كسره وفرّ الى حوران فخدعه كنج اغا وسلم عن يده واخذه الى الشام فارسلهُ والي الشام الى عبدالله باشا والي عكا الذي شنقه سنة ١٨٢٥ والذين شنقوه حضروا يطلبون بخشيشاً من زوجته لانهم توصوا به مدة الشنق فهكذا انتهى الشيخ بشير فكان كلما كانت تفعله المقاطعجية مع الاهالي كان يحصل لهم ان كان للنهب أو للشنق وخلافه .

فبعد زوال الامير بشير من لبنان رجع نعمان بك ابن الشيخ بشير الى مقاطعته ١٨٣٩ وبعده تنازل وجلس محلهُ اخوه سعيد بك ١٨٤٢ .

في سنة ١٨٥٦ احضرني والدي معهُ الى المختارة لانهُ كان مستخدما في المقاطعة بصفة كاتم اسرار المقاطعجي سعيد بك ومأمور تعداد النفوس من قبل الدولة العلية على اقليم جزين وهو الوحيد من النصارى الذي كان مستخدماً عند سعيد بك جنبلاط كمقاطعجي البلاد خلافاً لباقي الخدمة النصارى فانهم كانوا مختصين بخدمة ادارة املاكه الخاصة .

فكليب العازوري وابن عمهُ مرعي العازوري المرحومان كانا على محاسبة الأملاك ويوسف الحداد من جزين كان وكيل الحاصل واما والدي فكان للمراسلة بين سعيد بك والقائمقام وباقي الهيئات السياسية وكاتم اسرار الحكومة فاتصال عائلتنا بعائلة جنبلاط قديم العهد فاول حاكم من آل جنبلاط علي جنبلاط الذي كان حاكما الى سنة ١٧٨٨ كان موكلاً بالحكم والاملاك في اقليم جزين وجبل الريحان جدنا أبو عساف رزق الله الخوري وبقت هذه الاتصالية مستمرة الى والدي الذي اركبني حماراً وعليه فرشتي واخذني مسافة ثلاث ساعات نحو الشمال الى ان وصلنا الى المختارة .

مدرسة المختارة

فلاجل هذه المدرسة احضرني والدي من بكاسين وكنت اعرف القراءة والكتابة العربية والسريانية وكان من هذه المدرسة اولاد سعيد بك وهما نجيب بك الذي كان من عمري واخوه نسيب بك الذي كان اصغر مني سناً وكان معلمنا حضرة العالم العلامة والشاعر العظيم الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي الذي صار فيما بعد كاتب المحكمة الشرعية في بيروت وتوفي في هذه الوظيفة .

وكانت هذه المدرسة في حارة المشايخ بيت نجم جنبلاط في المحل الذي قتل فيه نعمان بك أولاد عمه فوق الميدان الشرقي .

وكان الشيخ ابراهيم المذكور يعلمنا وكنا سبعة ما عدا البيكين وهم الشيخ صالح والشيخ حسن اولاد الشيخ قاسم حصن الدين مستشار البيك والشيخ قاسم ابن الشيخ حسين شمس من غريفه صراف البيك ثم حسن ابن الماس من عبيد البيك واسعد ابو صوان الذي كان والده ووالدته من خدمة البيك وعلي حسن طليع ابن شيخ العقل من الجديدة فكنا نجلس نحن الاخرون في الغرفة فكلٌ منا يسمع درسه بعد انهاء درس البكوات وكان يدرّسنا في ديوان ابن الفارض غيباً بحيث كنت أقول القصيدة اليائية غيباً الى آخرها بدون توقيف وكذلك الفية ابن مالك وقصيدة لامية العرب التي لم ازل حافظها للان بعد طول هذه المدة فلا شك ان هذه الكتب العظيمة وخصوصاً الشعر كان يعلم العربية على حقها وحيث الشعر موزون فيلزم قابله ان يلفظ جميع حركاته فيتعود على اللفظ الصحيح وكذلك لسهولة حفظ الشعر تبقى القواعد المذكورة فيه مدة مديدة بعكس ذلك النثر فانهُ ينسى بسهولة ولقد اصابت العرب بجعل كل علومها ارجوزة ويلزم تأليف الكتب الجديدة بالقواعد شعراً لأن الشعر يحفظ لفظ الكلمة على حقها .

سعيد بك جنبلاط

كان متوسط القامة عصبي المزاج نحيف الجسم سريع الحركة حاد النظر ذا شاربين عريضين بشوشاً باصحابه مهاباً جداً وكان بذلك الوقت حاكم الشوفين واقليم جزين واقليم الخروب وجبل الريحان بسن الخامسة والاربعين تقريباً وكان له أملاك عظيمة في هذه المحلات وخصوصاً اقليم جزين وجبل الريحان .

وكان يضمن من الدولة العلية غربي البقاع بمال معلوم زهيد بالنسبة الى دخله وهو أول غني في جبل لبنان وهو من عظام الطائفة الدرزية وخصوصاً الحزب الجنبلاطي .

وكان عنده مستخدمون كثيرون لهم معاشات سنوية وكان المستخدم من كبار المستخدمين يسكن في داره ويأكل ويقوم له جميع لوازمه من زيت وصابون وخلافه الى محله واما المستخدمون الصغار والزوار فكانت تأكل على مائدته العمومية وكان يجلس معهم حتى آخر واحد .

المائدة العمومية

كان يوضع الاكل على اطباق من نحاس بقدر سبعة أو ثمانية وكان يسع كل طبق من العشرة الى الاثني عشر شخصاً وكان البيك يجلس على أول طبق وتتقدم الناس للاكل افواجاً ومتى فرغ أول فوج ينزل الفوج الثاني وهكذا الى ان يأكل آخر واحد وكان الاكلون تقريباً كل يوم نحو مائتي شخص والبيك لا يقوم عن الاكل حتى ينتهي الكل .

وكان لهذه السفرة طباخ مخصوص وأما اكل المستخدمين الممتازين فكان يخرج من دار الحريم وكيفية ذلك انه كان يوجد دولاب يدور على محوره شبه خزانة له خادم مخصوص من جهة الرجال وخادمة مخصوصة من جهة النساء فكان عندما يحضر خادم المستخدم الممتاز يطلب أكل معلمه فيخابر خادم الدولاب الخادمة من الخارج ويقول لها اكل فلان ويدير الدولاب فتضع الخادمة الاكل في الدولاب وتديره لجهة الرجل وكان اكل البيك يخرج من هذا المحل ويوضع على أول طبق يجلس عليه ويجلس معه اكبر الزوار .

وكان يوجد فرن يشتغل يومياً بالخبز وكان الاكل من اللحم والارز والمحاشي والخضرورات والحلويات وفاكهة الفصل .

ومهما عمل الانسان يميز حاله عن الحيوان تراه من بعص افعال مثله خصوصاً من مسألة الاكل ولست اعني بذلك فعل الاكل الحيواني بل تأثيره الادبي فترى الحيوان يستعبد عندما تقدم له الاكل فيلفى الحيوان الى محل يجد فيه اكلاً أو يستخدم عند من يقدم له الاكل فالانسان في هذه الحالة فكانت كل قوة المقاطعجية باعطاهم الاكل الى المستخدمين فكانوا يأخذوهم للحروب ويستعبدوهم وجزأهم الاكل هذه احوال ذلك العصر .

الخيل

كانت الخيل الخاصة للبيك من الثلاثين الى الاربعين رأساً وكان اشهرها احصنة تربط على اول الطاولة واولها كان ازرق اللون اسمه شومان وبعده اشقر يسمى أبو حجلان وهلم جرا .

وكان لكل مستخدم فرسٌ تربط على الطاولة نفسها وكذلك خيول الضيوف فكان يبتدأ بتوزيع الشعير عليقاً للخيل قبل الغروب بساعتين الى الساعة الواحدة بعد الغروب بحيث كان ينفق يومياً من مائة وخمسين الى المائتين علوفة كل علوفة نصف مدّ أو ثلاثة ارطال وكان لذلك رئيس ياخور مخصوص وسياس بكثرة وكان حاصل الشعير بطول خمسين ذراعاً وعرض عشرة وعلو ستة اذرع دائماً ملان وفي ايام الربيع كان يرسل هذه الخيل الى ساحل صيدا لاجل اكل الربيع وكان لها محل في المختارة مخصوص يزرع فيه البرسيم المسماة في بلادنا الفصة .

وكان في دار الحريم عدد عظيم من الخادمات والنساء الزائرات يصرف لهن اكلا وشرباً كالرجال وكان فرش محلات المستخدمين على حساب البيك بحيث كان المستخدم لا يعرف شيئاً سوى ثيابه واحياناً كان يعطي لهم مخصوصاً من طقومات جوخ أو دراهم نقداً .

وأما دار الحريم فلا يدخلها أحد من الرجال سوى الطبيب الذي كان يومئذ زوج خالتي غالب افندي البعقليني تلميذ مدرسة مصر الطبية من اول صف تخرج فيها وكان سعيد بك يذهب بعض الاحيان مع حاشيته في فصل الصيف الى قرية نيحا لاجل صيد الحجل في عين الحلقوم فوق قلعة نيحا المسماة بقلعة طيرون وطيرون لفظة سريانية معناها الشقيف الصغير وليس كما قال طنوس الشدياق في كتابه في أعيان لبنان انه اسم علم لباني هذه القلعة .

وكان ماء هذه العين مجروراً الى القلعة مدة حصارها من الملك الظاهر سنة ١٢٦٦ مسيحية ثم اختفى فيها الامير فخر الدين الثاني المعني ومنها انتقل الى مغارة جزين كما سيأتي .

في سنة ١٨٥٨ مسيحية توجهت مع البيك واولاده ووالدي وباقي حاشيته الى نيحا وبقينا مدة شهرين تقريباً وكان البيك يسكن الصواوين ونحن في البيوت وكان يتوجه كل يوم صباحاً مع الصيادين للصيد .

النبي أيوب

مقام هذا النبي على تلة جنوبي نيحا الى الشرق يرتفع عنها ثلاثمائة متر تقريباً وتعتقد الدروز في هذا النبي وعلى حسب تقليداتهم يقولون ان النبي ايوب عندما كان مصاباً بامراضه وفقره حملته امرأته الى هذا المحل ونزلت الى البلد تتسوّل له خبزاً وربما كان ذلك حقيقياً لان مقتضى قول التوراة ان أيوب من ارض عوص التي هي حوران الان وهي لا تبعد عن نيحا مسافة شاسعة .

في أحد الايام أراد البيك ان يزور هذا النبي فتوجهنا مع اولاده لهذه الزيارة وبعد ما فطرنا الظهر هناك رجعنا الى نيحا وفي اليوم الثاني توجهت الى بكاسين ولم أعد الى المختارة . ودخلت مدرسة مشموشة .

الخلاصة ان سعيد بك جنبلاط هو الرجل الوحيد الغني الذي كان في لبنان فمدخوله الخاص من املاكه عبارة عن ستة آلاف ليرة ما عدا ما كان يكسبه من ضمان البقاع واكثر املاكه في اقليم جزين وجبل الريحان وكان مهيباً ذا مجلس أدبي يعطي كل ذي حق حقه من الاكرام كريماً شجاعاً اذا ركب في موكب ركب معه الوف واذا دخل في مدينة ضجت له ضيفه مكرم وقاصده نائل وصديقه معتبر ذو مرؤة وزمام عديم الشر ميال للخير ذو فطنة ولطافة وعزم واقدام وبالاختصار كان من احسن رجال عصره .

مشموشة

مشموشة قرية من اقليم جزين تبعد عن بكاسين ثلث ساعة الى الغرب بميلة الى الشمال ارتفاعها عن البحر الف متر على السفح الشمالي لجبل ميشا ذات مياه عذبة باردة وهي لفظة سريانية معناها الخادم ربما تسمت بذلك لأنها محل خدم النبي ميشا ولا شك ان هذا المركز من ارتفاعات بني اسرائيل .

وكان يملك هذا المحل في ايامنا عائلة تسمى بيت ابي عتمة وهذه العائلة كان لها جدّ يخدم الامير فخر الدين المعني سنة ١٦٣٠ مسيحية فكان يرسله الامير ليلاً الى دير القمر عندما كان محاصراً في مغارة جزين وكان يرسله في ليالي الشتاء ويرجع بكل سرعة وحذاؤه نظيفاً حتى تعجب الامير منهُ وسماه ابا عتمة وقد وهبه الامير احد المعني مشموشة .

وهذه صورة الحجة الموجود اصلها عند الخواجا ابراهيم حبيب جبر أبي عتمة وفي كل مدة كان يؤشرون عليها من قضاة أو مفتي صيدا كما موضح فيها وقد نسخنها عن الاصل في ١٠ ايلول سنة ١٩٠٥ من الخواجا ابراهيم المذكور وهذه الصورة هي .

وجه تحرير الاحرف هو ان وهبنا عزيزنا الشيخ ابا عتمة قرية مشموشة تكون معاشاً له مستمراً لاجل تعبه وخداماته امانا ورفعنا عن المحل المذكور سائر الاقلام الميرية والخوابي رفعناها عنهْ وعن ذريته وحدود هذا المحل من الشرق الغباطية ومن القبلي السلسلة التي في مطل بكاسين للنبي ميشا عليه السلام ومن الغرب عين الجوزة ومن الشمال الدرب الناطق من الميدان الى بنواتي وكتبنا هذا السند الى عزيزنا المذكور لاجل البيان .

حرّر في غرة شهر رمضان المعظم في سنة الف وسبعة وثمانين . صح

الحقير
أحمد معن

الحمد لله تعالى وحده

اطلعنا على هذه الحجة من معزة الجناب العالي الأمير أحمد معن ومحررة تخوماتها تجري كما هي محررة لان كلام الملوك منزل وقولهم لا يرد وهذا الذي نحن عندنا والحالة هذه والله سبحانه اعلم .

محل الختم
علقه
العبد الفقير
محمود بن منصور

الحمد لله وحده

اطلعنا على هذه الحجة من حضرة الجناب العالي الامير احمد معن ومحررة تخوماتها تجري كما هي لان الهبة ثابتة في الشرع الشريف وهبة الملوك ما فيها تغيير والله اعلم .

حرره الفقير
ملحم عطا

الحمد لله وحده

اذا قامت البينة الشرعية بتصرف بيت أبي عتمة في هذه القرية كما حررت حدودها ورسومها تصرف ملك فليس لاحد من الناس غيرهم التصرف بشيء منها بغير وجه شرعي لان الهبة عقد شرعي يفيد الملك المؤبد والله أعلم .

محل الختم
كاتبه الحقير
يحيى الحر

فهكذا كانت امراء البلاد تكافي من يخدمها بحيث اذا مات الاب في خدمة الامير ياخذ الامير ولده محله ويعطيه املاكاً يعيش بها فكان كل واحد يخدم الامير بدمه وقلما تسمع بخيانة أو ترك حزب فكانت المروّة والشهامة سائدين في ذلك الزمن وكل ذلك من معاملة الخادم .

المطران عبدالله البستاني

ولد هذا المطران في قرية الدبية سنة ١٧٨٠ وكان حينئذ المطران حنا الحلو وكيلا على الابرشية من قبل البطريرك وكان للمطران عبدالله صوت جميل جداً وعندما سمعه المطران حنا اخذه شماساً له وعند ما فتحت مدرسة عين ورقة سنة ١٧٩٣ وضعه في سلك اول صف من تلامذتها وبعد خروجه سامه المطران يوحنا الذي اصبح بطركا كاهناً وفي ١٥ آب سنة ١٨١٩ سامه اسقفاً ووكيلاً عنه في ابرشية صور وصيدا فحضر المطران عبدالله الى بتدين واقام محل اقامته الانطش الموجود الان جنب الكنيسة وقد احبه الامير بشير واعطاه نفوذاً .

وفي سنة ١٨٣٨ عندما صار مطراناً شرعياً على الابرشية اخذ يبحث عن محل يجعله كرسياً له فاختار قرية مشموشة لوجودها في نصف اقليم جزين ولعذوبة مائها وطيب هوائها وقد اشترى محلاً من أبي عتمة جنب العين واخذ في ان يبني كرسيه به وكان الوكيل عنه في الابرشية وفي هذا البناء المرحوم جدي الخوري ابراهيم الخوري ولم يزل عندي دفتر كلفة هذا البناء واوامر البطريرك يوسف حبيش والمطران عبدالله بخصوص توكيله على المدرسة والابرشية .

وكان الامير بشير يحث المطران عبدالله على بناء كرسي واقتنى املاك له ولكن لزهد سيادته كان يضيع هذه الفرصة بوجود الامير بشير وقد اشترى لها أملاكاً قليلة وعندما ذهب الامير بشير من هذه البلاد حضر المطران عبدالله الى مشموشة وسكنها الى ان شاخ فطلب معاوناً له الخوري بطرس البستاني الذي كان يومئذ كاتم اسرار البطرك بولس مسعد . فلو كان استغنم الفرصة في ايام الامير بشير لكانت كرسي صيدا وصور من اهم الكراسي وهذا المثل علم المطران بطرس خلفه ان لا يضيع فرصة بمشتري مقاصف بتدين يجعلها كرسياً فكان الذي فات المطران عبدالله من الامير بشير اكتسبهُ من خلفه المطران بطرس فاخذ من ورثة الامير بشير كرسياً ليس محتاجاً لبنائها .

المطران بطرس البستاني

هو من اقارب المطران عبدالله ولد في قرية الدبية في آخر كانون اول سنة ١٨١٩ أي في السنة التي ارتسم فيها المطران عبدالله اسقفاً والاغرب من ذلك هو ان المعلم بطرس البستاني الشهير ولد في نفس هذه السنة فكانت سنة عظيمة لبيت البستاني لانه ارتسم فيها مطران وولد مطران وعالم شهير وكان المطران بطرس مع المعلم بطرس يتعلمان عند خوري القرية الخوري مخايل البستاني وكانا ذكيين فارسلها المطران عبدالله الى عين ورقة فتعلما العلوم الاكليركية فيها ولم يشاء المعلم بطرس ان يرتسم كاهنا لاحتياج والدته اليه .

واما المطران بطرس فقد سامه كاهناً المطران يوسف رزق الجزيني رئيس عين ورقة وقتئذٍ سنة ١٨٤٢ ثم اقيم معلماً لمدرسة مشموشة لان هذه المدرسة كانت تعلم الاكليروس مدة سنتين ونصف ثم اخذه البطريرك كاتماً اسراره سنة ١٨٤٥ الى سنة ١٨٥٦ وفيها سامه مطراناً على عكا مساعداً لعمه المطران عبدالله وعندما حضر المطران الى الكرسي وكان محباً للعلم اراد ان يفتح مدرسة لتعليم الاولاد ففتح هذه المدرسة وطلب لها معلماً كان رفيقه في المدرسة وهو الخوري يعقوب الحاصباني من عائلتنا القاطن في قرية قيتولي وعندما فتحت هذه المدرسة ادخلني المرحوم جدي الخوري ابراهيم تلميذاً فيه فدخلتها في تشرين الاول سنة ١٨٥٨ .

مدرسة مشموشة

وعلومها

كانت تعلم العربية صرفاً ونحواً والسريانية حسب علوم عين ورقة والتلامذة الذي كانوا فيها هم يوسف كرم من المعمرية ومعه اثنان احدهما يسمى عساف والثاني ابن فاضل ثم رزق الله من سنيا الذي سيم فيما بعد كاهناً باسم الخوري يوسف ثم بشاره ابن الخوري جرجس البستاني الذي كان والده عند المطران عبدالله وكيلاً وكان من الكهنة المعتبرين وأصحاب الفضل .

ثمَّ صار بشارة المذكور كاهناً باسم الخوري يوسف البستاني الذي بقي مدة كاتم اسرار سيادة المطران يوسف الدبس وقد ترك واتى الى بيته في الجيه وقد توفي في بكركي سنة ١٩٠٥ ودفن هناك ثم يوسف من جرنايا الذي صار كاهناً فيما بعد ثم داود ابن خوري كوكبه الذي يطبب العيون إرثاً عن ابيه حتى الان وكان عند المطران بطرس شماساً يدعى خليل بن يوسف مارون من جزين ترقي الى درجة الكاهن ودعي باسم الخوري بطرس مارون ولم يزل وكيلاً روحياً على الابرشية للان وهو مشهور بالتقوى والصوت الجميل .

حالتي في المدرسة

كنت كما كنت في المختارة ناجحاً في العلوم وعفريتاً في غيرها فكان دأبي ان اضحك التلامذة في أي محل وجدوا باعمال هزلية وكنت ازداد في هذه الامور خصوصاً في وقت الصلاة والدرس .

حادثة

قد قلنا اننا عند المساء كنا نصلي على القراية وهذه عبارة عن طاولة مربعة بعلو ذراع ونصف الى ذراعين لا تسع الاكتاب الصلاة وكنا نجتمع حولها من كل ناحية لاجل القراءة والتنغيم وكان الكاهن يقف

على درجة أعلا من الجميع وحيث كنت اصغر الجميع وكانت القراية اعلى مني فكنت اقف على الدرجة امام الكاهن ولصغري ما كنت احجزه عن النظر في الكتاب وحيث كان لا يرى وجهي كنت اعمل حركات في عيني ولساني بحيث يضحك الاخرون الذين يرونني فيقاصهم دوني .

ففي احد الايام اخذت حرضونا وربطته بخيط ووضعته في عبي وعند ابتداء الصلاة كنت اخرجه قليلاً واضغطه فيفتح فاه امام التلامذة فيضحكون فاخذ الخوري يضربهم بالعكازة وفيما انا ملته بالفرجة عليهم خرج الحرضون من عبّي ونط على الكتاب وبقي مربوطاً بالخيط الذي كشف ذلتي لانه لولا وجود الخيط كنت قلت انه مر صدفة وعندما رأى الخوري الحرضون على الكتاب ضحك قسراً وبعد ذلك عبس وضربني بالكف على وجهي فازاحني عن محلي وحيث لم يزل الحرضون معلقاً بجيبي بالخيط وأخذ يخمش ركعني الخوري في الكنيسة الى آخر الصلاة وقطع الخيط وخلص الحرضون من اسره وعلقني انا .

وهكذا كنت اختلق كل يوم اموراً وكنت سريع الركض لرقة جسمي وكان المطران عبدالله يسميني شيبوب وهو اخو عنترة لسرعة ركضي وكان بقرب كرسي لمطران دير مشموشة الذي يبعد عنها ١٠ دقائق وهو دير عامر يقطنه نحواً من مائة راهب في ذلك الوقت وكان عيده الاحتفالي في الخامس عشر آب عيد انتقال السيدة فيجتمع في هذا العيد الوف من الجيرة فبسبب هذا الاجتماع يصير خصومات بين القرى المجاورة بحيث انه كل سنة يحصل معركة وقد منع المطارنة هذه الاجتماع من قديم الزمان . لان القصد منها عند العامة اللعب وقلة الادب والسكر والنزهة وليس العبادة فاصبحت كاعياد عابدي الاصنام قديماً وهذه صورة الحرم لمن يزور دير مشموشة في عيده في خامس عشر آب .

صورة حرم

بحروفها

اعلام بالرب لجميع الكهنة باقليم جزين بوجهُ العموم المكرمين .

بعد اهداكم البركة انه قد بلغنا ما قد غمنا وكدر خاطرنا وهو تعديكم وتعدي ابناء رعاياكم بمخالفة الرسوم البارزة قديماً من سعيد الذكر البطريرك يوحنا المطوب الذكر الصالح في منع وابطال الحضور للاعياد تحت قصاص الربط للكهنة والحرم للعلمانيين .

فهذه السنة قد انهمل هذا الرسم القانوني وانداس من البعض لاجل رخاوتكم وتغاضيكم وحضروا الى دير مشموشة فليكن معلوماً عند الجميع ان كان من حضر نهار العيد من رجال ونساء فهو ممنوع من الدخول الى الكنيسة ومن مناولة الاسرار المقدسة والكاهن الذي تشاور على الحضور وارتضى به فليكن

مربوطاً عن التصرف بدرجته ومداخيلها ولا نسمح لاحد الكهنة ان يسمع اعتراف شخص من هؤلاء المتعدين الذين حضروا نهار العيد لدير مشموشة ولسيدة بسري ولا نحلّ أحدا منهم الا انه يدفع خمسة غروش قصاصاً عن ذنبه وتعديه فهذا القانون قد وضعناه عن هذه السنة فقط ومن الان وصاعداً أي من تعدى وخالف الاوامر المرسومة قديماً ومنّا جديداً يسقط في الحرم المحفوظ حله لسلطاننا الرعائي قصدنا علم الجميع والبركة تشمل الابناء الطائعين .

في ٢٤ آب سنة ١٨٣٧

الحقير
عبدالله البستاني
مطران صور وصيدا

وفي ذاك الوقت كان من اهالي مشموشة المشهورين حبيب أبي جبر أبو عتمه وهو مشهور بالذكاء واللطف والعقل والمعارف وكان يقضي وقته عند المطران .

نادرة لجبر أبي حبيب أبو عتمه

كان لأبي حبيب جبر كرم من العنب وكان ابن اخته يأتيه ليلاً ويأكل من عنبه فاخبروا خاله عنهُ فسألهُ عن ذلك فاجاب الولد اما هو عيب عليّ يا خالي ان اعمل هذه العملية في كرمك هل يمكن تصديق ذلك فسكت أبو حبيب الذي مضى في الليل التالي الى الكرم واختبأ فيه وعند الظلام حضر الولد المذكور كعادته وعندما سمع خاله حركة الاكل وثب عليه وابتدأ يضربه فصار يصيح الولد يا خالي انا ابن اختك فاجابه هذا غير صحيح لانه عيب علي ابن اختي ان يعمل هكذا لا اصدق وبقي يضربه وهو يقول له ان ابن اختي لا يفعل هكذا .

وكان المطران عبدالله يذهب بعض الاحيان الى بكشتين قرب الدبيه بلدته الاصلية حيث كان له محل يسكنه ابن اخيه المرحوم خطار البستاني .

ففي تلك السنة ذهب الى ذلك المحل ولم يعد .

وفيما نحن في ارغد عيش وانعم بال حدثت فتنة بين اهالي الشوف واهالي الاقليم وتلك للمرة الثالثة . وذلك ١٨٦٠ .

الموارنة والدروز

قبل الدخول بهذه الفتنة نذكر سكان لبنان واهمهم الموارنة والدروز

الموارنة

اصل الموارنة :فئة من السريان وهم الاراميون المذكورون في التوراة نسبة الى القديس مارون احد النساك القاطنين في نواحي حمص وحماه الذي جاهر ضد القائمين بمذهب الطبيعة والمشيئة الواحدة الذي أنتشر في أيامه وبقي هو محافظاً على المذهب الكاثوليكي وكان معاصرا ليوحنا فم الذهب وقد اسس رهبنة باسمه .

وكان له دير قرب العاصي فيه ثلاث مائة من الرهبان اضطهدوا وقتلوا شهداء مذهبهم وذهب الذين اتبعوا مذهبه الى لبنان وسموا موارنة وذلك لعدم انقيادهم لمذهب ملك القسطنطينية فكان الذين يتبعون الملك يسمون بالملكية والذين تمردوا عليه سموهم مردة وباقي تاريخهم يؤخذ من المؤرخين .

فبقي الموارنة بلبنان محافظين على حريتهم وايمانهم وفضلوا سكن المغائر وقلب الصخور وفقر المعيشة على الذل والهوان حتى يومنا هذا . فسبب سكني الموارنة قديما هذه الجبال هو الخوف والاضطهاد ولولا ذلك لما عمر لبنان فكان لبنان ملجأ لكل خائف في الشرق اتى يستظل تحت حمايته من سريان وأرمن وروم كاثوليك وقد بقي القسم الشمالي من لبنان مختصاً بالموارنة . والجنوبي مختصاً بالدروز .

الدروز

ظهر في الجيل الرابع للهجرة احد الخلفاء الفاطميين المدعو الحاكم بامر الله ثم تسمى فيا بعد الحاكم بامره وكان حاكماً سوريا ومصر سوية فتبعته الدروز وكانوا يسمون اولا بالموحدين لاعتقادهم العظيم بتوحيد الاله . وقد حصل اضطهاد للدروز أشده في مصر بعد غيبوبة الحاكم بامره فانتشروا في سوريا وخصوصاً في الجبال للوقاية من الاضطهاد وتملكوا في بلادنا وادي التيم ونواحيها ثم زحفوا على جنوبي لبنان وتملكوه بعد محاربة سكانه المتاولة بحيث اصبح الجبل مقسوماً الى قسمين جنوبي درزي وشمالي ماروني واذا لاحظنا سنة لبنان نراها مقسومة الى قسمين قسم يلبس لبنان لبساً درزياً وهي العمامة البيضاء أي ثلجه وآخر يلبس قلنسوته الزرقاء أو السوداء .

ويوجد ايضاً في لبنان من كل الطوائف ولكن الاهمية لهاتين الطايفتين .

قدوم النصارى الى جنوبي لبنان

ان نصارى شمالي لبنان حضروا الى جنوبيه في أوقات متفرقة ولغايات عديدة بحيث انهم عاشوا مع الدروز بالراحة والسكينة واخذوا عوائدهم واعتبرهم الدروز واكرموهم وصانوا حقوقهم واشركوهم في مصالحهم بحيث اصبحوا لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وكانت القرى التي تقبل النصارى تسميها الدروز صاحبة الشرف وبقي الحال على ذلك مدة حكم امراء لبنان فكانوا يذهبون سوية للحرب ويتعاضدون في المصالح العمومية وكانت لهم حرية الدين وبقي الامر على ذلك الى انقضاء حكم الامير بشير قاسم الشهابي وأقاموا مكانه اميراً آخر ما امكنه ان يداوم الحكم وفي ايامه حصل الفساد حتى قسموا الجبل الى قائمقاميتين قائمقامية الدروز وجعلوا عليها أميراً من آل ارسلان والثانية للنصارى وهي شمالية وجعلوا عليها قائمقاماً من امراء أبي اللمع .

حكام لبنان سنة ١٨٦٠

في بيروت خورشيد باشا وكان لبنان تابعاً لهُ .
وكان بطرك الموارنة بولس مسعد العشقوتي .
قائمقام النصارى في لبنان الامير بشير أحمد أبي اللمع في برمانا .
قاضي النصارى الخوري يوحنا الحاج الذي صار بطريركاً .
قائمقام الدروز الامير محمد ارسلان في الشويفات .
متسلم دير القمر مصطفى افندي .
اميرالاي العساكر عبد السلام بك في دير القمر .
في الشوف واقليم جزين واقليم التفاح واقليم الخروب وجبل الريحان سعيد بك جنبلاط .
وفي الغرب الشيخ حسين تلحوق .
في العرقوب خطار بك العماد وابن عمه كنج بك العماد .
في الشحار بشير بك أبو نكد .
فالان نذكر الفتنة التي حضرناها بالتطويل وقد ابتدأت كما قلنا ونحن في مدرسة مشموشة .

ابتداء الفتنة في اقليم جزين

في اليوم الثلاثين من ايار ١٨٦٠ عندما كانت الناس ملتهية بمواسمها الحريرية عند الساعة التاسعة عربية قبل الغروب بثلاث ساعات سمع اطلاق البنادق من جهة قرية باتر واهلها تتقدم الى جهة بحنين وهي أول قرية من اقليم جزين قريبة من باتر .

فعندما ابتدأ اطلاق البارود وتأكد ابتداء الفتنة أركبتنا والدتنا على بغل مع أخوي خليل وامين اللذين هما أصغر مني واما اختي ليا فمشت معنا وارسلتنا مع رجل من بكاسين اسمه الياس لبوس الراهب الى مزرعة الرهبان التي تبعد عن بكاسين ساعتين .

وبينما نحن على هذه الحال وكانت الساعة واحدة بعد الغروب والقمر يضيء كالنهار وفد علينا والدي ويوسف بك مبارك وجم غفير من الرجال والنساء والأولاد واما والدتي وجدي وباقي الاقارب فم يحضر منهم أحد ولم نعلم ماذا حدث لهم فعند ذلك اجتمع والدي مع ابن عمه يوسف بك وتشاورا على المحل الذي نذهب اليه فاتفقا على التوجه لصيدا كالعادة لان هذه هي الطريق المأمونة .

طريق صيدا

فمررنا على مزرعة اسمها الرمانة وهي في مركز مثل مركز مزرعة الرهبان وهي مزرعة شمسية ومنها رأينا دخان الحريق في القرى التي دخلها أهل الشوف وكنا نسمع صوت البارود الغير المنقطع وصراخ البشر وأصوات الحيوانات كانه يوم القيامة والذي رحم اهل الاقليم في هذا اليوم هو دخول الليل بحيث لم يمكن للاخصام ان يتبعوهم خوفاً ان يكمنوا لهم في محلات يجهلونها .

فلو كان معهم يشوع بن نون وأوقف الشمس ساعتين لهلكت كل أهالي الاقليم ولكن لوجود الليل انتشر الهاربون في كل محل واختبأ أهل بكاسين خصوصاً في حرشهم الذي يمتد ساعة من الزمان طولا وعرضاً وفيه محلات تخفي ألوف من الهاربين والبعض التجأ الى بيوت شركاء سعيد بك جنبلاط مختفين فيها فاهل الشوف احترمت هذه المحلات واصحابها لأنها تخص البيك الموما اليه . ثم مررنا على قرية سنيا معناها العليقة ثم على كفرجرا معناها حقل السهام وعند الصبح في قرية المعمرية .

المعمرية

فعندما وصلنا الى المعمرية وقفنا ونزل المطران بطرس البستاني هناك وابتدأوا يتشاورون الى أي جهة يذهبون وبينما هم كذلك اذ وفد على المطران بطرس قواس من قبل قنصل فرنسا في صيدا مع اثنين من قبل عمر افندي يدعون المطران للتوجه مع جماعته الى صيدا وانهم يحمونه من كل طارق وكاد المطران عند ذلك ان يذهب معهم فاعترضه بعضهم وقال له ربما كان ذلك فخ لك ولو افترضنا ان هؤلاء صادقون فلا يمكنهم الدفاع عنك وقت اللزوم وخصوصاً ان شخصك هو المطلوب .

فلذلك تصور المطران ان ارسال القواس والرجلين ما هو إلا فخ لشخصه فامتنع عن النزول الى صيدا

ولكنه أرسل مع هؤلاء نائبه الخوري يعقوب وأخاه الخوري سليمان مع جملة من الرهبان والراهبات وجمهور كبير من الرجال أيضاً الذين توجهوا آمنين بحماية القواس والنفرين .

ولما توجه نائب المطران الخوري يعقوب مع اخيه وباقي الجمهور ووصلوا الى قرب المدينة وارادوا ان يستريحوا هناك فكان الامر ان الاخصام هجموا على هؤلاء المساكين وقطعوهم إرباً إرباً رجالاً ونساء واولاداً ورهباناً وكان اولهم الخوري يعقوب وأخيه ظناً منهم انه هو المطران بطرس وكانت ساعة هائلة بالصراخ والاستغاثة بدون سميع أو مجيب .

وقد اخبرني عن هذه الحادثة رجل من بكاسين كان معهم وهرب بعد ما جرح في رأسه ومن ذلك الوقت ابتدوا يصطادون أفراداً من الهاربين ويقتلونهم .

واما المطران بطرس فانه توجه مع يوسف فرنسيس الى محل محمد بك علي شبيب المتوالي في المروانية الذي اكرمهم وجهز لهم اتباعاً يرافقونهم ويوصلونهم الى صور ومنها نزلوا بحراً الى بيروت .

واما نحن فأخذنا والدنا مع باقي أقاربنا وجملة من الناس ايضاً الى قرية دير الزهراني في بلاد الشقيف التي كان حاكمها يومئذٍ الشيخ يوسف نصر الله المتوالي .

وقد وصلنا عند غياب الشمس الى دير الزهراني فبتنا هناك تلك الليلة وفي اليوم الثاني حضر طلب لوالدي من حسين بك الامين مدير النبطية التحتى لأنه كان له به معرفة فتوجهنا مع هذا الجمع فانزلنا حسين بك في دار بحارة النصارى تخص رفول نمور من صيدا التي كانت خالية وقتئذ وكان يرسل الطعام صباحاً ومساء الى جميع من معنا الذين كانوا نحواً من ثلاث مائة تقريباً .

سوق النبطية

ان هذا السوق من اعظم المحلات التجارية في بلادنا تجتمع اليه الناس كل نهار اثنين من كل الجهات على مسافة اثني عشر ساعة واكثر تجارته الحبوب والمواشي ويجتمع فيه من الخمسة الى الستة آلاف نسمة من شار وبائع ومن العجائب انه ينعقد فيه نحو الخمسين الف عقد بين بيع وشراء وكل ذلك بالقول فقط ويتم بكلمتين بعت واشتريت ويندر جداً الاختلاف بينهم .

واغرب من ذلك انهم من كل الاجناس بين نصارى على اختلاف اجناسهم ومتاولة ودروز ويهود واسلام وخلافهم ومع هذا الاجتماع لحد الآن ما سمع ان حصل بينهم اختلاف عمومي وكل ذلك يتم

بنهار واحد من صباح الاثنين الى عصره بحيث عند مساء الاثنين لا ترى احداً من هذه الجموع العديدة وقد مضى عليه مئات من السنين ولم يزل كما هو رغماً عن تجربة بلدان اخرى لعمل سوق مثله ولم تفلح ويوجد سوق مثله في بلاد حاصبيا اسمه سوق الخان ولكنه ليس بأهميته وخلاف هذا السوق يوجد قلعة عظيمة شرقي النبطية تسمى بقلعة بلاد الشقيف .

قلعة ارنون أو قلعة الشقيف

هذه القلعة باسم الشقيف هي التي اعطت اسمها الى كل الاقليم وتسميتها بقلعة ارنون اتية من اسم قرية بجانبها ومعنى ارنون الحرذون وهي موجودة على ارتفاع عمودي غربي نهر الليطاني بحيث لا يمكن الصعود اليها من تلك الجهة وارتفاعها عن النهر نحو الثلاثمائة متر تقريباً كحائط واحد وقد تنظر من مسافات بعيدة وهي مبنية بحجارة ضخمة جداً وفيها منازل للسكن وآبار للمياه وتعلو عن النبطية قدر مائتين متر ولا يمكن الوصول اليها إلا من الجهة الغربية بصعود عظيم عسر المسلك . وقد بنى هذه القلعة الصليبيون وفيها بناء فينيقي قديم وفيها توفي الشيخ جنبلاط جدّ العائلة الجنبلاطية في لبنان الذي ارسله الامير فخر الدين المعني الثاني للمحافظة عليها مع اربعين من الفرسان وقد استولى عليها شيخ الجبل رئيس الاسماعيلية مدة من الزمن .

واما النبطية فكان يسكنها في ذلك الوقت من المشايخ الصعبيين خلاف حسين بك الأمين الحاكم اخوه سعد الدين وابن عمه الشيخ فضل الشهير وولده حسين الذي اولاده الان نعيم بك ومحمود بك .

وبقينا في النبطية مدة خمسة عشر يوماً مع هذا الجمع الغفير الذي كان منه قسم عظيم ينام في الحقل وتحت الأشجار وكان يُقدم لهُ الأكل من حسين بك الأمين وفي أثناء ذلك ورد لنا خبر عن والدتي واخوتي وخالتي زوجة غالب البعقليني الطبيب واولاد عمي منصور مبارك الخوري وفرنسيس الخوري انهم في جباع الحلاوي مع جملة من النصارى في بيت الشيخ علي الحرّ وهو رجل عظيم جداً من اكابر قومه عمل معروفاً مع النصارى لا يقدر وكذلك الشيخ عبدالله نعمة الذي عمل نفس المعروف . فعند ذلك ارسل والدي خيالة من قبل حسين بك الأمين الى جباع لتحضر والدتي مع اقاربنا الذين كانوا هناك .

قصة منصور مبارك

قد اخبرتني والدتي انها بينما كانت في جباع وهي متشتة الافكار لا تدري ما جرى لزوجها واخوتها واولادها هل هم من الاحياء أم من الاموات واين هم اذا كانوا من الاحياء ومن قتل منهم ومن بقي حياً تقضي يومها بالنحيب والبكاء محجوبة مع والدتها واختها في الحرم واذا بسيد من أهل جباع اسمه السيد

ابراهيم يطلب مقابلتها فأسرعت حالاً بالمجيء اليه فرأته سيداً مهاباً متأدباً محتشماً فأخبرها انه بينما كان في مزرعة الرهبان في جبل طوراً وجد خمسة رجال من بكاسين مختفين هناك يأكلون القمح الفريك فسأل عنهم فقيل له هؤلاء منصور مبارك الخوري ورفاقه فتقدم اليهم وسأل عن حالهم فاخبروه من هم فسأل منصور من عندكم من اهالي الاقليم في جباع فاخبره عن وجود والدتي فحينئذٍ قال له منصور ارجوك ان تخبر امرأة عمي اننا لم نزل أحياء موجودين في ضيقة عظيمة في هذا المحل وكدنا ان نهلك جوعاً فارجوها ان تعمل لنا طريقة مع الشيخ علي الحر ليوصلنا الى جباع .

فعند ذلك حضرت والدتي الى الشيخ واخبرته بذلك فطلب حالاً السيد ابراهيم وأمره ان يرجع حالاً مع خمسة رجال ويصحبون منصوراً ورفاقه معهم وان اذا نزلت نقطة دم منهم تكون بحياته فتوجه حالاً السيد ابراهيم مع خمسة من أعوان الشيخ وفتشوا على منصور ورفاقه .

ذهابنا من النبطية الى صيدا

فكان مدة وجودنا في النبطية تأتي اليها أهل الشوف من المشايخ ومن جملتهم الشيخ حسين عساف من نيحا الذي كان صديقاً لوالدي واخبره ان يخرج من النبطية لان أهل الشوف مستعدون لمطاردة أهل الاقليم فيها كما جرى في جباع .

فعند ذلك اخبر والدي حسين بك الامين وترجاه ان يعطيه رجالاً من المتاولة ليوصلوا اهل الاقليم الى صيدا فارسل حسين بك معنا خمسة عشر خيالاً تحت قيادة ابن عمه حسين بك الفضل فركبنا من النبطية عند غروب الشمس نمشي ليلاً وقد أركبوني مهرة بدون عدة برسن غير مركوبة قبلاً وأخوتي على بغل وكذلك والدتي وجدي وكان الليل مظلماً لا اعرف كيف امشي مع مهرتي فكانت تأتي حيثما تريد لا كما أريد فكانت تارة تمشي على الطريق وتارة تفز الجلالي وكنت منشرحاً من ذلك وغير مفتكر في الاخطار التي سنلاقيها كاني ذاهب الى عرس وكل ذلك من فضائل الحداثة التي لا تشعر بخوف ولا تعب وقد استرحنا قليلاً قبل الضوء في قرية اسمها البابلية التي بعدها استلمنا السهل فمشت المتاولة امامنا وكنا جمهوراً من الكهنة والشيوخ والنساء والولاد والرجال المسلحة .

وبينما نحن بسهل الغازية نظرنا خيالاً اتياً من جهة صيدا فعند رؤيته خفقت قلوب الجميع ظناً منهم انه جاسوسٌ من قبل الذين مجتمعين في قرية الغازية وبالحقيقة كان ذلك وعندما رآه المتاولة اصطفوا امامنا وفي وسطهم حسين بك الفضل فتقدم ذلك الخيال وسلم على البيك وقال له ابشرك ان زحلة اخذت فاجابه البيك انه يعطي النصر لمن يشاء فتوجه الخيال الى الغازية .

المتاولة

هي فئة كبيرة من الفرق الاسلامية سموا متاولة من قولهم توالينا الدين خمسة أي محمد وفاطمة وعلي والحسن والحسين وسموا رافضية لانهم رفضوا رأي زيد ابن علي ابن ابي طالب وعملوا شيعة وحدهم فسموا شيعية لذلك وقد جعلوا الإمامة بعد الرسول لعلي ثم اختلفوا فيها فيا بعد اختلافاً كبيراً حتى بلغت فرقهم ثلاثمائة فرقة والمشهور منها عشرون لا محل لذكرهم هنا لانه لم يبق منهم احد في بلادنا سوى المتاولة الاصليين .

وأما الذين كانوا مشهورين والحكام في حادثة الستين هم حسين بك الامين في النبطية وتامر بك الحسين والشيخ فضل والشيخ يوسف نصر الله في دير الزهراني وبيت الحرّ في جباع ومحمد علي شبيب في المروانية وذكرنا بالخصوص هؤلاء لانهم حافظوا على اهل الاقليم الذي اجتمعوا عندهم وعاملوهم بالخير والاحسان .

فأخيراً اجتمعت مشايخ المتاولة مع بعضهم للمخابرة بامر معاملتهم لاهل الاقليم فاجابهم الشيخ فضل الذي كان اكبر سناً منهم مهاباً مطاعاً ان الرأي عندي ان نتركهم مدة ثلاثة أشهر فاذا نفذ مساعدة اليهم قبل هذا الوقت فنكون صنعنا جميلاً معهم ونكافأ عليه واذا لم يساعدهم احد فهم في قبضة يدنا نفعل ما نريد بهم .

وهكذا كان فان مشايخ المتاولة عملت كل معروف واذا كان بعض جهالهم تعدى بسلب أو خلافه فكانت تقاصه المشايخ وترجع المسلوب وكانوا يصرفون من اموالهم الخاصة عليهم فلذلك يلزم ان تكون النصارى مديونة بالمعروف والجميل لهم ولا ينسوا حسن بك الامين والشيخ فضل وولده حسين بك والشيخ علي الحرّ والشيخ عبدالله نعمة من جباع والشيخ يوسف نصر الله من دير الزهراني ومحمد علي بك شبيب من المروانية ولا أولادهم الى من يأتي من نسلهم فيا بعد .

ومن نسل محمد علي بك الشبيب ابن ابن اخيه الان حسين بك درويش من الرجال أصحاب الاداب والمرؤة وكرم الاخلاق .

واما اسرة المشايخ بيت علي الصغير الذي منهم علي بك الاسعد الذي توفي سنة ١٢٨٢ هجرية كانوا يساعدون اهل حاصبيا كما سنذكر وله ثلاثة اولاد نجيب بك الذي توفي وله ولد اسعد بك وبقي شبيب باشا نزيل الاستانة وناصيف باشا الرجل المشهور في المرؤة وحفظ الزمام واما ولد محمد بك الاسعد ابن اسعد بك الخليل واخو خليل بك الذي هو اول من اتصل الى المتصرفية من الشيعية وكان كريم الاخلاق محموداً

وله اربعة اولاد وهم : كامل بك الذي عمل اكثر من والده في الجاه ورتب ماليته ترتيباً عظيماً وله الاسم والشهرة بحيث خلد ذكر هذا البيت والاخرون هم محمود بك وعبد اللطيف بك وزين العابدين بك وهم من الاماجد الكرام .

حادثة الوفآء

بينما كنت يوماً ما في محلي في بيروت اشاهد المرضى وجدت سيداً ليس عليه سمة الغناء وذليلاً متفكراً واعينه مريضة قليلاً فسألته عما يريد فأجابني ان لي معك حاجة وانت لست تعرفني ولكن والدتك تعرفني ربما تكلمت عني امامك انا السيد ابراهيم الذي ساعدت ابن عمك منصور مبارك الخوري ورفاقه من جبل طوره . وكان مضى على ذلك ٣٦ سنة فقلت له نعم ذكرتك والدتي لي فعند ذلك تغيرت هيئة ذلك الشخص امامي وابتدل برجل عظيم اعتبرته جداً واصبحت انا المديون لهُ فاجبته على الفور ماذا تريد ان اخدمك فيه فاجاب ان لي ولداً وحيداً مريضاً الرجا ادخاله في المستشفى فحالاً ادخلته الى تمام الشفاء .

حادثة أخرى

وبعد هذه الحادثة الاولى بستتين حضر رجل يدعوني لزيارة مريضة في احدى اللوكندات فسألت عن المريضة فقال لي انها ابنة فلان رجل سمعت به انه من الذين عملوا معروفاً معنا سنة الستين ولم اعرفه شخصياً فتوجهت وشاهدت المريضة التي عملت لها عملية في عينيها وبقيت اعالجها مدة شهر من الزمان وعندما حصلت على الشفاء حضر والدها عندي للحساب الذي بلغ ٦٠ ريالاً مجيدياً فدفعها مع الشكر وهمّ بالخروج من عندي فاجلسته وسألته هل انه يعرفني حقيقة فقال كيف لا اعرفك وصار لك شهر من الزمان تطبب ابنتي فقلت له نعم ذلك هل تعرف والدي فقال كلا فقلت له انا ابن فلان ووالدتي فلانة ابنة فلان التي عملتم معها كل معروف سنة الستين وقد ذكرت ذلك لي وكنت متشوقاً لاجد فرصة لا كافئك على صنيعك .

فالان ان هذه الدراهم التي هي امامنا محرمة علي فارجوك ان ترجعها وتقبل مني هذه الخدمة الصغيرة جزاء خدمتك الكبيرة في وقت ادنى معروف يبان فيه لانه قبل اعظم المعروف نجدة الملهوف لان اذا أسقيت كأساً من الماء لعطشان مدة عطشه الشديد يبان عنده اعظم شيء بحيث اذا اعطيته اعظم الاشياء بغير احتياجه لا يذكرك بها لان تذكر الشيء يكون بتأثيره على الشخص وكذلك حتى لا يقال ان المعروف ضاع من الكون وان هذا يقويك على عمله ثانية لان لا شيء اضر على عمل المعروف مثل نسيانه عند من عمل معهُ .

فامتنع كثيراً لعزة نفسه عن قبول الدراهم وقال لي ان هذه الحاسيات هي اعظم مكافأة لي لان عامل المعروف يحب الشكر عليه اكثر من المكافأة به عنه لان المعروف ليس كالدراهم يطلب فائظها ولكن عندما رأى الحاحي عليه بذلك استرجع المبلغ اكراماً لخاطري وليس لقيمته .

ومشايخ المتاولة الان هم ثلاثة اسر مشايخ بيت علي الصغير والمشايخ الصعبية ومشايخ المناكرة ولهم شكرنا اجمعين .

صيدا أو صيدون العظيمة

لا شك ان هذه المدينة هي من اقدم مدن العالم وتسمت باسم صيدون بن كنعان ابن حام بن نوح أو باسم صناعة اهلها أي الصيد وكيف كان الامر فلا يعرف مدينة أقدم منها وقد مرت عليها ادوار وحكمتها جميع شعوب الأرض تقريباً فالفينيقيون انفسهم الذين شهروها بصنائعهم واسفارهم البحرية وتجارتهم ما هم الا قوم من المهاجرين اليها كما ذكر هيرودوتس المورخ وعندما اشتهرت في سفرها في الابحار وجعلت في الخارج جملة مستعمارت أسست جملة مدن اولها مدينة صور التي هي ابنتها البكر التي تأسست سنة ١٢٠٠ قبل المسيح ففاقت شهرة على والدتها سنذكرها فيما بعد فصيدون العظيمة التي شاع ذكرها وغناها في العالم القديم كانت مطمع لكل فاتح وكانت تمتد مملكتها الى جبال الكرمل قبلة وشمالاً الى قرب جبيل وكل لبنان بين هذه الحدود تابعاً لها وكانوا يسموا حينئذ بالكنعانيين وقد قصدهم موسى في الجيل الخامس عشر قبل المسيح ولم يتملكها الاسرائيليون فكانت مملكتها في كبرها العظيم تمتد طولاً مائتين وعشرين كيلومتر وعرضاً اربعة وأربعين بحيث كان لبنان وانطي لبنان ذات الاحراش العظيمة يقدما لهم ما يلزمهم من الاخشاب لمراكبهم وقد ملكها شلمنازار سنة ٧٢٠ قبل المسيح واخذهم نبيكودونوزور اسرى الى بابل .

وقد ملكتها الفراعنة المصريين واخذها قورش مؤسس دولة الفرس منهم وسمح لهم باقامة ملك مخصوص ياخذهم بالاسفار البحرية وقد سبب ثورة فيها اكار احد قواد ملوك الفرس الذي كان سبب خرابها وعندما كانت محكومة بملك من قبل داريوس حضر اليها الاسكندر أبو القرنين وفتحها وكان اسم حاكمها استراطون الذي كان ضعيفاً بحيث اصبح تحت ارادة الشعب وعندما رأى الاسكندر ضعف ملكها امر احد قواده المسمى افستيون بانتخاب ملك من اهاليها وكان زمرة من شبابها واغنياها ومهذبيها تلبي على هذا القائد فاخبرهم ان ينتخبوا لهم ملكاً منهم فأجابوه انه لا يمكنا ذلك ولا يمكن لاحد ان يكون ملكاً ما لم يكن من نسل ملوكي فتعجب افستيون من كبر نفس هؤلاء الذين احتقروا ورفضوا ما غيرهم يطلبه تحت ظلال السيف فاجابهم حينئذ انعوا أيها الشبان بالمجد والفضيلة لانكم انتم اول العارفين بان رفض الملك اعظم من قبوله ومع ذلك احضروا لي واحداً من العائلة الملوكية يمكنه ان يتذكر متى اصبح ملكاً انكم انتم السبب من تملكه ويكون ممنوناً لكم وقد نظرت هذه الجمعية بان عدد عظيم من الاغنياء

طالبين الملك كانوا يتزلفون تزلفاً دنياً الى المقربين من الاسكندر فوقع انتخاب الجمعية علي عبدولونيم الذي كان نظراً لفقره يحرث باجرة بخسة بستاناً قرب المدينة وكان فقره آتٍ من شرف نفسه وكان دائماً مهتماً بشغله اليومي ولم ينتبه الى قرقعة السلاح التي هزت اسيا باجمعها فتوجهت الشبان حاملين الزينة الملوكية الى عبدولونيم الذي كان وقتئذ ينقي اعشاب بستانه فتقدموا اليه وسلموا عليه كملك فتكلم واحد منهم عن الجميع وقال له اخلع هذه الثياب الرثة والوسخة ونظف جسمك من الاوساخ التي تغطيه من زمن مديد والبس هذه الحلل التي بايدينا وخذ احساسات الملك واعتدل في عوائدك المعتادة لحد العرش الذي انت مستحقه ومتى جلست كملك بيده حياة وموت الشعب لا تنسى الحالة التي لاجلها صرت ملكاً فظن عبدولونيم ان ذلك حلماً وان كيف يمكنهم ان يتجاسروا ويسخروا به هكذا فحلفوا له باعظم الايمانات ان ذاك صحيحاً ثم اخذوه وغسلوا بدنه والبسوه الحلة الارجوانية وعندما تحقق ذلك ذهب معهم لمحل الملك وعندما ضج الخبر في المدينة كان البعض فارحين والبعض وخصوصاً الاغنياء مغتاظين فذهب كل من هؤلاء الى محسوبي الاسكندر وتكلم كلاماً مهيناً بحق عبدولونيم وانه لا يستحق ان يكون ملكاً نظراً لفقره ولدناءة صنعته ولما بلغ ذلك الاسكندر دعى الملك الجديد اليه وعندما جلس امامه تأمله مدة وقال له ان ظاهرك لا يكذب اصلك ولكن اريد اعرف كيف احتملت الفقر وكيف كان صبرك عليه فاجابه عبدولونيم عسى ان الالهة تساعدني بحمل قضيب الملك كما قوتني لاحتمال الفقر فهذه الايدي ساعدتني علي كل رغائبي بحيث لا اطلب سوى ما كنت محتاجاً اليه فعندما سمع الاسكندر هذا الجواب عرف صفات هذا الرجل فملكه ليس فقط على ما كان يملكه استراطون بل اعطاه قسماً مما كان يكبسه من الفرس واضاف أيضاً الى ملكه بلاد اخرى مجاورة للمدينة هذا ما ذكره كنتسكبري في تاريخ حياة الاسكندر فلا اشك ان الاسكندر هو اعظم رجل ظهر في الدنيا فخلاف شجاعته وفتوحاته السريعة ترى فيه فضايل ما سبقه اليها ولا لحقهُ بها فاتح غيره .

أولاً : اخذ ثار اليوناني ومحي عنها العار وفتح آسيا لها .
ثانياً : انهُ بكى عدوه المغلوب وقتل من قتله واكرم عايلته وتزوج ابنته .
ثالثاً : كيف اعتبر الكاهن العظيم في القدس وملكها بهذا الاعتبار .
رابعاً : كيف دخل مصر وامتزج معهم وقدم ضحية لالهتهم .
خامساً : كيف حكم عبدولونيم لاجل الفضيلة فقط .
سادساً : كم شاد من المدن في مدة قصيرة .
سابعاً : اعتباره لمعلمه وامانته به حتى لقد وشوا على معلمه انه واضع له السم في الكأس فعند ذلك أخذ وشربه وقال هذا سرّ معلمي .

ثم ان مدينة صيدا دخلت تحت حكم الدولة اليونانية فطارة كانت تتبع مصر وطارة ملوك انطاكية وأخيراً دخلت تحت حكم الرومانيين وبعدها تحت حكم العرب والان تحت حكم الدولة العلية بحيث كونت ثلاث مدن فوق بعضها اولها صيدا الفينيقية ثم صيدا الرومانية ثم صيدا الحالية والذي يدلنا الان

خلاف التاريخ على عظمة صيدا هو ما وجد فيها أخيراً من المدافن التي كشفت لنا ملوكا لم يذكرها التاريخ قبلاً واهم هذه الملوك هو اشمون عازار الذي انوجد تابوته في صيدا وهو الان في انتيكخانة اللوفر في باريس .

وقد شاهدته هذه السنة في شهر آب سنة ١٩٠٣ عندما كنت زائراً باريس وقد شاهدت ايضاً تبنت ولده الموجود الان في الاستانة العلية مع تابوت الاسكندر الذي انوجد معهُ سوية في صيدا وقد شاهدت ايضاً قطع فينيقة عن اشمون عازار في انتيكخانة بريطانية في لونده هذه السنة نفسها والكتابات الموجودة على هذه التوابيت هي باللغة الفينيقية والمصرية وهذه الخطوط من أحسن الخطوط في هاتين اللغتين وهذه التوابيت من الحجر الاسود الصلد جداً المسمى بازلت وهو حجر من الصخور النارية الجيلوجية والكتابة التي علي تابوت اشمون عازار هي هذه انا اشمون عازار ملك الصيداوين ابن بنت ملك الصيداوين وحفيد اشمون عازار ملك الصيداوين ووالدتي هي ام عشتروت كاهنة سيدتنا عشتروت الملكة وابنة الملك اشمون عازار ملك الصيداوين فنحن الذين بنينا هيكل الالهة في صيدا في الارض البحرية التي تمجد فيه الباشوريون عشتروت ونحن ايضاً الذين بنينا على الجبل هيكلا لاشمون الذي ساندا يده على افعى والساميون تمجده فيه ونحن الذين بنينا هياكل الهة الصيداوين في صيدا هيكلا لبعل صيدون وهيكلاً لعشتروت في سماء باعال فعسى ان اسياد الملوك تعطي لنا خلودية وحسن الارض ذات القمح الجيد الموجودة في برية سارون مكافئة لنا عن الامور العظيمة التي فعلتها .

ذكر ذلك في الجرنال الاسيوي في القسم الخامس في الجزء السابع وجه ٢٨٧ من رسالة موسيو مونك .

واما تابوت تبنت الذي نظرته في الاستانة هو كتابوت اشمون عازار يقول انني انا تبنت بن اشمون عازار ملك الصيداوين وان لا يوجد في محلي ذهباً ولا فضة وان من يسلب راحتي ويقلقني لا يجد راحة تحت الشمس .

واما التابوت الذي يظنون فيه انه تابوت الاسكندر نظراً للرسومات التي عليه التي هي موقعة الاسكندر مع داريوس فهي من ابدع التشخيص وقد فحصته فوجدت ان قطعة من هذا الرسم البارز مكسورة وان في وسطها سلك فافتكرت ان جميع هذه الرسومات البارزة هي سلوك من حديد مطلاه بمواد صناعية من اعجب الاعمال .

ويوجد تابوت بجنب هذا عليه صور بارزة وهي صور نساء نائحات والاعجب انها صورة امرأة واحدة لكن باوضاوع مختلفة بحيث كل وضع يريك امرأة أخرى وقد وجد في تابوت تبنت جثته التي كانت

محفوظة بسائل فظنوا ان هذا السأل ماثا داخلاً اليه فرفعوه عنه فحينئذٍ ابتدت الجثة في التحليل فما كان هذا السائل الا سائل مضاد العفونة وقد رأينا هذه الجثة هيكلاً فقط .

مركز صيدا واحوالها سنة ١٨٦٠

ان موقع صيدا الطبيعي هو من احسن المواقع والذين اختاروها عاصمة بلاد فينيقية محقون بذلك لانها محاطة بسهول خصيبة وبجبال مشجرة ونهر الاولي الذي اصل نبعه من الباروك وجزين يسقيها ويسقي بساتينها فنراها على تل من بعيد وحولها السهول وهذه التلة ما هي الا من خربات صيدا القديمة بحيث اذا حفر الانسان تحت هذه المدينة يراها قائمة على خرابات تحتها .

وقد دخلت مدينة صيدا لاول مرة في فتنة الستين وقد اجتمع فيها جم غفير لحد الخمسة وعشرين الف من راشيا وحاصبيا واقليم جزين فكانت متوزعة في الخانات وتحت الصواوين التي اعطتهم الحكومة الى اهل حاصبيا وراشيا عند ابا روح واما المحل الأكثر اجتماعاً هو خان الافرنج الذي يخص دولة فرنسا التي كان قنصلها يومئذ مسيو دريكلو الذي عمل كل خير والتفات نحو المنصابين وكانت المماشي والغرف حتى السطوح مملوة من الناس بحيث كانت الناس تنام لزق بعضها .

تاريخ خان الافرنج

قد أسس هذا الخان الامير فخر الدين المعني وقد اعطاه الى تجار الافرنج الذين حضروا بعد سفره الى توسكانيا من ايطاليا ومن بعده استلمته فرنسا ولم يزل في يدها للان وقنصلها الصيداوي يقيم فيه وكانت كل اوروبا ترسل احسانات الى هؤلاء المنكوبين وكانت جمعيات الاحسان في بيروت ولكل منها فرع في صيدا ففرنسا كانت ترسل أحساناتها عن يد قنصلها وكانت راهبات مار يوسف تخدم المرضى في المستشفى الذي عملته في الخان وكانوا يلمون الاولاد الايتام الذين كان يتركهم اهلهم وكانت الرهبنة اليسوعية تجمع اليتامى وتلبسهم لبس خصوصي وسموهم بالكاسافرية باسم مار فرنسيس كسفاروس وكانوا يعلموهم في مدارسهم الداخلية وهذه الاحسانات التي كانت تتوزع على المحتاجين كانت من الخبز والسمن والارز ومن الكسوة وتطبيب المرضى والمصاريف على اليتامى ذكوراً واناثاً وكان لاحسانات الانكليز والاميريكان والالمان جمعية واحدة في بيروت كانت ترسل احساناتها لصيدا عن يد الخواجه يعقوب ابيلا قنصل انكلترا ومن جملة الكساوي التي كانوا يحسنون بها فروات من جلد الغنم وبدلاً من الخبز كان يوزع بزار القمح وبزر القز للفلاحين عند رجوعهم وكان طبيب المرضى من قبلهم الدكتور شبلي ابيلا الذي افرغ جهده في التطبيب وكان مساعداً معهُ ابن عمنا توما افندي الخوري الطبيب .

وفي شهر تشرين اول حضر فؤاد باشا وزال الخوف من قلب الجميع وبطل كل تعدٍّ وكان حضر سعيد بك الى اقليم جزين لاجل تطمين الاهلين وارجاعهم الى محلاتهم وعندئذ خطر ببال الخوري اسطفان الذي كان ساكناً معنا في صيدا وكنا اخذنا بيتاً آخر وهو قرب البحر بان يرجع مع عائلته الى بكاسين فاستاجر مراكيباً له ولعائلته وسافر عند المساء فتوجهت معه ليلاً وعند طلوع الشمس طلينا على بكاسين .

منظر بكاسين المحروقة

عندما نظرنا هذه القرية بغتة صرخنا صوتاً واحد واحسرتاه ماذا المّ بهذه القرية التي كانت مسقط رأسنا واول ما استنشقنا من الدنيا هواها وتفتحت اعينا على نورها ومرأها وقضينا زمن الولودية والراحة فيها واول ما شربنا واكلنا من مائها وغذاها واول ما عرفنا حب اهلنا واقاربنا فيها وهي التي بعد الله والوالدين اوجدتنا كيف نراها حيطاناً مسودة لا سقوف لها خربة مهجورة لا صوت بشريّ فيها بعد الاجتماعات العظيمة التي كانت تصير فيها ولا اثر لحياة حيوان فيها تلك البلد التي كانت منذ ثلاثة اشهر زاهية زاهرة هذه نتيجة الحروب والاضطرابات ومنافعها فوقفنا مدة متحسرين متأسفين ومرددين قول امرء القيس .

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل

ولكن ما النفع من كل ذلك فاخيراً نزلنا الي البلد واول ما ركضت الى بيتنا وعندما دخلته بكيت وعندما رأيته مسوداً كفرن دون باب ولا شباك ارضه محفورة والاوراق منتشرة فيه والقواطع التي بين الغرف مهدومة فكنت انظر المحل الذي كنت انام فيه مع اخوتي وافتكر كيف كان مفروشاً مكسواً والان لا يوجد فيه شيئاً اجلس عليه وكنت اركض الى كل بيت اعرفه في القرية فلم ارَ فيه غير آثار الخراب واربع حيطان مسودة من الحريق وكان لنا شريك اسمه شكر الله حنيني كان يزرع في ارضنا في جبل طوره فاكلت عنده خبزاً ثم قابلت ابن عمي فرنسيس الخوري الذي كان متوجهاً الى جبل طوره الذي يبعد عنا نحو ساعتين وكان لنا فيه املاكاً يديرها الشركاء وكانت الأرزاق في جبل طوره اكثرها ملك سعيد بك حنبلاط الذي ارسل رجلاً من قبله ليحافظ على الحاصلات والشركاء التي تجمعها فقال لي فرنسيس تعالى معي الى الجبل فتوجهت معهُ حالاً ونسيت انني قضيت الليل ماشياً وذهبت معهُ ماشياً على رجلي الى ان وصلنا الى جبل طورا .

جبل طورا

لفظة سريانية معناها الجبل وقد قلت ان هذا المحل مزرعة شمسية لا تسكنه الفلاحون الا مدة شغلها زرعاً وحصاداً يعلو عن البحر الف وثلاث مایة متر وفيه بعض تلال تكشف لجهة البحر تعلو لحد الف

واربع ماية وخمس ماية متر وهو مكشوف لكلّ الجهات والاهوية لا تنقطع منه وبرده شديد جداً بحيث صيفه شتاء وكانت الحرارة فيه ليلاً في الصيف داخل الصيوان لحد ١٥ درجة فوق الصفر بميزان ستيكراد .

مركزه

عندما يصل لبنان الشامخ الانف الممتد من الشمال الى الجنوب الى شرقي جزين ويرتفع ارتفاعه الاخير بهيئة برجين يعلو احدهما الف وست ماية متر يسمى بتومات جزين فتحول منه لفتة الى الوراء اي نحو الشرق فيرى ذلك الشيخ الجليل أي حرمون العظيم المسمى بجبل الشيخ وهو سلسلة انطي لبنان فيطئطء رأسه اجلالاً له ويتزلل امامه ويموت تحت اقدامه عند مجرى الليطاني لفظة سريانية معناها الملعون الفاصل بينهُ وبين مرجعيون وهي مملكة عيون القديمة من أرض نفتالي في سفر الايام الثاني الاصحاح ١٦ عد ٤ وهذا النهر هو الحد الفاصل بين لبنان وولاية بيروت من الجنوب الشرقي فعلى الصفح الغربي للتومات قرية بحدلين لفظة سريانية معناها البرجين تعلو عن البحر الف واربع ماية متر وغربي هذه القرية ارتفاع صخري يبتدئ بالتدريج من الشرق الى الغرب الى ان يصل الى مطل البحر المتوسط وينتهي بقطع عامودي يمتد من الشمال الى الجنوب كصور للبلاد التي غربيه وعلى هذا الصور مقام الانبياء الذي هو من ارتفاعات بني اسرائيل .

اثاره التاريخية

يوجد في هذا الجبل خرابات تدل على سكنه الاصلي ويوجد فيه نواويس محفورة في الصخور لا شك انها مدافن فينيقية كما ان هذه المدافن توجد في كل جيرته ولم تزل فيه ابار قديمة تستعملها الاهالي الان لجمع ماء الشتاء وقد وجدت فيه عملة رومانية وعملة من صدر الاسلام وعندي حجر مكتوب عليه في اليونانية وقد وجدوا فيه كنيسة يونانية مع صليب يوناني ونواويس من الفينيقيين والكنعانيين .

واذا نظرنا في الاصحاح ١٢ : ١٣ و ١٩ : ٣٠ في سفر ياشوع بن نون توكد ما ذكره صاحب تاريخ لبنان العلامة لامرتان الياسوعي في الجزء ٣ وجه ٤٥٩ ان هذا المحل هو مملكة افيق القديمة وان هذا هو كرسي المملكة لان معنى افيق كما ذكره الاب المذكور حسب تقليد القديس هيرونيم انه اندفاق الماء أو السيل أو الصخر أو الوادي وقال اخرون ان معناها القلعة أو المدينة المحصنة .

وقد اعتبر الاب المذكور ان مركز هذه المملكة هو جزين نظراً لميائها ونهرها ولكن اذا اعتبرنا معنى

افيق لفظة قلعة فتكون هذه المملكة هي جبل طورا وقد قال العلامة المذكور بوجه الاحتمال ان ربما تكون افيق على الطريق بين جزين وكفرحونه ونحن تقول ان هذا الاحتمال هو المرجح عندنا وان مركز جبل طورا هو عاصمة المملكة اولاً لانه متوسط بين الخرابات ثانياً لانه مرتفع ويرى ما حوله تحت اقدامه بحيث يرى كل المملكة وان الناووس الذي في وسط الكرم ومجمع الابار ووجود اثر بيت في الصخر ودرج على صخر اخر لاجل الصعود الى الناووس ومقعد منقور في الصخر لاجل الجلوس عليه بين الابار ان هذا المحل محل الملك وقد قال يشوع بن نون ان افيق هي شرقي صيدون العظيمة وقد اعطاها لسبط أشير ص ١٩ عد ٣٠ وجبل طورا هو شرقي صيدون تماماً .

فمنظر هذا الجبل من اعظم مناظر سوريا فاذا كنت جالساً صباحاً على تلة اسمها تلة بيت عبود ترى البحر المتوسط يبعد عنك مسافة ستة ساعات وترى منهُ جبل الكرمل ونقورة عكا وسواحلها وترى في هذه السهول القرى المرتفعة والاودية ومجاري المياه وترى بلاد بشاره والشقيف وسهل الدامور ومن الجنوب ترى جبل صفد وبحيرة الحولة وما حولها ومن الشرق ترى جبل حوران وحاصبيا وجبل الشيخ وتومات جزين وسلسلة لبنان .

والمنظر الشمالي ترى منه جبال فوق جبيل وسلسلة جبال كسروان وصنين ومار عبدا الذي فوق الدير وبالاختصار ان المسافة التي يراها نظرك من كل جهة لوكان خيالاً راكباً من نقطة ويدور الى أن يرجع لها وانت ناظره يلزم لهُ مسافة عشرين يوم أو شهر لقطعها .

واظن ان هذا الجبل هو الجبل الذي احذ ابليس المسيح اليهُ واراه ممالك العالم وعندما لم يرضى المسيح في الرضوخ له وجد راهبين فاتفقا معه فاعطاهما هذه الارض وسموها مزرعة الرهبان .

تأثير جبل طورا على الفكر

لا شك ان كل قمة من جبل طورا هي كطور سينا تكلم عليها الله وهو يكلمك اعني عندما تجلس على هذه القمة وترى حولك واسفل منك تلك الوديان والجبال والاحراش ومجاري المياه والبحر وهلمّ جرا ترفع عقلك الى اعلى من الارض وتفتش على صانع هذه الاشياء وتقر حينئذٍ وتسجد لهذه القوة الخالقة التي لا تدرك منها الا وجودها فتكلمها في فكرك وتصعد اليها به فتتجلى امام مخيلتك وتراها باعين عقلك ولا تعرفك بشيء سوى بوجودها وقدرتها فهذا ما ظهر لي منها وكل اعتقاد بها خلاف هذا يخل بعظمتها فهذا كلما اعطي لي لمعرفتها .

تأثيره على الصحة

فلا شك ان هواء التي يجلب كل صحة لان بسبب ارتفاعه تأكد ان هذا الهواء الذي تستنشقه ما مرّ على رئية قبلك وفي كل سنة اخذ صواوين وأنصبهم على تلة فوق الكروم المحيطة بها بعلو ١٣٠٠ متر متجهاً نحو الشمال وكنت اخذ كل عايلتي معي وامكث مدة شهر خصوصاً شهر آب الذي تكون فيه الحرارة في النهار لحد ١٨ فوق صفر ميزان سنتي كراد و ١٥ ف في الليل في الصيوان فهذا الشهر الذي استريح فيه كل السنة وكان يلومني كل محب للمال كيف اترك شغلي من بيروت واذهب مدة الصيف فهذه خساير فاجبتهم ان جسم الانسان مثل الثياب اذا اعتنيت فيها ونظفتها استقامة مدة والا تذهب بسرعة فاذا كنت اعتني بجسمي فاعيش سنة زيادة اعوض ما خسرته من اشهر الصيف وكذلك اتمتع بسنة زيادة لانني لم اخلق مرة ثانية لارجع اصيف في جبل طورا وهكذا اعتذارات لاقناع محبي الدراهم الذين يجعلون سبب وجودهم على الأرض لجمعها .

وقد صدف لي جملة امرار ان بعض الاولاد يمرض في بكاسين فحالاً اخذهم الى الجبل فبدون دواء يشفى المريض اعني المرض ذات الكروب اللطيفة اذا كان يوجد منها لطيفة خصوصاً المالريا حاصله ان مناخه احسن مناخ وليس عندي لوكندة صوفر لارغب الناس الى الحضور اليه ولكن لاجل معرفة هذا المحل الذي هو احسن محل في سوريا .

فؤاد باشا

عند حضور فؤاد باشا لقصاص المجرمين من متوظفين وخلافهم طلب مشايخ الشوف ومن جملتهم سعيد بك جنبلاط الذي حضر الى بيروت وعند وصوله حبسوه في القشله العسكرية وأما الشيخ قاسم حصن الدين فانهم نفوه مع جملة مشايخ أخر من أهل الشوف الى البلغار فعند ذلك توجه والدي الى صيدا ومرض بالحمى التيفودية وبعد شفاه حضر الى بيروت .

فاول شيء عمله هو الذهاب الى القشلة ليرى سعيد بك جنبلاط الذي كان محبوساً وبعد طلب الاذن بالدخول اليه وجده على اخر نفس من الحياة لانه كان مريضاً بالصدر وعندما رأى والدي انتعش وطلب الغليون لانه كان يشرب الدخان بكثرة وأخيراً طلب ان ينقلوه من القشلة الى بيت علي الادلبي الذي هو بجانبها وكان والدي الساعي بذلك فكانت احوال سعيد بك تتزايد يوماً فيوم وعندما اشعر بقرب اجله اقام وصياً على اولاده القائم مقام الامير محمد ارسلان وقد كان باقي لوالدي معاش عنده لحد العشرة الاف غرش .

فاوصى الامير محمد ان اولاده تدفع له هذا المبلغ الذي قبضه والدي من امراته واولاده وعند الساعة واحدة عربية من نهار السبت الواقع في غرة زي الحجة سنة ١٢٧٧ هجرية والموافق ١٩ نيسان شرقي سنة ١٨٦١ والموافق من ١١ ايار غربي سنة ١٨٦١ توفي سعيد بك جنبلاط الرجل الشهير في بيت السيد على الادلبي ودفن في مقام الاوزاعي الساعة التاسعة من النهار عربية في يوم وفاته بالذات والذي اهتم في دفنه وصلى عليه هو فضيلة الشيخ ابراهيم الاحدب وكان معه في الدفن والدي فقط الذي رافق سعيد بك الى القبر وخدمه طول عمره بأمانة وصدق وحب لا يوصف وقد أخبرني والدي أنه حصل له كدر لا يقدر وهكذا انتهت حياة سعيد بك الذي مات بموته كرم الشرق القديم وجميع عوايد حكامه القديمة بالأكل والشرب والضيافة وابتدأ النظام الجديد للبنان فعند ذلك رجع والدي الى بكاسين وبقي هناك وتوظف مأموراً لكرك الدخان في الجبل .

وقد تشكل مجلس مخصوص لاجل توزيع المسلوبات والمحروقات على البلاد وابتدت الدولة العلية بتشكيل كومسيون مخصوص لاجل عمل نظام مخصوص للبنان وان يكون عليه حاكماً عثمانياً .

اخيراً اتفق الراي ان يقيموا حاكماً مسيحياً كاثوليكيا لا يكون له طائفة كبيرة في الجبل وان تعطى له السلطة التامة في الاجرأت والتوظيف وان يكون هو المساول عن راحة الجبل يعين لمدة خمس سنوات أو عشرة ويجوز تجديده وان تعفي لبنان من الكمارك الداخلية وان يدفع سبعة الاف كيس مالاً ميرية وعسكرية وان تساعده الدولة بخمسة الاف كيس حتى ان يصير كافياً نفسه وان جميع المتوظفين وطنيين وان العساكر تكون منه بترتيب جندرمه وانه اذا لزم عساكر خلافهم يطلب المتصرف من عسكر الدركون المقيم في بيروت والمقيمة فرقة منه في بتدين .

وكان نظام لبنان محصوراً بثمانية عشر مادة معروفة وتاريخ فرمان هذا النظام في ١٤ ربيع أول سنة ١٢٨١ هجرية فبهذا النظام استراح لبنان من كل فتنة داخلية وعرف كل انسان درجته وتنفست الاهالي وتخلصت من استبداد المقاطعجين والمقاطعجيون انفسهم استراحوا من مزاحمات بعضهم وجبر الاهالي الى اغراضهم فاصبح لبنان شاكراً فضل الدولة العلية ابدية القرار ولم يزل يموت ويحيي تحت حكمها واوامرها ولا يوجد في الدنيا بلاد لها مثل هذا الانعام والامتياز .

فهكذا انتهت فتنة سنة ١٨٦٠ التي خربت البلاد وليس لها نظير في الدنيا ان الرجل وجاره ان كان في البيت أو في القرية يعامل بعضها هكذا معاملة فليس الذنب على الاهالي بل كله على مقاطعجية ذلك الزمن وليس اللوم على فيئة واحدة بما فعلت مع الاخرى لانه لو كانت انتصرت اهل الاقليم على اهل الشوف لفعلت معها ما فعلته الاخرى فالحمد لله الذي بظل دولتنا عندما ابعدت المقاطعجين والغتهم حصلت الراحة التامة التي نحن فيها الان ومن الصدف المحزنة التي حصلت من ذلك الوقت هي قصة الخوري يعقوب واخوته وهي لم تزل مؤثرة فيّ لليوم .

الخوري يعقوب الخوري الحاصباني واخوته

ان من اغرب الاتفاق قصة هؤلاء المساكين وهم اربعة واختهم الذين ذهبوا من هذه الدنيا في مدة اربعة اشهر باسباب مختلفة وابقوا والدتهم ثكلى وحيدة في الدنيا .

والخوري يعقوب من عايلتنا من فرع بيت لهيا فتوجه جدهم الاصلي خوريا على حاصبيا فخلف اولادا الذي احدهم ارتسم خوريا محل ابيه باسم الخوري يوسف الحاصباني لانه قطن حاصبيا والثاني شاهين حضر لدير القمر في ايام الامير بشير واتخذها موطناً له وقد توفي عن شاب يدعى ملحماً قتل ١٨٦٠ واربع بنات وقد حصل مالاً وجاهاً وافراً عند الامراء الشهابيين وقد كان كاخياً عند الامير قاسم ومن بناته حبوبه والدة يوسف غنام ثابت صاحب مطبعة الاجتهاد في بيروت والثالث اسمه مارون خلف اولادا وهم الخوري يعقوب صاحب هذه القصة واخوته سليمان واسكندر وجرجي وثلاث بنات احداهن زوجة حبيب وهبي الحج من قيتولي والثانية متزوجة في مراح المكنونية والثالثة عزباء كانت في البيت وقد حضروا جميعاً مع عمهم ووالدهم الى قيتولي وتسموا بالحصباني لحضورهم من حاصبيا فقيتولي قرية من اقليم جزين لفظة سريانية معناها مصيفي فالخوري يعقوب المذكور تعلم في مدرسة عين ورقة وذكرنا انه اتى منها الى مدرسة مشموشة مع المطران بطرس وانه بعد الفتنة حضر مع المطران بطرس الى المعمرية عندما حضر قواس قنصلاتو فرنسا مع اثنين لاجل اخذ المطران وان البعض حذروا المطران ولم يذهب فارسل عوضه الخوري يعقوب مع اخيه سليمان وقبل وصولهم الى صيدا قتلا كما قلنا .

ثم ان لهم اخت قتلت مدة الفتنة في جزين وان لهما اخ اسمه اسكندر تعلم عن عينطورا وعندما حضر بالفرصة لاجل مشاهدة والدته الحزينة الى صيدا في ١٥ آب مرّ بحصانه على نهر الاولى عند مصبه وهناك تراب لزج غرق مع الحصان .

ولهم اخ اخر اسمه جرجي كان نجاراً في بيروت ففي شهر تشرين اول ظهر له سرطان توفي به فاصبحت الام الحزينة وحدها فقدت اربعة رجال وابنة مدة ثلاثة أو أربعة أشهر بعد ما كانت تفتخر فيهم اصبحت وحيدة عن العالم وجميعهم ماتوا باسباب مختلفة ومحلات مختلفة في مدة قصيرة فهذه القصة من اعظم المصايب .

قد ذكرت من هذه الفتنة التي عمت سوريا باسرها ما شاهدته عياناً في اقليم جزين والقصد من ذلك ليس تاريخ هذه الفتنة بل ما مرّ علي من مدتها كقسم لتاريخي وبسبب سنّ الولدنة ما كنت اشعر بخوفها وخصوصاً ما احتجت شيئاً من لوازم المعيشة بل كان كل التعب والخوف عند الاكبر مني سناً .

فبعد ذلك اخذ والدي يفتش لي على مدرسة اتلقى بها العلوم مهما كلفه ذلك ان كان لي أو لاخوتي

لانه كان مستعداً ان يصرف جميع امواله لاجل ذلك وقد قال لي انني ساعطيك مالاً لا يمكن لاحد سلبه منك ولا انا ايضاً وهو العلم وهكذا عمل فانه توجه الى بيروت لايجاد محل في مدرسة عينطورا التي كانت اشهر المدارس وقتئذ يوجد لها كراسي من قبل دولة فرنسا اي ان هذه الدولة الكريمة كانت تدفع مرتب المدرسة عن جملة تلامذة وذلك لاجل تعليم لغتها لانها تعتبر ان الذي يعرف لغتها يتاجر معها ويزورها ويحبها فتكسب من ذلك اكثر من مصروف تلميذ وكانت تعطي هذه الكراسي عن يد المطارنة الكاثوليكين أو عن يد من له وساطة عند القونصلاتو فسيادة المطران بطرس البستاني الذي كنت تلميذه في مدرسة مشموشة اوجد لي كرسياً في عينطورا فطلبني والدي الذي كان يومئذ في بيروت للحضور اليها لكي اتوجه الى عينطورا برفقته .

ما شاهدت من بكاسين الى عينطورا

فسفرة مثل هذه كانت تعدّ في تلك الايام من اعظم السفرات على الاولاد لان يقتضي لها مشي ثلاثة ايام من بكاسين الى عينطورا نظراً لرداءة الطرقات وعسر مسالكها فعند استعدادي للسفر استأجروا لي حماراً وصاحبه من جنسه ووضعوا لي فرشتي وثيابي بخرج فوقه وركبت كانني ملكت البصرى وقد ودعتني الاقارب بالبكاء ومشوا معي نحوا من ربع ساعة كانني ذاهب الى الصين وهذا من عدم العادة على الاسفار اخيراً وصلنا الى محل يسمى مرج بسري بعد مشينا مدة ساعة من الزمن نزولاً .

مرج بسري

بسري لفظة سريانية معناها اللحم وربما سميت ذلك لانه كان يضحي فيها الضحايا للالهة الهيكل الموجود اثره فيها لحد الان وهي عواميد من الكرانيت لم تزل واقفة للآن وحولها بساتين من التوت وفي هذه البساتين آثار أخرى كل ذلك يدل على وجود هيكل فينيقي قديم بنى الرومانيون فوقه هيكلاً آخر وقيل ان اسم هذا الاله سرس اسم اله الحنطة وكان هيكله في هذا المحل وكانوا يقولون عنه بيت سرس حسب اصطلاح السريانية فصار مع الزمن بسري وربما هو الهيكل الذي ذكره تبنيت عازار الذي اكتشفوا جثته في صيدا ويذكر انه اقام هيكلاً في الجبل وهذا الهيكل موجود على مسير الانهر المجتمعة في مرج بسري ومصبها بقرب صيدا تسقي بساتينها وسكانها وهذه الانهر هي نهر الباروك وخلافه من الشمال ونهر جزين وخلافه من الجنوب وعند اجتماع النهرين يكونان زاوية راسها الى الغرب وهناك هو الهيكل .

وربما اذا حصل بعض حفر عن هذه الارض يجدون ما لم نعلمه فهذه هي النقطة المهمة في طريقنا وكان يسمى المرج بوادي العواميد وقد مرّ به الملك الظاهر لمحاربة الذين كانوا محاصرين في قلعة طيرون وقد اخذ بوضع مواد نتنة في الماء النازلة الى القلعة وهذا الذي اوجب تسليمها وبعد تسليمها بني الملك الظاهر

برجاً بجانب القلعة وكتب اسمه على العتبة وقد سقطت هذه العتبة على الطريق بين جزين وباتر وكادت تسقط من على صخر الى بحنين فرفعتها عن الطريق مع رجال كانت معنا عندما كنا مع الاب لامنس اليسوعي الشهير في اثار لبنان نزور هذه الاماكن .

وبعده توجهنا الى طريق بتدين بعدما صعدنا بمعبور المزرعة الشهير الذي هو عبارة عن سلم صخري لا يمكن الركوب فيه لا طلوعاً ولا نزولاً ما لم يكن الراكب كارهاً الحياة .

وبعد ما صعدنا هذا المعبور على اقدامنا مدة ربع ساعة صعوداً عمودياً تقريباً دخلنا في غابة من الزيتون تخص مزرعة الشوف وما بلغنا نصف الغابة حتى وجدنا بركة ماء يحيطها الزيتون وكان الوقت ظهراً نظراً لبطء سير فارس وحماره فجلسنا واكلنا وبعده مررنا تحت المزرعة وهي بلد كبيرة بالنسبة للشوف السويجاني .

الكحلونية

فوصلنا الى مزرعة تدعى الكحلونية تبعد عن بكاسين ثلاث ساعات والكحلونية لفظة سريانية معناها مكحلة وهي قرية صغيرة ذات ماء عذب وامام عينها فسحة عليها شجرة صفصاف يجلس المسافر تحتها للراحة وبيادر البلد ملتصقة بها وهي التي قتل فيها خوري بتدين اللقش ابتداء حركة سنة ٦٠ وبعد ان بعدنا عنها ثلاثة ارباع الساعة وصلنا الى قرية السمقانية .

السمقانية

(لفظة مأخوذة عن السريانية معناها الحمراء — وهي من الشوف) مررنا على عينها التي هي أشرف ماء في تلك الجهات موقع هذه القرية قمة شرحة فيها بناء عظيم كان لعائلة بيت القاضي ومن هذه القرية عائلة بيت ابو هرموش من مشايخ البلاد التي كان منها محمود باشا وهو الذي حارب اول امراء الشهابيين الامير حيدراً .

بعقلين

لفظة سريانية مركبة من باي اعو قلين اي بيت حزن المتعوبين وهي قصبة الشوف وهي التي تعمرت أولاً في الشوف وسكنها الامراء المعنيون الذين حضروا سنة ١١٢٠ الى لبنان بامر طغتكين صاحب دمشق لاجل اطلاق الغارة على الافرنج الصليبيين وسكنوا صحراء بعقلين بالخيام وبعد ذلك اخذوا المنازل وسكنوها .

وهي الان مركز قائم مقامية الدروز الصيفي والعائلة المشهورة فيها هي عائلة بكاوات حمادي الدرزية والذي اشتهر منها علي بك حمادي الرجل الشجاع والسياسي العظيم وسأذكر الافراد اللذين عرفتهم منها في مجرى تاريخي وعائلة بيت الغريب النصرانية التي هي من اصل عائلتنا من الكوارزة من بشري حضر جد هذه العائلة مع امراته الى الشوف ونزل ليلاً خارج بعقلين وبينما هو نايم احس برجل داسه وهرب فاخذ بارودته واطلقها بالظلام فاصابت الرجل فقتل وبعد قليل تراكضت الناس بكثرة اليه وسالوه من هو ولاي سبب اطلق بارودته فخاف منهم جداً واخبرهم انه بينما كان نائماً شعر برجل داسه فرماه بالرصاص دون ان يعرفه فقتل وقال ها انا بين يديكم فتركوه وذهبوا الى المقتول فوجدوه انه من اعظم اعداهم وكان اتى اليهم في ذلك الليل ليفترس احداً منهم فعندما عرفوه ركضوا وراءه فهرب وبينما هم سائرون سمعوا صوت البارود فتوجهوا لمحل الصوت ورأوا الرجل وكان هذا العدو من بيت الحرّ عائلة كانت ساكنة بعقلين فافنتها بيت حمادي وكانت الموقعة على بيادر القرية فالرجل الذي قتله غريّب كان هارباً وكان يسطو ليلاً عليهم فعند ذلك انسروا منه لانه خلصهم من عدوهم وسموه غريّب للتحبب وادخلوه البلد وقطعوا معه عهداً واسكنوه معهم وهذه العائلة تفرقت الان في البلاد فمنها بيت البعقليني في الشوير وبيت الغريب في دير القمر الذين منهم عيد الغريب المتزوج بابنة ابن خالتي سليم بك طرابلسي اميرالاي العسكر اللبناني وهي السيدة حبوبة .

وبعد ان قطعنا السمقانية وطلينا على دير القمر التي هي امامنا للشمال عرجنا على بتدين الامير التي عمرها الامير بشير الشهابي وجلب لها الماء من نهر الصفا وهي الان مركز حكام لبنان وفيها السراية العظيمة ولها تاريخ مخصوص نذكره ونذكر بعض امور على الامير بشير بالاختصار لان تاريخ الاعيان يكفي عن كل شرح .

بتدين

هي لفظة سريانية معناها بيت الحكم أو الدين كانت اولاً خلوة للدروز غير ان الامير بشير عندما حضر مع جاريته اليها حضر لعند ابي علي صاحب الخلوة وكان يأكل عنده وقبلما اتصل الى حكم لبنان وكان مستخدماً عند الامير يوسف ارسله الامير يوسف الى حاصبيا لاجل اختلاف وقع هناك بين امراة وورثة زوجها المتوفي وكانت هذه الامراة من الشهابيين وكان مراده الزواج بها قبل زواجها لحاصبيا وكان غنية وتوفي زوجها بدون عقب فذهب الامير بشير لاجل تسوية الخلاف فتم الصلح بتزويجها للامير بشير المصلح فحضرت الى لبنان مع بعلها واشترت بمالها بيت الدين ومزرعة الجية التي هي على طريق صيدا جانب النبي يونس فلما حكم الامير بيت الدين شاد فيها السرايا وترك دير القمر التي كانت مركز الامراء المعنيين من زمان قديم وسكنها الشهابيون وقد جلب لها الماء من نهر الصفا وبنى المقاصف للصيف واحيا تلك الأرض واضحت جنة بعد القفر وقد وصف المعلم بطرس كرامه الشاعر المجيد النهر عند وصوله الى دار

السرايا وقذف الماء من النوفرة وصبه في وسط الدار في بركة وهذه البركة مزينة بالصفصاف المكنى بالمستحى المتدلية غصونه كشعور الغيد .

دارَ في دارِ الهنـــــا مثـــــلَ العريس	يتـلالا فـي رداءٍ جـوهـرِ
حولـــــــــه السرو كعشاقٍ تميس	في رداءٍ مــن حـريـرٍ اخضـرِ
تبتغي لثم محيـــــــاه النفيس	والحيـــــا يمنعهـــــا بـــــالنظرِ
خلفهنَّ قـــــايمات خـــــدمـــــاً	حولـــــهُ منعطفـــــات الرؤوس
وعليـــــــــه ساهرات تيما	تلتوي اعنـــــاقهـــــا بـــــالنعسِ

وقد انفق الامير كل ما له لاجل بناء هذه العمارات الفاخرة وكانت تشتغل فيها البلاد والاكل من دار الامير ولا تقدر المبالغ التي صرفت والاتعاب التي تضحت على هذه البنايات فبالعموم هو اعظم محل في سورية ويزيد هذا المحل رونقاً قناة الماء فبعد ذهاب عزها ورحيل الامير عنها وتوفيه في الاستانة ورجوع عائلته من النفي وتعين معاش لهم من الدولة العلية حضرت امراته الثانية وهي الست حسنجاه التي ولدت لهُ ابنتين فقط وهما الست سعدى والست سعود واما اولاده الذكور ولدتهم له امرأته الاولى الحاصبانية التي توفت في بيت الدين ودفنت في جنينة السرايا وقبرها هناك لحد الان والست حسنجاه كانت على جانب عظيم من الكرم فاعطت اكثر ما لها للاديرة والرهبان والخوارنة وللخدم وكانت سراية بيت الدين والمقاصف والقناة ملكها قد اعطاها اياهم الامير فعند سنة الستين وتنظيم الحكومة المتصرفية في لبنان قد اشترى المتصرف الاول داود باشا السريا وعماراتها بستة الاف ليرة واشترى منها المطران بطرس البستاني المقاصف والقناة ونقل كرسيه من مشموشة اليها بعد حركة الستين بمال زهيد وعين لها قداديس ابدية عن نفسها فبهذا انتقلت بيت الدين من الملك الخصوصي الى العمومي فالسرايا للحكومة اللبنانية والمقاصف والقناة لكرسي المطرانية ولم يبق للامراء شيء من املاكهم ولا دفن احد منهم فيها ولو لم تشتري الحكومة السرايا ويشتري المطران المقاصف لخربت بتدين من مدة مديدة .

وسنتكلم عن حضور الست حسنجاه من مصر سنة ١٨٧٣ وعن حضوري معها وعند مروري في بيت الدين كان ابتدأ الاصلاح فيها بعد سنة ١٨٦٠ وكان عمار بيت الدين خالياً بين سنة ١٨٠٨ وسنة ١٨٣٠ .

دير القمر

هي عاصمة لبنان تعلو عن البحر ثمانماية متر على سفح جبل متجه للقبلة فقبل وصولنا اليها نزلنا بوادي وقطعنا على جسر هناك ثم صعدنا الى ان وصلنا اليها ونزلت ضيفاً على المرحوم الشيخ زيدان افرام البستاني زوج خالتي هدله ابنة ناصيف الجزيني وكان وصولنا عنده غروباً فلم تعرفني خالتي حتى عرفتها بنفسي فقبلتني وترحبت فيّ وبت عندها تلك الليلة .

وقد كانت الدير منذ القديم مسكن الامراء ومحط الامال ونخبة الرجال والذي رفع شانها اولاً هم الامراء المعنيين كانوا يقضون فصل الشتاء فيها كونها ادفى بالنسبة الى بعقلين ويوجد فيها الى الان بناية باقية من تلك الأيام وهي المسماة بالخرج وهي من بناء المعنيين وسكنها بعدهم الشهابيون والسرايا الموجودة الان هي من عمل الامير ملحم الشهابي وعندما تولى الحكم الامير بشير انتقل الى بيت الدين وكان عليها من جملة المقاطعجية مشايخ بيت ابي نكد .

وبعد ذهاب الامير بشير اضحت بيد متسلم من قبل والي بيروت وبعد سنة الستين عينت عاصمة لجبل لبنان ومركز حكومتها في بيت الدين وقد اقام فيها داود باشا مدة اما الان فهي مديرية بذاتها واستئناف دعاويها للمركز المتصرفي رأساً قيل في تاريخها السماعي المتناقل ان احد الكلاب بينما كان يحفر في الأرض هناك (لان الدير كانت احراش ومحل المواشي) وجد ماء ففرحت الناس بهذا الماء فحالاً نقلوا الى الدير وعمروها وعندما حكم الامير بشير واعطى الامان هرعت الى الدير كل العيال الشهيرة من المدن التي كانت متضايقة فيها ولذا ترى اسماء العيال في الدير يدل على اصلها مثل بيت طرابلسي والعكاوي وبعض عيال اخرى واما العيال الاكثر عدداً وشهرة بالدير هم بيت البستاني وبيت نعمه وبيت أبو شاكر وبيت ثابت من الموارنة وبيت مشاقه والدوماني وبيت الجاهل والصوصه من الروم الكاثوليك .

اما عائلة آل مشاقه قد ذكر لي العالم العلامة الدكتور مخايل مشاقه عندما كنت في دمشق ان اصل عائلته من ادفو كانت تابعة حكم الانكليز واعطيت لليونان فحضر جدهم الى سورية وكان يتعاطى بيع وشغل المشاقة الحريرية فغلب عليه اسم مشاقة وان احد اجداده كان ماهراً في الكتابة والحسابات فاخذه الجزّار الى عكا وجعله من عماله وحكمه في بلاد بشاره وعندما عرف الجزار انه جمع مالاً كثيراً دعاه اليه وقتله وسلب امواله فهربت زوجته الى صور وكان لها ولد عزيز لديها وهو وحيد فبلغ الجزار انها اخفت مبلغاً من الدراهم فارسل وامسك ولدها ونادى من يستفك هذا الولد من القتل بخمسماية ليرة والمهلة ثلاثة ايام فاخذت والدته الخمسماية ليرة ودفعتها للجزار وخلصت ولدها وبعد مدة اعيدت العملية ذاتها الى ان استفكته بخمسماية ليرة اخرى وقد عرفت ان في كل مدة يعمل هكذا عمل فاخذت ولدها وهربت الى دير القمر وهذا هو اصل العائلة فهذه العائلة كريمة الاصل ذات عقول عظيمة اتخذ افرادها العلوم والمعارف ونالت الشهرة وساذكر عند وجودي في دمشق الدكتور مخايل مشاقه لاني عرفته فيها .

فعلى العموم عندما ساد الامن في لبنان بجاه امراه العظام ابتدأت النصارى تأتي اليه من كل المدن وقد حضر النصارى الى جنوبيه مدة الامير فخر الدين كما قلنا والى دير القمر في زمن الامير بشير والذي حاز اعظم شهرة منها هو جرجس باز مدبر اولاد الامير يوسف الشهابي الذي عمل لهم حزب عظيم في البلاد وبني سرايته الشاهقة في دير القمر ولم تزل للان وهي بالحقيقة دار امراء وبعد تولي الامير بشير اخذ اولاد الامير يوسف وسكن معهم في بلاد جبيل وبنى هناك قصره .

ولاخيه عبد الاحد شهرة عظيمة ايضاً خصوصاً في بلاد جبيل وقد قتلها الامير بشير قصد ان يخلص الدير من سيادتهما فلذلك ارسل اخاه الامير حسن مع التلاحقة الى جبيل لقتل عبد الاحد وقتل جرجس بالدير واتفقا على قتل الاثنين بيوم واحد وهكذا صار فسر بذلك الامير بشير وحكم دير القمر بدون معارض .

فبالاجمال ترى ان دير القمر جمعت احسن رجال لبنان وحوت فيها كل اجناس الفضائل كالشجاعة والكرم والمروة وعزة النفس فلو مات احدهم من الفقر فلا يهمه وكلهم اصحاب اشغال وصنائع متقنة كالتجارة ونسج الاقمشة الحريرية والصياغة وخلاف ذلك ولهم على بعضهم غيرة عظيمة ويحبون الضيافة والنزيل عندهم وللان لم تصب لبنان مصيبة الا ويدفعونها عنه بكل شهامة اطباعهم حدة فلا يمكن ان ترى منهم مراء لان عزة النفس تمنع الانسان عن الغش ونسائهم افضل نساء بالعفة والطهارة وحب الزوج فلا تعرف المراة منهم سوى كنيسة التلة وزوجها وقد قال احد مختبري البلاد انه لا يوجد في دير القمر صبوراً لان كل اهاليها ذوي امزجة عصبية حدّي الطباع فلا يستطيع احد ممازحتهم واذا حشرتهم يسبون لك دينك وادابهم العظيمة لم تزل محفوظة عندهم للان .

اقاربي في دير القمر

ان خالتي الكبيرة المسماة حبوبة تزوجت بالمرحوم خليل الطرابلسي الشهير والد سليم بك طرابلسي الذي صار اميرالاي متصرفية لبنان وله اولاداً منهم خليل بك الذي سلك مسلك والده واصبح الان صاقو لغصي في لبنان وكذلك ابراهيم بك مستلم ادارة الاملاك وحليم بك وانيس بك والثانية هدلا ، زوجة الشيخ زيدان افرام البستاني ومنها ولدان امين افندي الذي هو افوكا مشهور الآن في مصر والثاني شاكر بك الذي سمته خالتي على اسمي وهو الآن عضو في دائرة الجزاء في لبنان والاغرب من ذلك ان هذين الشابين علم نفسها دون مدارس كل العلوم العربية بحيث اصبح امين أول كاتب فيها وشاعر وتعلم الافرنسية ايضاً وكذلك شاكر بك صاحب الشهرة بالذكاء والاقدام .

المشهورون في دير القمر بزماني

ان الذين اشتهروا وعرفتهم في زماني من الدير هم احسن رجال الجبل منهم شاكر افندي شاول وبشاره افندي نحول وولده داود الصيدلي الشهير وكذلك اصدق اهل زمانه خطار افندي ثابت وابن عمه سليم افندي رئيس دايرة الحقوق وكذلك عمون بك عمون واخوه انطون بك واولاده وجرجس افندي صفا واخوه المرحوم ديب وولده اسكندر صفا وسعيد بوفياض ومخايل عيد رؤساء محاكم وجملة ضباط اشهرهم برتبة يمباشي المرحوم اسكندر بك طرابلسي ونمر افندي شمعون وكذلك افراد بيت مشاقه كالمرحوم جبران ورفول واولادهم هما الدكتوران داود وسليمان واذا ذكرت الجميع يلزم لي مجلد مخصوص وكذلك في

الغنا والجاه المرحوم نقولا افندي الدوماني وولده حبيب وترى بالديريين من كل الرجال ان كان للسياسة أو للشجاعة أو للكرم أو للعلم أو للمعارف أو للصناعة أو للمرؤة الى اخره .

والذي تفتخر بهم الدير هم اولاد المرحوم انطون بك عمون فسليم بك تقلد جملة قائمقاميات في لبنان واسكندر بك في مصر مع اخوته اذكرهم عند سياحتي الى مصر وكذلك رؤساء البنك العثماني في سلوتيك يوسف افندي لطيف وفي دمشق غالب افندي شاوول وابراهيم افندي ديب من الذين خدموا الحكومة بامانة وولده الشهير اوغست اديب ومن التجار العظام سليم افندي عكاوي ووالده المرحوم قائمقام زحله سابقاً وجملة اناس الذين عرفتهم .

فبارحنا دير القمر صباحاً مع رفيقي فارس وحماره ولم نكد نبعد عنها مسافة ساعة من الزمان حتى وصلنا الى قرية بشتفين ومعناها بيت الشركاء تعلو عن البحر سبعماية متر وتتبع المناصف من مقاطعة بيت أبو نكد .

بيت أبو نكد

وهذه العائلة من مشايخ الدروز حضرت الى لبنان سنة ١١٢٠ لما قدم الامير معن الايوبي الى الشوف وكانوا من اعوانه اصل هذه العائلة من قبيلة من عرب الحجاز توجهوا لفتح مصر وبلاد المغرب واقاموا في مملكة مراكش وفيها تسموا بني نكد وعندما اختلف الامير حيدر الشهابي مع محمود باشا أبو هرموش سنة ١٧١١ كانوا من اعوانه وشاركوه في حرب عين داره على محمود باشا أبو هرموش المذكور وهم علي كبيرهم واخويه نجم ويوسف فقاطعهم الامير حيدر الناعمة وما يليها وكتب الى علي الاخ العزيز بذلك تسمى شيخاً .

فهذه العائلة من اشجع عيال لبنان ولها مآثر حميدة ودير القمر والمناصف من عهدتها وقد كانت المناصف اولاً لبيت حمدان ثم اخذتها النكدية وقد كانوا في غناء عظيم وهم الذين اعطوا لدير الناعمة ارضاً لبناه واشرطوا على الرهبان ان يكون صاحب المقام بطل فبنوا الكنيسة والدير على اسم مار جرجس راكباً حصاناً وحاملاً رمحاً فاحبوا الدير وساعدوه واعطوه املاكاً وان شئت الاطلاع على تاريخ هذه العائلة فعليك بتاريخ الاعيان في جبل لبنان وساذكر من مجرى تاريخي من عرفت منهم واشتهر في زماني .

جسر القاضي

ثم نزلنا الى نهر الصفا وهناك شاهدنا جسراً يدعى جسر القاضي لان القاضي التنزخي من بيصور بناه قيل انهُ عندما كان يشتغل في مطاحنه على النهر مرت امرأة وكشفت عن ساقيها لقطع النهر فعندما رأتها الفعلة ضحكت فتكدر القاضي من ذلك فترك المطاحن وابتدأ بعمل الجسر .

انظر اداب هذا الرجل وما كانت اداب ذلك العصر ويخرج هذا النهر من تحت عين زحلته ويجتمع مع نبع القاع وينزلان سوية الى هذا المكان ويصبان في البحر وهنالك يأخذ اسم الدامور .

الدامور

وهي لفظة سريانية معناها العجب (واسم الاه للفينيقيين) وهناك يسقي اراضي المعلقة وستتكلم عنه فيما بعد وهذا الجسر أي جسر القاضي يبعد عن دير القمر ساعتين تقريباً ثم ابتدأنا نصعد علواً على طريق اسمه الشحار الى ان وصلنا الى .

عيناب

فعيناب لفظة سريانية معناها عين الاب وهي من مقاطعة مشايخ بيت تلحوق .

مشايخ بيت تلحوق

اصل هذه العائلة من جهة قبلة من الغرب من عائلة تسمى بيت عزيم من عرب جزيرة الفراتية اتوا مع الامير معن الايوبي الى الشام فاستدعاهم الامير عامر الشهابي اليه الى حوران واقاموا هناك ثم انتقلوا الى وادي التيم واقاموا بها مدة وجيزة وسنة ١١٤٤ انتقلوا الى بيروت لفتنة حدثت بينهم وبين الامراء الشهابيين واقاموا في رأس بيروت فحدثت فتنة بينهم وبين احد امراء بني الحمراء فقتلوه ونزحوا الى ارض الفيجنية بين الشويفات وكفرشيما وعمروها ثم حدثت فتنة فيما بينهم وبين الامراء آل جمال الدين التنوخية اليمنية فدهمهم هؤلاء فقتلوا منهم تسعة انفار ونجي ثلاثة وفروا الى حومال وتوفي اثنان منهم وبقي واحد اسمهُ أحمد مكنى ابا جنبلاط الذي ذهب الى عيتات لطلب اهلها وتوطنها .

ثم ان الامير حيدر الشهابي مكافأة لمحمد وولده اللذان رافقاه في شرّ عين داره قاطعها الغرب الاعلى بعدما نزعه من يد الامير يوسف الارسلاني واللذين اشتهروا في زماني هم سعيد بك تلحوق وملحم بك وفي زمان صغري حسين بك الذي اشتهر بفصاحته وشجاعته وكل من التلاحقة لحقه دور يكون فيه مديراً على عاليه .

واذا اعتبرت المبدا الحسن فكل افراد هذه العائلة معتبرين ومن اهل العلم فمنهم الشيخ فريد صيدلي قانوني في بيروت ووالده حمد بك وعمه عبدالله بك مدير عاليه الحالي وعبد الحميد بك تلحوق بمباشي الجندرمة سابقاً وعلي بك تلحوق رئيس محكمة الشوف حالياً .

فعيناب بلد شرحة ذات مياه عذبة باردة يقصدها المصطافون من بيروت لجودة مائها وبهجة منظرها لانك ترى منها بيروت ورمالها واحراشها وسحراء الشويفات وكل القرى باسفل منها والبحر المالح وهي تعلو عنه ثمانماية متر فجلسنا للراحة وشربنا من مائها العذب الكائن على الطريق وفيها يوجد خانات للمسافرين تخص المشايخ بيت تلحوق وبعد ان قطعنا عيناب اخذنا ننحدر في درج يسمى درج عيناب وبعده وصلنا الى قرية عين عنوب وهي جنينة الشوف وللامراء الارسلانية دور شاهقة فيها ومنها توجهنا الى بسابا .

بسابا

لفظة سريانية معناها بيت الشيخ وهي ملك الامير افندي الشهابي لها عين ماء عذبة ودكان امامه شجرة سنديان قديمة يستظل تحتها المسافر وكانت احسن مركز على الطريق .

الشهابيون

اصل هذه العائلة من سلالة مرة الذي ولد له ثلاثة اولاد كُلاب وتيم ويقظة .

فمن سلالة كُلاب قصي وعبد قنان وهاشم وعبد المطلب وعبدالله ومحمد نبي العرب (صلعم) صاحب الشريعة الاسلامية .

والثاني تيم من سلالة ابو بكر الصديق .

والثالث من يقظه مخزوم بن عمر بن عبدالله ولعبد الله المغيرة وللمغيرة هشام ولهشام الحرث .

في ٩ تموز الموافق اول صفر من سنة ٦٢٢ لما هاجر محمد بن عبدالله نبي العرب الهاجري (صلعم) امن به الحرث وعدّ من الصحابة وحضر معه واقعة صُفين فاكرمه بماية ابل وفي سنة ٦٢٤ حضر معه يوم بدر وامن به ايضاً ولده مالك .

في سنة ٦٣٣ ارسله ابو بكر مع ابي عبيدة الجراح لفتح دمشق وامرّه على بني مخزوم .

في سنة ٦٣٥ حضر مع عشيرته الى دمشق مع خالد بن الوليد وقتل الحرث وسنة ٦٣٦ امر عمر بن الخطاب ولده الامير مالك ان يقوم في حوران وسكن الشهباء .

وفي سنة ٦٦٦ توفي الامير مالك بعمر ٥٢ وولايته ٣٠ سنة .

وسبب تلقب مالك بشهاب ان امه كانت من ذرية شهاب القريشي من رهط امنة ام النبي (صلعم) وتسمت ذريته بشهاب تبركاً .

وفي سنة ١١٨٢ م توفي الامير عمر وتولى بعده ولده الامير منقذ وهو الذي ترك حوران بعد ان حكمتها عائلته خمسماية وستاً وثلاثين سنة وسبب ذلك وقوع الضغينة بين نور الدين ملك دمشق وصلاح الدين الايوبي ملك مصر وكانت بني شهاب من حزب صلاح الدين حين اتى البلاد الشامية فلهذا السبب خشي الامير منقذ من نور الدين ورحل مع عشيرته من حوران واقاموا في صحراء الجسر اليعقوبي يرومون الذهاب الى مصر وكانوا نحو خمسة عشر الفاً .

وسنة ١١٨٣ لما بلغ نور الدين رحيلهم ارسل لهم خلعاً وهدايا وطلب منهم ان يرجعوا الى محلاتهم امنين فرفضوا فامرهم على البلاد التي نزلوا فيها اي بلاد حاصبيا بعدما حاربوا الافرنج وطردوهم منها .

وعندما عرف الامير يونس المعني بنجاح الشهابيين وطرد الافرنج فرح وحضر ليزور الامير منقذ ويهنئه بالنجاح فرد الأمير منقذ مع ولده محمد الزيارة للأمير يونس الذي استقبلهما في الباروك ثم توجهوا الى بعقلين ثم طلب الأمير محمد طبية ابنة الأمير يونس وكذلك الأمير يوسف ابن الأمير يونس طلب سعدى ابنة الأمير منقذ ومن ذاك الوقت جرى الزواج بين الشهابيين والمعنيين .

ولما توفي نور الدين وملك صلاح الدين الايوبي انعم على الشهابيين بالامارة على البلاد التي افتتحوها .

سنة ١١٩٣ توفي الامير منقذ وعمره ٦٨ سنة وتولى ٢١ سنة ثم ان احد الامراء المسمى بالامير نجيم قد بني له مصيفاً في قمة جبل الشيخ ولم يزل اثره للان والعامة تقول عنه قصر شبيب غلطاً ونظراً لهذا المركز الذي يريك سوريا باجمعها تقريباً وسهول حوران وما وراءها قال الامير فيه شعراً .

ومنزلٍ فوق قنن الشيخ بت بـــه   معـــانق البسط واللـــذات والطرب
اهـــدى لنـــا من صبـــا نجدٍ معطرةً   ومنظراً من بلاد العجم والعربِ

وبالحقيقة انهُ منظر وحيد في الدنيا وهو شرقي جبل طورا الذي اصيف به ويمكنا نقول عن جبل طورا ما قاله الامير عن جبل الشيخ .

وسنة ١٦٩٦ في شهر ايلول توفي الامير احمد المعني بدير القمر وانقطعت بوفاته السلالة المعنية وانتقلت

ولاية جبل لبنان الى الامراء الشهابيين فتولى الاميربشير ابن الامير حسين ابن اخت الامير احمد المتوفي صاحب راشيا .

وعندما ارسلوا يطلبون تثبيته من الاستانة اعترض على ذلك ابن الامير فخر الدين المعني الذي كان منفياً هناك وقال ان للامير احمد ابن بنت تحق له الولاية وهو الامير حيدر فاستفحصوا عن ذلك من والي طرابلس الذي كان يرغب الامير بشير فكتب ان الامير حيدر قاصر في السن فيكون الامير بشير وكيلاً عنه وتم ذلك سنة ١٧٠٦ وقد تولى الامير بشير تسعة سنين وتوفي مسموماً في حاصبيا وذلك انهم عملوا له ملبس احمر وابيض فكان الاحمر مسموماً فاكل منه فتوفي في صفد ودفن في صيدا في تربة المعنيين .

فحكم الامير حيدر الشهابي في لبنان وجرت بينه وبين محمود باشا أبو هرموش الحرب سنة ١٧١١ فانهزم الامير الى غزير فتتبعه الباشا وحرق غزير وعمل تاريخها « ندمت غزير » فهرب الامير حيدر الى الهرمل وبعد رجوع محمود باشا أبو هرموش اليمني اجتمع في عين داره من لبنان مع حزب اليمنية للاشاة القيسية وكان مساعداً على ذلك والي دمشق وبينما هم في عين داره دهمه الأمير حيدر الذي رجع الى المتن وجمع الرجال مع مقدمي ابي اللمع الذين كان يومئذ رئيسهم المقدم حسين وهجموا على عين داره وعملوا السيف في اليمنية حتى انقطعوا وامسكوا محمود باشا وقطعوا لسانه وفقأوا عينيه ومن ذاك الوقت انقطع حزب اليمنية في لبنان وبعد هذه الموقعة امرّ الامير حيدر مقدمي بيت ابو اللمع .

سنة ١٧٣٠ توفي الامير حيدر الشهابي بدير القمر ودفن في مدفن المعنيين وعمره ٤٧ سنة وكانت ولايته ٢٥ سنة وتزوج اربع نساء ومن هذه الاربع تكون سلالات بيت شهاب في لبنان الاربع وله تسعة أولاد فالذي حكم بعده ولده الامير ملحم وبعد الامير ملحم الامير منصور ثم الامير يوسف ثم الامير بشير الشهير الذي نذكر عنه اكثر من الجميع وفيه انتهت امربة الجبل فكان يقول اولها بشير واخرها بشير فالامير بشير هو ابن الأمير قاسم بن عمر بن حيدر الامير اللبناني الاصلي وقد توفي والده في غزير وارخه الشيخ احمد الغرّ مفتي ببروت شعراً .

ابـــا قـــاسما قـــد فقت مجداً على الورى	وسرت الى العليـــــــاء حيـــــاً مسيرك
فـــن بـــالشهـــــابيين مثلك ارتقى	الى درج العليـــــــــــــــا ارخ نظيرك

سنة ١١٨٠ هجرية

ولد الامير بشير ابن الامير قاسم سنة ١٧٦٧ وتولى سنة ١٧٨٨ وتوفي في اسلامبول سنة ١٨٥٠ ودفن في كنيسة الارمن الكاثوليك تولى ٥٢ سنة وكان عمره ٨٤ سنة وقد زرت قبره في الاستانة مدة سياحتي ١٩٠٣ ولهُ ثلاثة اولاد الامير قاسم والامير خليل والامير امين الذي توفي بلا عقب وجميعهم توفوا في

الغربة والذي عرفتهم من الشهابيين هم الامير سعد ابن الامير خليل الذي كان عفيفاً شفوقاً محباً للاصحاب عديم الضرر تقلب في كل وظايف لبنان العالية وفي جميع القائمقاميات ورياسة مجلس الادارة وتوفي عن الامير خليل والامير فايز والامير فؤاد والامير فايق الذي خلف والده بصفاته ووظيفته في القايمقامية والامير خليل من متوظفي نظارة الرسومات في الاستانة .

ومن العجب انه بعدما قرأت هذه المسودة ونظرت اسم الامير خليل قرأت جريدة لسان الحال اليومي المؤرخة الخميس في ٦ شباط ١٩٠٨ غربي ان الامير خليل توفي في بيروت .

والأمير فايز الذي تعلم الطب وتركه ودخل في سلك الجندرمه وهو فيها للآن وأما الذي عرفته جيداً هو الأمير سليم منصور الذي له جملة من قصايدي التي سأذكرها وكذلك تعرفت بالأمير سليم عبدالله وأخيه الأمير منقذ وسيأتي ذكرهما في ظروف وحوادث جرت بيننا .

تنصر الشهابيين

اول من تنصر من هذه العايلة الامير علي حيدر من وادي شحرور سنة ١٧٥٤ عن يد الخوري مخايل فاضل البيروتي من عائلة ابوكاروز توفي هذا الامير سنة ١٨١١ ودفن في كفرشيما مورانياً وسنة ١٨٤٢ تولى الامير بشير ملحم بعد ذهاب الامير بشير وتوجه الى الاستانة .

وفي هذه السنة اي ١٨٤٢ قسم لبنان الى قائمقاميتين قايمقامية للنصارى تولوها بيت ابّي اللمع ومركزها برمانا وقائمقامية الدروز تولوها بيت ارسلان ومركزها الشويفات .

الامراء بيت ارسلان

في سنة ٧٥٠ مسيحية لما قدم الامير ابو جعفر المنصور العباسي الى دمشق قدم اليها من بلاد المعرة الامير المنذر بن مالك واخوهُ الامير ارسلان فاكرمها الامير ولعلمه ان مردة لبنان قاطعين عليه الطريق وحامين الجبل وكل مدة يهجمون على بيروت امرهم بالتوجه الى جبال بيروت .

في سنة ٧٥٩ قدم الأمراء الى لبنان وتفرقوا فيه فالأمير محمود قطن الغرب والأمير ارسلان سكن سن الفيل وحدث بينهم وبين المردة وقايع مهولة في نهر الموت ومن تلك المواقع تسمى النهر بنهر الموت لأنه جرى فيه الدم كالماء وهذه العايلة هي العائلة الدرزية الأميرية في لبنان فلذا كان جميع العيال طايعة ومقرة في تقدمها عليها فلذلك عندما انقسم لبنان الى قائمقاميتين كان القائمقام منها ولم يزل الى اليوم .

قايمقامية الدروز

عندما انقسم لبنان الى قائمقامتين الشمالية للموارنة والجنوبية للدروز كانت العائلة الدرزية المختصة بالقائمقامية عائلة امراء ارسلان كما قلنا واول امير تسمى قائمقامها هو الامير احمد وبعده الامير امين الذي اخبرني عنه والدي لانه كان يحضر اليه من قبل سعيد بك الذي كان مقاطعجي تحت امرته انه كان من اعظم رجال العصر بالفطنة والشهامة والاقدام وكان الجبل بيده يديره كيفما يشا وكان من رجال الدولة العظام وعليه الاعتماد في كل سياسة الجبل وهو الذي جعل والدي مأمور الانفس في اقليم جزين لان الاقليم كان من قائمقاميته وكان الشيخ ناصيف اليازجي شاعره الخاص ولهُ فيه القصايد الغراء وقد توفى قبل سنة الستين وجلس محلهُ ولده الامير محمد الذي شاع ذكره بالعلوم والمعارف حتى استحق ان يكون من اعضاء الشورى في الاستانة فطلب وتوجه اليها وعند توجهه مرَّ بالقاهرة وزار مدرسة الطب قصر العيني وكنت يومئذ فيها وانا الذي استقبلته وعرفني بنفسه فجمعت جميع ارفاقي الشوام ومشينا امامه الى المشرحة وخلافها وكان يستفهم عن كل شيء دليل حبه للمعارف وقد توفي في الاستانة بسبب لم يحدث لحد الان مع بشر ولا ذكر ابداً وهو تسمم بقطرة الاتروبين اي تسمم من القطر بعينه وقد نظرت ذلك في كتاب طبي للعين اتى به مثلاً لنوادر الاتروبين وعندما تشكل نظام لبنان اصبح قائمقام الشوف مدة دواد وفرنكو باشا الأمير ملحم أرسلان الذي كان مشهوراً بالسكينة وحب السلام وعندما حضر رستم باشا أقام بدلاً منه الامير مصطفى ارسلان اخو الامير محمد وابن الأمير الأمين وقهراً عن صغر سنه فانه كان أول رجل مدة رستم باشا بالذكاء والاقدام وقد تعلم عند المعلم بطرس البستاني وعندما حضر واصا باشا اعطى القائمقامية الى نسيب بك جنبلاط ثم رجعت الى الامير مصطفى مدة نعوم باشا وفي اخر مدة نعوم باشا استعفى وجعل محله الامير شكيب .

وعند حضور مظفر باشا ارجع نسيب بك الى القائمقامية الذي بعد مدة استعفى وجعل محله الامير سامي ارسلان وبعده الامير توفيق ابن الامير مجيد ابن الأمير ملحم .

فالرجل العظيم الان في هذه العائلة واميرها وكبيرها هو الامير مصطفى فانه صاحب اقدام ومعارف وسياسة وعنده اول الرتب والنياشين ولم تزل همته وعزمه كانه في الشبوبية ومن اعظم توفيقاته باولاده الثلاث وهم اعظم خلف فالأمير أمين قائمقام السلط الان والامير محمد مستشار سفارة الدولة في السرب والامير عارف تلميذي في الطب وبالحق يقال عنه الامير العارف .

ومن الشعراء الفطاحل الامير شكيب واخيه الامير نسيب وكذلك من اصحاب الاقدام الامراء اولاد لامير مجيد وهم الامير سعيد والامير امين قنصل جنرال الدولة في بلجيكا والامير فؤاد والامير توفيق قائمقام لشوف الحالي الذي ظهر منه من الاقدام اكثر من الامال وكذلك الامير سامي قنصل جنرال الدولة في إشنطون .

وبالاختصار ان هذه العايلة الاميرية الدرزية ممتازة فهي التي حفظت مالها ومقامها للان بسبب ما عندها من الشبان الازكياء واصحاب العلوم والمعارف والجد والاشغال فتراهم متفرقين في كل اقطار الارض لاجل التقدم فانها تستمر في هذا المقام الذي ورثته من اجدادها واكرم شاب الان فيها هو الامير توفيق خليل ارسلان لطيف الخلق وكذلك الامير افندي .

قايمقامية النصارى

بيت ابي اللمع

لم يذكر التاريخ قبل موقعة محمود باشا ابو هرموش وتأمير المقدم حسين الذي أمّره يومئذ الامير حيدر الشهابي شيئاً عن بيت ابّي اللمع قهراً عما سالت من امرائها فم يجبني احد بشيء قال البعض انهم كانوا امراء قبل الشهابين ولا اثبات لذلك وانهم من بني فوارس وغاية ما يعرفه التاريخ انهم مقدمين واظن ان لقب مقدم كلقب امير فقط ان المقدم يكون عسكرياً كقائد جيش والامير ملكياً يامر على القائد مهما كان الامير فقد ذكر التاريخ عن هذه العائلة انها من العيال العظيمة ولها دائماً مواقع خطيرة فهي التي ساعدت الامير حيدراً في شرعندارا وكان لها الحظ العظيم في الفوز وكذلك جملة مواقع تدل على اهميتها .

وعندما انتزع حكم الجبل من يد الشهابيين كانت الامراء اللمعين من اعظم ورثاءها لان اول من تعين قائمقاماً على النصارى وهو الامير حيدر كان منهم ثم بعده الامير بشير احمد الذي بقي لحادثة الستين وعند تنظيم لبنان كان دائماً قائمقام المتن مهم فالذين عرفتهم في هذه الوظيفة هم الامير يوسف علي الذي كان شهماً كريماً وقد عرفت الامير قبلان رئيس مجلس الادارة اليوم وهو رجل عظيم سليم الطويه كريم صاحب اقدام وصاحبٌ صدوقٌ لاصحابه وكذلك الامير يوسف اسماعيل الذي حاز جملة مناصب وقد عرفت الامير امين منصور الذي كان داهية ذلك الوقت في السياسة وعرفت جملة امراء مهم يضيق المقام عن ذكرهم .

الشويفات

مركز قائمقامية الدروز بسبب سكن الامراء الارسلانين فيها سابقاً والان هي لفظة سريانية معناها السهل ربما تسمت بذلك باسم الصحراء الشهيرة امامها وهذه الصحراء من الزيتون قديمة جداً ولم تزل للان كما كانت من زمن الفينيقين والرومانيين .

وعندما ابتدت متصرفية لبنان ابتدت تكون الشويفات مركزاً شتوياً لقائمقامية الشوف واحياناً لا تكونه واما الان فقد اصبحت رسمياً مركزاً شتوياً لوجود السرايا فيها التي انشاها نسيب بك جنبلاط على مصروفه الخاص وقدمها للحكومة فكلفته الف ليرة عثمانية وذلك مدة قايمقاميته الاخيرة مدة مظفر باشا وقد انتهت في سنة ١٩٠٤ .

والعايلة المسيحية التي اعرفها جيداً فيها واعتبرها حقيقة لما ظهر منها من الرجال الكبار هي عايلة بيت شقير الذي منها اسبر افندي شقير واخيه المرحوم عبد واخيه سعيد افندي ايضاً والمرحومين فارس وشاكر وساذكر كل مهم في تاريخي حسب المواقع ومن جملة ما خلفت لنا الشويفات عايلة المرحوم خليل افندي الخوري الشهيرة .

فعدا الامراء الارسلانين يوجد رجال عظام خرجت من الشويفات .

ومن الاغرب نرى بعض بقع محصبة من الرجال كاخصاب خلافها في النبات فاذا تأملنا هذه البقعة التي فيها الشويفات وكفرشيما نراها من اخصب الارض في الرجال والعايلات التي اعرفها فيها كافيات لبرهاني فالارسلانيون من اعظم العيال التي اولدت رجالا ولم تزل وكذلك عايلة شقير والخوري واليازجي في كفرشيما والشميل وتقلا ويوجد خلافهم فلله در هذه الاراضي وربما العدوي بالعلم كالعدوي من الامراض لها تأثير هنا .

دير القرقفة

معناها الجمجمة بالسريانية هو دير على قمة فوق قرية كفرشيما يخص رهبنة الروم الكاثوليك الشويرية والرهبنة مقسومة الى ثلاثة اقسام المخلصية التابعة دير المخلص الكائن في اقليم الخروب وهو اعظم دير لهذه الرهبنة والشويرية أو الحناوية نسبة الى مار يوحنا الشوير وهو اول دير للروم الكاثوليك واول من استعمل المطبعة في بلادنا والحلبية التي انفصلت عن الشويرية سنة ١٨٢٨ وهذه الرهبانات بقانون واحد وهو قانون القديس باسيليوس وقد دخلت هذا الدير مرة في زمان رياسة الاب اغابيوس المعلوف الذي صار فيما بعد مطراناً على بعلبك وقد بني هذا الدير سنة ١٧٦٥ وهو على اسم مار انطونيوس محاط بغابة من السنوبر ولا يبعد عن كفرشيما سوى ربع ساعة فبعد ان انتهينا من هذا السلم المبلط بلغنا قرية كفرشيما .

كفرشيما

هي لفظة سريانية معناها قرية الفضة بلدة عامرة يسكنها بعض من الامراء الشهابيين اخصهم من الذين بعد ان تنصروا اتخذوا مذهب الروم الكاثوليك وقد اشتهر من هذه البلدة بزماننا هذا عائلة بيت

شميل وهي عائلة مجيدة ذات عقول ثاقبة وقد احرز من هذه القرية الشهرة في العلوم والمعارف الشيخ ناصيف اليازجي اللغوي الشهير والشاعر المفلق وولده الشيخ ابراهيم امام اللغة والمرحوم ولده الشيخ خليل وساذكر ذلك متى وصلت لوجودي في المدرسة الوطنية لانه كان معلمي في العربية والمرحوم سليم بك تقلا صاحب جريدة الاهرام رفيقي في المدرسة ذاتها وعائلته التي بلغت اوج العلا باجتهادها ومنها الاطباء الماهرون والتجار المفلحون والسياسيون العظام واهمهم بشاره باشا تقلا .

فهذه القرية غنية بالرجال والمال مياهها غزيرة ومركزها الطبيعي على سفح جبل متجهة نحو الغرب وتحت اقدامها غابة من الزيتون تدعى سحرة الشويفات .

وبعد ما مررنا بكفرشيما نزلنا في قناة نهر لا ماء فيه في ذلك الوقت يدعى نهر الغدير وهذا النهر شتوي وساذكر حادثة جرت لنا به ثم سرنا فبلغنا الى دكان الورور وهناك يوجد بئر ماء .

بير الورور

يبعد عن كفرشيما بين ربع أو نصف ساعة حوله مخازن للبيع والشراء وخان للمسافرين وفيه بيطار للماشية ومن فوق هذا البئر سطح على اربع قناطر لراحة المسافرين وعندما انفتحت طريق العربات اسفل منه لم يعد يمرَّ عليه احد فخرب تقريباً ومنهُ استلمنا سهل قرية الحدت وكانت الشمس اذ ذاك قاربت الغروب ولم يعد لها غير ساعة تقريباً .

وبعد مرورنا على بير الورور وعلى الحدث وصلنا الى بيروت وكان والدي ينتظرني في خان الاصفر فانزلني وبتنا تلك الليلة عند خالتي نجمه زوجة غالب افندي البعقليني الطبيب وفي اليوم الثاني تجهزنا للتوجه الى عينطورا واخذنا ورقة الكرسي من قونصلاتو فرنسا وقبل السفر نذكر شيئاً عن بيروت .

بيروت

لا يمكن الخوض في تاريخ هذه المدينة القديمة التي وصلت الى اعلا الدرجات واسفلها مع تقلبات الايام انما نذكر فقط من هذا التاريخ قسماً بايجاز يفي بالمقصود ولا يملّ القارئ .

قيل عن اسمها (وهو الاصح) ان باني هذه المدينة هو إيل اول ملك على جبيل كان لهُ امرأة تدعى بيروت واهداها اليها ودعاها باسمها ذكر هذا سنكونياتون فقرة ٢ الى ٨ وسنكونياتون هذا هو متشرع

الفينيقيين وهو من بيروت نفسها الف كثيراً واكثر تأليفه عن عبادات الفينيقيين الاصلية انما مع الاسف فقدت جميعها الاّ القليل منها ترجمها الى اليونانية فيلون الجبيلي في كتاب استحضارات الانجيل .

وقالوا ان اسم بيروت مأخوذ عن الفينيقي بئرت جمع بئر نظراً لما فيها من كثرة الابار وان الجبليين هم الذين سكنوها اولاً .

قال الاب مارتين اليسوعي في تاريخ لبنان فكيف ان الجبليين سكنوا فيها قبلما عملت الابار وسموها بهذا لاسم الدال على كثرة الابار فيها مع انه لاجل عمل الابار يلزم مدة طويلة وخصوصاً بانه يوجد فيها نبع اء يكفي لمدينة كبيروت في ذلك الوقت واسم الماء الموجود فيها اليوم يدل على ان اسم هذا الماء فينيقي بركة الدركي الموجودة الان هي لفظة فينيقية معناها (الماء) ذكره قوله .

وكانت تتغير اسماؤها واحوالها تبعاً لتغيير الدول التي ملكتها فتشقى وتسعد معها وبها .

انما على رغم تلك التقلبات فقد كانت محبوبة ومختارة امتيازاً خصوصياً من دونها واذا حققنا في ريخها نراها تقلبت على ادوار شتى نوردها على الترتيب الاتي :

الاول : الدور الفينيقي من اصل مجهول الى ٧٤٠ قبل المسيح .
الثاني : الدور الفارسي من ٧٤٠ الى ٣٠٠ .
الثالث : الدور اليوناني من ٣٠٠ الى ٥٠ قبل المسيح .
الرابع : الدور الروماني من ٥٠ قبل المسيح الى ٦٣٥ بعد المسيح .
الخامس : الدور العربي من ٦٣٥ الى ١٠٨٩ .
السادس : الدور الافرنجي الصليبي من ١٠٩٩ .
السابع : الدور التركي من ١٥١٦ الى يومنا هذا .

فينتج من ذلك ان بيروت سكنها وملكها كل فاتح وبقي فيها اثر من كل هذه الشعوب وديانتهم ائدهم وعلى هذا فيكون اول من سكنها .

١ — اهل جبيل آراميون .
٢ — كنعانيون .
٣ — كلدانيون .
٤ — الماديدن هؤلاء ابقوا لها شرائعاً .
٥ — الفرس .

٦ — اليونان .
٧ — الرومان وقد ضربت نقوداً باسمها بزمان اغوسطس قيصر .
٨ — العرب ايام عمر ابن الخطاب سنة ٦٣٥ .
٩ — الاكراد .
١٠ — الافرنج سنة ١١١٠ فتحها بالدوين الاول وقطع ادوات الحرب من حرش الصنوبر .
١١ — التركمان سنة ١٢٩٠ .
١٢ — الاتراك سنة ١٥١٧ ولم تزل آثارهم للان فاسماء المدن والبلدان والقرى المجاورة لها لم تزل للان على اسمها الاصلي خصوصاً لبنان الذي لم يقوَ جميع الفاتحين على تغير اسمه لما في لفظه من السهولة ولوجود احرفه في جميع اللغات .

ولم ترتفع بيروت في جميع احكام هذه الشعوب المتعددة عليها الاّ في حكم الرومان فقد اوصلوها الى اوج المعالي واعطوها حقوق البلاد الرومانية الاصلية ودعوها جوليا باسم ابنه اوغسطس قيصر امبراطور الرومان في ذاك الوقت .

وكانت محطاً للعلم حتى ان الشرائع الرومانية كانت تعلم فيها فهذه هي المدة التي اشتهرت فيها ورغماً عن تقدم صور وصيدا عليها في التجارة والعمران دامت محافظة على شهرتها بالعلوم والمعارف كما هي الان وفي اخر القرن ١٨ كانت تحت حكم جبل جبيل لبنان خصوصاً في ايام الامير منصور والامير يوسف الشهابيين .

موضعها على رأي الدكتور روفيه زميلي في مدرسة الطب الافرنسية وكان يشتغل بالعاديات هو محل المدينة الرومانية التي كانت تمتد من نهر الغدير الى وادي الشويفات ودكان القسيس تحت اسم لاذقية كنعان ارتأى ذلك بالنسبة الى ما وجده من الانتيكات وهناك يوجد محاجر اكتشفها ولكن لفظة دركي بالنسبة للماء الموجود فيها تدل على ان اصلها الفينيقي هو محلها الان ولا احب ان ادخل في هذا البحث انما اذكر فقط عن احوال بيوت في ايامي وتقدمها وكيف كانت سنة ١٨٦١ وكيف اصبحت الان سنة ١٩٠٨ .

كانت تجمع بيروت من السكان في ذاك الوقت نحو ٦٠ الفا وكانت المدينة القديمة التي كانت في تلك الوادي المحاطة بسور من الجهة القبلية وهو المحل المسمى الان عصور اي على الصور بقرب بوابة يعقوب وعلى الارتفاع الذي هو غربي بوابة يعقوب بني هناك قشلة ومستشفى للعساكر الشاهانية لم تزل لليوم وكانت بعض بيوت متفرقة مثل شركاء في رأس بيروت وفي رأس المدور وكان لجهة برج الكشاف فسحة متسعة فيها شجر الزنزلخت وفي وسطها قناة ماء شتوية وكان برج الكشاف يعلو ٤٠ ذراعاً تقريباً يدخل اليه بدرج لولبي مثل المأذنة وكانت بجانبه خصوصاً لجهه الغرب بنايات منها دير راهبات المحبة الذي سنذكره

فيما بعد وكان على البرج لجهة الغرب محل كومبانية المركبات بين بيروت ودمشق التي نشأت سنة ١٨٥٩ ولم تكن في ذاك الوقت وصلت الى الشام بعد وكانت طرقات البلدة رملية في الخارج ومبلطة في الداخل كما هي الان نظير باقي المدن الشرقية .

واما بيوتها فلكل بيت تصوينة تعلو عن السطح لتحجب كل بيت عن جاره ولهذه التصاوين عيون من نساطل من الفخار لكي تنظر النساء منها ولا ينظرن وخصوصاً لاجل الهواء .

وكانت الخانات محط الغرباء والخيول وغيرها وفي سنة ١٨٦٠ زادت سكانها ممن هاجروا اليها من لشام ودير القمر وحاصبيا وجبل لبنان وانشئت فيها جملة مدارس مثل مدرسة الاباء اليسوعيين التي كانت وجودة من قبل شرقي ساحة البرج التي اشتراها رعد وهاني وسكنت في جوارها فهذه المدرسة كانت خارجية تعلم الافرنسية والعربية وبعض علوم فالمدارس التي زادت اليوم هي اولاً .

المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٣ .
ثم مدرسة الراهبات اللعازريات للبنات .
ثم المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك سنة ١٨٦٥ .
ثم مدرسة الحكمة لسيادة المطران يوسف الدبس للموارنة سنة ١٨٧٥ .
ثم المدرسة الكلية الاميركانية للعلوم والطب .
ثم مدرسة راهبات الناصرة في البوشرية .
ثم مدرسة البروسيانية في قرب ساحة السمك .
ثم مدارس انكليزية مثل مدرسة مستر موت .
ثم المدارس الاميركية للبنات قرب مطبعة الاميركان التي كانت قبل سنة ١٨٦٠ .
ثم المدرسة الكلية في الياسوعية ومدرسة الطب فيها سنة ١٨٨٣ .
ومدرسة الفرار الافرنسية والمدرسة السلطانية والمدارس الرشيدية للعسكرية مما جعل بيروت دار معارف لوم .

وقد أنشئ فيها ايضاً مستشفيات للعازرية والبروسيانية والعسكرية وللروم الارثوذكس .

ومما زاد في تقدم بيروت وعمارها هو انشاء قومبانية نهر الكلب التي كانت بيد الفرنساويين وباعوها كليز بسبب حرب بين فرنسا والمانيا وذلك سنة ١٨٧٥ وهي تبيع متر الماء بخمس ليرات فرنساوية في ة وقد انشأت لها ثلاث احواض في مار متر اعلا محل في بيروت ومنها تتوزع على المحلات واصل هذا من نهر الكلب جرته الكومبانية بقناة الى الضبية ثم تحت جبال دير مار يوسف البرج وباقي القناة نوفة الى الضبيه حيث يوجد هناك حياض متسعة لترويق الماء وآلة تقذف الماء بمواسير من حديد الى

احواض بيروت فكثرة الماء في بيروت جعلت البناء فيها يمتد الى كل ناحية وقد اصبح من رأس بيروت الى النهر نحو مسافة ساعتين غرب بشرق ومن البحر الى الحرش مسافة ساعة .

ومما زاد في اتساع بيروت وتجارتها البور أي الميناء التي ابتدأ الشغل فيها سنة ١٨٨٤ وكان صاحب امتيازها يوسف افندي المطران الذي ساذكره فيما بعد وسكة الحديد الى الشام التي انتهت سنة ١٨٩٥ وامتدت الى حلب على طريق بعلبك وحمص وحماه وكان صاحب امتيازها حسن افندي بيهم وقد باع امتيازه الى الكومبانية الفرنساوية والترامواي اللبناني الذي ضمها بكسروان وطرق العربات التي امتدت لها من البلدان المجاورة كالحدث وبعبدا وسكة النهر وجونية وجبيل والبترون وسكة الشام ودير القمر وسائر قرى جبل لبنان وصيدا .

وقد فصلت عن ولاية سوريا سنة ١٨٩٨ واصبحت ولاية مستقلة واول والي عليها كان علي باشا الذي ساذكره فيما بعد وعند دخولي فيها لاول مرة سنة ١٨٦١ لم يوجد فيها سوى جريدة واحدة وهي حديقة الاخبار ولا مطابع سوى مطبعة الاباء الياسوعيين ومطبعة الاميركان ولا عربة واحدة .

واما الان فاصبحت الجرايد كالجراد ولم تزل تزداد وقد ابتدى عمل الترامواي الكهربائي في سنة ١٩٠٧ .

ولما كانت اقامتي في بيروت اكثر من سواها فساذكر ما حصل لي فيها بالتفصيل .

ولنرجع الى مسيرنا في ٢ تشرين الاول سنة ١٨٦١ ركبت بغلاً وتحتي فراشي وخرجٌ فيه ثيابي وركب والدي فرسه وتوجهنا الى عينطورا وهذا ما نظرناه في طريقنا .

نهر بيروت

وبعد سفر نصف ساعة من البرج الى الشرق وصلنا الى نهر بيروت فنبع هذا النهر شرقي دير القلعة وكان اسمه اولاً نهر ماغوراس طول مجراه عشرون كيلومتر يصب في البحر قرب خليج مار جرجس وله جسر ذي قناطر ضخمة لم تزل للان وهو الحد الشرقي الفاصل بين بيروت وجبل لبنان وقد بني رستم باشا المتصرف مخفراً فيه للمحافظة على الطريق اما عند مرورنا عليه فلم يكن هنالك أقل بناء .

وبعد مبارحتنا عن الجسر بنحو نصف ساعة لجهة الشرق تحولنا الى جهة البحر شمالاً وسرنا على شاطئه الرملي الى ان وصلنا بعد ساعة تقريباً الى ارض صخرية في وسطها بئر قرب البحر عليه سقف فوق قناطر وهو بئر الضبية التي هي الان جنة ذاك المكان وبعد الضبية بربع ساعة تقريباً دخلنا وسط صخور وقلعة

طبيعية مرصوفة بالحجارة اصبحت على مرور الايام ملساء وهي درج نهر الكلب وهي عقبة يتعذر على غير الفارس المجرب ان يجتازها راكباً فترلت مع والدي وقطعناها سيراً على الاقدام وشاهدنا هناك اثاراً قديمة نقشها الفاتحون من الملوك الذين اجتازوا هذا المكان منها صورة رعمسيس الثاني ملك مصر من نحو اربعة الاف سنة وسنحاريب ملك اشور قبل المسيح ٧١٣ سنة والثانية بالفرنسية عن العساكر الفرنساوية التي حضرت سنة ١٨٦٠ وكتابة باللاتينية على الصخور لجهة الشرق من انطونيوس الحكيم تدل على بناء الجسر هناك سنة ١٤٧ بعد المسيح وبعد اجتيازها اجتزنا هذا الدرج وصلنا الى شاطىء النهر وعبرناه بخيولنا ولم نعبر على الجسر الموجود يومئذ الذي بناه الامير بشير الشهابي سنة ١٨٠٩ هذا هو نهر الكلب وهذا الجسر يبعد عن هذه المخاضة قليلاً لجهة الشرق .

نهر الكلب

هو الحد الجنوبي لكسروان وسبب تسميته بذلك فهو على ما قاله البطريرك اسطفان الدويهي انه بعد ما اصلح انطونيوس المذكور الطريق في الصخور وضع تمثالاً من حجر كبير على هيئة الكلب وقيده بسلسلة من حديد معلقة في الصخر وجعل له نقيراً للطعام يقصدون به ان ينبههم بعوائه اذا اتى احدٌ ليغزوا كسروان .

وفي سنة ١٦٠٧ قدم بعض تجار الافرنج فقطعوا رأسه وحملوه الى البندقية لاجل الفرجة واليونان تسمى هذا النهر ليقوس ومعناه الذئب وطول هذا النهر ستة اميال ينبوعه من مغارة جعيتا وتجتمع اليه في ايام الشتاء جميع ينابيع جرود كسروان وخلافها .

جسور نهر الكلب

في سنة ١٥٠ قبل السميح بني له جسراً انطيوخوس ملك سوريا قرب مصبه وخرب سنة ١٤٧ قبل المسيح ثم اقام انطونينوس الحكيم له جسراً وقطع الصخور وبني البرج وانشأ الطريق السالك الى بيروت على سيف البحر كما هو منقوش على الصخر الكائن امام الجسر القديم من الناحية القبلية وهذا نص الكتابة .

الامبراطور قيصر مرقس اوديلبوس انطونينوس السعيد اغوسطوس كبير البرت كبير البريطانيين كبير لجرمانيين الحبر الاعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقوس ونهج الطريق مستسهلاً ولقبه بالطريق لانطوناني في سنة ١٤٧ بعد المسيح .

في سنة ١٢٩٢ جدد بناه سيف الدين ابن الحاج في ايام الملك المنصور بكر ابن السلطان الملك الهاجر نمد بن قلاوون (الدويهي) .

سنة ١٧٩٣ بعد هدمه اقام الامير بشير الشهابي جسراً غيره وقد هدم .

وفي سنة ١٨٠٩ نقل الجسر الى مكان اعلى من مكانه ولم يزل للان وهو الجسر الوحيد الذي كان يوم مرورنا عليه .

وفي سنة ١٨٨٩ بني له واصا باشا متصرف لبنان جسراً عظيماً لمرور العربات على الطريق التي أنشأها على شاطىء البحر فهو اول من سهل هذا الطريق اكثر من انطونينوس وغيره .

وفي سنة ١٩٠٠ انهدم هذا الجسر وجدد بناه نعوم باشا متصرف لبنان وانفق عليه خمسة الاف ليرا .

وسنة ١٩٥٠١ انشأت السكة الحديدة اللبنانية جسراً حديدياً لمرورها عليه وهذه السكة اخذ امتيازها المرحومان رزق الله خضرا واخوه عبد الاحد من صربا كسروان وقد هدم هذا الجسر الحديدي في اليوم والساعة التي هدم فيها الجسر الاول واقيم مقامه آخر محله .

قناة مائه

سنة ١٧٥٠ جرّ الامير ملحم حيدر الشهابي ماء هذا النهر بقناة خصوصية الى الجانب الشمالي وغرس في الوطى اغراساً فكانت تروى املاكه منه مجاناً وضرب ميرة على باقي الاملاك وقد بني مطحنة تحت القناة . ثم بعد ذلك صعدنا شرقاً الى ان وصلنا الى الذوق .

الذوق

لفظة كردية سمتها بذلك التركمان التي اتت وسكنتها .

التركمان

قومٌ من التتر اتوا من بحر الخزر ورحل منهم قوم الى خراسان وسبوا نساء تلك البلاد فدعى الفرس نسلهم تركمان فهذه الامة عمرت الاذواق الثلاث ذوق مكائيل ومصبح والخراب .

وسبب حضور التركمان الى هذه الديار هو انه بعدما ضرب جمال الدين نائب دمشق كسروان سنة ١٣٠٧ مسيحية جلب الى سواحلها تركمان الكورة مع امراءهم آل عساف محافظة على رجوع الافرنج

الصليبيين واهم هذه الاذواق ذوق مكائيل المدعو باسم احد المقدمين كما ان الاذواق الاخر باسماء مقدميها ايضاً .

ذوق ميكائيل

ان الذوق اخذت شهرة عظيمة في اشغال الاقمشة الحريرية والتصوير على القماش بالحياكة فاصبح اهلها متفردين بهذا الفن لم يجاريهم فيه مجار .

قد أنشيء فيها عدّة أديرة اهمها دير البشارة للموارنة باسم الشيخ بشاره جفال الخازن الذي توفي بدون عقب ووقفت امرأته وشقيقته هذا الدير باسم راهبات زيارة مريم لاجل بنات عائلة بيت الخازن وكان له اوقاف عظيمة ذهبت من سوء الادارة وكرم المديرين وقد تأسس سنة ١٨٣٧ وكاد يصبح خراباً غير انه قد اخذت الغيرة حضرت الاباتي القس لويس الخازن رئيس عام الرهبنة الحلبية للموارنة بتجديد بنائه على نسق جديد فابتدى من سنة ١٩٠٦ وهذا الرئيس مثال للغيرة والمروءة فانه يعيد شرف اجداده بعمل المبرات .

وعندما مررنا على هذا الدير سنة ١٨٦١ كان رئيسه الخوري يوسف راجي الخازن انموذج الغيرة والكرم وهو خازنيٌّ حقيقة وكان صديقاً لوالدي وقبل الدخول الى كسروان نذكر شيئاً عن امرائه الحقيقيين المدعوين باسم مشايخ وهم بيت الخازن .

وقبلما نذكر اسرة بيت الخازن نذكر الامراء المعنيين الذين هم اول امراء لبنان الذين شرفوا بيت الخازن .

الامراء المعنية

في سنة ١١٢٠ امر طغتكين صاحب دمشق الامير معن الايوبي ان يقدم بعشيرته الى البقاع ومنها الى لبنان المشرف على البحر لاجل غزو الافرنج في الساحل فحضر الامير الى الشوف الذي كان مقفراً من السكان ونزل بخيامه في مرج بعقلين الذي عمرها وسكن فيها وقد اتحد مع بحتر امير الغرب التنوخي .

وفي سنة ١١٤٩ توفي الامير معن وقام مقامه ولده الامير يونس الذي في زمانه حضرت الامراء لشهابيون الى وادي التيم وقد أجرى معهم معاهدة وحصل زواج فيما بينهم .

وسنة ١٥١٥ عندما فتح السلطان سليم العثماني البلاد ولى الامير فخر الدين عثمان الاول على الشام جعله مقدماً على الجميع .

وسنة ١٥٤٤ توفي الامير فخر الدين عثمان وقام بعده ابنه الامير قرقماز والد الامير فخر الدين الثاني الشهير الذي بسببه حصلت مهاجرة النصارى من شمالي لبنان الى جنوبيه وسبب ذلك هو .

تربية الامير فخر الدين

انه في سنة ١٥٨٤ عندما نهبت خزنة الدولة في جون عكار أمر السلطان ابراهيم باشا والي مصر ان يجمع العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب ويحضر لمقاطعة آل سيفا وامراء لبنان ففر الامير قرقماز والد الامير فخر الدين الثاني مع ولديه الامير فخر الدين والامير يونس ووالدتهما السيدة نسب ومدبرهم الشيخ كيوان الى مغارة جزين وتوفي فيها سنة ١٥٨٤ .

فطلبت الست نسب من مدبر اولادها الشيخ كيوان ان يخبيء ولديها عند احد الامناء في كسروان فلبى طلبها وأخذها ليلاً مع ولادها الى بلونة عند أبي صقر ابراهيم ابن الشدياق سركيس الخازن لانه قيسي وامين وبعيد عن اليمنيه ولعدم الشبهة في المكان لانه كان في ولاية بني عساف اليمنيين وأصل هذا الانقسام قيسي ويمني هو من انقسام علي ومعاوية فكان رئيس القيسية بيت معن ورئيس اليمنية بيت علم الدين وكان لبنان تابعاً هذين القسمين .

بيت الخازن

اصل هذه الاسرة من جاج وقد حضر الى كسروان سركيس بن الياس الخازن الذي ولد ولدين ابا صقر ابراهيم وابا صافي رباحاً فبعدما بقي الامير فخر الدين واخوه الامير يونس مدة سنتين عند ابي صقر الخازن طلبهما خالهما الامير سيف الدين التنوخي من عبيه الذي سلم الامير فخر الدين ولايته على الشوف فتذكر الامير ابا صقر الخازن وطلبه اليه وجعله معاوناً له في الاحكام واعطاه لقب شيخ .

وفي سنة ١٦٠٠ توفي ابو صقر الخازن فأخذ الامير عوضاً عنه ابا نادر وبعد حرب الامير فخر الدين مع يوسف باشا سيفا ومنازعته اياه على كسروان وبعد تسليم الامير فخر الذين هذه المقاطعة الى الشيخ يوسف المسلماني أحد معتمدي آل معن سنة ١٦١٢ سلمها فيما بعد الى بيت الخازن وأقطعهم اياها وعندما تملك بنو الخازن كسروان حضرت النصارى اليه وبنوا لها الكنائس والاديرة وجعلوا لها اوقافاً .

وعندما حضرت الاسرة الجنبلاطية من حلب اتفقت معها وحضنتها عند الامير فخر الدين .

وعندما ارادت الدروز ان تدفع الى الامير حيدر الشهابي بدلاً عن الاملاك التي كانت تخص الشيخ

قبلان القاضي التنوخي الذي توفي بدون عقب ذكر وتزوج بابنته الشيخ علي جنبلاط فهذا البدل كان من اهالي الشوف دروز ونصارى ومن جملتهم بيت الخازن الذين دفعوا خمسة الاف غرش وبيدهم علم ان كل امرأة أو رجل افتقر منهم له الحق أن يأكل من بيت جنبلاط وذلك لكي تتسلم هذه الاملاك الى الشيخ علي جنبلاط صهر قبلان القاضي وهذه الأملاك تسمى بمال السمية .

فينتج من ذلك ان الاسرة الخازنية الكريمة ما زالت ولم تزل كريمة الاخلاق محبة للخير بعيدة عن الشر ولها فضل على الناس وعلى الاكليروس الكاثوليكي لان كل دير أو مدرسة كانت ارضه هبة منهم وكانوا حامين اشخاص الاكليروس وكان لهم مداخلة فعلية في انتخاب بطرك الموارنة الذي كان يلتجيء اليهم فيحمونه من كل شر كما حصل للبطرك الدويهي .

فترى كسروان بيوتاً متفرقة في البراري دليل الامن في تلك الجهات وكان لها الفضل على كل غريب حضر هذه البلاد خصوصاً اذا كان كاثوليكياً وكانت البابوات تحبهم وكانوا امناء نحو الدولة العثمانية الابدية القرار .

وبالاختصار لهم الفضل على الديانة الكاثوليكية والانسانية وقد خدم بعضهم دولة فرنسا فجعلهم قناصلاً لها .

ارسال والدي الى بيت الخازن

كان والدي كما ذكرنا مدبراً لسياسة سعيد بك جنبلاط حاكم الشوف والاقليم وكان سعيد بك من حزب واحد مع بيت الخازن وهذه الاتصالية بينهما من زمان الامير فخر الدين المعني كما قلنا وكان سعيد بك يرسل والدي بامور سياسية الى مشايخ بيت الخازن كما ذكر ذلك الاب الحتوني صفحة ٣٢٩ في تاريخ كسروان قوله وبهذه الغضون ارسل سعيد بك جنبلاط معتمداً من قبله كاتب يده يوسف الخوري البكاسيني الماروني ومعه احد عقال الدروز (وهو الشيخ علم الدين ابن الشيخ قاسم حصن الدين) يخاطب المشايخ الخازنيين قائلاً ان تحزبهم ضد قائمقامهم (وهو الامير بشير ابي اللمع) هو آيل الى ضررهم وضرر كامل ذوي الاقطاع في جبل لبنان فالانكفاف عن هذا التحزب هو الاوفق والاجدر بهم ان يكونوا حزباً واحداً وغرضاً واحداً ان كان مع الامير أو ضده (لانهم كانوا منقسمين على بعضهم) فاجابه الخازنيون شاكرين معروفه وحامدين زكاء فهمه وانهم صاروا يتبصرون بما هو اوفق الخ .

سبب سقوط بيت الخازن سنة ١٨٥٩ هو عندما انقسمت هذه الاسرة الى قسمين اصبح كل قسم نوي شريكه على ابن عمه حتى قل اعتبارهم عند شركاهم وكان الامير بشير احمد يحرك جماعة الذوق طانيوس شاهين عليهم فجرى ما جرى وكل ذلك بسبب الانقسام فلو سمعوا قول والدي بان يكونوا حزباً

واحداً مع الامير أو عليه لما وصلوا لهذه النكبة وهذا على العموم السبب بسقوط اعيان لبنان وهو الانقسام على بعضهم لحد الان .

فبعد ما جلسنا مدة في الدير رافقنا الخوري يوسف راجي الى عينطورا لاجل التوصية بي لانه كان له صداقة مع الرئيس وعندما توجهنا الى عينطورا نظرنا دير البشارة للروم الكاثوليك الذي تأسس سنة ١٧١٩ ومحل آخر بناه بلو مانه القاصد الرسولي سنة ١٨٠٨ وقد باعه القاصد الرسولي لوديفيكوس بيافي الى الخواجا اسعد عواد وأقام مقامه محلاً في حريصا وعند وصولنا الى هذا المحل كشفنا مدرسة عينطورا التي كان لي ثلاثة ايام مسافراً حتى وصلت اليها وذلك عند العصر .

عينطورا

لفظة سريانية معناها عين الجبل ففي ١٦٥٢ أعطى الشيخ أبا نوفل نادر الخازن دير مار يوسف الى الرهبنة اليسوعية لاجل السكن فيه وسنة ١٧٣٤ في ايام البطريرك يوسف ضرغام الخازن الذي حصل المجمع اللبناني في زمانه سلم البادري بطرس مبارك تدبير مدرسة عينطورا الى الرهبنة اليسوعية .

والبادري المذكور كان مارونياً وهو الذي عمر مدرسة عينطورا من المال الذي جمعه من خدمته لامير توسكانية ومن مدرسة بيزا الشهيرة وذلك قبل دخوله في الرهبنة اليسوعية وقد دوّن الاب فرنسيس رئيس عام الرهبنة اليسوعية حجتين احداها بتاريخ ٢٧ شباط سنة ١٧٣٤ والاخرى في ١٠ تشرين الثاني ١٧٢٥ بها يوضح كيفية تسليم الموارنة هذه المدرسة في كسروان ومدرسة زغرتا في زاوية طرابلس لليسوعيين وكيفية ارجاعها للموارنة عند الاقتضاء والحجتان مذكورتان في آخر المجمع اللبناني ومطبوعتان فيه .

وفي سنة ١٧٧٣ تلاشت الرهبنة اليسوعية وحلها البابا اكليمنضوس الرابع عشر بسبب الاضطهادات التي حصلت عليها اولاً من البرتوغال سنة ١٧٥٩ من فرنسا في ٢ تشرين الثاني عام ١٧٦٤ ثم في اسبانيا في ٢ نيسان عام ١٧٦٧ فالبابا اكليمنضوس الثالث عشر لم يلتفت لتشكيات اخصامهم ولكن خلفه خوفاً من أن تمس الكنيسة بضرر الغى هذه الرهبنة ببراءة مؤرخة في ٢١ تموز عام ١٧٧٣ ولكنه أبقاها في مملكتين غير كاثوليكيتين لان ملكيها تمسكا فيها وهما روسيا وبروسيا .

فالبابا المذكور ايد اليسوعيين في هاتين المملكتين فعند الغاء هذه الرهبنة استولى بطريرك الموارنة على مدرسة عينطورا في كسروان ومدرسة زغرتا في زاوية طرابلس وفي عام ١٧٨٢ تحولت كل أديرة الرهبان اليسوعيين في الشرق الى الرهبان اللعازريين وذلك بامر البابا بيوس السادس الصادر في ٢٢ تشرين الثاني وامر لويس الخامس عشر ملك فرنسا الصادر في ٢١ كانون الاول فدخلت عينطورا وزغرتا تحت هذه الأوامر .

وعند الساعة التاسعة عربية في ٢ تشرين الاول عام ١٨٦١ دخلت مدرسة عينطورا وقابل والدي وحضرة الاب الخوري يوسف راجي رئيس المدرسة واسمه ديبر Dupert واعطيا لي ورقة الكونسلاتو فدخلت المدرسة وودعتهما ورجعا .

بناء المدرسة في ذلك الوقت

كان بناء المدرسة في ثلاثة دور فالسفلي فيه الى الشمال الكنيسة جنب البوابة والى الغرب الاقبية القديمة وغرفة المائدة والدار الثانية تقيم فيها الرهبان والرئيس والثالثة للتلامذة وعلى محل المائدة غرف الدرس .

ترتيب المدرسة اليومي

نقوم من النوم على صوت الجرس صباحاً ونصرخ جميعنا Déogratia اي الحمد لله ثم نركع في الفرشة ونصلي صلاة مختصرة وهذه الصلاة نمره ١ ثم نلبس ثيابنا ونغسل اوجهنا وننزل الى محل الدرس العمومي وهناك نصلي صلاة الصبح الطويلة نمره ٢ ثم نجلس الى دروسنا وبعده نذهب الى الكنيسة لاستماع القداس وهناك نصلي نمره ٣ ثم منهُ نذهب للمائدة وقبل الاكل نصلي نمره ٤ ثم ناخذ الاكل بيدنا ونذهب الى الخارج لان هذا الاكل مكوَّن من قطعة من الخبز مع الجبن أو قريشة بشراي ونكمل الاكل وقت لعب الصبح .

ثم بعد هذه النزهة القليلة ندخل الدرس العمومي حيث يفرِّق ناظر الدورس كل فرقة الى مدرستها ويكون معلم تلك الفرقة منتظراً على باب الدرس فيأخذ التلاميذ بانتظام الى مدرستهم وعندما ندخل نصلي نمره ٥ فيسمع المعلم الدروس السابقة ويعطي الجديدة مع فرض الكتابة وقبل خروجنا نصلي نمره ٦ ثم نذهب الى محل النزهة نحوا من ربع ساعة ونعود للدرس العمومي لاجل الكتابة فنصلي في الابتداء نمره ٧ ثم نتوجه الى المائدة لاجل اكل الظهر فنصلي اولاً نمره ٩ فيجلس كل واحد في محله وامامه في الطاولة درجاً فيه ملعقته وشوكته وسكينه وكل عشرة يفرِّق عليهم واحد والخادم يحمل سلة من الخبز ويدور على التلامذة فيأخذ منه كل من خلص خبزه .

واكل الظهر شكلين أو ثلاثة مع فاكهة والجميع محافظون على السكون يصغون الى القارئ الذي يجلس على محل عالٍ ويقرأ على العموم والتاريخ الذي كان يقرأه في زماننا هو تاريخ الرومانيين والمؤلف وران وفي الأيام المشهورة كالاعياد أو لاعتبار شخص ضيف يعطون اذناً بالتكلم والعلامة هي دق جرس ن يد الرئيس وفي آخر الاكل نصلي نمره ١٠ ثم نتوجه لمحل اللعب وبعد ساعة من الزمان نرجع الى درس العمومي ومنه الى المدارس بعد الظهر فاول المدرسة نصلي نمره ١١ وفي آخرها نصلي نمره ١٢ ثم تقل الى مدرسة أخرى كالعربي أو اللاتيني ابتداها نصلي نمره ١٣ وآخرها نمره ١٤ ثم ننزل الى المائدة

ونأخذ العصرونية التي تكون من الخبز أو التين أو الزبيب أو البلح وقبل اخذها نصلي نمره ١٥ ثم بعد الاكل نتوجه الى الدرس العمومي لاجل عمل الفروض المدرسية وقبل الابتداء نصلي نمره ١٦ وعند الانتهاء نمره ١٧ ثم ننزل الى المائدة للعشاء وقبل العشاء نذهب الى درس التعليم المسيحي وفي ابتدائه صلاة نمره ١٨ وفي انتهائه نمره ١٩ ثم نذهب الى العشاء الذي يكون مثل الظهر في القراءة والاكل من شكلين والسلاطة الابدية وقبل الاكل نصلي نمره ٢٠ وبعده نصلي نمره ٢١ ثم نصعد لمحل النوم الذي نصلي فيه الصلاة الاخيرة نمره ٢٢ .

وكنت لاجل المزح اقول عندما خرجت من المدرسة انه اذا كنا ملزومين حسب تعليم الكنيسة ان نسمع القداس نهار الاحد فقط فاذا عملت حساب بالذي صليته في عينطورا ان كل مرة توفي عن قداس فيكون باق لي كثيراً وهذا من باب المزح .

لكن ملحوظاتي ان كثرة الصلاة تخفض الدين لان كل ما قلّ أعتبر ولا تضجر منه النفس فلذلك حكمة الكنيسة جعلت استماع القداس كل نهار أحد أو عيد ليكون الاشتياق موجوداً خصوصاً للاولاد ولحد الان ما نظرت قديساً خرج من هذه المدارس قهراً عن كثرة الصلوات .

اول ليلة دخولي

اول قتلة اكلتها . أوّل عبورك شمعه بطولكِ

ففي هذه الليلة قبل العشاء ذهبنا الى التعليم المسيحي واذ كنت لا اعرف شيئاً من الافرنسية توجهنا الى عند احد الاخوة المدعو فرار لامه الذي كان يعرف العربية مثل باقي الافرنج وكان يومئذ بسن السبعين وله صوت جهوري وكان قاسي الطبع لا يعرف الا الضرب بالكف على وجه التلميذ أو رقبته وكان عنده كرباج يسميه حصاني الابيض وكان يرافقه في الدرس وعندما دخلنا المدرسة وجلست على الطاولة التي بقرب الباب والمعلم على كرسيه التي كان يعلوها بدرج وهي موضوعة بدائرة كأنها قفص فلم ير من المعلم سوى يداه ورأسه وعند ابتداء الدرس خبط بيده على كرسيه وركعنا لاجل الصلاة فابتدا يقول باسم آب ابن روح كدس آمين . بصوت جهوري مع اتساع فمه لاجل خروج الكلام منه فعندما سمعت هذا الصوت لم يمكنني ضبط نفسي عن الضحك بصوت عالٍ بحيث التفت الجميع اليَّ وعندما سمعني نزل اليَّ وضربني بالكف على وجهي فوقعت على الطاولة ووضعت رأسي بين يديّ مكباً على الطاولة فصار يضربني على رقبتي كأني هيئتها له واصرخ وانا مغطي وجهي وعندما تعب آمرني بالركع فركعت على البنك ورجع الى محله وعندما رجع قائلاً : بسم آب ابن صرخت ثانياً اضحك اكثر من الاول فنزل ثانية وزاد ضربي وكنت لم اشعر بالضرب لانشغال فكري بصوته وضحكي الذي تغلب عليّ وانا تحت الضرب وعندما رجع ثالثة الى محله وقال بسم آب راجعت الضحك اكثر من الاول فاخيراً اخرجني الى الخارج واركعني على

الباب فشكرت ربي على ذلك وبعدت عن الباب حتى لا يسمع صوتي من الضحك فكت اضع يدي على فمي حتى لا يسمع ولكني كسرت اضلعي من الضحك عندما كنت اسمع الفاظه الملولقة والعربية المضحكة وكان صوته يتنوع بالعلو والانخفاض حسب معاني الشرح وعندما يسكت قليلاً يسعل أو يبصق أو ينشق العطوس فكانت تلك الليلة عظيمة عندي فقهراً عن الضرب والركع وكلمة بوليسون أي معتر ما كان يزول من اذني صوته المضحك .

فاي منا المذنب في هكذا احوال التلميذ أو الرئيس فلا شك الريس لان رجل مثل هذا لا يعرف اللغة العربية ولا لفظها فلا يلزم ان يعينه معلماً في هذه اللغة وخصوصاً للتعليم المسيحي لان هذا العلم لا يحتمل الضحك فكان الاولى بالرئيس ان يضعه محل النزهة فهناك يتعلم العربي على مهله ويضحك التلميذ بحريته فكيف التلميذ الذي حضر من الخارج ليتعلم يجد معلمه اجهل منه ولا يعرف يكلمه في لغته بالطبع يسخر به فوجود القرار له في هكذا مركز مخل والذنب على الرئيس فاخيراً انصرفنا وفي اليوم الثاني دبرها الباري فانقسمنا الى قسمين وكنت في قسمة الاخ ميشال شيحا من الشام ابن عرب نتعلم في التعليم المسيحي فقضيت تلك الليلة بكل انتباه وفي اليوم الثاني ادخلونا في مدرسة المعلم يوسف حسني الذي كان له عيناً من الزجاج نظرتها اول مرة في عمري ثم بعد الدرس قسمونا وكنت في قسمة الاخ ميشال فكنت احفظ متائلي بدون ان افهمها وكان المعلم المذكور يعطينا احياناً بعض ترجمات وكنت دائماً اسأله عن الالفاظ العربية للترجمة لانه كان ينفعنا جداً لعدم وجود قاموس عربي وفرنساوي لاجل الاستعانة به الا قاموس بكتور الذي لا يستطيع أي من كان اقتناءه .

القتلة الثانية

أو حادثة مسيح الدجال

وقد حدث لي حادثة اخرى وهو انه في يوم الاحد كان الرئيس يعظ على مجيء مسيح الدجال وانه يأتي في آخر الزمن ويحصل جوع ومصائب اخرى وكنت جالساً بين اثنين احدهما انطون حيدر ابن سمعان حيدر من الزوق والثاني انطون كتافاكو من عكا وعندما سمع انطون حيدر ماذا يعمل مسيح الدجال ابتدأ يبكي بشهيق كأن مسيح الدجال اتى وجوّعه لانه كان يحب بطنه جدا فصار يبكي على الجوع سلفاً فعندما رأيته بهذه الحالة شفقت عليه وسألته لماذا تبكي اجاب اما انت سامع فقلت له ربما نموت قبل مجيء مسيح الدجال ولا الرئيس يقول انه واقف على الباب لا تخاف ومع ذلك بقي يبكي فلاجل راحته قلت لهُ لا تصدق لا يأتي مسيح الدجال ومضت المسألة في ليلة وأنا في الدرس وكان انطون كتافاكو بجانبي وكان في صفي في المدرسة وكان كسلاناً جداً ولم يعرف يعمل فرضه فكنت دائماً أعطيه فرضي لينسخه ففي أحد الأيام تكدرت منه ولم أشأ أن أعطيه فرضي فرأيته حالاً خرج من الدرس وكان ذلك ليلة الأحد فبعد مدة

ناداني ناظر الدرس فتوجهت اليه متعجباً لماذا يناديني لاني لست طالب الاعتراف في هذه الليلة لأنه لا أحد يخرج من الدرس ليلاً الاّ للاعتراف فقال لي الناظر انك مطلوب لعند الرئيس .

الرئيس ديار

كان هذا الرئيس ديناً جداً ذا آداب عظيمة عصبياً قاسياً جداً مهاباً ما نظرته ضاحكاً ابداً فكنا نرتعب منه وكان طويل القامة بسن الخمسين سنة فصيحاً وكان عند كدره يرتجف كله وكان من مدينة كركاسون من فرنسا وكان له غرفتان الواحدة ضمن الاخرى وكانت تلك الليلة من ليالي شباط القاسية والممطرة فدخلت الغرفة الاولى فلم اره فيها ودخلت الثانية فوجدت الرئيس في وسط الديوان والمعلمين من حوله وانطون ابي حيدر البكا واقفاً مع جاري انطون كتافاكو وأنا غير مفتكر بشيء وكان العادة عند دخولنا الى غرفة الرئيس نرفع طربوشنا ونركع لانه يكون واضعاً صليباً على الحائط .

فعند دخولي عملت هذه الرتبة وتقدمت بكل اطمئنان فحينئذ وقف الرئيس وكان يرتجف كله وناداني بصوت عال وبنغمة من الاوج عندما رآني راكعاً تقرَّب يا شقي ما هذا ضروري أتقول ان مسيح الدجال لا يأتي فها هو قد أتى وهو أنت مسيح الدجال أمدد يدك وكان الكرباج بيده وابتدأ يضربني على يدي وهما في حالة التجليد والبرد فابتدأت أصرخ نعم يا سيدي الرئيس ان مسيح الدجال يأتي نعم يأتي وأنا أؤمن ايماناً ثابتاً بحياتك أؤمن بمسيح الدجال يا مسيو يا رئيسي بحيات المسيح الصحيح خلصني وهو أصم أبكم وما أسمع منه إلاّ مد يدك فكنت أرقص من الوجع فكل ضربة على يدي أرفع رجلي التي من جهتها وأخبط الأرض فيها واعوَّج فمي وأغمض عيني بحركة تشنجية فكادت نفسي تذهب واعتقدت ان مسيح الدجال ما كان يعمل معي هكذا وانه اذا عمل هكذا فيؤمن به كل الناس فبعد هذه العركة آمنت بالدجال الى اليوم وبعد ما تركني رأيت كفي مزرقاً وورم في الحال فخرجت من هناك العن بفكري الرئيس والدجال سوية .

فانظر هذه الطريق للايمان فبدلاً من ان الرئيس يعظني أو يسلمني الى واعظ اخر ويبرهن لي عن مسيح الدجال ويفهمني ان هذا الاعتقاد ضروري ابتدأ يضربني بالكرباج فكيف اؤمن حينئذ بالدجال لا بل ان هذه الطريقة تكفرني بالمسيح الحقيقي وبالرئيس لان جسمي ليس بمستعد ان يكون شهيداً .

وعندما دخلت الدرس ذهبت الى الناظر واخذت يده كعادة المعترفين حتى يظنوا الكل فيَّ انني معترف وبالحقيقة ان كتافاكو وحيدر اعترفا عني لانني كنت اخشى جداً ان اهان امام التلامذة فحضر كتافاكو ضاحكاً فسكت ففي اليوم الثاني مدة اللعب حضر كتافاكو يضحك علي فقلت له من غيظي اسكت يا مقروق

دعوى مقروق

وعندما قلت الى كتافاكو هذه الكلمة توجه حالا الى الرئيس الذي لم يعرف شيئاً من العربية وكذلك كتافاكو لم يعرف هذه الكلمة بالفرنسية فقال الى الرئيس ان شاكر الخوري قال كلمة سفيهة لا اعرف اترجمها لك فقال لي مقروق فقال الرئيس ما معنى ذلك فحينئذ جمع كتافاكو يده وأشار الى ما بين فخذيه وقال له هنا شيء كبير فعندما نظر الرئيس الاشارة الى هذا المحل طار عقله وقال اطلبوا الاخ لامه الذي كان علمنا اول ليلة التعليم المسيحي فحضر وقال له الرئيس استخبر من كتافاكو ماذا يتشكى .

فسأله الاخ وقال له ماذا تتشكى فاجابه ان شاكر الخوري قال لي مقروق فالاخ كذلك لم يعرف هذه الكلمة بالعربية فترجمها بانها كلمة عظيمة جداً فعند ذلك طلبني الرئيس فحضرت امامه وكان يرتجف كعادته وبيده كرباج البارح فقال لي يا شقي ماذا قلت الى كتافاكو فقلت له قلت مقروق لانني لم اعتبر ان لفظة مقروق من الالفاظ الرديئة با اعتبرها مثل أعور كاحتقار للغريب وليست كخطيئة مميتة فلذلك لم انكر ما قلته فقال لي الرئيس ما معنى هذه الكلمة فأجبته اني لم أعرفها بالافرنسية فقال أشر اليها فعملت مثل كتافاكو أي جمعت يدي وأشرت بها الى ما بين فخذي وقلت له ههنا يوجد شيء كبير بقدر البرتقانة فكان جوابه هات يدك وابتدأ يضربني وأنا أقول له ما في شيء بهذه الكلمة من السفاهة اسأل عنها فكان لا يسمع ولا يقشع لان مركز الاشارة عنده كان محظراً جداً فعند خروجي من عنده ابتدأت اشتم وأسب في فكري والعن هذه العيشة التي بين مسيح الدجال وقرق كتافاكو ورمت يدي فحلفت ان لا اكلم كتافاكو ابداً ومن بعد هاتين الحادثتين صرت منظوراً من النظار فكانوا دائماً يلاحظوني ويمنعوني من التكلم مع بعض تلامذة يشكون فيهم مثلي .

انظر ايضاً الى هذا الذنب فعوض ما يعلمني بالافرنسية هذه اللفظة كان يضربني فاذا كانت معرفتها خطيئة فاعرفها بالعربي وما توجهت لعينطورا الاّ لاتعلم الافرنسية ولاشارطهم على علمي فقط كلمات مخصوصة لا بل كل اللغة فن الواجب أن يعلموا كل شيء حتى يعرف المتعلم ما يقول ان كان القول رزيلاً فلا يعيده أو يعرفه متى قيل له مع كل ذلك هذه الكلمة هي من جملة المشوهات كالاعور والأقرع لا تحتاج الضرب إلا لأنها واطية المركز .

مرض الدوسنطاريا

مرضت في الدوسنطاريا مدة شهر فشفيت ولكن بقيت ضعيفاً جداً بالكاديمكني المثي واول يوم طلعت الى الدرس وكان وقت الكتابة العربية قبل الظهر وكان عندي كتاب مجموع من الاشعار احضرته

معي من البيت وكنت اعرف العربية اكثر من ارفاقي لانني تعلمتها في المختارة ومشموشة وكان الكتاب ذا خط جميل من خط والدي فاخذت اكتب بعض اشعار لاجل قاعدة الخط حتى يأخذ خطي عليه فكنت اكتب هذا الشعر .

القتلة الرابعة

أو الشعر

أحب من اجلكم من كـــــان يشبهكم حتى لقـــد صرت اهوى الشمس والقمرا
امرُّ بـــالحجر القـــاسي فـــالثمُهُ لان قلبك قـــاسٍ يشبــــه الحجرا

وبينما انا اكتب حضر حضرة الاب كوكيل وكيل الطبشة (الطبشة هي قطعة من الخشب بسعة الكف من الاعلى ولها ذنب رفيع يقبضه الضارب) واخذ مني الورقة وطلع الى خارج الدرس فقرأها ولما رأى لفظة احب وشعر رجع واخذ مني الكتاب وذهب بي الى حجرته وانا خارج من المرض يومئذٍ ولم يمكني امشي كالعادة فأخيراً مشيت بكل تعب وعناء حتى وصلت الى حجرته فمسك الطبشة التي قلت عنها وقال امدد يدك فقلت لماذا فقال انت تعرف فقلت يا موسيو انا مريض فاجاب لوكنت مت كان احسن اقله خلصت نفسك فاجبته وبماذا اهلكتها اليوم اجاب انت تعرف قال من دون مجادلة هات يدك وامسكها بيده وابتدأ يضربني فاشعرت مع ضعفي ان روحي خرجت من بدني وكلما ضربني يقول اول الشعر احب احب احب عوض احب وانا اقول ما فيه شيء هذا الشعر فاخيراً تركني وقلت في نفسي هذا الذي قلبه يشبه الحجر فتأسفت على ذاتي به وهذه عيشتنا في ذلك الوقت .

انظر هذا التوحش وهذه الطريقة التي تعلم التلميذ الشك فكيف حضرة الوكيل يضربني لأجل أحب مع ان ابتدا العلم عنده بالافرنسية فعل أحب لماذا لفظة أحب في العربي خطية مميتة وبالافرنسية مقدسة ولا كنت افتكر بلفظة أحب انها خطية وعند تنبيه فكري صرت آخذها على معنى رزيل وهذا من فضل الطبشة .

القتلة الخامسة

حبيبي ابيض اشقر

وفي ذات يوم كنا في الكنيسة وكان راكعاً بجانبي انطون أبي حيدر وكان معنا كتاب للصلاة عربي يوجد في هذا الكتاب بعض اقوال من نشيد الانشاد ومن جملتها هذه الاية حبيبي اشقر واحمر الخ

وعندما كنت اقرأ هذه الجملة ضحكت واعطيت الكتاب لجاري انطون الذي ضحك ايضاً عند قرأتها فالاخ فانسان الذي كان مختفياً خلف كرسي الوعظ نظر هذه الحركة فاتى الينا وكان الكتاب لم يزل في يد انطون واضعاً اصبعه في المحل الموجودة فيه هذه الجملة فاستلم الاخ فانسان الكتاب ووضع اصبعه محل اصبع انطون فقرأ هذه الجملة واخذ الكتاب ومضى وبعد طلوعنا من الكنيسة دعونا لمقابلة الوكيل الذي طعمنا الطبشة كعادته فهذه هي المرة الثانية التي اكلناها على حساب انطون صح المثل ان عدوك العاقل ولا صاحبك الجاهل فلو كان حضرته رفع اصبعه عن محل العلام واغلق الكتاب لما وجد الاخ غير كتاب صلوة .

ملحوظاتي

ان كتباً كهذه مع جمل من نشيد الانشاد لا يلزم ان تعطى للاولاد لانهم لا يعرفون الاّ معناها الدارج ولا يعرفون تفاسيرها اللاهوتية فجملة كهذه ضيعت الفكر لولد بسن الأربعة عشر سنة لا يعرف الاّ الحبيب الظاهر ويتعجب من دخول جمل كهذه في كتب الصلاة اظن لو كان الاخ فانسان فسر لنا معناها اللاهوتي والرمزي لكنا تخشعنا وفهمنا الحقيقة اكثر ولكن قصاصه لنا اثبت ما في فكرنا ان هذا كلام معيب .

والذي اقوله وانكت عليه في هذه المدرسة هي القساوة والضرب وشراسة المعلمين وعدم التعقل في قصاصاتهم وما كنت تسمع الا صوت الكرباج والطبشة واحيانا لم تعرف سببه بل يلزم الطاعة العمياء والخضوع المطلق فهذه الطريقة لا تصلح التلميذ ولا تجلعه يعرف اضرار ما يرتكبه فلو كان يؤخذ بالحكمة ويعرف الاضرار التي تنتج عن افعاله المغايرة لكان يصطلح اكثر ويحب معلميه اكثر .

مدة اقامتي في عينطورا

قد دخلت السنة الاولى على حساب دولة فرنسا وكان مرتب المدرسة السنوي ١٨٠٠ غرش وحيث اني لم اكن تقياً جداً حذف الرئيس عني الكرسي المعطاة لي ثم اقمت سنتين على حساب والدي واما العلوم التي تعلمتها في هذه السنين الثلاث ليست بشيء يذكر فاني وصلت الى الصف الثاني في الغراماطيق ودرست قليلاً من الحساب والجغرافية ودرست اللغة اللاتينية سنة واحدة ولا شيء تقريباً من العربية بحيث كل هذه العلوم ما كانت تنفعني شيئاً فخرجت من المدرسة سنة ١٨٦٤ .

تفكري الان في تلك الايام

كنت احسب قبلاً ان تلك الايام ايام الشقاء والتعب وعدم الراحة والحكم وهلم جرا من باقي التشكيات وكنت اخاف كل معلم من المعلمين وربما سببته في قلبي فماذا حصل الان حتى انقلب كل شيء بالضد لانني عند كتابتي هذه الاسطر تذكرت تلك الايام فاغر ورقت عيني بالدموع وتأسفت عليها لاني كنت براحة الفكر لا افتكر بشيء وبالحقيقة لا يعرف الانسان قيمة ما هو عليه الا متى فقده وعندما كنت ارى معلماً من المعلمين الذين كنت ابتعد عنهم اشعر بانشراح عظيم في لقياهم الان وربما ساندم على هذا اليوم الذي اكتب فيه مثلما تأسفت على الماضي .

ولا ا ألوم المعلمين الان على قصاص الذنب ولكن على طريقة القصاص لانني اعرف جيداً انهم يعتقدون بما كانوا يفعلون ان كانوا يرون الخير يقولون خيراً والشر شراً وان مثل هؤلاء الذين تركوا العالم وبلادهم واهلهم وتنعماتهم لأجل هذه المبادي لا يتركونها لاجل خاطري فانا لست افضل منهم حتى يفضلونني على أنفسهم بل بالعكس كانوا يفعلون حسب اعتقادهم فلا لوم عليهم بل لهم الشكر منا وطلب الرحمة لانهم الان في عالم غير عالمنا .

متصرفية لبنان

من اعظم انعامات دولتنا العلية ايدها الله اعطاؤها امتيازاً الى لبنان لم تنله بلاد غيره في اية دولة كانت ولذلك ترى اللبنانيين طائعين خاضعين ومستحملين في بعض الاحوال اخلاق وطباع متصرفيهم ولا يبدون ادنى حركة خوفاً على فقد نظامهم .

فهذا النظام العادل هو اقوى سلاح لضبط وخضوع لبنان فترى منافعه لجميع الطبقات والحالات فللفلاح الحرية التامة في شغله يفلح ويزرع ويحصد ويدرس ويحمل غلته بدون ناظر الاعشار ويزرع دخانه بدون ادارة الرجي ويدفع صاحب الملك مبلغاً معلوماً على املاكه ومهما اشتغل فيها وزادها فالمبلغ نفسه .

واصحاب المقاطعات التي افتكرت انها الغيت فهي كما كانت ترى القائمقام والمدير وكل هيئة حاكمة منهم كما كانوا وترى الاكليروس متمتع بحرية دينية واعتبار وامن على املاكه احسن ما لو كان في رومية مركزه الديني وهكذا في كل فئة وحال من الاهالي فاية نعمة أعظم من هذه فلذلك ترى اللبنانيين متمسكين بدولتهم العلية يفدونها بدمهم واموالهم هذه هي حالتهم العمومية المعقولة واهمية هذه المنفعة

بالخصوص الى الطوائف الغير مسيحية كالاسلام والدروز والمتاولة لان هذا النظام يعفيهم من البدلات العسكرية والقرعة العسكرية وخلاف نظامات .

واما حالة الافراد من اللبنانيين فهي كباقي افراد البشر لا يهتمون الا بما ينتفعون ويقولون .

اذا متُّ عطشاناً فلا نزل القطرُ

وقد كانوا كثيرون في الزمن الماضي وهؤلاء هم الامراء والمشايخ والاهالي أصحاب العيال الممتازة يطلبون الوظائف لعدم شغل آخر لهم فكانوا يسعون بالفساد ضد متوظف لينالوا مصلحته ويرمون الفساد بين المتصرف وقسم آخر لكي يأخذ المتصرف حزباً منهم ولا يستغني عنهم هكذا حصل لحد الآن لأن عديم الشغل يفتكر في ثلاثة امور مضرة اولها اما يتوسوس بصحته ثانيها يعمل فسادا لتسليته ثالثها ينتقد على الدين بفلسفته .

فكانت هذه الاحوال تزداد وتنقص حسب اطباع المتصرف فمن المتصرفين من وصلت هذه الاحوال معه الى أعلى درجة وكل ذلك كان ضرر على الاهالي وتعب على الاخصام والمكسب للمفسدين وقد شرحت هذه الاحوال في قصيدة دعوتها « وصية والد سياسي الى ولده » ساذكرها في القسم الشعري من هذا الكتاب .

فينتج من ذلك انه قهراً عن الراحة التي أعطيت الى لبنان في نظامه تراها بدلت بتعب من غايات متوظفيه واخلاق متصرفيه ماذا ينفع النظام وحسنه اذا كان بيد غير نقية وحسنة المبدى ويعرف مدير هذا النظام ان كلما عمله الانسان من فلسفة ونظام وقوانين هو لاجل راحته فلذلك ترى حسن الحكم غير متعلق بعلوم وذكاء ومعارف الحاكم بل بحسن ادارته التي هي جلب الراحة والسكينة الى من حكمهم ولذلك اذكر في تاريخي هذا ما ابقاه كل متصرف في لبنان من المنفعة والراحة بعد ذهابه منه ولا اعترض ولا ادخل بتصرفه وانتخابه مستخدما سواء كان من حزبي أو ضدّي لان المسئولية على المتصرف فله ان ينتخب لخدمة مصلحته من يشاء فهذه ثقة في مستخدميه لا يمكن يعطيها لاي كان فله الحرية بانتخاب مأموره لكن على شرط أن لا يدع مأموره يستغنم فرصة في نفوذه وينتقم من خصمه لان هذا الخصم له فقط وليس للمتصرف أو للعموم ويكفي المستخدم قبض معاشه وقد فضله المتصرف على غيره فيلزم بالحالة هذه ان تعطي الراحة الى خصمك عوض ماهيتك التي تقبضها وبراحة خصمك يسكت عنك وتستريح انت في مأموريتك .

فالغلط الوحيد من المتصرف هو انقياده أو غشه من مأمور يجعل له خصمه خصماً له نعم ان الذين كونون باطناً ضد المتصرف هم اخصام متوظفيه وليس اخصامه لان اعظم ذنب للمتصرف هو أن يوظف

خصمي ويقويه عليّ ولذا كل متصرف عادل يوظف من الحزبين اولا ليرضي الاثنين ويكتشف أسرار الاثنين ولا ينبغي ان يصدق الا بعد الفحص من الاثنين وليس من صالحه وصالح الحكومة ان يأخذ اعداء اقوياء اذا حاربهم يضرّ البلاد والراحة ويستعبد الى مأموريه ليعمل له حزباً منهم فجميع هؤلاء الاعداء يصيروا خدماً له عندما يتوظف احد اقاربهم أو يبش بوجههم ولاجل راحة المتصرف والاهالي يقتضي ان لا يوظف احداً في مقاطعة هو منها بل ينبغي أن يكون من مقاطعة أخرى حتى يكون بلا حزب وغرض .

وجميع ما ذكرته هو نتيجة اختبار لانه مرّ علي مدة طويلة (ولو ما كنت مستخدماً في الحكومة .

لان هنا كلنا والحمد لله نشتغل بالسياسة من المكاري الى القاري

افحص هذه الامور وكلها واحدة فاذا لاحظنا اول متصرف وهو داود باشا نراه أتى باستعداد عظيم لنجاح البلاد طوعاً لاوامر دولتنا العلية التي تعتبر كل مأمور نائباً عنها يفعل كما تفعل لراحة الاهالي لان الراحة هي سعادة الانسان في هذه الدنيا فمن كان يجلب القلق الى الرعية فيكون اول عاص لدولته لانه لا يوجد اب في الدنيا يحب رجلا يتعب اولاده فالذي يريد ان يكون محبوباً من ملكه ومن رعيته ومن الله والناس يلزم ان يسوسهم برفق ويجلب الراحة للبلاد ولنذكر الان اول متصرف للبنان وهو .

داود باشا متصرف جبل لبنان الاول

تعين داود باشا في ١٠ حزيران سنة ١٢٧٧ هجرية ومكث ست سنوات واحد عشر شهراً وهو ارمني كاثوليكي ومن رجال الدولة العظام له الفضل العظيم في ترتيب لبنان تولى متصرفيته لما كانت احواله مضطربة والدم جارياً والعداوة متمكنة بين الاهالي فرتب المجالس وانتخب المتوظفين ومسح البلاد وقد احب البلاد جداً حتى انه تزيا بزي اهلها وقد رتب العسكرية واحضر ضباطاً افرنسيين وهم القبطانان فان والطاب وابتدأ يعين انفاراً من لبنان وارسل الى اقليم جزين لاجل تعين الانفار خالي يوسف بك ناصيف وقسم الجندرمة الى فرقتين خيالة ومشاة وكان رئيس الخيالة خالي يوسف بك ناصيف ورئيس المشاة الامير سعيد سعد الدين شهاب وقد البسهم لباس الزواف .

وسنذكر فيما بعد الضباط الذين اشتهروا في العسكرية عند وصولنا الى مدة تنصيبهم واما داود باشا فقد اظهر العدل والهيبة وعندما حضر افتكر ان يعامل الاهلين كمعاملة البلاد الاوروبية وقد اخبرني والدي خبراً عنه وهو انهُ عندما حضر وجلس في بتدين كان عنده كلب افرنجي فكان كل يوم صباحاً وهو في ساحة السرايا يلعب مع الكلب ويركض امامه وعندما رأت اهل البلاد ذلك استخفت به واخذت تتكلم عن خفته وعدم ادارته وقد سمع هذا الكلام بعض المتوظفين وكان يحب داود باشا فاخبره عما يقال عنه وقال

له ان اهل بلادنا لم تتعوّد ان ترى حكاماً بهذه الصفة فاجابه ماذا يلزم لنوال الهيبة فقال يلزم ان تكون رزيناً جليلاً في حركاتك امام الناس وتلبس لبساً مهيباً ففي اليوم الثاني لبس بدلته وفروته وملاء غليونه وعبس واذن لاكابر البلاد ان تزوره فكان عندما يدخل عليه شخص يعبس به ويأمره بصرامة ويخرج الزائر الذي كان يقول عند خروجه هذا رجل مهيب تجري اوامره بسرعة ومن ذلك الوقت دخلت الهيبة بقلوبهم .

وحادثة اخرى جعلت الكل يرتجفون منه وهي انه رأى حماراً يعطل التوت حول السرايا فاحضر الحمار وسأل عن صاحبه فانكره الجميع خوفاً من القصاص فأمر بشنق الحمار فمن ذلك الوقت ما عاد رأى حماراً ولا احدا يتعدى على ملك غيره .

وقد كان عند داود باشا كاهناً ارمنياً يترجم له بعض الاهميات وفي الغالب كان يترجم حسب مرامه واغراضه فالحادثة الاتية تكشف عما كان يحصل .

حادثة

مع والدي ويوسف بك مبارك والياس اغا وهبه

ان هؤلاء من المشهورين في اقليم جزين كان يعاكسهم احد الرؤساء ففي احد الايام وهم في بيوتهم صدر امر داود باشا يدعوهم الى المركز فحضروا وطلب اولا الياس اغا لمقابلة المتصرف وعندما سأله الترجمان بعض مسائل وجاوب فكان امر المتصرف بحبسه ثم طلب يوسف بك مبارك وترجم له الترجمان فنال نصيب الاول وعندما طلب والدي ونظر الترجمان طلب من دولته ان يغير له الترجمان واعترض على الوشاية التي أصابتهم وانه اذا سمح له بزمن اكثر لمقابلته يعرض له كل شيء فاجابه انه نهار غد تحضر الى هنا فعند ذلك نزل والدي الى دير القمر وكان له معرفة بالامير افندي شهاب الذي كان يومئذ كاخية دولته فترجى والدي الامير ان يقابل الباشا عنده في السهرة فوعده بذلك وادخله عليه فقابل والدي دولة المتصرف وعرض له عن جميع الحوادث التي جرت قبله في لبنان وعن اخصامه الخصوصيين فاجابه ان الذي تشكى عليهم هو احد الرؤساء فامر دولته والدي ان يذهب الى بيت الدين نهار الغد وعندما حضر عينه في اليوم الثاني كاتباً في مجلس المحاكمات الذي كانت تسمع فيه الدعاوي الحقوقية والجزائية معاً ثم بعد ذلك قابل والدي ذاك الرئيس وسألهُ عن سبب التشكي عليه فاجابه اخبروا بان مرادكم تغيروا مذهبكم الماروني فلذلك اخذت الغيرة الدينية خوري دولته فحلل ان يهلك اجسادهم في السجن ويخلص انفسهم وعندما عرف داود باشا عمل بعكسه خلصهم من الحبس ولم يلتفت الى نفوسهم لان خلاص النفوس يملئ من وظيفة الحاكم .

انتخاب مشايخ الصلح

فعلى حسب نظام لبنان كان للاهالي حق بانتخاب المشايخ وكان يحضر هذا الانتخاب مأمور من قبل الحكومة وقد تولى هذه الوظيفة في اقليم جزين خالي حبيب بك ناصيف وكان انتخاب اعضاء مجلس الادارة اللبناني مناط بالمشايخ فاول عضو لاقليم جزين كان المرحوم والدي وتكرر انتخابه حتى آخر مدة فرنكو باشا وانتخاب الادارة لمدة ست سنوات فبعد سنتين ابتدوا يغيروا الثلث .

وعندما اجتمع مجلس الادارة في تلك السنة وارادوا ان يغيروا ثلثهم بعد سنتين حسب النظام فلاجل ذلك رموا قرعة وضعوا فيها أربعة أوراق سوداء وثمانية بيضاء وجمعوها سوية واخذت الاعضاء تسحب الاوراق فالذين سحبوا الاوراق السوداء ابدلوا وقد جعل لهذا المجلس رئيساً ينوب عن المتصرف يسمى وكيلاً .

واما مجلس المحاكمات فقد انتخب له من كل الطوايف والذين اشتهروا مدة داود باشا هم عمون بك عمون وبشاره افندي نحول وشاكر افندي شاول وعيد افندي ابي حاتم ونعوم افندي قيقانو الذي تسمى قائمقاماً في المركز والمرحوم والدي والشيخ بشاره الخوري وقد رتب داود باشا القائمقاميات التي كانت تسمى يومئذ مديريات وانتخب متوظفيها واغلبهم من اهل المقاطعات الاصليين وقد ارسل قائمقاماً الى جزين في ١٧ ايلول سنة ١٢٧٨ موافقة ١٨٦٢ .

قعدان بك الخازن

هذا هو القائمقام الاول لجزين كان رجلاً كريماً لطيفاً ذا ادارة ثم ابتدل في اول تشرين الثاني سنة ١٢٧٨ موافقة ١٨٦٢ .

عمون بك عمون

هذا هو الذي حضر لجزين وكانت الاهالي تحبه حباً فائقاً فكان دائماً عليه التشكي من حزب آخر لم يرضه ولكنه ما كان يهتم بهذه الامور فكان شجاعاً جسوراً مهيباً عفيف النفس والذيل فكان الجميع يهابونه ثم انتقل الى رياسة مجلس الادارة وكان والدي عضواً فيه وكانا باتفاق تام وعندما حضر دولتلو المرحوم فرنكو باشا خرج من الخدمة وبقي الى ان ارجعه رستم باشا وكان مهيباً بحيث لم يدع احداً مدة وكالته يبدي ادنى حركة وقد توفي فجأة في بعبدا ودفن فيها سنة ١٨٧٤ .

وقد احضر داود باشا فابوراً مخصوصاً باسم لبنان كان تحت امره وكذلك أمر بانشاء جريدة عربية وافرنسية سماها لبنان طبعت في بيت الدين وعندي أول عدد منها .

وكان في نيته عمل ميناء الى لبنان فافتكر في معلقة الدامور وباشر بعمل جسر حديدي فوق نهر الدامور ثم اكمل في مدة رستم باشا ولم يزل حتى الان وافتكر ان يتبع المدن التي تحيط بلبنان كصيدا وبيروت وطرابلس وقد قدمت اهل صيدا عرضحالان بذلك الى الباب العالي وكان غرب البقاع تابعاً لادارة الجبل السياسية ويعين قائمقامه من قبل داود باشا واما الاموال الاميرية والاعشار فكانت للولاية وبالاختصار انه كان محباً للبنان وكريماً جداً وكان كلما زار بلداً ودخل كنيستها يدفع لها مبلغاً من المال ويهدي المأمورين الامناء هدايا جزيلة وقد سافر الى الاستانة وغير بعض النظام بانتخاب المأمورين في المحاكم والادارة وهذا النظام كان ان رؤساء الاديان تقدم الاشخاص حسب نظام الولاية اليوم وعندما رأى ان هذه المسألة لا توافقه ولا توافق بعض المامورين عنده اجتهد في الاستانة ان يجعل اعضاء الادارة بانتخاب مشائخ القرى وان يكون هو المسؤل الوحيد في لبنان .

محاكمة التاريخ

لداود باشا

(اعماله الحسنة) كان عفيف النفس كريماً محباً للعلوم والمعارف مجتهداً بتقديم البلاد فمن آثاره الحسنة المدرسة الدرزية الداودية في عبيه فهو الذي انشاها ولم تزل الى اليوم باسمه وكان عادلاً كبير النفس .

(اضراره) من عدم سياسته جعل له اعداء اقوياء منهم البطريرك بولس مسعد كان الاولى به ان يتصادق مع رئيس ملة قوية في لبنان لمساعدته على اطاعة الاهالي له وكذلك عدم ادارته بارضاء يوسف بك كرم الذي كان يتمنى قائمقامية كسروان فلعدم ادارته سبب تلك الاتعاب الى لبنان وخرب بلاداً كانت وفرتها سنة ١٨٦٠ فعل بشمالي لبنان كما فعلت سنة الستين بجنوبيه فاصلاحه الجنوب لا يوازي خرابه للشمال ولم يبق اثر في لبنان سواء كان منه أو قسراً عنه وأخيراً مضى لا يمدحه التاريخ الصادق .

ولو كنت ممن يلتفت الى صالحه الخصوصي لكنت مدحته لانه يحق له المدح مني لانه اول من وظف والدي وهو الذي ارسلني الى مصر لاتعلم الطب فله مني اطيب الشكر والذكر العاطر ولكني لست انا وحدي بلبنان فالتاريخ يتكلم عن العموم وليس عن الخصوص فهذا فكري .

وكان أغاظ بعض البطاركة بكتابته له بطريرك افندي على غير اصطلاح لبنان فلاجل ذلك نذكر اصطلاح الكتابة في ذلك الزمن .

اصطلاح الكتابة في ذلك العصر

كان الاصطلاح اولا بقطع الورق وهو الكتابة على نصف طلحية أو ربع أو ثمن فهذا مهم جداً .

ثانيا النعت والالقاب اذا كان بطريركاً يقال له غب لثم مواطئ اقدامكم والامضاء ولدكم .

للمطران غب لثم انامكم والامضاء ولدكم وللخوري غب لثم اياديكم والامضاء ولدكم أو مستمد دعاكم .

للحاكم غب لثم اياديكم والامضاء خادمكم أو عبدكم وهكذا لكل من هو أعلى .

وأما من الأعلى الى الادنى من البطريرك غب اهداكم البركة الرسولية والمطران أيضاً غب اهداكم البركة والامضاء الفقير الحقير .

والخوري يمضي الداعي لكم والامير يمضي المحب المخلص

وبين الاصحاب غب القبلة أو قبلة الوجنات والامضاء اخوكم .

واما الأوصاف المهمة هي في عنوان التحرير من الخارج وهي يشرف بلثم مواطئ أو انامل قدس الكلي الشرف والاحترام أو الجناب الاكرم والمقام الافخم .

وأما الاسم فكانوا يرفعونه عن السطر وهكذا اصطلاحات عديدة لا نعلم كيف دخلت لغتنا لان كتابات العرب كانت مختصرة جداً تذكر فيها وظيفة الرجل أو لقبه فقط .

مثال ذلك

الى فلان الفلاني أمير الجيش الفلاني أو حاكم البلد الفلانية .

وكان لهم اصطلاحات عجيبة في الاختصار والبلاغة كما حرر احد الخلفاء الى أحد العمال يقول لهُ :

كثر شاكوك وقلّ شاكروك فان عدلت ابقيناك وان خالفت عزلناك .
والحاصل ان هذا الاصطلاح دخيل على اللغة العربية .

وكان كثيراً ما يحدث خصاماً ونزاعاً بسبب هذه الكتابات فاخبرني والدي انه كان عنده دفتراً لاصطلاح الكتابة من سعيد بك جنبلاط الى باقي العيال والمشايخ والامراء وغيرهم وكانوا يحافظون كثيراً عليها .

فلنفحص الان في حقيقة هذه المسألة واهميتها فهل كانوا محقين بهذا الاصطلاح ام لا فاقول متى وجد الاصلاح صار الامر مهماً ولا يمكن تغييره الا مع الزمن مثلاً كان ذلك الامير يكتب لي محب مخلص عندما كان حاكماً عليّ ومعاشي وراحتي منه فكان اصطلاحه موافقاً لمركزه ومركزي واما الان بالعكس فلا يجوز له هذا الاصطلاح .

وقد جرت معي قصة وهي ان احد الامراء فقير الحال وله ابنة مريضة في عينيها فنظراً الى فقرها ادخلتها المستشفى مجاناً وعند شفائها حضر والدها واخذها فقلت له ان يحرر لي عنها فذهب متشكراً وبعد مدة وردني منه تحريراً يقول فيه محبنا المعلم شاكر لان الطبيب عنده كان يسمى معلماً لانه من الامراء :

بخصوص ولدنا الست شفيقة بغاية الصحة اذا جد شيء نبقى نخبركم .

محب مخلص
قرقماز

فاجبتهُ :
اننا انسرينا جداً من صحة الست المصونة ويلزم مداراتها حتى لا ترجع الى المستشفي .

من حبكم خالص
المعلم غير شاكر

وقد حدث لي وانا في دمشق ان احد المطارنة حرر لي تحرير توصية بفقير وكان الامضاء الفقير الحقير المطران الفلاني فاخذت اتأمل هذه الكلمات الفقير الحقير كيف يكون فقيراً وعنده مدخول الوف من الليرات واذا ادعى انها ليست لهُ بل لغيره متي مات وانا ايضاً متى مت لم يبق لي شيئاً فالقصد من الغنى ن يتمتع الانسان بالمال الذي بيده وهو حيٌ من يقدر أن يأخذ منه هذا الدخل أو يمنعه ان يأكل منهُ يتمتع به فاذاً ليس بفقير .

وبخصوص الحقير فهذا أغرب من الاول فكيف يكون حقيراً والناس تركع وتدفع له فما هذا لاصطلاح بالامضاء فقلت في نفسي مرادي اجاوبه واضع له الامضاء الذي كتبه لارى ماذا يقول فان

اعترض احجه بكتابته واقول له فاذا ان هذا الامضاء غير صحيح وان قبله يكون صحيحاً فكتبت له العنوان :

الى حضرة الفقير الحقير المطران الفلاني دام بقاه .
فقامت عليَّ القيامة والصرخة من كل ناحية بانني كافر هرطوقي لا اعرف الله ولا الدين وهلم جراً .

فاجبت هؤلاء انظروا هذا امضاءه فهو مقر بنفسه على حاله وقد اجبته حسبما وصف لي نفسه فاذا كان كذباً فلا يلزم ان يفعله وان كان صحيحاً فلا يلزم ان يتكدر منه فاخيراً قالوا الحق معك .

النتيجة ان جميع هذه الأمور ليست بطبيعية والانسان العاقل لا يقبلها فالحمد لله ان هذه الاصطلاحات قد اخذت تزول بالتدريج مع الزمن الذي يصلح كل امر .

وقد كان أحد المشايخ يريد ان يحرّر تحريراً الى أحد التجار في بيروت فاحتار في الكتابة فاستشار احد اقاربه عن كيفية الاصطلاح فسأله قريبه هل انت بحاجة لهذا الرجل ام لا فاجابه بغاية الحاجة لانني اطلب منه دراهما استدينها منه فقال له اذا اكتب له غب تقبيل كل شيء لكم فهذا رجل عملي يعرف الاحوال .

فغاية العنوان ان يعرف الشخص المرسل له التحرير فان اصطلاحنا لا يعرفنا به لان هذا الاصطلاح يكتب للجميع مثلاً يكتب للكل جناب الاجل الماجد سني الهمم كريم الشيم صاحب السعادة فلان الفلاني ادام بقاه فكل هذه الاوصاف لا تهدينا لمعرفة شخص مخصوص حيث لا يوجد شخصاً بهذه الصفات كلها ولا يمكن للموزع ان يعرفها الاّ بعد اختبار كلي فالاحسن لاجل التعريف ان يقال يصل الى فلان الفلاني التاجر أو التجار في محل الفلاني الاسمر الشاب الطويل (وخصوصاً لزيادة التعريف اذا كان به علامة) الاعور الاعرج الاقرع وهكذا فيصل التحرير بكل امن ويهتدي اليه موزع البريد اكثر فهذا الاصطلاح لا يكون مع انه الحقيقي ولكن لا يحب الشخص ان يقال له الحقيقة على نفسه لكن يحبها على غيره هذا ايضاً اصطلاح لا يمكن تغييره .

الحاصل انه يلزم تغيير هذا الاصطلاح الممل الذي يقتل الوقت ولم يبق احد يلتفت اليه لا سيما وقد قلت المخاصمات لاجله فيكفي ان يقال عن وظيفة الرجل والقابه الرسمية مثلا دولتلو متصرف لبنان فلان الفلاني سيادة فلان مطران المحل الفلاني غبطة فلان بطريرك الطائفة الفلانية وهلم جرا هذا فكري ولا اجادل فكر غيري اذا ارتأء غير ذلك فهذه الالقاب ترفع صاحبها في اعين الجمهور وفي اعين ذاته احسن ما يقال له العفيف وهو يعرف حاله غير ذلك فاما ان يعدك حماراً لا تعرفه أوكذاباً .

ولنرجع الى داود باشا الذي اخذ له خصماً لعدم معرفته اصطلاح كتابة البلاد .

تشكيل حكومة لبنان

قد شكل هذه الهية داود باشا ثم اخذت تتنوع حسب الظروف والاحتياجات فقد زاد رستم باشا دايرة الجزاء وقد ادخل واصا باشا العدلية وبذلك اصطلحت المحاكم القضائية التي كانت مكونة من رئيس يدعى قاض يكون من الطائفة الاكثر عددا ومن نائب من الطائفة التي بعدها من الاهمية بالرجال أو بالاملاك ولا وظيفة لهذا النائب بالحكم ما لم يكن القاضي غايباً وباقي الكتبة تكون من الطوايف الاخرى حسب الاهمية ايضاً وقد زاد دولة نعوم باشا المدعي العمومي وقد زاد دولة يوسف باشا مفتش العادلية فهذه الهيئة التي اذكرها الان هي هيئة سنة ١٨٩٧ .

هيئة المتصرفية سنة ١٨٩٧

المركز

المتصرف

١

العسكرية	عدد	المجالس	عدد	باقي المأمورين	عدد
اميرالاي	١	الادارة	١٦	التلغراف	٣
بمباشي	٢	الحقوق	١٣	النافعة	٢
		الجزاء	١٠		
قولغصي	٥	القلم العربي	٧	الحبس	٤
يوزباشي	١٠	القلم التركي	٥	مأمور السرايا	٣
ملازم اول	١١	القلم الاجنبي	٦	مدعي عمومي	٣
ملازم ثاني	٢٠	قلم الاوراق	٦	مأمور تذاكر	٣
نفار وخلافهم	٩٥٠	مدراء الاقلام	٥		
	٩٩٩		٧٩		٢٢

هيئة القايمقاميات

	قايمقامون	مدراء	مستخدمون القضاء	قرى
١	كسروان ماروني	٩	١٢	٣٨٧
١	البترون ماروني	٧	١٣	٢١٣
١	الشوف درزي	١٢	١٤	١١٣
١	المتن ماروني	٦	١٢	١٧٨
١	جزين ماروني	٢	١١	٢١٣
١	الكوره روم ارثوذكس	٣	٩	٤٣
١	زحله روم كاثوليك	٠	١٠	٣
٧				

مديريات مستقلة

١	دير القمر ماروني	٧	٧
١	الهرمل متوالي	٠	١
١	سمطار	٠	١

فيكون مجموع ذلك ٣٢ مديراً و ٨٨ مستخدماً في القضوات و ٩٩٩ جندياً وموظفاً في العسكرية و ٧٩ في المجالس و ٢٢ مأموراً في وظائف مختلفة ومجموع الجميع ١٢٢٧ مستخدماً .

لباس العسكرية

قد كان لباس العسكرية كما هو اليوم ما عدا الطربوش كان مغربياً وكان لبس الضابط كالنفر يتميز فقط بالشريط وكان العلم العسكري بالعربي فاول من حوله الى التركي واصا باشا وكان قبله رستم باشا غير الطربوش حتى اصبح الضابط اللبناني كباقي ضباط المملكة في اللباس وصار لهم معاش تقاعد مع الانفار حسب نظام المملكة .

نظام المأمورين

فجميع هؤلاء المأمورين تحت ارادة المتصرف ما عدا مجلس الادارة فانه يعزلهم وينصبهم في ساعة واحدة وبكلمة واحدة وكذلك مجلس الادارة اذا شاء فان العضو الذي يخالف تعذل كل اقاربه من الوظايف ويكون الانتخاب حسب ارادة المتصرف فانه يحرر الى القائمقام انه يريد فلان فالمشايخ قبل انتخابها تشاور القائمقام الذي كان يعطي اسم المطلوب فينتخب وعلى العموم ان المتصرف ينتخب احسن من انتخاب المشايخ فقد صدف في بعض الاحيان توفي متصرف وتوكيل المجلس مكانه فاول جلسة عملوها هي ان يضرب الغفير لهم سلاماً عند دخولهم وهكذا اعمال وقد وكلوهم بعض الاحيان بامور فكانت الناس تتأسف على ذلك لان صاحب الشغل يمكنه ارضاء واحد كالمتصرف ولا ارضاء ١٢ فعلى كل حال فان المتصرف افضل من الادارة وليس له غرض مثلهم وعند اعطاء الحرية للمشايخ بانتخاب العضو صارت الدراهم المنصرفة هي المتصرفة فخسر لبنان شأنه .

فصار من كان يرفع شأنه قد شأنه

انتهاء متصرفية داود باشا

قررت الدولة العلية ان تضع وزيراً مسيحياً من جملة الوكلاء فما وجدت لذلك الوقت سوى داود باشا وكان فؤاد باشا يريد اخراجه من لبنان فلذلك سموه ناظر النافعة فاستعفى من لبنان وبعد ما جلس في نظارة النافعة توجه الى اوروبا لاجل قرض للدولة فظهرت منه الخيانة فهرب الى سويسرا وتوفي فيها ولم خلف احداً وكانت امراته تركته قبلما يأتي لبنان وهكذا انتهى .

مأمورون داود باشا

المحاسبجي من جانب الاستانة العلية

سين افندي من ٦ كانون الثاني سنة ١٨٦٧ الى ١٨٧١

رئاسة المعروضات

د بك تلحوق من سنة ١٨٦٥ الى ١٨٦٨

رئاسة دائرة الحقوق

الامير امين منصور ١ كانون الاول سنة ١٨٦٤ الى ٢٥ كانون الثاني ١٨٦٥
عيد ابو حاتم من ٢٥ كانون الثاني سنة ١٨٦٥ الى ١٠ ايلول ١٨٦٦
حنا بك ابو صعب من ١٠ ايلول سنة ١٨٦٦ الى ١ آب ١٨٦٩

مديرية دير القمر

عبدالله افندي نمور من آذار سنة ١٨٦٢ الى ١٨٦٨

وكلاء مجالس الادارة

الامير افندي شهاب كاخيه ايضاً من سنة ١٨٦٢ الى ١٨٦٤
عيد ابو حاتم من سنة ١٨٦٤ الى ١٨٦٦
نعوم قيقانو من سنة ١٨٦٦ الى ١٨٦٧
عمون بك يوسف من سنة ١٨٦٧ الى ١٨٦٩

مدير الأوض

عزة بك من ١٥ تموز سنة ١٨٦١ الى ١٨٦٤
اكابك من سنة ١٨٦٤ الى ١٨٦٧

ترجمان أول

فضول افندي البستاني من سنة ١٨٦١ الى ١٨٦٤
سركيس افندي من سنة ١٨٦٤ الى ١٨٦٨
جرجي سبرتلي ١٨٦٨ الى اول تموز ١٨٦٨

رئيس القلم الأجنبي

دياب افندي ١٨٦١ ولم يزل الى سنة ١٩٠٧ التي توفي فيها

رئيس القلم التركي

سامي افندي من ١٨٦١ الى ١٨٦٣
خورشيد افندي ١٨٦٣ الى ١٨٦٤
اسعد افندي ١٨٦٤ الى ١٨٦٦
احمد بك ١٨٦٦ الى ١٨٧٠

رئيس القلم العربي

حنا بك ابو صعب ١٨٦١ الى ١٨٦٨

قائمقامية الشوف

الامير ملحم ارسلان ١٨٦٢ الى اخر متصرفية فرنكو باشا

قايمقامية جزين

قعدان بك الخازن من سنة ١٨٦٢ الى ١٨٦٣
عمون بك يوسف من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٦٧
داود بك الخازن من سنة ١٨٦٧ الى ١٨٦٨

قايمقامية زحله

الأمير عبدالله شديد من سنة ١٨٦١ الى ١٨٦١
سليم الصوصه من سنة ١٨٦١ الى ١٨٦٦
حنا افندي زلزل من سنة ١٨٦٦ الى ١٨٦٨

قايمقامية المتن

أمير مراد ابي اللمع من سنة ١٨٦١ الى ١٨٦٥
مير يوسف علي ابي اللمع من سنة ١٨٦٥ الى ١٨٦٦
مير بشير عساف ابي اللمع من سنة ١٨٦٦ الى ١٨٦٨

قايمقامية كسروان والبترون

الامير مجيد شهاب من سنة ١٨٦١ الى ١٨٦٤
الامير افندي شهاب من سنة ١٨٦٤ الى ١٨٦٧
الامير داود مراد من سنة ١٨٦٧ الى ١٨٦٨

قايمقامية البترون

الامير امين منصور من سنة ١٨٦٥ الى ١٨٦٧
الامير قيس ملحم شهاب من سنة ١٨٦٧ الى ١٨٦٩

قايمقامية البقاع

اسعد افندي ١٨٦٥ الى ١٨٦٩

قايمقامية الكوره

الامير حسن شهاب من سنة ١٨٦١ الى ١٨٦٢
نقولا نوفل من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٦٤
الامير علي منصور من سنة ١٨٦٤ الى ١٨٦٥
خليل الجاويش من سنة ١٨٦٥ الى ١٨٦٧
الامير حسن شهاب من سنة ١٨٦٧ الى ١٨٦٨

المدرسة الوطنية في بيروت

انشأ هذه المدرسة سنة ١٨٦٣ المعلم بطرس البستاني في بيروت في زقاق البلاط .

المعلم بطرس البستاني

ولد هذا الرجل في الدبية من اقليم الخروب في جبل لبنان سنة ١٨١٩ وقد تلقى العلوم في مدرسة عين ورقة المشهورة وقد درّس فيها الى سنة ١٨٤٠ ثم تركها وأتى بيروت وتعرف بالانكليز عندما حضروا الى سوريا فكان ترجمان عندهم وحينئذ تعرف بقسس الاميركان البروتستان فاعتنق مذهبهم وابتدأ يعلمهم العربية

ويعرب لهم الكتب في سنة ١٨٤٦ انشئت مدرسة عبيه للبروتستان فعاون الدكتور فنديك على انشائها وعلم فيها والف كتابه في مطول الحساب وبقي على هذه الحالة بين تعليم وتأليف وترجمة الى سنة ١٨٦٣ حيث انشأ المدرسة الوطنية وهي أول مدرسة داخلية في بيروت ومن اراد معرفة ترجمته مطولاً فعليه بدائرة المعارف في لفظة دايرة لانه توفي عندما وصل الى هذه الكلمة في اول ايار سنة ١٨٨٣ .

معلمو المدرسة

الرئيس المعلم بطرس : كان يعلم صفاً في اللغة الانكليزية
نائب الرئيس ولده سليم : وكان يعلم الصف الاول في الانكليزي
الست ساره : ابنته كانت تعلم صفاً في الانكليزي ايضاً وقد توفيت تلك السنة
الشيخ ناصيف اليازجي : الشاعر الشهير الصف الاول في العربية
ولده الشيخ ابراهيم : كان يقوم مقام والده اذا غاب
الشيخ يوسف الأسير : كان معلماً لصف الصرف
الشيخ خطار الدحداح : الصف الاول في الافرنسية
الشيخ قبلان الدحداح : الصف الثاني في الافرنسية
المعلم سعد الله البستاني : الصف الثالث في الافرنسية
المعلم اسبر شقير : وبعده المعلم سعيد شقير الافرنسية
المعلم شاهين سركيس : الصف الثاني في العربية والحساب
المعلم يوسف الباحوط : من كفرمتى العربية والحساب
المعلم ابراهيم ناصيف : من سوق الغرب العربية
المعلم خليل ربيز : الصفوف الابتدائية المعلم سليم تقلا للمبتدئين بالعربية
فدخلت في الصف الاول في الفرنساوي والاول في العربي وكذلك في الحساب .

المسألة الدينية

كانت تلامذة هذه المدرسة من ملل مختلفة فكان يرسل الرئيس كل واحد الى كنيسته مع معلم مخصوص نهار الاحد والاعياد وطول حياته لم يتكلم عن المذاهب وكان يوجد خادم مخصوص لاكل اليهود وكان يوجد اختلاف بين المطران بطرس البستاني مطران صور وصيدا وبين المطران طوبيا مطران بيروت بشأن هذه المدرسة فالمطران بطرس كان يجيز لاولاد ابرشيته الدخول فيها وبعكس ذلك المطران طوبيا .

ففي ذات يوم ذهبنا كالعادة الى الكنيسة المارونية في بيروت صحبة أحد المعلمين فبعد دخولنا حضر أحد الكهنة وأخرجنا منها عن أمر سيادته ولهذا صرنا نذهب الى كنيسة الروم الكاثوليك .

درسنا العربي

وكان معلمنا الشيخ ناصيف اليازجي الشهير يعطينا درساً في ارجوزته في النحو وهو من قرية كفرشيما خلق شاعراً وقد بز بالشعر والفصاحة فنال اعلى درجات الفضل بما وضعه من المؤلفات والقوانين المفيدة لدرس العربية وكان يقول لنا اول موال عمله وابتدي يعمل مطلع على المعنى وهو الذي علم ذاته وكان المعلم بطرس يعرض عليه تأليفه كقاموسه محيط المحيط وكان يعطيني الكراس المصلح لاعطيه الى المعلم بطرس وكان يقول لي عند ذلك انا القاموس السيار وعند غيابه كان يوكل ولده الشيخ ابراهيم بالدرس وكان لابساً عمامة سوداء مع قفطان وجبة وصرماية حمراء يحلق لحيته وهو بسن الشيخوخة وكان بيته قريباً من المدرسة وهو من المولعين بشرب القهوة والتدخين وقد كان يعهد الي باشعال سيكارته أو غليونه فكنت اذهب الى خارج الدرس واشعل له الغليون بعد ان ادخن فيه قليلاً وكان المرحوم اخي خليل معي في المدرسة وهو ذو ذاكره عظيمه يعتي اكثر مني في العربية وكثيراً ما كنت اهمل دروسي ولا اجيب على السؤالات التي اسئل عنها فكان بعد جوابي يلتفت الى المرحوم اخي ويقول له :

شعر

اخوك اخو مكـــــاسلـــــة وجهـــــل   فقـــــل لي يـــــا خليلي فكيف انت

وكان له صوت جرش ولسانه غير فصيح لا نفهم كلامه الا بصعوبة وخصوصاً هذا الشعر وهو مولع بفن الموسيقي وصوته لا يطابق النغمات وكان معنا احد التلامذة له صوت جميل كان الشيخ يغني امامه بعض تواشيح يتعلمها ومن جملة هذه التواشيح ما ياتي .

توشيح

يـــــا بـــــدر في سعـــــد السعود   شفـيت بي قلب الحسـود
ترى ليـــــاليـنـــــا تعود   حسب الزمـــــان الاول
قـــــد طـــــال الهين يـــــا نور العين   حتى انضنى بك حـــــالي كـــــل الضنى

دور

دارت بليـــــل قـــــد سجي   فرأيت بـــــدراً في دجي
ولثمت ثغراً افلجـــــا   يحكي ومنـــــه مقتلي
كحيـــــل العين رب الخـــــالين   قـــــدرني وملالي كـــــاس الهنـــــا

دور

مـــــــــــدامتي عن ثغرهـــــــــا والثقـــــــــل لي من نحرهـــــــــا
ويـــــــــدي الوشاح لخصرهـــــــــا تحت الضفـــــــــــــاير تنجلي
قـــــــد حـــــان الحين وبـــــان البين يـــــــــــــا فرحتي بغزالي تلت المنى

لوكان يسمعنا الاب كوكيل من عينطورا لكسر يدي بالطبشة .

رواية يوسف الحسن

وقد الفوا رواية لاخر السنة كنا نتعلمها قبل بشهر وهذه الرواية هي رواية يوسف الحسن وكان المشخصون التلامذة الاتين .

يعقوب	ابراهيم راشد
يوسف	وليم خياط من يافا كان ذا صورة جميلة
فرعون	يوسف علام وكان له هيبة كاملة
رئيس	الاسماعيلية ملحم شكور من عبر زحلتنا واليوم في مجلس الجيش المصري
امرأة فوطيفار	سليمان الجاهل من دير القمر قائمقام زحله الآن
فوطيفار	شاكر الخوري من بكاسين (وهو مؤلفه)

وكان من جملة الرواية نشيد كان يندب به يعقوب ولده يوسف وهو من نظم الشيخ ناصيف اليازجي وهو :

شعر

يـــــــــــــا يوسف الحسن قلبي عليك بـــــــــالشوق زابـــــــــا
مـــــا طـــــاب بعـــــدك عيشي لكنَّ لي الموت طـــــــــــــاب

دور

ويلي على حسن وجـــــــــــــــه قـــــد فـــــاق كـــــل المحاسن
ونظرة منـــــــــــه عنـــــــدي تسوى جميـــــــــــع الخزائن

دور

يـــــــــا ايها الـــــــذئب هلاً رحمـــت ذلَّ الغـــلامِ
قـــــــــــد صرت اشرف وحش اذ نلت اذكى طعـــــــــــامِ

دور

شربت دمـــــــاً ذكيـــــاً	سقيتني الموت فيــــــه
ربيتـــــــــه لك حتى	بُلغت مـــــا تشتهيــــه

دور

هـــــــذه القميص المُوشى	اتى بنقش جـــديــــد
كللتــــــه من دموعي	بنظم درٍ نضيــــــد

دور

يــــــا ليتني مت قبلاً	ولا ارى مــــــا اراه
مـــن ذا يـــلي فـــوادي	وهـــــــل حبيب سواه

دور

يـــــا يوسف الحسن ويحي	متى تعود الليـــــــالي
هيهـــــات ذلك يـــأتي	وانت في الارض بـــــالي

وقد تعلمنا هذه الرواية جيداً وكنا نتمرن عليها في المرسح الذي كان في دار المعلم بطرس وقد شخصناها قبل الفرصة امام دولتلو مخلص باشا والي سوريا الذي زار المدرسة وقتئذ وعندما كنا قريبين من الفرصة ومستعدين لتشخيصها وفد الينا الهواء الاصفر وبسببه هربنا من المدرسة قبل الفرصة .

الهواء الاصفر سنة ١٨٦٥

قد اتانا هذا الوباء عن طريق مصر وقد سمعنا ونحن في المدرسة ان البعض في بيروت توفوا به ولكن الذي زادنا خوفاً هو توفي مخايل بن متى فرح ابن المثري الشهير الذي توفي به فجأة وكنت اعرف هذا الشاب عندما كان يتوجه الى مدرسة عينطورا في آخر السنة لجلب اخوته في المدرسة .

وعندما بلغنا خبر وفاته ارتعبت جداً وخصوصاً لانني كنت اعرفه لان موت من نعرفه له اعظم تأثير فحينئذ ذهبت الى المعلم بطرس واخبرته وقلت له ان مرادي اذهب الى الجبل فضحك وقال وماذا تعمل برواية يوسف فقلت نبقيها للسنة الاتية احسن ما نذهب ونشخصها عنده فقال اذهب (اعني الى الجبل وليس لعند يوسف) وكان اخي المرحوم خليل خرج في نصف السنة لضعفه وللازمة الحمى لهُ فاخذنا حوائجنا وتوجهنا .

وفي اليوم الثاني ذهبنا الى دير القمر ومنها توجهنا الى بكاسين وقد اجتمعت كل اقاربنا في هذه السنة لوجود الهواء الاصفر في المدن فكنا كل يوم نذهب للتنزه في محل دون الاخر وذلك لعدم الشغل وسبب الاجتماع ومحلات شم الهواء هي اولاً .

عري

عري قرية شرقي بكاسين على سفح الجبل المقابل لها وهي كلمة سريانة معناها الباردة وفيها ينبوع عظيم يأتي من اعلاها من تحت الصخور يسمى نبع الناصري نسبة الى الملك الناصر الذي جلس عليه عندما كان في تلك النواحي يسقي كل اغراس القرية والجبل الذي في اعلى القرية فيه صخر كبير محفورة فيه طوابق وغرف وابار تسمى قلعة تيرون اي الصخر الصغير كما قلنا وهي قلعة نيحا التي هي ساعة بكاسين وهي متجهة الى الغرب وعندما تصل الشمس الى وجهها الغربي فيكون حينئذ الظهر وهذا في كل الفصول بحيث كل الجيرة تنتفع منها كساعة عمومية .

شم الهواء في ميشا

ميشا مقام بيد الاسلام من قرية بنواتي لفظة سريانية معناها بناتي مركبة من بنوتين التي كانت وقفاً له وهو على ارتفاع يعلو عن سطح البحر الف ومايتي متر وهذا الارتفاع بشكل مركب ترى منه جميع الجهات وهو غربي بكاسين كأنه شمسية وضعته بكاسين على رأسها وقد اختلفت الاراء بخصوص ميشا .

قال البعض ان احد الفتيان الثلاث الذين رموهم في اتون النار وهم حنانيا وعازريا ومشايل اللذين تسمو شدرخ وميشخ وعبدنغو دانيال الاصحاح ١ عد ٦ و ٧ لانه يوجد ثلاث ارتفاعات مقابلة بعضها على كل ارتفاع مقام باسم احد هؤلاء الفتيان الاول حنانيا له اثر مقام فوق ارتفاع قرية نحنين التي هي شرقي ميشا والارتفاع الثاني فيه اثر مقام لعازريا ويسمى المحل باسم تلة عازور وهو غربي ميشا بحيث يرى ميشا المقامين شرقيه وغربيه .

واقول ربما ان ميشا هو ارتفاع من ارتفاعات بني اسرائيل كان عليه صنم ميشا وميخا وهو الذي كان خادماً عند رجل في جبل افرائيم بصفة كاهن وكان عنده تمثال واتى بنو دان واخذوا الكاهن والصنم الذي معه وملكوا مدينة لايش وسموها باسم قبيلتهم دان وهي الان قرية تل القاضي التي لا تبعد عن محل ميشا اكثر من عشر ساعات وفيها نبع الاردن أو فرع منهُ القضاه الاصحاح ١٨ .

واقول ايضاً ربما هو مقام النبي ميخا الذي كان في ايام آحاز وحزقيا ملوك يهوذا واسمه ميخا المورستي كما انه على تل آخر جنوبي ميشا يوجد مقام للنبي صفنيا ابن كوشي المسمى الان بالنبي صافي .

وحسب قول اهل بنواتي الخادمين لهذا المقام ان ميشا هو ابن يوسف وربما منسى وان مقام زليخه الى الجنوب مقابلاً له وهي والدته فعلى حسب قولهم ان الله كافى يوسف واعطاه زليخه زوجة حتى لا ينحرم

منها فولدت له ميشا أو منسى وان احد اجدادهم الذي حضر الى بنواتي وجد في هذا المحل بلاطاً في الارض مكتوب عليها اسم ميشا وزليخا فجمع مالاً وبنى هذين المقامين وهمابناء عربي اسلامي هذا ما قاله لي احد اهالي بنواتي وهو خليل حسين اسعد من نسل مصطفى الشبل .

ومن منا يزعم ان ميشا هو ابن ارآم بن سام بن نوح وان لآرام أربعة أولاد وهم عوص وحول وجاثر وماش كما في الاصحاح العاشر من سفر التكوين عدد ٢٣ وباسم ماش تسمت مدينة ميشا التي كان يسكنها بنو يقطان وكان سكنهم ممتدا من ميشا الى سفار جبل الشرق أي جبل حرمون وقرية ميشا هي القرية المسماة الان بقرية ميش الكبيرة مع سلسلة الجبال القائمة فيها القرية المذكورة غربي بحيرة الحويلة أو (ميروم) يعني المياه الواطئه وهي بحرة الحولة الان واثباتاً لذلك ان سوريا كانت تسمى باسم بلاد ارام وان اليونان سموها سوريا مختصر اشور بعد ما فتحوا بلاد الاشوريين ولنا دليل آخر وهو ان اخوة ميشا كانوا مجاورين لهُ لان بلاد عوص كانت بلاد حوران ومنها النبي ايوب فتجد الان مقاماً فوق نيحا يطل على مقام ميشا لانه شرقية هو مقام النبي ايوب الذي ذكرناه ونيحا لا تبعد عن حوران ألا مسافة اثنتي عشرة ساعة وكان للنبي ايوب مقام في حوران كانت تزوره الناس في عهد مار يوحنا فم الذهب الذي ذكره .

والثاني من اولاد ارام المسمى حول سكن الحولة وتسمت باسمه وحول معناها انخفاض .

والثالث من اولاد ارام اسمه جاثر وهو الذي سكن جهة جاثور وهي بالقرب من شط الاردن الشرقي وبقي هذا الاسم محفوظاً باسم جاثر وهو الذي التجا اليه أبو شالوم بعد قتل اخيه كما في سفر الملوك الثاني ٢ : ٣٠ و١٣ و٣٧ .

واما الولد الرابع لارام وهو ماش أو ميشا فلا بد من ان يكون له املاكا حول اخوته ولا شك انها كانت ممتدة شمالي اخيه حول الذي منهُ اسم الحولة الان وهذه الارض هي اقليم جزين الان الذي فيها ميشا كما انه يوجد فيها على جميع ارتفاعاتها مقامات للانبياء كنبي صافي فوق جباع والنبي سجد والنبي يعقوب في قرية روم وجملة انبياء في تلك النواحي والنبي ايوب ايضاً .

النتيجة

لماذا نترك الاسماء الواضحة الموجودة للان في بلادنا والتي تدل بصراحة على كلام التوراة ونفرض محلات اخرى لا دليل لها فكل من التقاليد والاسماء يدلنا الى الان ان مركز الفردوس الارضي وادم وهابيل وقايين وشيت ونوح وسام وارام واولادهم كلهم من جهة دمشق والبقاع ولبنان وجبل الشيخ وما حوله وانه بعد ما كثرت العائلة البشرية توجهوا جهة المشرق وصنعوا برج بابل كما في الاصحاح الحادي عشر

للتكوين العدد الثاني وقول التوراة انهم ارتحلوا شرقاً هو برهان قوي يدل على انهم وجدوا في هذه الديار وان الجبل الذي رست عليه سفينة نوح هو جبل الشيخ نفسه لانه بسبب علوه حفظ نوح والحيوانات من الغرق وخصوصاً ان الارض التي حوله قابلة للطوفان كما يحصل كل سنة وكذلك الحمامة التي اتت بغصن الزيتون كان سيرها قريباً لان حاصبيا وخلافها الموجود فيها الزيتون بكثرة هي قريبة من جبل الشيخ الذي يدعى باسم حرمون الذي معناه اللعنة وكذلك اسم اراراط الذي تقول التوراة ان سفينة نوح رست عليه ومعناه بدون حرفه الاخير اللعنة فربما ان التوراة تسمي جبل الشيخ اراراط لان المعنى واحد وهو اللعنة واثباتاً لذلك اولاً ان ارمينيا التي ينسب اليها اراراط لا تعرف جبلاً من جبالها بهذا الاسم ثانياً ان الزيتون الذي حملته الحمامة لا يوجد في ارمينيا ولكن يوجد كما قلنا في حاصبيا قرب جبل الشيخ فيكون كلما قلناه الان اقرب للعقل والنقل بان بلادنا هي مركز السفر الاول للتكوين وبالتالي كل اسفار التوراة واثباتاً لوجود آدم عندنا وهو وجود اشكال اكله فالكبه والهريسه هما اكلتاي ابنا ادم لانها اول اكلات للانسان الذي جمع اللحم والحنطة سوية ودقها أو غلاهما ولا توجد في بلاد اخرى لا تضحك ايها القاري فهذا ينبه الفكر لان العوايد لها اصل تاريخي .

حالة ميشا الان

ان هذا المقام لا يعرفه غير الاسلام الان اللذين يأتون لزيارته واما النصارى واليهود فلا يعرفون عنه شيئاً مع ان اليهود الى اليوم يزورون النبي سجد ويعتبرونه من أعظم الأولياء وهو اهولياب ابن اخيساماك من سبط دان الذي اشتغل في قبة العهد في الاصحاح ٣١ عدد ٦ الخروج .

وقد اخبرني عنه حاخام باشي صفد لانه زاره ويعرفونه جيداً وهو عند قرية الريحان في جبل الريحان في اقليم جزين وقد كان لميشا املاك عظيمة وقفاً عليه ومنها قرية بنواتي التي ادعت ان الملك ملكها وليست بوقف فاكلت هذه الاملاك فبهذا يحق ان يقال عنها انها تلك الامة التي اكلت نبيها .

وبما ان مركز ميشا من اجمل مراكز الدنيا منظراً فالبحر تحت اقدامه والجبال تحت ايديه رافعاً رأسه الى العلاء يديره الى كل الجهات ويرى كلها فيها وكان محاطاً باشجار من السنديان قديمة العهد مثله كانت تظلل الزائر من الشمس ممتداً في اسفلها وتحت ظلها مستنشقاً ذاك النسيم العاطر الرطب مدة الصيف فمن جملة مظالم اهل بنواتي ضمنوا هذه الاشجار لقصها وعملها فحماً وكل ذلك بثلاثماية وخمسون قرشاً مع انني دفعت لهم هذا المبلغ لبقاء هذه الاشجار وبعد غيابي عنهم قطعوها واصبحت الارض قفراء بحث ما امكن ميشا ولا امكن دراهمي ان توقف اهل بنواتي عن قطعهم الاشجار وبما ان هذا المحل اعظم المحلات وكاشف لجميع الجهات كنا نجتمع فيه عندما نريد التنزه ونصعد اليه لانه لا يبعد عنا اكثر من نصف ساعة صعوداً .

واذ كان مركز هذا النبي كاشفاً الى بعد شاسع وان بكاسين مخفية حسب اسمها ولا يظهر فيها شيئاً من الزينة اذا صنعت فيها وقد افتكرت ان اعمل زينة في عيد الجلوس الهمايوني لسلطاننا عبد الحميد خان سنة ١٨٩٧ في هذا المحل فاخبرت الجيرة بذلك وخصوصاً اهل بنواتي اصحاب المحل فتوجهنا واحتفلنا بالزينة هناك فكان منظر بديع جداً يمتد لصور وصيدا والساحل والشوف وعندما جاء نعوم باشا لجزين وزار بكاسين عملت له ايضاً زينة هناك فسرتهُ كثيراً .

وعندما كنا مجتمعين في شهر آب سنة ١٨٦٥ مع جميع اقاربنا الذين غادروا المدن بسبب الهواء الاصفر وخصوصاً لاشغل لاحد في ذلك الوقت اتفقنا ان نصعد سوية في يوم معلوم الى هذا المحل وناكل اكل الظهر هناك فاكلنا خروفاً كخروف بني اسرائيل لا عيب فيه مشوياً وتبعنا وصية موسى فيه ان لا نبقى منه شيئاً .

دير مشموشة

ان مركز هذا الدير عظيم جداً وهو على السفح الشمالي الغربي في جبل ميشا اوطى منه بمائتي متر فيكون علوه عن البحر ألف متر محاطاً من الشرق بغابة من السندان يسمى الشعره تمتد لقرب قمة ميشا ومن الجهات الأخرى بغابات من التوت والكروم وهو ذو مياه عذبة باردة وذو منظر بديع لانه يكشف ما يكشفه ميشا لجهة الغرب وقد تسمى ديراً سنة ١٧٣٦ في زمن الأب العام توما اللبودي الحلبي الذي ترأس من سنة ١٧٣٥ الى سنة ١٧٤٢ وهو الذي أرسل الى رومية بشأن تثبيت المجمع اللبناني وقد كتب الشيخ علي جنبلاط الى البطريرك طوبيا الخازن ان لا يقبل في دير مشموشه الا الرهبان البلدية لذلك خرج منه الحلبيون وكان الدير لهم .

واما محله الحالي الان فقد اشتراه البطريرك سمعان عواد من الحج ناصيف الحكيم والحج اشتراه من والدة الامير سيد احمد سنة ١١٤٥ هجرية بثمن عشرين غرش وباعه للبطريرك بخمسة وعشرين غرش هذا في روزنامة الدير واشترى قسم من ارض الدير من اولاد ابو عتمه من مشموشه فياض ونمر وصخر وشمعون من عين الجوزة التي هي الان عين الدير لحدود ميشا عندما كان مطرانا على دمشق لان البطريرك المذكور انتخب بطريركا سنة ١٧٤٣ بانتخاب البابا بناديكتوس الرابع عشر لانه حصل اختلاف بين المطارين وانتخبوا بطاركة اثنين فابطلت روميه هذا الانتخاب وسامت المطران سمعان بطريركاً سنة ١٧٤٣ ثبت في ٣ تموز سنة ١٧٤٤ توفي ١٢ شباط سنة ١٧٥٦ واصل هذا البطريرك من حصرون من شمالي لبنان فاتى اقليم جزين زائراً من قبل البطريرك لان الابرشية كانت تخص البطريرك وقيل من اضطهاد المتاولة الذين كانوا حكاماً في تلك الجهات وعندما حضر الى اقليم جزين اشترى نصف مزرعة الميدان من الشيخ

محمد ابي هرموش لان تلك الجهات مثل الميدان وبتدين اللقش والحرف كانت تخص هذه العائلة وقد اعطى البطريرك نصف الميدان الى اقاربه الذين حضروا معه واما البطريرك سمعان بعدما عمر قسماً من دير مشموشه الحالي سلمه الى الرهبان بموجب حجة مصادق عليها ومن جملة الشهود المونسنيور السمعاني الشهير وهذه الحجة في روزنامة دير مشموشه ثم انتقل البطريرك المذكور الى الميدان مع اقاربه والميدان هو اسفل دير مشموشه يبعد عنه ربع ساعة فكانت تأتي الزوار الى دير مشموشه وتدفع نذورها ثم تنزل عند البطريرك الى الميدان وتاكل عنده وقد قال البطريرك كلاماً اصبح مثلاً وهو النذر للدير والخرا على سمعان وقد توفي البطريرك المذكور في دير مشموشه ودفن هناك ولم يعرف قبره للان مع ان قبر والدته موجود قبلي الدير حيث توجد مدافن للعيال التي احسنت الى الدير منها عائلة البطريرك عواد وعائلتنا وبيت ابي عتمة من مشموشه وقد اشترى جدنا غنطوس ابو خالد المدفن هناك بخمسمائة غرش في ذلك الزمن كما هو مذكور في روزنامة الدير وقد عمروا كنيسة الدير التي تكلف الان لحد مايتين الف غرش بخمسماية غرش .

وقد كانت هذه المدافن غربي الدير على الطريق ثم ابن عمنا القس عمانويل الخوري ابن فرنسيس الخوري الذي ترهب وصار رئيساً على جملة اديرة ومن جمتها دير مشموشه عمل لها صوراً منع الطريق عنها فصارت المقابر منصانة من الغريب ولكن انداست من اشغال الرهبان فصارت تضع حطبها واشغالها عليها وقصدهم نقلها من هذا المحل الى ابعد لان بعض عيال مثل بيت ابي عتمه لم تزل تدفن هناك فتضر بالصحة فالحق معهم بذلك لكن على شرط ان القبور القديمة لا تتلاشى ولو منع منها الدفن فعلى ذلك اعطيت ليرا افرنسية الى حضرة ابن عمنا الخوري اسطفان كي يجمع من افراد العايلة مثل ذلك وان يعمل درابزونا من حديد ويعمر حجرة القبر وتبقى ظاهرة لان هناك عظام كل عائلتنا من مائتي سنة .

املاك الدير

ان لهذا الدير املاكاً عظيمة بعضها وقفاً من المحسنين والبعض مشترى من الدروز لان الارض تخصهم ومن جملة الاملاك المشتراة من اسرة مشايخ ابّي هرموش هي نصف الميدان وبتدين اللقش والحرف ومحل الدير من عايلة ابي عتمة وقد وجدت صورة الحجة عند ابراهيم حبيب جبر ابو عتمة وهذه صورتها .

وجه تحرير الاحرف هو اننا اخذنا من حضرة الست ارض في مشموشة من عين الجوزة الى عين مشموشه واوقفناها الى دير سيدة مشموشة ومن حصة اولاد خالتنا بيت ابو عتمة اعطيناهم شقفة من عين مشموشة الى الحجر الكبير الذي على الدرب والحد من ساقية الماء الناطقة من الميدان الى الصخر الذي فوق الدرب وبقيت حصتهم في الارض المذكورة سمحنا فيها للدير تحت كل شيء يخصهم من الامر الروحي

يكون قيامه على الدير ابديا ومن الميرة تابعتهم ومن الحرش ما صار عليه بيع ولا وقف غير انه مشترك بين الدير ومشموشة وبعد ذلك كل منا يتصرف بحقه كيفما شاء حرر ذلك وجرى في سنة ١٧٣٥ .

الحقير في الرؤساء	المنسوب اليه
البطريرك سمعان	حاج نصيف حكيم
الانطاكي	محل الختم

شهد بصحة ذلك ويعمل بموجبها

ومن جملة املاك الدير مزرعة جبل طورا والنبطية الفوقى التي فصلت الان وعملت دير لحالها واول رئيس عليه القس موسى خرايب صباح وكذلك اصل دير بحنين من دير مشموشة وقد عمله القس ارسانوس النيحاوي واغلب رؤسائه من عائلتنا .

وقد اشتروا الارض شرقي الدير مع الحرش العظيم بخمسماية وعشرين غرش ومن جملة الذين اوقفوا الى دير مشموشة جدنا أبو عساف .

أبو عساف رزق الله الخوري

ان هذا الرجل من اجدادنا توفي عن ابنتين احدهما تزوجت ابن عمها يوسف الخوري جدّ بيت نصرالله والثانية تزوجت فرنسيس العازوري واخوته وهما الخوري ابراهيم جدنا وجد بيت ابي خالد والثاني انطون جد بيت شهيدان الذين منهم سيادة المطران شكرالله والخوري عبدالله كاتب غبطة البطريرك الحويك .

وقد كتب وصيته عند موته على يد القس مبارك الديراني رئيس دير مشموشه ومن جملة الوصية انه وقف الى دير مشموشة مزرعة جوار السوس ليصرف ريعها في عمل مدرسة لتعليم اولاد بكاسين وهذه الوصية لم تزل عندي بخط الرئيس المذكور وتاريخها من سنة ١٧٨٧ وقد افسد هذه الوصية المطران حنا الحلو الذي صار فيما بعد بطريركاً وسبب افساده لها اولاً انها ليست بخط الواقف ثانياً ليس فيها شهود الاّ الرئيس فهو شاهد وكاتب الوصية معاً وحيث له جر غنيمة في الوصية فسدت شهادته لانه شاهد واحد وفساد هذه الوصية بخط المطران المذكور ولم تزل معي واخيراً بعد ان توفي ابو عساف المذكور اتفقت الورثة واتفق الشيخ غنطوس ابو خالد ابن اخ ابو عساف مع الرئيس على ابقاء هذه الوصية للدير وحيث كانت مزرعة اسمها خرائب صباح بقرب الدير استبدلها بجوار السوس الموقوفة من ابي عساف وحجة البدل لم تزل عندي وموجودة ايضاً في روزنامة الدير وهي صورة الحجة .

حجة جوار السوس

وجه تحريره

وهو انه بعنا حضرة ولدنا غنطوس الخوري حصتنا الذي اوصى لنا فيها المرحوم ولدنا ابو عساف وهي ثلاثة ارباع جوار السوس من جميع ما يكون واخذنا في الثمن المذكور ثلاثة ارباع حصة الشيخ علم الدين الذين اخذناهم من خرائب صباح وصارت مقاوضته وذلك برضانا وخاطرنا من غير كره وعن الثمن خمسماية وخمسين غرش فصار المحل المذكور ملك ولدنا المذكور تحريراً في سنة ١٧٨٧ .

محل الختم	الحقير القس
رئيس دير مشموشة	مبارك ديراني
	لبناني

وبعد هذه المبادلة عينوا عوض فتح مدرسة ان يقدم الدير سنوياً عشرة قداديس عن نفس العائلة ولم تزل هذه القداديس الى اليوم وهي مقيدة في روزنامة الدير والخوري اسطفان ابن عمنا الان يأخذ كل سنة وصلاً في هذه القداديس التي تقدس نهار عيد مار مارون في ٩ شباط ونوصي كل من بعدنا ان يتبع ما يعمله الخوري اسطفان لان لا احد يرجع من هناك ليخبرنا اذا كان يقدس له ام لا فهذا من خصائص الاحياء .

واذ كان هذا الدير يبعد عن بكاسين ثلاثة ارباع الساعة كثرة فيه الرهبان من بكاسين حتى وصل عددهم لحد خمسة وثلاثين راهباً وكان منهم رؤساء ومدبرون يحافظون على هذا الدير كبيتهم الخصوصي وحيث الرهبنة كثيرة في بلادنا ويهم كل شخص معرفتها فلاجل ذلك نشرح بعبارات وجيزة ما هي الرهبنة وتاريخها في العالم !

ماهية الرهبنة

الراهب يعني الخائف والرهبنة انما هي اعتزال الراهب عن الدنيا وأمورها العادية لاشغال النفس بالعبادة وبالأمور الدينية .

وقد وجد أناس من ابتدآء العالم في كل دين ومذهب يعتزلون وينفردون عن العالم فترى عند الهنود رهبنة وفي أغلب الأديان القديمة أيضاً .

وأما انتشار الرهبنة بكثرة كان في ابتدآء النصرانية بحيث كان كل دير قائماً بذاته وأما في القرن الثالث للميلاد عندما تكاثرت الرهبنة وملئت البراري والجبال في آسيا الصغرى وسوريا ومصر انضمت الى بعضها وفي آخر القرن الثالث اقيمت راهبات من الاناث .

أول دير مسيحي ورهبنة

ان بولس الطيوي وتلميذه بوخوميوس هما اول من انشأ الرهبنة ووضعا اساسها في جزيرة ناميا التي تبعد قليلا عن اول شلالات النيل الى الجهة الشمالية وقبل هذا الدير كانوا يسكنون المغائر وقد نظرت في مصر مدة سياحتي في اسيوط التي ساذكرها فوق القرافة الحالية مغائراً من زمن المصريين القدماء كان عليهم كتابة من اللغة الهيروغليفية يعني الخط المصري القديم فعندما سكنها السواح المسيحيين وضعوا طيناً على هذه الصور ظناً منهم انها اصنام ولحد الان توجد هذه الطبقة من الطين .

وفي سنة ٣٤٠ اكمل بوخوميوس تنظيمها وترتيبها وانحدت عدة اديرة تحت ادارته وانقسم كل دير الى عدة أسر كل منها يتعاطى اعمالاً آلية خصوصية تحت ادارة رئيس مخصوص وكانت كل عائلة رهبنية مؤلفة من اربعين راهباً تقيم كل ثلاثة منهم في صومعة ولما جاء القديس اثناسيوس الى الجزيرة المار ذكرها سنة ٣٥٦ لاقاه بوخوميوس في جيش من الرهبان يترنمون بالزبور ثم امتدت الاديرة فوق وادي النطرون في تخوم صحراء ليبيا أي بلاد البرابرة الان واجتمع بمدة قصيرة خمسة الاف راهب يبلغ عددهم سنة ٣٥٦ عشرة آلاف ذكراً وخمسة عشر الف انثى وكانوا يصلون ويتعاطون الصناعة والزراعة ويقومون بالاحسان وكانت تلك الاديرة عبارة عن مدارس كبيرة وكان لكل دير منها مكان مخصوص لنزول المسافرين مجاناً .

الاديرة في فلسطين

ففي سنة ثلاثمائة وثمانية وعشرين أسس القديس هيلاديون الرهبنة في فلسطين وفي السنة نفسها شاد اوستانيوس اسقف سباستيا الرهبنة في ارمينية وسنة ٣٦٠ اقام باسيليوس رهباناً في ساحل بحر الاسود الجنوبية وفي ايام يوحنا فم الذهب تكاثرت الاديرة في جوار انطاكية فزادها نمواً وفي سنة ٣٤٠ اخذ القديس اثناسيوس اثناء نفيه الثاني الى رومية بعض رهبان مصريين ثم التقى في القديس مرتينوس الطودي وكان لم يزل جندياً في مدينة تربط الامبراطورية فانخرط في تلك الرهبنة وهذا القديس مرتينوس هو ابو الرهبنات في اوروبا ومؤسس الاديرة الاولى غربي جبال الالب .

وانشأ القديس امبروسيوس ديراً في ميلان ونصر هناك اغوسطينوس الذي أسس الرهبنة في شمالي افريقية ووضع لها قانوناً فاصبح فيما بعد قانون الوف من الاديرة الاوروباوية ومن ذلك الوقت ابتدت

الرهبان تتقدم وتزداد وتارة كانت تضطهد لتكاسلها وخروجها عن محورها الاصلي والبعض منها تلاشت وظهر خلافها الى ان بلغ عددهم تقريباً مائة وعشرين الف راهب ومائة وتسعة وثمانين الف راهبة بطقوس مختلفة .

القديس انطونيوس الكبير

هو اب الرهبان الحقيقي الذي اسس العيشة الرهبنية المرتبة بقوانين ولد سنة ٣٥٢ وتوفي سنة ٤٥٧ وعاش سنة ١٠٥ وقصته طويلة وهو الذي زاره اثناسيوس وكان يطلب دعاه في ضيقاته من الاريوسين وكان الملك قسطنطين الكبير يراسله ويطلب دعاه وبركته وتلامذة هذا القديس هم الذين اسسو الرهبنة في مصر وسوريا وفلسطين .

الرهبنة المارونية

كان دير بقرب العاصي يسمى بدير مار مارون وهو اول الاديرة في سوريا الثانية وقد غار رهبانه غيرة للرب اضطهدوا واستشهدوا واول دير سكنوه في لبنان هو دير مار مارون في كفرحي الذي زرتهُ سنة ١٨٨٤ مدة المطران يوسف فريفر وهذا الدير كان مدرسة يومئذ لابرشية جبيل والبترون من سنة ١٨١٢ وكانت هذه الاديرة في لبنان منفردة لوحدها يسكنها عباد وكل دير قايم بذاته .

تأسيس الرهبنة المارونية

في اول شباط سنة ١٦٩٤ مثل بين يدي البطريرك اسطفان الدويهي العالم الشهير ثلاثة شبان حرجوا من حلب لزيارة الاراضي المقدسة وكان البطريرك المذكور في دير قنوبين .

وهؤلاء الشبان الثلاثة هم جبرائيل حوّا وعبدالله بن عبد الاحد قرأعلي والثالث ابن البتن موارنة ذوي ثروة وحسب وطلبوا من البطريرك مقابلته واظهروا له قصدهم في الذهاب الى القدس وطلبوا منهُ الاذن والمساعدة على اقامة رهبانية يكون لها قانون واحد يجمعها على طريقة واحدة وان يكون لكل دير رئيس ورئيس عام للجميع .

لبسهم الاسكيم

في اليوم العاشر من تشرين الثاني سنة ١٧٩٥ البسهم البطريرك اسكيم الرهبنة في كرسيه دير قنوبين على سبيل التجربة دون نذر وانعم عليهم بدير مار مورا قرب اهدن احدى قرى لبنان وكان خراباً فاصلحوه

واقاموا عليه رئيساً جبرايل حوا وهو رئيسهم الاول واقاموا هذه الرهبنة باسم القديس انطونيوس ولذلك يبتدي بجمعهم كل ثلاث سنوات مرة في ١٠ تشرين ثاني تاريخ لبس الاسكيم وقد اتهم الرهبان بكثرة وجمعوا قانونهم على قانون مار انطونيوس وتلاميذه وفي سنة ١٦٩٦ اخذوا دير مار اليشع النبي في سفح الوادي المقدس حذاء قرية بشري واقاموا عليه رئيساً عبدالله قرا علي وفي سنة ١٦٩٩ اقيم مجمع عام واقاموا رئيساً عاماً القس عبدالله قرا علي الذي فيما بعد صار اسقفاً على بيروت سنة ١٧١٦ ثم خلفه القس جبرايل فرحات الشهير الذي تبع المؤسسين بعد ستتين وترهب عندهم الى ان أقيم اسقفاً على حلب سنة ١٧٢٥ ودعي جرمانوس وكان اسم هذه الرهبنة اولاً حلبية لان موسسيها حلبيون وفي سنة ١٧٠٦ لقبها الاب عبدالله المذكور بزمن السيد البطريرك يعقوب عواد باللبنانية لانها انتشرت في لبنان .

تثبيتها

في سنة ١٧٠٠ ثبتها البطريرك اسطفان الدويهي ونذرت رهبانها النذور الثلاث وهي الطاعة والعفة والفقر واما النذر الرابع التواضع فلم ينذروه الاّ في سنة ١٧٠٥ وقد ثبت قوانينها الحبر الاعظم البابا اقليموس الثاني عشر سنة ١٧٣٢ بموجب براءة رسولية مدرجة باواخر كتاب القوانين والفرائض المقدم ذكرها .

قسمتها

فبعد خمسين سنة من تأسيسها أي سنة ١٧٤٤ قسمت الى بلدية وحلبية عدد اديرتها سبعة عشر ديراً واربعة اناطيش وكان رئيساً عاماً للبلدية الاب عمونئيل الرشماوي وللحلبية الأب لويس الحلبي وقد جرى ذلك في دير حريصا فتعين ستة اديرة للحلبيين والباقي للبلديين وثبتت هذه القسمة ببراءة رسولية في ١٩ تموز سنة ١٧٧٠ .

الرهبنة الانطونية أو مار شعيا

تأسست هذه الرهبنة في آخر الجيل السابع عشر وقد ثبتها البابا اكليمنضوس الرابع عشر ببراءة رسولية مؤرخة في ١٧ كانون الثاني سنة ١٧٤٠ وهي خاضعة راساً للبطريرك .

مؤسسوها

القس سليمان الحجي من قرية مشمش من بلاد جبيل .
القس عطاالله كريكر من بيت شباب القاطع .
القس بطرس موسى من بزغون من جبة بشري .
القس موسى من بعبدات المتن .

كان هؤلاء القسس في دير طاميش وكان الدير المذكور للمطران بلوداني مطران حلب وتحت تدبيره وكان رئيس القسس سليمان المذكور فامرهم المطران بالانتقال من هذا الدير الى مار شعيا برمانا الذي كان اسمهُ وبعد مجيئهم اتموه ثم اجتمع ثلاث قسس واختاروا قانون مار انطونيوس ولذلك تسموا بالانطونيين وعند العامة برهبنة مار شعيا .

وهاك مجموع الاديرة والاناطيش والمدارس المارونية سنة ١٩٠٨ .

للبلدية	دير ٣٤	انطش ١٢	مدرسة ١٩

والرئيس العام عليها الاب يوسف رفول الاجبعي

للحلبية	دير ١٢	انطش ١٠	مدرسة ٦

والرئيس العام الاباتي القس لويس الخازن

للانطونية	دير ٢٠	انطش ٧	مدرسة ٣

ورئيسها العام القس عمانويل البعبداتي

رهبنة مار دوميط   ديراً

فيكون مجموع الاديار ٦٧ والاناطيش ٢٩ والمدارس ٢٨

حالة الرهبنة قديما

كان شغل الرهبان في الفلاحة والزراعة وهم الذين انشأوا الاملاك تقريباً وكانوا بسطاء النية يحافظون كل المحافظة على قوانينهم خصوصاً تقشف العيشة والزهد وعدم الخروج من الاديرة وقد عرفت راهباً من

بكاسين اسمه الاخ ابراهيم البكاسيني بقي اربعين سنة في الرهبنة في دير مشموشة الذي يبعد عن بلده بكاسين نصف الساعة وفي كل هذه المدة أي الاربعين سنة لم يأت بلده مرة واحدة وكانوا يعيشون بكل اتفاق ولم يختلفوا الا في مدة المجمع لاجل الرياسة وذلك بسبب مداخلة غيرهم معهم لان الذي كان يتوكل على مجمعهم سواء كان من قبل الكرسي الرسولي أو من قبل بطريرك الطائفة كان يقيم رئيساً عاماً من يراه موافقاً وليس من يوافقهم فتحصل من ذلك الاضطرابات وهذا الرئيس كان يوظف كل رؤساء الاديرة من حزبه ومشربه وهؤلاء الروساء لم يحسنوا الادارة بل كانوا يعاكسون من كان مضاداً لهم في الانتخاب وهذا كان سبباً للتشكيات .

فالباري تعالى جعل لكل امر قانوناً متى خرج عنهُ بطل الامر فلننظر في الامور البسيطة فاذا شئت الكتابة يلزمك قلم وحبر وورق فان كان احد هذه الثلاثة ناقصاً لم تتم الكتابة فالسكة الحديدية اذا خرجت عن خطها تهلك ويهلك من فيها وهكذا كل هيئة اجتماعية وانسانية .

فلا بد يا حضرة الراهب من انك عندما رضيت الدخول في هذه الرهبنة نظرت قانونها الاساسي واردت الخضوع له فيلزمك حينئذ ان تكون خاضعاً لهذا القانون وبما ان الرئيس هو المحافظ على اجراء هذا القانون فيلزم الطاعة له ولكن اذا خرج عنه وتبع قانون شهواته فيسقط ويسقطك معه كالسكة الحديدية التي تخرج من محورها الاصلي وهكذا قل في كل عمل لان البشر تخضع وتحتاج لقانون هذا العمل وليس للاشخاص المسلمين هذه القوانين فاعتبار الاشخاص يتاتي من اعتبار القانون والمحافظة عليه .

حادثة

قال لي احد القضاة المعزولين وكان يشتكي من قلة حفظ العهد في الناس لانه عندما كان في منصبه كانت كل الناس حوله وتزوره وتكرمه وبعد عزله لم يرى شيئاً من هذا فاجبته يا صاحبي ان الناس تكرم وتلتجي الى النظامات والشريعة التي هي محتاجة اليها وليس لشخصك لان كل من يستلم هذه الوظيفة يسلم اعتبارها واكرامها .

لاي سبب يعتبر الراهب

اي شخص يسمع عن شخص اخر انه مجرد عن كل غايات الدنيا وتارك شهواتها وحابس نفسه في صومعة لا يخرج منها الا بامر غيره حاكم على شهواته تارك حطام الدنيا طائعاً لاوامر غيره وقد حلف يميناً معظمة امام الله والناس بان يكون فقيراً عفيفاً طائعاً متواضعاً فكيف لا تحب هذا الشخص وتعتبره وتكرمه

ألا تركع عند رؤيته فلمعرفتك بنذره بالفقر قد امنته على مالك وعلى مال الفقير وبنذره للعفة سلمته اسرار ابنتك وامراتك وبسبب نذره للطاعة آنست به وامنت من شراسة اخلاقه وبسبب نذره للتواضع صرت تحبه وتتقرب اليه وتوانسه فمن اين اتى هذا الاعتبار والاكرام لهذا الشخص اليس من نذوره هذه الاربعة هي الفقر والطاعة والعفة والتواضع فاذا كان حافظاً هذه النذور اما تخضع له قهراً عنك فالمعتبر عند الناس هو من لا يزاحمهم على الدنيا وحطامها فترى انهم لا يثبتوا قديساً الا بعد موته واذا مات شقي سكتوا عنه وقالوا الله يرحمه وما ذلك الا من كون هذا الشخص خرج من الدنيا وما بقي يزاحم اهلها لاجل الحسد منه فصار يعتبره الكل ومثل ذلك كل من يزهد في الدنيا ولا يزاحم احد ترى الجميع يعتبرونه ويكرمونه لانه لا يزاحمهم فترى اللصوص عندما يكونوا قاطعين طريقاً اذا راوا تاجراً ينهبونه ويقتلونه ومتى رأوا رجلاً زاهداً حاملاً عصاه يتوكأ عليها هاملاً نفسه تتقرب منه وتقبل يده وتطلب دعاه وهذه نتيجة زهده .

فاذا كنا نحن اهل الدنيا نزاحم على حطامها فنحن معزورون لان معيشتنا من المزاحمة ونرى لنا اعداء اكثر كلما زاحمنا اكثر ولكن انت ايها الراهب ليس لك حق بالمزاحمة لان اسباب معيشتك موكدة وعندما تنذر الفقر وتدخل في الزهد كانك نذرت الغنى لان الغني من استغنى عن الناس فمن هو غني عن الناس اكثر منك .

ومتى خالف الراهب نذوراته هذه الاربعة أما يزول منك كل اعتبار واحترام له وهل يلام من يحتقره أو يفضحه أو يكشف جلد الحملان عنه .

فانت ايها الراهب في هذه الحالة تكرم لاجل المحافظة على نذورك وتحتقر لمخالفتك اياها وقهراً عما يخفي الانسان من المعاصي فانها تظهر لدى العموم واذا وجد بعض اناس يكرمون صاحب الرزيلة فما ذاك الا لانهم يستحسنون هذه الرزيلة والاشتراك فيها .

فكل من العقل والتربية والخوف والضعف هي اسباس لحفظ كل نظام وترتيب .

فالعقل يعرف الشخص كما ان النظام الفلاني يحافظ عن غيري مني كذلك يحافظ عني من غيري مثلاً اذا كان النظام يمنعني عن قتل غيري كذلك يمنع غيري عن قتلي وكل شيء يجعلني ان اخرج عن هذا النظام يكون مراماً وشهوة وغرضاً لان مع الغرض لا يتعقل الانسان والعاقل الحقيقي هو الذي يكون عاقلاً مدة مصائبه فقد خلق الانسان الفلسفة والعدل لغيره ليس له فاذا توفي والد قريبك يأتي وتعزيه بكلام فلسفي عظيم تراه لا يسمعك ولا يتعذى ثم بعد ساعة من الزمان يحصل لك الامر نفسه ويأتي جارك ويعزيك بالكلام نفسه الذي قلته له فتعمل مثله لا تقبل فلسفة ولا تعزية كما انك تعدل بين اثنين غريبين عنك

ولكن بينك وبين خصمك لا تحب العدل عليك فالرجل الفيلسوف الحقيقي والعادل الحقيقي هو من حكم على نفسه وتفلسف مدة مصيبته فينتج مما قلنا ان الشهوة تدوس العقل والعاقل الحقيقي من يدوسها قيل ثلاثة لا عقل لهم المجنون والعاشق وصاحب الغرض .

الثاني : لحفظ النظام هي التربية الادبية والدينية والعلمية فالتربية الدينية تولد الضمير والتربية الادبية تولد الشرف والحياء والتربية العلمية تولد الاعتقاد بالحقيقة فاذا كان شخص خالياً من هذه التربيات فماذا يكون .

يكون ادنى من الحيوانات لان من جملة الامتيازات بين الانسان والحيوان الحياء والبرهان على ذلك هو انه يوجد افعال حيوانية مشتركة بيننا وبين الحيوان ولكن يوجد اختلاف بيننا في كيفية عملها فالحيوان يبول مثلنا ولكن الفرق انه يفعل ذلك امام اي كان ونحن نستتر عن الغير عند فعله والذي علمنا هذا العمل هو التربية وكل من لا يستحي ليس بانسان فالتربية الاصلية تكون في البيت لان كل من لا يتربى في بيته لا تربيه المدارس ولا الرهبنة لانه لا يدخلها الا في الخامس عشرة من سنه فيكون في هذا العمر انغرست فيه الخصال القوية سواء كانت حسنة او ردية فكل تربية فيما بعد لا تكون الا كطلاء غطى خشباً نخراً أو حمرة غطت وجهاً شنيعاً حيث عند الامتحان أو باي سبب كان يزول هذا الطلاء وينكشف الاصل .

والثالث : من اسباب حفظ القوانين هو الخوف من القصاص والاسباب الاخرى هي الفقر والضعف .

فاذا لاحظنا الراهب المخالف قوانين رهبته يكون جامعاً جميع الاسباب المضادة للاسباب التي ذكرناها في حفظ القوانين ويوجد حجتان يحتمي فيهما الراهب والحاكم ضد الشاكين فاذا شكوت حاكماً يقول عنك انك عاصي الدولة واذا شكوت رئيساً دينياً يقول انك بلا دين مع انك امين لدولتك ومحب لدينك اكثر من هذا الحاكم أو الراهب وقد حصل لي ذلك كما ساقوله فيما بعد فالبعض يظنون امكان الاصلاح ولكن لا اصلاح عندي الا بطوفان نوح حيث ينقرضون ونوحاً معهم ايضاً والاضر من ذلك هو اعتبار أهل بلادنا لاناس لم يروا فيهم أسباب الاعتبار فانهم يعتبرون الغني ولو كان اصل غناه سرقة فلو كانوا يمدحون الفضيل لفضيلته والرزيل لرزيلته لكان كل منهما يسير سيرة توافق أفكار معاصريه بحيث يكون الرزيل أو السارق منفرداً لا يعاشره أحد ومتروكاً من الجميع فهذا ربما يمنعه عن تكرار أفعاله السيئة .

الرئاسة في بلادنا

لا شيء اصعب من موت الرئاسة في بلادنا لان الكل خاضعون لرئيسهم اما لنفعهم منه أو لخوفهم أو لفقرهم فاذا كان الرئيس ذا مال فانه لا يموت .

التربية الدينية

هي جعل الناس اصحاب فضيلة ليستحقوا رحمة الخالق ويلزم معلم هذه الفضيلة ان يمارسها ويجعل تلميذه معتقداً به فكل السلطة تأتي من اعتقاد المؤمن بصلاح الشخص الديني ومحافظته على كل امور الدين فهذا هو اصل السلطة الدينية ومتى ابتدأ الشك في المتسلط الديني سقطت سلطته والسلطة تسقط عند احتقار صاحبها وصاحبها لا يحتقر الا متى خالف قانون سلطته وهذا الاحتقار هو اصل فساد الهيئة ورمي الفتن وانقسامها فالقساوة والظلم يخوفان ويمكن زوال تأثيرهما وأحياناً يمكن ان يكون لهما عذر فالدم المهروق قد يمكن ايجاد عذر فيه لصالح عمومي أو لغرض نافع واما الفساد والفسق لا يمكن زوال تأثيرهما فالشعب يعتبر الفاسقين ادنياء وعادمي الاحساسات القلبية وبالاختصار بليدي الفكر قريبين من الحيوانات فالعامة تخاف الظلم ولكن تحتقر الفسق .

ولا اضر على السلطة الدينية من الفسق لان الرئيس الفاسق محتقر في اعين الجميع لا يسمع ولا يطاع وليس له عذر بذلك مثلما يعذر الظلم والقساوة كما قلنا ان ضرر الدين يكون بالاكثر من فسق الرئيس لا بل هو الاصل واصل الانشقاقات والبدع وتتأثر من ذلك اكثر عندما يعمل عكس ما يامرك به فلو فرض وكان امامك مسحوق ابيض ناعم خلته سكراً وشئت اكله وبالصدفة كان عندئذ طبيب وقال لك لا تأكل من ذلك لانه سمٌ فمثل طبيب يعرف السمَّ اطعته ولم تأكل وبينما انت ملتفت الى جهة اخرى وجدت ان الطبيب الذي نهاك عن أكل هذا المسحوق يأكل هو منه فماذا تقول عنه حينئذٍ فلا شك أنك تقول عنه أنه غشاش كذاب ولا تعود تعتبره بل تحتقر صنعته مع ان ذلك غلط لأن غلطة الصانع لا تمس الصنعة فيوجد أناس أكثر ديناً من رؤساهم وأكثر حباً لقوانيهم وأكثر محافظة عليها من مستلميها .

اصلاح هذا الخلل في الرهبنة

يكون هذا الاصلاح بان يؤخذ المبتدئين بسن صغير ويضعونهم في المدارس لاجل العلم والدرس والتهذيب الى ان يبلغوا سن الخامسة والعشرين من عمرهم ومتى تعلموا وارادوا ان يساموا كهنة يلزم قبل كل شيء ان يفهموهم علو هذا المقام وان ليس يحفظ اعتبار هذا المقام الا الفضيلة فقط لان الاعتبار لا

يحلّ الا محلها واسباب حب الفضيلة فعل الخير فالانسان يميل قهراً عنه لمن يعمل معه احساناً لان الانسان عبد الاحسان وكذلك الحيوان وما من فضيلة الاّ فيها خير ونفع للقريب وكل شيء محبوب في الدنيا يحب لنفعه فلوكان الدين والسياسة ليس فيهما فضيلة لا يحبا ولا يطاعا فبالاولى ان يكون الكاهن فضيلاً فيصبح محبوباً من الله والناس ان من احبته الناس احبه الله ومن ابغضته الناس ابغضه الله فالباري تعالى جعل كل الشرايع لاجلنا وليس لاجله فاذا قال لنا لا تقتل فما هو خائف على حياته منا بل جعل وصيته رحمة لنا ولحفظ حياتنا فبالاختصار ان كل علم وذكاء ووجاهة وغنى وكلما يبهج العيون ظاهراً لا يعتبر حقيقة ما لم يكن مقروناً بالفضيلة وعمل الخير .

تأثير الوسط الادبي

لا شك ان للوسط تأثيراً عظيماً سواء كان ادبياً أو طبيعياً فترى في الشاب تتغير اطباعه وعيشته اذا كان في الوسط الفلاني أو الفلاني كما انه تتغيير صحته حسب المناخ واثباتاً لذلك ترى ان شبان بلادنا الذين ولدوا في بلاد واحدة وتربية واحدة يتغيرون حسب المحل الذي يدخلون فيه فترى شباناً منا دخلوا الرهبنة اليسوعية كالاب جبرايل اده فانه اكتسب نشاطاً وانتظاماً وغيرة الاباء اليسوعيين حتى استحق ان يكون رئيساً لمدرسة بيروت الكلية اليسوعية مدة سبع سنوات وهكذا جملة اباء من بلادنا دخلوا في هذه الرهبنة الفاضلة وكذلك الاب قيصر الخوري الذي هو ابن عمنا دخل مع الاباء اللعازريين واكتسب فضائلهم حتى استحق ان يكون رئيساً على اديرتهم في الاسكندرية .

وقد لاحظ هذا الامر الاب مبارك المتيني رئيس عام الرهبنة البلدية سابقاً وعمل مدرسة في بيروت للرهبان يتعلمون في المدرسة اليسوعية ظناً منه انهم يكتسبون فضايل هذه الرهبنة نعم انهم اكتسبوا العلوم ولكن لم نر منهم ما كنا نأمله .

وكذلك غبطة البطريرك الياس الحويك الحالي فقد اعتنى في ادارة الرهبنة وجعل ديراً مخصوصاً للمبتدئين وجعل معلمين ومدبرين من الرهبان الافاضل ولكن ليس املي كامله وقد قلت لاحد الرؤساء العام ان الرهبان في حاجة يعلموا بعض الرهبان ثلاث صنائع تلزمهم جداً وهي :

أولاً : ان يعلموا راهباً لكل دير علم الزراعة لكثرة املاكهم التي يعيشون منها تلزمهم لهكذا علم .

ثانياً : تمريض المرضى يعني أن يعلموا أحد الرهبان خدمة المريض وكيفية اعطائه الأدوية وربط الجروح وخلافها وذلك يكون لوضع بعض رهبان مدة سنة في مستشفى راهبات العازارية كما فعلهُ العازريون في هذا المستشفى .

ثالثاً : أن يعلموا بعض الرهبان صنعة الطبخ وذلك لا يكلفهم زيادة عما يصرفون لأنه لا يمكن لمعدة أبناء هذا العصر أن تستحمل أو تهضم الغذآء الرهباني القديم فبهذه الكيفية يمكن للراهب أن يؤمن عَلَى نفسهِ اذا وقع في مرض أو تلبك معدة ان يرى نفسه منصاناً مخدوماً لانهُ اذا كان نذر الفقر فلم ينذر ان يموت جائعاً مهاناً اذا مرض فهذه الأمور هي التي تجعل الرهبان تحفظ الدراهم بجيبها حتى تستعين بها مدة المرض وتغير الغذاء مدة تلبك المعدة وأخيراً والأمر الضروري لظبط الرهبان وتمشيتهم عَلى القانون هو قصاص المذنب وطرده من الرهبنة ان لم يصطلح فالرجاء من الرؤساء الذين بيدهم الحل والعقد الانتباه الى مقالتي هذه الناشئة عن غيرة عَلَى رهبنة يمكنها أن تعمل أعظم خير مع طاقتها لأنها غنية جداً ومتى وجد الغنى واستعمل في طرقهُ الخيرية يعمل عجائباً خصوصاً متى كان هذا الرب الثاني الذي جعله المسيح رباً خاضعاً للرب الأول .

ومن أعظم الفضائل للانسان أن ينقل الفضيلة الى غيره ويعلمهُ اياها وبذلك تدوم الفضيلة وتدوم المبادي الحسنة وتصبح الدنيا جنة وبدون التعب لا تكون الراحة وبدون الشقا لا تكون السعادة فنحن الموعودون في السماء ومحل الراحة لا يمكن ان نصل اليها ما لم نمت ونبلى وهذا حقيقي ويثبت لنا سعادة الآخرة لأن من منكم نظر رجلاً غنياً أو عالماً أو طبيباً أو صاحب جاه ما لم يكن مرَّت عليهِ امور امرّ من الصبر وقهر نفسهُ وحريتهُ وصرف وقتهُ وزمنه لأجل راحته في المستقبل فيلزمه أن يموت لكي يحيى كما قال الانجيل الطاهر فحبة الحنطة ان لم تمت لم تنم وتحي .

وفي سنة ١٩٠٨ حضر فاحصون من قبل الأب الأقدس بسبب تشكي الرهبان عَلَى بعضهم فقلت ما يأتي :

أيتها الرهبنة المارونية

ما لي أرى صوت تشكيكم اقلق الأب الأقدس في رومية العظمة واتصل الى ما بين النهرين والقدس واتى عَلَى نغمته الاباتي بناديكتوس غار يارور والأب فرنسيس الفرن وخلافهما يرون تشكيكم ويفتشون سيرتكم وينظمون احوالكم لماذا هذا التشكي وهذه القلاقل التي اسمعها منذ وجودي في العالم هل ذلك من قوانينكم لماذا لم نسمع برهبنات أخرى في الدنيا تفعل هكذا أفعال فقانون رهبتكم أمامكم اذا ما كنتم تقدرون تمشوا عليه فاتركوهُ أشرف لكن ولا تدعون كل يوم مفتشاً يطلع عَلَى اعمالكم واموركم ويعرف ما بينكم من الحقد ومن الادعاء الباطل على بعضكم لانه لا بد من الاخ مارون أو الأب حنا ان يقدم ذنوباً ارتكبها ابونا فيليبوس أو اقليموس ماذا يكون مقامكم عند بناديكتوس حينئذ لقد سئمت منكم روسائكم وكل هذه التشكيات ما هي الا طلب للرياسة التي هي نير على عاتق الراهب الفاضل .

فاين مدارسكم اين مستشفياتكم اين اسعافاتكم للفقير وخلاف ذلك فلا شيء منها فعوض ما تفعلون هذه الاحسانات تمضون عمركم بالتشكي على بعضكم .

فما هو عذركم الآن فان رؤساء العام الذين عليكم الآن هم أفضل رهبانكم ان كان للبلدية أو الحلبية أو الأنطونية فكل هذه المدة لم نسمع تشكي عليهم ولا كانت الرهبان في راحة مثل هذه ومع ذلك نرى الآن طغمة من الفاحصين يطلعون على ما ليس نعلمه فلنسترحم من الآب الأقدس أن يحل لنا هذه الرهبنات ويجعل غيرها بقوانين نافعة لهم وللانسانية أو يجعل الرئيس لا يستلم دراهماً وان متى شاء عمل شيء من المصروف لا يصرفه الاّ بمشورة مجلس ديري من أربعة رهبان من الدير نفسه وان انتخاب الروساء يكون من الأصوات العمومية وليس من المدبرين ورئيس العام اللذين ينتخبون من غرضهم وحذبهم والأهم ان لا تخرج الرهبان من اديرتها لأننا نراها في الأسواق أكثر من الأديرة وعلى حسب فكري لا يمكن عمل اصلاح كما قلت وانه اتى الوقت ان نطلب نحن أولاد الطايفة منافعاً عمومية من هذه الأوقاف كالمستشفيات وخلافها فليفتكر الروساء بذلك ويدبروه من الآن .

هذا ويوجد في الرهبنة رجالاً أفاضل حسني السيرة ذوي جدّ واقادم عمروا الأديار التي ترأسوها وخدموا الديانة والآداب منهم الرؤساء العام وحضرة المدبر افرام الديراني الحلبي الطائر الشهرة بالاعمال المبرورة والآثار المشكورة ومن مآثره انه اكمل بناء دير مار عبدا في دير القمر وجعله مدرسة والأب غسطين ابو عياش الذي عمر دير الناعمة في هذه السنة على طرز جميل ويوجد غيرهم كثيرون سنذكرهم بعد .

جدي الخوري ابرهيم

سأذكر قصة جدي ليس كتاريخ له يهم العالم ولكن لاذكر تاريخ القسوسية عند الموارنة وأوامر رؤسأها واصطلاحهم وكذلك مثال الكاهن الحقيقي .

ومن جملة مصائب هذه السنة وفرصتنا المدرسية هو مرض المرحوم جدي ووفاته .

ولد المرحوم سنة ١٧٩١ وكان اسمه خليلاً سامه المطران حنا الحلو وكيل البطريرك في تلك الأبرشية شماساً برتبة مرتل وقاريءٍ في أول شباط سنة ١٨٠٥ في قرية بكاسين ،

وبعد خمس سنوات على سيامته تلك رقاه الى درجة الكهنوت المطران الذي أقيم فيما بعد بطريركاً وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة وهذه صورة اعلام ترقيته .

سبب تحريره ،

انه قد قبل وضع اليد عليه ولدنا الجليل ابن الخوري اسطفان البكاسيني ورقيناه الى درجة الشمعداني في ٨ آذار ثم رفعناه من درجة الشمعداني الى درجة الرسايلي والانجيلي على مذبح القديسة تقلا في قرية بكاسين وتم ذلك نهار الأحد عيد الشهداء الأربعين في كنيسة دير الكرسي قنوبين في ٩ آذار ثم انه ثاني يوم نهار الاثنين رفعناه الى درجة القسوسية على مذبح القديسة تقلا في قرية بكاسين وتمت سيامته في ١ آذار سنة ١٨١٠ .

الختم　　　　　الحقير يوحنا
بطرس البطريرك
الانطاكي

وقد تزوج بسن الثاني والعشرين قبلما قبل سر الشماس الانجيلي وكانت جدتي بديعة الصورة من عائلة عطيه من بكاسين منها المقدام فارس آغا عطيه أحد ضباط العساكر اللبنانية وأول من أدخل فيها ومنها أولاد شيبان عطيه منهم اسكندر الذي فتح تجارة في المكسيك وهو معتبر في التجارة وقد ولدت عمتي شاة سنة ١٨١٤ التي عاشت الى ٢٥ تموز سنة ١٩٠٠ .

ولد والدي في ٩ أيار سنة ١٨١٨ وولد آخر اسمه حبيب في ١٠ كانون الثاني سنة ١٨٢١ وتوفي صغيراً وفي سنة ١٨٢٣ في ١٥ تشرين ثاني ليلة السبت توفاها الله وعمرها ٢٦ سنة وعمر جدي ٣٣ سنة وهذه كانت مصيبة عظيمة على الخوري لانه لا يمكنه بعد ذلك الزواج وحيث كانت أولاده صغاراً طلب اخته المسماة نجمة زوجة رميا من مزرعة الشوف ولها ولد اسمه معوض لاجل تدبير الأولاد .

ملحوظاتي على زواج الكهنة

فاتعب عيشة هي عيشة الكاهن المتزوج الذي يصبح صاحب عيال ولا يمكنه عمل لأجل معاشه مثل باقي البشر ولا له معاش من قبل الحكومة أو المطران أو هيئة أخرى فيبقى تعباناً ما لم تكبر أولاده وتعينه فيلزم الصبر الجميل لهذه المدة ولكني أشكو هذا الأمر لأنه لولا زواج جدي لما كنت موجوداً وربما بعض القراء يقول يا ليته ما تزوج واسترحنا من هجوه والبعض يشكر زواجه وهكذا بحيث الانسان الواحد يكون شيطاناً عند حزب وملاكاً عند حزب آخر فالكاهن المتزوج يتعب نفسه ويريح فكر الغير ولعدم الحرية في الشرق بأخذ خادمة تخدمه حلل لهم الزواج .

وكان المرحوم جدي متعلماً الشريعة المدنية بحيث كان يصرف جميع دعاوي القرية بدون أن يتوجه أحد الى المحكمة وقد أُقيم وكيلاً بطريركياً في ابرشية صور وصيدا وأعطيت له امتيازات كما في الأوامر التي بيدي من البطريرك يوحنا الحلو.

ثم ان البطريرك يوسف الحبيشي ارسل له اعلاماً مخصوصاً يصرفه به بحل المعترفين من خطاياهم والخطايا المحفوظة لسلطانه ولسلطان المطارين وأن يحل جميع الحرومات والرباطات وكل مانع وتأديب أو حكم كنائسي مهما كان حتى ان المحفوظ لشخص البطريرك أو للمطارين ما عدا المحرومين لمخالفتهم منشوره ضد البيليشيين البروتستنت أو لمخالفي منشوره المانع دخول الرهبان لحوش الراهبات ثالثاً بأن يحل من موانع الزيجة.

رابعاً: من النزورات ولو مثبتة بيمين ما عدا النزورات التي فيها كمية دراهم للبر.

خامساً: ان يفسح للاكليركي جميع الاعجاز الساقط فيها الصادرة عن ذنب جميعها مهما كانت واما الاعجاز الصادرة عن نقص ليس له ان يفسح عنها سوى من العجز الصادر من نقص الحنية والعجز الملتحق بمن اقترن بابنة مفضوحة أو بمن من الاكليريكيين باشر سر الزيجة مع قرينته مع علمه بفسقها وما خلا ذلك لا نأذنه بالتفسيح وأخيراً نقول ان جميع ما ذكر اعلاه سوى كان من حلّ الخطايا والحرومات والرباطات وكل منع وحكم وتأديب كنائسي وحلّ موانع الزيجة والنذورات والايمان قد فوضنا ولدنا المذكور بالحلّ منه بمنبر التوبة فقط وذلك بكل مكان وأي كان من طغمات الاكليروس العلماني والقانوني وطغمات العوام ورجال ونساء وأولاد وأخوية ورهبنة أو جمعية كانوا وان يقدس بعد نصف الليل في البيوت والمعابد والكابلات والاماكن اللايقة حتى ولو تكررت القداسات بها بيوم واحد فله أن يقدس بعد ذلك ومن يسمع قداسه بيوم أحد أو عيد واجبة بطالته يوي الزام وصية الكنيسة ما عدا أيام الفصحية التي ما عداها بقدر تناول سر الاوخارستيا لمن يطلبه في هذه الاماكن المذكورة ثم اذناه بأن يبارك الكنائس والمذابح حينما توجد مدنسة كما انه يُحل المذابح والمعابد والكابلات والبيوت حينما توجد في رباط أو منع ناموسي أو شخصي ما عدا اذا كان هذا الرباط أو المنع مبرزاً بوضع خصوصي من الرئيس المألوف ثم اذناه بأن يكرس الأواني والملابس البيعية وأن يمنح غفراناً كاملاً للمشرفين على الموت وأن يشرك بشركة الوردية المقدسة وان يعظ في أي محل كان.

تحريراً في ٩ أيار سنة ١٨٣١

الحقير
يوسف بطرس
البطريرك الانطاكي

وفي السنة المذكورة وكله المطران عبدالله البستاني في زيارة الرعية عنه وذلك بموجب أمر بيده يعلم به الاهالي لزوم الخضوع والطاعة والاكرام للخوري ابراهيم الزائر مثل الطاعة له .

والتحرير في ٢٥ تشرين أول سنة ١٨٣١

وكان يكلفه الأمير خليل الشهابي حاكم اقليم جزين بتوزيع التركات وعندي أمر من الأمير خليل يكلفه به ان يتوجه الى وادي جزين لتوزيع تركة رجل اسمه ابراهيم .

وفي سنة ١٨٣٥ في ١٥ تشرين ثاني أرسله المطران عبدالله يزور الرعية وفي آذار سنة ١٨٣٥ صرَّفه البطريرك يوسف حبيش بتحليل أوجه الزيجة الدموية أو النسبية قبل عقد الزواج عدا الوجه الرابع كما هو موجود بأمر عندي .

وقد وجد في دفاتر الكرسي البطريركي في بكركي انه مرسوماً برديوت أي زائر وهو أول كاهن أخذ هذه الرتبة في اقليم جزين .

في ٢٠ حزيران سنة ١٨٣٧ اقامه البطريرك يوسف حبيش وكيلاً لانشاء مدرسة مشموشة .

وفي السنة ذاتها زار الرعية عن المطران عبدالله بموجب أمر محرر في ٢٠ أيلول سنة ١٨٣٧ وكان يومئذ سيم برديوطاً أي زائراً .

ثم انه في السنة الثانية اشترك بثلاثة قداديس مع الرهبنة اللبنانية وقد ارتسم عن يد حضرة الأب أرسانيوس النيحاوي الذي كان وقتئذ مدبر الرهبنية اللبنانية وهذه صورة تحرير الأب ارسانيوس .

بعد الترجمة : وصلنا عرضحالكم للمجمع العام وبحسب مرغوبكم قدمناه وقد حصل تعليل من نحوكم أنكم فتم سن الأربعين وقانون ذلك ان يدفع حسنة قداسات للذين توفوا قبل هذا السن ولكن حيث ابويتكم معدودين من جملة آباء هذه الرهبنة ولكم ولابائكم ولاجدادكم اتعاباً وافرة واحسانات متكاثرة وبحملون بالأوصاف الحميدة فقد قبلت شركتكم حسب مطلوبكم معافاً من كامل المجمع العام من الثلاثة قد اسات وتقيد اسمكم الكريم بعرائض هذا المجمع العام من جملة الأباء والأخوة المشتركين في ٢١ تشرين ثاني سنة ١٨٣٨ .

القس ارسانيوس
نيحاوي

وفي السنة الثانية توفي والد جدي الذي اتصل الى عمر كاف وذلك في ٣ كانون الثاني سنة ١٨٣٩ وقد وجدت قائمة القداسات المتوزعة عن نفسه واسماء الكهنة الذين خضروا الجناز وكان اجرة القداس يومئذ غرشاً واحداً وقد رفعه الى هذه الأجرة البطريرك يوسف حبيش في منشور فيه قانون تهذيب الكهنة وصورته عندي وكان القداس قبلاً بثلاثين فضة .

وقد بلغ مجموع القداسات المتوزعة عن نفسه اربعمائة وخمسة وعشرين قداساً .

وكان المرحوم جدي أيضاً وكيل كنيسة القرية وهو الذي اقام لها قبة الجرس الآن ومكتوب اسمه عليها وقد وجدت قائمة بخط يده ان كلفة تكليس الكنيسة وسكب الجرس وعمل القبة ٢٧٣٢ غرش واربعة عشر باره .

عيشته

كان جدي الخوري ابراهيم تقياً جداً ذا هيبة عظيمة لا يجسر أحد من الشبان على شرب الدخان أمامه حسب عوائد عصره ولا أن تجلس امرأة في الساحة العمومية كان جميل الصوت جداً ولذلك رافق المطران عبدالله البستاني صاحب الصوت الجميل أيضاً في بتدين عند الأمير بشير الشهابي أما مقامه السياسي فكان من يعتمد عليه في فض المشاكل لمعرفته بالشريعة وكان يرسله سعيد بك جنبلاط الى غبطة البطريرك بولس مسعد في أمور سياسية كانت تعود على طائفته في اقليم جزين بالخير وكان كريماً حريصاً عند اللزوم ومحافظاً على ما تحت يده بحيث ان هذه الأوراق التي بيدي من منذماية سنة تقريباً حفظت بعنايته رغماً عن الحريق والسلب الذي جرى في الحادثات الثلاث في اقليم جزين .

أوصافه الطبيعية

طويل القامة معتدل الجسم عضلي قوي البنية اسمر اللون ولم أعرفه الا بلحية بيضاء ذا هيئة عظيمة نظيف اللبس محتشماً في كلامه وجلوسه وكل هذه الأوصاف لم يزل أهل القرية يرددونها الى الآن .

مرضه الأخير

ان الساعة الأخيرة من حياة هذا الشيخ الجليل كانت هي الساعة الأولى التي عرفت فيها الحزن في الدنيا ولم أزل اتصورها ودموعي تجري عند كتابتي هذه الأحرف واتصور ذلك الشيخ الجليل على فراش الموت وأنا ووالدي واخوتي بجانبه يودعنا الوداع الأخير يوصي كلاً منا بالآخر وبالتقوى آه ما أمر تلك الساعة

يريد الانسان ان يكون فيها حيواناً عديم الاحساس وكلما يدعيه الانسان بتمييزه عن الحيوان من معارف ولذة عقل لا يوازي ساعة فراق من يحبه فأي وجع أعظم من هذا الوجع يضيع العقل والفكر لذع النار أخف من عذابه فهذا ما جرى لي في تلك الساعة الهائلة من الحزن الذي نزل على قلبي ولم أكن اعرفه قبلاً وقد كنت جاثياً أمامه وعيناي لا تنفك عن النظر اليه لكي ترتسم تلك الصورة في فكري حتى لا انساها ابداً وكم أنا متحسر على صورته ولعدم وجود المصورين في بلادنا في ذلك الوقت لأن رؤية صورة من تحبه وقد فارق الدنيا تخفف ألم الفؤاد لاسيما اذا تصور وهو في عزه وقوته فتتفرس فيه فتخاله أمامك ولكن اذا كانت صورته على حسب الساعة الأخيرة حزيناً كئيباً متألماً تتأثر تأثيراً عظيماً فهذه هي الحالة التي اتصور بها جدي الذي كنت أحبه فوق كل شيء لأنه هو الذي علمني ورباني وما امكني اكافئه بشيء ، ولم أزل لحد الآن اقدس له بعد وفاته بأربعين سنة لأنه هكذا كان يحب وعليه فيرتاح فكري بعد القداس بأنني وفيت بعض فروضي وانني تذكرت ذلك المحب الحقيقي لي ولانه كان يحبني مثل ذاته وانا احبيته كالعبادة تقريباً وربما هذه القصة لا تهم القارئ ولكنها تهمني جداً وتهم من اخلفهم بعدي لمعرفة اجدادهم وأكون وفيت جزءاً من واجباتي واتمنى ان أكون صينياً كي اعبد اجدادي بعد الاهي وكان مرضه بالمثانة كعادة الشيوخ ولسوء الحظ لم يكن اطباء في ذلك الوقت فكان الداء يزداد دون معارض وعندما شعر بيومه الأخير أرسل وطلب والدي من بتدين فحضر حالاً لأنه كان يحبه محبة تفوق العقل فأعطاه وصيته الأخيرة وأوصاه بأن لا يخالف منها شيئاً ولم تزل الوصية عندي .

وربما أحد القراء يقول ماذا يهمنا موت جده وحزنه فيكون هذا القارئ بلا قلب فهذا الحزن وهذا الكدر على جدي يعلم ولدك ان يحن عليك وانت تحزن على من رباك فلا بد من نتيجة اذا كان لك قلب والا فأنت معذور في لومك .

وقد انتشر منعاه في كل اقليم جزين حتى اجتمع نحو خمسة آلاف نسمة ودفن في كنيسة القديسة تقلا تحت المذبح الثالث لجهة الشمال وهذا مدفن الكهنة .

القداسات

فالمبلغ الذي دفعه المرحوم جدنا عن والده اجرت قداسات كما ذكرنا هو اربعماية وخمسة قروش وكان القداس يومئذ بقرش واحد وأما المبلغ الذي دفعه والدنا عن نفس المرحوم جدنا هو ألف وثمانمائة وواحد وستين ونصف وكان القداس يومئذ بغرشين ونصف وقدست عن نفس والدي بخمسة آلاف غرش وكان القداس بثلاثة غروش أما أنا فلا أظن احداً يقدس عن نفسي فاترك ذلك الى قراء كتابي الذين منهم بطاركة ومطارين وقسس وكهنة وسائر الطبقات الدينية ان يقدسوا عن نفسي أو يقولوا الله يرحمه .

وقد انتهت هذه الصيفية المنحوسة بوجود هواء الاصفر فيها الذي عم مصر وسوريا ما عدا لبنان ، وبتوفي جدي وحزني عليه وبعد انتهاء هذه الصيفية وانتهاء الهواء الأصفر من بيروت ورجوع أهلها اليها وفتح مدارسها رجعت الى المدرسة الوطنية ولكن لست تلميذاً بل كنت معلماً وتلميذاً في آن واحد .

رجوعي الى المدرسة الوطنية معلماً

كنت أعلم الصف الرابع في اللغة الافرنسية وكنت معدوداً بين المعلمين وعائشاً مثلهم وكنت تلميذاً باللغة الانكليزية والعربية عند الشيخ ناصيف اليازجي بحيث كنت لا أخذ شيئاً ولا ادفع شيئاً .

تعليمي في الانكليزية

فكان لي ساعة كل يوم يعلمني فيها صديقي العزيز ملحم بك شكور الذي كان بسني وكان تلميذاً في المدرسة وساذكره فيما بعد ولكن كنا نقضي وقت العلم بالضحك واللعب بحيث ما تعلمنا شيئاً سوى تصريف الأفعال الانكليزية التي لا تتعب احداً وتصريف الأوقات المدرسية وفيما بعد صرت أحضر صف المعلم سليم البستاني ابن الرئيس ولكن كان علمي كالعدم ان كان في اللغة العربية أو الانكليزية غير اني كنت مجتهداً على صفي بالتعليم والذين كانوا يتعلمون عندي اشتهروا جداً فيما بعد ولست ادعي ان سبب شهرتهم مني وبسبب تعليمي لهم ولكن لاقول انهم كانوا تلاميذي ومنهم الشهير العالم العلامة سليمان افندي البستاني نزيل مصر الآن ومتمم دائرة المعارف ومترجم الياذة هومر الى الشعر العربي عمل تعجز عنه الجبابرة الذين ترجم حياتهم والثاني المرحوم سعيد البستاني محرر جريدة لبنان سابقاً والثالث تامر أفندي البستاني طبيب في الشام والرابع بشاره افندي البستاني علم في مدرسة اليهود سابقاً وكذلك الاستاذ البارع الشهير عبدالله البستاني سيبويه هذا العصر وغيرهم كثيرون .

وكنت ممتزجاً بالخصوص مع المعلم سليم تقلا الذي كان مثلي يعلم ويتعلم والذي باجتهاده أصبح صاحب جريدة الاهرام بمصر واكتسب مالاً عظيماً وجاهاً أعظم منه حتى لقب بسليم بك تقلا اجعله مثالاً لكل مجتهد اذكر تاريخه الأدبي بالاختصار حتى يقال :

انما أصل الفتى ما قد حصل

المعلم سليم تقلا

حضر سليم المذكور من بلدة كفرشيما الى المدرسة وكان يتوجه عند الشيخ ناصيف اليازجي يتعلم عنده خصوصي وكذلك في المدرسة وهذه هي السنة الأولى وفي السنة الثانية أصبح يعلم ويتعلم وكل ذلك بالعربية

وكان محبوباً جداً لطيف المعاشرة حيث كنت اعاشره دائماً وفي أواخر سنة ١٨٦٦ طلب الى المدرسة البطركية التي انشأها سعيد الذكر البطريرك غريغوريوس يوسف الذي له الفضل الأول على طائفته بفتح المدارس وعلم الاكليروس فقد طلبت هذه المدرسة المعلم سليم ليكون معلماً فيها وكنت ازوره هناك وتركته وذهبت الى مصر لأجل علم الطب وبعد انتهائي من علم الطب في السنة ذاتها انشأ جريدة الاهرام في الاسكندرية واتصل الى ما اتصل اليه وبعد خمسة وعشرين سنة من مقابلتي الأخيرة له قابلته في بيروت في لوكندة انكلتره وكانت علة القلب متزايدة عليه وقصد يومئذ بيت مري لأجل تمضية فصل الصيف فما كمله بل توفي في القرية المذكورة ودفن في بلدة كفرشيما وهو رأس عائلة بيت تقلا وكل نجاح اعضائها الآخرين كان منه .

أول شعر قلته

وكنا نجتمع مع المعلمين ونعيد اشعار المتقدمين وكل منا يروي اشعاراً عن فلان من فلان وكنت اجتهد ان انظم شعراً ولم أعرف بعد وزنه ولا أصوله ولم أذق لذة معانيه وكنت غير مكترث به لأنه لا يتهيج الفكر للشعر ما لم يتأثر من أمور يستحسنها أو يكرهها فالحادثة التي اصابتني هي الآتية :

سبب أول شعر قلته

انه حسب ترتيب المدرسة كان يصحب التلامذة عند خروجهم معلمين أو ثلاثة لحفظ ترتيبهم في الطريق وحيث كنت في هذه السن من جملة المعلمين كان يمرّ عليَّ دور لأجل هذه الخدمة ففي ذات يوم ونحن متوجهون لجهة الرمل الذي هو غربي المدينة وكانت طريقنا بالقرب من حارة جدي المشهورة والوحيدة في ذلك الوقت وقبل الوصول الى الحارة المذكورة ونحن بين البيوت المبتدية آخر بساتين التوت لجهة الجنوب وجدت أحد التلامذة واقفاً تحت الشباك فتقرب الي وطلب اذناً ليكلم اخته الجالسة في الشباك لأن الشباك قريب من الأرض فعند ذلك نظرت الشباك وعندما رأيت هذه الغزالة خفق قلبي وأصبحت مثل السكران ضائع الفكر ولم انتبه الا لصوت رنان يحيني بالسلام الافرنجي بونجور موسيه فانتبهت حينئذ وتأملت بصورة بديعة ذات تقاطيع عجيبة ووجه بشوش وتبسم محتشم وشعر أسود وعيون سود ولون أبيض محمر بسن السابعة عشر تقريباً فرديت السلام برأسي وحركات جسمي وعيوني أكثر من لساني ذطلبت مني أن أسمح لأخيها بالتكلم دقيقة معها ولا شك ان هذا الاذن لا يلزم له رجاء طويل وكان الاذن بالأكثر لأجلي كي أطيل الوقوف وعندما نظرت الى التلامذة ابتعدت قليلاً عني انتبهت الى الواجب ورجع لي عقلي وطلبت الرخصة منها للذهاب فأوصتني بأخيها هذا فودعتها وودادعتها عقلاً وقلباً .

ولما كان مزاجي عصبياً سريع التأثير كنت أتأثر من كل شيء بشدة عظيمة ولكن كان عندي حب

الواجب أعظم كل شيء فما كان شيء يلهيني عن واجباتي وخصوصاً متى كان يمس شرفي وكنت أعطي لكل شيء وقته احب المزح جداً ولكن لا اخلطه بوقت الجد ولا أخلط الجد بوقت الهزل فأخيراً توجهنا الى الرمل محل النزهة ولكن بقي فكري متعلقاً بتلك الفتاة فسألت أخاها في أي مدرسة تعلمت أختك اللغة الافرنسية فأجاب في مدرسة العازارية فتركته حتى لا يشعر بشيء فعند رجوعنا مررنا بالطريق نفسها وكان نظري يراقب الشباك من مسافة بعيدة وعندما وصلنا الى المحل المذكور نظرتها واقفة أيضاً فتقدم أخوها وكلمها وعندما وصلت اليه اوصتني به فانحنيت اطاعة للأمر ومشيت ولكن بكل خطوة التفاتة الى الوراء والذي زادني التفاتة هو بقائها في الشباك وان عند كل التفاتة اليها تحني رأسها كأنها لم تزل تراقبني وهذا مما كان يزيد أشواقي لاعتقادي انها احبتني كما أحببتها وعند الالتفاتة الأخيرة ورجوعي للمدرسة اشعرت بظلمة في عيني وأخذني الجمود وما عدت أنا ذلك الشخص الذي كان دائماً ضاحكاً بشوشاً خالي الهم والكدر بحيث كانت ارفاقي الاساتذة تكلمني وأنا كالسكران وصرت أحب الانفراد وحدي وأغمض عيني لكي أرى صورتها أمامي وصرت عندما أرى اخاها أفرح جداً كأنني رأيتها وأريد افتح الحديث عنها له ولكن كان شرف نفسي يمنعني حتى لا يظن الولد بشيء وقد اتفق فرصة للتلامذة القاطنين ببروت ان يزوروا اهلهم مدة عيد الفصح فبعد رجوع التلميذ أخيها من الفرصة اعطاني تحريراً باللغة الافرنسية مكتوباً بحبر أحمر تشكر به أفضالي بالاعتناء بأخيها وبه عبارات لطيفة ظريفة أو بالحري بالنظر لحالتي كنت أرى كلما يفعله المحبوب محبوباً فطلب التلميذ جواب التحرير فعند ذلك تجرأت على الكتابة لأن الرجل أضعف واجبن من الامرأة في مثل هذه الظروف ولم يتجاسر على ابداء ،فكرة ما لم يرَ اشارة من الامراءة تجرءه على ذلك فأخيراً جاوبت على التحرير وأردت أن يكون مصحوباً ببعض الشعر أولا لأظهر احساساتي العشقية شعراً ثانياً لاريها انني من الشعراء والعلماء لتزيدني اعتباراً لأن لا محبة حقيقية الا لمن تعتبره ولا يمكن ان تحب شخصاً لم يكن معتبراً وأخيراً نظمت الاشعار الآتية وتعجبت من نفسي كيف قدرت أن أنطق بالشعر ولكن ما كان في قلبي يجعل الأخرس ناطقاً والبليد شاعراً وهذا هو بالحقيقة السحر المبين .

وهذه الأشعار

يـــــا ظبيـــــــةً أسر الفـؤاد بحبهـا	كفـي القتـــال فـــان طرفك ساحـرُ
أخفيت حبك عـن فـي حتى غـــــدا	لم يـــــدر فيــــهِ وهـو فيك الشاعـرُ
والآن أبـــــدي مـــا كتمت من الهوى	فلـك الـرضا بقبـولـــه والخـــاطـرُ
ان تنكـري أو تـرتضي أو تـرفضي	فـــأنـــا أنـــا في كـــل حـــال شاكـرُ

فبعد ارسالي هذا بقيت مدة مفتكراً زائغ الفكر في هذه الأبنة ففي أحد الأيام جمعت عقلي وشرفي وادابي وتربيتي وديني وقلت لهم عينوني على هذا الحب العظيم الذي غيرني وغلبني وغلبكم جميعاً من منكم يساعدني على قهره فحضر العقل وقال لي هل مرادك تتزوج بهذه الابنة وهل أنت في مركز وسن

ووقت موافق لذلك فأجبته كلاً فأجاب فاذاً ماذا يهمك الافتكار بها فالأحسن تنساها . وبعده حضر شرف النفس وقال لي أنت في مقام معتبر في هذا السن ومكرّم فكيف اذا اشتهرت بانك تحب الهوى وتغرق في كأس ماء أما يزول عنك هذا الاعتبار الذي أنت عائش منه ثم حضر الدين وقال لماذا تضرُّ هذه الابنة بصيتها حيث لم يمكنك الزواج بها لانه اذا عرف انك تحبها وتعاشرها يتأخر عنها كل من يريد الاقتران بها واذا بعد الناس عنها بسببك فانك تضرّها أعظم مضرة وبعدئذ قهراً عن هذه البراهين الأكيدة جميعها وجدت ان السحر لم يزل في قلبي وكنت اغتاظ من تصوري كل ما يضاد ميلي وبقيت في هذا الأمر معذباً مدة الى أن قال لي اخيها ان أختي انخطبت وزواجها يكون الجمعة القادمة الى فلان القاطن مصر فعند ذلك شعرت بفك القيد وعلمت انها صارت تخص واحداً غيري وانها مالت اليه وتركت كل من يعرفها وكانت هذه الحادثة سنة ١٨٦٦ وربَّ قاريءٍ يقول ان هذا معلم أم عمر الذي سمع المغني يقول :

يـــا أمَّ عمـرو جزاك الله مكـرمـــة	ردّي علـيَّ فـؤادي ايـن مـا كـانـا
لا تـــأخـــذيـن فـؤادي تلعبـين بـهِ	فكيف يلعب في الانسـان انسانـــا

فعشق أم عمرو لأجل ذلك .

اللقاء بلا ميعاد

وفي سنة ١٨٨٨ كنت زائراً لأحد المرضى والاً وجدت امرأة في ذلك البيت سلمت عليها كباقي الجالسين فكنت استحسن كلامها وهيئتها وبشاشتها وبقيت محتاراً لمعرفتها وأخيراً خرجت من البيت فسألت صاحبة المنزل من هي هذه السيدة اللطيفة فأجابت انها زوجة فلان الفلاني من مصر ابنة فلان الفلاني فحالاً خطرت على فكري تلك الغادة التي لأجلها نظمت أول شعري فتعجبت في نفسي كيف ان الاحساسات التي شعرت فيها منذ ٢٢ سنة لم تزل هي ذاتها عندما حضر أسباب ظهورها .

خروجي من المدرسة

وعندما تممنا هذه السنة المدرسية توجهت الى بكاسين مستنظراً أيَّ شغل وأي صنعة يريد والدي أن اتعلمها فبعد تمضية فصل الصيف كان فكر والدي أن يدخلني الحكومة وكان مستنظراً فرصة لذلك وكنت أناظر املاكنا هناك واذ كان يوجد أمام بيتنا في بكاسين قطعة من الأرض متسعة أمرني والدي أن أشتغل هذه القطعة كجنينة أمام الدار بعدما أبقي عشرة أذرع .

شغل الجنينة أمام الدار في بكاسين

استأجرت عدداً من الفعلة ووكلت عليهم أحد أقاربنا يسمى انطون جدعون بسن الستين وذلك لأجل هندسة الحيطان وهندسة النصب وكان ذا طبع حدّ لطيف المعاشرة مسختاً في هذا السن وكان عندما يعمل حائطاً لا يعجبني كنت آمر الفعلة بتغييره فكان يتكدر ويغضب ويسب وينط ويحرك ايديه وعيناه تقدحان ناراً وكانت هيئته وقتئذ مضحكة لي جداً فكنت كلما اضحك يزيد نطاً وسبب الاختلاف بيننا هو اختلاف هندسة الحيطان فهو يريد ان ينظم الحيط كما يوافق الأرض بحيث يكون الحيط معوجاً كريه المنظر وأنا أريد أن يكون الحائط جالساً واساوي الأرض على حسبه حتى يكون المنظر جميلاً لأن هذا أمام البيت ونراه كل ساعة نعم ان ذلك يكلف أكثر ولكن للظرافة تلزم الكلفة وأنا انطون لا تهمه الظرافة بل يهمه التوفير وربما ان اختلاف السن بيننا جعل الاختلاف في الذوق فان كبير العمر لا يلتفت الا للمنفعة والتوفير وأما حديثه فلا يلتفت إلا للظرافة ولا يعرف التوفير .

حادثة غريبة مدة هذا الشغل

وعندما كان الفعلة يشتغلون كنت أجلس أمامهم وآخذ خارطة الجغرافية لأجل التسلية لأني كنت مولعاً في علم الجغرافية وكثيراً ما كنت آخذ الجائزة الأولى فيها بمدرسة عين طورا وكان يوجد عدة ألوان في الخارطة لأجل تمييز البلدان عن بعضها فكان منظرها مبهجاً للفعلة الذين لا يعرفونها .

في مساء أحد الأيام تقدمت الفعلة لجهتي لكي أقيد اسماؤهم فنظر أحدهم المسمى طنوس نوفل المكنى بأبي فتولة هذه الخارطة فسألني ما هذا الكتاب وما هذه الألوان التي فيه فاجبته مازحاً ان هذا الكتاب يدل على عمر الانسان وانه يعرف الشخص في أي حين يموت فاجابني ارجوك ان تنظر عمري واي متى يكون موتي فتأملت في الكتاب مدة كأنني أريد فحص عمره ثم قلت له بعد ثمانية أيام وكان ذلك على مسمع من الفعلة وانما قلته على سبيل المزح .

فاتفق أن أحد المغاربة الذين يطوفون في القرى لأجل التطبيب وصل الى بكاسين وكان ينادي طبيب للجسم للعيون للحبل وهلم جرّاً وبينما كان ماراً أمام بين طنوس المذكور وسمعه ينادي دعاه اليه وشكى له امساكاً في معدته فاعطاه المغربي حباً مسهلاً الحب امعاءه وكان سبب موته فبعد توفيه وكانت الفعلة لم تزل تشتغل عندي أخبروني عن هذه الحادثة فسألت عن المغربي اذا كان لم يزل في البلد لكي اسلمه الى الحكومة ولكن هؤلاء لا يمكثون الا يوماً واحداً في كل بلد يدخلونها لكي لا يشاهدوا ما فعلت ادويتهم .

وحيث كنت مداوماً الشغل واطالع دائماً في خارطة الجغرافية فعند المساء تقدم الي أحد الفعلة المدعو

حبيب السنيور وكان جاراً لطنوس المتوفي وحيث ان حبيباً المذكور خدم عند أحد الأوربيين في بيروت وكان يسمع منه تكراراً لفظة سنيور تعلمها بسهولة وعندما رجع الى بكاسين كان يكررها فسموه حبيب السنيور فسألني حبيب هذا عن عمره لأنه كان سامعاً عندما قلت الى جاره عن عمره وأنا غير منتبه لذلك فقلت له مازحاً ايضاً انه بعد خمسة عشر يوماً تموت فذهب وفي اليوم الثاني لم يعد للشغل وعندما كنا في فرصة الظهر أتت امرأته الى والدتي وقالت لها ان زوجها طريح الفراش وقد قالت لها انه سيموت بعد خمسة عشر يوماً لأن شاكر أخبره بذلك ويعلم هذا من كتاب عنده يدل على العمر وقد أخبر جارنا ابو فتولي انه بعد ثمانية أيام يموت وقد صح هذا فعلاً كما قال فهذه المرأة ترجت والدتي أن تسألني عما اذا كان ذلك حقيقياً فعندما اخبرتني والدتي تكدرت جداً وعرفت ان مثل هذه الأمور مع سخيفي العقول تؤثر جداً وافتكرت انه اذا قلت لها ان هذا الأمر مزح ولا صحة له وان لا أحد يعرف تلك الساعة إلا الآب وحده كما يقول الانجيل فلا تصدقني لأن ذلك أثر في عقل زوجها وخصوصاً لأنه شاهد قصة جاره فلم يمكن زوال هذا التأثير من فكره الا بنفس العمل ذاته فأجبت حينئذ امرأته اني سأعيد نظري في الكتاب اجلسي هنا لأرى ذلك فحينئذ أخذت الكتاب وتأملت فيه وقلت لها قولي لزوجك اني غلطان فليس خمسة عشر يوماً بل خمسة عشر سنة اذهبي وقولي له أن يحضر حالاً يشتغل مع الفعلة فرجعت المرأة فرحة وبعد خمسة دقائق رجع الرجل حاملاً معوله يشتغل مع الفعلة تأمل ماذا يفعل الوهم في قلوب السذج وكم من الاضرار تفعله بهم المبصرون والعرافون فبعد ذلك أخذت اتكلم أمام الفعلة وأمام السنيور ان كلما كنت أقوله لكم هو لأجل المزح ولا صحة لذلك ولا عدتم تصدقون كلمن يكلمكم بالغيب لانه لا يعرف الغيب إلا الله وكنت أبذل جهدي لأزيل الوهم من عقول هؤلاء ولكن السنيور بقي معتقداً بذلك حيث شاهد حادثة جاره ومن الغرائب أيضاً انه بعد رجوعي من مصر وغربتي عن بكاسين مدة طويلة رجعت اليها ورأيت بين الجمهور الذي اتى للسلام عليّ كعادة البلاد زوجة السنيور فسألتها عنه فجابت انه توفي بعد خمسة عشر سنة كما قلت له وانه كان يردد ذلك دائماً انه بعد خمسة عشر سنة كما قال لي شاكر سأموت فسألتها عن أسباب موته والمرض الذي مات فيه قالت انه سقط على راسه من محل عال وتوفي فارتاح فكري حينئذ ان سبب موته ليس من الوهم الذي توهمه مني ولكن بالصدفة مثلما حدث لموت جاره مع المغربي .

فليحترس كل ذي علم أو من يعتقد فيه ان يزرع اوهاماً في مستشيريه متى كانوا ضعفاء العقول أو عقلاء وكانوا مصابين لأن المصاب لا عقل له ولو كان عاقلاً .

مدرستي في بكاسين

وعندما دخل فصل الشتاء وآيست من كل مصلحة أو وظيفة في تلك السنة وكان طبعي يأبى القعود بدون شغل ففكرت بأمر يلهيني في ذلك الشتاء فخطر ببالي أن أعمل مدرسة واجمع فيها أولاد القرية لكي اعلمهم اللغة الافرنسية وكان أخي المرحوم خليل يومئذ موجوداً في البيت وكان ماهر في اللغة العربية

فجعلته ان يعلم معي الصفوف العربية ولهذا المشروع كانت القرية في غاية الاحتياج لعدم وجود مدرسة ليس في بكاسين فقط بل في كل تلك النواحي تعلم فيها الافرنسية أو نحو العربية فابتدأت أولاً بجمع أولاد العائلة ثم بعض أولاد من أهالي القرية وجعلنا الراتب عن كل واحد ثلاثين غرشاً شهرياً لأجل علم الافرنسية والعربية وقد جعلت الاوضة الشمالية من بيتنا مدرسة حيث لا لزوم لنا فيها وهذا المحل كان كافياً لصف ابتدائي .

وقد كنت أعلم الافرنسية قبل الظهر والمرحوم أخي خليل يعلم العربية بعد الظهر وقد اشتهرت هذه المدرسة وكان يحضرها أناس من جزين يقيمون عند اقاربهم في بكاسين ومن أولاد العائلة الذين تتلمذوا لي اذ ذاك هم :

نعمان بك ابن يوسف بك مبارك وهو اليوم قنصل دولة فرنسة في ماغدور في مراكش .
فرح آغا ابن الخوري اسطفان وهو اليوم مدير فتوح كسروان .
سليمان بن شهدان الخوري خيال القضا سابقاً .
سليم بن مرعي ريشا الخوري مستنطق ادارة البوليس في بيروت سابقاً .
رشيد بن فرنسيس الخوري وهو اليوم القس عمنوئيل رئيس دير الناعمة سابقاً .
حبيب ابن الخوري اسطفان تاجر في بكاسين .
يعقوب ابن الخوري اسطفان توفي راهباً .
ملحم بن يوسف بك ناصيف مدير دير القمر .

درس هؤلاء التلامذة

كان مبادئ القراءة الفرنسية وتصريف الأفعال العربية ومبادئ الحساب وكل ذلك بمدة ستة أو سبعة أشهر وهذه المدة وفرت عليهم سنة مدرسية في المدارس العالية التي دخلوها في بيروت وغيرها .

ولما وفد أيار وأقبل الربيع مللت من الاقامة وضجرت من هذه الحالة فحرَّرت الى والدي وكان عضواً في مجلس الادارة في بيت الدين استأذنته بالتوجه الى بيروت لأجل تدبير مصلحة لأن حالة المدرسة ما هي إلا وقتية لا أعتمد عليها للمستقبل .

طلبي رفيقاً لمهندس لبنان

عندما حرَّرت لوالدي هذا التحرير أمرني أن أرفع عرضاً بالافرنسية لدولة داود باشا متصرف لبنان يتضمن طلب مصلحة ففعلت كما أمرني وصرت انتظر الجواب ولما طال الوقت ولم أرَ نتيجة طلبت الاذن

من والدي بالتوجه الى بتدين فذهبت بعدما أُذن لي وسألته ماذا صار في العرضحال اجابني ان كان مراده أن يضعني عند مهندس المتصرفية لدراسة هذا الفن لأنه ذو فائدة كبرى ولكن حال دون ذلك ان نعوم افندي قيقانو وكيل المتصرفية وضع أحد أقربائه في هذا المحل وهو المهندس الشهير انطون افندي قيقانو الذي خدم المتصرفية كمهندس مدة ثم عُزل ثم أُعيد ثم عزل وهكذا بحيث شكرت الله الآن لعدم توفيقي في الاستخدام في لبنان وأخيراً طلبت الاذن من والدي وتوجهت الى بيروت لافتش على مصلحة .

مستخدم الحكومة في لبنان

ما من عيشة امر ولا اخرة محزنة مثل مستخدمي لبنان وسبب ذلك ان كل الوظائف متعلقة بارادة المتصرف كما قلنا ولا يعرف ما يعجب دولته ولا من يفسد عليه لديه ولا أي قنصل أو مطران يرضى وكل متصرف جديد يريد أن يبدل المتوظفين القدماء ويعمل طقماً لحاله فجميع هذه الأحوال تجعل المتوظف لا ينام ليلاً ولا نهاراً وكنت عندما احضر الى عند والدي الى دير القمر اراه يمض لياليه مع بعض مستخدمين من أصحابه بالسهر والاستفهام عما قال الباشا اليوم وأية حركة عملها وهل تبسم بوجه فلان أو عبس وما قال خادمه الخصوصي وكيف المسألة الفلانية وهكذا كنت أنام وكذلك ينام المرحوم أخي حليل فكان والدي يقظه لكي يتعلم المباحث السياسية ويقول له ان اخاك لا يهمه ذلك وأما أنت في السلك يلزم تعرفه .

فكانت أول نعمة لي من عدم الاستخدام هو نومي مرتاحاً حاصله كنت أرى نفس المتصرف بهموم وانشغال مثل خادميه فحدث لي ان ازور نعوم باشا في بتدين عندما كنت ماراً عليها لأجل مدة الصيف في شهر تموز متوجهاً الى مصيفي في جبل طورا فدخلت عليه في اوضة معتمة وكان يوم بوسطة والحر شديد فجلست فقال لي اصبر حتى انهي هذا التحرير فبقيت نصف ساعة اخيراً طلبت الرخصة بالذهاب لأن الحر كاد يخنقني فقال لي اصبر فصبرت الى الانتهى فقلت لدولته والله لو اعطي لي مركزك على شرط اصيف في هذه الغرفة لا اقبل وانا متوجه الى محل مرتفع ١٣٠٠ متر متفرعاً من ثيابي استنشق الهواء أريد أنام أو أقوم أو اذهب وعندي فلاحون في أرضي كل منهم يخدمني بصدق وامانة وأرى نفسي سعيداً اكثر من متصرف أقله أنام مرتاح الفكر فتبسم وقال الحق معك فابة عيشة أقهر من عيشة مستخدم الحكومة يلزم يكون دايماً لابساً رسمياً يتكلم رسمياً اذا ضحك قالوا مهزاراً وان عبس قالوا متكبراً وهو في حالة لا يرتاح فكراً محبوساً أكثر من مجرم وأما أحواله المالية فهي عدم فاذا مشى باستقامة لا يكفيه معاشه وان مشى بخلاف ذلك انفضح ورأى مثله اكبر منه شلحة كلما جمع فالانتهاء واحد ومع هذا اذا عذل تكدر ومات حتفاً فالسعيد كما قال هارون الرشيد عندما سأل احدى جلسائه من اسعد رجل فصار يقدم له من جميع الطبقات وهارون يبين له مصايب كل واحد اخيراً قال له السعيد من لا نرانا ولا نراه واقول السعيد من يستغني عنها معاشاً .

دخولي في معمل الحرير في القريّة

في يوم وصولي الى بيروت توجهت الى سوق الطويلة فقابلت المرحوم الشيخ قبلان الخوري الذي كان وكيلاً لمحل القرية في بيروت فسألني عن سبب مجيئي الى هناك فاخبرته انني آتٍ لافتش على شغل فقال لي اننا نحن أيضاً نفتش على شخص نظيرك لكي يكون مدة مسواق الشرانق في معامل القرية ووظيفته قيد وترجمة (الرجع) أي الوصولات بالشرانق التي ترسلها السماسرة الى المعامل وتسليمها للمكارية وقبل التكلم عن معامل حل الحرير نذكر الموسيو فرتوني بورتاليس الذي ادخله لبلادنا .

فرتوني بورتاليس
الذي أدخل حل الحرير لبلادنا

هو ابن اتيان بورتاليس الفرنساوي من مدينة اكس وكان والده وزير العدلية في عهد نابوليون الأول وهو الذي سن شرائع نابوليون أوكود نابوليون المشهورة وعندما انقرض حكم نابوليون وعاد حكم الملكية سقط من منصبه واضطهد كثيراً وتوفي وله خمسة أولاد .

الأول اتيان باسم أبيه والثاني نقولا والثالث فرتوني والرابع روبر والخامس يوسف جاءوا بعد موت والدهم الى مصر ثم الى سوريا سكن اتيان حلب وتوفي فيها عن ولد اسمه ادوار الذي كان قنصل صيدا وله ابنة تزوج بها الخواجه نخله زباني الشهير في صيدا .

وأما نقولا فعند حضوره الى سوريا وجد ان الحرير رخيصاً جداً وان لا تعرف اهل سوريا تحله فاعتمد ان يعمل كرخانة للحل فمنعه الأمير بشير فاخيرا طلبه الشيخ عبد الملك الذي كان عدواً للأمير بشير وباعه قطعة أرض في بتاتر باثني عشر الف غرش وهي محل الكرخانة اليوم وقد لامته الناس على هذا المشترى الغالي ولكن عندما عرفوا السبب عذروه وأخيراً توجه نقولا راجعاً الى مصر واخبر اخوته عن الغنى الحقيقي في سوريا وهو الحرير فحضر مع اخوته الى سوريا وباع محل الكرخانة الى اخيه الخواجا فرتوني وعاد الى مصر ثم رجع الى سوريا وولد فيها ولداً اسمه ادوار وهو الآن في يافا وابنة من اجمل البنات عرفتها جيداً وقد تزوج بها صديقي المسيو روسو عندما كان ترجمان أول في بيروت في قونصلاتو فرنسا والآن قنصلها في بالرم بايطاليا .

فرتوني أو فورتينه

هو الذي أسس محل الكرخانة وعملها وابتدأ بحل الحرير فيها فهو أول من أدخل حل الحرير لبلادنا كما

قلنا فكم من الجميل له على هذه البلاد التي أصبحت زاهية بسبب الحرير لانه هو الصنف الوحيد الباقي لمعاشها وسنشرح ذلك فيما يلي :

ولد فرتوني في فرنسا في اكس ١٨١٥ بعد وقعة واترلو واتى الى مصر ١٨٢٧ والى سوريا ١٨٣٨ وسكن بيروت وفيها استقبل الأخت جلاس رئيسة الراهبات اللعازريات وهي أول راهبة من جنسها دخلت سوريا وقد اعطاهنّ بيته وأخبرتني هذا الرئيسة جلاس نفسها .

وقد سكن بتاتر سنة ١٨٤٧ وابتدأ يشتغل بالحرير وكان لا يعطي الدراهم لاجل الموسم سلفاً بسند أو كمبيالة بل بلأمانة وقد كان يتفق في بعض الأحيان ان بعض السماسرة أو أصحاب الأملاك ينكرون المبلغ فعندئذ كان يرتضي منهم باليمين فقط وذلك بوضع يدهم على الانجيل الذي كان عنده على طاولته وحلفهم بعدم أخذهم الدراهم .

فكان يشعر المنكر عند حلف اليمين ووضع يده على الطاولة بارتعاش عظيم ويقرّ بساعته وسبب ذلك ان فرتوني كان صاحب عقل وجد ان التشكي والدعاوي متعبة وطويلة وتخسر اكثر وحيث اشغاله كثيرة لا يوجد وقت لهكذا أمور وملزوم ان يسلف على الشرانق اخيراً جهز جهازاً كهربائياً ووضعه تحت الطاولة وانفذ الطيار الى الانجيل بحيث كل من لمس الانجيل يشعر بالتيار الكهربائي ويرتعش بدون أن يعرف السبب الا نكرانه للدراهم فيقر وبهذه الطريقة زاد ايمان الناكرين بالانجيل وفرتوني ارجع دراهمه .

هذا وله جملة نوادر وأحاديث يضرب بها المثل في بلادنا وكانت وفاته فجأة في بتاتر في ايام كثيرة الثلج فتوجه الدكتور سنس بطلب له فلم يدركه فاحضروه الى بيروت ودفن في تربة اللاتين وذلك في ١٠ شباط ١٨٨٢ ومعه وسام الجيون دونار وله ولد وجملة بنات .

بروسبر بورتاليس

هو ابن فرتوني ولد في بتاتر ١٨٥٥ وتخرَّج في فرنسا وبعد ان خدم مدته العسكرية عاد الى بلادنا ووسع شغله وفاق والده في المهارة والشغل والعفرتة حتى صاروا يترحموا على الوالد .

فبالحقيقة ان بروسبر هو أمهر رجل بين أرباب المعامل وقد فاق والده لأن والده عندما كان يشتغل كان وحده اما الآن فقد كثرت المعامل ورغماً عن ذلك فبروسبر لا يزال يزاحم معامل كثيرة من الحرير امتدت عندنا بكثرة وذلك كعادة أهلا بلادنا متى عمل جارهم شيئاً تزاحموا وتراكضوا عليه ومع ذلك لم يزل معمل بروسبر أول معمل متقن وقد وصل الى ٢١٠ دواليب وحريره دائماً يعد من الطبقة الأولى ومسواقه سنوياً ١٣٠ الف اقة شرانق .

وقد تزوج بابنة اخته ابنة باتال وهي لينة العريكة ذكية لطيفة دمست الاخلاق وبالاختصار من أحسن سيدات بلادنا وله منها ابنة وولد ذكر ولم يبق في بلادنا من عائلة بورتاليس الا بروسبر وقد اشترى سراي عبدالله باشا في رأس بيروت وهي من أجمل المراكز يمضي فيها فصل الشتاء .

وأما الأخ الرابع لفرتوني فهو روبر وقد كان قوي البنية توفي مطعوناً في باتر لان خادمه مات بهذا المرض ولم يوجد من يدفنه فاخذه ودفنه ومن هذا سرت اليه العدوى فقضى شهيد المروءة .

وأما الخامس وهو يوسف فهذا الذي أدخل جمعية مار منصور الى سوريا وكان يتاجر مع أخيه نقولا في بيروت وتوفي عزباً وغاية ما أقصده بهذا الفصل هو تخليد مآثر هذه العائلة الكريمة وشكرها على ما نفعت به بلادنا وخدمتها بتقدم هذه الصناعة التي أحيت البلاد وكذلك انوه هنا بالمساعدات التي أظهرها الشهم الهمام بروسبر لكل ضعيف وفقير فهذا الشهم هو صديق صديقه يعتمد عليه في الاحوال الحرجة .

معامل القريّة

ان هذه المعامل انشئت في لبنان لأجل نسج الحرير وهي تخص محل بلوا وتستنوار في ليون وهو أعظم محل تجاري للحرير وله وكيل من قبلهم يسكن القرية محل المعامل ولهم محل وكالة في بيروت كان فيها المرحوم الشيخ قبلان وهو تحت ادارة الوكيل الأصلي الذي كان اسمه يومئذ الخواجه كروزه فاخبرني الشيخ قبلان أن أتوجه لعنده الى المكتب وهناك يقدمني للخواجه كروزه وينظر ترجمتي من العربية للفرنساوية ومن الفرنساوية للعربية فتوجهت بعد الظهر فاعطاني الشيخ قبلان مقاولة بين المحل وبين سمسار من السماسرة الكبار اسمه غنطوس ثابت من بحمدون لترجمتها من الفرنساوي الى العربي فترجمتها حالاً فأعجبت الترجمة الشيخ قبلان الذي أخذني وقدمني للخواجه كروزه الذي عيني بمعاش خمسة ليرات افرنسية وان ابقى حينئذ في بيروت حتى يصير المسواق في الجبل وحينئذ اطلع الى القرية وأخبرني ان هذه المصلحة وقتية في المسواق واذا وافقتهم يمكن أن يعينوني في المحل وكنت أنام في محل براس النبع في بيت الحداد وكانت هناك عمتي شات التي حضرت لأجل تطبيب عينيها وكنت أتوجه كل يوم الى المحل وكان عند العصر يأمرني الخواجه كروزه أن استأجر حصاناً على حساب المحل وأتوجه لقرب معامل الحرير الموجودة في بيروت لأجل الاستخبار سراً عن أسعار الشرانق بدون أن يعرفني أحد من المحل فكنت أتوجه من جهة الى أخرى وأستخبر من المكاريه واطلع على الوصولات التي بيدهم لأعرف اسعار الشرانق وعندما كنت أخبر الخواجه كروزه بما فعلته كان ينشرح جداً من ادارتي وكذلك الشيخ قبلان .

وكان دخولي في محل القرية في ١٧ أيار سنة ١٨٦٧ فبقينا في بيروت الى أول حزيران وتوجهنا الى القرية وقد وضعنا الخواجه كروزه في بيت الخواجه ساران مدير أحد المعامل المسما بمعمل ت لأن هناك يوجد جملة معامل يسمى كل معمل بحرف من الأحرف .

الخواجه ساران

كان هذا المدير يسن ستين سنة وكان له ولدان الأكبر اسمه اغوستوس وكان معي في الشغل ووظيفته تقييد الشرانق الداخلة بعد وزنها واعطاء الرجع الى المكاريه بعد ان اترجمها لهم وهذه وظيفتي وكان له ولداً صغيراً جداً وكان اسم زوجته دالفين فكنت آكل مع هذه الأسرة وأدفع كل يوم ثمانية غروش وأنام في حجرة لوحدي في البيت ذاته الذي هو ملك المحل .

أكلنا لحم الكلب الصغير

ففي ذات يوم ونحن على المائدة تقدم لنا شكل لحم مع صلصه بذوق افرنجي فبعد انتهاء الأكل سألني مسيو اغوستوس اذا كان هذا الشكل لذيذاً فأجبته نعم فأجابني أتعرف لحم اي شيء هو قلت اليس هو لحم غنم فأجابني كلا بل هو لحم جرو كلب مولود من خمسة أشهر وهذه اخوته الصغار وأشار اليها فعندما سمعت هذا الكلام انقلبت نفسي وجاشت وكدت ان استفرغ وقد اجتهدت ان أغالط فكري معتقداً انه يمزح معي ولكني رأيته يضحك ويؤكد المسألة فعندئذ رجوته ان لا يخبرني في المستقبل عما آكله .

التوجه الى بيروت

وعند خلاص الشغل طلبت الرخصة من مسيو كروزه أن أتوجه الى بيروت فاعطاني أجرتي بزيادة عما كان شارطني عليها بحيث كلما دفعته للخواجه ساران قيمة أكل أي ثمانية غروش كل يوم (وأكل لحم الكلب خمسة عشر غرش) كان ذلك زيادة عن كل شيء فودعنا الجميع وتوجهنا حالاً الى بيروت وقد وصلتها ليلاً وكان وصولي في ٤ تموز مساء .

ملحوظاتي على شغل الشرانق

فمن سوء حظ لبنان وخصوصاً جرده انه لا ينموا فيه سوى التوت والزيتون والكرم فمحصولات الزيتون كل سنتين مرة على الغالب ولا يمكن تصريفها دفعة واحدة فلهذا لا يشعر الفلاح بلذة دخله وناهيك عن الأضرار والأخطار للأواني التي يوضع فيها الزيت ككسر وحريق وغيره .

ومن أسباب عدم النجاح في زراعة الزيتون في أعالي وأواسط لبنان هو ما يفاجئه من طوارئ البرد والثلج والهواء اذ يتكسر أو ييبس أو ينفرط حمله وكذلك اطالة المدة لنموه واستغلاله .

وأما الكرم الذي يعطي اثماراً جيدة في لبنان فقد قل من يحسن استثماره جيداً وذلك لأن أكثره يؤكل

عنباً فيباع رخيصاً جداً ولا يوجد معامل متقنة لعمل النبيذ والعرق وباقي الاستحضارات واذا افترضنا وجود المعامل فتصريف الاستحضارات يكون باسعار دنية لأن البلاد حارة والأهالي غير معتادة على شرب النبيذ .

وأما التوت الذي يعيش في كل أنحاء لبنان فان محصوله يقبض دفعة واحدة فيشعر الفلاح أو صاحب الملك بلذة اذ يقبض مبلغاً كبيراً من الدراهم غير أنه يوجد آفة عظيمة للتوت وهي استحلال سرقته فتبتدي سرقته من السمسار للفلاح ومن صاحب المعمل للسمسار ومن الاوربيين لصاحب المعمل والاشتغال بتجارة الحرير كمن يشتغل في لعب القمار فهو لا يعرف أي متى يكسب أو أي متى يخسر فمكسبه عظيم وخسارته أعظم بحيث أغلب أهل بلادنا الذين اشتغلوا في هذا الصنف خسروا اموالهم واحوالهم حتى ان هذا المحل الشهير محل القرية ابطلته اصحابه نظراً لسنين حصلت لهم خسائر عظيمة .

والخسارة الأعظم في هذه الأيام لأصحاب التوت في لبنان هي الأكلاف العظيمة التي يتكبدونها فغرست التوت تكلف في الجبل نحو من عشرين غرشاً لنقب الأرض وعمار الحيطان وبنيان البيوت .

أما في الأراضي السهلة كالبقاع مثلاً أو في ساحل بيروت وصيدا فلا يكلف غرس النصبة اكثر من عشرين من الفضة أي جزء من أربعين لما تكلفه النصبة في لبنان فأين المزاحمة من اغراس لبنان بالنسبة لسواحلها فلذلك يسهل على أهل الساحل أن يبيعوا شرانقهم بأرخص الاثمان بالنسبة لأهل الجرد .

وأما الضربة القاضية على التوت في لبنان فهي المهاجرة التي لم تبق فلاحاً في الجبل لأجل تربية الحرير بحيث بادت أكثر الأرزاق .

رجوعي الى بيروت

في ثاني يوم وصولي اليها توجهت لمقابلة الشيخ قبلان صاحبنا وسألته اذا كان يوجد لنا محل حيث انتهينا من القرية فوعدنا متى وجد شيئاً يخبرنا .

وكان الشيخ قبلان مع أخويه المرحومين الشيخ افندي والشيخ لويس من أعز أصحابي ورفاقي في مدرسة عين طورا فكنت دائماً معهم وبقيت في بيروت حتى أصبت بداء الدوسنطاريا .

مرضي في بيروت

وكنت أنام في رأس النبع وعندما علم والدي أرسل أخذني الى الدير ومنها الى بكاسين وفي أحد الأيام

توجهت الى جزين وقابلت اسكندر المعوشي الذي كان مستعداً للذهاب الى مصر لعند أخيه الدكتور سليم المعوشي فقال لي تعال معي لنتعلم الطب في مصر فحررت حالاً الى والدي ليطلب لي تحريراً من داود باشا لأتوجه الى مصر لأجل الدخول في المدرسة الطبية وقد أخبرني فيما بعد انه عندما وصله تحريري هذا اضطرب فكره .

وفيما هو في هذه الحالة مر بجانبه داود باشا الذي كان في بعض الأحيان يمزح معه فلما رآه في هذه الحالة سأله عن انشغال فكره فأجابه انني محرر له أن مرادي أن أتوجه لمصر لأتعلم الطب وانه اذا حسن لديه أن يأمر بتحرير توصية فحالاً أمر دولتلو احمد بك رئيس قلم التركي أن يحرر تحريراً بهذا الخصوص ويسلمه لوالدي وعندما استلم والدي التحرير أرسل يخبرني لكي استعد للسفر لمصر فحينئذ حررت الى أخينا اسكندر المعوشي وأخبرته بذلك وأن يلاقينا الى بتدين لأجل السفر سوية وبعدئذ توجهت الى بتدين وقد لاقاني هناك اسكندر افندي ومنها توجهنا الى بيروت وصورة التحرير الذي أرسله داود باشا لمصر لم تزل محفوظة عندي للآن وهذا نصه :

صورة تحرير داود باشا لداخلية مصر لادخالي في المدرسة الطبية

ان يوسف افندي الخوري من أعضاء مجلس الادارة الكبير من جبل لبنان قدم عرضحالاً يستدعي به وقوع الالتماس من طرف هذا العاجز لمقامكم السامي بقبول ولده شاكر في المدرسة الطبية بمصر كونه متعلم اللغتين الفرنساوية والانكليزية وبما أن هكذا اشخاص عندهم رغبة لاكتساب الصنائع والمعارف وان كافة الحكومات السنية فاتحة أبواب لطفها لقبولهم وكما انه عارٍ من الشك والاشتباه أن مدينة القاهرة العالية هي جامعة كافة العلوم والمعارف وهي الوطن الحقيقي لكافة الآداب فبناءً على هذا الاعتقاد صار ارسال الولدالمرقوم بهذه المدة الى طرفكم العالي وعلى هذه الصورة مساعدة واسعاف آمال هذا العاجز منوطة بأمر مكارمكم وبكل حال الأمر لحضرة من له الأمر .

متصرف جبل لبنان

في ٢ ت ١ سنة ١٨٦٧ — الامضاء — داوود

وهذا التحرير كان بالتركية الى وزير داخلية مصر

ساعة الوداع

لم أرَ شيئاً كانت رؤيته مهولة في عيني اشدّ من هذه الساعة التي هي رمز عن فراق الدنيا فكنت أنظر وجه والدي فأراه عبوساً يبتسم بالرغم عنه وعندما كان يوصيني كنت أرى عيونه غائصة بالدموع ولكنه

كان يكتم ذلك خوفاً من أن أتأثر في ذلك الزمن ما كنت أعرف ما عند الوالد للولد مثل اليوم أما اليوم فأقيس على نفسي لأن لي أولاداً ولكن نظراً لعقله كان يفضل صالحي المستقبل على احساساته الأبوية .

وآخر ما قال لي ان مدتك ستكون طويلة في مصر فمن يعرف اذا كنت أراك أو تراني وعند هذا الكلام لم يمكنه أن يضبط نفسه عن البكاء ولا أنا أيضاً وأخيراً تفارقنا وعيوننا تلتفت كل دقيقة الى الوراء ورفيقي يشجعني وقد كنا واضعين نصب عيوننا البلاد الجديدة وما سنراه فيها فوصلنا الى بيروت ومنها ركبنا البحر ووجهتنا مصر القاهرة .

سفرنا الى مصر

السبت في ١٩ ت ١ سنة ١٨٦٧ في الفابور المسكوبي

في اليوم الثاني توجهنا الى المدينة وجهزنا ما نحتاجه للسفر وكان مع رفيقي اسكندر تبغ لأجل أخيه في مصر فمن بعد ان دفع رسوم الجمرك يومئذٍ توجهنا الى الفابور .

وعندما دخلنا الفابور مساء وأخذنا محلنا وابتدأنا ننظر آخر نظرة للبلاد ولكن كان فكرنا مشغولاً في البلاد الجديدة وبعد غروب الشمس أبحر الفابور وبعد خمسة دقائق من سيره ابتدأت حركات القيء معي وشعرت بدوار لم يمكني من قعودي جالساً ولا التمدّد على ظهري بل تسطحت على وجهي ويدي كابسة على معدتي فبقيت طول الليل في هذا الحال وفي اليوم الثاني صباحاً أردت أن أجرب نفسي بالنهوض ولكني شعرت بقيء أشد من الأول وكنت اتمنى لو دام الليل لأن النوم كان يريحني جداً وأما رفيقي فعندما رآني في حالة القيء ابتدأ يضحك .

ولكن في اليوم الثاني وجدته في الحالة نفسها التي كنت فيها وبقينا على هذه الحالة الى أن وصلنا الى يافا التي هي أخطر مينة في البلاد ورغماً عن خطرها نزلنا الى البرّ املاً بأنه يمكنا الأكل والشرب عندما نزلنا الى الفلك الصغير كانت كل موجة من البحر آتية علينا نظنها جبلاً مقبلاً سنغرق باسفله أما الزورق فكان يعلو فوق الأمواج ثم ينزل الى أسفل فنبقى كأننا في واد بين جبلين من الماء وقد تصورت في فكري بني اسرائيل عند مرورهم في البحر الأحمر ورغماً عن هذه الحركات القوية ذهب عني القيء والدوخة وكل شيء فحالاً طلبت السيكارة واطمئنيت من رواق البحرية وعدم اكتراثهم في هذه الأمواج بل كانوا يضحكون ولا يغفلون عن قبض العملة من المسافرين وويل لمن لا يشارطهم قبل النزول لأنهم يأخذون منه ما يستطيعون من الدراهم لأن المسافر عندما يرى نفسه في هذه الحالة يدفع لهم ما يطلبونه وأحياناً برجوعهم للمسافرين من البر يبقون لقرب سفر الفابور ويبتدأون بالتأخر في المسير حتى يتهيج الراكب

ويدفع لهم مقداراً عظيماً حتى لا يفوته القابور وقبل الدخول في البر وصلنا بين صخور ضخمة بحيث كانت الأمواج تقذفنا نحوها لولا مهارة البحرية فبالحقيقة أنهم من أمهر البحرية ولولا ذلك لما أمكنهم الخوض في هذه المينا .

وليافا منظر جميل من جهة البحر في انها مبنية على تلال وبيوتها فوق بعضها بحيث يمكن لكل سطح أن يكون داراً لبيت آخر وهذا المنظر الخارجي يعكس منظرها الداخلي كما سنرى من تاريخ يافا .

يافا

لفظة سريانية معناها الجميلة

ان هذه المدينة قديمة جداً وقد ذكرها التاريخ المقدس بهذا الاسم في سفر الايام الثاني الاصحاح الثاني عدد ١٦ حينما ارسل حيرام ملك صور أرز لبنان الى سليمان لبناء الهيكل ومنها نزل يونان النبي كما في الاصحاح الاول عدد ٣ ليونان وفيها رأى بطرس الحلم واقام طابيطا من الموت اعمال الرسل اصحاح العاشر والخامس عدد ٢٤ وفيها جرت قصة اندروماد رواها القديس جوروموس ومنها توجهت مريم العذراء مع يوحنا الى افسوسَ وفيها تحارب قلب السبع ايام الصليبية مع صلاح الدين الايوبي وقد عمر اسوارها ثانية مار لويس وفيها ولدت ابنتهُ بلانش وفيها بلغهُ خبر موت والدته وفي سنة ١٧٩٩ فتحها نابوليون الاول وقد فتحها ابراهيم باشا الخديوي المصري ولها تاريخ قديم جداً ويوجد فيها نحو ار
بعماية أو خمسماية بستان واهمية مركزها بالماء الموجودة في البساتين ويمكن اصلاح ميناها ومن قرأ سفر المكابيين الثاني الاصحاح الثاني عشر والثالث عدد ٨ يعرف عوائد بحريتها وما لهم من سوء المعاملة مع الزوار وانهم اشطر والعن بحارة الدنيا .

فهذه المدينة هي ميناء القدس ويوجد بعدها سهل سارون أي المشقوقة وهو السهل الذي حرق فيهِ شمشون زرع الفلسطنين وبعد هذا السهل توجد الرملة .

وكان لي معارف في يافا وهم ارفاقي في مدرسة عينطوره ومدرسة البستاني وعرفت لما كنت في مدرسة البستاني وليم خياط وهو الان في كونسلاتو انكلتره في القدس .

وكان اول اهتمامي بدخولي يافا هو الاكل حيث ما امكنني الاكل في القابور وبقيت في المدينة مدة ليتم الهضم عندي قبل النزول الى القابور الذي نزلت اليه قبل ميعاده خوفاً من ازدحام البحرية الذي لم ارَ منهم الاكل معاملة حسنة وعند سفر القابور مساءً عاد اليَّ دوار البحر واصابني كالاول وبقينا هكذا الى ان

وصلنا في اليوم الثالث من سفرنا من بيروت الى مدينة بورت سعيد التي هي اول مدينة من مصر لجهة بلادنا .

جغرافية مصر
واسمها

ان اسم مصر على حسب اللغة القديمة واللغة القبطية خيم أي الارض السوداء وبالحقيقة هكذا لان كل ارضها سوداء والعبرانيون يسموها مصرائم ومعناها المصران وفيها علامة الجمع التي هي الميم في العبرانية ربما يعنون فيها مصر العليا والمتوسطة والسفلى وربما تسمت بذلك لهية الاقنية التي كانت كالمصارين والاسم اليوناني ايجيبتيس يدل على ذلك لان اليونان كانت دائماً تترجم معنى الاسم الى لغتها .

وقبل تسمت بذلك باسم مصرايم بن حام بن نوح واليونانيون سموها ايجيبتيس اي بلاد الاقنية ربما بسبب الترع التي فيها وقيل باسم احد الملوك .

(واما مركزها الجغرافي) فهي عبارة عن واد تحيط بها الجبال شرقاً وغرباً وتقسم الى ثلاثة اقسام العليا وتسمى بالصعيد وهو الوجه القبلي والوسطى والسفلى الذي هو الوجه البحري الذي كان من قديم الزمان مغموراً بالماء وكل دولة قسمتها ال اقاليم بعضهم اوصلها الى اربع وعشرين واليونان اوصلتها الى سبعة وخمسين وتمدنها مشى مع النيل أي من الجنوب الى الشمال .

سكان مصر

فالاستكشافات المصرية هي التاريخ الحقيقي لمصر وهي الاثباتات لصدق هذا المورخ أو لتكذيب غيره فلاجل معرفة اصل المصريين نذكر ما قاله هيرودوتس انهم اتوا من شواطي بحر العجم بسبب زلازل وحضروا مع الفينقيين اللذين توجهوا الى سوريا والذي يثبت قول هيرودوتس ما قاله مسبرو في كتابه عن اصل المصريين صفحة ١٦ وقلنا ان المهاجر لا بد ان يأخذ معهُ ثلاثة امور لغتهُ ودينه واسمه فاذا فحصنا كما قال مسبرو عن اللغة المصرية نجدها لغة سامية تشبه الارامي والعبراني في اصولها وتركيبها الغراميطيقي واحد فاحد ازمان افعالها الاقدم والابسط مركب من الضمير المتصل المشابه اللغتين المذكورتين .

وان لا شك ان اللغة المصرية والسريانية من اصل واحد تكونا في الاصل ثم مع الزمن والبعد ابتعدا فلننظر الان ان كانت هذه اللغة تشبه اللغة الهندية المسماة بالسنسكري لانهُ يُظن ان المصري والفينيقي اتيا من الهند وسكنا شاطىء بحر العجم ولاجل اثبات ذلك نذكر اولاً شيئاً ما عن الهنود وعن عوايدهم

وديانتهم ولننظر فيما اذا كانت تشابه المصريين وقبل الدخول بذلك نذكر اكشاف اللغة المصرية الهيروكليفة لاجل البحث والنظر في قواعدها .

ذكر بعض المؤرخين ومن جملتهم هيرودوتس ان المصريين اتوا من جهة خليج العجم بسبب زلازل وكذلك سكان فينيقيا اتوا من هناك والاصل من الهند .

فقبل الابتدى بتاريخ مصر نذكر شيئاً عن الهند وعن لغتها وعوايدها واسباب مهاجرة اهلها لكي ترى حقيقة ما رواه هيرودوتوس المؤرخ .

كشف اللغة الهيروكليفية

حجر رشيد

ان هذا الحجر الموجود الان في المتحف البريطاني وقد رايتهُ مدة زيارتي لونده في ايلول سنة ١٩٠٣ قد اكتشف مدة نابوليون الاول بقرب رشيد سنة ١٧٩٩ وعلى هذا الحجر ثلاث كتابات الاولى في اللغة الهيروكليفية والثانية في اللغة العامية الديموتيقية والثالثة في اللغة اليونانية .

والذي كشف هذا الحجر هو ضابط فرنساوي اسمهُ بوسار Boussard واهداه الى مجمع العلوم الفرنساوية في القاهرة ولما خرجت الجنود الفرنساوية من مصر وضع الجنرال هتشونسون الانكليزي يده على ذلك الحجر واهداه الى التحف البريطاني في لندن ولم يزل هناك الى اليوم طوله ثلاثة اقدام وقيرطان وعرضه قدمان وخمسة قراريط وفي سنة ١٨٠٣ رسمت جمعية العاديات صورته ووعزتها على جمهور العلماء فترجمتها اليونانية تدل على تشكر من كهنة ممف الى بطولمايس البيفانس سنه ١٩٤ قبل المسيح لانهُ انعم عليهم واما القراءة الهيروكليفية فلم يعرفها احد وبقي كشف اسرار هذه اللغة الى سنة ١٨١٨ الذي تمكن منهُ الرجل الفرنساوي شمبولون الذي درس اللغة القبطية التي هي لغة المصريين القدماء .

ومن ذلك القوت امكن كشف تاريخ مصر الحقيقي فكان شرف وجود هذا الحجر واكتشاف لغته محفوظين للفرنساويين ولوكان في لوندره .

الهند مركز الجنس البشري

قال بعضهم ان الهند مركز الجنس البشري ومهده ومن هناك تفرق على كرة الارض ولاجل معرفة اسباب هذا التفريق يلزم ان نعرف عوائد الهنود وترتيبهم ولغتهم .

رتب الهنود

كانت تقسم الهنود الى اربع طبقات الاولى البراهمة أي ارباب الدين الثانية الحكام الثالثة التجار الرابعة الصناع ولكل من هذه الطبقات قوانين ونظامات لا يمكن تجاوزها فكان حاجز عظيم بين كل رتبة بحيث لا يمكن انتقال واحد من رتبة الى رتبة اخرى .

وعندما كان احد يتجاوز ويخالف قانون طبقته كان يعاقب باشد القصاص واعظم قصاص له كان طرده من الهيئة الاجتماعية بحيث لا يكلمه ولا يقبله ولا يطعمه ولا يسقيه ولا يساكنه احد فلاجل ذلك كان يهرب الى البرية ويأكل الاعشاب ويصطاد الحيوانات .

وقيل انهم كانوا يغيرون له كل عوائدة وخصوصاً الكتابة التي كانت من اليسار الى اليمين صارت من اليمين الى اليسار وكان بسبب تركه تكثر عليه الاوساخ والامراض واخصها امراض القلفة التي كانوا يلتزمون لقطعها وهذا هو ابتداء الختان .

وعندما كثر هؤلاء المحرومون واجتمعوا من كل طبقة رحلوا من الهند لجهة الغرب واتوا الى خليج العجم حيث التاريخ ابتدا فيهم من هناك .

اما القسم الاخر من الهند الذي دخل لجهة أوروبا كان من الهنود الاصليين الذين بقوا حافظين لغتهم وعوائدهم وديانتهم التي تنوعت مع الزمن .

لغتهم

ان اللغة الاصلية للهنود هي السنسكرية التي فيها ديانتهم المقدسة والتي اثارها باقية للان في اللغات الاوروبية وخصوصاً اليونانية .

دين الهنود

كانت الهنود تعبد الهاً واحداً تعطي له جميع صفات الالوهية ولكن كانوا مثل باقي الوثنيين يشخصون الصفات مثلاً من صفات الخالق القوة فكانوا يجعلون صنماً يسمونه اله القوة وهكذا لكل صفة وان هذه الالهة ثانوية خاضعة لاله اصلي واحد فالاله الاصلي الذي كان ند الهنود هو الزمن لانهم كانوا يقولون اله سرمدي لا ابتداء لهُ ولا نهاية وهو الخالق والمحافظ والملاشي والمحيي والمميت وكل شيء يظهر يكون منهُ وقد قسموا الزمن الى ثلاثة ماضي وحاضر ومستقبل فالماضي سموه الخالق وهو برا لانه زمن الخلقة مضى .

والثاني الحاضر وسموه المحافظ لانهُ يحفظ الهيئة الموجودة واسمه فيكنو .

والثالث المستقبل وهو الملاشي لان كل شيء يتلاشى في المستقبل واسمهُ سليفه وهذه الثلاثة هي واحد وهو الزمن ومن ذلك اتى التثليث والتوحيد عند الهنود وهم المدعوون بالدهريين الذين قيل عنهم وما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر .

وأما المتشرع العظيم عندهم يدعي مانواي الرجل الطاهر وكانوا يعتقدون ان هذا الاله يغضب ويقاصص وينعم ولذلك كانوا يردون غضبه أو يستمطرون نعمهُ بالهدايا والضحايا والصوم والصلواة والتقشف فاصبحت البراهمة الوسيط الوحيد بين الالهة والبشر فكانوا يقدمون الذبايح ويرتبون الاعياد باحتفالات ولا يخفي ما كان لهم من السلطة والغنى والاكرام .

براهين مهاجرتهم

من المعلوم اذا تغرب الانسان الى بلاد اخرى ياخذ معهُ ثلاثة لغتهُ وعوائده ودينه ومتى كان فاتحاً متسلطاً يعطي هذه الامور الثلاثة الى الذين تحت سلطته فاذا فحصنا شعوب أوروبا واسمائها واسماء آلهتها نرى انها آتية من لغة غريبة عن لغتهم الحالية التي لا معنى عندها في هذه الاسماء مثلاً لفظة المانيا ليس لها معنى في لغتها الالمانية ولكن لغة السنسكري الهندية تفسر معناها الذي هو (آلي ماني) أي الرجال الاشداء وكذلك لفظة (بلجيك) فان معناها سكان الغابات ولفظة (هلان) التي هي عبارة عن اصل اليونان فان هذه اللفظة سنسكريه معناها القمر لانهم كانوا يعبدو القمر وعلمهم الذي اخذته الاتراك كان عليه رسم الهلال وبينما كان احد السلاطين العثمانيين ليلاً في الخارج رأى نجمة في وسط هلال القمر فامر ان تضاف الى هلال العلم وهذا هو العلم العثماني الآن .

اسماء الالهة

ان اسماء الالهة عند اليونان هي سنسكرية فالاله الاكبر عندهم اسمهُ جوبتر الذي لا معنى لهُ في لغتهم واما في السنسكرية هو مركب من زايس باتر **Zeus Pater** أي الاله الاب ومنهم اخذت اللاتينيون لفظة **Deus** فالاله الاول عند الهنود كان لهُ اسمان اسم قبل الخليقة وهو **zeus pâter**, وبعد الخليقة اسمهُ (برا) وربما ان تكون لفظة برا بالعربية ماخوذة من هناك وكذلك اسم، **Hercul** الذي معناه الاله القوة وهكذا في باقي الالهة اليونانية وفي لغتهم ايضاً التي لم تزل العلماء تبحث فيها وتثبت اصلها السنسكري .

فلنرجع الى المصريين ونبرهن عن اصلهم الديني وقد قلنا ان الهنود كانت تعبد الزمن كما قلنا فالمصريون

وجدوا ان ميزان الزمن هو الشمس لانها كانت تقسم الزمن الى ليل ونهار شتاء وصيف ولها تأثير على حياة النبات والحيوان والمعدن فعبدوها وثلثوها وسمتها اليونان عند الشروق هرمخيس أي شمس الافقين الشارقة والغاربة وسمتها المصريون هرمخوتي وعملوا ابو الهول تمثالاً لها وعند الظهر سموها را وعند الغروب سموها اوزوريس .

وهي عبارة عن الشمس المغربة وهذه الثلاثة هي واحد فهذا هو التثليث المصري ويوجد تثليث آخر يسمى بتثليث مانف وهو عبارة عن الاب والام والابن واذا قرأة في الكتب الدينية قوانين الذبايح تلقاها واحدة في الهند ومصر حتى اسماء المتشرعين هي واحدة مانو عند الهنود ومانس عند المصريين ما هو الا بعض تحريف فاذا حصلت دراسه جديدة وقوبلت لغات وديانات وشرائع الهنود والمصريين ربما يرون براهين جديدة اقوى .

ديانة المصريين القدماء

قد أخذت هذه الديانة عن عبادة الشمس وللشمس تأثير عظيم على ديانة وافكار المصريين وحياتهم فعندما نظروا الشمس تشرق وتكون باعظم قوتها عند الظهر ثم تغرب وتختفي في البحر وبعد ١٢ ساعة تولد ثانية قسموا حياتهم واعتقادهم على ذلك ان بعد ولادتهم ينمون ثم يموتون ثم يقومون وعملا لكل قسم في هذه الادوار الهة وقسموها الى ثلاثة اقسام الهة سماوية والهة ارضية والهة اموات .

فالسماوية هي الشمس اورا والارضية هي سبب الأرض ثم النيل .

والهة الاموات ازيريس وخلافة وكان لكل اقليم الاه فالمكرم في منفيس محتقر في اقليم اخر ولكن الجميع يقرّون بالشمس .

وكما قلنا ان الهنود كانت تعبد الزمن وتقسمهُ الى ثلاثة الهة والثلاثة واحد كذلك عبدت المصريون الشمس التي هي مقسمة الزمن الى فصول ونهار وليل فعبدوها عند شروقها باسم هور وعند الظهر باسم را وعند الغروب باسم ازوريس والثلاثة واحد وهي الشمس فهذا هو التثليث عندهم ويوجد تثاليث اخرى وحيث ازوريس هي الشمس المغربة اعني عند موتها سموه الاه الاموات وعنده ٤٢ قاضٍ ليدينوا الاموات ويحكمون عليهم بالهلاك أو بالسعادة بالهلاك اعني الموت الثاني الابدي وبالسعادة انه يصبح ابن الالهة .

وقد تنوعت الاعتقادات بهذه الالهة تنوعات عديدة وخصوصاً عبادة الحيوانات فكانوا يعتقدون اولاً انها الهة قايمة بنفسها وفيما بعد قالوا انها مركز الالهة لان كل هذه العبادات كانت مؤسسة على المنفعة أو الخوف فعبادة الاسد والتمساح وخلافه كانت للخوف لانهم اقوى من الانسان واما عبادة ابيس وخلافها

كانت لنفع الاراضي وتسهيل عيشة الانسان ومن العجب ان الانسان يصل وينحط الى هذه الدرجة ويعبد ما هو ادنى منهُ لان المعبود هو اعظم من العابد فاذا بقي الثور والهر والفار والبصل والثوم اقوى واعظم من الانسان فاين العقل للانسان .

وقد قال أبو العلاء المعري عن مذهب زردشت الذي كان يكرم البقر ومن غسل وجهه ببولها غفرت خطاياه .

عجبت لكسري واشياعه وغسل الوجوه ببول البقرْ

ومن الاعجب ايضاً كيف ان هذه الالهة الحيوانية كانت تمنعهم عن فعل الشر وكانوا اعظم شعب في الدنيا في حفظ الاداب فاذا نظرنا الى الفقرة في كتاب الاموات التي يقولها الميت امام مجلس ازوريس عند دينونته تتعجب كيف ان الثور والقط والخنفسة منعت هذه الشعوب عن فعل المنكر وهذه القطعة هي خطاب الى ازوريس يا سيد الحقيقة والعدل انني اعترف بك فلاجلك لاشيت الكذب ولا زورت ولا سرقت ولا أحزنت ارملة ولا كذبت امام العرش ولا خنت ولا ارتكبت امراً محرماً ولا اشغلت فاعلاً زيادة عن وقت شغله ولا اهملت شيئاً ولا كنت كسلاناً ولا خفت ولا ارتخيت ولا عملت شيئاً لا يرضي الالهة ولا هربت عبداً عن سيده ولا تكبرت على عبدي ولا سببت الجوع لاحد ولا ابكيت احداً ولا قتلت ولا امرت بقتل احد بخيانة ولا كسبت بغش ولا تلفت ميزان الحبوب ولا تعديت على ارض احد ولا اختلست من كفة الميزان ولا قطعت الحليب عن فم الرضعان ولا قطعت الماء عن سيرها فانا نقي وانا نقي وانا نقي .

انظر عابدي الثور وانظر حالنا الان فبالحقيقة ان بلاد مصر هي بلاد العجايب وقد خرج منها كل شيء ادبي وعلمي .

وكان المصريون القدماء يعبدون الهاً واحداً فقط وان الاصنام لم تكن الا صفات مشخصة تلتهي العامة بها وكان دينهم مقسوما الى قسمين قسم فلسفي معقول تحفظه الرؤساء والعلماء والثاني قسم مادي يتأثر منهُ الجاهل ويعتبره اكثر من القسم الاول .

فمنظر الصنم كان يؤثر بنفس الجاهل اكثر من المعنى الذي لاجله جعل هذا الصنم والقصد من كل ذلك وجود طريقة تربط الانسان عن فعل الشر فاذا اعتقد احد الوثنيين ان هذه الخشبة تضرهُ اذا عمل بك سوءًا فتكون هذه الخشبة مانعة عنك الضرب ونافعة لك فلا يلزم ان تبعد شخصاً عن فكره الديني اذا كان دينه يحرم عليه ضررك ولكن متى افسدت عقيدته الاصلية وقصدك تعليمه عقيدة جديدة لا يؤمن بها فيكون خالصاً من هذه وتلك ولا عاد يمنعهُ شيء عن ضررك .

وكان يعتقد المصريون باله واحد وهذا الاعتقاد كان عند الرؤساء سرياً بحيث كانت جمعية سرية مخصوصة لاجل كشف هذا السر الى بعضهم وكان اسم هذه الجمعية جمعية ايزيس ويقال انها اول جمعية سرية ظهرت في الدنيا وغايتها الاعتقاد باله واحد وان يبقى ذلك محفوظاً عن العامة وهذه الجمعية قرات عنها في بعض كتب وقد ذكرت في كتاب اسمه الجمعية السرية كنت استعرتهُ من بعض اصحابي لاجل قرائته وارجعته له ولا اعلم اين هو وشرح هذه الجمعية هو كما يأتي حسب الكتاب المذكور .

جمعية ايزيس

ايزيس هو اله من آلهة منف وهو المؤنث من تثليثه لان هذا التثليث مكوّن من اوزوريس وهو الرجل وايزيس فهي الامرأة وهوروس فهو الصبي ويعنون بازيس القمر ويصورونه بصورة امرأة على رأسها طاقية تشبه النسر ومن فوقها تاجا مصر العليا والسفلى وبيدها الواحدة مفتاح والاخرى صولجان واحياناً يكون على رأسها قرنان بينهما قرص الشمس وفوق القرص ما يشبه تاجي مصر .

وكان لكل الاه كهنة مخصوصة تخدمه ويكون عددها مناسباً لعدد العابدين وحيث كانت عبادة ايزيس عظيمة جداً فكان عدد كهنته عظيماً وقبل دخول الكاهن في هذه الجمعية كانوا يصنعون له امتحانات عظيمة .

امتحانات الداخل في صف كهنة ايزيس

كانت هذه الامتحانات جسدية وعقلية تجري بالنار والماء والهواء والتدريب والشجاعة والثبات والجلد والصبر وكان محل هذا الامتحان الاهرام فعلى حسب مؤلف كتاب الجمعيات السرية كان يوجد بين هرم الجيزه الكبير وهيكل ابي الهول طريق مخفية كانوا يلزمون المبتدي ان يمرّ فيها وحده وفيها يقضي أشد الامتحانات .

الطريق السرية من الاهرام لابي الهول

ان الذي كان يريد الدخول في صف الكهنة يلزمه ان يقدم طلباً الى رئيس الكهنة فيأخذه الرئيس ويوكل فيه شخصاً آخر ليعلمه ماذا ينبغي فعله وهذا الرجل الموكل فيه يسميه عرابه الذي يأخذه بيوم معلوم الى الهرم الشمالي الموجود في وسط وجهه الشمالي طاقة ينزلون منها بدهليز ينحدرون فيه الى مسافة تحت الارض بحيث الجالس في قعر هذا الدهليز ينظر السماء من الطاقة في مدة الليل يرى منها نجم القطب الشمالي الذي تأسست الاهرام على حسبه ثم يصعدون الى اعلى حجارة غير مقتربة ببعضها ويجدون هناك غرفاً قيل انها محل الدفن لان هذه الاهرام كانت مدفناً كما سنذكره فيما بعد وقد دخلت هذا الدهليز وهذه

الحجرة عندما كانت في مصر وقد ذكر كتاب الجمعيات السرية انه قبلما تصعد الى الحجرة وانت لم تزل في قاع الدهليز تجد هناك حجارة ضخمة غير مرتبة يوجد بينها شقوق بحيث اذا أراد الانسان يدخل بينها يمكنه ذلك فهذه الشقوق كانت ابتداء الطريق .

فالعراب الذي يأخذ المبتدي الى هذا المحل يوصله الى هناك ويعطيه مصباحاً ويقول له ان من هنا طريقك الى الهيكل فاذا قطعت هذه الطريق ودخلت الهيكل ترانا نحن هناك نستقبلك وتكون كاهناً مثلنا واما اذا كان لا يمكنك ذلك ووجدت صعوبات لا يمكنك مقاومتها يمكنك الرجوع ولا لوم عليك فاذا كان الرجل مستعداً معتقداً من كل قلبه يأخذ المصباح من يد عرابه وينزل بين هذين الصخرين وعند نزوله يصل الى بئرٍ خالٍ من الماء فيقف ويتأمل في البئر فيجد على جوانبه من الداخل محطات لوضع الرجل أو اليد فيفتكر ان لا بد لي من النزول في هذا المحل فينزل الى أن تنتهي هذه المحطات فيجد عند انتهاءها باباً يدخل فيه ويخرج منه الى فسحة متسعة ولا يزال المصباح في يده فيجد في هذه الفسحة رجلاً واقفاً يقول له ان جلوسي هنا ليس لمنعك عن المسير الى الأمام ولكن لا علمك ان اخطاراً عظيمة امامك ويمكنك الرجوع لئلا تقع في خطر فاذا كان يخاف ويرجع لا يدخلونه في درجة الكهنوت ولكن يعطونه وظيفة خادم في هيكل ويلهونه حتى لا يبيح في السر واما اذا بقي مداوماً المسير فانه يصل الى ترعة ماء قوية كانت تمر بين الاهرام وابي الهول مقبية وكانت هذه المياه تأتي بانحدار قوي وعندما كان يصل الى حافة هذه الترعة يتأمل في جهتيها فيرى في الجهة التي هو فيها قطعة من حديد واقفة وقطعة اخرى في الجهة الثانية ولكنها ليست مقابلة للاولى بل اسفل منها بمسافة فيعلم من ذلك انه يلزمه أن ينزل من عند الحديدة التي من جهته ويسبح الى ان يصل الى الحديدة في الجهة الثانية لان طيار الماء القوي يسحبه الى هذه المسافة ومع كل هذا فهو ملزوم ان يحافظ على قانون مصباحه فاذا كان ممن يحسنون السباحة يخلص والا اذا رمى نفسه في الماء بدون ان يعرف السباحة ووجد في خطر فالخفير الذي هناك ووظيفته ان يخلص من كاد يغرق ينشله مع ان الغفير لم يخبره انه اذا غرق يخلصه وعندما يخرج من هذا الخطر ولو لم يكمل الطريق ويرجع من هذا المحل يحسبون ذلك له لانهم يستنتجون من ذلك أن رغبته للدخول في الكهنوت جعلته أن يخاطر بنفسه ويشهد له الغفير بذلك ولكن الرتبة التي يعطوها له تكون رتبة صغيرة .

واما اذا قطع الترعة بدون خطر وقطع ألى الجهة الثانية فانه بعد ان يمشي قليلاً يصل الى محل يرى فيه ناراً قوية على الجانبين نار ذات لهب يحركه ريح ويجره الى الوسط من الجانبين وفي هذا الوسط يمر المبتدئ وخلاف ذلك انه يوجد في الارض قضبان من حديد بهيئة مصبع بحيث ان كل فتحة بين القضبان تكون قدر رجل الانسان وهذا الحديد محمي في النار جداً فيلتزم الرجل ان يضع رجله في هذه الخليات بحيث أنها لا تمس الحديد وان يستقبل اللهيب الاتي من كل جهة من الجوانب فقل مسيره في هذه الطريق يرى رجلاً في هذا المحل ينبهه على الاخطار ووظيفة هذا الخفير ان يخلصهُ اذا وقع في خطر فاذا خلص من هذه الطريق يدخل في محل مظلم جداً لا يعرف اين يتوجه ولكن بينما يكون سائراً والمصباح في يده يرى لمعاناً في

آخر الدهليز لان هناك صحيفة من نحاس اصفر تلمع متى قابلت الضوء وعندما يرى هذا اللمعان يعرف ان هناك سراً فيتجه لجهته وعندما يصل اليه يرى باباً والصحيفة عليه واعلى هذا الباب حلقة عالية عن الارض فيقفز الى اعلى كي يمسك الحلقة وعندما يمسكها يرى الارض خارت من تحته وظهر طيار هواء شديد يرفعه ويخبطه على جدران اباب فيبقى معلقاً بالحلقة مدة خمس دقائق فبعد ذلك يرى الارض رجعت الى ما كانت عليه لانها من خشب وينفتح الباب ويرى نفسه في الهيكل بين صفين من الكهنة وعلى العرش الرئيس الذي يناديه قائلاً له اهلاً يا بني الحبيب فانت الان تستحق ان تكون منا فيتقدم ويركع ويقبل يد الرئيس الذي يسلمه ثوباً ابيضاً مع زنار ويلسمه الى عرابه الاول الذي يسمح له بدخول الهيكل الى المحل المسمى قدس الاقداس لاجل درس العلوم وقراءة الكتب المقدسة فيبقى في الهيكل مدة يتعلم .

وفي اليوم المعين لسيامته يصنعون له وليمة فاخرة ويطوفون به في الاسواق والجميع تحضر وتقبل يده ويتباركون منه والحكومة تعفيه من العسكرية والاموال الاميرية وتعطيه ارضاً كافية لمعاشه فيطلع على جميع الاسرار ويدخل أي محل كان في الهيكل واهم هذه الاسرار المسمى سر ايزيس وهو الايمان باله واحد لا غير .

وعندما خرجت هذه الجمعية القوية عن حدودها تلاشت كباقي الجمعيات التي حادت عن قوانينها فاخيراً اخذوا الدين لكسب الدنيا فزاحموا الفقير على الغنى وجعلوا كل شيء لهم ولا شيء يفسد الاخلاق مثل كثرة المال وعدم الشغل .

قيل ان البوهوميان في اوروبا أي النور في بلادناهم بقايا هذه الجمعية لان لغتهم لن تعرف لحد الان ولهم اسرار عظيمة في اجتماعاتهم واغلب العلماء ينسبونهم الى هذه الجمعية .

الفكر بالموت عند المصريين

لا يوجد شعب في الدنيا اهتم بالموت مثل الشعب المصري فكان الملك عند جلوسه على العرش يفتش على محل لدفنه وطالما هو حي يشتغل فيه فلذلك ترى عظم القبر يدلك على طول حكم الحاكم فاصحاب الاهرام عاشوا مدة طويلة كملوك فلذلك ترى قبورهم التي هي الاهرام من عجائب الدنيا .

تحنيط الاجسام (أي تصبيرها)

كان المصريون يعتقدون ان لكل انسان روح وجسد ان الروح تفنى اذا فني الجسد ولذلك يلزم حفظ

الجسد وعلى هذا الاعتقاد كانت قبور المصريين محلين واحد للجثة والثاني للزوار الذين يأتون الى هذا المحل ويقدمون هدايا للميت لاجل الاكل وحفظ الجسد ولذلك وجد في قبورهم القمح والارز والبيض وخلاف اشياء .

واذا ما قدموا لهم تأتي هذه الارواح وتدخل في اجسام الاحياء فتمر ضهاوان بعد ستة الاف سنة ترجع الروح للجسد فيلزم ان يكون محفوظاً كي لا تتعب الروح في جمعه ولهذا اخترعوا التحنيط فكانت عملية مهمة جداً في مصر فانهم يسلمون الميت الى المحنطين وبعده يستلمونه منهم واذا كان الميت مديوناً تعطي جثته الى أصحاب الدين مع الولاية على قبره حتى ان أولاده واقاربه تفي الدين عنه وتستلم جثة والدهم وكانوا يحاكون الميت قبل دفنه ومن محاكمتهم يمنعونه من الدفن اذا كان مذنباً واذا ادعى عليه احد ولم يثبت دعواه فيقاصص بالقصاص الذي كان واجباً على المدعى عليه .

وكان فكر الموت لا يفارقهم ابداً حتى في افراحهم فكانوا في عز الوليمة والافراح يدخلون تابوتاً للمحضر وذلك لاجل توقيف افراحهم وتبذيرهم وشهواتهم .

ملاحظاتي

وعندما نظرت في المتاحف جثث هؤلاء الملوك وخلافهم قلت بفكري انهُ صح اعتقاهم برجوعهم الى الدنيا بعد ستة الاف سنة لان بسبب تحنيطهم وحفظ جثثهم على هذه الحالة خلد ذكرهم الى اليوم وقد اخرجوهم من قبورهم واجلسوهم على عروشهم في هذه المتاحف لاني لا اظن ان قصورهم الاصلية كانت بعظمة هذه المتاحف وبالحقيقة انهم قاموا من بين الاموات .

ابتداء تاريخ مصر

من سنة ٥٠٠٤ ق . م

قد اعتمدوا في تاريخ مصر اولاً على تاريخ هيرودوتس وثانياً على تاريخ الكاهن مانيتون وثالثاً الاعتماد الصحيح على كشف الحفريات والفضل في ذلك لكاشف اللغة شاموليون لنذكر للقاري تاريخ هذا الكاهن مانيتون الذي يستندون عليه كثيراً .

مانيتون الكاهن (Manéton)

كان هذا الكاهن بعد هيرودوتس المؤرخ بنحو جيلين تقريباً وقد وضع بطوليايس فلادلف تحت سلطته جميع ما يلزم من سجلات الهياكل لعمل تاريخ من سلف من الملوك في مصر وقد ابتدأ هذا الكاهن

الوطني بتكذيب هيرودوتس مع ان كتاباته التي كانت ثلاثة مجلدات وقد اهداها الى بطولمايس مملوءة من الغلط ومع ذلك فقدت جميعها والذي ذكر شيئاً عنها هو جيليوس الافريقي الذي كان كاهناً مسيحياً سنة ٢٣٠ بعد المسيح حتى وجيليوس ايضاً عندما رأى سنيّ مانيتون لا توافق سنيّ موسى فانه قدم واخر فيها لاجل المطابقة فتلف الاصل ومن سوء الحظ ان كتابة افريكوس ذاتها ضاعت ايضاً ولم يتصل لنا منها شيء الا من الراهب جورج المكني بالسينسال كما ان هذا الاخير بدل وغير حسب ذوقه واعتقاده ايضاً ومن المصيبة ان كل منهم يدعي ان هذا هو تاريخ مانيتون مع ان كلاً منهم مختلف عن الاخر ولائحة ملوكه مختلفة ايضاً وقد صدق مانيتون بترتيب ملوك الدولة الثامنة والتاسعة عشر وقد قسموا التاريخ المصري الى ثلاثة ادوار الاول الوثني والثاني المسيحي والثالث الاسلامي ويقول المصريون ان الالهة حكمتهم قبل البشر واسباب ذلك انه عندما خرج الانسان من يدهم كان جاهلاً الصنايع الضرورية للحياة حتى لم يكن له لغة بل كان يتقلد الحيوانات بصوته فتكفلت الالهة بتعليمه وكانت تنزل الى الارض بالتتابع كل واحد بدوره وهذا التتابعبالنزول كون الممالك الالهية التي ابتدأت في هليوبوليس أي اون الشمالية التي هي الان المطرية هذا ما ذكره مسبرو صفحة ٣٣ في التاريخ القديم ولكن اول ملوكهم البشرية هو منس .

واذا لاحظنا تاريخ كل امة وابتداها نراها تدعى ان اول معلم لها هي الالهة لانهم اخذوا تاريخهم وتاريخ حياتهم الشخصية مثلاً عندما خرج الانسان من حضن والدته كان لا يعرف شيئاً كما تقول المصريون وليس له لغة ولا صنعة لمعاشه فلا بد ان اول انسان الذي خلق من دون اب وام ان تكون الالهة علمته هذا اذا كانت خلقته كما نخلق نحن الان وما خلقته رجلاً كاملاً ومع خلقته رجل كامل لا بد من الهة تعلمه حتى ينقل علمها الى نسله .

حتى اذا نظرنا في التوراة نرى ان الله علم آدم كل شيء وهكذا .

الدور الوثني

فضل مصر على العالم القديم

يحق لهذه البقعة من الارض ان تدعى مقدسة في ذلك الزمن فاذا نظرنا ما علمته للبشر منذ الابتداء نرى حقيقة ما نقوله فلاجل ذلك نعيد على ذهننارجال مصر وما عملت من زمن الفراعنة الى دخول الدين المسيحي اليها وننظر هذا الدور الوثني الذي هو أعظم ادوارها وكم اتى من العجائب والمنافع للعالم القديم .

فاول من حول النيل الى غير مجراه وبنى هيكلاً هو منس (Ménés) الذي كان من العائلة الاولى التي ابتدأت من سنة ٥٠٠٤ الى ٤٨٥١ ق . م .

اول من كتب في التشريح والطب هو اطوت (Atot) من العائلة الاولى .

اول من بنى اهرماً لاكرام الحيوانات المقدسة هو اونفس (Onefès) العايلة الاولى .

اول من جعل عبادة الثور ابيس وباقي الحيوانات عبادة رسمية هو كاكو Kakouh من العائلة الثانية التي ابتدأت ٤٨٥١ ق . م .

اول من اعطي حقوقاً للنساء بالملك عند انقطاع الذكور وجعل الملوك خليفة الالهة ولهم نسبة معها بينوتريس Binotris من العائلة الثانية .

اول من وضع كتاباً في الطب بقي لاول جيل للمسيح هو توزورتس Thosorthus من العائلة الثالثة التي ابتدأت ٤٤٤٩ .

اول من اشتغل في المعادن في جبل الطور هو سنفرو Segouris من العائلة الثالثة .

اول من عملوا العجائب في بناء الاهرام هم كيوبس Khéops وكفرع Kafri ومنكورع Menkeri من العيلة الرابعة التي ابتدأ حكماً ٤٢٣٥ ق . م .

اول من درس الفقة والفلك وامر برهن مدفن الانسان المديون هو شوسيسكاف Shopseskof من العائلة الرابعة .

اول من فتح الشام هو ماديراع Madira من العائلة السادسة التي حكمها ٣٧٠٣ ق . م .

اول ملكة اخذت بتار زوجها وعملت سرداباً يصب فيه النيل اذا افتتحت احدى ابوابه وعملت عزيمة ومن جملة المدعوين قاتل زوجها وفتحت الباب فاغرقتهم وقتلت نفسها بالرماد الحار وهي الملكة نيتوكريس Nitokris من العائلة السادسة .

اول من فتح طريقا لبلاد العرب ومنها الى الهند لاجل التجارة هي سنخكاريج من العائلة الحادية عشرة التي حكمت ٣٠٦٤ ق . م .

اول من عمل المسلات وكتب عليها التاريخ هو اوسيرسن Ousersen الاول من العائلة الثانية عشر التي حكمت ٢٨٥١ ق . م .

اول من عمل بحرة موريس لجمع الماء الزائد من النيل مدة الفيضان والسقي منه مدة القحل هو امنحت الثالث من العائلة الثانية عشر .

اول من طرد الرعاة من مصر وحكم مصر كلها هو اموزيس من العائلة الثامنة عشر التي حكمت ١٧٠٧ ق . م .

اول من امتد حكمه الى ارمينيا والجزيرة والشام هو طظموس الثالث من العائلة الثامنة عشر وهو على حسب حساب التوراة هو فرعون ابراهيم الذي عندما جاع ذهب الى مصر مع زوجته وسنبين ذلك فيما بعد .

اول من عمل الصنم الرنان الذي تتعجب منه العالم لليوم هو امنوفيس الثاني من العائلة الثامنة عشر .

اول من ادخل عبادة البعل الى مصر هو ساتي الاول من العائلة التاسعة عشر التي حكمت ١٤٦٢ ق . م .

اول شجاع ظهر واول صاحب حروب عديدة واول من عمر ورمم الهياكل هو رعمسيس الثاني اول

ملوك مصر بالشهرة ومن يريد روياه فهو الان في الانتيكاخانة وقد نظرته وبقيت اتأمل بتاريخه وانظر يداه ورأسه وان هذا هو رعمسيس الثاني الذي كتب اسمه على نهر الكلب وحارب وحده الحثيين الخ الخ وهو من العائلة التاسعة عشر ويقال عنه انهُ فرعون مضطهد الاسرائليين سنبحث بذلك .

اول من لحق الاسرائيلين وغرق في البحر هو منفتاح الاول الذي جثته اليوم في الانتيكخانه من العائلة التاسعة عشر .

اول من نهب هيكل سليمان واسر رجعام هو شيشاق من العائلة الثانية والعشرين التي حكمت ٩٨٠ ق . م .

واول من ابدل القتل بالاشغال الشاقة هو ساباق من العائلة الخامسة والعشرين التي حكمت ٧١٥ ق . م .

اول من ادخل اليونان في مدارس مصر وحضر اليها يومئذ سولون وفيثاغورس وافلاطون هو بسباتيك من العائلة ٢٦ التي حكمت ٦٦٥ وقد حاصر اذوف في سوريا مدة ٣٥ سنة .

اول من اوصل ترعة من النيل من بسط قرب الزقازيق الى بركة التمساح للبحر الاحمر هو ناكأو الثاني من العائلة السادسة والعشرين .

اول من انخدع وغلبته عساكر القطط التي عملها كامبيس ودخل فيها الى مصر هو بسباتيك الثالث وفيه انتهى الحكم الوطني واما الدولة الفرسية لم بفعل شيئاً من الحسن مع المصرين ولكن الدولة اليونانية هي التي جددت عزيمة مصر ودامت تنشر علومها ومعارفها وحكمت من ٣٢٣ ق . م الى ٣٠ قبل المسيح وهي العائلتان الثانية والثالثة والثلاثون فالاسكندر بني الاسكندرية وبطليموس الاول عملوا الفنار بجزيرة فرعون بعلوماية ذراع وهو اول من اخترع الفنارات للمراكب وقد جمع كل العلماء واقام مكتبته المشهورة وكذلك بطليموس الثاني ترجم التوراة الى اليونانية المسماة بالسبعينية بالنسبة لسبعين عالم ترجموها وقد زاد المكتبة واما بطليموس الخامس فهو الذي بواسطته فكت اللغة الهيروغليفية لان حجر رشيد الذي فكت بواسطته كان مقدماً له من الكهنة شكراً منهم له واما بطليموس السابع فانه الف ٢٤ كتاباً معظمها في علم الحيوانات واما الدولة الثانية اليونانية التي اولها الموسيقي بارانتيس والذي خلف الكليوبترات لم تستقم مدة طويلة ولا كليوبترا افادت احد وقد علمت العالم الغش والخيانة والخلاعة وانتهت فيها دولتها ودخلتها الرومان الذي يقسم دورها الى قسمين وثني ومسيحي فالمسيحي هو الدور الثاني لمصر .

فضل مصر في دورها الوثني على بلادنا

من أهم هذه الأفضال هو سد الجوع الذي كان يحصل في بلادنا ومصر تدفعه عنا فالتذكر .

جوع ابراهيم

أولاً الجوع الذي حصل من زمن سيدنا ابراهيم وذلك حسب التوراة قال الكتاب المقدس ان ابراهيم عندما خرج من بيت ابيه واتى أرض كنعان كان عمره ٧٥ سنة وزوجته ساره ٦٥ لأنها أصغر منه . بعشر سنوات وذلك في سفر التكوين الاصحاح ١٣ العدد ٤ ثم أنّه حدث جوع في الأرض فانحدر ابراهيم الى مصر يتغرب هناك التكوين الاصحاح ١٢ عدد ١٠ وأخذ ساره وعلمها ان تقول انها اخته فأخذها فرعون لتكون زوجة لهُ لأن رؤساء فرعون مدحوها لهُ فاكرم ابرام واعطى لهُ البقر والغنم والحمير والاماء والاتنِ والجمال على شان ساره ثم ضرب الرب فرعون بسبب ساره فاحضر ابراهيم وعاتبهُ على قوله انها اخته فقدم عذره وقبل فأعطاه امرأته وشيعهُ مع عبيده فكم من الفضل لهذا الفرعون وكم هو عظيم وصاحب دين وانسانية فانهُ عندما عرف حقيقة الأمر ترك ساره وابقى كلما اعطاه من المال والحمير وخلافه الى ابراهيم وشيعه محروساً خوفاً من أن احد يتعدى عليه فصرت محتاراً لمعرفة هذا الفرعون الذي يجب لهُ الاعتبار فابتديت افحص حسب التوراة وحسب التاريخ الحديث لمصر حتى وصلنا بالتقريب الى هذا الرجل العظيم وانشاء الله سأذكر نتيجة فحصي عسى أن بعض العلماء تعيد الفحص وتعرف الحقيقة وما قلناه عن ابراهيم مذكور في الاصحاح الثاني عشر للتكوين فلا أدخل في الاعتراضات على كل ذلك لأن هذا لا يهمني ولا لهُ منفعة لان مهما كان اعتراضي فهذه القصة هي واحدة ولم تزل قهراً عن المعترضين والذي يعجبنا هو جمال ساره في سن الـ ٧٥ من عمرها بحيث كل الملوك اخذتها زوجة .

جوع اسحاق

قال في سفر التكوين الاصحاح ٢٦ العدد الأول وكان جوع في الأرض غير الجوع الأول الذي كان في ايام ابراهيم فذهب اسحاق الى أبي مالك ملك الفلسطينيين في جيرار وظهر لهُ الرب وقال له لا تنزل الى مصر كأن والده اخبره عن جيرار لأنهُ عمل العملية ذاتها فانكر امرأتهُ ومع ذلك اعطاه أبي مالك ما أعطى الى والده ولا نعلم اذا كان أبي مالك اسحاق هو نفس أبي مالك ابراهيم ومع ذلك شكراً لهُ لأنهُ رجل عظيم وخايف الله وعاتب اسحاق على غشه لهُ انها امرأتهُ فله الثناء مثل فرعون ابراهيم .

جوع يعقوب

تكوين الاصحاح ٤٢ عدد ١ فلما رأي يعقوب أنهُ يوجد قمح في مصر قال لبنيه ان تذهب اليها وكان ما كان مع يوسف واخوته حتى ان اتى يعقوب الى مصر .

هذا ما حصل من جهة الجوع وأما ما حصل من جهة الالتجاء والتأمين أوفا .

قصة يوسف

الذي حضر الى مصر وبيع كعبدٍ وكيف أمنهُ معلمهُ فوطيفار على بيته وكيف طلع اميناً ولم يمس امرأة معلمه وانهُ حبس سنتين لأجل ذلك ولم يبح بكلمة من هذا لا الى السجان ولا الى رفاقه .

وكيف تقرب من فرعون ووكلهُ على جميع اعماله وكيف احترس وجمع مال الخصب وابقاه الى زمن القحط وكيف باع القمح الى المصريين وخلافهم ثم أخذ مواشيهم ثم أرضهم واعطاهم بذاراً لزرع الأرض وأخذ خمس الحاصلات الى فرعون فجميع هذه العملية برهان عظيم على ان يوسف اسرائيلي لا شك فيه .

ثم لما حضرت اخوته كيف عرفهم وكيف طلب اخاه ووالده واحضر الجميع الى مصر وكيف كرم اباه ورحم اخوتهُ ولم يتكبر ولا انتقم منهم وكيف حفظ وصية والده ودفنهُ في أرض كنعان وكيف كان جوابه الى أخوته عندما استغفروا منهُ عن عملهم المردي بحقه وكان جوابه ان الله اراد ذلك لاخلصكم من الجوع او انني أصل لهذه الدرجة وكيف عندما والده بارك اولاده تكدر عندما قدم افرايم على منسى لأن منسى الأكبر وكيف أنهُ عند موته اوصى اخوته بان تأخذه متى رجعت الى أرض كنعان وتدفنهُ مع قومه الذين لم ينساهم قهراً عما جرى لهُ منهم وانهُ ترك عز الدفن في مصر حتى ينضم مع ابائه فاية قصة أعظم وأطهر من هذه لا يمسها شيء فهي القصة الوحيدة الخالية من كل كذب وغلط وسقطة .

فلنفحص الان عن الفراعنة الذين كانوا في ذلك الزمن بعدما نذكر قصة موسى فيوسف انزل والده حسب امر فرعون في أرض رعمسيس المخصبة جداً وأحسن أرض مصر وذلك في التكوين الاصحاح ٤٧ عدد ١١ وعاش يعقوب في مصر ١٧ سنة وتوفي وعمره ١٤٧ وعاش يوسف ١١٠ سنوات .

موسى
أي المنتشل من الماء

نشلتهُ ابنة فرعون من الماء ولولا ذلك لكنا الان بدون توراة وارضعتهُ والدته ثم احضرتهُ الى ابنة فرعون عاش في دارها تعلم علوم المصريين ثم رأى مصرياً ينازع يهودياً فقتله ودفنهُ في الرمل ولما عرف به فرعون طلب قتله فهرب فلا نعلم اذاكان هذا فرعون والد محضسته ام خلافه ربما خلافهُ لأن لوكان مربيه لما طلب قتله واذا كان بالحقيقة هو فرعون نفسهُ فيكون أول عادل في الأرض بحيث طلب ان يقتل موسى مربيه بكونه قتل رجلاً ولوكان فقيراً ولكن ربما غيره .

فاخيراً هرب موسى الذي كان متنعماً في دار فرعون بالرفاهية التامة وصار بعد ذلك يرعى الغنم في برية مهولة الحر فاخيراً قال لهُ الرب ارجع الى مصر لأن الذي يطلب نفسك قد مات وامرهُ ان يكلم فرعون الجديد بأن يخرج بني اسرائيل فيكون الفرعون الثالث لموسى واخيراً ان فرعون طالب قتل موسى او الجديد سخر بني اسرائيل وعملوا لهُ مدينتين مدن مخازن وهما فيثوم ورعمسيس الخروج ص ١ عدد ١١ .

واخيراً بعدما عمل موسى جميع العجايب خرج بني اسرائيل من مصر من رعمسيس الى سكوت ٦٠٠ الف مقاتل ما عدا النساء والأولاد بعدما سكنوا في مصر ٤٢٠ سنة فيكون حسب التوراة من دخول يعقوب الى خروج بني اسرائيل ٤٢٠ سنة الخروج ص ١٢ عد ٣٧ .

من هم فرعون ابراهيم وفرعون يوسف وفرعون موسى

فلنأخذ نقطة الابتداء بالفحص حسب التوراة من يوسف الذي قالت التوراة عنهُ انهُ أسكن والده واخوته في رعمسيس فلنفحص الان عن أول من تسمى بهذا الأسم ومن هو الذي حسب تاريخ مصر بنى مدينة اسمها رعمسيس في أرض جسان .

رعمسيس الأول

ذكر ماسبرو في الصفحة ٢١٤ من كتابه التاريخ القديم لشعوب الشرق أن التاريخ لم يذكر أي متى اتصل الحكم الى رعمسيس الأول وانهُ جلس على كرسي الفراعنة وهو متقدم بالسن وانهُ حارب الحبش وسوريا وعمل معاهدة مع الحثيين وبعد سبع سنوات توفى وجلس مكانه ولده .

ستي الأول

فرعمسيس الأول هو الذي كانت تعتبرهُ المصريين مختلساً الحكم لأنهُ ليس من عائلة ملوكية واما ستي الأول الذي حكم زوج ابنه رعمسيس الثاني الى امرأة من العايلة الملوكية فصار يعتبر رعمسيس باعين المصريين انهُ الحاكم الشرعي ولذلك كان يساعد والده ستي منذ حداثة سنة فانهُ فتح حرب مع سوريا وهو ابن عشر سنوات ثم ان ستي بعدما حكم وشاخ تنازل الى ولده رعمسيس الثاني .

رعمسيس الثاني

هذا هو الذي انتشر اسمهُ في الدنيا وسميت الأرض والمدن باسمه ومن جملة مبانيه مدينة رعمسيس شمالي مصر .

وقال ماسبرو انهُ قوّى القلاع التي تحمي مصر من دجمات البدو وان الضرورة احوجتهُ ان يسكن شرقي الدلتا وانهُ بنى جملة مدن على الحدود وأهمها تسمت باسم بارعمسيس اناختو اي مدينة رعمسيس الشجاع جداً التي سكنها والتي كانت مخزناً للتجارة فاذاً ان الارض ما تسمت باسم رعمسيس الا بعد رعمسيس الثاني وعلى حسب التوراة ان هذه المدينة بناها بنو اسرائيل فكيف يوسف اعطى أرض باسم رعمسيس الى والده قبل تسخير بني اسرائيل فيكون رعمسيس الثاني هو رعمسيس يوسف وليس فرعون بني اسرائيل فلا يوجد رعمسيس غيره فمن أين اتى به يوسف واذا كان ما بين يوسف وخروج بني اسرائيل ٤٣٠ سنة وكان لا شك رعمسيس هو فرعون يوسف من العائلة التاسعة عشر فيكون فرعون موسى بعد ٤٣٠ فاذا كان العايلة التاسعة عشر حكمت سنة ١٤٦٢ وكان رعمسيس الثاني فرعون يوسف وحذفنا من ذلك ٤٣٠ سنة التي قضنها بني اسرائيل في مصر فيكون خروجهم ١٠٣٠ فتكون حينئذٍ الدولة الحادية والعشرين وهي التي ابتدأت بملكها بينوتمو Pinotmou الذي كان كاهناً واختلس باسلوب دني الحكم كما هو منقوش على هيكل خونسو في طيبة وانهُ نفى اسرة رعمسيس الى الصحراء وتولى بعده ابنه وعائلته الى سنة ٩٨٠ قبل المسيح وهذا يوافق كلام التوراة التي تقول ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف الخروج ص ١ عدد ٨ فابتدأ يظلم بني اسرائيل لأن العائلة التي كانت تعرف يوسف هي العائلة الرعمسيسية وكانت تقدر اتعابه وهذه العائلة الحادية والعشرين نفت عايلة رعمسيس ونكرت كل من خدمها ومن الجملة يوسف .

ويثبت ذلك ما كانوا يفتكرونه عن منفتاح الأول ابن رعمسيس الثاني انه رفعون موسى وغرق في البحر مع ان جثته الان محنطة وموجودة في الانتيكخانة واسمه مكتوب على اللفايف .

فعلى حسب حساب التوراة وذكر يوسف لرعمسيس فيكون فرعون يوسف رعمسيس الثاني خصوصاً لأنه صاهر الحثيين وعمل معاهدة معهم وفرعون موسى هو بينوتمو أو أحد اولاده وحيث عرفنا نقطة يوسف فلنبحث الان عن فرعون ابراهيم ولنرجع الى الوراء ٣٠٥ سنوات لان ابراهيم عندما حضر من حاران كان عمره ٧٥ سنة تكوين ص ١٢ عدد ٤ ودخل مصر بعمر ٨٥ سنة وولد اسحاق بسن مئة تكوين ص ٣١ عدد ٥ فيكون بين زيارته مصر وولادة اسحاق ١٥ سنة ثم ان اسحاق عندما ولد يعقوب كان عمره ستين سنة تكوين ص ٢٥ عدد ٢٦ وعندما احضر يعقوب الى مصر كان عمره ١٣٠ تكوين ص ٤٧ عدد ٩ وبقي ١٧ في مصر فيكون عمرهُ كله ١٤٧ .

اذا حسبنا ١٥ لابراهيم وستين لاسحاق ومابة وثلاثين الى يعقوب فيجمعون ٢٠٥ سنوات اذا جمعناهم مع ١٤٦٢ ابتدى العايلة التاسعة عشر فيكون الجمع ١٦٦٢ سنة ق.م. في هذه السنة كانت العائلة الثامنة عشر حاكمة مصر ومنها تحتمس الأول الذي وسع ملكه من الجنوب الى جبل اثيات في الحبش وشمالاً الى اقصى آسيا ومن ضمنها فلسطين وبابل وحيث ان فلسطين من حكمه وكان ابراهيم الجايع من رعاياه حضر لمصر وكان هذا الفرعون غنياً جداً لأنهُ حصل أعظم ثروة من بلاد نوبيه لان نب معناها الذهب فلذلك تكارم على ابراهيم .

هذا ما ارتيته حسب كلام التوراة وحيث تعريف الفراعنة ليس من قانون الايمان لأجل ذلك دخلت في البحث ولم اتعرض لشيء عما قالتهُ التوراة عن ابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ومعجزاته ولا معجزة ستنا ساره التي كانت بسن الثمانين وتتخاطفها الملوك لجمالها في هذا السن وهذا لا يمكن ان يكون الا بأحد الامرين اما ان الله اعمى قلب فرعوخ ورأى ساره جميلة او انهُ ارجعها الى صباها واذا كان أحد يعترض على بحثي هذا فليقل قبل كل مماحكة من أين أتت ليوسف أرض رعمسيس وكيف هذا الاسم فليجادل فيما بعد .

ومن جملة من احتموا في مصر من بلادنا هي العائلة المقدسة قال متى الاصحاح الثاني عد ١٣ منها قال الملاك ليوسف قم خذ الصبي وأمه واذهب الى مصر .

فترى مصر في هذا الدور الوثني اشبعت ابراهيم ويعقوب وأولاده ورفعت يوسف وحكمتهُ مصر ادبياً ونشلت موسى من الماء لان معنى موسى المنتشل من الماء لأنهُ لو ما كانت ابنة فرعون في تلك الساعة على النيل لكان موسى ذهب ولم يكن توراة في الدنيا ثم انها حضنت العائلة المقدسة وامنتها ولا نعلم ماذا عملت العائلة هناك حاصله ان مصر لم تزل الحد الان تنفع أهل بلادنا لان كل السوريين الموجودين فيها الان دخلوها بحالة غير حالتهم اليوم فاغنتهم ورفعتهم ولم تزل تفعل جميلاً مع كل من أتى اليها ان كان للعلم او للغنى ومن جملتهم هذا المؤلف وسأذكر كل شيء نلتهُ منها بعدما ينتهي تاريخ مصر القديم .

الدولة الرابعة والثلاثين الرومانية

كان سقوط مصر في ابتداء هذه الدولة وآخر الدولة اليونانية وبالصدفة وجود اثنين كانا واسعة لسقوطها احدهما من اخر تلك الدولة اليونانية وهي كيلوبترا الشهيرة والثاني من ابتداء الدولة الرومانية وهو انطوان فكما انهُ يوجد طرق للنجاح كذلك يوجد طرق للخراب فكل من السهر واليقظة وعدم الالتفات للملاهي طرق للنجاح وعكس ذلك طرق الخراب فلا عجب من نجاح ذاك وخراب هذا اذا كان كل منهما مشى على حسب الطريق الفلانية او الطريق الاخرى .

فمن عرف قصة كليوبترا وخلاعتها وان مرادها تحكم بجمالها وفسقها وخيانتها ومن عرف قصة انطوان معها واندهاشه في جمالها وخضوعه لاوامرها وعدم الالتفات لشيء الا للخلاعة وما ماثلها لا يعجب من خراب مصر ونزولها عن درجتها بعدما علمت العالم كل فن أدبي وكانت ملجأ لكل جائع وخايف فليس بالخلاعة والفسق والاهمال والملذات يمكن أحد يتسلط لأن الانسان يخضع للسلطة كي تزيل هذه المعاصي التي تخرب النظام الانساني فكيف يتسلط من يفصلها واذا ذكر التاريخ بعض امثالٍ بنجاحها فهذا نادرٍ جداً حتى ان التاريخ يرزل هؤلاء الناجحين بهذه الطرق حاصله انه من نحس مصر في تلك الايام وجود كليوبترا وانطوان .

وعندما حضر قيصر واسر كليوبترا وانطوان قتل نفسه أصبحت مصر ولاية رومانية ولم تعد مملكة قائمة بذاتها فبالطبع تنحط وخصوصاً لم تعد حكامها من اهلها بل رومانيون من قبل رومية كان مثلهم كمثل ماشية تأكل عشب ارضٍ داستها وتذهب .

يقسم زمن المملكة الرومانية في مصر الى قسمين قسم وثني وقسم مسيحي .

الدور الروماني الوثني

ابتدأ من ٣٠ سنة قبل المسيح الى سنة ٣٨١ ب.م. وسمي هذا الدور دور الاضطهادات الدينية لان به ابتدأ الاضطهاد على المسيحيين ليس فقط في مصر بل بكل المملكة لأن دخول الدين المسيحي أوجب هذه الاضطهادات لأنهُ لا يمكن دين يزيل ديناً ولا سلطة تزيل سلطة الا بسفك الدماء فاذا لاحظنا الدولة الرومانية نرى اثبات ما قلناه فالدور الوثني كان بسفك دم اصحاب الدين الجديد ولما تقدم الدين الجديد صار بسفك دم الدين القديم فاضطهاد ديوقليطوس للنصارى كان مشهوراً وخصوصاً مذبحته لهم في ٣ حزيران ٢٨٤ للمسيح التي تسميها القبط مذبحة الشهداء ومنها يبتدي التاريخ عندهم يسمونه تاريخ الشهداء .

ولا يوجد دين في الدنيا سفكت فيه الدماء مثل الدين المسيحي فانه بقي في اضطهاد منذ ابتداه الى سنة ٣٨١ يعني أربعة اجيال تقريباً وأول ما ابتدأ بسفك دمه المسيح نفسه وتلاميذه وهلمَّ جراً وبقي الوثنيون يضطهدونهم الى ان جلس على عرش المملكة الرومانية الامبراطور تيودوسيوس وفي سنة ٣٨١ أعلن ان دين المملكة الرسمي هو الدين المسيحي وابتدأ يأخذ بثأر المسيحيين من الوثنيين .

الدور الروماني المسيحي

ابتدأ الامبراطور ثيودوسيوس يمنع عبادة الاصنام ويخرب هياكلهم ويكسر اصنامهم ويضطهدهم حتى انه حرق مكتبتهم العظيمة اي مكتبة اسكندرية وغلطا تهموا في حرقها عمر بن الخطاب لان تيودوسيوس لم يبق وثنياً الى زمن عمر ولا كتباً وثنية وعندما انتهت عبادة الاصنام وخربت هياكلها ومكتبتها ولم يعد للنصارى عدواً أجنبياً رجعوا يضطهدون بعضهم لمسائل فلسفية في دينهم فكان كل يوم يظهر مذهب متعلق بشخصية المسيح فظهرت الانقسامات وساركل منهم يحسب الاخر هرطوقياً ضالاً كوثني وعشار وابتدأ الحرب بينهم ومن جملة الانشقاق الذي استولى على المصريين بالخصوص وقسمهم الى اقباط واروام هي بدعة يعقوب البرادعي الذي قال ان للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة وقد تبعته مصر والحبش وجرى اضطهاد بين الروم والاقباط وكذلك بدع اخرى كبدعة اريوس وخلافها من يريد الاطلاع عليها فليطلع على تاريخ الهراطقات فهذه المنازعات الدينية كانت تدخل فيها الحكام الذين كانوا تارة يتبعون هذا وتارة ذاك حسب سياستهم وتارة يعملون مجامعاً وتارة يصرفوها وبقوا على هذه الحالة بالاضطراب واضطهاد بعضهم وانشغال الحكام في هذه المسائل وأهمالهم المملكة حتى رحمهم الله وأوقف اضطهادهم عن بعضهم بارساله الاسلام الذين أوقفوا هذه الاختلافات ولم يعد بعد الاسلام يظهر منهم بدع وفلسفة وهذا هو الدور .

الدور الاسلامي

ولد نبي العرب محمد صلعم سنة ٥٦٩ مسيحية في مكة المكرمة وهاجر الى المدينة في ١٦ تموز ٦٢٢ وهذا هو ابتداء تاريخ الهجرة الذي هو اضبط التواريخ .

وقد فتح عمر بن العاصي مصر ٦٤٠ سنة م . موافقة ١٨ هـ في زمن عمر بن الخطاب ولم تزل لليوم تحت سيطرة الاسلام فحكمها كل من الخلفاء الراشدين والاموين والعباسيين والدولة الطولونية والعباسية الثانية والاخشيدية والفاطمية والايوبية والمماليك الاولى والثانية والدولة العثمانية وقد مرت عليها هذه الدول بالحروب مع بعضها وخراب عمالها بحيث انحطط مصر الى آخر الدرجات حتى بعض عمالها اراد خراب ما كان تفتخر فيه مصر من زمن الوثنيين كالاهرام والتماثيل البديعة .

فالملك العزيز بن يوسف من الدولة الايوبية الذي حكم ٥٨٩ هـ ١١٩٣ م . امر بهدم الاهرام وابتدى بالوجه الشمالي للأهرام الصغيرة فكانت جميع الفعلة لا تقلع حجراً واحداً باليوم فتركها واراد كذلك ان يبطل افراح قطع الخليج ولم يقدر وهكذا اموركانت تحصل حتى تقسمت الممالك الاسلامية الى ثلاث خلفاء واحد عباسي في بغداد وفاطمي في مصر واموي في الاندلس وقد ضر هذا الانقسام جداً في الاسلام من ابتداء انقسام الامام علي مع معاوية وهذا الانقسام منع الاسلام عن تملك الدنيا لأن عند ظهوره لم

يجد ممالك قوية في الدنيا الا الرومان والفرس فكسرهما فلو بقي ماشياً على خطته الاصلية لكان ملك العالم باسره ومن عرف فلسفة التاريخ يقدر ما لخالد بن الوليد من الفضل على الاسلام وليس ذلك من فتوحاته وشجاعته لكن من طاعته عندما امره عمر بن الخطاب بان ينخلع ويجر بعمته فخضع لهذا الامر وبذلك حفظ الاسلام لأنه لو عصى لكان أخذ قسماً عظيماً وأنشقت الاسلام ورجعوا الى بعضهم وتوقفوا عن كل ما تقدم فبطاعته عمل فتوحات أكثر من حروبه .

فلنرجع الى مصر التي كانت تأنّ من هذه الانقسامات التي شتت القوة الاسلامية حتى ان الله رحمها ورحم الاسلام فأرسل الدولة العلية العثمانية التي ضمت الى هيئة واحدة جميع هذه التفرعات وجعلت مملكة واحدة وانقطعت الخلافات العباسية والفاطمية وأخذت الدين والسياسة وأبطلت كل ادعاء وكما ان الاسلام سكنت منازعات النصارى كذلك الدولة العلية العثمانية سكنت المنازعات الاسلامية .

والذي دخل مصر وفتحها هو السلطان سليم الذي حارب الغوري والسلطان سليم ابن بيازيد جلس سنة ٩٢٣ — ٩٢٦ هـ ١٥١٧ — ١٥٢٠ م . ومن بعده ولده السلطان سليمان أول من نظم الدواوين والترتيب في مصر وكانت الدولة العلية تولي على مصر من قبلها والي يسمى باشا ثم ولت الامراء المماليك ثم باشاوات اخرى لم تنجح الى ان ولت محمد علي وأنعمت على عائلته بوراثة الولاية تحت رعايتها .

فحينئذ تنفست مصر وأخذت بالتقدم وحيث انني اتيت لمصر في أيام هذه العائلة وكان في ذلك الزمن حاكماً اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي وكان أخذ لقب خديوي وجعل وراثة الحكم في نسله بخلاف ما كان أولا ان يحكم من هو أكبر سناً من العائلة وسأذكر ما قد عرفت ونظرت في مصر بمدة تسع سنوات قضيتها فيها .

فلذلك نبتدىء بتاريخ جد هذه العائلة وهو محمد علي .

العايلة الخديوية
محمد علي ١٨٠١

ولد محمد علي سنة ١١٨٢ هجرية او ١٧٦٩ مسيحية في مدينة قواله في مكدونيا وطن اسكندر ذو القرنين واسم والده ابراهيم اغا كان رئيس غفر الشوارع توفي والده وعمره أربع سنوات وكان له عم يدعى طوسون آغا مستلم قواله توفي قتلاً فرّباه بعد عمه أحد اقاربه جربنجي براوسطا أحد اصدقاء والده وفي سن ١٦ دخل العسكرية وكان يجمع الضرايب في سن ١٨ أصبح بلوك باشي وأزوجه أحد اقاربه .

ولما كانت الحملة الفرنساوية في مصر أرسل الباب العالي يطلب عسكراً من قواله فجهز جربنجي

ثلاثماية مقاتل رأس عليها أبنهُ وجعل محمد علي وكيله وعندما حضروا مصر وانكسروا رجع ابن جربنجي وسلم الانفار الباقية الى محمد علي .

ثم حضر امر بتولية محمد علي على مصر وكان ذلك في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هجرية موافق ٩ تموز سنة ١٨٠٥ وقرئى الفرمان في بيت محمد علي بحضور كل الاعيان والمشايخ .

قصة غريبة عن كنعان شكور

سمعت عندما كنت في مصر قصةً غريبة حصلت عند تولية محمد علي وهي انه عندما كان قائداً لعساكر الارناووط احتاج الى مبلغ خمسة الاف غرش لأجل توزيعها على عسكره فكان له في ذلك الوقت صديق يتردد عليه كان صاحب قهوة فكان يجلس عنده في أكثر الأوقات حتى تمكنت الصداقة بينهما وكان هذا الرجل سورياً لبنانياً اسمه كنعان شكور من عائلة بيت شكور المارونية من عين زحلته في لبنان ففي أحد الايام اتاه محمد علي طالباً خمسة الاف غرش لانها ضرورية فأجابه الرجل أن مرادي اشاور والدتي ووعده الى اليوم الثاني فذهب كنعان المذكور واستشار والدته لدفع المبلغ لمحمد علي فأجابته اعطه من كل بد ربما اذا لم تعطه راضياً يأخذ ذلك منك مكرهاً فعلى هذا الرأي اعطى كنعان المبلغ المذكور في اليوم الثاني لمحمد علي الذي بواسطته كسب محبة العسكر وبعض المشايخ الذين طلبوه ليكون حاكماً على مصر فعندما محمد علي وصل الى هذه الدرجة وتولى مصر أرسل يطلب كنعان شكور اليه وقال له أطلب مني ما تريد .

زواج كنعان شكور

وقد حدث لكنعان انهُ عندما كان في خمارته طلب ابنة ليقترن بها فرفضت ذلك نظراً لصنعته وعندما وصل الى هذه الدرجة كانه لم يزل يتذكر الابنة فطلب من محمد علي أن يأمر والد الابنة بان يزوجه بابنته فصدر الأمر حالاً للرجل الذي افتكر ان ذلك سعادة له وكذلك الابنة فأجاب الطلب حالاً فحينئذٍ آمر له محمد علي ببيت مفروش وكلما يلزم لأمور العرس وبعدما تم العرس وتكلل الرجل على امرأته وضعها في بيت وحدها مقدماً لها كل لوازمها من الأكل والشرب والخدمة ولكنه لم يقربها وعمل ذلك قصاصاً لها لعدم قبولها الزواج به وهو في الخمارة فقهراً عما حصل من الوسائط لم يرضَ بالقرب منها وبقي على ذلك ثلاثين سنة تقريباً ومات بدون نسل نتيجة عناده .

وأما امرأته فقد بقيت حية وكانت ساكنة جهة شبرا قد اخبرني هذه القصة الشيخ أبو منصور حنا شكور ابن عمه الذي عرفه عندما توجه مع الامير بشير الشهابي الى مصر وكان كنعان عرض عليه السكن في مصر وترك الامير وانه يورثه كلما له فرفض ابو منصور ذلك لأنهُ لم يشأ ترك الامير بشير ولبنان .

وبقينا نتعجب من هذا العناد الى ان حدث قصة أعظم منها في بيروت وهي ان احد الوجهاء المعروفين تزوج بابنة كريمة الأصل غنية فبعد ثمانية ايام من زواجها نفر منها من دون ان تعرف الاسباب وبقي معها عشرون سنة في بيت واحد ولم يكلمها ابداً ويقدم مصروف البيت وهي تحاول جملة امرارا لتكلمهُ ولم يجاوب وقد سهرت عندهُ في احدى الليالي وكنا نلعب للتسلية لعبة البازيك فجلست بجانبه وابتدأت تعلمهُ وتقول ارمي الورقة الفلانية او الفلانية وبقينا قريباً من ثلاث ساعات في السهرة وما غلط ابداً برد الجواب والاغرب ان خبرها سمع الى أقصى البلاد واذا سألت السيدة عن سبب الزعل تنكر كل شيء وانها منشرحة جداً .

والأغرب ان هذه الزوجة غنية وليس لها أولاد ولم ترض تبعد عنهُ بل صابرة الى المنتهى حتى توفي بعد عشرين سنة وقبل خروج روحه قال لها باردون بالافرنجي .

من هذا الرجل محمد علي

ان هذا الرجل من أعظم رجال الدهر والعصر ولد يتيماً وعاش فقيراً جاهلاً العلم والقرأة والكتابة التي تعلمها وهو والي مصر عاش بين المماليك والارناووط محاطماً بالاعدا من كل ناحية ومتهدداً بالقتل في كل ساعة كيف أمكنهُ ان يتصل الى هذه الدرجة وكيف حفظ حياته الى هذا الزمن دخل بلاداً لا راحة فيها ولا أمان بل عيشتها بالقتل والنهب والامراض ومع كل ذلك تخلص من هذه الآفات وعندما أصبح الزمام في يده قلب مصر بالكلية انقلاباً ادبياً وسياسياً وكلما تحتاج اليه مصر فانهُ ابدل الجهل بالعلم والظلم بالعدل والفقر بالغنى ومن جملة فضائله حفظ الجميل لأنهُ طلب الرجل الفرنساوي الذي رباه في قواله والذي لم يقدر أن يكافيئهُ فكافأ اختهُ وارسل لها مبلغاً من الدراهم تعيش به وكذلك التفاته الى كل اهل بلده واقاربه وكان يلتذ جداً بمعاشرة من كان يعرفهُ في حالة الفقر كما عمل مع كنعان شكور وخلافه ونظف البلاد من المماليك وحارب الوهابيين وكسرهم وفتح المدارس ورتب مدرسة الطب وفتح السودان ونظم الحربية على نظامات جديدة الى اخره مما قاله التاريخ عنهُ وفي ٢٠ آب سنة ١٨٤٩ توفي في الاسكندرية في سرايا راس التين وأخذ الى مصر ودفن في جامعة في القلعة .

منجد محمد علي

ان أحد المنجدّين الذي كان ينجد الفرش الخصوصية لمحمد علي بعدما انتهى منها وضعها على التخت وحيث كان وحده طلع وتسطح عليها وقال هنيئاً لك يا محمد علي على هذه النومة فبالصدفة عند وجوده في هذه الحالة دخل محمد علي وسمع ما تكلم فعند دخوله نهض المنجد واراد النزول عن الفرشة فامره محمد

علي بالرجوع مسطحاً مثلما كان فابتدأ الرجل يرتعش خصوصاً عندما طلب سيفاً فكاد يغيب عن الوجود فأخذ محمد علي السيف وعلقه بخيط رقيق ووصلة بسقف الناموسية ووجه رأسه على قلب المنجد وآمر ان يهزوا السرير .

من يقدر يتصور حالة المنجد في هذه الدقيقة وبعد لحظة آمره ان يقوم وقال له انظر يا رجل حالة محمد علي في نومه فما عدت تحسده .

فلا شك ان هذه الحالة هي حالة كل ذي سلطة فكان محمد علي لا يرتاح في نومه بل يتقلب عند كل دقيقة بحيث يسقط الغطاء عنه فكان يضع خادمين لأجل تغطيته ليلاً وبالاختصار ان هذا الرجل من أعظم الرجال لأنهُ نهض من الطبقة الاخيرة الى الطبقة الاولى وهو أقرب شيئاً في نابوليون الأول ومع ذلك عدم وجوده في مدارس وجهله العلوم تجعل لهُ فضل أعظم فمنذ ذهاب دولة البطالسة لم ترى مصر مثل محمد علي لأنهُ احياها وجددها .

وقد تولى ولده (ابراهيم باشا) وتوفى قبل محمد علي وهذا هو بطل العائلة فهو الذي حارب الوهابيين وحارب الموره وهو الذي ركز وراثة الحكم في عائلته توفي سنة ١٨٤٩ ودفن في جوار الامام الشافعي وحكم أقل من سنة .

عباس باشا ١٨٤٨ — ١٨٥٤

وهو ابن طوسون بن محمد ولد سنة ١٢٢٨ هجرية او ١٨١٣ مسيحية وكان فرمانه في ٢٤ كانون أول سنة ١٨٤٨ وكان محباً لركوب الخيل وقد نالت مصر في زمانه اعظم الجياد ومن مشروعاته سكة الحديد بين مصر والاسكندرية والمدارس الحربية في العباسية التي سميت باسمه والتلغراف وقد وضع الحجر الأول لجامع السيدة زينب في مصر توفي في بنها العسل ودفن في مدفن الاسرة الخديوية في القاهرة وذلك في شوال ١٢٨٠ الموافق تموز سنة ١٨٥٤ فتولى بعده عمهُ .

سعيد باشا ١٨٤٨ — ١٨٥٤

هو أبن محمد علي ولد في الاسكندرية سنة ١٢٣٧ وقد تعلم اللغات الشرقية والعلوم الرياضية ومسلك البحار ومن أعماله أكمال الخطوط الحديدية والتلغراف وتعديل الضرائب واسترجاع الاطيان من المتعهدين ومن أشهر ايامه هو تتميم معاهدة ترعة السويس الذي نشط أعمالها كثيراً وأقام على طرفها الشمالي لجهة البحر المتوسط مدينة سماها باسمه بور سعيد وفي السنة الثانية لتوليته اسس القلعة السعيدية بين القناطر الخيرية وقد ثارت في ايامه مديرية الفيوم فأرسل قوة اخمدتها وفي سنة ١٨٥٩ زار سوريا ومكث ثلاثة ايام في بيروت

وكان ينثر الذهب فيها عند مروره في الاسواق والشوارع وقد توفي في الاسكندرية ودفن في يوم السبت في ١٦ رجب ١٢٧٩ الموافق ١٧ كانون الثاني سنة ١٨٦٣ .

النديم

ان المزح للفكر كالرياضة للجسم فلا شك ان عقول الملوك والرجال العظام في الدنيا يحملون هموماً لو لم يكن تركيب دماغهم عظيماً او متعوداً على ذلك لما أمكنهم احتمالها فلذلك ان الملوك خلقت ملوكاً فمن الضروري ان يغيّر الكبير أفكاره او يريضها باستماع شيئاً مزحياً في الظاهر ولكهنهُ جدياً في الباطن يشرح النفس وهذه وظيفة النديم ان يسر ملكه بأمور أدبية بطريقة هزلية ويلزم ان النديم يخلق نديماً أيضاً لأن ليس كل انسان يمكنه بجد كلمة أو حركة تغير السامع من حالة الى حالة أخرى مضادة لها مثلاً عندما يسمع هذا الحزين أو المتكدر كلمة من شخص آخر يضحك وينشرح فما هذه القوة في هذه الكلمة وما هذه القوة في مخترعها حتى غيرت هذه الحالة وخصوصاً عند كلوك لا يعجبهم كل شيء ، ويقل من يتجاسر على أخذ حريته أمامهم بالكلام بكل موضوع فالنديم هو نادرة زمانه ويلزم قبل كل شيء ادابه وعلومه فابي النواس مثل النديم في عقله ونوادره ومعارفه وهارون مثل الظرافة والحلم ومكافآت أصحاب الزكاء والشهامة .

اخبروا هارون الرشيد يوماً انه يوجد رجل في بغداد يشبهه كل المشابهة بحيث عند مروره بتأخذه الناس انه هو فقد احضروه لديه فتأمل به فوجد صدق المشابهة فقال لهُ يا عرابي هل أتت والدتك الى بغداد فأجابه كلا يا أمير المؤمنين بل أبي فضحك وأجازه ويوجد أمثلة عديدة لذلك فترى على العموم ان لكل شخص من العظام واحد مخصوص لمسايرته ويستدعيه عند همه وانشغال فكره كما ان له شخص مخصوص يؤثر على فكره فترى ان أعظم رجل له رجل أصغر منه يديره كما يشا وهذا له اخر اصغر منه ايضاً يديره ، وهكذا الى اخر واحد فيكون الأصغر هو مدير الجميع وذلك من ثقة الكبير في هذا للصغير فالهيئة الاجتماعية كالبنيان لا بد من حجر كبير يسنده حجر أصغر يرتكز عليه فمن جملة الندما نديم سعيد باشا الذي سمعنا عنهُ الروايتين الاتيتين .

كان من طبع سعيد باشا اذا تكدر لا يمكن لأحد التكلم أمامه ما لم يتكلم ويبش فاتفق في أحد الايام انه دخل على مجلسه الخاص في هذه الحالة وطالت مدتها بحيث كانت الوزراء اصناماً لا يمكن لأحد ان يتحرك وكان لسعيد باشا نديم كما هي عادة الكبار والملوك كان يسليه في بعض الأوقات وكان أطلق له الحرية التامة ولكن هؤلاء الندماء يعرفون أوقات الحرية لأنهم يدرسون أطباع ملوكهم ويعرفون كيف يتصرفون كان آذناً له بالتكلم متى شاء وصدف حضور النديم والباشا في هذه الحالة فلم يشا أن يفعل شيئاً بل خرج فتتبعهُ أحد الوزراء وقال له اذا اضحكت افندينا في هذه الساعة خذ من كل منا عشرين ليرة فكانوا اثني عشر فوجد هذا الرجل الجائزة جزيلة فقبل وقال لهُ قالوا الى الفاره مرٍّ تحت شنب القط وخذي رطلين من اللحم فأجابت ان الجايزة عظيمة لكن الطريق مخطرة ومع ذلك سأدخل عليكم

وابتدي ان اسأل كل واحد منكم سؤالاً أجيبوا عليه ومتى وصلت اليك اطردني بحنق فقال له الوزير تفعل ما تريد ورجع الى مجلسه فبعد مدة دخل هذا النديم لابساً لباس كتبة قدماء الاقباط أي غنباز اسود وزنار اسود وعمامة سوداء والدواية في زناره وشك العوينات في عمته ومسك قلم وورقة ووضع العوينات ودخل وسأل أول جالس في الديوان لجهة الباب ما اسمك أجابه أحمد واسم والدك مصطفى ثم انتقل الى الثاني كذلك وهكذا الى ان وصل الى الاخير بجانب سعيد باشا الذي لم يزل عابساً ولم يلتفت لهُ فسأله مثل الباقين ما اسمك فقال له الاخير بالتركي (سكتر) بازونك فكتب حالاً النديم وقال وأبوك فعند ذلك ضحك الباشا مقهقهاً لهذه النكتة وزال كدره فجازته الوزراء كما وعدته .

(حادثة اخرى) ثم جرت مع هذا النديم حادثة اخرى وهو انه كان جالساً مع سعيد باشا على المائدة وكان من جملة الوان الأكل باذنجان فذاقه الباشا ولم يستطيبه فابتدى يزم الباذنجان فأجابه النديم نعم يا افندينا ان الباذنجان سويداء معكر المزاج عسر الهضم وأوصاف أخرى كهذه فصدف مرة أخرى وجود هذا النديم على مايدة الباشا وكان بالصدفة لون الباذنجان الذي وجده يومئذ الباشا لذيذاً اوكما هي العادة لم يعرف الانسان لماذا يستطيب هذا اللون احياناً واحياناً يكرههُ فهكذا حصل وعندما نظر النديم ان الباشا يمدح الباذنجان أخذ يمدحهُ بأوصاف عكس الأولى فلاحظ الباشا ذلك وقال لهُ كيف انك تلك المرة عندما لعنت الباذنجان لعنته والان لما مدحتهُ مدحتهُ فأجاب يا افندينا انني لست على مزاج الباذناجان بل على مزاج افندينا كيفما يقول أقول فضحك الباشا منهُ .

وخلاف هذه الاخلاق الحسنة التي كانت عنده كان محباً للعلوم والمعارف ويكرم الغرباء ويعتني بهم لأنه كان يقول ان مصر محتاجة الى الغريب لأجل تعليمها وبذلك تتوسع التجارة بها والمعارف ومتى دخل الغريب دخل المال معه بالحقيقة ان المكسب لا يكون الا من الغريب وكل ارض اذا لم تكسب ارضاً جديدة من خلافها لا تصلح وكذلك البلدان مدخولها من الخارج .

اسماعيل باشا ١٨٦٣ — ١٨٧٩

هو ثاني أولاد ابراهيم باشا ابن محمد علي ولد سنة ١٢٤٦ هجرية او ١٨٣٠ مسيحية فتعلم العلوم والهندسة والتخطيط والرسم وجال في أوروبا واختبر احوالها وعوائدها وفي سنة توليه شرف الديار المصرية جنتمكان السلطان عبد العزيز خان وكان اسماعيل باشا يحب ذي المدن الاوروباوية فاعتمد ان يعمر البلاد على هذا الزي وسنة ١٢٨٢ او سنة ١٨٦٦ مسيحية نال من الباب العالي خطاً شريفاً مؤذناً له بالأرث الصريح لبيته أي كل بكر من اولاده وأولاد اولاده يكون خديوياً وفي السنة التالية نال لقب خديوي وهو أول ما ناله وفي هذه السنة ١٨٦٧ دخلت مصر فيمكني ان أذكر ما شاهدت عياناً من أعمال اسماعيل باشا الخديوي الأول ومؤسس الخديوية لأولاده ونسله ورافع مصر الى درجة أعظم مدن أوروبا فلنرجع الى مسيرنا من بيروت الى مصر ووصولنا الى أول مدينة منها لجهة سوريا وهي :

(بور سعيد) قد قلنا ان هذه البلدة تسمت بأسم سعيد باشا عندما ابتدأت اشغال ترعة السويس وهي مدينة اورباوية تقريباً وهي محل بلوز القديمة وأسسها دليسبس وهي ابتدى ترعة السويس شمالاً فبعدما جلسنا فيها مدة استئنافنا السير الى

(الاسكندرية) قد ذكرنا ان بانيها الاسكندر وتسمت باسمه وقد كان لها أهمية عظيمة للتجارة قبل فتح بوغاز السويس واكتشاف رأس الرجا الصالح فكانت النقطة الوحيدة بين الشرق وأفريقيا وأوروبا فاتصلت الى أعلى الدرجات وخصوصاً في زمن البطالسة خلفاء الاسكندر وكان فيها المكتبة الشهيرة التي انشأها بطليموس الاول كما ذكرنا وهي التي انارت أول مركب في الدنيا بسبب منارتها الشهيرة وفيها تشرح أول انسان لعلم الطب وفيها تمت الترجمة السبعينية اليونانية لتوراة وفيها دفن اسكندر ابو القرنين الذي اتى بجثته من بابل وقد فتحها نابليون الأول وبالاختصار كانت أول مدينة تجارية في أفريقيا وكان دخولنا اليها عند الظهر تقريباً وبعد ما خلصنا من قوانين الكمرك توجهنا نسأل عن بطركخانة الموارنة .

(بطركخانة الموارنة في الاسكندرية) كان وصولنا اليها قبل المساء فاستقبلنا الريس بوجه عبوس وقهراً عن معرفته اننا من طالبين العلم لم يزل كما كان وعندما تطمن اننا أكلنا في الخارج رأينا اسنانه المقدمة ورأيناها جميعها عندما عرف اننا مسافرون نهار غداً واخيراً توجه معنا لزيارة الشيخ يعقوب حبيش الذي كان غائباً فقابلتنا السيدة التي ببشاشتها نستنا عبوسة الاب وغربتنا وفي اليوم الثاني ودعنا الأب الذي كان بأعظم درجة في البشاشة وزودنا الدعاء لأن هذا لا يكلفه شيئاً فكان يكثر لنا منهُ وتمكنا من منظر اسنانه .

ولأجل تفسير عبوسة الأب هو كثرة الواردين اليه من بر الشام خصوصاً من الطبقة السافلة الذين يكلفون الاب مصاريف أكل وتعب في تدبير مصالح لهم فكان يفتكر ان كلمن حضر اليه هو بهذه الصفة فتعود العبوسة وحفظ المثل القائل ان بشاشة الوجه تجلب ضيوف الهوا وفي اليوم الثاني صباحاً سافرنا الى مصر .

(سكة الحديد من الاسكندرية الى مصر) كان أكثر عجبنا من سرعة السير كأناس نظروا أول مرة السكة الحديدية وكان منظر الأرض كمنظر البحر سهول واسعة وفيها بعض بقع مسودة قالوا لي انها قرى يسكنها الفلاح فتعجبت لأول مرة وقلت كيف يعيش الانسان في هكذا عشش اخيراً وصلنا الى القاهرة .

(القاهرة) ففي سنة ٣٥٩ بنى جوهر القاهرة وكان جوهر مملوكاً رومياً رباه المعزّ لدين الله ثم استوزره سنة ٣٤٧ وجعله قائداً للجيوش ففتح له فاس ومصر وقد قال ابن نباته فيها .

تقولوا بنو العبـــــاس قـــــد فتحت مصر فقـــــل لبني العبـــــاس قـــــد قضي الأمر

وهو الذي بنى الجامع الأزهر وعند وصولنا الى القاهرة كانت هيئتها تقريباً مثل ايام جوهر توجهنا الى بيت سليم أفندي المعوشي الذي كان في حارة القبط وبعدما اعطيته تحرير والدي وأخبرته عن غاية حضوري وعدنا ان نتوجه الى أحد اصحابه المسمي الياس أفندي .

(الياس افندي) ان هذا الرجل من بلادنا كان معاون في الضابطة وعندما توجهنا لعنده في السهرة استقبل سليم افندي بكل بشاشة وعرفه فينا وكانت بجانبه زوجته أكبر سناً منه وبالجانب الآخر ولدها من زوجها الأول بسن الياس افندي تقريباً فعندما نظرت هذا المنظر سقط الياس من عيني وعرفته انه رجل دني محب للمال الذي فضله على لذته وأولاده وحريته وربما افتكر انها تموت قبله ويتزوج ونسى أن الجديدة تأخذ بثأر القديمة ومن قصة الاصمعي يعرف طبع النساء ولكن أبقيت لك بفكري وما كنت في حالة تجعلني أقول فكري لأن الفلسفة في غير وقتها تضر فالأحسن للانسان ان يتجاهل في هكذا ظروف لأن معرفته تضره أكثر من جهله .

قصة الاصمعي والامرأة

كان الاصمعي مسافراً الى احدى الجهات فالتقى في طريقه بأمرأة ملتفة فاراد ان يحادثها لان بمثل هذه الظروف يتمنى الانسان محادثة أي كان لأجل التسلية فمثله كمثل جيعان يأكل كلما وقع تحت يده بقطع النظر عن صفاته فأجابته الامرأة اتركني لانني شائبة فعندما سمع خبر شيبها تركها وتوجه فذهبت هي بطريق قريبة الى ان وصلت الى ماء كان الاصمعي ملتزماً ان يمرّ فيها فجلست على هذه الماء وكشفت رأسها وابتدت ان تمشط شعرها فعند ذلك وصل الاصمعي وعندما رآها في هذا الشعر الأسود الجميل قال لها لماذا تقولين ان شعرك شائباً فقالت له لكي تعلم ان ما تكرهه فيَّ أكرهه فيك وكان الاصمعي شائباً .

فأخيراً كلم سليم أفندي الياس افندي عن شغلي وما هو رأيه أجاب ان نهار غداً نتوجه للداخلية سوية وانشأ الله ننال المرام ففرحت ولو كان الوعد كذباً لأن المحتاج يصدق كل شيء وقد حضر في اليوم الثاني فتوجهنا الى الداخلية التي كانت في القلعة يومئذ وركبنا في عربية تخص الياس افندي فقدمنا التحرير الى ناظر الداخلية الذي كان يومئذ اسماعيل راغب باشا فطلبني لمقابلته فقابلته واحالني الى وكيله ثابت باشا الذي امرني أن ارجع نهار الاربعاء القادم وكانت العربة التي معنا ملك الياس افندي يستعملها للأجرة وعند رجوعنا سألتهُ كم أدفع الى العربجي لأنهُ صار لنا ساعتين معهُ أجاب ادفع له ليرة فرنساوي فدفعتها حالاً أمام سليم افندي فقال لي بعد الدفع ان العربة تحت أمرك كلما توجهت الى محل اخبرني وانا ارسلها لك فشكرت فضله ولكن وضعت بفكري ان لا اراها ابداً لأن اجرة ساعتها بنصف ليرة فرنساوي فلو كانت مركبة مار الياس سميه الذي صعد فيها الى السما لكانت أرخص فثبت حينئذٍ ما في فكري من جهة حبه للدراهم .

(قلعة مصر) ان باني هذه القلعة صلاح الدين الايوبي الذي كان حاكماً مصر من سنة ٥٦٧ الى ٥٨٩ هجرية أو من ١١٧١ مسيحية الى ١١٩٣ .

وقد وكل صلاح الدين على بنأها بهاء الدين الخصي وكان المصريون ينسبونه للاستبداد وكان بهاء الدين اسود فسمته المصريون قراقوش أي الطير الأسود ومن ذاك الوقت كانوا يسمون كل حاكم مستبد قراقوش وقراقوش يضرب به المثل للأحكام الخارجة عن كل تعقل وعدل ومن جملة احكامه ما يأتي

(أحكام قراقوش) ان أحد اصحاب الدين استحق له مبلغ على مديونه فشكاه له فأرسل قراقوش يطلب المديون الذي حضر فأجاب سيدي ان الدين حاضر ولكن كل مرة اتوجه افتش على صاحب الدين فلم أجده فأجاب قراقوش الى صاحب الدين يلزم ان تبقى هنا حتى يأتي المديون ويعطيك دينك وهكذا بقي محبوس مدة ولم يرجع المديون حتى أنهُ ترك الدين وخرج .

(طماطم) وعندما كنت مستجداً في مصر كنت أجهل اصطلاحاتها الخصوصية في الكلام والاسماء فدخلت في احدى الايام لوكندة الأكل سألت صاحبها عما يوجد عنده فسمى لي اسماء جملة ألوان ومن جملتها طماطم فهذا الشكل والاسم لم أعرفه في بر الشام فظننت اكلة مصرية خصوصية شئت تجربتها فطلبت منها صحناً فاذا بها بندورة فقلت لهُ ما هذا ظناً مني أنهُ غلطانٌ فقال طلبت طماطم فعرفت حينئذٍ ان البنادورة اسمها طماطم وكنت لا أحبها ومع ذلك دفعت ثمن الصحن أجرة معرفة اسم الطماطم ومن ذلك الوقت ما عدت أطلب شكلاً لا اعرفه ما لم أنظره أولاً .

(اليزبكية) كانت في أيام الحملة الفرنساوية بحيرة ماء يأتيها من النيل بواسطة ترع مدة الفيضان وكانت الناس تذهب اليها بقوارب للنزهة والأنوار ليلاً مع الطرب فاحتفر محمد علي ترع بجانبها لأجل تجفيفها فنشفت الماء منها وغرس حولها الأشجار وأصبحت ايام سعيد باشا محل الاجتماعات والقهاوي وعندما حضرت لمصر كانت متروكة على هذه الحالة وفي مدتي انشا فيها اسماعيل باشا الحديقة العظيمة وجرّ لها الماء وجعل فيها جبلاً صناعياً مع مغاير صناعية وأجرى فيها الترعة يقطع عليها بجسور وهي محل القهاوي والتياترات ومتنزه المدينة وعمل لها صوراً من حديد ورسماً للداخل من أحد ابوابها الأربع والأكثر الباب الشمالي حيث كانت المخازن ومحلات اللوكندات والرستورانات والقهاوي الاوروباوية المغنية مع جوق من النمساويات لأجل الموسيقى الافرنجية وهذه المحلات هي محل النزهة وقد ابتدى بعمل الأرصفة في مصر عند اليزبكية وكان أول ابتدا الاصلاح فيها وكانت البوسطة الافرنسية هناك وكان فيها مأموراً رفيقنا في مدرسة عينطورا انطوان اكوب أسود لكنه أفرنسي وكان أكثر تحاريرنا لسوريا تذهب فيها ونأتي نزورها كل جمعة .

(القهاوي) وكنا لعدم الشغل نجلس في القهاوي في اليزبكية لأنها مجلس الكسالى وكلما كانت القهاوي

غاصة في الناس يكون علامة على الكسل وقلة الشغل فكان رفيقي اسكندر يطلب الدومينو لنلعب بها بشرط أن المغلوب يدفع ثمن القهوة وحيث انه ادرى مني باللعب كان دائماً يكسب الشرط ولأجل المكسب في هكذا ظروف يلزم أن تكون لذة مخصوصة للاعب اما بحب المال او الخوف من الخسارة فمن طبعي ان لا احب هذه الالعاب ابداً واذا لعبتها يكون قهراً عني لمسايرة رفيق لي وكل من لا يكترث بشيء ويتنبه لهُ يخسر فاناكنت في هذه الظروف بحيث ان رفيقي كان في كل مامن من الخسارة حتى بلغ به الامر ان لم يعد يحمل دراهماً متى توجهنا للقهوة .

في أحد الايام غلبته وكان المبلغ وصل الى ريال لأننا أخذنا جملة حلويات فما كان معهُ يدفع اخيراً دفعت عنه وحرر لي كمبيالة وندم على اللعب الذي لا أمان له ويحير العقل لأنك مثلاً في هذا اليوم تغلب رفيقك وفي اليوم الثاني يغلبك مع انكما انتما فيقال اتاه الزهر وكيف الزهر يأتي اليوم الى واحد وفي الثاني الى آخر لا نعرف وحيث لا نعرف لا يلزم نلعب بشيء لا نعرفه وقد كان لاسكندر تقم قديم ذهب الى السوق وباعه لأجل يفي الكمبيالة .

فبينما هو راجع وجد رجلاً يلعب على الطريق بثلاث أوراق بينها الرّيا بحيث ان الشخص الذي يضع مبلغاً على احدى هذه الثلاثة أوراق وتكون الرّيا فانه يكسب وأما اذا وضعها على احدى الاثنتين الاخريتين يخسر فوجد اسكندر هذا الرجل مع رجل آخر كان شريكه سراً يلعبان فكان كل ما يضع هذا الرجل دراهم على الرّيا يكسب فحركت اسكندر الغيرة وابتدا يلعب فكسب أول مرة ريالاً وبعده ريالاً آخر فطار من الفرح ثم ابتدأ يخسر بالتدريج حتى ذهب بثمن الطقم فوقف مبهوتاً صامتاً وعرقه كعبيط الدم فكان يتأسف ويتنهد عند كل كلمة يخبرني اياها وانا بالعكس كنت اضحك وسنذكر هذه الالعاب وضررها وكل ذلك من عدم الشغل والطمع .

المماطلة

في اليوم الثاني وكان نهار الاربعا توجهت الى الداخلية لأرى شغلي ولكن ليس في عربة الياس افندي لأنني سألت عن أجرة الساعة قيل انها بفرنك ونصف فاذا كان بقيت ساعتين يكون ثلاثة فرنكات يعني سبعة عشر فرنك انقص من عربة الياس افندي ومبلغ مثل هذا لواحد مثلي غريب ليس له شغل ولا يعرف احداً ولا يعلم أي متى ينتهي شغله مهم جداً فأخذت عربة وتوجهت عند دولتلو ثابت باشا وعرضت له ان هذه الاربعا الثانية المنتظر فيها جواب دولتكم فأجاب الاربعا الثانية ايضاً فرجعت وابتدأت افتكر يا ترى لماذا هذه المماطلة كأن ليس لي نصيب في هذا المحل لماذا لم يخبروني لأدبر شغلي لأنني اتحمل مصاريف وغربة بغير فائدة واذا كان لي محل في طلبي هذا لماذا لم يخبروني عنه وبقيت في هذه الأفكار بين الأمل واليأس فكنت دائماً اسأل بعض المصريين الذين عرفتهم هل هذه المماطلة هي ذات خير او عديمة النفع فأعظم رجل في الدنيا لا يمكنه الجواب على هذه المسألة فكان البعض يطمي فكنت

انفرج وانشرح ولوكان وهماً وبالعكس كنت انزعج عندما يقطع لي الأمل وخصوصاً عندما كنت اسمع ان المحلات انسدت لأنه لا يوجد أكثر من عشرة محلات للشوام وهؤلاء على مصروف الجيب الخاص للخديوي وقد نحصل على هذا الانعام رئس بطركخانة الموارنة وهو .

القس ارميا نجيم من الرهبنة الحلبية

لان هذا القس كان من القسوس العظام ذا غيرة وحماسة ومحبة نحو طائفته بحيث لم تفته فرصة يمكنه ينفع فيها طائفته فعندما جلس اسماعيل باشا على التخت الخديوي توجه القس المذكور كنائب بطريرك ورئس طائفة لتهنئة خديويته فاستقبله بكل بشاشة فالقس المذكور نظراً لغيرته استغنم فرصة من هذه البشاشة وهذه الظروف وطلب من جنابه العالي دخول عشرة تلامذة في مدرسة الطب من الشوام كما كانت العادة قديماً فأجاب جنابه العالي طلبه وأمر بدخول عشرة شوام في المدرسة على حسابه الخاص فحالا ابتدى القس ارميا بالتفتيش على تلامذة من طائفته لدخولهم في المدرسة فطلب ابن اخته فارس افندي نجيم والشيخ شيبان خازن وميلاد افندي صفير وابراهيم افندي صافي من بيروت وسليمان افندي أبي نحول الذي كان بالصدفة هناك وجملة أخرى وعندما تممت هذه العشرة دروسها وارادوا دخول غيرهم محلهم تسابقت الطوائف الأخرى لأخذ هذه المحلات بحجة أن العشرة المنعم عليهم هم من الشوام وليس من طائفة مخصوصة فهذا الذي سهى عن فكر الأب ارميا بتخصيص العشرة من طائفته فلذلك كنت اسمع كل يوم اخباراً ان الطوايف الاخرى أخذت ستة محلات بحيث على ما سمعت انه لم يبق لي محل وكنت ارجع دائماً الى الداخلية وأخبر دولة ثابت باشا بكل هذه الأخبار فيطمني فأرجع مطمئن البال ولكن هذه السفرات كنت أقطعها على ظهور الحمير لأنني وجدت انها أوفر.من العربية والراكب يمكنه يكون بحريته وينظر ما حوله بكل تدقيق أكثر وخصوصاً ان حمير مصر من أعظم المراكيب .

حادثة الارناؤوطي

ان هذه الحادثة افادتني كثيراً وهو انني مثل شاب ولدت في بلدة كنت شامخ الأنف فيها بسبب وجود والدي عضو الادارة وسبب رئاسة اسرتي في هذا المحل نشاءت شرس الطباع بحيث ما كنت أجد احداً يصدني من أهل البلد فكنت اضرب واشتم واهين بدون معارض وذلك نسبة لخاطر والدي وعندما حضرت الى مصر سكت عن هذه الشراسة نظراً لغربتي او لعدم وجود اسباب لها فيوماً ما بينما كنت راكباً حماراً ومارأ في الموسكي وهناك ازدحام عظيم مر بجانبي ارناؤوطي راكباً حماراً ومسرعاً في المشي فصدم ركبتي فتألمت فقلت بالافرنسية (سابرستي) كلمة تقال عند الحمق وليس فيها شيء مهين فعندما سمع الارناؤوطي هذه الكلمة رجع وابتدا يسب ويلعن ولكن بلغته التي لم افهمها ولكن فهمت ذلك من فتح عينه واحمرار وجهه وهيئته الهائلة فدرت وجهي عنه واريته انني غير منتبه له ولكن كنت اموت غيظاً في

فكري ولكن حسبت اذا كلمتهُ فهو أقوى مني وحيث انني غريب ولا أحد يساعدني فأكون انا الخسران فرأيت السكوت أولى ولكن جنابهُ ماكان يسكت بل مشي وكل مدة يلتفت الى الوراء ويقول (سبرستي) فاخيراً التزمت أذهب بطريق اخرى لابعد عنهُ وبعد خلاصي من هذه العركة شكرت الغربة وقلت كم لها من الفضل على تهذيب الاخلاق واخفاء الغيظ وجعل الانسان لطيفاً بشوشاً وانها تعطى علامة لمعرفة الرجل المتغرب وهي اذا كان الرجل في غربته وديعاً هيناً خجولاً متيقظاً سكيتاً فهذا دليل على شرفه وأصل منبته وبالعكس متى كان متكبراً فشاراً مدعياً فهذا دليل على أصله المنحط .

حادثة ضرب الرمل

يقول المثل المصري المحتاج أهبل فهذا صحيح وقد جرى لي فأنني عندما كنت في حالة انشغال الفكر بطلب مصلحتي كنت أشرح قصتي لأي كان وأظن انه يهتم لها مثلي فكان الذي يجيبني على حسب أفكاري انشرح منه جداً والعكس بالعكس مسكين الانسان المحتاج لأنهُ يكون العوبة الدهر والعصر وقد حدث لي في أحد الايام فبينما كنت قبل المساء متوجهاً لجهة سكة الحديد وجدت على الطريق رجلاً امامه منديل عليه مقدار من الرمل يقولون له الرمال فانا الذي لم يعتقد بهذه الامور فعندما رأيته وانا في حالة التفكر واليأس والرجا قلت فلنذهب عند هذا الرجل ونرى ماذا يقول فبالحقيقة ان الحاجة هي اساس الخرافات فتقدمت الى هذا الرجل ودفعت له عشرين باره فوضع يده على الرمل فبقي رسمها عليه ثم ابتدى يقطع الرمل باشكال اخر وابتدأ يقول كلاما غير مفهوم ثم فتح كتاباً كل ورقة ابيض وعندما كان يقلب الاوراق فتح أمامي بغتة محلاً فيه صورة كصورة الشيطان وربما صورة الرمال ولذلك لم ترعني ثم قال لي انك احضرت معك تحريراً من جبار الى جبار وهذا الاخير يماطلك ولكن لا بد من الانتهاء على خير فتعجبت من هذا القول واعجبني جداً فذهبت من عنده مسروراً فما أقل عقل الانسان وما اخضعهُ عند المصيبة والاحتياج فاخبرت بذلك سليم افندي الذي ماكان يعتقد بذلك واخيراً ذهبنا سوية عند الرجل وطلبنا منه ان يعرف اسباب مجيئنا عنده فأجاب بخرافة لم تصب شيئاً فتحققنا حينئذ انه من الكذابين ولكن الوهم الذي طبعه بفكري البارح كان يسرني وندمت على رجوعي اليوم بازالة هذا الوهم عني لأنني كنت منشرحاً مطمئن البال فماذا افادتني معرفتي ان هذا الرجل كذاب فحقيقة امره ازالت عي انشراح البارح وراحة فكري فما كان يهمني ان اعرف حقيقته لان وهمي به كان انفع لي فمن الغلط ان يزيل الانسان وهماً لا يضرّ به ادبياً أو مادياً فهذه حالة الانسان مدة المصيبة وحيث لا يخلو في أغلب الاحيان من مصيبة تراه دائماً يخل بالتعقل الحقيقي عندها فلذلك يلزمه استشارة غيره لان غيره خال من المصيبة فيكون رأيه أحسن والاحتياج الزم الانسان للاعتقاد بمثل هؤلاء الدجالين كضاربي الرمل وكشافي الكنوز وأعظم برهان على كذبهم هي حالتهم الفقرية لأنهم لو كانوا يعرفوا محل الكنوز والمستقبل والسارقين لاصبحوا هم الملوك واستغنت الحكومة عن البوليس وعن كل شيء مع ان هؤلاء يفعلون كما تفعل اللصوص أي يسلبون المال لأنه قيل ان الذي يفضل عن اللص يأخذه المبصرّ ومع ذلك يتراكض الناس اليهم .

صدور الامر لدخولي في مدرسة الطب

واخيراً بعد عذابي مدة شهرين تقريباً وصعودي مراراً الى القلعة التي أصبحت مثل بيتي مع اني أول مدة دخلتها كنت لا اتجاسر على السير في الدار لأن الأرض كانت مفروشة بالبسط الافرنجية والعسكرية والياورية دائرة فيها ولم ار ذلك في بلادي ابداً فكنت لا اتحرك ولا أضع رجلي في محل قبلما أرى غيري يمشي أمامي خوفاً من ان ادوس محلاً ليس لي الحق بدوسه حتى لا اتعرض الى الاستهزاء بي او التوبيخ وهكذا كنت أفعل في كل حركة وعندما داومت المسير لهذه المحلات صرت صديقاً للكل وامشي دون ادنى وهم .

وعندما كنت مفتكراً يوماً ما بهذه العاقة افتكرت انه ربما الباشكاتب ينفعني بالعجلة لان عليه مدار كل العمل فتصورت بفكري ان ادفع له اربع ليرات انكليزية وأعطيها له لأجل مساعدتي بسرعة الامر وليس شبه رشوة لان ليس هناك دعوة فتوجهت حالاً وأخذت معي الدراهم ودخلت أوضة الباشكاتب الذي كان غير منتبه لي لكثرة شغله فكنت افتكر وافتش على فرصة لأكلمه وأدفع المبلغ وانا في هذه الحالة حانت منه التفاتة لي وعندما رآني قال اهنيك يا مسيو قد صدر الامر لدخولك في المدرسة وهذا هو الامر ولم يبق الا ختمه من دولته الذي لم يحضر في هذا النهار لانزعاجه الصحي وانشاء الله نهار غد ان حضر او لم يحضر نرسله لهُ ويكون خالصاً نهار غد تأتي وتأخذه فمن يقدر يصف حالي وفرحي لهذه البشرى التي كنت في انتظارها من مدة شهرين والتي لأجلها تركت وطني وأهلي ومتحملاً التعب والمصاريف واليأس والمداراة فلا يقدر أحد ولا انا ذاتي ان يشرح ما شعرت به عند ذلك انحنيت شكراً وما أمكن لساني يترجم كلما في قلبي فخرجت من أوضة الباشكاتب كالسكران أوكشارب الحشيش الذي يرى كل الناس أوطى منه فكان الذي قبل بساعة يكلمني بكبرياء وانا متواضع له صرت لم التفت اليه وكنت أمشي بجسارة وحديث بكل حرية فكأنني خلعت قيد الاحتياج وصرت حراً في أفكاري وأعمالي آه ما أقبح الانسان في أي حالة كان ان كان ذليلاً يتدانى أكثر مما هو لازم وان كان شبعاناً لم ير قيداً ورباطاً لافعاله فلذلك لا بد للانسان من شريعة او رباط يربطه ولذلك الباري تعالى لم يعطنا كل احتياجاتنا حتى نكون دائماً محتاجين اليه وقد قلت في بعض قصائدي ما يأتي :

لولا ثلاث لم يكن دين ولا ذكر من الانسان للرحمان
موت وافلاس وضعف كلما عنه نأت يدنو الى الكفران

ومع ذلك كل هذا الانشراح لم ينسيني شكر الذين ساعدوني وخصوصاً هذا الباشكاتب الذي لم ازل أتذكره لليوم وأتاسف من نسيان اسمه لأنه واجب علي ان اذكر رجلاً مثل هذا للاقتداء به واخيراً قبلما اتوجه تقدمت سرا الى الباشكاتب وقلت له أرجوك قبول هذا مني لأجل هذه البشارة التي استنظرها من مدة وليس هذا برشوة او ضياع حق الغريب ولا أنت طالب ذلك بل من كل قلبي فأجاب بكل لطف

اشكر احساساتك لذلك ولكن انا رجل غني وانت في غربة تحتاج لهذه الدراهم أكثر مني وما انا عملت شيئاً في مسألتك بل دولته عمل وانا تحت الامر ابقى هذه الدراهم لك ويكفيني ما اظهرته فخرجت من عنده منشرحاً من كل جهة وكان قسم من فرحي ايضاً وهو ابقاء الدراهم بجيبي لأنهم لازمون لي جداً في ظروف كظروفي فعند وصولي اخبرت سليم افندي عن ذلك الذي انسر جداً وفي اليوم الثاني رجعت الى الداخلية فوجدت الامر مختوماً ومغلفاً باسم رئيس المدرسة محمد علي فشكرت الباشكاتب من كل قلبي ورجوته ان يقبل عني ازيال دولة راغب باشا الذي كان لم يزل في بيته فدخلت على دولتلو ثابت باشا وشكرته فقال لي ان عاقتي كانت مسببة عن انتهاء دروس فوج الشوام الذي كان في المدرسة لأنه عند وصولي لمصر كان باقي لهم شهرين لخلوصهم وعندما خلص الامتحان الذي هو في أواخر شعبان اعطوني محل أحدهم فشكرت فضله بتوضيحه لي الاسباب ولا أعلم لماذا لم يقل لي اولاً لكي ارتاح من كلما جرى لي ولكن الرجل السياسي لا يسأل عن شيء .

ومن غرايب الاتفاق ان في سنة ١٩٠٤ حضر لمدرسة الطب الافرنسية التي انا معلم فيها شاب مصري ليتعلم الطب وكان في صفي فسألت من هو أجاب انه ابن ثابت باشا فتعجبت كيف ابن ذاك الذي كنت ارجو العلم بواسطته يطلب العلم مني الان ففرحت به جداً واعتمدت على مساعدته لان والده ساعدني ولكن لسوء الحظ لم يداوم ورجع لمصر .

اعطائي الأمر لرئيس المدرسة محمد علي البقلي

في ٤ رمضان سنة ١٢٨٤ الموافق غرة كانون الثاني سنة ١٨٦٨ فهالها الان اربعون سنة توجهت الى المدرسة الطبية فوجدنا الرئيس في أوضة الرئاسة وق بوابة المدرسة في محل متسع محاطاً بالكتب والكتابة وكان وحده فدخلنا عليه وسلمنا وأجاب على سلامي وبعد مدة اعطيناه الأمر الذي قرأه وقال انه لا يمكن اجابة هذا الامر لأن عندي اوامر ان لا أقبل احداً من العشرة الشوام الا بامر افندينا الخديوي فيا لها من دقيقة مرت علي فحطتني من اعلى الى أسفل وأظلم النهار في عيني ثم قال بعد ذلك اطلبوا الباشكاتب مصطفى افندي درويش لأنه كان عارفاً بكل شيء في الأوامر لان الباشكاتب في الدوائر المصرية مهم جداً وهو المسؤول ولا يمكن للناظر او للباشا ان يختم تحريراً او امراً ما لم تكن علامة الباشكاتب عليه .

فحضر الباشكاتب فاعطاه محمد علي الأمر فأخذه وقرأه وقال له لا تخالف أمر راغب باشا فأقبله وبعد ذلك أخبر راغب باشا عن الامر الذي عندنا وهو يدبر الحال فقال عظيم فاذا اقبلوه وقيدوا اسمه بين التلامذة .

فيا لها من ساعة رفعتني من الجحيم للنعيم وكل قاري ذلك يحس عني ويترجم الحالة ملتي كنت فيها

فتقدمت وقبلت ايدي الرئيس ونزلت الى الدار وقال لي ان اليوم فرصة اتريد تكون هنا او تذهب وترجع بعد رمضان اجبته ان ليس لي أحد هنا ابقي هنا وأذهب وقت الفرصة الى المدينة فقال الآن تقيد اسمك بين التلامذة وهكذا كان دخولي في ٤ رمضان سنة ١٢٨٤ موافق غرة ك ٢ سنة ١٨٦٨ مسيحية .

المدرسة الطبية المصرية

هي أول المدارس الطبية في الشرق في ايام الدولة العثمانية وهي من مأثر محمد علي وقد أسسها كلوت بك الفرنساوي الذي نذكر قسماً من تاريخ حياته تأسست اولا في أبي زعبل وهي بلدة حقيرة على مسافة أربعة فراسخ من القاهرة وكان هناك مستشفى للعساكر وكان تأسيسها في شهر ذي الحجة سنة ١٢٤٢ هجرية الموافقة سنة ١٨٢٧ مسيحية وفيها درس الفوج الأول من أطباء مصر وسنة ١٢٥٣ هجرية انتقلت الى قصر العيني بالنسبة لشيخ العيني الذي له مقام بجانبها الجنوبي للأن هناك وهناك تعلمت فيها العلوم الطبية .

كلوت بك مؤسس المدرسة الطبية المصرية

ولد هذا الرجل وهو انطون بارتلمي كلوت في مدينة كرنوبل في فرنسا في ٧ تشرين الثاني سنة ١٧٩٣ مسيحية من عائلة فقيرة كان والده ضابطاً في الجيش الايطالياني فاستعفى ومرض ومات سنة ١١٨١ وكان يعالجه الدكتور سابه الشهير حيث عرفه في الجيش الايطالياني وعندما عرف الدكتور سابه الذي كان مقيماً يومئذ في مدينة بريتونيول Brignoles .في Hôtel Dieu مالكوت من الرغبة في علم الطب الحقه بوظيفة مساعد له واخيراً انتقل من محل الى محل مقاسي الم الفقر والذل حتى توصل الى اسمى دكتور واشتهر في ارائه في الجراحة حتى انه في الصدفة ارسل محمد علي حاكم مصر يطلب اطباء للجيش فأرسل تاجراً فرنسياً كان في مصر لأجل ذلك تعرف بكلوت بك وطلب حضوره الى مصر بشروط فحضر سنة ١٨٢٥ وعندما ابتدأ بتنظيم الجيش عمل مستوصفاً لأجل المرضى في أبي زعبل وابتدأ يعلم خادمي المرضى وظيفة كل منهم بالتغير عن الجروح وخلافها واخيراً ابتداء بفتح مدرسة رغماً عن المعاكسة له بحيث انه يجعل في مصر اطباء يستغنون بهم عن اطباء أوربا وكان يصنع امتحاناً كل شهر للتلامذة يدعو محمد علي باشا وبعض الكبار للحضور اليه لأجل مشاهدة الأعمال وأخيراً امره محمد علي باشا ان يأخذ تلامذه الى باريس لأجل فحصهم فاذا كانوا من الناجحين استمر على ذلك والا يبقى كالأول وكان قاسى صعوبات عديدة لأجل الوصول الى العلم لان لا يوجد في مصر شخص يعرف اللغة الافرنسية لأجل الترجمة فوجد رجلاً سورياً يعرف الايطاليانية كان يترجم له من الافرنسية الى الايطاليانية وهذا يترجم منها الى العربية ويوجد مجلس من العلماء لأجل تصحيح اللغة وهذا الرجل السوري هو من اسرة بيت العنحوري من دمشق .

وخلاف هذه الصعوبات في اللغة كانت مسألة التشريح صعبة جداً حتى ان أحد التلامذة يوما ما قدم عريضة الى كلوت بك فبينما كان يقرأها هجم عليه وضربه بالخنجر في رأسه فأخطأه ثم رجع وضربه في صدره فتلقاه في زنده واخيراً مسكوا هذا الخاين وذلك بسبب التشريح وقيل ان معلم التشريح في ذلك الوقت كان رجلاً نمساوياً فمات احد الخصيان من دائرة محمد باشا في الاسبتالية فاشهروا الخبر ان المعلم شرحه فابتدوا يترصدون معلم التشريح لأجل الحاق الضرر به ففي ذات يوم وهو راجع ليلاً الى منزله مارا بقرب السرايا وجده اثنان من الخصيان فسألاه اذا كان يعرف معلم التشريح الذي شرح رفيقهما فأجابهما نعم أعرفه ماذا تريدان منهُ فقالا انه شرح رفيقنا مرادنا بشرحه مثله فقال اتبعاني وانا ادلكما عليه فمشى الى ان وصلا الى داره فدخلها وعرف اسماهما وقفل الباب وراءه وفي اليوم الثاني اخبر عنهما فعوقبا وكذلك كان المصبرون زمن الفراعنة عند المصريين مكروهين وكانوا يرجمونهم بالحجارة ويخلصوا من القتل بصعوبة مع انها عملية دينية .

مستشفى قصر العيني

هذا هو المستشفى الوحيد الذي كان يومئذ في القطر المصري وكان يسع لحد الف فرشة وتدخله جميع المرضى من جهادية وملكية وتطبب فيه جميع الامراض مجاناً وكان يعيده المعلمون والتلامذة صباحاً ويبقى طبيب نوبتجي ليلاً ونهاراً لمداواة الحوادث الطارئة على المرضى وادخال ما يستجد منها ولهُ ادارة خصوصية مؤلفة من ناظر ووكيل ومجلس كتبة ومجلس استشارة كان يصرف مع المدرسة ٣٥ الف ليرة سنوياً ولم يزل مركزه للان شمالي المدرسة وعلى ترعة النيل .

الرئيس محمد علي البقلي

كان هذا الرجل ماهراً في الجراحة فصيح اللسان تهابه التلامذة ذا أطباع حدّة لا يبالي بأحد اذا غضب كثرت اعداه عزل عن الرياسة ثم رجع لها ثم عزل واخيراً توجه في حملة مصر على الحبش وكان بسن السبعين املاً منه ان ادى هذه الخدمة يرجع للرياسة فانكسرت مصر يومئذٍ وقد قتله عبده وهو هربان فعرف ذلك وشنق العبد .

(التلامذة) وكان عدد التلامذة لحد مايتين للطب وللصيدلة وكان لبسهم لبس ضباط عسكريين ولهم كل سنة طقم جوخ واخر كتان وكلما يلزم من الطربوش الى السرماية ولهم خرج للأكل من اللحم والأرز والخضرا والخبز يستلمها العشي وكانت تعطى الكتب المطبوعة مجاناً للمصريين وبثمن الى الشوام وكان ماهية لكل تلميذ حسب صفه للمبتديء ٣٠ غرشاً صاغاً وللمنتهي ١٢٠ ما عدا الشوام وكانت المدرسة داخلية لا تخرج الا نهار الجمعة صباحاً ونرجع مساءً والفرصة مدة شهر رمضان وثمانية ايام في العيد الأضحى وكنا بعد النوم يسكر علينا واذا احتجنا شيئاً نطلب اذناً من الباشجاويش .

(كشف سارقي الماء) كنت في بعض الاحيان استيقظ من النوم وأطلب الماء فأجد قلتي فارغة وما تمكنت من معرفة سارق الماء ففي ذات يوم خطر لي أن أضع في قلة الماء قليلاً من الطرطير المقيء الذي يسبب القيء ولا يضر ففعلت هذا الامر ولما استيقظت من نومي طلبت الماء فلم أجده كالعادة فخرجت من غرفتي افتش في محلات النوم فوجدت ثلاث من التلامذة يتقاؤن فقلت لهم عرفتكم يا سارقي الماء فصاروا يترجوني ليعرفوا ما كنت واضعاً في القلة فطمنتهم واخبرتهم انني وضعت قليلاً من الطرطير لاعرف بواسطته لص الماء فاطمأن بالهم ولم يعودوا الى فعلتهم بعد ذلك ومن الشهادة تعرف الدروس وترتيبها والمعلمين ووظايفهم .

الشهادة

بعد الامتحان النهائي أي بعد درس ست سنوات تعطى الشهادة الى تلامذة الشوام فقط ولا تعطى للمصريين لان هؤلاء يبقون في المدرسة بعد آخر فحص فتخبر عنهم عمدة المدرسة مجلس الصحة وهذا يعينهم بالمأموريات اللائقة بهم ولو لم تكن بيدهم الشهادة وذلك لأجل حصرهم في مصر بحيث لا يمكنهم مغادرتها لان الحكومة علمتهم مثل عسكرية فلو هرب احدهم الى البلاد الغريبة لا تمكنه المعيشة بلا شهادة وهذا هو القصد من عدام اعطاء الشهادة للمصريين اما شهادة الشوام فهي كما يأتي على الختم :

ابـــدء بنفسك فـــانهها عن غيهـــا فـــاذا انتهت عنــــهُ فـــانت حكيمُ

شهادة نامة طبية خديوية مصرية

حمداً لمن أعاد الى مصر رونقها الأول بهمة عالي الهمة الالمعي النبيه من اقتدى بنشر المعارف والمنافع بجده وأبيه افندينا ولي النعم ذي الفضل الجزيل خديوي مصر وعزيزها اسماعيل حفظه الله وابقاه وأدام توفيقه وشكر مسعاه فانهُ جدد فيها انواع المدارس واحيي كل علم رميم دارس فمن جملة هذه المدارس الجزيلة وأعظمها نفعاً المدرسة الطبية التي أشرق في المشرق نورها حتى اهتدى بها كل قاص ودان واتاها القاصدون من أقصى الاقطار والبلدان كان ممن سعى الى هذه المدرسة المنيفة رغبة في تعلم صنعة الطب الشريفة الفطن اللوزعي الاديب والشاب النبيل شاكر افندي الخوري ابن يوسف افندي الخوري أحد اعضاء المجلس الكبير في جبل لبنان من بكاسين من أقليم جزين من جبل لبنان من أعمال بر الشام أرسله دولتلو داود باشا متصرف جبل لبنان ووفد الى هذه الديار لأجل التحلي بحلية الفضل ونيل الأوطار وانتظم بسلك تلامذة هذه المدرسة التي هي على نشر المنافع مؤسسة فتعلم بها العلوم الطبية احساناً من المراحم الخديوية وكان دخوله في ٤ رمضان المعظم سنة ١٢٨٤ هجرية الموافق غرة كانون ثاني سنة ١٨٦٨ مسيحية ففي السنة الاولى درس كلا من علم الطبقات الارضية وعلم المعدنيات والكيما المعدنية وغير المعدنية والجزء الأول من علم الطبيعة وعلم النباتات في آخر السنة المذكورة امتحن بالامتحان العام في هذه الفنون

التي درسها وتلك العلوم التي أتقنها ومارسها فأحسن فيها الاجابة وظهرت عليه لدى الحاضرين اشارات النجابة وفي السنة الثانية درس كلا من علم الكيا النباتية والحيوانية والجزء الثاني من علم الطبيعة وعلم الحيوانات وفي اخر السنة المذكورة امتحن بالامتحان العام فأجاب واحسن الجواب وفي السنة الثالثة درس كلا من علم المنسوجات وأركان البدن والقسم الأول من التشريح الخاص والتشريح العملي وفن الاقربازين أي علم تركيب الادوية والعمليات الجراحية الصغرى وفن التعصيب وفي آخر السنة المذكورة امتحن بالامتحان العام فسر الحاضرين وأقر اعين الناظرين وفي السنة الرابعة درس كلا من القسم الثاني من التشريح الخاص والجراحة العامة والفسيولوجيا أي معرفة افعال الاعضاء في حالة الصحة والباتولوجيا العامة وفن العلاج وفي آخر السنة المذكورة امتحن بالامتحان العام وكانت اجابته مرضية شافية وفي السنة الخامسة درس كلا من جراحة الانسجة والجزء الأول من العمليات الجراحية الكبرى والتشريح الجراحي والقسم الأول من الباتولوجيا الخاصة أي علم الأمراض الباطنة والتشريح المرضي وقانون الصحة والمادة الطبية مع اعادة فن العلاج وأمراض الجلد وأمراض النساء والأطفال وفي آخر السنة المذكورة امتحن بالامتحان العام فأجاب الاجوبة الفائقة بالالفاظ المفيدة الرايقة وفي السنة السادسة وهي السنة الأخيرة من المدرسة درس كلا من جراحة الاقسام والجزء الثاني من العمليات الجراحية الكبرى وفن الكحالة أي امراض العين وعملياتها والقسم الثاني من الباتولوجيا الخاصة والطب الشرعي وفن الولادة وعلم السموم والاكلينيك الجراحي والباطني والرمدي وفي آخر السنة المذكورة امتحن بالامتحان العام الواقع في يوم الاثنين المبارك لواحد وعشرين خلت من شهر شعبان سنة ١٢٩٠ وكان مجلس الامتحان متشرفاً بحضرة دولتلو محمد توفيق باشا ولي العهد الخديوية المصرية وحضرة دولتلو طوسون باشا نجل جنتمكان سعيد باشا وسعادة مصطفى رياض باشا ناظر عموم المدارس وسعادة محمد راغب باشا مستشار المجلس الخصوصي وسعادة عبدالله باشا مستشار الداخلية وسعادة أبي بكر راتب باشا وسعادة عبد اللطيف باشا ناظر البحرية وجم غفير من حضرات العلماء الاعلام والذوات والتجار الفخام ورؤساء الملل الأجنبية من ذوي الاحترام وارباب الامتحان فأحسن الجواب والقول المستطاب واعترف له الحاضرون بجودة العلم والتعليم وانه يستحق ان يتسمى باسم الطبيب والحكيم وفضلاً عن هذه الامتحانات المذكورة ان يمتحنه كل منا امتحانات اسبوعية وشهرية وكان يجيب عن كل ما القيناه اليه من الاسئلة الأجوبة الجلية فاتقن الافندي المذكور العلوم الطبية كل الاتقان وكان أول اقرانه على حسب نمره في كل امتحان وكان قدوة لاخوانه التلامذة في تهذيب الأخلاق وحسن السلوك والاجتهاد والمواظبة على تحصيل العلوم المذكورة اعلاه وقرن العلم بالعمل واتقنه من خير خلل حيث كان مواظباً على الحضور معنا في معالجة الامراض والعلل على اختلاف انواعها في الاسبتاليه العمومية متلقياً بالرغبة والنشاط فوائد الدروس السريرية ومجرباً ذلك بنفسه احياناً أمامنا وقد اجرى اشهر عمليات الجراحة والرمد من استخراج حصاة وبتر واستئصال اورام ظاهرة وباطنة وعمليات كتاركتا وحدقة صناعية وشعرة وتجبير كسور ورد خلوع وغير ذلك فبالعناية الربانية وبالمساعي الخيرية الخديوية قد صار الافندي المذكور طبيباً ماهراً وحكيماً آسياً يصبح الاعتماد عليه في كل رأي وعمل والرجوع اليه في كل مرض اشتكل جعله الله نافعاً للأنام ومسنداً للخاص والعام ولذا حق علينا ان نشهد بفضله ونقر بمعرفته وعلمه وان نجيزه بالعلم والتعليم والعمل والتحكيم فاجزناه بالعلوم السابق

نشرها والفنون المتقدم ذكرها وكل ما يفعلهُ الاطباء الحكماء بحيث لا يمانعهُ ممانع ولا يعارضه اي معارض كان بأي مكان أقام وبأي بلدة استقام وبناء على ذلك قد اعطيناه هذه الشهادة لتكون بيده سنداً مؤيداً وشاهداً معضداً وحرر ذلك في بجلس اطباء القصر العيني الكائن في المحروسة .

رئيس الاسبتاليه والمدرسة الطبية ومعلم الجراحة الكبرى والاكلينيك الجراحي محمد علي .

معلم امراض العين وعملياتها حسين بك عوف

معلم الباتولوجيا الخاصة والتشريح المرضي والاكلينيك الباطني سالم بك سالم

معلم الكيميا العضوية والجزء الثاني من علم الطبيعة يوسف بك جاستنيل

معلم التشريح الخاص والعام حسن بك عبد الرحمن

معلم الفسيولوجيا وقانون الصحة عبد الرحمن بك هراوي

معلم المواليد الثلاث احمد بك ندى

معلم الولادة محمد بك عبد السميع

معلم المادة الطبية وفن العلاج وامراض الجلد محمد افندي بدر

معلم العمليات الجراحية الكبرى محمد افندي فوزي

معلم الباتولوجيا العامة محمد أفندي قطاوي

معلم الجراحة العامة والتشريح الجراحي والجراحة الصغرى وفن التعصيب أحمد بك حمدي

معلم الكيما المعدنية وغير المعدنية والجزء الأول من علم الطبيعة صالح افندي علي

معلم أمراض النساء والاطفال مصطفى افندي أبي زيد

معلم الاقربازين علي افندي رياض

معلم أكلينيك الرمد محمد افندي بهجت

معلم الطب الشرعي وعلم السموم ابراهيم افندي حسن

معلم التشريح العملي محمد افندي درى

اشهد ان الافندي المذكور كان حسن السير والاخلاق . ضابط المدرسة الطبية ابرهيم افندي شوقي ان شاكر افندي الخوري المذكور اعلاه كان في مدة اقامته في الاسبيتالية حريصاً على اسعاف من كان يعالجه من المرضى بالاسبيتاليه المذكورة وكان يؤدي وظيفة نوبتجي في غاية الاتقان .

ناظر عموم اسبيتاليات صر — احمد بك كمال

وكيل نظارة اسبتاليات مصر — محمد افندي حافظ

شاكر افندي الخوري من أهالي بكاسين من أقليم جزين من جبل لبنان من بر الشام صار الحاقه بمدرسة الطب احدى المدارس الخصوصية بالديار المصرية في ٤ رمضان سنة ١٢٨٤ من العشرة الشوام الجاري تعليمهم العلوم الطبية من الاحسانات الخديوية ثم تمم دروسه وتعلماته الطبية بظل الذات العلية الخديوية في ٢١ شعبان سنة ١٢٩٠ كما اتضح من نتائج امتحانه وكتبت له هذه الشهادة من رئيس المدرسة الطبية وخوجاتها بأنه يستحق ان يكون طبيباً وحكيماً ويعتمد عليه بكل رأى وعمل ولا يمانعه ممانع في أي محل أقام ولأجل الاعتماد لزم التصديق من الديوان تحريراً في ١٤ رمضان سنة ١٢٩٠ .

مدير المدارس والأوقاف

رياض

نظرت هذه الشهادة الممهورة باختام حضرات خوجات المدرسة الطبية بمجلس عموم الصحة المصرية مصدقاً عليها من سعادة ناظر ديوان المدارس والأوقاف ولأجل اعتمادها بمحل اللزوم لزم الشرح منا .

في ١٧ رمضان سنة ١٢٩٠

رئيس مجلس عموم صحة مصرية

كلوتشي

(اسفي على الماضي) من الامر العجيب تعلق الانسان ءالأوهام فالحقيقة بزعجه وتكدره والان عندما اتذكر تلك الايام اتأسف عليها وأطلب رجوعها مع انني في ذلك الوقت ما كنت أصدق ان اتخلص منها بسبب التعب والحكم والذل ترى للانسان ثلاث حالات .

الماضي يتأسف عليه ولو كان أنحس وقت صادفه وأحياناً يكون فيه فقيراً مع ذلك فأنه يتكدر على زواله .

الحاضر يكرهه مع انهُ خير وقت وكفاه فضلاً ان الانسان لا يزال فيه حياً .

المستقبل يتأمل فيه مع انهُ شر من الحاضر لأن فيه الموت ويمكن ان تمر فيه على الانسان كل المصائب ومع هذا كله ربما ندم الانسان على الماضي ولعله يكون مصيباً لأن ماضيه كان بعز الشبوبية او الولدنة او الطيش او الجهل الذين لا يبالون بالمصائب ويكره الحاضر لأن كل احساس مكدر يحزنه يكون شاعراً به ويتأمل في المستقبل لأنه يعيش بالأمل والأمل اصل العبودية لأنهُ متى قطع الانسان أملهُ من شخص لا يعود يهتم به وهذا مبدأ السياسة للخضوع وهو ان يجعل الحاكم كل انسان متأملاً فيه فاذا طلب منهُ امراً لا يصده بل دائماً يعللهُ بقوله تتبصر تتدبر وهذه الكلمة هي التي تجعلهُ يصبر على المضض .

ولنعد الى سياقنا الأول وكنا في بعض الأحيان نخرج ليلاً سمع المنشدين في الأفراح ولذلك نذكر .

أفراح المصريين

لا يوجد شعب في الدنيا أكثر احساساً للصوت من المصريين اذا كان رجل ذاهباً بأمر مهم وسمع رجلاً يغني فلا بد له من الوقوف ليسمع محط النغمة فاذا اعجبته يضرب عمته في الأرض ويصرخ آه آه والا يشتم المغني جهاراً ويذهب ولقد كثرت عندهم المنشدون وكان لصاحب الصوت الحسن مقام عظيم ودخل أعظم فاللذين اشتهروا في زماننا من المنشدين في الحفلات الدينية هم محرم والشتوري واخيراً الشيخ يوسف الذي فاق الجميع ومن المغنين اولهم وريسهم عبده الحمولي الذي كان يغني لنفسه وليس لغيره اعني انه كان يشعر بكل نغمة يقولها ويظهر لها احساس في حركات جسمه فكان يهيج السامع بهذه الحركات أكثر من الصوت أصله من طنطا والتي اشتهرت من العوالم هي السيدة المز الاهة الغنى لا يمكن لصوت بشري ان يكون الذّ من صوتها .

وكان تخت الالات مكون من الرق يحمله الريس المغني ثم العود الذي اشتهر فيه جداً محمد الليسي الذي بقي حياً لسنة ١٩٠٧ وكذلك القانون والمشهور فيه هو الكركجي والكمنجة اشتهر فيها الجاهل والناي الشيخ احمد وكان لكل تخت مطيب أي الذي كان واسطة بين أصحاب التخت والسامعين ويهيج المحضر وكان يوجد ايضاً المنكتون وهم أظرف من الغنا والذي اشتهر منهم رجل اسمه الصدفجي كان ينكت مع المز وخلافها وكان مضحكاً جداً .

والذي كان يسهل علينا السمع هو عادة مصر التي تسمح لأي كان ان يحضر الفرح سوا كان مدعواً ام لا وكان اذا حضر وقت الأكل يأكل فهذه عادة كريمة جميلة كانت تسمح لأي كان بالسمع ويستفيد منها الغريب أكثر .

ولولع حب الغنا كانت الفعلة التي تشتغل في بناء البيوت تجتمع سوياً لأنهم كلهم من الأولاد ذكور واناث وتنزل وتصعد بالغنا ينتخبون ابنة ذات صوت جميل وتنشد امامهم وهم يردون عليها بحيث الذي

كان بجانبه ورشة كان ينشرح جداً وبهذه الطريقة كانوا يخففون اتعابهم وينسون حر النهار وعرقه وقد كانت عادة حسنة واليوم بكل أسف قد أبطلت .

(شم النسيم) ومن جملة مواسم مصر هذا النهار الذي يكون عبارة عن الناروز عند الفرس وهكذا لكل بلاد كاثنين الراهب في بيروت فتخرج جميع الأهالي مع عيالها الى البرية ويمضون النهار بالافراح والأكل وهكذا امور .

وكذلك قطع الخليج الذي هو عادة قديمة فيه يزينون مركباً يسمونه عروسة النيل عوض العادة القديمة التي كانوا يرمون في النيل ابنة تقدمة له ليجود بالفيضان عادة وثنية ابطلها الاسلام فهو يوم هرج ومرج وزينة والعاب تمر العروس عند العصر ويقضون الليل بالأعمال التي ذكرناها وكان بجوارنا مدرسة الولادة وحيث لم تطل على النيل كانت تأتي التلميذات لمدرستنا ويشغلن الطابق العلوي ونبقى نحن في الطابق السفلي وكنت اعرف منهن تلميذة احسنهن وكانت صداقة بيننا وقد نظمت في ذلك اليوم لها الابيات الآتية وكان بيدي مرآة كنت أنظر وجهها فيها :

مالي أرى النيل في ذا اليوم مضطرباً	وماؤه بعد صفو صار في كدرِ
والسفن في هرب فيه وفي مرحٍ	والشمس في خجل والنار في هدرِ
والقلب في شغف والناس في فرح	منهم على سكنٍ منهم على سفرِ
يأتون من كل فج يسجدون على	تلك الشواطي بلاهم ولا ضجرِ
الى النجوم التي من فوقهم جلست	وبينهنّ قمرٌ ناهيك من قمرِ
أبصرت صورته من كان في فتنٍ	فوقي ولاح بمراتي الى نظري
محجب برداء اصفر ملسٍ	يلفه دائماً من أسود الحبرِ
ابدي جبيناً صبوحاً خلتهُ ملكاً	وثغره يزدري ان لاح بالدررِ
له سهام عيون كم يصيب بها	قلب الشجي بلا قوس ولا وترِ
لما رأيت فؤادي صار في شغف	وأصفر وجهي ورشدي ضاع مع فكري
ايقنت اني بدار الخلد منتقل	ومن اراها امامي ابدع الحورِ

الشحاذون او السوالون في مصر

كان السوالون في مصر يقلقون المارين ويزعجونهم بمطالبتهم حتى وصلت بهم القحة ان يقدموا استدعاء الى الخديوي اسماعيل وهو مار بعربته للنزهة فصدر امره وقتئذ بالقبض على كل شحاذ وارساله الى المستشفى ليفحصه الاطباء فكان يرسل السليم منهم الى العسكرية والعاجز الى دار العجزة وفي ذات يوم بينما كنت نوبتجياً في المستشفى اذ حضر جمهور غفير مصحوباً بالجند ومعهم أمر من المحافظة فأرسلت خبراً

للرئيس فحضر سريعاً فوجد هذا الجمهور البالغ نحو ثلاثمائة شخص فأمر حينئذ بخلع ثيابهم والبسوهم ثياب المستشفى فعصوا وبدأوا يصرخون طالبين ابقاء ثيابهم عليهم وصارت العساكر تضربهم حتى تمكنوا من تقليعهم ثيابهم وبعد ما وضعوا الثياب اكداساً امر الرئيس ان تجمع هذه الثياب وعندما اراد احد الخدم ان يرفع ثوباً من الأرض وجده ثقيلاً ووقعت يده على شيء مستدير فجسه واذا فيه دراهم واخبر الرئيس بذلك فأمر بتفتيش ملابسهم فوجدوا فيها مبلغاً من الدراهم بين طيات الثياب مخاطاً عليها وقد بلغ مجموعها نحو ثلاثة الاف ليرة استولت عليها الحكومة فهذا بعض فعل الشحاذين ايضاً وهو عندما كنا نمر في شارع الموسكي كنا نرى رجلاً مصاباً بفتاق او بقيلة مائية او بمرض الفيل لابساً سروالاً كبيراً يمشي متماهلاً متمايلاً لكل الجهات لثقل الورم الذي بين فخذيه وكانت الناس تحسن اليه لأجل عاهته ففي أحد الأيام بينما هو سائر غير متنبه صدمته عربية القته في الأرض غير انها لم تؤذه وعندما انطرح بالأرض اسرع الناس من كل جهة ليرفعوه عن الأرض ولكنه أبى القيام واخيراً حضر البوليس وانهضه رغماً عنه وعند نهوضه تساقطت الليرات الصفراء من ارجل سرواله وزال الورم بالكلية لأنه لم يكن سوى دراهم التي بلغت نحو ثلاثمائة ليرا وكان الناس يرونه بهذه الصفة فيحسبونه مريضاً وهذا من بعض حيل المتسولين ايضا فأعمال كهذه ترفع الشفقة من القلوب وعلى العموم كل من يشحذ جهاراً لا يكون محتاجاً ولا تجوز عليه الحسنة وأما الفقير المسطور هو المستحق كل شفقة فالشفقة تكون على من يستحي وبالعكس .

بطركخانة الموارنة في مصر ورئيسها القس جبرايل

كنا نزور البطركخانة عندما نكون مفلسين وفي خلاف حالة كنا نذهب للقهاوي وكان القس جبرايل صفير بشوش الوجه وقد حضر سنة ١٨٦٨ وكان جميل الصورة وهذا نادر عند الرهبان وعمل اعمالاً عظيمة فانه بنى كنيسة درب الجنينة ثم عمل كنيسة وكرسي في شبرا وكنيسة اخرى في الزقازيق واخيراً اخذ محلاً في الخرطوم مجاناً وكان مراده يعمل فيه كرسياً وكنيسة وكان يستحق ان يسمى مطراناً على مصر وعندما علم ان غيره اخذ هذه الوظيفة تأثر وربما هذا سبب موته في الخرطوم في ٣٠ ك ٢ سنة ١٩٠٥ .

وعندما كنت في المدرسة كنت ازوره وقد قال لي يوماً يزعمون انك شاعر فأنظم لنا شيئاً فقلت :

يـــا سائلي عـن جنـــــة في أرضنـــــا	هـــــل لي الى ذاك المقـــــام سبيـــــلُ
ان شئت رويتهـــــا فعرج بـــــاكراً	وأقصد حمى دير بـــــهِ التبجيـــــلُ
وأمرر على درب الجنينـــــة واستمـــــع	نغمات تسبيح الالـــــــــه تطولُ
فهنـــــاك جنـــــة أرضنـــــا موجودة	فيهـــــا ملائكـــــة الالـــــه تميـــــلُ
و بها يقيمون الصلاة لربهم	ورئيسهم وأمـــــامهم جبريـــــلُ

فضحك عند ذلك وقال ان هذا الشعر ركيك ويلزم ان تنظم لنا أحسن منهُ فقلت له غيره حالاً قال أفعل فارتجلت :

ان كـــــــان شعري في المديح خسيساً   فـــــاعـــــذر لأني مـــــادح قسيساً

فأغرب من الضحك وقلت لهُ هل أكمل قصيدتي أجاب كفاني هذا القدر .

(نكتة اخرى معه) عندما نظرته في بيروت وزرته وكان عنده الخوري يوسف العلم فقلت الى الخوري يوسف ان هذا الرئيس هو رجل فاضل عمل كذا وكذا من الأعمال الحسنة في مصر ولذلك اعرفك به فأجاب القس جبرائيل الذي يمزح معي أحياناً وقال يا ابونا اعرفك باشطن واحد عرفته لا يخلي احداً من شر لسانه فالتفت حينئذٍ الى الخوري يوسف وقلت له الصحيح يا ابونا اننا كذابون لا تصدق أحد .

وكان مع القس جبرايل قس اخر اسمه مكاريوس عجلتوني وكان جليلاً بسيط القلب يزورني بعدما خرجت من المدرسة .

ففي أحد الايام اتاني زائراً وكان الوقت بعد الظهر والحر شديد فتعجبت من مجيئه في ذلك الوقت وسألته السبب فأجاب انه كان يدفن ميتاً من طائفة الأرمن الكاثوليك وانه مر على منزلي ليزورني فسألته مازحاً عن الأجرة التي قبضها أجاب انها ليرة فرنساوية فقلت له هذا قدر عظيم فأجاب ببساطة بلغته الطبيعية (هذا بيصلح له) يموت وليس هو نظير النور الذين يموتون ولا يخلفون شيئاً للقسيس .

وكان نظراً لحبه لي يلح علي بالزواج وكنت أرفض طلبهُ مبيناً له ان ليس هذا وقته لأنني كنت خارجاً حديثاً من المدرسة ولست معداً ذاتي له ان كان مالياً او ادبياً ولا اعتمد على مستقبل حسن فأجابني انني أدبر لك ابنة تغنيك عن الدراهم الان قلت له ماذا يكون مقامي عندها اذا كنت محتاجاً لها لأن الامرأة لا تحب زوجها ما لم تكن تعتبره وهي محتاجة اليه وتكون بالعكس اذا احتاجها لانها لا تنتظر ذلك منه قال ان الابنة التي اعرضها عليك لا تفتكر هكذا افكار فقلت لربما تكون في المستقبل سالكة مسلكاً غير حسن فتتعبني فعندئذ أجاب ببساطته المعروفة انْ لم توافقك في المستقبل تبقى في كيسي كأنه ظن الامرأة فرساً يعرضها للشراء فأجبته وانا يا ابونا خائف من كيسك .

وكان في الدير قس اخر اسمه اقليموس احرز شهرة عظيمة في طرد الشياطين وقد كنت في أحد الايام موجوداً بالبطركخانة واذ سمعت بغتة صراخاً قوياً في الكنيسة فنزلت ووجدت الاب اقليموس ماسكاً حذاءه وفي لغته مداسه وهو الأصح لأنه اتى من الدوس بيده ويضرب به رأس جارية سوداء ويقول اخرج منها يا ملعون فما كنت اعرف من أين اتت عادة ضرب المداس لخروج الشياطين فالمسيح والرسل

كانوا يخرجونهم بالصلاة والامر وهذه العادة جديدة يفتكرون فيها كسر كبرياء الشيطان اذا ضرب بالمداس فيتحمق حينئذ ويخرج فيكون الشيطان بهذه الطريقة شريف النفس أحسن كثيراً من جملة بشر يأكلون ضرب المداس ويقولون ضربك شرف (يا سيدي) ثم يستريح ويصلي ويرجع الى العمل ذاته وله جلد عظيم لاجراء هذا العمل فعندما رآني تبسم فقلت له ارجوك ان تخرج الشيطان من هذه الفتاة وتأمره ان يدخل فيَّ قال هذا لا استطيعه لان فيك شيطان أكبر منه ، وكنت متعجباً من جلد الأب اقليموس فخطر ببالي قصة تروي عن أحد المقسمين .

قيل انهم احضروا احد المجانين الى راهب ليقسم عليه وكان هذا بليداً نظير القس اقليموس فأمره بالركوع وأخذ كتاب الانجيل ووضعه على رأسه وابتداء يقول ب . س . م . بسم . ا . لا . ب . الاب فقال له الشيطان ماذا تريد ان تعمل قال له مرادي ان اتلو عليك كل الانجيل بهذه الصفة فقال له الشيطان ها انا خارج ولكن خروجي ليس لقداستك بل لبلادتك . ما أظرف هذا الشيطان وألطفه فانه احسن من اناس كثيرين اذا جلسوا عندك يعطلونك عن اشغالك ولو قرأت الانجيل والتوراة تهجية لا ينصرفون عنك . فالاب اقليموس كان يستعمل هذه الطريقة الاخيرة أكثر من الاولى وكان يعتقد بذاته ان الشياطين يطيعونه لأنه كان يصوم صوماً طويلاً وكان كثيراً ما تهجم عليه المجانون وتضربه وقد كادوا مرة يخنقونه واخيراً توفى فعسى ان لا يكون في مكان تأخذ الشياطين منه ثأرها .

قصة بشارة مع الرئيس محمد علي البقلي

ففي أحد الايام بينما كنا في درس محمد علي واذا بشهيق حمير اسكت المعلم عن الشرح فكلف احدنا بشاره ان ينظر هذه المسألة فخرج ورجع وعندما سأله المعلم عن ذلك أجابه ان سعادة حمارك عندما رأى دابة مصطفى افندي ابتدى بالنهيق فعند ذلك نظر الي الرئيس وقال يا شاكر هل تمنحون الرتب والالقاب في بلادكم الى حميركم فاجبته نعم يا سيدي ولذلك سميناه بشاره افندي فضحك الرئيس وانسر من هذا الجواب .

اعتباري الرياسة

باعتبار الرياسة نجاح الهية قيل لا تسكن بلاداً لا تعتبر رئيسها لانها تكون فالتة بدون نظام ومهما كانت حال الرئيس يلزم له الاكرام والاعتبار لان من علا ورفعته الهيئة الاجتماعية هو كل شيء فالصورة التي يصورها الرسام يرميها في الأرض واحياناً يبصق عليها لأجل صناعتها ويكون لها كل شيء وعندما يرفعوها فوق المذبح ترى ان مصورها ذاته يسجد امامها ويصلي لها ولا يمكنه مسها لأن الهيئة الاجتماعية رفعتها وتكرمها فوالحالة هذه ان الرئيس هو كل شيء لانه حامل النظام والقانون النافع للهيئة فعلى هذا المبدأ

كنت اسير وأكرم جميع اساتذتي أدقق السير على موجب النظام اذ تيقنت ان خروجي عنه يخرج باقي التلامذة وهذا الامر ربما أضرهم فلا احب ان اعلمهم العصيان وكنت افتكر انني اذا خالفت النظام ولم يسألني عن عملي احد اعتاد على مخالفته حتى اذا شاء صاحب النظام مقاصصتي على ذنبي كان قصاصهُ بحق وان عفى عنه كان عفوه كرماً منه وذلاً لي وبأي حالة كانت ليرتاح الانسان في معيشته ويحافظ على شرفه وراحة ضميره يجب عليه ان لا يحيد ابداً عن القانون والنظام وحينئذ يرى الانسان نفسه حراً ليس مذلولاً بذنب او مخالفة فهذه هي الحرية وليس بالخروج عن القوانين لان عقل كل واحد لا يشبه الاخر فيسن كل واحد قانوناً لنفسه فتخرب الهيئة فلذلك لزم ان يتبع القانون العمومي لبلد الذي ترتب حسب احتياج السكان وعوايدهم ومناخ بلادهم وبالاختصار لا توجد راحة الا بطاعة القوانين والرؤساء ولا يلزم ان تلومهم اذا نظرت منهم عملاً تظنهُ خارجاً عن دايرة العدل بحسب فكرك ربما فعلوا ذلك لغاية نافعة لا تدركها لأنك لست من ارباب السياسة لتعرف او تدرك اسرارها فلومك هذا كلومك طبيب جراح يستأصل ورماً مضراً بحياة مريضه فلا تفتكر في العمل الا بالذي تشاهده اي صراخ المريض وسيلان الدم ولكن متى عرفت الغاية التي لأجلها اجرى الجراح هذه العملية تشكره حينئذٍ وهكذا عن بعض عمليات سياسية لا شك يكون فيها نفع العموم ولو ضرت بالافراد ويلزم للحاكم ان يراعي في بعض الظروف أهمية الشخص وقد حدث ان احد شركاء نسيب بك جنبلاط ادعى على ارض بيد نسيب بك انها له وكان ذلك زوراً فعتب الشريك على القاضي بكونه حكم لنسيب بك فقلت له لو كنت انت القاضي وحضرت دعوى بين نسيب بك وشريك له خصوصاً انها كذب الى من تحكم ضحك وسكت علامة الاقناع .

وكان لي رفيق اسمه مصطفى شكري وهو الوحيد الذي كان يطلع على شعري ومعظم نظمي كان يكلفني به وهذا الذي كان يجعلني أنظم واتعب بالنظم لأجل ان اسره وكنت التذ عندما اراه ينشطني ويطلب مني شعراً اذ لا شيء أقوى للشاعر من استحسان سامعه لقوله واعظم شعراء الدنيا كان سبب حبهم القاطع تنشيطهم خصوصاً اذا كان للنساء ضلع به ولكن وااسفاه اين تجد تلك النساء العالمات اللواتي ينشطن العلم والعلماء فاذا فحصت ترى اعظم عالم كانت تنشطه النساء فالنساء الفاضلات وجدن منشطات في كل الفنون والفضائل كالشجاعة وخلافها ولكن لعب القمار لم يبق واحدة لذلك لأنه يحط العقل والفكر الى أدنى من الحيوانات وكنت في ذلك العمر وتلك الظروف شديد الهوس بهذه الاشعار ومن التي قلتها في ذلك الحين هذه القصيدة :

روحي فـــدا من لا ابيح بـــاسمهـــا	أضنت فؤادي من زيـــادة هجرهـــا
فشكوت طول بعـــادهـــا ودلالها	وشكـــايتي منهـــا غـــدت من شكرهـــا
لما رأت سقمي بكت من شفقـــة	واتت تعود عليهـــا في اسرهـــا
لم انسهـــا لما اتت في عيـــدهـــا	عيـــد الصغير فكبرتـــهُ بكبرهـــا
سمح الزمـــان بليلـــة من عمره	فشفى فؤادي ليتـــهُ من عمرهـــا

فيهـــا ظلام قـــد كست أثوابـــهُ ... كبـــد السما في حين غيبـــة بـــدرهـــا
نـــاديتهـــا يـــا منيتي ومنيتي ... في ليلـــة شهـــدت برفعـــة قـــدرهـــا
فتبسمت ورأيت من تبسيمهـــــــــا ... ثوب الظلام ممزقـــــاً من ثغرهـــــا
فخشيت من واشٍ يرى مـــا بيننـــا ... فرقعتـــهُ حـــالاً بظلمـــة شعرهـــا

وقد نظمت قصيدة أخرى عندما سافرت احدى معارفنا بالسكة الحديدية الى المنصورة منها هذه الابيات :

لما مشى الفـــابور وهي بقلبـــه ... وبقلبـي النيران عزّ مثيلهـــــا
سكبت دموعي حسرة وصبـــابـــة ... في مصر حتى فـــاض منهـــا نيلهـــا
فحكى نواحي والبكـــاء هـــديره ... وصفيره للروح كـــان عويلهـــا
أخـــذوا ميـــاه بخـــاره من ادمعي ... واعرتهم نـــار الفؤاد تحيلهـــا

أما الدهر فشيمتهُ الغدر فلا يبقي لذة ولا راحة لأحد ولقد اصيبت تلك المسكينة بالسل قبل زواجها وكان حزن خطيبها عليها عظيماً لانها كانت محبوبة من الجميع نظراً لذكائها ورصانتها وفطنتها وهذه على الغالب صفات المسلولين .

رفاقي الشوام

وكان الحسد زائداً بين رفاقي الشوام كعادتنا في كل محل نوجد فيه ولذلك نرى انهُ اذا تقدم رجل على رفاقه يكثرون من بغضه ويعملون كل شيء لاسقاطه خصوصاً لاننا كنا نختلط مع بعضنا وقد قيل الاختلاط سبب الاختلاف لان قد تتباعد الافكار وتولد الحسد ومتى رفع التكليف حصل الاختلاف فمن رفع التكليف تكلم كل شيء ولربما ان الكلام الذي يسر صاحبك اليوم لا يضحكه غدا اذ لربما كان في ظروف لا تسره لذلك يجب على الانسان مراعاة ظروف الحال مع صديقه كي لا يزعجه ولا يطلق لذاته الحرية التامة لأنها تمنع الاعتبار ومتى قل الاعتبار كثر الكلام وهذا الامر يتمم بين الشخصين مهما كانا متفقين ومن شروط الاتفاق أن يكون الواحد خاضعاً للآخر ولكن متى كان كل منهما مترأساً ومدبراً فسد الصلاح المرغوب وكنا في المدرسة من طوائف مختلفة والحسد مشتد بيننا وصدف في ذلك الزمن ان قسماً كبيراً كان من غير طائفة ومن بلاد اخرى وكنت رئيساً لحزب تان أقل عدداً وكان الحسد متهيجاً عليّ أكثر لأنني كنت أكثرهم علماً وتقدماً وهذا هو السبب الوحيد لتوجيه حسدهم اليّ لان الرجل مهما كان عاقلاً لا بد ان يكون عرضت للحمق من أدنى الاسباب فيكون كالأولاد وكنا في المدرسة نختصم مع بعضنا ولو بلا داع موجب كذلك الانسان يصغر عقله في بيته وقريته فترى انه اذا حدث حادث في قرية

اخرى واهتم اهلوها بذلك تضحك منه لصغره ولكن اذا جرى هذا الحادث نفسه في بلدك تهتم به ذات الاهتمام وهذا ما يقال عن بيت الانسان وقد نظمت في هذا المعنى شعرً :

يزداد عقـــــــــــل الفتى جوهراً	في خــــارج البيت وفي غربتــــه
وينقص العقـــــــــــل بلا شبهة	في داخـــل البيت وفي بلـــدتـــه

ان انقسام بلادنا وأهلها الى طوائف مختلفة هو سبب خصامهم المستمر وحسدهم بعضهم وقد كانت التلامذة العشرة الشوام يومئذٍ من طوائف متعددة وكل منا يذهب وقت العطلة الى بطركخانته وكان وكيلها يقول لجماعته لا تدعو رفاقكم الشوام خيراً منكم وهكذا يوجه افكار التلميذ للحسد من قريبه بحيث انه كان اذا تقدم عليه المصري لا يتأثر من شيء ولكن اذا فاقه رفيقه الشامي يموت غيظاً ولا يكتم غيظهُ بل يعمل اسباباً تدعو للعراك والخصام فمثلنا كمثل رجل صاعدٍ سلماً ورفيقه بعده فاذا كان سوريا فترى الذي أسفل يشد برجل الذي اعلا ليسقطه واذا كان افرنجياً ترى الاعلى يمد يده للأسفل ويرفعه او يعينه على الصعود وهذا سبب تأخرنا وتقدمهم كفانا قصاصاً ما نحن فيه من الانحطاط عنهم .

(غرق المدرسة) انهُ في سنة ١٨٦٩ في شهر آب زاد النيل زيادة هائلة وأخذ الماء بالارتفاع الى المدرسة من نوافذ غرفها الغربية التي تعلو عن ترعة النيل كثيراً فصعدنا الى الطابق العلوي وعندما كنا نريد الخروج من المدرسة كانت تأتي الزوارق الى دار المدرسة فننزل من الدرج الى الزورق وكنا في شهر شعبان الذي نستعد به للفحص الذي اخرناه تلك السنة خمسة عشر يوما لكي يحضره علماء اتوا من اوروبا لأجل تدشين فتح ترعة سويس وقد جرى فحصنا يومئذٍ أمام جماعة من اطباء أوروبا ووزير المعارف في فرنسا وكانت هذه سنتنا الثانية المدرسية .

فتح ترعة السويس

طالما اشغلت هذه المسألة افكار المصريين وحكام مصر منذ نشأتها فقد ذكر التاريخ ان جملة من الفراعنة جربوا فتح هذه الترعة ولم ينجحوا ولكن لكل زمن رجال ولكل دولة اقبال ولكل فلاح وسائط وظروف ولسنا بحاجة لذكر تاريخ هذه التجارب لان التاريخ ذكرها قبلنا غير اننا نذكر مسألة واحدة وهي الصعوبة التي كانوا يتصورونها بفتح هذه الترعة اذ كانوا يزعمون ان البحر الأحمر اعلى من البحر المتوسط ويخشون من اتصال مياه هذين البحرين ان تغرق مصر من جهة البحر المتوسط وبقي شرف فتح هذه الترعة الى زمن الخديوي شعيد باشا الذي ساعد في اجرائها وقد تولى عملها فرديناند دليسبس المهندس الفرنساوي العظيم وبدأ الشغل من جهة البحر المتوسط وهناك بنوا مدينة دعيت بورت سعيد تيمناً باسم سعيد باشا .

ولم يسعد الزمان سعيد باشا لاتمامها بل بقي المجد محفوظاً الى اسماعيل باشا الذي دعيت باسمه مدينة اخرى مبنية في منتصف مسافة الترعة وعندما كانوا يبنون هذه المدينة وجدوا بالقرب منها مدينة قديمة اسمها رعمسيس وهي التي ورد ذكرها في التوراة وان بني اسرائيل كانوا يشتغلونها وهي من أرض جسان .

واذا لاحظت الاعمال العظيمة التي جرت على وجه الأرض تراها محصورة في بلاد العبودية اذ لولا القوة لما ظهرت تلك الاعمال الجسام فالاهرام وترعة السويس لا يمكن وجودهما بغير مصر وقد كان يستحيل نجاح فتح هذه الترعة التي كان مهندسها دليسبس الشهير رغماً عن معارفه السامية وعلومه العالية لولا مساعدة اسماعيل باشا الخديوي له فانه ضيق على الفعلة وقبض عليهم بيد من حديد للحضور الى الشغل كما كايوبس في بناية الاهرام .

فمن اراد ان ينظر فعلة الاهرام فلينظر الى المراكب التي كانت تأتي بهم من كل نواحي مصر وصعيدها آتين في النيل على سقالة واقفين كالاغنام بحيث لم يكن يوجد محل كافٍ ليجلس فيه الرجل والفرق بين باني الاهرام وفاتح ترعة السويس عظيم لأن الاهرام عملت لشخص واضعها واما فاتح ترعة السويس فابقاها للعالم اجمع وقد كلفت نصف ما كلف بناء هرم واحد فكلفت الترعة مايتي مليون فرنك مع ان هرم كيوبس حسب هرودوتس المؤرخ كانت تشغل يومياً ماية الف فاعل مدة خمسين سنة قدر بكم الفاعل مهما قدرت ترى الترعة نصف اكلاف ولهذا فان ذكر اسماعيل باشا سيبقى مخلداً وقد اهتم اهتماماً عظيماً ليجعل يوم تدشين هذه الترعة لا مثيل له وله يذكر التاريخ مثله وكانت العملة لقبض اجرتها من الكومبانية بكل تدقيق ومن اراد الاطلاع على اشغال هذه القناة عليه بكتاب موريس فونتان الذي هو مستوفى شرح ورسومات اشغال القناة لو رسموا باني الاهرام لما حصل فرق البتة في لبسهم وهيئتهم .

(المدعون لتدشين الترعة) اولاً : الامبراطورة أوجني زوجة نابوليون الثالث التي استقبلناها في محطة سكة الحديد ونزلت في سرايا الجيزة وعملوا لها زينة ثلاثة ايام وقبل يوم التدشين ذهبت الى سرايا الاسماعيلية مع المدعوين .

ثانياً : الامبراطور فرانسوا جوزيف امبراطور النمسا والمجر وهو الوحيد الباقي مثل امبراطور من تلك الحفلة واليوم يوبيله ١٩٠٨ ،

ثالثاً : فيكتور عمانوئيل ملك ايطاليا وجد الملك عمانوئيل الثاني الحالي .

رابعاً : ولى عهد انكلترا الذي هو اليوم ادوار السابع ملكها .

خامساً : ولي عهد روسيا اسكندر الثاني والد الامبراطور نقولا الثاني الحالي .

سادساً : فريدريك ولي عهد المانيا ووالد الامبراطور غليوم الثاني الحالي .

سابعاً : معظم اشراف وعلماء اوربا خصوصاً من الفرنساويين وكانت جميع مصاريفهم من حين خروجهم من بيتهم الى حين رجوعهم اليها على حساب الخديوي حيث كان يمكن ان تفتح بهذا المصروف ترعة اخرى .

وقد شاهدت جميع هؤلاء المدعويين من ملوك وخلافهم الذين كان استقبالهم عظيماً وخصوصاً شاهدته في الاوبرا التي عملها الخديوي اسماعيل وكلفت ٣٥ الف ليرة مع لبسها ومشخصيها التي كانت تأخذ الاولى منهن الف ليرة شهرياً وشخصوا فيها اول مرة رواية عايدة التي تشخص زمن الفراعنة وكانت بالايطليانية وكانت ليلة لم يعدها الدهر خلدت ذكر اسماعيل باشا صاحب الدعوة وقد زارت الامبراطورة مدة اقامتها في مصر شجرة العذراء وهي شجرة جميز يقول التقليد ان تحت هذه الشجرة استراحت العايلة المقدسة حين مجيئها لمصر وتوجد في المطرية المسماة قديماً اون الشمالية أقدم من منفس وان العرب بنتها وسمتها اليونان هليوبوليس أي مدينة الشمس وفي سنة ١٩٠٦ سقطت هذه الشجرة ومن المطرية توجهت الامبراطورة لى جبل الجيوشي لأجل رؤية الغابة المتحجرة راكبة حماراً وقبل اليوم المعين للتدشين ذهبت الى الاسماعيلية .

(الاسماعيلية) بني اسماعيل باشا سرايا مخصوصة لأجل يوم التدشين فكان فيها بالو تلك الليلة وبعد فطور الظهر نزلت الامبراطورة أوجيني في وابورها وسارت بالترعة متقدمة الجميع ويتبعها الملوك في وابوراتهم ومن هناك ذهب كل واحد الى مملكته وكان تاريخ التدشين في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ وفي اليوم الحادي والعشرين من الشهر ذاته بدأت الشركة بوضع الرسم عن كل راكب وكل طن عشر فرنكات .

وكانت هذه الحفلة آخر سعادة الامبراطورة اوجيني لانها بينما كانت منهمكة بالافراح اتاها تلغراف من زوجها الامبراطور نابوليون الثالث يطلب به سرعة عودها الى فرنسا وقتئذٍ بدأت التجهيزات الحربية بين فرنسا وبروسيا ولا يخفى ما حدث لهذه الامبراطورة من المصائب بعدئذٍ أهمها نزولها عن العرش بعد انكسار فرنسا وموت زوجها في بلاد غريبة واخيراً قتل ولدها الوحيد في حرب الزولوس وما قاست في عينيها من الامراض بسبب الاحزان والاكدار التي تكبدتها وهي ليست منفية من فرنسا بل يمكنها السكن فيها وقد بلغنا عند كتابتنا هذه الاسطر أي سنة ١٩٠٥ انها حضرت لمصر في طريق بور سعيد وساحت في النيل فعجباً لجرأتها وقساوة قلبها الذي اطاعها على رؤية هذه المحلات التي كانت فيها منذ ٣٥ سنة كآلهة نازلة من السماء وصرت افتكر في حالتها اليوم التي آلت اليها وكل ذلك يعلمنا ما للدهر من الغدر .

امراضي في مصر

في أول المدة التي دخلت بها الى المدرسة أصبت بالدوسنطاريا وهي مرضي المعتاد في عينطورة وبيروت وكان لي طقم افرنجي من الكتان ألبسه مدة الصيف غير اني كلما كنت ارتديه أصاب بهذا المرض فلاحظت ذلك وجربته مراراً فاخيراً اعتقدت في البنطلون عفريت يحرك هذا الداء وبعد ما تقدمت في الطب ووصلت الى درس هذا المرض عرفت ان الرطوبة اعظم اسبابه وعلمت ان البنطلون الكتاني يسبب لي رطوبة كانت داعية لهذا المرض فتحققت من ذلك ان العلم ومعرفة الحقيقة تزيلان الوهم لأن كل شيء نجهله ولا نعرف نواميسه الطبيعية ننسبه الى العفاريت او المردة او لقوة غريبة فائقة الوصف فانه كان حسناً نقول ان ذلك من صلاحنا وان كان مضراً نزعم انه من الشيطان مع انه يكون بريئاً منه كما حصل للراهب الذي كان يشوي بيضا على الشمعة في يوم صوم فعرف به الرئيس وسأله عن عمله فأجاب ان الشيطان جربني فقفز الشيطان من الزاوية وصرخ بوجه الرئيس قائلاً وحياتك يا رئيس ان علمي وفكري دون مهارة هذا الاب .

وكان هذا المرض المتسلط عليّ منذ الصغر قصير المدة اشفى منه حالاً اما المرض الذي اتعبني وطالت مدته فهو :

الالتهاب البلوراوي

اشكر الله اذا اعتراني هذا المرض قبل ان درستهُ اذ لو كنت اصبت به وانا طبيب وعارف اعراضه لكان زاد علي علتي مرضاً آخر اقوى منه وهو مرض الفكر الذي هو أصل الامراض او علة شفائها وأسباب هذا المرض هو دخولي لحمام المدرسة اذ هناك حمام يستحم فيه التلامذة متى ارادوا ففي احد الايام وهو اليوم الثاني لعيد الاضحى دخلت الحمام وفي الغد ذهبنا لحضور الانشاد ومشاهدة الاجتماعات فقضينا النهار سيراً على الاقدام وبعد رجوعي للمدرسة عند المساء اشعرت بتعب وقشعريرة ووجع في جانبي الايسر الزمني لعدم الخروج من المدرسة وبعد مدة اخبرت معلمي حسن افندي عبد الرحمن بحالي وكان مدرس اكلينيك الامراض الباطنة الملكية ومعلم التشريح وكنت يومئذٍ في سنتي الثالثة فبعد فحصي وجد معي انسكاباً في البلورا وكانت حينئذٍ جمعة الآلام عند المسيحيين فبقيت في المستشفى مدة عشرين يوماً وكان يستعمل لي حراريق ودهان مركب من :

صبغة اليود ٤ كرامات ، صبغة الارنيكا كرامين دهان كل يوم مرة .

ثم حبوب من سلفات الكينا ١٥ حبة ، ديجيتالا ٤ حبات ، بصل العنصل ، ٤ تريداس ٤ ، زيبق حلو حبتين تعمل عشر حبات يأخذ منها كل يوم خمسة .

وبعد عشرين يوماً من هذه المعالجة امتص السائل واخبرني الطبيب انه يمكنني الخروج من المستشفى وكنت في مدة وجودي فيه اتعزى نهاراً بزيارة رفاقي وفي الليل افتكر بغربتي وبالحالة التي يصير اليها والدي الذي كنت احبه ويحبني جداً لو اصابني سؤ ولكن فكر الموت لم يكن يخطر لي ببال لأنني لم اكن اشعر بوجع ولا حمى وكنت اجهل اعراض المرض ولكي انسى احزاني واسلي ذاتي كنت أنظم الاشعار والشعر الذي تسلط على افكاري هو الشعر المناسب لحالتي لان الغريب لا يعرف قيمة وطنه ما لم يصبهُ داء الافلاس او المرض وقد نظمت القصيدة الآتي :

ان كـان يـا رب ذنبي موجبـاً اجلي   فليس ذنب لأمي لا ولا لأبي
رفقـاً بحالها وأرحم لاجلها   من لا يهون عليـه ان يموت صبي
أذكر فضائـل اجـدادي الألى سلفوا   افنوا حيـاتهم بـالصوم والتعب
رفقـاً بحالـة اخوان لهم أمـل   بـأن اخفف عنهم وطـأة النكب
ان كـان كلهم في ذنبي اشتركوا   لا شك رحمتكم أقوى من الطلب
اذكر عنـا من فـداني واشترى بشراً   بموتـهِ وهو بين الأرض والسحب
حـاشا لوالـد ابن ان يميت فتىً   لأجلـه مـات ذاك الأبن في الكرب
لولا السماح لما ايقنت عن ثقـة   بـانك الله بـاري المرء من تربِ
مـا من الـهِ والا العفو شيمتـهُ   مـا من عبيـد والا زلّ وهو غبي
ان كـان ربي لم يغفر مخالفتي   فمن يسامح ان خليت بـالأدب
فيـا الهي ويـا زخري ويـا أملي   ويـا رحومي ويـا عوني ويـا اربي
اغفر لمن قـد اتـاكم تـائبـاً وبكم   مؤملاً عفوكم عن كـل مرتكبِ
وقـائلاً مثـل يسوع تشا كرمـاً   ذا الكـأس ابعـد عني رحمـة يـا ابي
ان كـان لا بـد من موتي فروحي خـذْ   واجعـل لها راحـة من بعـد ذا التعب
ان كنت اوجـدتني يـا رب من عـدم   مـا القصد مني فخبرني عن السبب
أن كنت في جنـة عللتني فـانـا   أفضل الوطن المحبوب مـع صحبي
ان كنت اوجـدتني للنـار منتخبـاً   للآن مـا جئت ذنبـاً موجبـاً لهبي
ان كـان قصدك تسبيحي لكم فـأنـا   للآن مـا قلت تسبيحـاً ولم اجب
لان عمري مضى في الـدرس مجتهداً   في البحث عنكم وأنتم مـا ورا الحجب
لا العلم قـد فـادني عنكم ولا بشر   يبـدي بـاثبـات شخص دير منتسب
واذ غـدوت مريضاً لم أجـد احـداً   يفيـدني اليوم من أهلي ومن صحبي
ايقنت ان يـداً أقوى محجبـة   هي الوحيـدة في نشلي من الكرب
فلا تخيب آمـالي بكم ابـداً   فـأنت ربي وحسبي انت مكتسبي

فهذه هي أفكار الغريب المريض وعندما يقال للمريض في عيادته افتقاد الله رحمة يظنون ان الله يفتقد المريض بمرضه والحال عكس ذلك فان المريض يفتقد الله لأنهُ بذلك الوقت يفتكر فيهِ .

اخيراً بعد اقامتي عشرين يوماً في المستشفى طلبت رخصة لانزل الى البلد واغير الهواء مدة ثمانية ايام فسمحوا لي بها وبعد ثمانية ايام رجعت واريت ذاتي لاستاذي حسن افندي فقال لي ان الانكساب قد عاد فافتكرت بان لا بد لي من طلب رخصة للذهاب الى بر الشام فأستأذنت من الرئيس وسمح لي بها وحرر الى ديوان المدارس وهذا خابر نظارة الداخلية فاذنت لي وسافرت وصلت الى بيروت ومنها لدير القمر ومضيت الفرصة في بكاسين التي مناخها سبب شفاءي تماماً بدون أقل معالجة وكان ذلك سنة ١٨٧٠ وعندما كنت أزور والدي في بتدين ورد لنا خبر وفاة خالي حبيب بك ناصيف من جزين .

(اسرة ناصيف) استوطنت اسرة ناصيف في جزين من زمن مديد وأصلها من بلاد جبيل تفرقت في انحاء البلاد فقسم منها سكن جزين ومن نسله جدي والد والدتي المسمى ناصيف الجزيني .

كان ناصيف المذكور حاكماً من قبل الامير بشير قاسم الشهابي على جبل الريحان وكان الامير يحبه جداً لأنه رافقه الى مصر مدة ذهابه الأول وبعد مغادرة الامير بشير من هذه البلاد توفي جدي سنة ١٨٤٢ عن ثلاثة زكور وخمس اناث فالاناث هن حبوبة زوجة خليل طرابلسي ووالدتي نور ومريم زوجة طنوس كرم من جزين ونجمه زوجة الدكتور غالب البعقليني وهدلا زوجة الشيخ زيدان فرام البستاني واما المذكور فهم حبيب بك ناصيف ويوسف بك ناصيف والشيخ أمين ناصيف .

(حبيب بك ناصيف) هو رجل الاقليم الكريم المضياف وكان الأقليم تقريباً بيده لأن المتصرف كان يكلفه قضاء بعض أشغال عمومية وهو الذي انتخب مشايخ الاقليم عند ابتدا سن النظام في جبل لبنان وولد له ولدان ذكران احدهما اسمه فرحات والثاني سليم الذي توفي عزباً وبنات رحيل زوجة عبده ابو زخم وحواء المشهورة بالذكاء واللطف تزوجت عبدالله الخوري مارون من بكاسين الذي سكن جزين ولها منه ولدان نسيب وعزيز اللذان ذهبا الى المكسيك وفتحا محلاً تجارياً ونجحا نجاحاً عظيماً وقد حضرا الى جزين وأظهر أكرم اخلاق وفتح بيت بالحقيقة لها الغناء وقد تزوج احدهما نسيب بك بالسيدة زبيدة كريمة خليل افندي سركيس الشهير والثاني عزيز بك لم يزل عازباً ونهي سلفاً من تكون زوجة له والثالثة دخلت برهبنة مار انطونيوس في جزين ودعيت انجليك وهي رئيسة الراهبات هناك وقد توفت هذه السنة ١٩٠٨ وليا زوجة داود الخوري كرم من جزين .

(فرحات بك ناصيف) ان هذا الرجل كان داهية في السياسة تقلب في أهم المناصب ابتداء خيالاً في القضاء ثم صار ضابطاً وبعده انتخب ثلاث مرات عضواً للادارة في لبنان عن جزين وتوفى بمرض القلب وهو بوظيفته وله ثلاثة أولاد ذكور وهم نجيب بك باشكاتب محكمة جزين سابقاً وهو من المهمين

والثاني حبيب بك وهو طبيب في جزين وله شهرة في الطب ومن المعتبرين في القضا وطبيب قضا جزين سابقاً ورئيس الجمعية الخيرية الجزينية والثالث فيليب بك صيدلي في جزين وله ثلاث بنات هن ادال زوجة يوسف الخوري طانيوس في بعبدا رجل اشتهر بالنزاهة والعلوم وكان رئيس دائرة الحقوق في المركز وتوفي بمرض القلب سنة ١٩٠٣ والثانية مريم زوجة بشاره نمور والثالثة لبيبه تزوجت الياس صبرا .

وقد نظمت قصيدة ارثي بها خالي في ذلك الوقت وهي هذه :

ما بال لبنان مهتز وفي ضجر ... وعيشه بعد صفو صار في كدرِ
والطير في روضه بعد السرور غدا ... بجدلاً عن غصون البان لم يطرِ
والشمس في افقه بعد السناء غدت ... مخسوفة وسناها غير منتشرِ
والناس في ارضه تبكي وقد لبست ... ثوب الحداد بدمع فاض كالمطرِ
يا طود لبنان لم تهتز مضطرباً ... ارفق بحالي وقل لي صادق الخبرِ
ماذا جرى لحبيبي لبيك من نوبٍ ... هل انشبت ظفرها فيه يد القدرِ
أم هل قضى نحبه مستبقياً كدراً ... .نى الزمان ولم يبرح من الفكرِ
ابكيه يا عين يا قلب احترق اسفاً ... افديهِ بالروح بل بالسمع والبصرِ
تبكيك يا خال بيض الهند نائحةً ... تبكيك سمر القنا ما زلت في الحفرِ
الجود والخيل والاقلام قاطبة ... وشهرة الكتب والقرطاس والحبرِ
أصبحت يا قبر مأوى فاضلٍ لسنٍ ... بل حبر ميتٍ ومولود من البشر
رفقاً بحالة من كانت منازله ... ملجأ الضعيف وامن الخائف الحذرِ
أكرم ضيافة من كانت كرامته ... تجري على الضيف جري النوم في البصرِ
يا خال خلفت لي الاحزان عن صغرٍ ... علمت جفني ابتدال النوم بالسهرِ
أصبر القلب مني وهو منكسرٌ ... كيف صبري ونار الغم في اثري
اروم اطفاءها والحزن يضرمها ... والصبر يكتمها عن اعين البشر
الحزن من بعدكم وافى على صغر ... وسوف يبقى معي دهراً الى الكبرِ
لا شيء في الكون عزائي سوى سمعي ... صوت الملائك في الافلاك في السحرِ
وقولهم يا حبيب الله صرت لنا ... فأدخل جناناً بلا خوف ولا حذرِ

وقد سلمت هذه القصيدة الى ولده فرحات وودعته لأن وقت رجوعي الى مصر كان قريباً .

(يوسف بك ناصيف) هذا الرجل من أشجع رجال عصره شاهد كل مواقع لبنان وعندما اتى فؤاد باشا سنة ١٨٦٠ منحه لقب بك وسلمه محافظة الطريق وعين له جملة خيالة تحت ادارته ولما حضر داود باشا كان يعين عساكر لبنان وهو فيها برتبة صاغ قول اغاسي ثم تعين ضابطاً لقضاء جزين وأصيب بالبول

الزلالي وتوفي في الهلالية قرب صيدا وعمره ٤٨ سنة ودفن في دير مار الياس فوق صيدا وتعرف بقناصل انكلترا ولهذا السبب صارت قناصل هذه الدولة تساعد عائلة بيت ناصيف في كل أمورها حتى اليوم وله ذكران وأربع اناث .

(سليم بك ناصيف) ابتدا كاتب تحريرات قائمقامية جزين بسن الرابعة عشر من عمره ثم تعين ضابطاً للقضاء وأنعم عليه بلقب بك ثم نايباً عن الطايفة المارونية في قضاء الشوف ثم عضواً لمجلس الادارة ثم مديراً لجونية ثم مديراً لجبيل وقد نال الرتبة الثانية ونيشان القبر المقدس ومحامي القديس بطرس وخدم الحكومة ٣٤ سنة ابتداءها ١٨٦٨ وأسس الجمعية الخيرية في جزين والان متقاعداً بين أملاكه معتبراً بين أقرانه .

(ملحم بك ناصيف) ابتدأ باشكاتباً لدائرة الجزاء ثم لمحكمة جزين وقد تزوج سيدة نبيلة وهي ابنة عبدالله الخوري املي واخت نسيب بك وعزيز بك وهي التي وصفها امير خبير بالنساء عندما سئل عن أفضلهن فأجاب ان افضلهن من كانت ودوده ولوده ثم صار مديراً في عبيه وبعد شهرين مديراً في بشراي وبعد ثلاثة اشهر مديراً في الزوق وبعد أربعة اشهر رئيساً لمحكمة البترون وبعدها مديراً لدير القمر وكل هذه الوظائف مدة مظفر باشا بحيث ان أحد الاصحاب تقابل مع اخيه سليم بك آتياً الى بيروت فسأله الى اين متوجه فأجابه انني حضرت لافتش على اخي لانني لا اعلم اين مقره لكثرة تنقله ، اما بنات يوسف بك فكبيرتهن آسين تزوجت مرعي رحيم الذي توفي فجأة وكان قد ارسل قبل وفاته احد اولاده من امرأته الاولى المدعو شكري لمحل رحيم في نيويورك فنجح هناك وبعد وفاة مرعي ذهب اولاده عند اخيهم ونجحوا نجاحاً باهراً اما الثانية فهي المازة زوجة الدكتور اسكندر الطرابلسي من مشغره وهي مشهورة بجمالها وقد توفي زوجها سنة ١٩٠٤ بمرض البول الزلالي ودفن في مشغره والثالثة ليزا زوجة الخواجا حبيب الخوري طانيوس كرم والرابعة تدعى ماتيلد تزوجت حبيب الشويري من كفرحونه .

هذه هي عائلة بيت ناصيف في جزين صاحبة السطوة والحزب العظيم عن ابائهم واجدادهم ولم تزل اولادهم مقتفية اثر الجدود أما أمين ناصيف الذي كان شيخ جزين فقد توفي فجأة بعد سنة لوفاة اخيه يوم جنازه في ٧ آب ١٨٧١ لفرط حزنه على اخيه حبيب ولم يخلف عقباً .

نزول كليتي

في أحد الايام بينما كنا نجري عملية جراحية كان يعملها محمد بك فوزي وكان الازدحام عظيماً وبالصدفة كنت واقفاً بعيداً عن العملية ومنحنياً للجهة اليسرى ويدي على جانبي من جهة الخاصرة اليمنى ففي اثناء هذا الوضع وضغط يدي على خاصرتي شعرت بجسم كبير الحجم زلق تحت يدي فوقفت منتصباً واعدت الضغط فلم اشعر بشيء ورجعت لوضعي الأول وضغطت فحسيت بذلك الجسم يزلق تحت يدي فحالاً ذهبت الى غرفتي واستقليت على سريري وصرت اضغط فلا ارى شيئاً وكنت أقف فلا

اشعر بشيء غير اني حين انحرف قليلاً احس به فشغل بالي جداً وصرت اقرا في امراض الكبد وكل مرض كنت اقرأ عنه لا اجد فيه تلك العلامات التي كنت احس بها اخيراً اريت نفسي الى معلمنا حسن افندي عبد الرحمن فقال لا بد ان يكون عندك كيس مائي في الكبد والأوفق البذل فلم اقبل معه ثم اريت ذاتي لسواه وكان الجميع يشخصون لي امراضاً مهلكة كورم الحويصلة المرارية وما اشبه فكنت لذلك مضطرب الفكر جداً لكنني لم أكن اشعر بجسمي ولا بألم ومتى كان المريض بهذه الصفة لا يلتجي الى طبيب لأن الالم والحمى هما رسولاه اما اضطراب الفكر فلم يفارقني وسئمت المعيشة وكنت لما ارى احد رفاقي منشرحاً مسروراً أقول هنيئاً له سيعيش ويطير طبيباً أما انا فسينفتح الورم وينشق البريتون وهلم جرا وبقيت على هذه الحال مدة سنة كاملة ولكن حيث لم يطرأ علي عوارض مكدرة كنت اؤمل خيراً .

وفي ذات يوم اشتريت بعض كتب طبية انكليزية وكنت اقرأها باجتهاد وتمعن ولما وصلت الى امراض الكلي رأيت من جملتها مرض سقوط الكلي ومن جملة اعراضه ورم كحبة اللوبيا يتحرك لجميع الجهات غير مؤلم واذا استلقى المريض على ظهره لا يظهر له اثر واعراضه غير مخيفة ويمكن ان يعيش الانسان وهو مصاب به او يعالجه بحزام لأجل سنده ولا اقدر أصف الفرح الذي شملني عند تحققي ان مرضي غير خطر فاشتريت حالا حزاماً من الفلانلا كنت استعمله حتى سمنت فكان شحمي أقوى من حزامي .

لا شيء يكدر الانسان كيأسه لان الامل حياة الانسان كما قيل

اعلـــل النفس بـــالآمـــال ارقبهـــا   مـــا أضيق العيش لولا فسحـــة الأمـــل

والأمل هو أعظم هبة منحنا اياها الباري لانه مسكن اوجاع المصائب ومقوي ومنشط أضعف جبان وصاحبه يقدم على أعظم الاعمال وبه يحتمل الانسان الاخطار والاضطهاد آملاً بالثواب في حياة اخرى فالسعيد في هذه الحياة من تأمل ولو وهماً .

(رفيقي الشاعر حسن همة) كنا نتبادل بالاشعار وقد كان خطب ابنة وتركها وبعد تركها احبها فتركتهُ فقال :

يـــــــا شاك عزبتي بطول شجوني   واحزن فهـــــــاتيك الظبـي اسروني
هم عرفوني بـــالـــدلال وتـــارة   يـــا جـــاهلين عن الـــدلال سلوني
ان الـــدلال من البـــدور اولى الجما   ل مصيبـــة قـــد زاد منـــهُ جنوني
ومن العجـــائب كنت قبلاً سيـــدا   والان من فرط الجوى سلبوني
بعـــدوا فنشط مزارهم فنـــأيتهم   ودنـــوا فـــزاد تلهفـي وشجـونـي
سلبـوا فؤادي بعـــد سلب فؤادهم   واستعبـــدوني بعـــد مـــا عبـــدوني
يـــا ليتني مـــا كنت شمت جمالهم   وعـــدمت من قبـــل الرنو عيوني

فأجبته على ذلك :

يـــا من شكرت صبــابــة فلمن أنــا اشكو مصابـي في الهوى وشجوني
لله كم لاقيت من ألم الهوى لله دري ودر دمـــــــــــــع عيوني
كم من عـــــــــذول لامني في حبهم فـــــازداد وجـــــدي كلما لاموني
دعـني اذوق المـرّ في حب الظبـــي حتى اعود الى الثرى والطين
احببت ثم هجرت يــــــا حسن فلم تشكـــو لشـاكٍ انهـم هجـرونـي
وغـــدت لواحظهـــا تفتت مهجـــة كـــانت سلتهـــا بعـــد مرّ سنينِ
فـــالحب كـــالسرطـان يــأتي ثـانيــاً من بعـــد مـــا ينقص بـــالسكينِ
فـــــاصبر على جور الاحبــــة مثلما صبروا على جورٍ لكم بـــــــــانينِ
وأذكر اذا تمّ اللقـــــــــاء لعلني احظى بمن خلقوا لفرط جنوني
وانـــــا قتيـــــل جمالهم وهم الألى ادمـوا فـؤادك بعـــد مـــا ادمـوني

ولي غير ذلك عدة قصائد منها قولي له :

يـــا من يعـــذبُ قلبي وهو مـــالكـــه عجبت من مـــالكٍ شيئـــاً يبـــددهُ
انت الوحيـــد الـــذي ملكتـــه كبـــدي مـــا بـــالك اليوم نـــار الهجر توقـــده
وكلما طـــاب جرح من جوارحـــه اسيـــاف لحظكم قـــامت تجدده
انسيتني في هواكم منيتي وطني والان انسيتني طبـــــــــــاً امجده
ومـــا بقى لي من الـــدنيـــا سوى حسنٍ هـــذا نصيبـي وحسبي ان اوحـــده
فـــان اتـــاني حبيب غيره ابـــداً ارى فؤادي لهذا الحب يجحـــــــده
قـــال العـــذول سلوًا في محبتـــه وكيف اسلو وقلبي بـــات يعيـــده
وهمتي في هواه زدتها شغفـــــــاً والصبر من بعـــده أصبحت افقـــده
وهو بتعـــــذيب قلبي زاد همتـــه لله دري فكم سقم اكـــابـــده
ارجـــــع فؤاداً جزاك الله مكرمـــةً الى فقير بقرب منك تسعـــــده

وقد توفي مسلولاً وهو تلميذ ولم تزل صورته عندي من اربعين سنة وهو أحد أولاد معلمنا عبد السميع .

قصة الخروف والطب الشرعي

ان فن الطب الشرعي لمن أجل العلوم وانفعها بحيث أصبحت كل الدعاوي الجنائية ترجع اليه وتتكل عليه اتكالاً عظيماً لكشف حقائقها وهو مؤسس على علوم حقيقية فيرفع النقاب عن الدعاوي الغامضة ولولاه لكان الظلم يقع على ابرياء كثيرين والحادثة التي سأذكرها وشاهدتها تكفي لاظهار فضل هذا الفن ومنافعه وهي القصة الآتية .

رأت الحكومة ضرر ذبح الاغنام امام البيوت في عيد الأضحى فمنعت هذا العمل وامرت ان يكون الذبح محصوراً في المسلخ وفرضت على المخالف جزآء نقدياً وحدث ان رجلاً خالف هذا النظام فقام قبل الفجر وأخذ خروفه الى امام بيت اخر وذبحه في الظلام ثم ذهب الى بيته ليأتي بماء يغسل به الدم وعندما رجع لم ير الخروف بمحله فخرج من العطفة الى الشارع ليفتش على الخروف وكانت السكين لم تزل في يده وعندما وصل الى الشارع صادفته فرقة من الجند كانت مارت من هناك وكانت قد رأت على بعد عشرين متر قتيلاً مضرجاً بدمائه وملقى في الأرض ووجدت هذا الرجل والسكين بيده ملوثة دماً فلم تشك بكونه القاتل وان السكين التي معه هي التي استعملها للقتل فالقوا القبض عليه وابتداء يقسم ليبري ذاته ويذكر قصة ذبحه للخروف ولكن لم يكن من يصدق ذلك اخيراً وصلوه للضابطه حيث يوجد دائماً طبيب فأخبر الرجل قصته للضابط والطبيب الذي أخذ منه السكين وثيابه الملوثة بالدم وارسلها الى مدرسة القصر العيني لفحص الدم بالنظارة المعظمة وقد كنت يومئذٍ من عداد فاحصيه فاخبرنا الاستاذ عن الفرق بين دم الحيوان والانسان وان دم الانسان مكون من كرات حمراء عدسية الشكل مبعوجة من النصف ودم الحيوان على غير هذه الهيئة وأجابت عمدة المدرسة بما رأت وان الدم الذي على السكين هو دم خروف ولا اثر عليها من دم الانسان حينئذ اطلقوا سبيل الرجل بعد ان دفعوه جزاء نقدياً جزاء مخالفته لقانون الذبح .

أما سبب هرب الخروف فهو ان الذابح قطع له الحنجرة فقط ولم يمس الشرايين السباتية التي حول الحنجرة والتي قطعها يسبب الموت اما الحنجرة المقطوعة لوحدها فلا تسببه لان الخروف يمكنه ان يتنفس منها ولذلك عندما ترك الرجل الخروف وذهب ليطلب الماء قام ومشي هارباً وهذه الحادثة تكفي برهاناً على فضل الطب الشرعي في كشف الحوادث الجنائية الغامضة .

الأبوان وكتز المغربي

ان احد الابوين كان معتبراً مهاباً يبلغ الخمسين من عمره وله شهرة عظيمة في مصر وكان صديقاً حميماً للأب الاخر وكانا من أفضل اكليروس مصر في ذلك الوقت بالنسبة لعقولهما الذكية وسيرتهما الحميدة .

ولا شك ان العقل لا يكون مع الشهوات خصوصاً متى كانت الشهوة بغير محلها كحب المال الذي كان عند هذين الابوين فانه اوصلها الى درجة حطت من قدرهما واضاعت كرامتهما وصيرتهما احدوثة بقلة العقل والادراك .

فالسحر الحقيقي هو القوة التي تغير الانسان من فكر الى آخر ومن عمل الى سواه وتجعل المسحور طوع ارادة الساحر ولو كان أقل منه معرفة وجاهاً ومقاماً فأي ساحر يفعل ما عمله المغربي مع هذين الابوين الجليلين وكيلي البطاركة ومستلمي الدين فالحادثة الآتية تثبت ما قلناه .

كان أحدهما يتردد على امرأة متقدمة في السن كان له بها ثقة تامة فهذه الامرأة كانت تعرف رجلاً مغربياً تداخل معها وزعم ان في خرابة البيت الذي يجاورها كنز عظيم وانه يستطيع استخراجه بفك الرصد عنه وهذا العمل يقوم بوضع البخور وتلاوة بعض قطع واستحضار اشياء معلومة وزهيدة الثمن لا تكلف خمسمائة غرشاً ولكثرة ما كرر عليها هذه المسألة اعتقدت بصحة قوله وتحققت وجود الكنز واخيراً أخبرت الاب فطلب المغربي وسأله عن حقيقة ما زعمه للامرأة فأكد له قوله وطلب منه ان يذهب معه ليريه بعد منتصف الليل الكنز الذي ينكره وهو عبارة عن اواني مملوءة تبراً الذي هو مسحوق الذهب واعاد عليه قوله بان هذا الاستخراج لا يكلف أكثر من خمسماية غرشاً .

فعندما سمع الاب كلام المغربي وعرف ان المصروف زهيد لا يهم ولو أدى به الامر الى خسارته خصوصاً وقد كان بمخاطرته بهذا القدر يؤمل الاكتشاف على كنز عظيم فأخيراً اتفق مع المغربي ان يذهبا سوية في الليل وبعد ان دفع له خمسمائة غرشاً اتفقا على يوم وساعة يجريان فيها هذا العمل العظيم وفي اليوم المعين ذهبا الى الخرابة (وانا اعرفها وهي واقعة في درب الجنينة) واخذا معهما الاب الاخر الذي كان اخبره الاب كل شيء فابتدأ المغربي يطلسم ويحرق ويعمل حركات خفية لأن الظلام كان يستره وبقوا على هذه الحال الى الصباح ولم يظهر لهم شيء وأعادوا عملهم في اليوم الثاني والثالث الى العاشر فحضر المغربي في احدى الزوايا واخرج تسع جرات تسع الواحدة نحو اثنتي عشر اقة محكمة السد ثقيلة الحمل وقال لهما انهُ لا يجوز تفريغها ولا مسها الا بعد استخراج الكنز كله الذي هو عبارة عن الف جرة نظير هذه وانه يمكنهما لأجل الامتحان ان يأخذا من كل جرة كمية قليلة ويريانها للصاغة لمعرفة الحقيقة وفتحوا الجرات فأخذ المغربي كمية قليلة من كل واحدة ثم ختمها وأخذوا ما استخرجوه الى صائغ قرر لهم بعد فحصه انه من الذهب الصافي . فجن الكاهنان عند ذلك من الفرح وصدقا قول المغربي ووضعا الاواني المملوءة ذهباً في قبو بحارة الست وكتما الامر حتى يتم استخراج الكنز .

وكان المغربي يأخذ منهما كل مدة مبلغاً من الدراهم لكشف الكنز واستمرت هذه حالهم مدة سنة كان يخرج لهما كل شهرين ثلاث أو اربع جرات وكان الأب قد صرف في هذه المدة نحو خمسة الاف ليرا كان سلمه اياها احد التجار لتبقى وديعه عنده وكذلك أخذ من الأب الثاني مبلغاً استدانه على حساب

الوقف ولما طال بهما الامر الحا على المغربي بأن يخرج لهما باقي الكنز لوفاء دينهما فوعدهما وكلفهما ان يصبرا شهراً ثانياً وبعد هذه المدة فتشا على المغربي في مصر ونواحيها فلم يجداه ولما يئسا منه توجها الى القبو وفتحا الجرار المستخرجة من الكنز فلم يجدا فيها سوى تراب لان المغربي كان قد وضع برادة الذهب على وجه التراب الذي كان في الجرار العشر المستخرجة اولاً وفحصها الصائغ وقرر انها ذهب صافٍ.

افتكر بحالة الابوين حينئذٍ لا شك ان كل منهما نتف لحية الاخر وما بقي عن رفيقه أكملها بيده وكانت حالهما مزعجة خصوصاً حين ظهر السر للعموم وطالب اصحاب الديون بمالهم وحين علمت بطاركتهما بذلك عزلتهما واخرجتهما من مصر وعرفت منهما الاب الأول الذي أصيب بفالج وقد شاهدته سنة ١٨٨٤ وتوفى بعد ذلك.

أما الاب الثاني فحصلت له سكتة مخية توفى بها وقد اخبرني عنه ابن اخيه الذي حضر الي من دير الزور سنة ١٨٩٨ لأجل معالجة عينيه.

عفاريت مصر

لا أعلم سبب كثرة اعتقاد المصريين بالعفاريت والاغرب ان تلامذة الطب يعتقدون بهم مع انهم متعلمون ومتفقهون والحادثة الاتية التي جرت لرفيقي علي افندي رسمي تثبت هذا الاعتقاد عندهم وقد سميت هذه الحادثة:

(عفريت رسمي) حدث لي مع علي رسمي احد رفاقي اللطفاء الظرفاء ما يأتي:

وهو انه في أحد الايام كنت طلبت رخصة لأبقى في محل النوم الذي كان يقفل مدة النهار ولا يفتح الا الظهر لمناولة التلميذ طعامه والساعة الثانية عربية ليلاً لدخول التلامذة الى النوم وفي المساء كنت بالعنبر الذي على النيل وكان له كشك من الخشب يسع فراشين وهو احسن محل في المدرسة لأنه يكشف على النيل والمنيل وكان الليل قد ارخى سدوله وحيث كنت لوحدي استلقيت على الفراش وفيما أنا على هذه الحال سمعت صوتاً على الباب يقول خش (أي أدخل) فأجابه الثاني انني اخاف من العفاريت قال الأول لا تخف فأنا واقف لك على الباب فدخل الثاني وتأملته فاذا هو علي رسمي ورفيقه الذي بقي قرب الباب هو محمد فريد وكان مرادهما الذهاب تلك الليلة الى المدينة فأتى علي ليغير ثيابه وعندما وصل الى فراشه وخلع ثيابه ليلبس ملابسه النظيفة وكنت ناظره فوقفت على السرير ولقيت الأرض بضجة فحين رأى علي الشبح وكنت لابساً قميص نوم وسمع تلك الضجة صرخ عفريت وترك ثيابه وخرج اما رفيقه الذي كان معتمداً على مساعدته ضد العفريت فكان اسرع منه عدواً وهرب قبل رفيقه حتى وصلا الى الطابق الأسفل حيث التلامذة والخدم اما انا فأسرعت واتيت الى غرفة الشوام وعند وصولي سمعت ضجة عظيمة

في المدرسة ورأيت الخدم حاملين المصابيح فصعدت مع التلامذة الى محل الحادثة واختلطت معهم لأرى ماذا تكون النتيجة وكان علي رسمي قائد الجيش وهو عارٍ فدخلوا المحل وفتشوه فلم يجدوا اثراً للعفريت عندئذٍ ابتداء علي يخبرهم أوصاف العفريت ويقول لهم كان رأسه في السقف ورجلاه في الأرض وعيناه تقدحان ناراً هبطَ بضجة عظيمة واراد ان يتبعني لو لم اسرع بالهرب وكان يؤكد لهم كل التأكيد ان صورة العفريت كانت مخيفة جداً مع انهُ لم ير له صورة وقد هرب لمجرد سماعه الضجة وكنت حين اسمع قوله اهزاء عليه سراً وفي اليوم الثاني رأيت علي رسمي واخبرته انني انا العفريت الذي رآه بالامس واعدت عليه القصة من أولها لآخرها وحديثه مع محمد فريد قبل دخول محل النوم مع ذلك لم يصدقني ونسب لي الكفر لعدم اعتقادي بالعفاريت .

(عفريت المشرحة) يعتقد التلامذة المصريون ان لكل ميت عفريت وحيث ان المشرحة محل الموتى فكانت ملأى بالعفاريت وما كان يدخلها ليلاً الا الكافر .

وقد قلت انه في شهر شعبان قبل الفحص تعطي لنا حرية الدرس فيجتمع كل اربعة او خمسة سوية ويختارون لهم محلاً للدرس وحيث انني كنت استعد لدرس التشريح فرأيت ان أكون في المشرحة حتى اذا اغمض على شيء من الكتاب ارى امامي القطع التشريحية او الميت ذاته ولما رآني بعض التلامذة اتخذت هذا المحل لدرس اطمأن قلبهم وصاروا يأتون الى المشرحة ويدرسون اما كيفية درسهم فكانت تقلقني لانني كنت احب العزلة لذلك الم ار واسطة لابعادهم الا تخويفهم من العفاريت وهاك الطريقة التي عملتها كنت أخذ معي قليلاً من البلح فأكله وابقي النوى فارميها من اعلى فتسقط عليهم وقبل سقوطها كنت أصرخ من الذي يرمني بالبلح والنوى فيقولون ونحن ايضاً وكررت هذا العمل جملة مرات ثم اجتمعنا وتشاورنا بالامر فحكمت ان هذا الامر من صنع العفاريت وصادقوا على حكمي وبالحقيقة انه عمل عفريت ولكن غير الذي يعتقدون وغير عفريت الموتى وقر القرار على ترك المحل فتركته معهم مدة يومين ثم أخذت المفتاح من الخادم ورجعت أدرس وحدي في المشرحة وشكرت حينئذ العفاريت التي اراحتني من ضجة العفاريت .

(حركة الميت) في احدى الليالي بينما انا مستلقٍ على سجادتي وأمام كتبي والضوء رفعت رأسي لاشعل سيكارتي فوقع نظري على ميت كان في المشرحة ورأيته يحرك رأسه فاضطربت وافتكرت ان حركة النظارات ارتني هذا الأمر فثبت نظري وأحدقت بالميت وبعد مدة شاهدت الحركة ذاتها فتوجهت لقربه لأرى هذا الأمر واتحققه واذا بفارة كانت تنهش اذن الميت وتهز رأسه هربت حين قربي فهذه المشاهدة كانت هائلة جداً لمن يعتقد بالعفاريت ولكن عدم اعتقادي بهم جرأني ان اتقدم الى الميت لأرى سبب حركة رأسه وبالحقيقة ان الانسان هو ما يعتقد .

بعض اشعاري في مصر

وقد كنت في هذا السن أكثر النظم بلا غزال وكنت أحب الشعر وأنظمه عن لسان غيري وكلما كلفني صديق بموضوع كنت أنظمه له ومن جملة ما تغزلت به القصيدة الآتية واحسبها جيدة لأن الشاعر يأخذ من كل العلوم وشرطهُ معرفة كل شيء لأن كل تصور خاضع لهُ وجعلت في هذه القصيدة تصوراتي بالسوائل الحيوية وهي الدم الوريدي والدم الشرياني فالدم الوريدي يكون اسوداً والشرياني احمراً وكذلك الصفراء والليمفاء التي تكون بيضاء والكيلوس الذي هو هضم المأكولات يكون أبيض وبهذه الكيفية تتكون في سوائل الانسان الالوان السوداء والحمراء والبيضاء والصفراء وبها تتم الحياة فأنظر تصوري في ذلك .

يا معشر العشاق من بعدي انقلوا ... وتحدثوا بصبابتي وبنودها

وتعلموا مني المودة واحفظوا ... فأنا الامام لامها وجدودها

ان المليحة مريما قد قيدت ... قلبي وقد ابقته ضمن حدودها

وغدوت أبكي بالدموع فما ارتضت ... ماء الدموع بل ارتضت بصديدها

فهي التي منها حياتي كلها ... اضنت فؤادي من عظيم صدورها

مرضي عضال من مريض جفونها ... ودواي موجود بضم نهودها

فهي التي منها أصول معيشتي ... وأصول تعذيبي برمح قدودها

كتبت كتاب السحر في قلبي الذي ... صادتهُ اذ جعلته ضمن قيودها

واستعملت قلماً سيوف جفونها ... وسواد عينيها مداد بريدها

وتلفتت نحو الشمال بدهشة ... كي ترقب الواشين بعد حسودها

من خوفها عند الكتابة بغتةً ... للحبر مرت نقطة بخدودها

لست لحمرتها فأحمرت كما ... اخذت بياضاً من محاسن جيدها

فرأت يراقبها الحسود بفعلها ... فاصفرت الوجنات عند شهودها

فباتت لقلبي بعد ألوان لها ... محمرة مسودة كعبيدها

مبيضة مصفرة من خوفها ... فكأنها في لبس ليلة عيدها

فتكونت منها حياتي كلها ... فسوادها أضحى دماء وريدها

وكذاك حمرتها دماً شريانها ... وبياضها للنيفا حين نفودها

وكذاك للكيلوس بعض بياضها ... وصفارها من صفرة بكبودها

هذي حياتي كلها من نقطة ... من سحر جفنيها ولون ورودها

كيف التباعد عن هواها ساعة ... وهي التي للروح فخر وجودها

وقد كتبت ما يأتي الى أحد الاصحاب :

هـــذا الكتـــاب بيـــاضه من مقلتي   من ذوب قلبي قـــد جعلت سواده
يمشي على قـــدم الحيـــا يبغي الرضا   منكم وقـــد جعـــل النسيم جواده
زودتـــه فكري لـــذلك مـــا ارتضى   بـــل انـــهُ أخـــذ الحشاشة زاده
ولقـــد اضاع بهجركم آمـــالـــه   ورقـــاده ودموعـــه وفؤاده

وقد كنت مودعاً عند أصحابي المسافرين امانة فعندما رأيت حزم الاحمال وتزويد الماء نظمت ما يأتي :

قفي قبـــل الفراق وزودينـــا   بنظرة مقلـــة تشفي العليلا
فعيني لن ترى ابـــداً جمالاً   لهذا الوجـــه او طرفـــاً كحيلا
خـــذي شريـــان قلبي أو وريـــدي   كـــأحبـــال بها زمي الحمولا
وان خليت عن بيت لسهوٍ   فقلبي قـــد يكون لك الـــدليلا
خـــذي مـــاء الـــدموع بـــديـــل مـــاء   عساه يغسل الخـــد الاسيلا
ولا تخشي نفـــاذ الماء منهـــا   فعيني تـــذرف الامواه نيلا
ولا تنسي اليفـــاً ذاب شوقـــاً   اذا طـــال النوى يمسي قتيلا

وقلت في مليحة اسمها هانم :

ان التي سلبت عقلي محاسنها   قـــد بحت في اسمهـــا قصدي أكرمهـــا
حـــاكت حروف اسمهـــا بـــالحسن صورتها   ايـــاك يـــا عـــاذلي بـــاللوم تظلمهـــا
فـــالهاء نهد لها والهمز قـــامتهـــا   والنون حـــاجبهـــا والميم مبسمهـــا

وقلت في مريم :

اهـديـك قلبـا محـرقـاً ومحـرجـاً   ومخضبـــاً من سهم لحظك بـــالـــدمـــا
لـو شرحـوه وجـــدت مكتوبـــاً على   جـــدرانـــه هـــذي الـــديـــار لمريما

وكان لي ديوان في الشعر سميته ديواني المصري كان كله على هذه الحالة حسب السن بالغزل بدون غزال فالحمد لله فانه كان يلهيني عن الكر من ورى الغزال فانتخبت منه هذه الأشعار والباقي تركته لأن لا أهمية له فهو خلاف شعري الآني الذي أقدر أقول انه مني لا مستعار عن أفكار غيري واذا لامني أحد لهذه الأشعار فليلم سن العشرين ولا يحاكمني عن الستين الآن .

زواج أولاد الخديوي اسماعيل باشا

اولهم ولي العهد توفيق باشا .

كانت تزين مصر عموماً مدة ثلاثة ايام لكل عرس اما مركز الافراح فقد كان في قصر والده اسماعيل باشا وهو القصر العالي الكائن شمالي مدرستنا وهو أعظم القصور مركزاً .

ان هذا القصر الموجود على النيل وشرقيه كان ممتداً الى مسافة ربع ساعة شمالاً وجنوباً وهو عبارة عن جملة قصور داخل بعضها ببعض ولا يدخله احد من الرجال سوى الاطباء وقد دخلته مرتين مثل طبيب نوبتجي فادخلوني اولاً عند خليل اغا رئيس اغوات القصر الذي كانت ترتعش منه فرائص كل ذوات مصر لانه كان أكبر الجميع وعندما دخلت عليه طرحت السلام فامرني بالجلوس لانهُ كان يداري الاطباء كثيراً ثم امر ان يعدوا لي طريقاً اعني ان يجعلوا النساء في حجرهن لبينما امرّ .

كانت قطعة الأرض الشرقية الجنوبية التي شرقي القصر متسعة جداً صونوها بالاخشاب وجعلوا لها أربعة ابواب كبيرة في كل جهة باب وفوق كل باب كشك تقف فيه الموسيقى العسكرية وداخل الفسحة كانت الصواوين في كل جانب وفي وسطها كشك تجلس فيه العوالم والمغنيات وكانت الناس تجتمع حول المغنيات والموسيقى والمراقص الافرنجية تقام داخل القصر وكانت جميع هذه المحلات مزدانة بالشموع بعلو ثلاثة اذرع موضوعة بفوانيس ملونة لا تقل عن خمسمائة الف شمعة داخل القصر وخارجه وكانت هذه الفوانيس معلقة على تخشيبات موضوعة كالصفوف وفي كل صيوان دائرة من دوائر الحكومة لها خدم وقهوة وتحت الاتية كانت تدخل من خيمة الى اخرى وفي داخل القصر كانت مقامة زينة للنساء نظير هذه ومغنيتهن المز الشهيرة بحيث ان جميع المغنيات والالاتية والمطربين من عرب واتراك وافرنج كانوا موجودين في هذا الاحتفال الذي كان مرتباً كما يأتي :

(لعب السكاكين) كان يجري في محل مبني بالاخشاب وكيفية اجرائه كما يأتي :

يتجه الواحد نحو الحائط ويمد عليه يديه كالمصلوب ويفتح اصابعه أما الثاني فكان يقف بعيداً عنه مسافة بعض أمتار ويأخذ سكيناً طولها عشرة او خمسة عشر سانتي ويضرب فيها الرجل الواقف أمامه فتغرز السكين بجانبه في الحائط ويثابر على عمله حتى يخرج الرجل الواقف عند الحائط ورسمه عليه بالسكاكين من الرأس حتى القدم وما بين الاصابع وهذا المنظر المخيف كان يرجف قلوبنا وعند كل ضربة سكين كنا نظن انها ستصيب الرجل فنضطرب وحتى الظهر تجري العاب جمناستيك أو سواها .

وبعد الظهر يبتدي العاب البهلوان العربي والافرنجي فيقف الواحد على حبل معلق في الفضاء ويذبح خروفاً ويجلس على الحبل وقبل المساء بساعتين تقريباً يبدأون الأكل الذي يقدمونه لكل الحضور في صاليا متسع لأولاد العرب والاتراك وكان يوجد في هذا المحل ثلاثة صفوف من الصدورة وفي كل صف خمسين صدراً يسع كل صدر عشرة رجال فتأكل الفئة الاولى وتقوم ثم الثانية والثالثة وهكذا الى الساعة الثانية عربية وكان في كل صدر عشرة اشكال من الطعام وخروف محشي ويقدمون لكل فئة طعاماً جديداً .

وأما الافرنج فكانت تقدم لهم مائدة مخصوصة على طريقتهم مع المشروبات وعند الساعة الثانية عربية ليلاً تبدأ المغنيات والموسيقات بالعزف من كل ناحية وكيف ذهب المتفرج كان يرى شيئاً جديداً .

في الساعة الرابعة ليلاً كان يحضر الخديوي ويزور القصر العالي ويدخل بين هذه الجماهير بعجلته فعند ذلك تبتدي تعزف الموسيقات العسكرية والبلدية والمغنيات والشيخ أحمد يعزفون بالسلام الخديوي فيفتكر السامع ان الارض تهتز به وأنهُ في غير عالم الوجود وكنت اتخيل ان لو احضر فلاحاً لبنانياً وهو نائم ووضعناه فجأة في ذلك المكان فلا شك انه كان يظن ذاته في الجنة او انه يجن لأن هذه الافراح لم ترها عين ولم تسمع بمثلها اذن وكانت تدوم ثلاثة ايام لكل عرس فان الخديوي زوّج اولاده الذكور الثلاثة وهم توفيق وحسن وحسين وابنته تفيدا هانم وبقيت الافراح متواصلة مدة اثنتي عشر يوماً ومصر قائمة قاعدة .

وبينما كانت المغنية المزترف تفيدا هانم التي كانت مكللة بأكليل ملوكي من الجواهر مع باقي الحريم اللواتي كنَّ مزدانات ومزينات بأفخر الجواهر فكانت الانوار تعكس اشعتها على هذه الجواهر وتحيلها الى ألوان مختلفة تخطف البصر دخلت الخصيان يصرخون اخرجن حالاً لأن الجسر قد انقطع فصارت النساء تتراكض ويسقطن فوق بعضهن وكان الالماس يتساقط كالبرد غير انهُ بحمد الله لم يحدث ادنى ضرر .

النتيجة ان هذه الافراح كلفت مصر نحو مليون من الليرات وكان هذا من جملة الشكاوي عن تبذير اسماعيل باشا مع هذا كله فهو الذي جعل مصر بلاداً اوروباوية وحبب فيها المتمدنين من اقاصي الأرض .

سياحتي الأولى في النيل

لهذه السياحة طريقتان في ذلك الوقت اما بالذهبيات او بالمراكب البخارية النيلية اذ لم تكن سكة حديد الى هناك .

(المراكب البخارية) تسمى قومبانية هذه المراكب الكومبانية الخديوية كانت تقبل السياح على الشروط الآتية وهي ان مدة السياحة تكون واحد وعشرين يوماً ويدفع كل مسافر ليرتين انكليزيتين يومياً

ويقدمون لهم المأكل وترجماناً ودواب للبر والنبيذ المعتاد ما عدا المشروبات التي فوق العادة وطبيباً وقد اتفقت الكومبانية مع المدرسة على ارسال تلميذ من الصف الأول حتى لا يتعطل الطبيب عن وظيفته .

وكل من كان يتوجه لهذه المأمورية كان يسر جداً وأغلب الذين يسافرون من الشوام لأنهم يعرفون اللغات الاوروباوية وعندما كنت اسمع عن هذه السياحة اتشوق لها وابتدأت افتكر بها واستعد لها وكنت في سنتي الثالثة ومدة السياحة كانت في شهر رمضان وهو شهر العطلة اخيراً اخبرت كاتب الرئاسة أحمد افندي القديم وطلبت منه ان يقدمني لهذه المأمورية لأنني اعرف اللغة الفرنساوية وقليلاً من الانكليزية وليس في الصفوف التي قبلي من الطلبة من يعرف لغة اوروباوية .

وبعد يومين طلبت الكومبانية تلميذاً فأخبرني حينئذٍ احمد افندي بذلك وذهبنا سوية الى بيت الرئيس الذي كان يومئذٍ حسن بك هاشم فأخبره احمد افندي عن العادة بهذا المطلب لأنه كان حديثاً بهذا المنصب وقال له لا يوجد احد سوى شاكر يعرف اللغة الفرنساوية وبسبب الفرصة لا يوجد تلامذة من الصفوف العليا فاعطاني أمراً بالتوجه وتحريراً الى مدير الكومبانية الخديوية شعبان بك فذهبت اليه وأخذت معي صندوق الادوية فاعطاني غرفة في الوابور الذي كان مزمعاً ان يسافر عصاري ذلك اليوم ولا اقدر وصف الفرح الذي شملني لنوالي هذه الأمنية التي لولا تيقظي وافتكاري بها لما نلتها .

في ٣٠ رمضان سنة ١٢٨٨ هجرية الموافق ١٢ كانون أول سنة ١٨٧١ مسيحية توجهنا صحبة الوابور المسمى بنها وكان برفقتي ١٢ سائحاً ٤ انكليز و امريكان وشخص فرنساوي وآخر روسي وواحد نمساوي والاخير سويسري وكنا نتكلم اللغة الانكليزية لأن الكل كانوا يعرفونها سوى السائح الفرنساوي . وكان توجهنا من بولاق الى بني سويف وهي المحطة الاولى ولا أذكر هنا تاريخ هذه البلاد القديمة لأن كثيرين غيري قد سبقوني الى ذلك غير أني أذكر ما صادفته خصوصاً وما اثر عليّ محطات الطريق اول محطة كانت بني سويف ثم المينا واسيوط وجرجا وقنا ودندرا المشهور فيها دايرة البروج المرسوم في هيكلها ثم الاقصر وزرنا رمسيوم او الصنم الرنان وكذلك مامنون صنم رعمسيس الثاني الذي سقط بسبب زلزلة طوله ٢٦ متر وزنه مليون كيلوغرام وطوله من رجله الى ركبته ستة أمتار وقدمه متران من حجر الكرانيت ثم زرنا الكرنك ثم قبور الملوك ثم اسنا ثم اصوان وهناك أول شلال واخيراً قصر أنس الوجود وهناك شاهدنا اولاد البرابرة لأنها أول بلادهم .

(اولاد البرابرة) عندما وصلنا الى الشاطي اتت قوارب لتأخذنا الى الجزيرة وكانت اولاد البرابرة يسبحون حولنا في النيل بايديهم وارجلهم وتحت بطونهم قطع من النخل ليعوموا بواسطتها وكان أكبرهم لا يتجاوز السنة العاشرة من عمره وهم يطلبون البخشيش اخيراً وصلنا الى الجزيرة التي تقسم النيل الى قسمين شرقي وغربي وهي مثل المنيل ممتلئة من البناء وفيها محل مسقوف للآن وفي كتابة تدل ان عساكر نابوليون الاول لحقت المماليك الى هناك وكذلك كتابة من احد الرهبان الفرنسيسكان وكانت هذه الجزيرة هيكل

قديم اقامته كليوباطرة فأكلنا في الجزيرة وبعد الطعام ذهبنا للجهة الغربية على شاطيء النيل فتبعنا اولاد البرابرة وطلب أحدهم منا بخشيشاً وانه مقابل ذلك ينزل في الشلال بين الصخور سايحاً فاجبنا الى طلبه وكانت المياه ترفعه الى الاعلى وتهبط به بين هذه الصخور وكنا نظن في كل هبوط ان الصخور ستمزقه واخيراً خرج ظافراً حاملاً قطعة النخل التي كان يسبح عليها وطلب البخشيش ثم رجعنا الى اصوان وبتنا تلك الليلة في الوابور واعتمدنا على العود الى مصر وكنا ليلة رأس السنة أمام اسيوط فبقينا سهرانين الى منتصف الليل وأمامنا الساعة والمشروبات والبنادق والمسدسات وعند الساعة الثانية عشرة صرخنا جميعاً بصوت واحد (بون انه) اي سنة مباركة وابتدأنا باطلاق البنادق والمسدسات والشرب وأكل الفاكهة وكان ذلك ابتداء عام سنة ١٨٧٢ ثم أخذنا بنزول النيل الى مصر .

في عصارى اليوم الثاني من شهر كانون الثاني سنة ١٨٧٢ وصلنا الى مصر فاستقبلنا شعبان بك رئيس القومبانية وشكر له السياح حسن معاملتي لهم وقالوا انني لم ارافقهم بصفة طبيب فقط بل كمعلم أفهمنا عن احوال البلاد،وتاريخها وبعد ذلك ودعناهم وذهبوا بحال سبيلهم فأخذني شعبان بك الى غرفته وقال لي يلزم ان ترجع للوابور المسافر غداً صحبة اسرة اميركانية معتبرة وغنية جداً استأجرت الوابور على حسابها الخاص فطلبنا طبيباً من المدرسة وأرسلوا لنا شخصاً يجهل اللغات الاورباوية فقدمته للسائح ورفضه لجهله وحتى الان لم نزل حيارى بهذا الأمر والحمدلله لقدومك تعال لأقدمك الى هذا السائح فتوجهت معه وكلمت السائح باللغة الافرنسية واخبرته انني قادم من سياحتي الاولى فسر بي وقال مخاطباً شعبان بك عن طيبة خاطر أقبل هذا الطبيب لأنني افهم عليه ما يقوله خصوصاً وقد خبر كل أماكن السياحة وبعد خروجنا من عنده كلفني شعبان بك ان استعد للسفر يوم غد فقلت له ان ذلك منوط بالرئيس ولا استطيع أن أجزم شيئاً بلا أمره أجابني ان هذا الأمر ليس من شأنك ولا نهتم فالمصلحة تخابره رسمياً بطلبك فسافرت في اليوم الثاني وقبل السفر بخمس دقايق أخبر شعبان بك التلميذ المرسل من قبل الرئيس أولاً لأنه كان من أقاربه انه لجهله لغة السايح لا يمكن سفره بل انا توجهت عوضاً عنه فبلا شك لا يرجع شاكراً .

سياحتي الثانية في النيل مع عائلة روزفلت الاميركانية

وهي عائلة رئيس مشيخة الولايات لمتحدة حالياً سنة ١٩٠٨

كان خروجنا من مصر في ٣ كانون الثاني سنة ١٨٧٣ فاتبعنا في سياحتنا الخطة الأولى زهذه العائلة مؤلفة كما يأتي :

اولاً : مدام روزفلت والدة — Mme Roosevelt mère

ثانياً : كرنيليوس روزفلت ابنها الكبير — Mr Cornéluis Roosevelt

ثالثاً : فرنك روزفلت ابنها الثاني	Mr Frank Roosevelt
رابعاً : ج واست روزفلت ابنها الثالث	Mr G. West Roosevelt
خامساً : مس ليلي ماتشل من بروكلين	Miss Lilla Mitchel Broklyn
سادساً : مس الا روسل من نيويورك	Miss Ella E. Russel New-york
سابعاً : مس سارلويس فيلادلفيا	Miss Sarah Louis Philadelphia
ثامناً : مس ماري جان وتس ايرلاندية خادمة	Miss Marie Yean Watts
تاسعاً : احمد عبدالله ترجمان مصري	Ahmed Abdala Drogman
عاشراً : علي أبو خضرا خادم مصري	Abou Kadra Domestique

كرنيليوس روزفلت

هو رئيس السفر عمره ٢١ سنة سمين الجسم ذو لحية شقراء وكان يلبس الطربوش مدة السفر لطيف المعاشرة كريم النفس وكنت أقضي أغلب اوقاتي معهُ لان اخوته كانوا صغاراً وكان مع أحدهم أطلس تشريح أدرسه فيه مدة السفر .

التقاؤنا في وابور ثان بالنيل

بينا نحن راجعون في النيل قبل وصولنا الى المينا التقينا بوابور فيه سياح كان مسافراً مثلنا فحين رأى القبطان ذلك الوابور وقف فتوقف الوابور الثاني حالاً ونزلت اليه فوجدت طبيبه محمد فريد وسألته عن احوال المدرسة أجابني ان حسن بك هاشم الرئيس مستعد لك استعداداً عظيماً ولا أعلم ماذا ينوي اجراءه معك فتكدرت لهذا الخبر جداً وعند رجوعي الى وابورنا جلست على سطحه كئيباً متأملاً وعندما شاهدني الموسيو روزفلت بهذه الحال سألني عما بي فقلت له ان طبيب الوابور اخبرني ان الرئيس حانق عليّ جداً لانني حضرت معكم وعطلت على الطبيب الذي رفضته لجهله لغة يكلمك بها وأكثر حنق الرئيس مني لأن ذلك الطبيب قريب له ولست أعرف ماذا يصيبني فقال لي ماذا تريد ان أعمل لمساعدتك اجبته هل يمكنك مقابلة الخديوي واخباره حقيقة المسألة اذا تصدى لي الرئيس بشر واراد ظلمي قال اني افعل ذلك دون شك وسأنزل في لوكاندة نيو اوتل (التي كانت يومئذٍ جديدة وهي أول اللوكاندات) وهي الان لوكندة كونتينانتال وسأبقى مدة هناك لأنظر ماذا يتم معك وحيث انتهى سفرنا ماذا تريد ان نبقي لك تذكاراً منا لأنه اعطى للقبطان ثلاثين ليرة انكليزية ليوزعها على البحرية قال لي ان مراده ان يرسل لي هدية عندما يصل الى باريس وطلب مني ان اذكر له نوع الهدية التي اريدها فاجبته مع التشكر وطلبت منه ان تكون الهدية آلات للعيون،وعندوصوله الى باريس أرسل لي تحريراً باسم والدته مع علبة كاملة فيها آلات للعيون وحيث وجدت هذه العلبة عندي وانا تلميذ صرت استعملها لاعرف وظيفة كل آلة منها ولهذا ملت

الى تطبيب العيون ولم تزل عندي للآن سنة ١٩٠٨ فأشكر فضل المسيو روزفلت اذ لولا هديته لما ملت الى تطبيب العيون ولما وصلنا الى مصر ذهب الموسيو روزفلت الى اللوكاندة وكلفني ان ازوره في الغد واخبره ماذا يحدث لي وانهُ يبقى أربعة او خمسة ايام لأجل ذلك فودعته شاكراً وفي اليوم التالي حضرت أزورهم وتصورنا جميعاً سوياً مثلما كنا وقت السياحة مدام روزفلت جالسة في كرسيها السفر التي كان لها أربع زوايد لأجل حملها لأنها ما كان يمكنها الركوب والستات راكبات جمالاً وموسيو روزفلت بطربوشه وانا بجانبه واخوته راكبون الحمير وكذلك في الصورة الترجمان والخادم ولم تزل هذه الصورة معي لحد الان ١٩٠٨ من ٣٦ سنة وقد اعطاني مسيو روزفلت الكرت ورجعت الى المدرسة .

خصامي مع رئيس المدرسة

في اليوم الثالث من رجوعي للمدرسة بينما كنت في درس التشريح حضر باش جاوش المدرسة وطلبني لمواجهة الرئيس في الاستشارة الطبية فدخلت عليه ووجدته مع الاساتذة جالساً على ديوان مرتفع فوقفت في الوسط امام طاولة عليها كتب والباش جاوش بجانبي وبعد ما حييت الرئيس والاساتذة قال لي الرئيس بوجه عبوس ان الباش جاوش قيدك غائباً فأين كنت ليلة أمس اجبته انني كنت مرخصاً بها وقد ذهبت الى الكومبانية وقبضت راتبي فقال انني نبهت عليك بواسطة البواب ان لا تخرج من المدرسة فلم لم تطع الامر اجبته انني بعد التنبيه لم أعد اخرج فدعا البواب وسأله فصادق على قولي ولم يتمالك عندئذ الرئيس من الحمق وقال مغضباً لما سافرت المرة الثانية بلا اجازتي أجبتهُ ان رئيس الكومبانية كتب لسعادتك يخبرك بسفري فلو لم تسمح لما كنت سافرت ولكنت رجعت الى المدرسة قال ولما لم تنم ليلة أمس بالمدرسة اجبته انني اخبرت سعادتك بكل ما توقع معي غير انني لم افهم قصدك من كل هذه الاسئلة قال قصدي مجازاتك على مخالفتك هذه كلها أجبت امرك وما يكون قصاصي قال اضربك فلق (قد أخبرت فيما تقدم عن الفلق وهو الضرب على الرجلين) فأجبته انني رجل شامي اتيت لاتعلم الطب بارادتي وليس لاتعلم ضرب الفلق وافندينا أنعم عليَّ بذلك فأنا حر متى شئت اترك هذه المصلحة وان شئت اعتبر انني مستعفٍ منذ الان وسأكتب لديوان المدارس ومتى سألوني عن سبب استعفائي أذكره لهم قال لا بد لي من ضربك اجبت اذا كان ضربي يتم بالقوة فاستعمل جهدي لامنعه عني او أموت عندئذ التفت الى الباش جاوش وبعض الخدم وامرهم بمسكي فلما تقدموا الي ليمسكوني ضربت الباش جاوش على صدره ضربة ابعدته عني والقيت الطاولة والكتب التي عليها بالأرض واصابتني نوبة كنوبة الجنون غير انهم اغلوني وامر الرئيس بسجني في احدى غرف المدرسة .

لما دخلت الحبس حررت الى الموسيو روزفلت حالاً كتاباً ذكرت له فيه حالتي مع الرئيس وخيانته وغدره لي وانه حبسني وان شاء يأتي يزورني .

وارسلت هذا التحرير مع يوسف كرجي الذي كان تلميذاً خارجياً وابقيته مفتوحاً وسلمته اليه فذهب به ولما لم يجد الموسيو روزفلت اعطاه الى صاحب اللوكاندة وبقيت طول تلك الليلة منتظراً ومتكدراً لعدم حضور أحد وفي اليوم الثاني صباحاً حررت له كتاباً ثانياً ارسلته مع يوسف ورجوته به ان يزورني بعد الظهر لان في ذلك الوقت يكون الرئيس متغيباً وكلفت بعض رفاقي ان يقفوا قرب الباب حتى اذا اتى الموسيو روزفلت يدلونه على حذراً من ان البواب يحجبني عنه وفي عصارى ذلك اليوم حضر الموسيو روزفلت ودخل الى غرفتي ورأى الحديد في رجلي فصرخ بحنق قائلاً ما الذنب الذي جنيته حتى يعاملوك هذه المعاملة وما الذي تريد ان افعله لك وادمعت عيناه قلت ارجوك ان تأتي الى هنا غداً صباحاً نحو الساعة التاسعة افرنجية فترى الرئيس وتخبره انني رافقتك بسياحتك وانك اتيت لزيارتي ووجدتني بهذه الحال فحضرت لتشفع بي ومتى خرجنا من المدرسة يدبر كل منا شغله اجابني لم أخبرك ما حصل بنا في الأمس فانني مع والدتي واخوتي وسائر اصدقائنا قرأنا تحريرك الذي ذكرت فيه انك محبوس وخرجنا حالاً من اللوكاندة نسأل عن الحبس فدلونا على سراي الضابطية وسألنا عنك فلم يكن من يرشدنا اليك وبقينا حتى الساعة العاشرة ليلاً نبحث عنك فلم نعثر بك ومن تحريرك اليوم علمنا انك باقي في المدرسة فاتيت اليك وعند رؤيتك بهذه الحال طار عقلي فهل هذه هي معاملة الاطباء في بلادكم اجبته لكل بلاد اصطلاح وعوائد .

وفي اليوم الثاني نحو الساعة التاسعة صباحاً حضر الى الباش جاويش يطلبني لمقابلة الرئيس فتقيدت بحديدي وذهبت معه فدخلت الى غرفة الرئيس ووجدت عنده المسيو روزفلت وعند دخولي قال له الرئيس انني احبه وهو تلميذي وأمدح جداً من شطارته ولذلك ارسلته مع السياح غير انه عصى الاوامر ولكني اكراماً لك اسامحه فشكره الموسيو روزفلت وخرج وبعدما خرجت انتظرت الموسيو روزفلت بدار المستشفى وقلت له ان نهار غدا اتوجه لزيارتك لأننا نعطل يوم الجمعة فقال لي ان والدته واخوته سبقوه الى الاسكندرية وهو باقٍ لاتمام شغلي ودعاني لمناولة الطعام معه في الغد باللوكاندة وفي اليوم الثاني توجهت الى اللوكاندة فقابلت صاحبها وسألته عن الموسيو روزفلت أجاب انه يحضر بعد ساعة فأردت الخروج غير انه استوقفني فتأملته واذا هو رجل مهاب طويل القامة ممتليء الجسم مائل الى السمرة ذو شارب اسود عريض أصله ايطالياني ويدعى

(يوسف بتاليني) فسألني هل انت الطبيب الذي ضربت في المدرسة قلت نعم فأدخلني الى غرفة وقال لي أكتب لي قصتك كما توقعت بالافرنسية فكتبت له ما طلب فأخذه مني وقال لي أصبر فعن قريب يحضر الموسيو روزفلت ولم تمر نصف ساعة حتى حضر فأخذني الى غرفته وقال لي ما الذي تريد ان اصنع لك قلت له حيث انك مقيم في هذه البلاد مدة وجيزة فلا يمكنك ملاحقة دعواي فضلاً عن ان الخديوي يقضي فصل الشتاء من السنة في المينا فأرجوك ان تعرفني بالجنرال ستون وهو رجل اميركاني استخدم في العسكرية المصرية وقد أحضره الخديوي لتنظيم الجيش المصري ومعه ضباط آخرون وكان الخديوي يعزه

كثيراً وطلبت منه ايضاً ان يعرفني بقنصل اميركا ويرجوه ان يخبر الخديوي بهذه الحادثة وان يلاحق دعواي الى نهايتها فقام حالاً وكتب تحرير الى قنصل الولايات المتحدة وهاك صورته :

سيدي القنصل العام

استحلفك بشرف الولايات المتحدة ان تعرض على مسامع الخديوي ما يخبرك به الدكتور شاكر الخوري طبيبي في سياحتي بالنيل . انهُ صديق لي حميم وكلما تفعله معه اعتبره عمل لي وان اتخذتهُ صديقاً فسترى به في المستقبل ما يسرّك والسلام .

الداعي روزفلت

وقال لي خذ هذا التحرير سلمهُ للقنصل وارجع لتتناول طعام الظهر سوية ولعل يكون هناك الجنرال ستون فأعرفك به وللحال أخذت التحرير الى بيت قنصل اميركا فلم أجده فيه ورجعت الى اللوكاندة فلقيته مع الموسيو روزفلت والجنرال ستون فاستقبلني امامهم أحسن استقبال وعرفها بي وأخبرهما قصتي وطلب منهما مساعدتي في اشغالي الحاضرة والمستقبلة وفطرنا سوياً .

وحيث ان الموسيو روزفلت شهير في اميركا وله اعتبار عظيم فصار كل من الجنرال والقنصل يعدني بالمساعدة وانهما سيعرضان هذه الحادثة الى الحضرة الخديوية عند مقابلتها أول مرة وفي اليوم الثاني حضر المسيو روزفلت الى المدرسة ليودعني وطلب مني بالحاح ان اخبره كل شيء يجد معي وسافر .

(قنصل دولة انكلترا) كان المستر روجس قنصل دولة انكلترا في مصر قنصلاً لها في بر الشام وعند سفري الى مصر اخذت له تحرير وصاة فاخبرته قصتي وان مرادي تبليغها للمسامع الخديوية فوعدني ان يخبر قنصله الجنرال بذلك عند حضوره ويرجوه اخبار الخديوي بها فرجعت بعد ذلك الى المدرسة كان المسألة لم تكن .

وفي أحد الايام طلبني وكيل المستشفى محمد أفندي حافظ فتوجهت اليه ووجدت عنده خيالاً فقال لي انك مطلوب للمحافظة (المحافظة في مصر عبارة عن الضابطة لا يدخلها الا اصحاب الدعاوى الجنائية) وكان المحافظ يومئذ عمر باشا لطفي فسألت حافظ افندي عن سبب طلبي أجاب انه لا يعلم شيئاً واراني الامر فأخذته وقرأته واذا فيه ما يأتي :

« ان شاكر الخوري يلبس على عينيه كوزلك أي عوينات تلميذ عندكم ارسلوه لهذا الطرف » .

فرجعت الى المدرسة وأخذت أربعة من رفاقي الشوام الخارجين وهم حبيب افندي جبور والمرحوم الياس الزند والمرحوم يوسف كرجي وشخصاً اخر نسيت اسمه فاركبتهم حمير وذهبت معهم للمحافظة فابقيتهم قرب الباب واخبرتهم اذا امر المحافظ بحبس او بأمر آخر فيذهب احدهم الى الجنرال ستون والثاني

الى قنصل انكلترا والثالث الى قنصل امريكا والرابع الى محل يوسف بتاليني واخيراً دخلت الردهة الموجود فيها المحافظ وسلمتهُ ورقة حافظ أفندي وكيل المستشفى فسألني اذا كان حسن بك ضربني حقيقة وحبسني فاجبته بالايجاب عند ذلك نهض وذهب الى طاولة أخرى قرب الحائط الغربي فتبعتهُ ورأيتهُ يقرأ تلغرافاً مكتوباً فيه :

« أطلبوا التلميذ شاكر الخوري وأسالوه عن ضرب وحبس حسن بك هاشم له واذا كان ما ادعاه صحيحاً ارسلوه لهذا الطرف » .

وبعد برهة ناولني المحافظ تحريراً وقال لي أذهب الى المنيا ففرحت ورجوته ان يعطني تحريراً لمدير السكة الحديدية واخر لمدير المدرسة كي لا يعتبرني متغيباً فأعطاني ما طلبت فأخبرت رفاقي وطلبنا عربيه ولكن قبل ذهابي الى المدرسة احببت ان استكشف الخبر وأعرف كيف بلغت قصتي مسامع افندينا الخديوي فتوجهت الى قنصل اميركا والانكليز والجنرال ستون وسألتهم فأخبروني انهم لم يقابلوا الخديوي بعد أخيراً توجهت الى اللوكاندة وسألت المسيو يوسف بانتاليني وأخبرته انني مطلوب من أفندينا أجاب انني اخبرته قصتك كما توقعت معك وكما رويتها لي فاذهب ولا تخف وأقصص عليه ما توقع معك فتجرأت عند ذلك وذهبنا الى المدرسة عند وصولنا اليها اجتمع حولي التلامذة يسألوني عن سبب طلبي للمحافظ فأجبتهم ان افندينا ارسل طلبني تلغرافياً من المحافظ فكان لهذا الخبر ضجة عظيمة في المدرسة وتراكض التلاميذ لتقبيلي مع أنهم قبل ساعتين كانوا يتجنبون مكالمتي وكلفوني أن أخبر افندينا عن سوء تصرف حسن بك معهم وأخيراً أشار علي أحد أصحابي أن اذهب تلك الليلة الى الجيزة وأنام فيها حتى استطيع لحاق السكة الحديدية قبل سفرها فتوجهت حالاً بعدما قطعت النيل وكنت لابساً ثوب المدرسة الرسمي وبالصدفة كانت تلك الليلة ممطرة وقبل نزولي في النيل قابلت مصطفى افندي رضوان ترجمان المدرسة وهو من حزب محمد علي الرئيس المعزول فأخبرته عن طلبي من الخديوي ووعدته بأني سأمدح محمد علي الرئيس السابق أمام حضرته .

كانت الليلة التي سافرت بها ممطرة وعندما وصلت الى الجيزة توجهت الى احدى القهاوي وسألت اذا كانت توجد هناك لوكاندة للمنامة فأجابني احد الحشاشين ده ده يا سيدي لوكاندة ايه ومتاع ايه فعلمت من قوله ان اسم اللوكاندة مجهول عندهم وسألت اذا كان احد من الشوام قاطناً تلك البلدة فأجابني احدهم يوجد هنا شخص شامي يدعى الخواجه انطون وهو دخاخني ولكنه أقفل دكانه فقلت لهُ ان يصنع معي جميلاً ويهديني الى بيته فذهب معي وبعدما قرعنا الباب سألوا من الداخل عن الطارق اجبتهم انني اريد مقابلة الخواجه انطون ان شاء النزول لمقابلتي حينئذٍ فتح الباب رجل وسألني من انا اجبته انني تلميذ بمدرسة الطب في القصر العيني وانا رجل شامي لي شغل بالمنيا وقد نصحوني أن أنام في الجيزة لالحق الوابور وحيث لم أجد محلاً للمنامة الا منزلكم مضيفاً أتيت أرجوكم قبولي هذه الليلة انام فيها عندكم أجابني انني ضيف نظيرك وصاحب البيت متغيب عنه وسأسأل الحريم قبولك قال هذا وتوجه ثم

عاد بعد قليل ودعاني فدخلت الى ردهة الاستقبال وطلبت فراشاً للنوم فعرضوا علي الطعام غير اني ابيت بشكر لأنني كنت أكلت قبل حضوري وفي صباح اليوم الثاني توجهت باكراً ولم ار صاحبة البيت ولا صاحبه انما عرفت انه يدعى انطون وحين وصولي الى محطة السكة الحديدية سلمت تحرير المحافظة الى القومسير فأخذه مني واعطاني محلاً في الدرجة الثانية وفي اثناء سفري قابله شعبان بك مدير قومبانية الوابورات الخديوية فدعاني الى قربه بالدرجة الاولى .

وعندما سار بنا قطار السكة الحديدية اخبرت شعبان بك ما توقع لي مع حسن بك هاشم وقلت له انني سافرت بالسياحة الثانية مستنداً على اذنك ومعتمداً على مخابرتك معه فهل لك ان تشهد بما توقع أمام الخديوي فأجابني بالايجاب وفي الساعة الثالثة بعد الظهر وصلنا الى المنيا وكانت سكة الحديد لا تتعدى في ذلك الوقت تلك المحطة فتوجهت تواً الى السراي وسلمت تحرير المحافظة الى خيري باشا مهر دار الخديوي يومئذٍ وكنت مرتدياً ثياب المدرسة الرسمية فبعد ما قراه سلمهُ الى شخص كان بجانبه فتلاه هذا والتفت اليّ قائلاً قد حسبناك طبيباً ونرى انك لست الا تلميذاً فأجبت هل تتنوع معاملة الطبيب عن معاملة التلميذ بالاحكام وهل يجب ان يبقى عرضة للاهانة فضحك وقال حسناً أدخل الآن وطلب وكيل السراي وأمره ان يعد لي غرفة واخبره اني ضيف افندينا أما هذا الرجل فكان

(اسماعيل باشا المفتش) مصري الأصل وهو لم يتخرج في مدرسة بل انتظم في خدمة الاملاك الزراعية الخديوية بطنطنا وحين عرف مشرب اسماعيل باشا اجتهد بعمل كل الطرق لاكتساب رضاه فحسن الاراضي وزاد ايرادها حتى ترقى الى درجة مفتش عمومي واحبه الخديوي ورقاه حتى تعين ناظراً للمالية وكان مثله معه كمثل البرامكة مع هرون الرشيد وقد اتصل الى غنى فاحش حتى انه في كل محل كان توجد فيه سراي خديوية كان له قصر اهمه قصره الكائن قرب سراي عابدين وكانت تتوارد اليه الضيوف والهدايا من الغنم يومياً وقد اخبرني وكيل مصروفه انه كان يذبح خمسين رأساً من الغنم يومياً لأجل الطعام ولم تكن فخامته تقل عن فخامة الخديوي وكان في آخر مدة وجودنا بمصر قد بدأ بانشاء سراي في شارع قصر العيني .

وعندما تشكلت المراقبة المالية الفرنساوية الانكليزية في مصر وجدوا عليها ديوناً باهظة جداً وكان اسماعيل باشا المفتش حين ذاك ناظراً للمالية فسئل عنه أجاب ان الافراح كلفت مليونين وفتح ترعة السويس كذلك وقدم بعض تقريرات بلغت الخديوي فلم ترق لهُ ومن بعد ذلك لم نسمع له خبراً وكان لهُ ولد احدب هو وريثه الوحيد ابقوا له شيئاً لمعاشه وكان له ابن اخت اسمه نشأت بك تعرفت به يومئذ في المينا .

مقابلتي مع الخديوي اسماعيل باشا

كان اسماعيل باشا الخديوي الحاكم في مصر بامره يغني ويفقر يميت ويحيى يحب العز والجاه كريماً مهيباً ولم يكن يمكن التلفظ باسمه في كل مصر دون الالتفات يميناً وشمالاً كي لا يسمع احد وكان الناطق باسمه يذكره وجلاً حاسباً ان للحيطان اذاناً فهذه الاهابة التي اكتسبها جعلتهُ يعمل ما يشاء في القطر المصري بل كان هو القطر .

وكان يراعي سمعته امام الأجانب كي يجعلهم يقبلوا الوراثة الخديوية في نسله فكان عادلاً جداً اذا عرف ان المسألة عرف بها الأجانب وهذا ما ساعدني في مسألتي مع حسن بك هاشم وكنت تراه مرة كريماً جداً الى حد التبذير واخرى بخيلاً الى حد التقتير غير انهُ هو الذي أظهر رونق مصر وجعلها مطمعاً للدول الاخرى وكانت مصاريفه باهظة جداً بحيث قدروا ان ثلث اراضي مصر كانت ملكاً له وله ثلث اسهم ترعة السويس وكراخين سكر ومراكب وكانوا يعدونه اغنى شخص في العالم ويقدرون مدخوله السنوي اثني عشر مليون ليرة كان يصرفها عدا مالية القطر التي كانت تحت امرته . وكان يحتاج احياناً للدراهم فيسأل اسماعيل باشا المفتش عن حالة الفلاح وهل يمكنه احتمال ضرائب جديدة فيجيبه المفتش ان افندينا هو الفقير لأن الفلاح مهما كان غنياً لا يغير عوائده يأكل اللبن والنوم على الأرض فالدراهم لا تنفعه اما افندينا فمحتاج للدراهم كان عنده مهمات واشغال وعمليات واستقبالات يلزمها المال فكان كلامه يقع عند الخديوي موقع القبول .

وكان يستدين الديون الباهظة يصرفها عدا هذه المداخيل لكنهُ كان يصرف منها قسماً للمنافع العمومية في مصر وهو الذي أوصلها الى هذه الدرجة بالسكك الحديدية الترع والمدارس وبالاجمال قد صرف كثيراً وعمر كثيراً وهو الذي كان الموت والحياة بين يديه بلا معارض ولا محاكم وترتجف منه كل اهالي مصر فكيف تكون امامه حالة تلميذ شامي غريب مثلي .

وعندما دخلت غرفتي في سراي المينا واسترحت قليلاً صرت اتقرب من الياورية والمأمورين وكان كل واحد منهم يسألني عن قصتي ويقول لي ربما افندينا يطلب مقابلتك وقد رأيت اسماعيل باشا المفتش وهو يتنزه بحديقة السراي فقال لي أن مسألتك غريبة لأن أفندينا عند استيقاظه من النوم أمر بأن يطلبوا الحكيم الذي ضربهُ حسن بك هاشم ولا نعلم من أين علم هذه المسألة وسألني هل قدمت استدعاء بذلك أجبته كلا وهذه القصة قد انتشرت في مصر انتشاراً عظيماً حتى بلغت مسامع افندينا .

وفي الساعة الثالثة عربية ليلاً حضر ياور وقال لي ان افندينا يطلبك وعندما سمعت ذلك شعرت بطنين في أذني وخفقان في قلبي واحمرار في وجهي وأصبحت كأنني في عالم آخر ولكن بشاشة وجه الياور

وتبسمه طمناني نوعاً فنهضت حالاً وتبعته وقد كنت في النهار استخبرت عن كيفية الوقوف أمام افندينا فقيل لي اذا كان عسكرياً يقف ولا يبدي ادنى حركة حتى يكلمه اما اذا كان لابساً الثوب المدني فينحني ويقبل الاذيال وحيث كنت لابساً زي تلميذ عسكري عرفت ان أكون اخرساً بالكلية لان ذلك يوافق حالتي واخيراً بعت الياور ودخلت بين صفوف العساكر والضباط والامراء والبشوات والكل يلتفتون الي ويتعجبون من تلميذ يحصل على شرف هذه المقابلة أما أنا فما كنت اسمع الا طنين اذني وخفقان قلبي ولم يكن نظري يفارق قدم الياور حتى وصل بي الى باب مغطى بستار عظيم لأنه كان فصل الشتاء فرفع الياور الستار وقال ادخل ووقف خارجاً .

عندما دخلت وجدت الخديوي وقتئذٍ يتمشى وكان ظهره موجهاً للباب وحيث انه لم ينظرني تقدمت خطوتين فالتفت ورآني وسألني بصوت لطيف سكن روعي وقال لي هل أنت الطبيب الذي ضربه حسن بك هاشم اجبت نعم قال اخبرني قصتك فعند ذلك انصرف عني الخوف وزال كل وهم فأخذت هيئتي المعتادة وابتدأت اتكلم كأن اسماعيل باشا أحد رفاقي ولما انهيت كلامي قال لي حرر كل ذلك بورق وادار ظهره فخرجت عكس ما دخلت رافعاً رأسي ولا اسمع في اذني سوى صوت الموسيقى الخديوية أما خفقان قلبي فلما يفارقني غير ان السبب كان مختلفاً عن الأول وهو الخوف أما الآن فالفرح وكان الكل ينظر الي وانا اسلم على العساكر كأحد الضباط مع اني عند دخولي لم أكن التفت الى احد .

عندما رجعت الى غرفتي اخذت القلم والورق لأكتب وكنت مفتخراً لمقابلتي الخديوي المعظم وانه بش في وجهي وافتكرت اني اقوى الناس فكنت ارتفع عن الكرسي وأقوم ثم اعود وأجلس وافرك يدي وأرى كل شيء أمامي كلا شيء واتصور انتقامي من حسن بك الذي اهانني وصرت ابحث في مخيلتي عن عبارات فصحى لأكتبها ظناً من انها تهيج الخديوي ضد خصمي وبينما انا في هذه الحال خطر لي فكر وهو انه لعل الخديوي لا يعمل شيئاً مع رئيسي حسن بك سوى توبيخه فيبقيه في مركزه وماذا تكون حالتي معه عندئذ وانا تلميذ تحت امرته فانه ينتقم مني ويجعل طردي أقل جزاء استحقه وبعدما أكون قضيت ايامي في الدرس واغتربت لأجل الحصول على نتيجة تذهب اتعابي لها بلا جدوى وارتأيت ان اعتدل في كتابتي واخبر قصتي كحادث بسيط بدون ان أمس بشيء كرامة الرئيس حتى اذا بقي في منصبه اعتذر له بأنني لم اشكوه باستدعاء مخصوص بل الحادثة بلغت مسامع افندينا من الخارج فطلبني وسألني عنها فلم استطع نكران الحقيقة وكنت افتكر ايضاً ان الخديوي لم يطلبني ولم يظهر هذا الاهتمام بامري الا لقصد سياسي ولعله لا يرضى عني اذا كنت لا اسرد له الحقيقة على علاتها وبقيت مدة متردداً بين هذين الفكرين اخيراً تسلط على الفكر الثاني وانه لا بد من قصاص حسن بك حتى يظهر عدله لأهل اوربا وعلى فرض بقي حسن بك رئيساً واراد الانتقام بطردي فأسافر حالاً الى اميركا واخبر الموسيو روزفلت بأمري وأنني طردت من المدرسة بسببه وهناك أكمل دروسي او انه يجد عملاً آخر لأنه قادر على ذلك فاعتمدت على تقديم التقرير الآتي لان الشجاعة هي فكر والجبانة مثلها :

افندم

يعرض عبد سموكم شاكر الخوري التلميذ في مدرسة الطب الشامي الأصل ان عظمتكم التي تمضي لياليها وايامها بالسهر والتعب لكي تمدن مصر وتنزع عنها جميع عوائدها القديمة لها اعداء من نفس خادميها يرجعون بها الى حالتها الاولى .

وأهم اعدائها هو حسن بك هاشم رئيس مدرسة الطب الذي يجتهد ان يبقى عادة الفراعنة وهي الضرب على اقدامهم كالحيوانات في حين ان سموكم امرتم بمنع هذه العادة القبيحة خصوصاً للغرباء الذين هم مثلي القادمون من أقصى البلاد لتلقي العلوم والمعارف في البلاد المتمدنة التي يظللها عدلكم الشامل فيعاملون كما كان يعامل الفراعنة اسراهم وقد جرى لي ما هوكذا وكذا (وذكرت الحادثة كما توقعت معي) كل ذلك لأجل خدامات قدمتها لسموكم لأنني توجهت مع السياح الذين عرفوا بي انه يوجد في مصر اطباء وطنيون يحسنون لغاتهم وقدكان الرئيس يريد ارسال احد اقاربه فرفضه السياح لجهله لغتهم واننا في مدة محمد علي بك الرئيس السابق لم نر قط مثل هذه المعاملة هذا ما اعرضه لمقام خديويتكم والامر لمن له الامر افندم .

وفي اليوم الثاني قابلت اسماعيل باشا المفتش واخبرته امر افندينا واعطيته التقرير ليقرأه وقلت بفكري متى استشرت شخصاً واطلعته على حوادثك وطلبت رأيه فلا بد له من مساعدتك حتى يكون الفائز خصوصاً متى كان الشخص قوياً لذلك يلزم المرء ان يبدي رأيه الصحيح لأي كان استشاره بأي امر .

وبعدما قراء اسماعيل باشا التقرير أمرني ان اسلمه للياور الذي في ثاني يوم صباحاً قبل ذهابي بسكة الحديد الى مصر حضر لعندي وقال لي قد امر افندينا ان نتوجه سوية الى مصر فسرنا وحين وصولنا الى المحطة حضر ياور آخر وامرنا بالرجوع الى السرايا فعدنا اليه وهناك سلمني ياور ثالث تحريراً من الخديوي الى المحافظ عمر باشا لطفي فسألت الياور الذي كان ذاهباً معي عن سبب عدم مجيئه معي وكان قد قابل وقتئذٍ الخديوي فأجابني ان افندينا افتكر ان لربما لا تتحصل حقوقك في المدرسة نظراً لعداوتك مع الرئيس وامر ان تنظر دعواك في المحافظة فتوجه حالاً قبل ذهاب السكة الحديدية التي استنظرتنا بزيادة عن ميعادها وارفقني بياور فدخلت في الدرجة الأولى وبيما أنا في هذا المحل حضر مفتش التذاكر وسألني عن تذكرتي فقلت انني آتٍ بمأمورية فذهب وأرسل المفتش العمومي الذي كان صديقي فحين رآني فرح وسألني عن نتيجة سفري لأن التلاميذ كان ينتظرون عودتي بفروغ صبر فأخبرته ما جرى .

وفي اليوم الثاني وصلت الى المدرسة صباحاً عند شروق الشمس فوجدت التلامذة مصطفين لأجل الندهة (اي لقراءة اسمائهم يعرف الحاضر من الغائب) فعندما نظروني خرجوا جميعهم من الصف ومعهم الضابط وصاروا يسألوني عما توقع لي .

في هكذا ظروف تجب على الانسان ان يظهر من الضعف قوة ليأخذ لهُ حزباً لأن البون بيني زبين خصمي كان عظيماً فافتكرت انني اذا تكلمت بالتعقل يظنون انني لم انجح ويبقى الجميع ضدي لأن الضعف في هذه البلاد يعد أعظم ذنب للانسان خصوصاً متى كان الرئيس خصم تلميذه فقلت لهم افرحوا هاكم امر عزله واريتهم التحرير المرسل من الخديوي الى المحافظ ففرحوا جميعاً وابتدوا يقبلونني لأنني نجحت ولو أتى الأمر بخلاف ذلك لما كان أحد كلمني ولكان أصابني ما أصاب الأسد والثعلب .

قيل ان الاسد مرض ذات يوم فحضرت اليه جميع الحيوانات يعودونه عدا الثعلب الذي افتكر بان المرض اذا كان قوياً وقضي على الأسد بالوفاة يكون قد تخلص من ثقل الزيارة وان شفي يذهب لتهنئته بصحته ولما شفي السبع من مرضه فرأى الثعلب ان لا بد له من الزيارة فذهب الى مغارته وبقي رابضاً بعيداً عن الباب فحين رآه الاسد بدا يعاتبهُ لعدم عيادته حين مرضه فأجابه هذا انني لم ارض ان اثقل عليك كباقي الحيوانات وانت مريض احضر لتناول طعامك أو ان آتي بلا هدية فصرت ابحث عنها حتى وجدتها فجئت اليك .

وحين ما سمع الاسد ذكر الهدية سكن غضبه وبش بوجه الثعلب وسأله أين هي قال في روضة قريبة منا حمار سمين ممتلىء الجسم حين رأيته انتهيته مأكلاً لسيدي فان امرت فنذهب اليه فتوجه الأسد مع الثعلب حتى وصلا الى الحديقة ورأى الحمار كما وصفه الثعلب يرعى ورأسه بالارض فأشار الثعلب على الاسد ان يأتيه من الوراء ويضربه على كفله يلقيه بالارض قبل ان يراه ففعل غير انه نظراً لضعفه لم تكن ضربته قاضية ورفسه الحمار على رأسه فسقط الى الارض من عظم الضربة وعند ذلك تقدم الثعلب وصار ينهش الاسد فقال له ما هذا شرط المرافقة تنهشني وانت الذي اتيت بي فقال يا سيدي ان الدنيا مع الواقف ولو كان حماراً .

ثم غيرت ملابسي وتوجهت للمحافظة وسلمت التحرير الى المحافظ ورجعت الى المدرسة .

وكان الباش جاويش عدونا فبدا يحزب التلامذة المصريين ضد الشوام بحيث اذا صادفوا احداً منا في الصف او الدرس او على مائدة الطعام يهينونه اخبرني رفاقي بذلك فنصحتهم ان يتجنبوهم حتى نرى عاقبة الامر ولا يخالطوهم فاتبعوا رأيي وكان الباش جاويش يقيد اسماءهم متغيبين وفي ذات يوم حضر الرئيس الى غرفة الشوام وقال لهم اراكم تعصون قوانين المدرسة فافندينا قد طلبني الى حضرته وامرني بضرب وحبس من يخالف الاوامر فأجابه انطون افندي الشعراوي وهو احد التلامذة الحلبيين ان افندينا لا يأمرك هكذا اوامر خارجة عن تمدن العصر .

عندما عرفنا أفكار الرئيس من نحونا قلت لرفاقي لعله يشكونا لرئيس ديوان المدارس علي باشا مبارك فالأوفق ان نسبقه ونعرض ظروف أحوالنا ونوقع نحن العشرة على الاستدعاء فصادقوا على رأيي وكتبت الاستدعاء الآتي :

دولتلو افندم حضرتلري

يعرض عبيد دولتكم العشرة شوام تلامذة مدرسة الطب انه الحادثة التي جرت مع الرئيس واحدنا شاكر الخوري قد تسلط علينا الباش جاويش وبعض رفاقه فهم يشتموننا كلما رأونا في درس او صف او محل أكل حتى التزمنا ان نبقى في غرفنا لا نخرج منها واذا لم تتداركونا لا نعلم ماذا يجري علينا .

ووقع على الاستدعاء العشرة شوام وارسلناه مع التلميذ الخارجي المرحوم الياس زند وفي عصارى ذلك اليوم اتانا وكيل ديوان المدارس وهو اسماعيل باشا زهدي .

وعند حضوره قرع الطبل لاجتماع التلامذة فاصطففنا في الدار وقال أين هم الشوام أخرجوا من الصف فخرجنا وأخذنا بعيداً عن المصريين وقال لنا هل هذا الاستدعاء متقدم منكم اجبناه نعم قال وما هذا العمل الذي صنعتموه وانتم اناس غربان (اراد ان يقول غرباء لانه كان يجهل اللغة العربية) ولا يلزم ان تعملوا فتناً في المدرسة فلم أدعه يتم كلامه وقلت لهُ اننا طلبنا مساعدتك لتخلصنا من الباشجاويش لا لأجل ان توبخنا وماذا يستطيع ان يعمل عشرة تلامذة من الشوام مع مايتين من المصريين منهم الرئيس والباش جاويش قال لي من انت اجبته انني صاحب الدعوى مع الرئيس فقال حسناً ارجعوا الى صفكم فامتثلنا امره وطلب الباشا الباش جاويش وقال قد تقرر لي ان كل هذا الهيجان الحاصل في المدرسة مسبب منك فأنت من هذه الساعة معزول وأقام آخر خلافه كنا طلبنا تعيينه ثم امر ان تكون ادارة الشوام لوحدهم ويعين عليهم اونباشي منهم ولا يتداخل احد من المصريين بشؤونهم وطلب مني ان اكون اونباشياً عليهم فرفضت وعرضت عليه انطون الشعراوي فسره جداً طلبي وجرى تعيينه اما سبب رفضي فهو ان وظيفة الاونباشي تقضي عليه بذكر اسماء المتغيبين عن الدرس او المدرسة فلم اشأ اكتساب عداوة رفاقي في حين نحن محتاجون للانضمام والمعاضدة وصار فيما بعد اذا حصل اختلاف مع أحد أصلحه فكان انطون اونباشياً وأنا مصلحاً وبقينا على هذه الحال حتى أتانا طلب من المحافظ توجهت الى المحافظة فوجدت هناك الياور الذي كان يريد الحضور معي فسلمت عليه ثم التفت واذا بحسن بك هاشم عند المستنطق مع أحمد افندي القديم كاتب المستشفى والاستشارة الطبية فتقدمت الى المستنطق وقلت له اذا كان الرئيس ينكر فعله فعندي شهود عليه فلم يجب حسن بك بشيء وخرجت انتظر الياور حتى اتى فسألته قال ان حسن بك اعترف بالضرب والحبس ولكنه زعم انك هجمت عليه قلت هل يعقل ان تلميذاً غريباً نظيري يهجم على رئيس مدرسة قال ان كلامك مصدق فكن مرتاحاً وحيث انه اعترف بالضرب والحبس فسيلقى جزاءه فرجعت وتأخرت الدعوى لسبب دخول عيد الأضحى وبعده نفذ الامر بالعزل .

كان حسن بك هاشم من الاطباء الماهرين جداً تلقى دروسه في باريس ونال شهادتين في الطب والصيدلة وكان طبيب النساء في قصر الخديوي ومدرس علم الفسيولوجيا في المدرسة .

وفي احدى الليالي الساعة واحدة عربية حضر اليّ موسى الترجي وقال لي تعال معي يا موسيو شاكر

فلي حديث اسارك به فذهبت معه واخبرني سراً انه كان عند محمد علي وفي المساء حضر ياور افندينا الخديوي وسلمه امر الرئاسة بدل حسن بك هاشم فأعطاه ليرتين اكراماً لهذه البشرى ولما تيقنت صدق قوله فتشت جيوبي فرأيت معي نصف ريال اعطيته له وذهبت حالاً الى الطبل وابتدأت أقرعه استفاق التلامذة لأن الساعة كانت واحدة وغير معتاد قرع الطبل في مثل هذه الساعة وظنوا جعفر الموكل عليه هو الذي يقرعه ولما اتوا ورأوني سألوني عن سبب عملي فأخبرتهم بعزل حسن بك هاشم فعلا الصراخ في كل المدرسة وبدأ التلامذة يلعبون الى الصباح .

وتوجهت عند الصباح الى الكاتب أحمد افندي القديم وسألته عن الأمر فقال صدق مخبرك وهاك الامر فأخذته وقرأتهُ وهو كما يأتي وقد حفظت نسخة بين اوراقي .

صورة الأمر العالي الصادر الى المحافظة
بعزل حسن بك هاشم

بناء على ما اجراه حسن بك هاشم الحكيم مع شاكر افندي الخوري التلميذ في مدرسة الطب بقصر العيني من المعاملات غير اللائقة والمخالفة للأصول والقواعد والأوامر اقتضت ارادتنا رفع حسن بك المومى اليه من وظيفته برئاسة المدرسة والمستشفى وباقي وظائفه بالمصلحة المذكورة واحالتها لعهدة محمد علي بك الحكيم وصدر امرنا بتاريخه لنظارة الداخلية لارساله مع جورنال تحقيق القضية المذكورة واحالتها الى مجلس الاستئناف للحكم بها حسب الأصول وأصدرنا هذا الحكم للمعلومية واجراء رفت حسن بك من تاريخه واحالة وظيفته الى محمد علي بك كما ذكر (وبهذا الأمر حاشية ورد ما فيها) اننا نأمر محمد علي بك ان ينتخب من يراه من اطباء المستشفى الماهرين ليقوموا في الوظائف التي كان يؤديها حسن بك .

وبينما نحن في المستشفى حضر حسن بك لأنهُ لم يعلم شيئاً ودخل بعجلته لدار المدرسة فصرخ التلاميذ معزول معزول ولما سمع هذه الكلمة طلب احمد القديم وسأله فأخبره ما توقع فرجع تواً بعجلته بين صفين من التلامذة كانوا يهزأون به وبعد ساعة حضر محمد علي بك .

(رجوع محمد علي) حين رجوع محمد علي رئيساً للمدرسة جمعت رفاقي الشوام وقلت لهم قد تخلصنا المرة الاولى ولكن لا تسلم الجرة كل مرة خصوصاً اذا كان محمد علي ضدنا فخير لنا ان نسير على موجب القوانين باقي هذه السنة وعلى الله التدبير واتفقنا على ذلك وبعد حين اتى محمد علي الى المستشفى ليرى الدروس فشاهد جميع التلامذة يتكلمون،ويكلمون الا أنا فطلبني وقال لي لم لا تتكلم شيئاً قلت كفاني ما جرى لي مع حسن بك هاشم وصرت اخشى كل رئيس يأتي بعده قال انت كأولادي ولا تخشى من سواه وكان بعد ذلك يحضرني معه في كل عملية جراحية يجريها ويرسلني الى المرضى في الخارج وعشت حتى آخر السنة كمعلم لا كتلميذ .

بناء على امر الخديوي الصادر بملاحقة الدعوي صار طلبي الى ديوان الاستئناف وسألوني عن دعوى حسن بك هاشم فقلت في ذاتي كفاني ما أصاب هذا الرجل بسببي واذا لاحقته للنهاية ربما كرهني الاساتذة وقالوا عني اني متعنت متطلب منتقم فأعلنت اني استوفيت جميع حقوقي من عدل افندينا الخديوي واكتفيت بعزله فما عاد لي عليه حق واسقط جميع حقوقي الشخصية وقد عرفت فيما بعد ان الخديوي آمر بتغريمه جزاءً نقدياً عوض اهانتي لكنني اكتفيت بالجزاء الأدبي .

من يفتكر او يطرأ على باله ان تلميذاً غريباً في مدرسة طبية لسبب ضربه وحبسه في المدرسة وهي أمور معتادة في سائر المدارس اتصل خبره لمسامع الحضرة الخديوية فلاحقت دعواه الى اخرها وطردت رئيسه العامل العلامة وحرمتهُ راتبه البالغ مابة ليرا مصرية شهرياً وصدرت عليه دعوى جنائية فليعلم الانسان ان الظروف هي التي تعمل كل شيء فالانسان الناجح هو الذي يوجد في ظروف تساعده يستغنم فرصتها بمهارته الشخصية .

(ظروف هذه المسألة) كان نجاح هذه المسألة صدفة وهذه الصدفة هي ارسال تحريري الى الموسيو روزفلت مفتوحاً وقرأة صاحب اللوكندة الموسيو يوسف بتاليني له الذي كان يخبر الخديوي كل ما يقال عنه في لوكندة النيواوتل فعندما اطلع على تحريري ورأى تقريري في اليوم الثاني ارسله الى الخديوي وجرى ما ذكرناه فتكون الصدفة هي التي فعلت كل شيء ومن ذلك الوقت بقيت اتردد على الموسيو بتاليني ازوره واشكر له ما فعله معي الى ان حضرت من مصر اما حسن بك رئيس المدرسة فانه توفى بعد خمس سنوات متأثرا من هذه الحادثة ولم يرجع الى وظيفته وقد حررت الى موسيو روزفلت حسب وعدي له جميع هذه المعاملات العادلة من الحضرة الخديوي وكيف عزل حسن بك وحاكمه الى آخره .

(الوفاء لانطون الدخاخين وفي السنة الأخيرة لدرسي بينما كنت نوبتجياً في أحد الايام واذا برجل شامي أتى بطلب فوزي افندي استاذنا في الجراحة فسألته ماذا يريد مي أجابني انه يدعى انطون الدخاخي ساكن الجيزة ويرغب في عملية جراحية فعرفت انه هو الرجل الذي ضفته في منزله ليلة سفري الى المنيا غير اني كتمت عنه هذا الأمر وقلت له خير لك ان تعمل العملية هنا وأبقى ازورك يومياً في منزلك فتوفر عليك أجرة طبيب مهم فاستصوب رأيي وحالاً ذهبت الى فوزي افندي واخبرته قصتي مع هذا الرجل ورجوته ان لا يأخذ منه أجرة وانني ابقى أزوره في منزله وطلبت منه ان يكلف المريض بارسال الاجرة معي فبعد اجراء العملية وزيارتي له مدة سبعة ايام تم شفاءه واعطاني خمس ليرات اجرة الزيارات والعملية فأخذتها منه ثم قلت له مرادي الان اخبرك قصة جرت لي هنا في هذا البيت واعدت عليه ما توقع معي وشكرت له فضله وفضل أهل بيته الكرام ورجوته ان يقبل هذا المبلغ جزاء معروفه لضيافتي تلك الليلة عنده ولرب معترض يقول ان نوم ليلة لا يوازي هذا المقدار فأجيب ان هذا الحساب لا يعمله الا التجار الذين يحسبون رأس مالهم ومكسبهم اما ذو الاحسانات الشريفة الذين يتأثرون من المعروف لا يمكن عندهم هذا الامر وقد افتكرت ان هذا البيت عمل معي معروفاً في ليلة كنت محتاجاً ولو كلفني أكثر من ذلك

لكنت دفعته فضلاً عن كونه صنع معي هذا الجميل دون سابق معرفة بي والرجل القوي هو من لا يسأل على ماله ولا على حياته والعكس الذليل هكذا انتهت هذه الحادثة وبعد سنتين من حصولها خرجت من المدرسة وكان الامتحان الاخير في ١٤ تشرين أول سنة ١٨٧٣ لذلك تراني مخصصاً هذا النهار أطبب فيه مجاناً الغني والفقير وهذا هو يوم ولادتي وعمادي بين الرجال وأخذ اسم شغلي دوكتور أعني هذا هو اليوم الذي به ابتديت أكل من تعبي وتركتي أبي ومدرستي وهو أول ظهوري في عالم الاشغال فبقيت ٢٦ سنة وشهرين وعشرين يوما أكل وأكتسي وأتعلم على حساب والدي فلوكنت فلاحاً لسعفته من سن ٥ سنوات لكنت أوفر عليه أقله رعاية المواشي .

(سكني في مصر) لما انهيت دروسي وخرجت من المدرسة كنت أفكر أني اتخلص من كل الهموم حين أنال الشهادة وهذا الفكر يطرأ على مخيلة كل تلميذ ولكن عندما انقطعت رواتبنا المدرسية والوالدية وخرجنا منها ازددنا هماً على هم وصرنا تأسف على حالتنا الماضية اذ زاد علينا هم طلب المعاش وأجرة محل النوم وهذه متاعب كنا براحة منها وبعدما انقضت افراح الشهادة فتح لنا باب الهموم وكان مثلنا كمثل عريس الذي يفرح جداً يوم عرسه لكثرة الاعتبار له وفي اليوم الثاني يبتدي يهتم في تدبير السيدة وبعد سنة بالأولاد وهلما جراً .

فعرسنا كان يوم نوال الشهادة وفي اليوم الثاني ابتدي الهم وكنت في الاسبوع الأول من خروجي أحضر عمليات اساتذتي الثلاثة محمد علي باشا وحسين بك عوف وسالم باشا سالم وأزور المرضى نيابة عنهم واساعدهم في اجراء العمليات واكتسبت في ذلك الاسبوع اربع ليرات وحالاً استأجرت محلاً .

وكنت أجلس في صيدلية مصطفى افندي ابو زيد أحد اساتذتنا الكائنة في اخر شارع الموسكي تسمى بذلك باسم رجل اسمه الموسك أول من عمر فيه قرب سوق الكانتو وكان الصيدلي المعين فيها يدعى انطون افندي قرا الى الذي سنذكره فيما بعد وكان بالقرب منها مجتمع ماسحو الاحذية وقد اشتهر بين هؤلاء ولد اسمه احمد كان يأخذ اجرة زيادة عن رفاقه لأنه كان يتقن صناعته جداً وكانت الناس تزدحم عليه وتدفع له اجرة مضاعفة وفي آخر النهار يجمع نحو ليرة وعند ما تأملت هذه الحال قلت بذاتي ان غنى الصناعة هو شهرة صاحبها واذا كان ماسح الاحذية يكسب ليرة يومياً نظراً لشهرته فماذا تكون حال الطبيب لو اشتهر ومن ذلك الحين اعتمدت على اتقان صنعتي وتخصيصي بفرع منها لأنه نظراً لكثرة العلوم الطبية وتفرعاتها لا يمكن الطبيب ان يشتهر فيها كلها ولأجل شهرته وكسبه وافادة مريضه يجب ان يخصص ذاته بفرع منها وحيث كانت توجد عندي آلات العيون التي اهدانيها المسيو روزفلت كما قدمت وكنت قد ألفت خصوصاً طبيب العيون حسين بك عوف وجدت سهولة عظيمة لاتباعي هذا الفن خصوصاً لكثرة امراض العين في مصر وقلت بذاتي اذا كان احمد ماسح الاحذية يكسب ليرة يومياً فلا بد ان تكون قيمة العين أغلى وأعلى من الاحذية فهذه الحادثة تعلم الانسان ان لا يترك شيئاً مما يشاهده لان أغلب

الاكتشافات والاختراعات والاجتهادات كانت صدفة وكثيراً ما نتعلم ممن هم دوننا لذلك لا يلزم احتقار شيء أو النظر اليه دون أهمية .

وقد أخذت بيتاً عند مريم القبطية التي كان لها زوجاً متوظفاً في الحكومة يبتدي بالشرب عند رجوعه حتى يسكر فاذا كان منشرحاً منها ابتدى يمدحها والا يسبها حتى ينام وهو سكران ويفيق عند نصف الليل يجد الأكل بجانبه يأكل وينام وكان له جار اسمه تادرس يجلس مساءً على باب داره ومتى مر شخص أمامهُ ان كان يعرفه ام لا يعزمه للأكل ويحرّج عليه واذا دخل المعزوم يبتدوا بالشرب وعندما يتخمر تادرس يقفل الابواب ويمسك عصا ويبتدي بضرب الضيف الذي يصيح ويخلع الابواب ويهرب وهكذا كل يوم له ضيف .

وعندما نظرت هذه الحيرة وكنت اكتسبت بعض دراهم أخذت بيتاً في شارع كلوت بك الذي فتح جديداً وكان ذو طابقين سكنت الأعلى وسكن معي في الدور الثاني قواص قنصل اسبانيا .

قنصل جنرال اسبانيا في مصر مسيو رامو

كان لهذا القنصل قواس من بلادنا تغيب أحد الايام عن القونصلاتو فسألهُ قنصلهُ عن السبب أجاب ألم ضرسه وانني جاره وطببت لهُ الضرس فشفي وكان للقنصل ضرس يألمهُ من مدة مديدة فأرسل يطلبني لعلاجه فعملت له عجينة من حمض الارسنيك والمرفين وضعتها في الخرق واعطيتهُ حبوباً من سلفات الكينا وعند نصف الليل ارسل يطلبني لكثرة القيء فنزعت العجينة ومنعتهُ عن أخذ الحب وكان أخذ حبة واحدة فتوجهت الى الصيدلية لأرى الرشتا فوجدت مكتوباً فيها عوض سلفات الكينا سلفات الاتروبين فتهددت الصيدلي لان وظيفته ان يرجع غلط الطبيب فتواقع عليَّ لكتم سره فوعدته اذا لم يحصل ضرر واخيراً كان هذا القيء سبباً لشفاء القنصل لأن الصفراء كانت تهيج له هذه النوب فاخيراً من غلطة كانت شهرتي عند القنصل وصرت طبيب البيت متى اراد الباري نجاح امر يخلق له اسباباً لا يعلمها الا هو .

ولي في هذا المقام ما الاحظهُ على هذا الحادث وهو نسبة الطبيب الى المريض وصاحب هذه الصناعة يجب ان يكون رائقاً غير مضطرب لا يتأثر من حالة المريض اما الحديث فيها نظيري فيظن ان القناصل الهة على الارض وحين يطلبونه يضطرب من عظمتهم وقوتهم ويكثر خطأوه ولهذا يجب على عظيم القدر ان يلاطف طبيبه ويعوده عليه ويمازحه حتى لا يعود يرهبهُ ولا يؤثر عليه فيحصل كما جرى .

(ابنة القنصل) كان لهذا القنصل ابنة لطيفة المعشر تبلغ الثامنة عشرة من عمرها نحيفة الجسم ولكنها فاقدة شهية الأكل بالكلية وزرتها في أحد الايام فقالت لي بلهجة السرور ان شاهيتي في هذا النهار

عظيمة ، وما ذلك من دوائك ولكنني جلست في غرفتي المقابلة لغرفة المائدة فرأيت القواس يأكل باشتهاء عظيم وسرعة كلية وكل اعضائه تتحرك فأثر بي هذا المنظر وجلب لي الشاهية فطلبت الطعام لغرفتي وصرت كلما اراه يأكل ازداد اشتهاء للطعام وكان أعظم دواء لي .

وبالحقيقة ان الانسان اذا كان جالساً على طعام ورأى رفيقهُ يأكل باشتهاء وكان أكولاً تزيد شاهيته ولذلك ترى كبار البطون يتخطفون الطعام من بعضهم وبالعكس اذا كان الواحد قليل الاشتهاء او أكله ببطء وكسل فتفقد الشهية ويضطر الانسان ان يترك طعامه قبل الشبع حياء وأعظم ضرر لفقد الشهية هي عبوسة وجه صاحبة المنزل لأن مهما كان الرجل صديقاً لك وبشوشاً وكانت صاحبة المنزل عبوسة تقرف الضيافة لأن البيت للامرأة وهي صاحبت المحل .

(نادرة) اتفق لي ذات يوم ان أكون مدعواً عند أحد اصحابي في مصر وكان له امرأة عبوسة خلقاً فجلسنا على المائدة وكان معنا جملة مدعوين وقد جال الحديث على الاطعمة واستحسانها فصار كل واحد يذكر لوناً يفضله على غيره اخيراً سألتني صاحبة المنزل لما لا تبدي رأيك في ذلك فأجبتها ان الذي يهمني جمعية الأكل وليس الأكل وأحسن جمعية للأكل هي وجه سخن وماء بارد واذا كان الوجه بارداً والماء سخناً لا تكن جمعية حسنة فقهراً عن برودة وجهها ضحكت وتفتر قليلاً .

(جاري المفلس) كان جاري هذا مفلساً عندما اتى مصر فاشتغل فيها مدة ثلاثين سنة فأكتسب غناءً عظيماً فاخيراً ابتدى (يتمضرط) كما يقال وكانت اولاده تقتدي به بالمصروف والتبذير حتى انه بعد مرور مدة شعر بقرب زوال نعمته وكان وصل الى عمر لم يمكنه فيه مداومة الاشغال فابقى عنده مبلغ اشترى به عربتين سلمها لعربجيين يحاسباه عند المساء ففي أحد الايام كان جالساً على بابه وانا بمعيته ينتظر العربيات لقبض ما اشتغلا والا نفدت احداهما ودفع له العربجي نصف ريال قائلاً ان هذا شغلنا اليوم فكفر الرجل بالسب والشتم حتى نفدت الثانية وكان عربجيها يطالب بثمن العليق لأن العربة لم تشتغل في ذاك النهار لان الحصان كان مريضاً فعندئذ طار عقل الرجل وبعد مدة راق بسبب التعب من الشتم والمسبة وكان في مدة رواقه لطيفاً ظريفاً مسختاً فسألته عن احواله المالية واني سمعت انه غني ولماذا يعمل هذا العمل وانه صار له مدة في مصر فكيف لم يجمع شيئاً لاخرته فأجابني ان مثلهُ كمثل فارة ضعيفة نحيفة دخلت اذن حمار ميت فلضعفها أمكنها الدخول وعندما وصلت الى المخ وجدت نخاعاً طرياً ابتدت تأكل فسمنت وعندما انتهى النخاع ولم يبق لها أكلاً ارادت الخروج فما أمكنها ذلك لسمنها فمكثت قهراً عنها وحيث لا يوجد غذاء ابتدت تبرز وتأكل برازها وتضعف وبقيت في هذه الحالة حتى صار جسمها رفيعاً يمكنه الخروج من ثقب الاذن فخرجت وعند خروجها سألتها جارتها انشاء الله توفقت في هذه السفرة وجمعت شيئاً لاخرتك اخبريني فأجابتها ان مثلما دخلت خرجت وزيادة أكلت خراي .

شراكتي مع محمد بك عوف

كان استاذي حسن بك عوف يحبني كثيراً وقد وعدني باشراكي مع ولده ففتح لنا محلاً في آخر شارع الموسكي وأول السكة الجديدة بسوق الكانتو وكان محمد بك متزوجاً امرأة فرنساوية قطنت مصر مع ابيها وامها واراد حموها حسين بك ان يغير عوائدها ويلبسها حبرة وبرقعاً فلم تقبل ذلك وفي أحد الايام اشترى حسين بك حصاناً افرنجياً فرض واتوا له بطبيب بيطري فبعد أن عاينه امر ان يبقوه على عوائده في الطعام كي لا يموت فاضطروا ان يستعملوا له كل العوائد الافرنجية وكانت كنته حاضرة اذ ذاك فقالت له يا عماه اذا كان الحصان وهو حيوان قد مرض وأوشك ان يموت بسبب تغيير عوائده فماذا يصير بي اذا غطيت وجهي وسترته وغيرت عوائدي فضحك لجوابها وابقاها كما كانت ولها من زوجها ولد اسمه حسين عرفته هذه السنة ١٩٠٧ في المنصورة وهو يعيش مع والدته لان والده تزوج بغيرها .

وكان لهم صديق سويسري الأصل يدعى راول بيكته من اسرة معتبرة وقد حضر لمصر معلماً في مدارس الحكومة علم الطبيعة وكان صديقاً لاسرة مادام عوف بك يأكل معهم يومياً طعام الظهر وهو عالم زكي وقد استعفى وعاد الى بلاده وقد قرأت مؤخراً في احدى الجرائد الطبية انه أكتشف على طريقة لسيلان الهواء وقد دعيت باسمه وعندما توجهت الى باريس سنة ١٩٠٣ رأيت محلاً باسم بيكته وسألت عنه لأزوره فقيل لي انه لا يوجد هناك بل ان المحل بأسمه .

(اسعد الذيب) تاجر اصله من حاصبيا كنت طبيب اسرته وكانت له ابنة عمرها ستين وحيدة له وعاشت بعد ان توفى له تسعة أولاد وكان كل ولد يأتيه يتوفى حين يدرك هذا السن فتحصل له تشنجات وحمى بسبب الاسنان يتوفى بها وكان اولاده لينفاوي المزاج لانه وامرأته كانا بهذا المزاج وكانت يومئذٍ ابنته الصغيرة تدعى شفيقة بهذا السن فأصابها هذا التشنج وعندما رأى الاب ابنته بهذه الحال ذهب الى مخزنه وهي بحالة يأس شديدة وقال دبروا الكفن لفتاتي وأرسل يستدعيني وعندما دخلت البيت سمعت نواحاً عظيماً والكل آيسون من شفائها ويقولون هذا مرض اخوتها فطمنتهم قدر الأمكان واعطيت الابنة مسهلاً خفيفاً مع كمية من سلفات الكينا فتوقفت الحمى وزال التشنج ونحو العصر رجعت لعيادة الفتاة ووجدتها مرتاحة نوعاً فتوجهت الى خان الخليلي لأطمئن اباها وعندما رآني هذا مقبلاً اليه اصفر لونه غير اني تبسمت له فأطمأن نوعاً وسألني عن صحة ابنته فاخبرته بزوال التشنجات فتعجب وقال ان كل اولادي توفوا بهذا الداء قلت له ان المعالجة هي التي أماتت اولادك لا التشنجات لأنهم كانوا يستعملون لهم مدة التشنجات الاستفراغات الدموية وهي تزيد الاعراض عند ذوي المزاج الليمفاوي مع انها ناشئة عن حمى يجب معالجتها لأجل ازالتها فهنا أعطي ملحوظات عن المعالجة بوجه العموم .

قد قلت وأقول دائماً انه يجب على الطبيب ان يدرس حالة المريض قبل المرض لان هذا يتنوع حسب المزاج وتركيب الجسم فالجسم ارض تزرع فيها البزور فان كانت جيدة نمت وان كانت عاطلة فيفسد الزرع

فالجسم أرض والمكروب زوانها والمزاج الليمفاوي احسن ارض تساعد لانماء هذه المكروبات فلذلك يجب على الطبيب ان يفحص مزاج المريض قبل كل شيء .

ثانياً : ان يعرف الزمن الموافق لاعطاء الدواء لأنه اذا لم يكن الوقت مناسباً فالدواء لا يفيد شيئاً وربما أضر بدل نفعه مثله مثل الطعام في غير وقته وهذه الأوقات لا يعرفها الا الطبيب المجرب وبهذه المهارة يفضل طبيب على آخر .

فالمرض الذي هو من أصل ميكروبي يكون كالانسان ذا معيشة يلد ويشب ويشيخ ثم يموت فيلزم في كل دور من هذه الأدوار ان يعطي الغذاء المخصوص فان تناوله المريض بغير وقته أضر به ولنفرض ان مولوداً حديثاً اطعمناه أنواع المحاشي او الكبه أم الكشك او الخبز فلا شك بأنه يموت اي يلزم له في هذه الحال الحليب وقد نوعت الطبيعة الحليب حسب سن الطفل فحديث الولادة يكون طعامه مأءاً ثم يتكاثف كلما كبر الولد سناً وهذه المأكولات تتنوع حسب سنه ويجب استعمال هذه القاعدة بالامراض لان المرض في ابتدائه لا تستعمل له الأدوية القوية القابضة بل الملينة وبالاختصار ان لكل دور من أدوار المرض علاج كما انه لكل سن من عمر الانسان غذاء وهذا ما قصر المؤلفون بذكره في كتب الطب اذ يجب عليهم ان يعينوا الأوقات التي يجب ان تؤخذ فيها أدوية كل داء فالطبيب الحديث الذي لم يكن قد مارس صناعته بل درسها في الكتب وتلقيناً عن اساتذته يحتار في أمره ويخبط في علاجه خبط عشواء .

ثالثاً : يلزم اعتبار مقدار الدواء لان قوته متوقفة على مقداره ولنفرض على ذلك مثلاً ان الخبز أعظم المغذيات لنا فلو تناولنا منه كمية قليلة لا تفيدنا وان أكثرنا منه ضرنا وما النافع لنا الا الكمية المعتدلة التي يمكن الجسم احتمالها فمعرفة هذه الأمور الثلاثة أي مزاج المريض وزمن الدواء ومقداره هي التي تكسب الطبيب مهارة ونجاحاً وهذا لا يعرف الا بالتجارب ولذلك نرى ان الرجل الشهير هو المجرب الخبير المحنك وليس المتحنك وكلما تقدم الطبيب او الصانع في عمره زادت خبرته وشهرته .

عصاة الفرن

كل شيء في بلادنا له اصطلاح ولكل جديد عند اهلها اعتبار وقد ضربوا بذلك الامثال فقالوا لكل جديد رهجة ولكل قديم دفشة فمثل الطبيب او سواه عندنا كمثل عصى الفرن التي تكون طويلة وكلما حركوا فيها النار يحترق جزء منها حتى لا تصلح في آخر الامر لشيء كذلك الطبيب او الصانع فانه ينحط كل يوم وهو لا يشعر بذاته ولا يعرف ان ذنبه تقدمه في السن وترى الامر عكس ذلك في البلاد العظيمة فان الصانع كلما تقدم في عمره زاد اعتباره فيستشيرونه بكل امر عضال لأنه مجرب خبير وترى الكثيرين يتركون اوامر الطبيب الماهر ويتبعون آراء الدجالين ولكنهم لا يسلمون كل مرة ومع ذلك فان مهارة الطبيب

متوقفة على اعتقاد المريض به لأن الاعتقاد يفعل عجائب وله تأثير عظيم ولكنه سريع الزوال فلو اتفق ان مريضاً اعتقد بطبيب ذي المهارة والمقدرة وعالجه هذا بمرضه وتمكن من شفائه في أكثر من المدة التي كان يظنها المريض لقل اعتباره له بالتدريج حتى يضمحل مرة واحدة لأن لا يحسب ان الشفاء خصوصاً السريع ليس بيد الطبيب .

اسرة شكور

أصل هذه الاسرة من عين زحلتا من أعمال لبنان وهي من اصل ماروني لم يزل باقياً منها فرع في مصر استوطنها مدة حكم محمد علي باشا ومنه يوسف باشا شكور رئيس بلدية اسكندرية سابقاً واما الفرع الثاني فأنشأه حنا شكور الذي دخل في المذهب البروتستاني لاختلاف بينه وبين المطران طوبيا عون ولعله أول من أنتظم في هذا المذهب بهذه الجهات وربى اولاده في مدرسة عبيه البروتستانية وهم منصور ويوسف وملحم .

(منصور) حضر لمصر واتفق مع مسز هويتلي على فتح مدارس واخذا ارضاء من اسماعيل باشا مجانياً وعمرا مدارس الفجالة ثم توفي بعدما تزوج بالسيدة فريدة ناصيف من اقاربه وقد تبنتها مسز هويتلي التي هي انكليزية اتت مصر لفتح مدارس مجانية ثم أصبح اخوه يوسف رئيساً محله تزوج بالسيدة كرس من ايرلندا لم يبق من نسله أحد سوى انيسة زوجة سليمان بك ناصيف وبعد يوسف استلمت كل شيء السيدة فريدة وخصوصاً بعد توفي مسز هوتيلي التي لم تترك شيئاً للمدارس فاستلمتها فريدة ودفعت من جيبها الخاص أربعة آلاف ليرة لأجل مداومة المدرسة والان اجرتها للامريكان وكانت أحضرت اخاها أمين ناصيف وجعلته رئيساً فملحم ذهب مع ارملة اخيه يوسف الى بر الشام ثم تزوج انكليزية ورجع الى بر مصر واستخدم في الجيش وهو أول من عرفته من عائلة شكور وهو اعز اصحابي وهذه ترجمته الحربية .

(ملحم بك شكور) ذكرت عنه مدة وجودي معه في المدرسة الوطنية والان أذكر ما أتاه من الأعمال وانا بعيد عنه وهو في القطر المصري فارقته بعد زواجه بمدة ورجع الى مصر ١٨٨١ ثم دخل الحكومة ١٨٨٤ ودخل في القسم الحربي فمن يعرف ملحم بك ونحافة جسمه ورقة مزاجه ولطافته ويقول ان هذا الرجل يفعل افعالاً حربية كالتي نذكرها فلوكان قالها لي أي من كان لما كنت أصدق ولكن هذا العمل في نظارة رسمية لا يخفاها شيئاً ومواقعه هي .

اولاً واقعة جنس الذي كان فيها بجانب الجنرال كرانفيل سردار الجيش تحت نار العدو يحذره من أماكن العدو القوية ويخبره عن الضعيفة حتى انتصر وقد كتب ذلك كرانفيل في النشرة العسكرية في ٢٠ يناير ١٨٨٦ .

ثانياً : واقعة الجميزة في سواكن ١٨٨٧ .

ثالثاً : واقعة توشكي ١٨٨٩ .

رابعاً : واقعة طوكو ١٨٩١ وسنة ١٨٩٦ رافق حملة دنقلاً لكنهُ مرض ورجع فكافأته الحكومة بالمجيدي الثالث والعثماني الرابع ومدالية النيل مع مشبك النيل والجميزة وتوشكي والنجمة المصرية مع مشبك كوكو والرتبة الثانية الممتازة ومع نيشان النمسا والمجر لمساعدته في تخليص سلاطين باشا فلوكان أقوى من ذلك فماذا عمل ولم يزل في الحربية الان مفتش القرعة ومعاشه ٨٧ جنه في الشهر وقد شاهدته هذه المرة في سياحتي لمصر بعد غياب عشرين سنة وأول ما وصلت الى القاهرة طلبته بالتليفون فما كان يصدق انني هناك وانشرحت جداً من مقابلته ومن أخبار ولده منصور الذي هو مهندس في الحكومة بعمل الكبرى .

وكنت مع ملحم الذي كان من عمري كأخوة لا شيء يكدرنا وأغلب الليالي اسهر عندهم كواحد منهم وكنت كثير المزاح معه ففي أحد الايام كنا مدعوين الى الجمعية الفلكية وكان شهر نيسان وكان رئيسها في صدر المحفل فقال لي ملحم ان الرئيس هو الشمس ونحن السيارات حسب علم الفلك قلت صدقت لأنها دخلت هذه الليلة في برج الثور فضحك وسرّ الجميع .

وقولنا برج الثور لان الشمس تدخل هذا البرج في شهر نيسان فهذه الابراج تسمت عند الكلدانيين لانهم اعتنوا جداً بعلم الفلك لعبادة الشمس والكواكب وبرهان ذلك اسماء الابراج لانها موافقة حالة البلاد مثلاً قال ان شهر نيسان تدخل فيها الشمس ببرج الثور يعني ان في هذا الشهر يبتدىء الثور بفلاحة الارض كذلك آذار برج الجدي اعني يولد الجدي وآب برج السنبله أي يجمع سنبل القمح فيه وهكذا لكل شهر ولا توافق هذه التسمية الا لأرض الكلدانيين التي هي بغداد اليوم ولا توافق مصر لأن في آب لم يعد سنبل ولا في شباط برج الحوت بسبب كثرة الامطار وهكذا باقي الاشهر .

(نادرة اخرى) كنا مرة نتناول طعام العشاء وكان معنا رفيق يأكل بسرعة ونظراً لنحافة وجهه كان يرى طويلاً وكان يحركه بسرعة على المائدة فطلب مني ملحم ان أنظم له شعراً فقلت ارتجالاً :

لو كـــان مـــع شمشون فرعي فكـــه ‏ ‏ ‏ أفنى من فلسطين كـــل نفوسهـــا

فضحكنا جداً من ذلك فشمشون هو الذي قتل ألف فلسطيني بفك الحمار قضاه الاصحاح ١٥ عد ١٥ .

نجيب منصور شكور والان منصور باشا شكور

وهو أبن منصور مؤسس المدارس الانكليزية في مصر كما قلنا وان الست فريدة ناصيف صاحبة الأعمال العظيمة وعندما ترملت صبية وهي بغاية الجمال والغناء لم تشاء ان تتزوج مع انها كانت بعزّ الشبيبة فأخذت تربي اولادها نجيب ولويزا فبعد ما تعلم نجيب العلوم في مصر اخذته الى كليات الانكليزية في انكلترا فتخرج فيها حتى تعين مهندساً في السكة الحديدية المصرية وتقدم فيها حتى صار رئيساً لقلم الاشارات والكهرباء ثم استعفى واسس جملة شركات شهيرة وتزوج سيدة عظيمة من عائلة بيت شميل المشهورة وهي أنموذج اللطف والذكاء وخلاف توفيقه الحالي الزايد تقدم في الرتب والنياشين حتى تلقب بلقب باشا وحيث يوجد في العائلة ايضاً باشا آخر وهو يوسف باشا شكور من الفرع الماروني والتفرنج يسميه شكور باشا فصار يقع التباس بينهما ان كان في التحارير والتلغرافات فقدم نجيب باشا تقريراً الى الحكومة كانت تنشره في الجرائد بأنه أخذ اسم ابيه منصور وصار يقال عنه منصور باشا شكور .

هذا اسمه الان ولا اقدر اشرح ما نالني من الفرح عندما قابلته في سياحتي الاخيرة ۱۹۰۷ لمصر وهو بهذا العز والغنى والجاه متواضع النفس كريم الاخلاق والايدي تليق له الثروة وأما السيدة لويزة فتزوجت الامير فائز افندي شهاب قائمقام جزين وهو من أنجب الامراء وذو مودة وزمام واستقامة من الاعمال .

يوسف زامر وملحم طراد

ان لهذين الرجلين خبراً عجيباً واتفاقهما مع بعضهما اعجب لم يشاهد نظيره ابداً لانهما غريبا الوطن فيوسف حلبي ماروني وملحم بيروتي ارثوذكسي والأول متزوج والثاني أعزب وكانوا يقطنون سوية في منزل واحد .

وقد اخبرني يوسف قصة اتحادهما قال : انني من حلب وكنت في بداية نشأتي فقيراً مهنتي الصراع فأتيت من حلب الى بيروت لأذهب الى مصر وحيث لم يبق معي ولا بارة الفرد جلست في احدى القهاوي متأملاً محتاراً امري وبينما انا في هذه الحال يكاد يقضي عليّ من حزني تقدم اليّ رجل مسن وقال لي يظهر يا ابني انك رجل غريب قلت نعم انني حلبي أقصد الذهاب الى مصر قال مالي اراك ساكتاً مفكراً اجبته قد نفذت دراهمي ولم يبق معي شيء لاسافر به او اتعيش هنا قال لا تتكدر يا ابني تعال معي الى منزلي ولا تئس والله يدبر الأمور فذهبت معه وابقاني عنده تلك الليلة وفي اليوم الثاني اعطاني جواز السفر وناولني بيدي ليرة لمصروفي ولا اقدر اصف لك ما اشعرت به من الامتنان له فانحنيت على قدميهِ لاقبلهما وبكيت فمنعني بلطف فقلت له اعلم انني عبد لك ما حييت وكان هذا الرجل هو بولس طراد .

حضرت الى مصر وبدأت امارس صناعتي في المصارعة وفي سنة كان سوق القطن رائجاً اخذني احد السماسرة معه وقال لي اشتر على حسابي بسعر كذا وما تكسبه فهو لك ففعلت وتوفقت ثم صرت تاجراً .

وفي أحد الايام بينما انا جالس في الازبكية باحدى القهاوي رأيت شاباً ظريفاً اديباً خرجه بجانبه فافتكرت انه غريب وكنت اشفق على الغرباء نظراً لما قاسيته فتقدمت اليه وسألته عن أصله ووطنه فقال لي انه ملحم بن بولس طراد من بيروت فلما سمعت هذا الاسم نهضت عن الكرسي كان تياراً كهربائياً دفعني عنها وأخذت الخرج على كتفي وقلت له تعال معي الى البيت وعند وصولنا قلت له هذا بيت ابيك وكلما فيه هو ملك لك واخبرته قصتي مع والده وعرضت عليه مساعدتي في كل ما يريده من الأعمال ونحن الان في منزل واحد منذ خمس وعشرين سنة وقد عرفت ملحم طراد هو رجل ظريف لطيف ذو معروف تاجر ومحله بمصر بآخر السكة الجديدة تعرفت عليه حين كان والدي يرسل لي الدراهم بواسطته وكنت كثيراً ما آخذ منه قبل ان يأتيه تحويل والدي لانه كان يحب الخير وعمل المعروف وقد سكن مع يوسف زامر حتى وفاته ثم تزوج احدى بناته وعال جميع العائلة وفي السنة التي حصلت بها حادثة عرابي اتى الى بيروت وقابلته مع امرأة عمه التي كنت طبيبها في مصر وقد توفي ملحم مؤخراً ولست أعلم اذا كان اعقب ذكوراً ام لا وكان يوسف وملحم مثال الزمام والوفاء والاستقامة .

سرقة مخزن باسكال في الموسكي وجواهره

ان محل باسكال هو أشهر مخزن في مصر لبيع المجوهرات كان مركزه في شارع الموسكي بالصف الشمالي ففي احد الايام بعد الظهر نحو ساعتين بينما كنت ماراً في الموسكي رأيت اجتماعاً عظيماً عند مخزن باسكال فسألته عن سببه قيل لي ان المخزن قد سرق وكيفية حصول هذه السرقة انه حضر الى مصر نحو خمسة اشهر جماعة من الاروام وطلبوا استئجار محل كساحة صغيرة خلف مخزن باسكال بالجهة الشمالية يفصل عنها عدة مخازن فبنوا في هذه الفسحة دكاناً كبيرة من الخشب كانوا يضعون امامها كراسي كقهوة ويقدمون فيها المشروبات وسواها وكانت مملوءة من البراميل فعند نصف الليل كانوا يحفرون الارض ويملاءون البراميل تراباً ويشحنوها كبضاعة الى رفاقهم في الاسكندرية وعندما وصلوا في الحفر الى اسفل المخزن حضر منهم قبل الظهر رجل يطلب شراء قطعة الماس من مخزن باسكال وكانت هناك طاولة كبيرة يجلس أمامها صاحب المخزن ويقف مقابله الشاري ويعرضون عليها البضاعة فصار هذا الشخص يقلب البضايع ويقرع الأرض برجليه ثم خرج بدون ان يشتري شيئاً وعند الظهر ذهب صاحب المخزن الى منزله كعادته وقفل الباب واخذ المفاتيح معه وبقى الخادم البربري حارجاً ولما رجع صاحب المحل وجد البربري في مركزه فدخل والتفت يميناً وشمالاً فلم ير في مخزنه شيئاً فحسب ان بصره قد انخطف فصار يفرك عينيه ثم دعا البربري فدهش ايضاً حين رأى المخزن خالياً خاوياً واتى المستخدمون فأعلموا الحكومة بما جرى وأتى المأمورون وتحققوا ان الأبواب والنوافذ والجدران غير ممسوسة ولكنهم لما تأملوا الأرض وجدوا بلاطة مرتفعة

قليلاً عن سواها فرفعوها واذا اسفلها دهليز اناروه بالشموع ومشوا فيه واذا هو عميق متعرج الى ان وصلوا الى القهوة وهي دكان الخشب فرأوها خالية من السكان .

وفي الحقيقة ان أعظم المهندسين يعجز عن عمل هندسة نظير هذه اذ في كل مسافة كانت توجد زاوية في الدهليز تسنده كعامود وقد تحققوا ان اللصوص خرقت عشرين جداراً قبل ان وصلوا الى المخزن وسرقوا ما فيه وهربوا فاستحضرت الحكومة صاحب أرض القهوة وسألته عن الذين استأجروها منه فذكر لهم عدة اسماء ولكن من يعرفهم وقد أرسلت الحكومة تلغرافات الى جميع الجهات تذكر بها علامات الجواهر وقيل ان قد القي القبض على احد اللصوص في ايطاليا وارسل الى مصر ولكن في ذلك الحين ورد تحرير بدون امضا للموسيو باسكال يهدده بالقتل ان ادعى على اللص فالتزم ان يتنازل عن دعواه ضناً بحياته وهكذا انتهت هذه السرقة العجيبة .

أهل سوريا في مصر

لا شك بأن الذكاء والعقول الثاقبة والشغل والعمل مختص بأهل سوريا وكل بلدة دخلوها نجحوا فيها كما قال عنهم سنك بأنهم يدخلون البلد كصناع او خدم وبعد مدة تراهم أصبحوا كالاسياد يدخل السوري بيتاً كخادم فيه وبعد برهة يصير صاحب البيت فان توفى السيد تزوج الارملة وقام مقامه وهذا ما يقال عنهم في التجارة لذلك تراهم قد ترقوا في أي بلدة سكنوها . وكان المهاجرون يومئذٍ الى مصر بغير هذه الحالة التي هم عليها الان فبعد مدة وجيزة أصبحوا اغنياء وتداخلوا في الرتب الوطنية والأجنبية وقصة سيدنا يوسف تثبت مهارة السوري فانهُ دخلها عبداً فأصبح وكيل فرعون وبعملية واحدة ملك مصر فاذا كان يوسف واحد عمل هذه الأعمال فكيف الان وفيها الوف من اليوسفات فلا عجب من ذلك لأن الغني الكريم لا يلتفت الى ما يذهب منهُ فمصر هي ذاك الغني ولكنها لا تسمح بخروج غناها منها فيبقى كل شيء فيها .

أعظم بخيل في مصر

ان الصدفة جعلتني اتعرف برجل غني جداً ولكنهُ كان لا يستفيد من غناه ولا يفيد اما اولاده فكانوا دارسين مهذبين ظرفاء كرما النفس ولكنهُ كان يعاملهم معاملة الخدم وقد حكى لي أحد اولاده البالغ من العمر نحو عشرين سنة ان والده ارسل الكاتب الى بولاق واعطاه الحمار ليتحمل عليه حطباً وامر ابنه هذا ان يذهب مع الكاتب ويسير خلف الحمار حتى اذا وقع شيء من الحطب يلتقطه فحنق الولد من هذا الامر ورفض اجراءه فعده والده عاصياً وطرده من منزله فأتى يشكو لي امره وطلب مني بعض دراهم لقضاء حاجة له فأعطيته ما طلب وعرفت ان اعدى اعداء البخيل أهل بيته وبالعكس حال الكريم وقد قال لي

ولده لو كنت عالماً ان آخرتي ستنتهي بالسير خلف الحمير والتقاط الحطب المتساقط عن ظهره لما كنت تعلمت ودرست اذ لو كنت جاهلاً لامتثلت امره . وبعد مدة تصالح مع والده وارجع لي الدراهم التي كان استدانها مني وقد حضر مرة يدعوني لعيادة طبية في منزله ورجاني ان اخبر والده بان اجرتي ريالاً واحداً وذكر لي ان عندهم جارية سوداء قديمة العهد يحبها والده لحرصها على المنزل لان امرأته كانت قد توفت منذ مدة وقامت مقامها هذه الجارية فحين مرضها اخبرته عنك ومدحت له مهارتك فسألني عن اجرتك ولما علم انها ريال مجيدي وليس ريالين كعادتك سرَّه رخص الأجرة فطلبك .

(شربة هذا البخيل) عندما توجهت الى البيت وقابلت هذا الرجل وعدت المريضة وصفت لها مسهلاً فسألني عن نوع الدواء وثمنه كعادة البخلاء وقد خبرت هذا الامر فكل بخيل يسأل عن ثمن الدواء حين كتابة الوصفة فقلت له انه مسهل وثمنه زهيد جداً فأجابني هل تعرف المسهل الذي أتناوله قلت كلا قال لي أنظر الى هذه النافذة الشمالية فحين يكون الهواء متسلطماً مدة الصيف واشعر بلزوم اخذ مسهل اخلع لباسي وأوجه باب بدني الى الهواء وبعد مدة احس بمغص فازيل ضرورتي واستريح فتعجبت منه ومن بخله . وبعد ان حضرت الى بيروت وجدت في مجلس ضم بخيلاً نظير بخيل مصر وجرنا الحديث فأخبرت قصة مسهله وانصرفنا وفي اليوم الثاني تقابلت مع بخيل بيروت وقال لي اني اجريت العملية التي اخبرتنا عنها بالأمس فلم تنجح معي قلت له وكيف ذلك فأخبرني كيف جلس أمام نافذة غرفته ووضع رجليه خارج الحديد وهكذا الى النهاية فضحكت منه وقلت له ان الهواء الشمالي في بيروت يختلف عن هواء مصر الذي يتسلط في الصيف . فهذه قصة من نوادر بخيل مصر واعماله التي لا تعد فتأمل .

وكان الوالد يدفع لي ريالاً اجرت عيادتي ويدفع لي الولد الريال الثاني ولست أعلم ماذا جرى بهذه العائلة غير اني انبئت ان اولاده بعد وفاته ذهبوا بتركته الطائلة التي كانت تقدر بنحو مائتي الف ليرة وصدق المثل القائل ما يجمعه البخيل يصرفه ولده المبذر .

حسنجهان أرملة الامير بشير قاسم الشهابي

في شهر ايار سنة ١٨٧٤ بينما كنت جالساً في منزلي بشارع كلوت بك واذ دخل عليَّ رجل من بلادنا وبعد السلام اعطاني التحرير من المرحوم اخي خليل يخبرني عن زيارة الست حسنجهان لمصر وان أكون تحت أمرها والذي سلمني اياها هو عبدالله افندي البستاني شقيق المطران بطرس .

(تأثير اسم الامير بشير) لا شك ان للتاريخ وللأخبار تأثير عظيم على فكر الانسان فكنت دائماً اسمع من والدتي وجدي عما شاهداه من العز والاجلال والمهابة من الامير بشير وكنت اتقابل مراراً مع الشيخ فرحات العازوري الذي لم يزل حياً الى هذه السنة ١٩٠٥ وهو من الذين خدموا ذلك الامير في بيت الدين

وربى احفاده فكان يعيد علينا قصة طفولية الامير كما كان يرويها الامير لاحفاده وكما سمعها من فيه وقد سافر فرحات المذكور مع الامير ورافقه في منفاه الى الاستانة وزعفران بول ولم يتركه حتى وفاته وكان الشيخ فرحات يخبرني كلما عرفه عنه وحيث ان قصة طفولية الامير لم يروها احد من المؤرخين احببت درجها حسب ما رواها لي الشيخ فرحات العازوري لأني اعتبره من أعظم الصادقين وتصديق الرواية يكون من مجراها الطبيعي المعقول ويبتدي الشك فيها متى خرجت عن دايرة العقل فطفولية الامير بشير من أبسط الاخبار واقنع الروايات في مجراها الطبيعي .

توفي والده الامير قاسم سنة ١١٨٠ هجرية الموافقة سنة ١٧٦٨ مسيحية وكان عمره سنة واحدة وأخوه الامير حسن اربع سنوات وكأن لم يكفهما موت والداهما من المصاب حتى تزوجت والدتهما بالامير سيد احمد بالحدث وتركتهما بهذه الحالة ولما بلغ الامير بشير السنة الخامسة عشرة من عمره حضر الى البرج وكانت معه الخادمة التي ربته من صلبها من بيت المشعلاني وكان الامير بشير يتردد على والدته ولكن لا يمكث عندها أكثر من يومين لضيق عين زوجها وكان مولعاً بالصيد جداً فتارة يكون في البرج حيث له عودة هناك وطوراً يذهب الى بشامون ليصطاد وبقي على هذا الحال مدة غير وجيزة حتى خطر له ان يذهب الى دير القمر فحزم امتعته على جمل وأركب عليه خادمته وسار معها حتى وصل الى دير القمر واذ لم يمكنه ان يستأجر محلاً هناك ذهب الى بيت الدين حيث كان يوجد خلوة للدروز وهي محل الكنيسة اليوم وكان موكلاً عليها رجل اسمه ابو علي فطلب منه الامير ان يضيفه فأجاب بكل ترحاب وكان دأب الامير الصيد .

ولما طلب الجزار مالاً جديداً من البلاد وكان الامير يوسف الوالي مساعداً له على تحصيلها ضجت الاهالي وصارت تتوامر على طلب تبديل الامير يوسف من الدولة العلية خصوصاً الطائفة الدرزية التي كانت تحرضها الاسرة الجنبلاطية .

وفي أحد الايام قال ابو علي للامير بشير ان شيخ العقل القاطن الخلوات الزنبقية قرب كفرنبرخ يرغب في مقابلتك فأذهب اليه سراً او بينما تكون تصطاد بين الخلوات لانه يريد اخبارك امراً فلا تدع احداً يشعر بك وكان هذا الشيخ يدعى حسن ماضي من العبيديه من عايلة ابو عز الدين .

وفي أحد الايام بينما كان الامير بشير يصطاد بتلك النواحي مرّ على الخلوات وتقابل مع الشيخ الذي سأله اذا كان يتكتم السر فأجابه حسب العادة بئر عميق قال الشيخ ان الطائفة الدرزية متكدرة جداً من الامير يوسف وتريد تطلب من الدولة تنصيب سواه من العائلة وقد مدح لي ابو علي حسن صفاتك وشهامتك ومرؤتك ومحبتك للبلاد فهل لك ان تكون حاكمنا وقد استشرناك لنعرف رأيك قبل ان نفعل شيئاً فأجابه الامير انني دون شك استطيع ادارة الحكم ولكن من اين لي القوة للحصول على هذا الامر خصوصاً انني محتاج للدراهم التي لا يمكن ان يحصل شيء بدونها قال الشيخ ان الله يدبر كل الامور

فارجع الى محلك وابقى على ما كنت عليه وانتظر مني خبراً آخر وبعد هذه المقابلة توجه شيخ العقل قاسم جنبلاط واخبره بما توقع له مع الامير بشير واتفقا على ارسال الامير اليه ليلاً وعينا يوم المقابلة وبعد مدة اخبر ابو علي الامير بشير عن لسان شيخ العقل ان يذهب سراً ويقابل ليلاً الشيخ قاسم جنبلاط وفي احدى الليالي توجه الامير بشير فوصل نحو نصف الليل الى بيت الشيخ قاسم وقرع الباب فأتى البواب وسأله ما يريد أجابه قل للشيخ ان الذي طلبته ان يحضر ليلاً قد اتى فقال البواب ان الشيخ نائم ولا استطيع ايقاظه أجاب الامير انني اتيت اليه بشغل غاية في الأهمية ولئن لم تسرع بايقاظه فتكون كل مسؤولية عائدة عليك فتوجه البواب وايقظ الشيخ وأخبره عن الرجل فنهض مسرعاً من سريره وقال انر غرفة الاستقبال فسآتي حالاً ورجع البواب ودخل الامير اليها وبقى متحسساً ليعرف من هو لأن حب الاستطلاع غريزة في الانسان ولما حضر الشيخ وقبل يد الامير واجلسه في محله الخصوصي عرف انه ذو شأن عظيم وانه تأخر بادخاله فلربما عد ذلك عليه ذنباً لا يغتفر فدخل الغرفة وخر على قدمي الامير سائلاً عفوه لتقصيره الأول فطمنه الامير وقال له انك عملت واجباتك ولما خرج من الغرفة وخلا الشيخ بالامير بداء يحادثه كما فعل شيخ العقل ويحب له تولى الحكم فاعتذر عن نفسه لقصر ذات يده والضيق الذي هو فيه فقال الشيخ هذا الامر مطلوب مني ودعى في الحال صرافه وهو والد سلوان القهوجي وطلب منه خمسة الاف غرشاً دفعها للأمير وقال له متى احتجت لغير هذا القدر فتجد عندي مطلوبك والان استعد بالمال والرجال وانا اوفق الطائفة الدرزية معك وبعد ان رجع الامير الى الخلوة بداء يجمع الرجال حوله فكثرة الاقاويل وتحدث الناس بذلك وبلغت الامير يوسف فتوسوس من الامير بشير وأرسل وطلب أخاه الأكبر الامير حسن الذي كان من حزب الامير يوسف وقال له ان اخاك الامير بشير بداء يفتن في البلاد فأذهب واقنعه وتهدده فسمع هذا الكلام احد رفاق الامير بشير في الصيد وهو فارس نصيف من اهالي دير القمر الذي صار فيما بعد مدبراً له رغماً عن رعانته فاتى وأخبر الامير بشير ان اخاه الامير حسن آتٍ اليه ليقتله بامر الامير يوسف فأخذ عندئذٍ بارودته وحشاها وتقلد سيفه وجلس على مصطبته وبعد قليل رأى اخاه صاعداً الى الخلوة فلما اقترب منه تناول بندقية وقال له بصوت جهوري ارجع من حيث اتيت لانني عالم سبب قدومك ولئن تقدمت فاني قاتلك قبل ان تقتلني وعبثاً حاول اقناعه بسلامة نيته فلم يقتنع وأخطر الامير حسن ان يرجع من حيث اتى فرجع فوجد الامير يوسف نائماً وقابل الشيخ سعد الخوري الذي كان مدبراً للامير يوسف وأخبره ما توقع له مع اخيه فقال له الشيخ لا يلزم ان تطلع الامير على هذا الامر بل اخبره انك قابلت اخاك وعنفته على الفتن التي يلقيها في البلاد فتعجب من هذا الأمر وقال هل يستطيع اجراوها رجل فقير مثلي وانني ما اتيت هذه البلاد الا املاً بمساعدته ولي مدة من الزمن هنا ولم يلتفت الي مع انني من اقاربه ومستعد لخدمته بكل ما يطلبه مني وأوصاه ان يكتم عن الامير مقابلتهما فشكر له الامير حسن هذه النصيحة وبعد مدة استفاق الامير يوسف من نومه وطلب الشيخ سعد الخوري وسأله هل قابل الامير حسن أجابه كلا فطلبه ولما حضر أعاد عليه ما علمه الشيخ سعد فعند ذلك هداء غضب الأمير فلما رأى الشيخ سعد هذا التغيير قال الى الامير انني ارى الامير بشير محقاً في قوله فلماذا تسمح له باثارة الفتن وهو بقبضة يدك ولعل الفقر هو الذي دعاه لهذا العمل فالأحسن ان تسكته وتعينه في خدمة الامير وهنا كثير من الخيل فأرى ان نرسل له فرساً ونطلبه فيأتي ونستفيد من خدمته فاستصوب الامير يوسف رأيه وامر بارسال فرس

للامير بشير وان يستقدموه اليه فأخذها احد السياس وعندما وصل الى الامير بشير سأله عن الفرس أجابه ان الامير يوسف ارسلها اليك وانه عينك في خدمته فقال له ان هذه الفرس وعدتها ليست من مقامي فارجعها الى الذي ارسلها فتردد السائس في تنبيه امره عندئذ تناول بارودته وذال له ان لم ترجع فاني اقتلك فأخطر السائس ان يعود ويخبر الامير يوسف بما سمع من الامير بشير وكان حاضراً عنده للشيخ سعد الخوري فقال للامير يوسف اني ارى الامير بشير محقاً برفضه هذه الفرس لأنه يوجد عندنا خيل وعدد خير منها فلنرسل له فرساً من خيار الخيل ووافق الامير يوسف على رأي مدبره وارسلوا له حصاناً نجيباً وعدة من أفخر العدد فحضر الامير بشير وقابل الامير يوسف واستخدم عنده .

(زواج الامير بشير) قد قلنا عن توجه الامير بشير بأمر الامير يوسف الى حاصبيا لاصلاح الامر بين ارملة وورثة زوجها وانتهى الامر بزواجه بها وكانت غنية جداً فتزوجها وأحضرها الى بلاده واشترى بدراهمها بيت الدين والجيه وهي والدة اولاده الذكور الامير خليل والامير قاسم والامير امين وقد دفنت في سراي بيت الدين والقبر العظيم الموجود هناك هو قبرها . وبعد رجوع الامير بشير من حاصبيا بقيت الفتن على حالها ثائرة من كل جهة ويئس الامير يوسف من حكم البلاد لان الجزار كان لا ينفك عن طلب الدراهم وكاد الأهلون يعجزون عن الدفع فجمع اليه الاعيان وقال لهم انه يريد الاستعفاء وكلفهم ان ينتخبوا سواه فأجمعوا على انتخاب الامير بشير الذي كان قد تخابر سراً مع الجزار بهذا الشأن ولما رأى الامير يوسف ان كل الأفكار مجمعة على انتخاب الامير بشير خلفاً له دعاه اليه وكلفه ان يذهب الى عكا لمقابلة الجزار مفتكراً انه يلقي القبض عليه لحين وفاء الاموال ولم يدر في خلده ان الدسائس بين الامير بشير والجزار منصوبة عليه منذ مدة طويلة فأطاع الامير بشير الامر وطلب ان يذهب معه خمسة عشر رجل ويكون منهم فارس نصيف وان يعطيه خمسة الاف غرشاً ليسلمها الى الجزار فأجاب الامير يوسف طلبه وتوجه الامير بشير الى عكا واتفق مع الجزار على مال معلوم والبسه الخلعة وأعطاه عسكراً ليذهبوا معه ويطردوا الامير يوسف من منصبه وقد صدق الامير بشير في ما قاله للأمير يوسف قبل ذهابه لعكا انني أذهب من هنا وانا ابنك وارجع وانا ابن الجزار فأجابه الامير يوسف عندئذٍ ليأكلها السبع ولا الضبع ومن اراد الاطلاع على تتمة حياة الامير بشير فليطالع كتاب الاعيان في جبل لبنان .

ولنرجع الان الى حسنجهان وهي جركسية الأصل ارسل الامير بشير الى الاستانة جوهرجيه واشترى له ثلاثة جوار فأعطى واحدة الى الامير منصور وواحدة الى ولده الامير قاسم وتزوج الثالثة وهي حسنجهان وعلمها العربية أحد كهنة الارمن وولدت ابنتين الست سعدا تزوجها الامير سليم عبدالله والثانية الست سعود تزوجها الامير خليل ابي اللمع وقد ملكها الامير سراي بتدين مع المقاصف وباعتهم كما ذكرنا وقسمت الجية الى ابنتيها وصرفت اموالاً لا تحصى ظناً ان تربي بذلك شهرة وتحكم لبنان محل زوجها وبعدما صرفت هذه المبالغ الباهظة شاروا عليها ان تذهب الى مصر وتقابل خديويها اسماعيل بن ابراهيم باشا الذي كان الامير بشير من اعز اصدقاء والده وعلى ذلك توجهت ونزلت في بطركخانة الموارنة مع ذويها الذين

كانوا عشرة منهم صهرها الامير سليم وعبدالله البستاني وابو ضهر من صيدا وخلافهم وعندما ضج الاب جبرائيل صفير من هذه الضيوف عملنا طريقة الخواجه يوسف شكور وانا بواسطة رياض باشا بان تنزل في المضيفخانة على حساب الخديوي فصدر الامر بذلك وبقيت خمسة اشهر في مصر ولم يقابلها الخديوي اخيراً مرضت وطلبت السفر الى بلادها فأعطاها الخديوي خمسماية ليرة مصرية وسفر عشرة من ارفاقها وسفرها على حسابه الى بيروت وحينئذٍ طلبتني ان اتوجه معها نظراً الى مرضها .

(منسى) لا أعلم كيف تعرف الامير سليم بمنسى واخبره عن شغله فكان يعده الوعود الحسنة وانه سيقضي له كل اشغاله وكانت نارجيلة الامير بشير مع صهره الامير سليم وهي عظيمة جداً زجاجتها وباقي ادواتها من الفضة المشغولة وحين ما كان يحضر منسى عند الامير يقدمون له هذه النارجيلة ليدخن بها غير ان منظرها كان يدوخه أكثر من التنباك اخيراً طلبها من الامير بكل دناءة وبحيلة شيطانية دعاه أن يسمح له بها ومعلوم ان افراد الاسرة الشهابية مصابون بداء الكرم وأخصهم الامير سليم فأعطاه النارجيلة آملاً ان يقضي له اشغاله بمصر غير ان امله قد خاب فقد اختفى منسى ولم يعد يراه وحين اخبرني الامير سليم هذه القصة لمته لعدم اعلامي بالذين يتعرف عليهم بمصر لكي لا يقع في هكذا احابيل واخيراً لأجل تعزيته بفقد نارجيلته التي عز عليه فراقها جداً نظمت الابيات الآتية مزاحاً عن لسانه :

اركيلتي مـــاذا البعـــاد وذا الجفـــا	اين الوداد وأين حبي والوفـــــا
عشرون عـــامـــاً اين كنت رفيقتي	وشريكتي أوقـــات غم او صفـــا
قـــد كـــان تغريـــد الصبـــاح يهزني	طربـــاً وبقلق طرف انس قـــد غفـــا
سلب المنسى القلب منك وليتـــــهُ	فيما سبي من قبـــل ذاك قـــد أكتفى
قطـــع المخـــاطر قلبهـــا ومعـــاركـــاً	وعفى ومن نصب المنسى مـــا انعفى
فرعون مـــا ظلم الرعيـــة مثلما	ظلم المنسى شيشتي ثم اختفى

(سبب عدم مقابلة الخديوي الست حسنجهان) ان أحد رفاق الست كان يلفي على بيت منصور باشا يكن صهر الخديوي بسبب ان احد ابناء بلده وهو الشيخ بازا كان هناك ومن جملة الاحاديث قال ان الست حضرت لأجل ترمي امام الخديوي سندات مالية كانت على والده الى الامير بشير مدة وجوده في سوريا وتطلب منه ان يتصرف بها كيفما شاء فعندما سمع الخديوي بذلك سأل عن غاية مقابلتها فلم تجب بشيء سوى قصدي التشرف بالمقابلة فعند هذا الجواب تحقق الخديوي الخبر الذي بلغه من جهة بيت منصور باشا فافتكر مالي وهذه المقابلة فابتدا يحدفها حتى ضجرت الست ومرضت وطلبت السفر .

فهذا هو فضل (طق حنك) الخدامين وضررهم لأن لا شيء اضر على الرجل السياسي من كثرة كلام مستخدميه لان كثير الكلام يحب احياناً يخترع كذباً ليرضي سامعه واذا كان السامع يظهر الانشراح له او المدح يزيد هذا الثرثار في الكلام ويفرغ جرابه فلذلك يلزم ان ينتبه رجل السياسة الى خادمه او لا

يتكلم امامه شيئاً او اذا عرفه بهذه الصفة لم يستخدمه وهو الأحسن لان ولو ما تكلم امامه شيئاً فانه يخترعه ان كان الكلام له او عليه ولهذا السبب كانوا يسمون المستخدم كاتم اسرار فكيف يكون كثير الكلام كاتم اسرار .

اذا كـــان صدر المرء بـــالسر ضيق فصدر الـــذي يستودع السر أضيق

(سفرنا الى بر الشام) وفي اليوم الثاني سافرنا الى الاسماعيلية ونزلنا في ترعة السويس الى بور سعيد وفيما انا في بور سعيد حضر لي تلغراف من مصر بحضور والدي مع اخي أمين وان ارجع من كل بد فأخبرت الست بذلك فما قبلت لأنها مريضة فأرسلت تحريراً الى والدي بعدم امكان رجوعي بسبب مرض الست وان بعد عشرة أيام أكون عنده وفي اليوم الثاني توجهنا بالفابور النمساوي الى حيفا حيث لم تشأ ان تنزل في بيروت وبعده توجهنا الى صور ومررنا على رأس العين راكبين البغال وعملنا للست محارة على بغل ومقابل لها صانعتها .

(رأس العين) لما وصلنا الى رأس العين لم أعرف كيف نزلت عن البغل وكنت أشعر كأنني باقٍ عليه وقابلنا الخواجا حبيب نجار الذي كان ضامنها وله معرفة بالامير سليم وأول عمل اتيته هناك انني نزعت حذاءي وكلساتي ووضعت رجلي في قناة الماء وشربت كثيراً حتى ارتويت وغسلت وجهي ورأسي الذي كان محترقاً من حرارة الشمس ونسيت اني طبيب اعرف مضار هذا العمل ولكن من كانت حالته كحالتي عندئذٍ يفقد عقله والذي زادنا ضرراً أكلنا الخيار التشريني الذي قدمه لنا الخواجه نجار .

تسمي الافرنج هذه المياه مياه سليمان ظناً ان سليمان الحكيم هو الذي اجراها ولا يعلم لها أصل ويقال انها آبار ارتوازية لا يعرف لها عمق تدفع الماء من اسفل الى أعلى كأنها نوفرة بقوة غريبة وكمية عظيمة حتى تساوي نهراً فتنصب في اقنية تدير مطاحن وتسقي تلك الاراضي وترويها حتى البحر وقد نظرنا القسم الأكبر منها وهي تخص الحضرة العلية السلطانية وتسمى جفتلك رأس العين وكان مشتريها الأول درويش باشا اوصى بها لكل سلطان يتولى خلافة العرش العثماني الأنور ويبلغ ضمانها من الحرير والمطاحن وخلافها نحو مائتي الف غرش وهي التي يقال عنها صور القديمة لأنها كانت مدينة كما يذكر التاريخ عن صور الاصلية وهذه المياه لوحدها تكفي مدينة كصور الاولى اما مياه صور الحالية فيقال انها متسربة تحت الأرض من مياه رأس العين ومياه صور من العجائب لانها صنعة انسان ولم تعلم كيفية صنعها .

وفي اثناء ذلك رأينا السيدة حسنجهان متجهة من أسفل رأس العين قاصدة صور بدنون ان تمر من هناك فركبنا حالاً وتبعناها فوصلنا الى صور نحو الغروب .

صور امبراطورة البحار سابقاً

لست أذكر تاريخ صور لأن كثيراً من المؤرخين قد تقدموني الى ذلك بل اقول انه كفاها شرفاً انها ابنة صيدا ومعناها الصخر وقد فاقت الابنة بجمالها وقوتها والدتها وهي التي كانت امبراطورة البحر وبحاروها اكتشفوا اوروبا وخلافها ولفظة اوروب هي فينقية معناه الغروب وان الالاه هرقل الصوري الذي كانوا يعبدونه ويذكرون سياحاته لليونان واوروبا وافريقيا ليس هو الا رمزاً للفتوحات التي اجراها أهل صور. ولا تتعرض لذكر ما كانت عليه من الغنى التجاري بل أذكر ثلاثة امور سبقت العالم اليها ولم يزل الناس ينتفعون بها الى اليوم وهي اولاً اختراع الكتابة والثانية صبغة الارجوان التي كانوا يستحضرونها من صدف مخصوص في البحر وكان يلبسه ملوك ذلك الوقت ثالثاً الزجاج فهم الذين اكتشفوا صناعته ومن العجب ان هذه المدينة التي علمت العالم الكتابة ولبس الارجوان وصناعة الزجاج وسير المراكب في البحار ليس فيها الان ما يستحق الذكر ولا يأتيها مركب. وقد ذكر حزقيال في نبواته عن غناها أما عن قوتها في ذلك الوقت فحدث ولا حرج وهي التي قاومت سنحاريب ملك اشور وحاربت اسكندر المكدوني ذا القرنين وجهزت لقتاله اربعمائة الف محارب وكانت مقسومة الى قسمين الأول في الجزيرة والثاني في البر وصلب الاسكندر أهلها في الجزيرة ومن ذلك الحين أخذت في الانحطاط ولما افتتحها الصليبيون أخذت لها شيئاً من الأهمية وقد نبغ منها المؤرخ كليوم الصوري وكانت تابعة لابرشية صيدا عند الموارنة ففي سنة ١٩٠٦ قسمت لحالها وكان أول مطران عليها من قبل رومية لانها هي التي تنتخب أول مطران لابرشية جديدة ابن عمنا المطران شكرالله اكخوري الذي عملت له قصيدة لأجل ذلك سأذكرها فيما بعد وقد كان قبلاً يرسلون لها خورياً يسمى نائب مطران ومن الجملة خوري اسمهُ يعقوب زاد مصائبها وقد قلت بذلك :

ومن عــــــدد المصائب لأهـــــل صور	وحزقيـــــال أنبـــأنـــــا عليهــــــا
بــــــأنَ يزورهـــــا يعقوب يومــــاً	ويبقى نــــــائب المطران فيهــــــا

وفي صباح اليوم الثاني ركبنا وتوجهنا بطريق صيدا وهي سهلة جداً وعند الظهر وصلنا الى محل يسمى عين القنطرة تناولنا فيه طعامنا واتى لاستقبال السيدة جمهور من صيدا أكثرهم من بيت أبي ظهر وبعد ان جلسنا معهم مدة توجهنا الى الهلالية وهو مركز جميل كان لها فيها دار جميل واليوم خراب وفي اليوم الثاني توجهت الى بكاسين بعدما دفعت لي السيدة حسنجهان مابة ليرة انكليزية أنظر هذا الكرم وصلت بكاسين وشاهدت والدتي وكان توفي يومئذٍ ابن عمنا فرنسيس الخوري وله أربعة اولاد ولم يترك لهم ما يعيشون براحة فأخذت معي أكبرهم المسمى رشيد وسافرنا الى بتدين لروية اخي خليل الذي كان كاتب مجلس الادارة ثم توجهنا الى بيروت وفي اليوم الثاني نزلنا البحر فاشعرت ببرد وحمى قوية بقت معي الى يافا ثم رجعت وسخنت في بور سعيد وبقت معي الحمى الى ان وصلنا مصر أول الليل فقرعت الباب ففتح لي اخي امين فقبلته وقبلت يدي والدي وانطرحت على الفراش لا اعي شيئاً سوى قلت لهم ارسلوا اطلبوا

لي معلمي سالم باشا سالم فبالصدفة كان اخي عرف اسعد افندي ابو نحول رفيقنا في المدرسة توجه معه صوبتاً لطلب سالم باشا .

(حالة والدي وقتئذٍ) كان والدي يحبني جداً ليس فقط بالنظر لحنوه الوالدي بل لأنه كان يرجو مني كل راحة في المستقبل وقد حضر مع اخي امين من بر الشام ليدخله في مدرسة الطب وكانت قد مرت عليه خمس سنوات لم يرني فيها وعند حضوره لمصر كان مؤملاً رويتي فرآني مسافراً ولم يكن يعرف احداً ولما رجعت الى مصر وقابلني كنت مصاباً بالحمى [1] ومعي ولد يتيم اخبره وفاة والده ابن عمه فحين اتى سالم باشا لعيادتي وسأله عن حالتي أجابه اني بخطر شديد فتصور حالة والد غادر وطنه ليرى ابنه في الغربة آملاً منه المساعدة فرأى عكس ذلك وشاهده على سرير الموت وكان بحالة يرثي لها وبقي مدة اربعة ايام لا يعرف طعاماً او مناماً حتى ذهبت عني الحمى في اليوم الرابع وبعد ان شفيت من الحمى بقيت مدة من الزمن ضعيفاً وهذا المرض أتاني عندما غسلت ارجلي ووجهي وشربت بسرعة وانا عطشان من ماء رأس العين ولو كانت اصابتني هذه الحمى في غير مصر لكنت في عالم آخر (ويمكن البعض يقول للقرد) .

رسامة بطريرك الاقباط الارثوذكسي

(كيرلس الحالي) وعندما فارقتني الحمى وارتاح فكر والدي اخبرني ان مراده يحضر رسامة البطريرك لان البطركخانة كانت بقربنا ولد غبطته سنة ١٨٢٤ ارتسم بطريركاً سنة ١٨٧٤ ولم يزل حياً الى اليوم ثم بعد ذلك ادخلت رشيد في مدرسة بيت شكور في الفجاله خارجياً وكذلك دخل اخي امين من المدرسة الطبية وانشرحت جداً من ذلك لأن صار له مصلحة مستقبله .

وأعظم مساعد كان لي دولتلو رياض باشا ناظر المدارس يومئذٍ وكذلك الخواجه يوسف شكور وعند ما قرب أول الحر في مصر وكان أول نيسان طلب والدي الرجوع الى البلاد وكان اخي خليل حرر له من قبل عمون بك عمون الذي كان يومئذٍ رايس الادارة للمرة الثانية وكان اخي كاتم اسراره ويحبه جداً ان يحضر ليكون عضواً في دايرة الجزاء التي شكلها رستم باشا لأنها كانت مع دايرة الحقوق ولكثرة الاشغال فصلت عنها وعندما توجه والدي وكنا نستنظر اخبار وصوله وفد علينا منه تحرير يخبر عما أصاب لبنان وصابه بالخصوصي بتوفي عمون بك فجأة سنة ١٨٧٥ وان اخاه انطون بك جلس محله وباقي محافظاً على اصدقاء اخيه وانه تعين عضو في دايرة الجزاء فيكون اول عضو عين عن جزين في مجلس الادارة وأول عضو عن الطايفة المارونية في دايرة الجزاء فعندما سافر والدي الى مصر كان بدون مصلحة لانه مدة فرنكو باشا تعين بعد عضوية الادارة عضواً في الدفترخانة التي عندما حضر رستم باشا ألغاها وأصبح والدي بدون شغل ولذلك امكنه الحضور الى مصر وبعد توجه والدي الى لبنان ودخول اخي في المدرسة بقيت وحدي في

مصر مع رشيد الذي كان يتوجه نهاراً الى المدرسة ويرجع مساء فكنت أخذه معي اذا سهرت خارج البيت وأقفل البيت واعطى مفاتيحه الى الدخاخني الساكن بجواري .

(الرومي الدخاخني) وكان جاري شيخ اللصوص كان مستأجراً دكاناً يبيع فيها الدخان أسفل منزلي وكنت اشتري دخاني منه وحين اتوجه للسهرة ليلاً وأخذ معي رشيد أقفل الباب وأسلم له المفتاح لاعتقادي ان اللص لا يخون متى اؤتمن وبالحقيقة لم يكن يفقد لي شيء ففي أحد الايام بينما كنت امزح معه قال لي انك شيطان رجيم اجبتهُ لماذا قال لو لم تسلمني مفتاح بيتك لكنت سلبت ما فيه قلت له لو حوى منزلي شيئاً لما سلمتك مفتاحه لان طعامي اتناوله من الخارج والدراهم مودوعة في غير محل قال الا يوجد فراشك قلت بلى قال اسرقه قلت انه لا يساوي تعب حمله قال كل ما أخذه السارق ينفعه اذ لا يكون قد دفع ثمنه وكان قصده بذلك ان يفهمني انه محافظ على منزلي .

(جمال الدين الافغاني) في اثناء المدة التي وجدت فيها بمصر اتاها الشيخ جمال الدين الافغاني وبعد برهة وجيزة أكتسب شهرة عظيمة وأخذ له عدة تلامذة وكان يتردد على بيت الخواجات شكور وقد حضرت احدى جلساته وتأملت ما كان يقوله فلم اسمعه أجابني على سؤال علمي عند مباحثتي واياه وها اني الان اصوره كما عرفته في ذلك الحين .

هو فصيح النطق جداً ذو براهين يسردها بمهارة كلية ولو كانت مخالفة الحقيقة فان السامع يتوهم الحق بجانبه وفي الغالب لا يكون سامعوه من العلماء وقد رأيته يجهل كثيراً من العلوم الحديثة غير انه يسرد عنها البراهين كما تلقنه عن العلوم القديمة في اليونانية او العربية وكانت سياسته تنقلب طوع أفكاره فكان يطعن بالانكليز طعناً شديداً لأنهم اثروا على بلاده ويتنبأ بقرب زوال دولتهم قائلاً فيما قاله ان هذه الدولة التجارية القديمة كصور وقرطاجة وخلافها . وكان سهل العبارة طلقها يطعن باضداده طعناً شديداً ولعله بعد ذهابه الى فرنسا وانكلترا والاستانة العلية وبطرسبرج قد درس علوماً حديثة أما سبب شهرته ففصاحته وقد توفي بداء السرطان في لسانه وهو مقيم في الاستانة العلية منذ خمس سنوات .

(سليم افندي البستاني) عندما حضر الى مصر لأجل عمل دايرة المعارف نظمت له قصيدة اتت حسب افكاري في ذلك الحين وهي افرنجية الافكار :

قف يا اله الحسن كم من عابدٍ ... اضحى شهيد جمالك الفتانِ
في مصر انت امون والباعال في ... سوريا ايضاً زهرة اليونانِ
لا تخشى ان عبادك انقرضوا وان ... عنك استمالهم اله ثاني
لا بل لك العباد اعظم طاعة ... ممن مضوا في سالك الازمانِ

قد كان يهدي فوق مذبحك العلى ... من كافة الاثمار والحيوان

والان ضحى فوقه بتشوقٍ ... قلب الذي يهواك من انسان

فاقت مذبحك الخدود لانها ... نار الوقود لكافة القربان

لما رأى زردشت ساطع نورها ... فغدا يبيح عبادة النيران

قربت قلبي قبل كل مقربٍ ... فغدوت أول عابد الاوثان

طمعاً بنيل القرب من تقريبه ... أو نظرة تطفي لظى الظمآن

او سعفة في شكوتي تلك التي ... ثبتها علناً بكل مكان

أنت الذي في بعض شعرك قائل ... بفصاحة فاقت على سحبان

لو كان في دول الاحبة رتبة ... كنت الجدير برتبة النيشان

وأقول لو جعلوا بحبك رتبة ... لحظوت في تاج من التيجان

أبكي دموعاً ليلتي ونهارها ... حتى تبدي الدمع أحمر قاني

لم أدر ذنباً غير اني مؤمنٌ ... كلا ولا سبباً الى هجران

حتى واسباب الهوى لم ادرها ... يا هاجري لا والذي ابكاني

لم استفد من تي الشكاية لا ولم ... اسمع حديثاً في الهوى عزاني

فعرفت اني اليوم محتاج الى ... نطق السليم وليس نطق لساني

حتى ابين حالتي بلسانه ... بفصيح أقوال وجل بيان

ولأخبرن ما ناله من كلمة ... وبلاغة فاقت على الاذهان

واجيد فيه وصف عقل ثاقبٍ ... شبهتهُ بملائك الرحمن

قالوا ملائكة الاله للطفها ... لم تخرجن من جنة وجنانِ

لكنني لما رأيت سليمهم ... في الارض لاح بصورة الانسان

ايقنت ان الحارسين بغفلة ... واليوم هرّبه لنا البستاني

(طلبي سوريا لمرض والدي) عندما كنت احرر كتابي صحة المتزوج كنت اتوجه الظهر الى مدرسة الفجالة لبيت شكور واجلس في الغرفة التي فوق الدرج لأن صاحب البيت الخواجه يوسف كان لم يزل في مصيفه يومئذٍ بلبنان في عين زحلتا ولم يكن في المنزل سوى اخيه ملحم وكان وقتئذٍ معي اخي امين لانه كان باجازة شهر رمضان وذلك في شهر تشرين الأول سنة ١٨٧٥ وبينما انا لوحدي في غرفتي دخل عليَّ اخي امين وبيده تلغراف من بيروت فيه والدكم بخطر كلي احضروا .

وكان هذا التلغراف صاعقة سقطت علي فتركت الكتابة وذهبت الى منزلي لأبحث على علم سفر الوابورات فرأيت ان بعد ثمانية ايام يتوجه وابور الى سوريا فاضطررت ان انتظر مكرهاً وكنت لا أنام ليلاً ولا نهاراً افتكر بذلك الوالد الذي قضى عمره بالتعب والمصاريف عليَّ وحين قرب وقت اسعافي له

وتخفيف اتعابه يموت عني بعيداً فلا استطيع اراه المرة الاخيرة لأودعه واناك بركته وكنت أطلب من ربي اذا كان لا بد من وقوع قضائه ان يهمله حتى اصل اليه واودعه الوداع الاخير وكانت هذه الثمانية ايام جحيم قضيتها فيه وأرسل يومياً التلغرافات للاستعلام عنه وأدفع اجرة التلغراف ذهاباً واياباً غير اني لم احصل على نتيجة رغماً عن صداقتي مع مدير التلغراف يومئذٍ .

(سلامه باشا) وهو من الذوات المعتبرين شفوقاً ذا احساس رقيق وشعور شريف فحين رأى حالتي امر المأمورين ان يخابروا غزه كل ساعة ويطلبوا منها جواباً على تلغرافاتي لانها حدود مصر ففعلوا غير اننا لم نحظ بجواب فقال له سلامه باشا ان التأخير من سوريا فنزلت الى بور سعيد مؤملاً ان احظى هناك بجواب وأخذت معي رشيد وبقي أمين في المدرسة .

ولما وصلت الى بيروت اسرعت الى احد عملائنا المواطنين وسألته بلهفة عن صحة والدي وهل لم يزل في قيد الحياة وكنت انتظر حكمه كمن يتلقى حكم الموت فاخبرني انه بخطر لكنه لم يزل حياً فتركته وذهبت استأجرت خيلاً لذهابي مع رشيد الى بيت الدين لان العربات لم تكن قد وصلت الى هناك واشرفنا على بيت الدين الساعة الواحدة ليلاً وقبل ان ادخل غرفة والدي دخلت على والدتي وقبلت يديها ورجوتها ان تخبر والدي تدريجاً بقدومي كي لا يتأثر ففعلت وكنت اتكلم بصوت عالٍ ليسمع كلامي وبعد ذلك دخلت عليه وانكبيت اقبل يديه وقبلني وكنت أمنع نفسي عن البكا كي لا يخاف ويحسب ذاته انه بخطر ولما رأيت ضعفه العظيم كاد عقلي ان يطير وكان لا يستطيع الحركة ولكنه مالك كل حواسه وتحققت انه مصاب بالدوسنطاريا التي كانوا يعالجونها في ذلك الوقت عكس معالجتها الطبيعية .

(نظريات المعالجة) فليعلم الطبيب ان الطبيعة هي المحامي الاعظم عن الجسم لأنها متى اشعرت بمرض دخل في جسم الانسان تقاومه وتجهد ذاتها لطرده ولهذه المقاومة علامات كالقيء مثلاً الذي يشعر به الانسان اذا احس بعسر هضم فالطبيعة تعمل جهدها لاخراج المواد المضرة بالجسم ان كان بالقيء او الاسهال وما اشبه .

فالطبيب الماهر يجب ان يقتدي بالطبيعة لانها أعلم منهُ بالجسد فان وجد شيئاً طبيعياً بالمريض كالقيء يلزم ان يساعده بالمقيئات لا كما يفعل بعض الاطباء باعطائه ما يسكن القيء واذا عملت الطبيعة اسهالاً بالمريض يجب ان تمنع عنه الادوية القابضة التي تحفظ هذه المواد المضرة في الجسم مع ان اخراجها منه يكون أعظم راحة له بل سبباً لشفائه وكان والدي مصاباً بالاسهال والاطباء تامر له بالادوية القابضة التي توقف الاسهال وتبقي المواد في الداخل فتهيج الاعضاء وتلتهب فعالجته عكس المعالجة وكان يتدرج بالشفاء والذي ساعد على شفاءه حضوري لانه سر جداً حين رآني واطمأن فكره وقد اخبرتني والدتي انه كان دائماً يطلبني بمدة مرضه وكان لو رأى طيراً طائراً يقول حبذا لو طار الى مصر واخبر ولدي بحالتي .

وكان يومئذٍ عضواً في الجنايات وقد قربت مدة عطلة المركز الشتوي فقابلت دولتلو رستم باشا واستأذنت منه بان اتوجه به الى بكاسين على ان يعود متى تم شفاؤه فأمر بذلك .

وفي أول كانون ثاني اي رأس سنة ١٨٧٦ بينما نحن في بكاسين ورد لوالدي امر بتعيينه قاضياً في جزين .

وكان الامير ملحم حمود شهاب يومئذٍ قائمقاماً في جزين وقد قضى فصل الشتاء تلك السنة في قيتوله ولما شفي والدي استأذنت منه للرجوع الى مصر فلم يسمح لي به مطلقاً وقال لي لو كنت خديوياً في مصر وبعيداً عني ابقى حزيناً لفراقك فلما رأيت ارادته الحاتمة علي بالبقاء وكنت مقسماً ان لا أكدره ولو مهما تكلفت اضطررت ان اطيعه رغماً عن أملي العظيم بالنجاح في مصر ومع هذا كله لست نادماً على ذلك لأن فكري استراح من جهة رضى والدي وانني لم أكدره ورضاه كان عندي خيراً من كل نجاح ومع هذا كله نلت في بلادي ما لم ينله طبيب سواي ان كان بالعلم او الشهرة او المال او الشرف وما ذلك الى من رضا والدي اخيراً حررت الى اخي امين وطلبت منه ان يبيع امتعة البيت لانني ساقطن سوريا امتثالاً لامر والدي .

تأثير مصر عليّ وما أكتسبته من العلوم والآداب

ان للبقاع تأثير في الطباع واذا فحصنا هذه الحقيقة نرى اخلاق كل شعب حسب طبيعة بلاده وكما ان البلاد تؤثر في الجسد والصحة كذلك تؤثر في الاخلاق اقتضاء للمعاشرة فالأرض اللينة الخصبة التي يتناول فيها الانسان معاشه براحة تولد فيه اخلاقاً لينة سهلة وبالعكس البلاد الجبلية الصخرية الشديدة البرد والعسرة الحراثة فانها تولد فيه الصلابة والثبات والاخلاق السيئة والنشاط فمصر هي الارض الوحيدة في الدنيا بسهولة حراثتها وخصبها لان الفلاح لا يجد حجراً مدة حراثة ارضه وعيشه سهل جداً وما عليه الا ان يحرك يده او ثوره او حماره حتى تعطيه الارض خيراتها وما عليه الا ان ينحني على النيل فيروي ظماءه ويسقي حيواناته لذلك اعتاد على اللين والخلق الرضي وأصبح ذا طباع حسنة ومنه تنتقل هذه الطباع الى كل من جاوره او عاشره فالمصري كريم النفس قليل الحسد لأن الغنى سهل عليه لخصب ارضه وحيث ان مصر ذات سهول لها منظر واحد لا يتنوع فلا تلتهي افكار المصري بغير شغله في الحراثة حتى اذا كان ليس عنده ما يعمله اضطر ان يعاشر سواه ولكي يستأنس به اضطر ان يدمث اخلاقه وان يبتدع اموراً مضحكة تلهيه ولذلك ترى المصري رقيق الطبع يحب التسلية كريم النفس لا يحمق ولا يتكدر بسرعة وكل من عاشره وسكن بلاده يكتسب اخلاقه .

وحين حضرت الى مصر كنت كما قلت لم أزل شرساً وقصتي مع الارناوءطي التي ذكرتها حسنت اخلاقي واضعفت كبريائي خصوصاً حين كنت أرى اعيان مصر ووجهاءها العظام يسايرون من هم أدنى

منهم بكل لطف وبشاشة ولما رجعت الى سوريا كانت اخلاقي قد تهذبت وتثقفت كل ذلك لعدم وجود ما يدعو الى الشراسة وسوء الطباع في مصر .

وترى المصري يهزأ دائماً بالشامي ويقول ان له خلقاً غير معروف في مصر وهو النفرة التي يستعملها السوري متى سمع شيئاً لا يوافقه ويذكرون عن ذلك نوادر عديدة منها ان رجلاً سورياً اراد مشترى كعكة محشوة بعض حلويات كانت باهظة الثمن في مصر بالنسبة الى سوريا اي اربعة أضعاف ثمنها المعروف وسأل هذا الشامي بائع الكعك عن ثمنها أجاب غرشين فنفر الشامي منه وقال : قرد والله لو كانت محشوة انبياء وأولياء لما ساوت هذا الثمن . هذا هو الخلق الذي يولد في السوري ولا يعرفه المصري .

قلنا ان منظر البلاد المصرية لا يلهي احداً فيلتزم المصري للتسلي مع غيره او بذاته ان يستعمل الوسائط الداعية له فانتقل اليهم فن الموسيقى واحبوه فالقنوه وابدعوا فيه حتى ان الفاعل كما ذكرنا وهو يشتغل بالبناء يترنم بالغناء ومتى اراد احدهم ان يتسلى بذاته يستعمل الحشيش الذي يرى الانسان كأنه ملك على عرشه ويسمعه انغاماً لم يسمعها ويريه مناظراً تخطف الابصار وتجعل الدنيا أمامه كلا شيء ويضحكه من كل شيء وتأثير الحشيش على الجسم كتأثير الحرارة أي أن يجعله خامداً كسلاناً لا يهيجه شيء فيوافق طبيعة البلاد بعكس المشروبات الروحية التي تهيج الانسان وتولد فيه حرارة اذا اضيفت لحرارة البلاد اضرت لذلك ترى أغلب سكان البلاد الحارة كالهند ومصر يستعملون المخدرات وأهالي البلاد الباردة كأوروبا يستعملون المشروبات الروحية المهيجة لانهم يحتاجون الى حرارة لمقاومة البرد .

(شغلي العلمي) كنت أطالع الكتب الطبية الافرنسية مع العلوم التي أكتسبتها بالمدرسة وتلقنتها باللغة العربية حتى اني عرفت الاصطلاح الطبي بهتين اللغتين وصارت تسهل على الترجمة بهما .

وبما اني تلقيت دروسي باللغة العربية وكانت العلوم التي تلقنتها مطبوعة في كتب عباراتها فصيحة جداً تمرنت على التكلم باللغة الفصحى وسهلت علي اللغة بعد ان كنت اجهلها ولا اعرف منها الا الفاعل والمفعول ونثري كان ركيكاً جداً بعكس النظم لأنه سليقة عندي وميزاني سمعي .

وكنت لأجل تمضية وقتي مدة الاجتماعات بارفاقي اجتهد بان انظم شعراً واشتهرت بين رفاقي بكوني شاعراً وما ذلك الا لعدم وجود بينهم من هو نظيري وأما اليوم يقولون لي انني شاعر ولي ميزان واحد لشعري وهو جعله بدرجة يفهمه الكل لأن هذا هو الميزان اللازم لان ما الفايدة من نظم شعر لا يفهمه الا الشعراء او طبقة العلماء فماذا يعلم ولكن اذا فهمه الجميع يكون له فايدة اعظم لأجل ذلك جعلت ميزان فهم شعري وكيلي أمين مخايل ناصيف من بكاسين الذي هو بالحقيقة أمين ولكنه بسيطاً جداً ولم يعرف القراءة والكتابة ولكن اتخذته لامانته وكنت عندما انظم شعراً أقوله فاذا فهمه ابقيه والا اغير تركيبه لانني اعتقد متى فهم أمين شعري يفهمه الكل وكان انتخابي له كانتخاب احد المطارنة الذي كان بسيطاً لكن تقياً

فطلبته الرعية ان يكن مطراناً عليهم فرفض لعذره انه لا يحسن الخطابة والوعظ اللازمين لمطران فأجابته الرعية اننا منتخبينك للتقاوة وليس للفصاحة اخيراً قبل وبعد سيامته علا المنبر ووعظ وقال يا أولادي لست فصيحاً لاطيل الشرح فقط أقول كلمة واحدة الذي عنده مروءة يطلع للسما ومن دونها لا سماء له بالحقيقة ان المرؤة هي اساس كل فضيلة فهذا كان انتخابي لأمين وهو ميزان فهم شعري .

(خروجي من مصر) خرجت منها عكس بني اسرائيل لم املك شيئاً سوى علومي فقط ولم استعر شيئاً من جيراني وقد ابتدى تنظيمها عند دخولي فأول رصيف للطرقات ابتدى من اليزبكية وشاهدت فتح شارع كلوت بك وشارع محمد علي وعابدين والفجالة وفتح ترعة السويس وبناء الاوبرا والنيواوتل وشارع بنايات ذباني وكل حركة جديدة وأهما كبرى قصر النيل وابتدى البنايات في شارع قصر العيني وسأذكر ما جدّ في غيابي عند سياحتي الاخيرة سنة ١٩٠٧ .

اسماء تلامذة الطب في صفي

مصطفى افندي شكري	محمد نديم
محمد افندي حلمي	السيد حسن
محمد حليم	محمد نسيب
أحمد حني	احمد فوزي
حسن نصره	ابراهيم عساف
محمد فتحي	الياس مدور ونخله مدور
عثمان واصل	سليم الياس
مصطفى سامي	اسعد نحول
احمد نظير	حسين عوره
ابو العينين علي	سعد الدين سعدي

وكان طنوس الخوري وانطون الخوري ونقولا لويس وانطوان الشعراوي في صفوف قبلي ولكن كنا سويتاً وكلهم افندية حتى لا يعتب احد .

فهؤلاء هم رفاقي في صفوفي مدة ست سنوات كنا فيها نجتمع سوية اما الان فلا أعلم اين هم ولا مقرهم ولا ادري ان كانوا في قيد الحياة او توفوا وهل هم اغنياء ام فقراء متوظفين او بلا وظيفة اعزاب او متزوجين عقيمين او ذوي اولاد غير انهم بأي حالة كانوا فيها اهديهم اشواقي وأذكر زمن مساواتنا ايام التلمذة رغماً عما عملهُ الدهر بكل منا وانني اهدي سلامي الى الاحياء ورحماني للذين سبقوني الى الآخرة .

(غالب الخوري البعقليني) هو أول طبيب خرج من مدرسة قصر العيني من بر الشام وكان ارسله الامير بشير مع ابراهيم النجار ويوسف الجلخ ويوسف مرهج والمملوك خورشيد الى مصر لعلم الطب ولد غالب في بعقلين سنة ١٨١٨ ارسله المطران عبدالله البستاني الى مدرسة مار عيدا هرهريا سنة ١٨٣٢ ثم ارسله الامير بشير الى مصر سنة ١٨٣٧ ورجع منها سنة ١٨٤٥ مع الشهادة وخدم البطريرك يوسف حبيش ثم بقي عشرة سنوات طبيب سعيد بك جنبلاط ثم توجه الى الشام وخرج منها سنة ١٨٦٠ وخلصه الامير عبد القادر ثم حضر بيروت وبعده تعين طبيباً في مركز لبنان ثم في جبيل ثم رجع سنة ١٨٩٣ الى دير القمر وتسمى طبيب بلدية فيها الى سنة ١٨٩٦ التي توفي فيها ودفن في دير القمر وهو زوج خالتي بجمه وقد عاش ٨٨ سنة قضاها في العلم والطب وخدمة المرضى ولم يكتسب في حياته سوى ممنونية الفقراء اذا كانوا ممن يذكرون المعروف ومضى ولسان حاله يقول :

أحمـــل نفسي كـــل يوم وليلـــة	همومـــــــا على من لا أفوز بخيره
كما سوّد القصار بـــالشمس وجهــــه	مجداً على تبييض اثواب غيره

ولم يترك الا ابنة وهي السيدة حواء أرملة الدكتور سليمان افندي أبي محول ولم يترك شيئاً من الاموال كما قلنا وكان شاعراً وله حملة قصائد عظيمة ادوباً وكان من زمرة ظرفاء دير القمر اللذين كانوا دائماً يجتمعون سوياً في سهراتهم وهم مارون لطيف اول ظريف وبعده يوسف عيد والمرحوم والدي وبشاره ابو محول وغالب افندي فكان يضرب بهم المثل في الالفة والظرافة .

فرنكو باشا متصرف جبل لبنان الثاني
من ١٨٦٨ : ١٨٧٣

هو أول متصرف وطني للبنان حلبي الأصل من اسرة كوسا ولد في الاستانة العلية ١٨١٤ وتعلم اللغات حتى أصبح يتكلم بستة منها دخل الحكومة وكان أول دخوله مديراً للكتبة في نظارة الخارجية ثم ناظراً للبوسطة والتلغرف ثم رافق فؤاد باشا مأمور فوق العادة في سوريا ١٨٦٠ وكان أول مساعد لفؤاد باشا وعمل خدامات عظيمة وعند رجوعه الى الاستانة تعين ناظراً للكمارك ومنها تعين متصرفاً الى لبنان في ١٤ حزيران سنة ١٢٨٤ هجرية و٢٧ تموز ١٨٦٨ مسيحية وبقي في المتصرفية اربع سنوات وسبعة أشهر وتوفي بسن ٥٩ سنة في بيروت ١٨٧٣ في حارة جدي بمرض القلب ودفن في الحازمية لانه اختارها لدفنه مدة حياته لانه كان يجلس فيها للنزهة وهو أول من شهرها وله ستة اولاد والذين منهم زاروا قبره وحضروا الى لبنان المرحومة ماري مدام نعوم باشا متصرف لبنان الخامس مع اخيها فؤاد بك الذي توفي ودفن بجانب والده في الحازمية واخيراً ولده دولتلو يوسف باشا المتصرف السابع للبنان وهو المتصرف الحالي بحيث قد

أصبحت هذه العائلة عائلة لبنانية فلذاك نترأف على لبنان وتحكم فيه كحكم أب بعائلته وترى فيهم صفة واحدة جامعة الكل وهي حب السلام وراحة الأهالي والامانة العظيمة لدولتهم وهذا كل السياسة .

محاكمة التاريخ لفرنكو باشا

حضر الى لبنان بعد خراب شماليه واضطراب جنوبيه من حوادث داود باشا وكرم وانقسام أهليه وسخط اكليروسه على داود باشا فهد بحكمته كل شيء فسكنت الخواطر وعندما عرفت الاهالي نياته الصالحة وحلمه ومحبته للفقراء وعدم تكبره ورفقه في الاهالي اطاعتهُ بكل ارادة فصار مهما يفعل ينسبون فعله لقصد صالح بدون تغرض وقد جمع بين الاحزاب ووظف من الحزبين وأسكت الجميع بعدله وحسن نواياه وقد قصد تعليم صنعة السجاد في لبنان فدعى معلمين لذلك وعمل معملاً ودخل فيه تلامذة ومن جملتهم ابن عمي حبيب الخوري اسطفان ولم يزل عنده سجاد من عمله في بيته من ذاك الزمن وكان يحب تشجير البلاد فزرع الزنزلخت على الطرقات والصنوبر وامر بزرعه في كل المحلات العمومية .

وعندما رأى ان لبنان وكيل مسخر على غربي البقاع بحيث كان يدير سياسته والولاية تأخذ ايراده تركه للولاية .

وكان يخبرني عن هذه الصفات العظيمة والدي لأنهُ كان عضو الادارة عن أقليم جزين في مدته ثم صار عضواً في الدفترخانه ولم يحدث للبنان أدنى حادث مكدر لا داخلي ولا خارجي في مدته فلذلك يشكره التاريخ وخصوصاً لبنان وقد عرفته مدة رخصتي من مدرسة الطب ١٨٧٠ لأنهُ تعين وتوفي وأنا في مصر .

ماموري فرنكو باشا

(المحاسبجي) اسماعيل افندي ١٨٧١ : ١٨٧٥ .

(كومسيون المتأخرات) سعيد بك تلحوق ١٨٦٩ : ١٨٧٣

(رئاسة المعروضات) قاسم بك نكد ١٨٦٨ : ١٨٧٣ .

(رئاسة الحقوق) اسكندر بك حبيش ١٨٦٩ : ١٨٧٠

الشيخ رشيد الدحداح ١٨٧٠ : ١٧٧٣ .

(مدير دير القمر) داود بك باز ١٨٦٨ : ١٨٧٣ .

(وكلاء مجلس الادارة) الشيخ عيد ابو حاتم ١٨٦٨ : ١٨٧٤ .

(ترجمان أول) اسكندر بك تويني ١٨٦٨ : ١٩٠٣ .

(رئيس القلم الأجنبي) فرنسوا دياب افندي .

(رئيس قلم التركي) اسكندر افندي الحداد ١٨٧٠ : ١٨٧٣ .

(رئيس القلم العربي) بشاره افندي ابو نحول ١٨٦٨ : ١٨٧٤ .

(رئيس الدفترخانه) حنا بك ابو صعب ١٨٦٩ : ١٨٧٣ وكان والدي عضواً فيها بعد الادارة .

(قائمقام الشوف) الامير ملحم ارسلان ١٨٦٢ : ١٨٧٣ .

(قائمقام جزين) الامير سعد شهاب ١٨٦٨ : ١٨٦٩ .

الامير رشيد شهاب ١٨٦٩ : ١٨٧٠ .

الامير مجيد شهاب ١٨٧٠ : ١٨٧٣ .

الامير داود ابي اللمع ١٨٧٣ : ١٨٧٣ .

(قائمقام زحلة) فارس افندي زلزل ١٦٦٨ : ١٨٦٨ .

خليل الجاويش ١٨٦٩ : ١٨٧٣ .

(قائمقام المتن) الامير يوسف علي ١٨٦٨ : ١٨٧٣ .

الامير سعد شهاب ١٨٧٣ : ١٨٧٣ .

(قائمقام كسروان) الامير رشيد شهاب ١٨٦٨ : ١٨٦٩ .

الامير سعد شهاب ١٨٦٩ : ١٨٧٣ .

(قائمقام البترون) الامير ملحم حمود ١٨٦٩ : ١٨٧٣ .

(قائمقام البقاع) اشرف افندي في ١١ كانون الأول سنة ١٨٦٩ وفي آخر شباط للسنة المذكورة رجعت الى الولاية .

(قائمقام الكورة) يوسف افندي بشير ١٨٦٨ : ١٨٧٤ .

وفي مدة فرنكو باشا دخل المرحوم اخي خليل في قلم المحاسبة ثم كاتب في الادارة .

متصرفية رستم باشا

من سنة ١٨٧٣ الى ١٨٨٣ الموافقة ٩ مايس ١٢٨٩ مدة عشر سنوات وشهرين وهو ايطالياني الاصل تربى في الاستانة العلية مع والدته وخدم الدولة بكل امانة وقد كان سفيرها في بطرسبرج لما تعين متصرفاً على لبنان ولما انتهت مدته انتخب سفيراً للدولة العلية في انكلترا وتوفي هناك عازباً سنة ١٨٩٤ وقد عمر كثيراً .

(أوصافه) كان عصبي المزاج طويل القامة نحيف الجسم سريع التأثر عادلاً محافظاً جداً على حقوق الجبل وكرامته لأنه كان يشعر ان مخالفتها تمس كرامته متسلطاً ذا هيبة وطباع قاسية عفيف الذيل جداً بالرشوة جعل للبنان مقاماً عظيماً لا يذكر للمأمور فضلاً ولم يسمع منه مديح لأحد بل كان اذا اظهر التفاتاً

لأحد يقول انه عمل الواجب عليه ولما اتى الى لبنان كان بلا غرض كعادة كل قادم حديث او رئيس لم تمس كرامته ولكنه حين مست احساساته وعرف ان فريقاً من الاهالي يشتكي عليه وان المطران بطرس ترأس الحزب المضاد له وجرى ما جرى في ابعاد المطران بطرس البستاني الى القدس ورجوعه الى كرسيه أصبح ذا غرض حتى لو قيل له ان فلاناً من حزب المطران او يميل اليه ينتقم منه بالعزل ان كان مأموراً او باقامة دعوى عليه ان كان غير مأمور وقد كان الجبل قبله مقسوماً الى عدة طوائف وكل طائفة الى قسمين اما هو فجعل سياسته تقسيم كل عائلة على ذاتها وكيفية ذلك انه كان اذا عزل مأموراً يعين خلفاً له اخاه او ابن عمه فتحصل العداوة بينهما لان اغلب العداوة في لبنان تنشأ عن المزاحمة في التوظيف وكان يستخدم كل من يجاهر بعداوة المطران وحزبه وله عمال يحسب انهم صادقون بخدمته وقد عرفت منها اناساً كانوا يأتون باخباره وكتاباته واعماله كل ليلة ويخبرون بها كاهناً كان خادم كنيسة مار يوسف في الحدث ليوصلها الى حزب المطران وآخر كان يوصل الى هذا الحزب كتاباته السرية ومع ذلك كان يعتقد بهم الصدق اما عيبه الوحيد فكان اصغاؤه للمفسدين بحق المأمورين الامناء فكان يعزل بدون فحص وينتقم بلا ترو ولربما كان يفتكر ان يرهب الاهالي ويجعل طاعتهم عمياء وذلك لأنه رأى ان هذه الاعمال المخيفة تهدىء البلاد مع انها عملت معه عكس ذلك بالتشكيات عليه وكان التحزب ضده عظيماً جداً لأن ابعاده للمطران بطرس البستاني جرح جرحاً عظيماً للأهالي لم يمكن التئامه .

(محاكمة التاريخ لرستم باشا) اما لبنان فلم ينتفع منه شيئاً بل تضرر مادياً وادبياً فانه سلط العداوة بين الاهل والاقارب وخفض الرواتب مبتدئاً بذاته فقد كان راتبه خمسين ألف غرش شهرياً فجعله خمسة وعشرين ألفاً ولما رأى المأمورون ان رواتبهم لا تكفيهم تضايقوا بخلاف ما كانوا مدة اسلافه وليس له اثر من المنافع الا شيئين عملها يوافقان لطباعه المنتقمة فانه انشا سجن بيت الدين بشكل يضر صحة المسجونين الثاني بناؤه الجسر المعروف باسمه وقد كلف البلاد خمسة آلاف ليرا ولا فائدة منه . الا ان يوصل الى حديقته التي كان يجتمع فيها الناس خصوصاً السيدات والأدهش انه بعد عزله وهب هذا المحل الى صديقته زوجة عبدالله باشا الانكليزي عوض ما يتركه الى لبنان ومن الغلط ان يتسمى متصرفاً عاذباً لان لا شيء يعيقه عن امياله الخصوصية وتنفيذها فأكثر اضطراب لبنان نشأ من داود باشا ورستم باشا لانهما عازبان وقد أصبح سيء الظن بحيث ان خل ادنى انسان بالواجبات نحوه يضره لفكره انه يحتقره .

وقد كان أحد الخيالة من أقليم جزين راكباً في بيروت فمرت عربة رستم باشا فرآه وحيث ان الخيال لم يقف للسلام كالعادة رفته وكذلك الحادثة الآتية :

(حادثة) كانت امرأة ارملة قبيحة المنظر جداً شائبة الشعر سوداء اللون وجهها مرقوش بالجدري نحيفة الجسم ثقيلة الذات قد حوت كل الاشكال التي تكره الانسان بها لها ولد شقي وقع بيد الحكومة لانه تخاصم مع صاحب قهوة بالحازمية وكانت اتت تترجى احد المأمورين الذي كان من بلدها ليساعدها بمسألة ولدها فنصحها الرجل ان تقدم استدعاء لدولته وان تحضر معها فتاة تعرف اللغة الافرنسية لتكلمه

وكانت لهذه الارملة جارة تلقت علومها بمدرسة اليتامى في اللعازرية وتعرف قليلاً من الافرنسية فلا تعلم اصطلاح الكبار والذوات بالكلام فعملت الاستدعاء وأخذتها معها وذهبتا حتى وصلتا الى الحدث ووقفتا أمام دار الحكومة حتى اتت عربة دولته واراد النزول منها فتقدمت اليه الجارة وسلمت عليه بالافرنسية كما تسلم على مثيل لها وقالت له بونجور موسيو رستم فلما سمع هذا القول التفت ورأى قباحة منظر رفيقتها فأخذ الغضب منه كل مأخذ ومزق الاستدعاء وامر بطرد الامرأة ظاناً انها قصدت احتقاره بهذا السلام ولما رجعت سألها الذي اشار عليها بتقديم الاستدعاء عن نتيجة امرها فأخبرته ما جرى فضحك الرجل وهو الذي روى لي هذه الحادثة .

فينتج من ذلك ان اعماله كلها عادلة كانت او ظالمة وأوامره بالسماح او العقاب كانت تبعاً لاهواء نفسه اما غايته فكانت حفظ الراحة العمومية ومنع التعديات داخل لبنان وخارجه ولما انتهت مدته قام الاهالي كلهم ضده وبقيت المذاكرة مدة شهرين دائرة لانتخاب خلف له ولما اتى المتصرف الجديد واصه باشا وتلي فرمان تعيينه كان رستم باشا حاضراً تلك الحفلة يأمر وينهي حتى تمت تلاوة الفرمان فسلم مركزه الى خلفه وسافر الى بيروت وبعد اسبوع سافر الى الاستانة .

مأمورون رستم باشا

(المحاسبه جي) جمال بك ١٨٧٥ : ١٨٧٩ ، رشاد افندي ١٨٧٩ : ١٨٨١ ، هاشم افندي ١٨٨١ الى اليوم ١٩٠٦ .

(قومسيون المناظرات) ميخائيل افندي مطانيوس ١٨٧٣ ثم الغيت هذه الوظيفة .

(دائرة الجزاء) انشأها رستم باشا قاسم بك ابو نكد ١٨٧٦ : ١٨٨٣ وكان والدي عضواً عن الطائفة المارونية فيها وبعد تعيينه قاضي على جزين أصبح اخي خليل باشكاتباً بها .

(دائرة الحقوق) الامير نصوح شهاب ١٨٧٣ : ١٨٧٧ الامير نجيب شهاب ١٨٧٧ : ١٨٧٩ ، بطرس بك كرم ١٨٧٩ : ١٨٨١ ، رشيد الدحداح ١٨٨١ : ١٨٨٣ .

(مديرية دير القمر) راشد الدحداح ١٨٧٣ : ١٨٧٥ ، مجيد شهاب ١٨٧٥ : ١٨٧٨ ، عثمان شهاب ١٨٧٨ : ١٨٧٩ ، قيس قعدان شهاب ١٨٧٩ : ١٨٨٢ ، قيس ملحم شهاب ١٨٨٢ : ١٨٨٣ .

(وكلاء مجلس الادارة) عمون بك عمون ١٨٧٤ : ١٨٧٤ ، انطون بك عمون ١٨٧٤ : ١٨٧٧ ، عيد ابو حاتم ١٨٧٧ ؛ ١٨٧٧ ، الامير امين منصور ١٨٧٧ : ١٨٧٩ ، الامير سعد شهاب ١٨٧٩ : ١٨٨٣ .

(ترجمان أول) اسكندر بك تويني كل مدته .

(ترجمان) غطاس لبكي ١٨٧٦ : ١٨٧٧ ، ابراهيم ديب ١٨٧٧ : ١٨٨٤ .

(رئيس القلم الأجنبي) مورل بك ١٨٧٣ : ١٨٨٣ .

(رئيس القلم التركي) اسكندر الحداد ١٨٧٣ : ١٨٨٤ .

(رئيس القلم العربي) حنا بك ابو صعب ١٨٧٤ : ١٨٧٨ ، غطاس لبكي ١٨٧٨ : ١٨٨٤ .

(قائمقام الشوف) الامير مصطفى ارسلان ١٨٧٣ : ١٨٨٤ .

(قائمقام جزين) الامير ملحم حمود ١٨٧٣ : ١٨٧٦ ، وفي مدته أصبح والدي قاضي جزين وهو ثاني قاضي وطني وكان الأول سرابيون ابو رزق الشيخ رشيد الخازن ١٨٧٦ : ١٨٧٦ ، الامير سعد شهاب ١٨٧٦ : ١٨٧٩ . قسطنطين بك الخازن ١٨٧٩ : ١٨٨٤ .

(قائمقام زحلة) الامير مجيد مراد شهاب ١٨٧٣ : ١٨٧٦ ، حبيب بك عكاوي ١٨٧٦ : ١٨٨٣ ، ملحم افندي شميل ١٨٨٣ : ١٨٨٥ .

(قائمقام المتن) الامير يوسف علي ١٨٧٣ : ١٨٧٩ ، الامير خليل مصطفى ١٨٧٩ : ١٨٨٠ ، الامير يوسف علي ١٨٨٠ : ١٨٨٤ .

(قائمقام كسروان) الشيخ رشيد الخازن ١٨٧٦ : ١٨٨٠ ، الامير نجيب شهاب ١٨٨٠ : ١٨٨٣ .

(قائمقام البترون) عمون بك عمون ١٨٧٣ : ١٨٧٤ ، الامير قيس شهاب ١٨٧٤ : ١٨٧٩ ، الامير نجيب شهاب ١٨٧٩ : ١٨٨٠ ، الامير ملحم حمود ١٨٨٠ : ١٨٨١ ، الامير قيس ملحم ١٨٨١ : ١٧٨٢ ، الامير ملحم حمود ١٨٨٢ : ١٨٨٣ . الامير قيس قعدان شهاب ١٨٨٢ : ١٨٨٣ .

سكني في سوريا

لما اعتمدت على سكني في سوريا ارتأيت ان اسيح في معظم بلدانها قبل ان اعتمد واستقر في بلد منها وحيث ان اقاربي الذين في عكا كانوا طلبوني اليهم وكان الوقت فصل الشتاء فاخترت سكنى الجهات الساحلية وتوجهت من قيتولة بعد ان ودعت والدي وكان برفقتي ابن خالي فرحات بك نصيف الذي كان متوجهاً الى صيدا وحين علم الاهالي هناك اني طبيب اتاني رجل من بيت الحداد يطلبني لعيادة ولده الذي كان يومئذٍ بسن الثانية عشرة ففحصته ووجدته مصاباً بحصاة بولية واخبرت والده بلزوم اجراء عملية له لاستخراج الحصاة وان لا دواء له سواها وكلفته ان يعتمد على رأي لأنني مسافر الى عكا فذهب وعاد بعد قليل يخبرني ان طبيبه الذي كان يداويه حتى ذلك الحين لم يذكر له شيئاً عنها فقلت له تعال مع هذا الطبيب لأروبه الحصاة وسبب جهله وجودها انه حين كان يجسه بالمجس ويصل به الى عنق المثانة تتشنج وتنسد فتحتها ولا يعود في الامكان ادخال المجس وعوضاً عن ان يبقيه في محله لحين زوال التشنج كان يستخرجه سريعاً خصوصاً حين ما كان يرى الدم واخبر الرجل طبيبه بذلك وحضر معه الى المنزل الذي كنت فيه ولما تحقق وجود الحصاة اعتمدنا على يوم لاجراء العملية واجريتها بحضور معظم اطباء صيدا واستخرجتها وكانت ذات حجم عظيم نظراً لسن الغلام وانط الخواجه فاعور الحاج من قيتونه بالسهر عليه تلك الليلة وفي اليوم الثالثة استخرجنا له الانبوبة ونال الشفاء التام .

وفي أحد الايام كنت في مدرسة عين طورا فرأيت شاباً تقدم اليَّ وسلم علي واخبرني انه هو شكري الحداد الذي عملت له العملية في صيدا .

(خطبتي في صيدا) واذ أقمت هذه المدة في صيدا كان ابن خالي فرحات بك يشور عليَّ بخطبة فتاة من أقارب زوجته كانت جميلة الصورة لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها فتوجهنا لنراها فوجدتها جميلة المنظر حسناء بسيطة القلب بالاختصار خطبتها وفي اليوم الثالث من خطبتي توجهت الى عكا ووضعتها في المدرسة .

عكا

هي مدينة قديمة العهد جداً كانت تدعى باللغة الفينقية أكو أي الاحتراق وقد اشتهرت في زمن الفينيقيين بعمل الزجاج وكانوا يستخرجون رمله من شواطىء نهري النعماني والمقطع وزادت شهرة في زمن دولة البطالسة بمصر وقد دعاها احد ملوك هذه العائلة باسمه اي بطولمايس وبقيت على حالها الى ايام الصليبيين حتى حاصروها وافتتحوها وسموها مار يوحنا عكا وكان الاسلام يستولون عليها مرة والصليبيون اخرى وهي البلدة الوحيدة التي بقيت بيدهم الى ان أضمحل أمرهم من هذه البلاد واشتهرت ايضاً بمقاومتها لنابوليون بونابرت الذي قال عنها لو افتتحت عكا لملكت الدنيا والذي اعاقه عن فتحها هو الطاعون الذي أصاب عساكره كما هو مذكور في التاريخ وثورة الوطنيين على جنده في مصر اما الذي اشهر عكا بعد الصليبيين فهو :

ضاهر العمر

أول من أظهر والده عمر للوجود هو الامير بشير شهاب الأول الذي جعله نائبا في صفد لانه كان متولياً عليها وبعد وفاته حارب عمر البلاد واستولى عليها ومن جملتها عكا وحيفا وبعد وفاته تولى ابنه ضاهر وهو نابغة ظهر في الجيل الثامن عشر كان حاكماً صفد فتنازع مع اخوته واستولى على عكا واستفحل امره جداً حتى هابه الجميع ولما عصى الجزار على الامير يوسف في بيروت استنجد الامير بضاهر العمر وطلب منه محاصرة بيروت بحراً وهو يحصرها براً فاستأجر ضاهر مركبين روسيين واتى الى بيروت محاصراً ولما رأى الجزار نفسه غير قادر على المقاومة سلم ذاته وسنذكر فيما بعد ما الذي اجراه مع ضاهر العمر والامير يوسف وكان قبطان المركبين الروسيين الكونت جواني الذي بعد ان اخرج الجزار من بيروت سلمها الى الامير يوسف وطلب منه المصاريف فدفع له نصفها وبقي النصف الآخر فأقام الكونت جواني وكيلاً عنه حاكماً على البلد يقال له اسطفان حتى استوفى النصف الآخر وقد ذكر ذلك بعض الشعراء بقوله :

ذهب الجزار عنـــــــــــــــا جـــــــــــــــأني الكنت جواني
مـــــا خلصنـــــا من سهـــــال فوقعنـــــــــــــــا في التعني

وكان عمر ضاهر العمر نحو تسعين سنة حينما أتت مراكب من قبل الدولة العلية لقصاصه جزاء عصيانه وكان أسم القبطان حسني باشا قبودان وكان لضاهر عسكر من المغاربة فحين حوصرت عكا أشار رئيس المغاربة على ضاهر العمر والعفو عنه وكان لضاهر مستشار نصراني غني جداً ولكنه بخيل اتخذه طبيباً له ايضاً فاشار على ضاهر بمداومة الحرب وان لا يطيع رئيس المغاربة فامتثل لرأيه عندئذٍ انفصل المغاربة عنه ولم يعودوا الى الحرب وحين رأى ضاهر انه متروك من اعوانه وخرج من المدينة وهرب الى الجبل غير انه افتكر اثناء هربه بمحظية كانت باقية في السرايا فرجع لانقاذها وبينما هو عائد تبعه أحد المغاربة فأطلق عليه رصاصاً قتله فقطعوا رأسه وأخذوه الى القبطان باش وسلمت المدينة فعند ذلك مسكوا مستشار ضاهر العمر وكان اسمه ابرهيم الصباغ وهو جد ابرهيم الصباغ القيم اليوم في بيروت فضربوه ضرباً اليماً ليقر بالدراهم فلم يعترف وبعد طويل العذاب تركوه وقيل انه أودع الدراهم في دير الفرنسيسكان الذي كان ترجمانه وهذا المال هو عبارة عن خمسة وعشرين صندوق ملاءي وعند رجوع القبطان الى الاستانة شنق ابرهيم الصباغ في صاري مركبه قبل وصوله الى الاستانة وقتل الدنكزلي ليخفي ما اخذه من أموال ضاهر العمر وكان ذلك في ايام السلطان عبد الحميد الأول ثم امر فقتلوا اولاد ضاهر ولم ينج منهم الا شخص واحد كان شاعراً وبعد ضاهر حكم الجزار.

الجزار

أصل هذا الرجل من بشناق اتى الى مصر ودخل في خدمة المماليك بايام علي بك الذي كان يومئذٍ أكبر المماليك وأعظمهم سطوة فكان يرسله لقتل من يشا واشتهر بضرب السيف لذلك سموه جزاراً.

وفي أحد الايام امره علي بك ان يقتل احد البكوات اخصامه فلم يفعل لأنهُ كان صديقاً له غير انهُ في اليوم الثاني قتل البك فخاف الجزار من رئيسه وهرب الى سوريا وكان وقتئذ الحاكم في لبنان الامير يوسف الشهابي فرأسه على بعض الخيالة ثم جعله حاكماً على بيروت التي كانت خاضعة له فحصنها وبنى لها سوراً في المحل الذي يسمونه الان عصورا عني على عصور وعندما اخرج منها كما ذكرنا سلم عن يد ضاهر العمر الذي ارسل له رجلاً من خواصه يسمى يعقوب السيقلي ليسلم على يده ثم جعله ليجمع له الاموال الاميرية من البلاد ففعل حتى اذا امتلأت جيوبه فرَّ هارباً الى الاستانة وهناك ضمن البلاد كما كانت تفعل الولاة في ذلك الوقت ورجع والياً على عكا التي كان تابعاً لها جبل لبنان وبدأ يظلم الناس كثيراً حتى ضرب فيه المثل فكان تارة يرضى على الأمير يوسف وطوراً يغضب عليه وأخيراً لما ولّى على الجبل الأمير بشير كما قلنا وهرب الأمير يوسف حضر الى عكا برفقة غندور الخوري بن سعد الخوري ومعهما رجل من بيت عزام.

قصة الامير يوسف وغندور الخوري وعزام معه

كان من عادة الجزار ان ينزل ضيوفه في محل ويقيم الجواسيس في جواره ليخبروه بما تقوله ضيوفهُ وعندما وصل غندور الخوري والامير يوسف وعزام الى عكا انزلهم في هذا المحل فبعد نصف الليل استفاقوا من نومهم وبدوا يتشاورون بماذا يعملون ويقولون حين مقابلتهم للجزار فقال الامير يوسف انني أفعل كلما يطلبه مني الجزار وقال غندور لو طلب وزن جسمي ذهباً لاعطيه اما عزام فقال والله لأ قطعن عنقه بهذا السيف لو كلمني شيئاً مهيناً وفي اليوم الثاني طلبهم الجزار وقال لهم من منكم يريد ان يقطع رقبة الجزار فوضع عزام يده على قبضة سيفه وقال انا الذي قلت ذلك وان امرت بشيء يؤذيني فقبل ان يطلع صوتك أقطع رأسك وكان الجزار سياسياً محنكاً فقال له آفرين (عفارم) وحيث انت شجاع لهذه الدرجة فأنا اعفو عنك ولكنك لا تبقى في عكا اربع وعشرين ساعة فخرج عزام من أمامه حاسباً الموت ورآءه وغادر عكا حالاً غير انه افتكر اذا سار على الطريق المعتادة يرسل الجزار اناساً خلفه ليقتلوه فغير الطريق وذهب للجهة الجنوبية وبينما هو سائر التقى بقوم من العرب البدو ارادوا تشليحه فقاومهم وابتدأت المعركة بينهم واخيراً قتل منهم واحداً وكان قريباً من الخيام فلما كلَّ من التعب وضع يده على اطناب خيمة وقال كعادة العرب يا خيمة انا مستجير بك فخرجت من الخيمة امرأة عجوز وقالت للعرب انه استجار بي فأتركوه وارجعوا عنه وكانت هذه العجوز والدة الرجل الذي قتله عزام .

(مروّة البدو) ولما رجع العرب عنه افتكروا ان لا بد لوقوعه في ايديهم لان صاحبة الخيمة لا تجيره أكثر من ثلاثة ايام وحيث انه قاتل ولدها فهي لا شك تبذل جهدها لعدم هربه فتركوه مطمئنين غير ان الامرأة ايقظت عزام نصف الليل وقالت له انت قاتل ولدي ولكنك استجرت بي فأنا أصفح عنك قم وأذهب هذه الساعة لأن القوم عنك غافلون واعطته مؤنة الطريق ورجع الى بلاده .

فأين توجد هذه المروّة وأي قوم يفتخرون بهذا غير البدو الذين دأبهم القتل والنهب وما هذا الا من تأثير الشهامة التي تصاحب دائماً ساكني البراري وقد حدث اعظم منها في بلادنا في البرج وهو ان لمحمد العرب من البرج أولاد وقد بلغه ان أحدهم قتل والقتل خطاءً وبينما هو في هذا الاضطراب دخل عليه قاتل ولده مستجيراً به ففعل كل جهده حتى هربه من وجه اخوة المقتول وخلص القاتل فهذه شهامة لا تنسى ولم يزل ذكرها في بلادنا ومحمد العرب كان من أكابر البلاد وعضواً عن الاسلام في مجلس ادارة لبنان فلنرجع الى عزام .

أما الجزار فانه ارسل اربعين خيالاً يطلبون عزام ليقتلوه في الطريق وظنوا انه توجه لجهة صور وصيدا فتعقبوه ولما لم يعثروا به رجعوا خائبين اما الامير يوسف غندور الخوري فابقاهما الجزار بعكا .

« انتهى الامير يوسف وغندور » في السنة التالية اراد الجزار ان يحج الى مكة المكرمة فذهب حتى

وصل الى المزاريب فافتكر ان يشنق الامير يوسف وغندور الخوري كي لا يهربا في غيابه ويفتنا الجبل فارسل امراً الى وكيله بعكا ليشنقهما ثم ارتأى انه لربما تكون عندهما دراهم وان شنقهما يخسر ما يؤمله منهما فأرسل بعد ساعة امراً ثانياً يقول فيه سبق امرنا لكم بشنق الامير يوسف وغندور الخوري والان نأمركم بابقائهما لحين رجوعنا من الحج ووعد الرسول الثاني انه اذا وصل الى عكا قبل الاول يكافئه ففعل ما امره الجزار ووصل قبل الرسول الأول وكان كاتب الديوان يومئذٍ رجلاً من اسرة سكروج من طائفة الروم الارثوذكس واليه كانت ترد الاوامر .

« اسرة سكروج » ان هذه الاسرة من طائفة الروم الارثوذكس وكانت تكره جداً غندور الخوري لانه كان يحامي عن الروم الكاثوليك ويضطهد الارثوذكس في جبل لبنان فعندما وصله الامر الثاني اخفاه حتى وصل الرسول الأول فسلم الامر الى الوكيل الذي شنقهما حالاً وقيل ان غندور مات قبل الشنق .

(مظالم الجزار) لما عاد الجزار الى عكا وعرف شنق الامير يوسف وغندور فحص سبب مخالفة امره فأطلع على الغش الذي جرى امر بقتل كل افراد اسرة سكروج ولم يبق منها الا امرأة حاملاً هربت الى مصر وولدت ذكراً هو جد العائلة السكروجية المصرية وقد عرفت منهم شخصاً كان ترجمان قونسلاتو انكلترا وهو الذي اخبرني قصة اسرته وفي سنة ١٨٨٧ اتى تلميذ الى مدرسة الطب الفرنساوية في بيروت من هذه الاسرة ودرس الطب وهو الان الدكتور سكروج المعروف وفي سياحتي الاخيرة في مصر تعرفت في دمياط بالخواجه الياس سكروج من بواق العايلة وهو رجل من التجار يحب المعارف .

اخبرني الدكتور ميخائيل مشاقه الشهير حين كنت في الشام ماذا عمل الجزار بجده وكيف هرب والده الى دير القمر وقد ذكرنا ذلك في اسرة مشاقه واخبرني ايضاً ان الجزار رأى يوماً فلائك بالبحر تقل ارواماً بقرب المدينة فامر بمسكهم وحبسهم فقالوا له بعد مسكهم ان السجون ملأى لا محل فيها لهؤلاء فامر بقتل المسجونين الذين كانوا اولا وان يدخلوا مكانهم الاروام .

كان لرجل في عكا حجرتان واحدة عليا والثانية سفلى فكان الاب يقطن العليا والابن السفلى فاراد الولد ان يتزوج وطلب من والده ان يسمح له بحجرته مدة الفرح وبعده يرجعها له ففعل ولما انتهى الفرح طلب الاب غرفته فتمنع الولد عن تسليمها واضطر ان يشكوه للجزار فدعاه اليه وقال له ما دينك قال اني مسيحي فأمره ان يفعل اشارة الصليب التي هي شعار المسيحيين ففعل ورفع يده الى رأسه وقال باسم الاب ووضعها على صدره وقال والابن فقال له كفاك ان الاب من فوق والابن من تحت يلزم ان يكون أبوك في الغرفة العليا وانت في السفلى فخضع الولد لهذا الامر وذهب .

وللجزار قصص غريبة ونوادر عجيبة لا تنطبق على عقل ولا نظام ولا عدل ولا شهامة بل كانت تخوف البلاد والعباد وقد كان يقتل ويشنق ويضبط الاملاك وضميره مستريح ومع ذلك كله كان يتظاهر

بالتقوى والدين فلا يترك صلواته قط وقد حج وبنى جامعاً عظيماً في عكا لم يزل قائماً الى اليوم وهو فريد في صناعته ولما توفي الجزار فرح الناس لموته وأرّخه بعض الشعراء ومن الذي قيل فيه هذا التاريخ :

وافى السرور وضح ترجيح الأمـــل	بهلاك غـاشم لا يعـادلـه مثـل
عين المظـــالم والمآثم والردى	شرّ العوالم ان تفكر او عمـــل
أحمـد ولكن ليس يحمـد في الورى	قطعـاً وفي ثوب المساوىء قـد رفـل
جزار لكن للفضائـــل جـــازر	يهدي ولكن بـالرذائـل قـد حفـل
بحيـاتـه كـان الغلا ثم الوبـا	والقحط والجور الـذي لا يحتمـل
وبموتـه زال العنـا يـا حبـذا	هـذا المنى غـاب التعـدي والوجـل
حـاز المقـدر عنـد مـالك محسراً	قبض المهـــالك في جحيم لم يزل
لله درك يـا منون فقـد بـدت	منك الحيـاة وطـاب حكمك واعتـدل
فـاز الانـام وارخوه بمقصدٍ	هلك الشقي والى جهنم قـد رحـل

سنة ١٢١٩ هـ وفاة الجزار

فعكا الان مركز متصرفية ولم يزل سورها للان ولا يمكن البناء بجانبه وفيها الليمان الشهير الذي يدخله المجرمون المحكوم عليهم من خمس سنوات وصاعداً .

« بهاء الله » اتى هذا الرجل العظيم من بلاد العجم منفياً وهو زعيم فئة البابيين الذين ظهروا في العجم وحين كنت في عكا كان بهاء الله قاطناً منزل الخواجة خمار ولا يراه الا المقربون منه ولا يخرج من منزله الا لزيارة اخصائه فيخرج ويرجع ليلاً وهو متحجب عن الجميع .

قيل انهُ ألف كتاباً في مذهبه ودينه لم نطلع عليه وكان الاعجام يأتون من كل ناحية ويخضعون له وكان الذي يستقبل الجميع نائباً عنه ولده .

« عباس افندي » هو بكر انجاله فصيح الكلام كريم النفس لطيف عالم أديب مجلسه مجلس احترام ووقار وكان يستقبل الجميع من غريب وقريب ويتباحثون معه في كل علم وقد جلست معه وحضرته عدة مرات وكنا نتباحث في بعض مسائل فاراه قوي الحجة ولما توفي بهاء الله دفن في محل مخصوص خارج البلدة يزوره اصحاب هذا المذهب وجلس عباس أفندي في مقام ابيه وخلفه وحتى الان يزور الاعجام وسواهم قبر بهاء الله زيارة دينية وقد سمعت ان احدى السيدات الاميريكيات دخلت في مذهبه وهي تنشره الان في امريكا وقيل ان عدد اتباعه والداخلين في دينه صار عظيماً جداً ولم اعلم شيئاً من مذهبه حتى أقول عنهُ ويستدل من سير اتباعه انه ذا آداب عظيمة .

اشغالي في عكا

كنت في عكا اتعاطى صناعة الطب خصوصاً امراض العين ومن جملة الذين كنت اعودهم القاضي زور افندي الذي كان علي عينيه بياض وتمكنت من شفائه اراد مكافأتي فأخرج لي مضبطة من مجلس الادارة لأكون طبيب بلدية وراتب هذه الوظيفة خمسة عشر ليرا عثمانية شهرياً وكان يومئذٍ طبيب بلدية عكا جوستي الايتالياني الذي كان هرماً وعاجزاً عن اداء وظيفته ولما استلمت المضبطة قالوا لي يلزم التصديق عليها من مركز الولاية في الشام وبالصدفة حضر عثمان بك مردم الشهير بالغنى وعضو مجلس الادارة في الولاية الى عكا لزيارة املاكه تعرفت به وكلفني أذهب الى الشام وتكفل بالتصديق على مضبطة مجلس الادارة بلواء عكا فذهبت حسب وعده اليها .

دمشق الشام

هي أقدم مدينة في الدنيا نظراً لتاريخها وموقعها الطبيعي لان الانسان بعد حالته البدوية ارتأى ان يسكن محلاً فأختار ما جاور الكلاء وخصب التربة لمرعاه ومرعى مواشيه ولم تجمع بقعة في بلادنا هذه الشروط نظير دمشق وذهب بعضهم انها هي الفردوس الارضي حسب التوراة وان بعد خروج آدم منها وطرده عاش في الأرض المقفرة الكائنة غربيها واستدلوا على ذلك من الاسماء التي فيها نظير ابيلا وهي مدينة قديمة . قيل ان قاين قتل اخاه هابيل فيها . وان لم تكن دمشق الفردوس الارضي فانها دون شك مثال الجنة فيها الانهار والعسل واللبن ومن كل فاكهة زوجان وحور العين ومن رأى دمشق وانهارها وفاكهتها ولبنها وعسلها وحورها لا يشك بأنها مثال الجنة المستقبلة او هي الجنة الحاضرة ولا اتعرض لذكر تاريخها فقد تقدمني الكثيرون غير ان منه ما لم يزل غامضاً وذلك لعدم الحفريات على الاثار القديمة التي فيها لان تربتها كثيفة وسببها الاتربة التي تتساقط عليها كل سنة من الاعلى لانها واقعة في سهل ولو ارادوا الكشف عن حفرياتها للزم عمق عظيم ولا أذكر شيئاً عن قدمها اذ هو معلوم ان في ايام ابرهيم الخليل كانت عامرة وانهُ أخذ خادمه اليعازار الدمشقي منها ولا أقول الا ما رأيته فيها قد شبهتها من الصالحية بمركب سائر في بحر اخضر وقد ذكرت وعن أهلها ما هو كافٍ بكتابي صحة المتزوج وزواج العازب ولما وصلت اليها سألت على بيت عبدالله افندي غسطين عضو مجلس ادارة الولاية وهو زميل عثمان بك مردم وقهراً عن مساعدة هذين الذاتين العضوين ما أمكن المصادقة على المضبطة ولما رأيت دمشق وفرقها عن عكا لم اعد الحق المضبطة فأكتريت محلاً في حارة باب توما خاصة الحموي الذي كان أعمى وصاحب لوكندة .

شغلي الطبي في الشام

لما أكتريت محلي في الشام وعزمت على الاقامة فيها كتبت اعلان ونشرته في المدينة وهذا نصه :

قد حضر الى هذه المدينة الدكتور شاكر الخوري وهو تلميذ مدرسة القصر العيني بمصر ويعاين المرضى بمحله الكائن بباب توما في لوكاندة الحموي ومن اختصاصاته مداواة امراض العين على اختلافها ولا يطلب اجرة الا بعد شفاء المريض .

وجعلت هذه الجملة الاخيرة رواجاً عظيماً على وفي اليوم الثاني كان ازدحام المرضى لا يقدر وهم يزيدون على المائة أعمى تقريباً فصففتهم بالدار وابتدأت بمعاينتهم وكنت الذي ارى داءه غير قابل الشفاء اخرجه من الصف وارسله من حيث اتى أما الباقون فكلفتهم ان يعودوا الى منزلي لاجراء العملية لهم واشترط عليهم ان يبقوا في منزلي بغرفة مخصوصة لينالوا الشفاء التام واجريت منها خمس عمليات كحدقة صناعية وكتركتا « ماء زرقاء » وبعد ثمانية ايام شفى الخمسة عميان وكانوا من الذين يمشون امام الاموات ومشهورين بعماهم فابقيتهم عندي الى يوم الجمعة وكلفتهم ان يذهبوا الى الصلاة في الجامع الاموي وان يعودوا الى منزلي وابقيت عصيهم رهناً عندي وبعد الظهر رجعوا اليّ ومعهم جم غفير يتعجبون من شفائهم ورأيت فتاة تتسول بالمحلات العمومية وعينها شطراء فأعطيتها ليرة فرنساوية لتقبل معي ان اجري لها عملية وابقيتها عندي حتى نالت الشفاء وعادت الى صنعتها فكان كل من يراها يعجب من شفائها وهذا العمل هو الذي سبب لي النجاح لان اطباء دمشق المخصوصين لامراض العين كانوا من الدجالين من عائلة بيت صخر وعائلة اخرى تدعى عائلة الكنفاني وبعد مدة خرجت من منزلي الأول واستأجرت محلاً شرقي البطريركخانة المارونية ملك السغبيني واضطررت ان اشتري اثاثاً وامتعة لان المنزل الأول الذي كنت استأجرته كان بامتعة من صاحبه .

« بشاره » كان يتردد علي رجل بهذا الاسم بليد بارد فكان يمسك الثلج في يده ويبتلعه ويفتخر بعدم احساسه بالبرودة فقلت له :

لمس الثلج بليـــــــــــــــــد	صاح احـــــــــــــــاً للحرارة
نطق الثلج ونـــــــــــــــادى	حـوحـو حـوحـو مـن بشـاره

وكان في البيت بئران يستخرجون ماءهما بواسطة دواليب وحيث ان انف بشاره كان طويلاً تصورت هذا المعنى ونظمت له ما يأتي :

سكنـت داراً لهـا بـئران اولهـما	ستين بـــاعـــاً وتسعين الى الثـــاني
بئران لم ألق حبلاً مثـــــــل طولها	كي استقي منهما مــــــــاءً لعطشان
لكنّ أنف بشاره جــــــاء طبقها	والحمـــــد لله عن حبلين اغنـــاني

وقد وجدته شكيراً فطردته .

« صيدلية سوق الخيل » كنت ساكناً في الشام بحارة باب توما اما الذوات والاغنياء فكانوا يقطنون الجهة الاخرى مثل باب ساروجا والقنوات فارتأيت ان انشيء صيدلية في تلك الجهة أكون فيها بعد الظهر وقبله ابقى في جهة باب توما واتفقت مع شاب اسمه سلمون فارحي اسرائيلي من عائلة معتبرة وادخلته شريكاً معي في الصيدلية وبواسطته أكتسبت ثقة هذه الطائفة وصار معظم ذواتها يترددون عليّ يزورونني وازورهم وكان أهالي هذه الطائفة في ذلك الوقت من أغنى وألطف وأعلم الشعب وفيها اسرات عظيمة غنية كآل استامبولي وشمعايا وهراري وفارحي واسبونا وجملة اسرات اخرى وكان الخاخامباشي صديقاً لي ويرسل فقراء طائفته اداويهم مجاناً لهذا كان كلما حصل فرح عندهم او داع لهم أكون أول المدعوين .

المغنيتان ليلى وساره

في احدى الليالي دعى حايم الحكيم الموسيو لوتيكه قنصل المانيا في الشام وكانت هاتان المغنيتان بهجة تلك الليلة التي دعيت اليها وحين ابتدأ الغناء وعزف الآلات جلست في احدى زوايا المقعد صامتاً مسروراً لأنني كنت ولم أزل اعتبر صنعتي فلا اظهر خفة ولا طيشاً حين اسمع اصواتهما الرخيمة ولا اشغافاً بجمالهما وكانتا مصنعتي الوجه بالاحمر والابيض والتكحل وجبلتان انتباه الحاضرين بلطفهما فضلاً عن جمالهما وصوتيهما وكانت تلك الليلة زاهية زاهرة وكنت مسروراً جداً لانني احب استماع الصوت الحسن غير اني تضايقت من كتم احساساتي فشفقت على المرائين الذين يخفون شعورهم وأتصور ما يكابدونه من العذاب وهذا العذاب هو قصاص المرائين لانه كم يلزم للمرائي من العناء والتعب والقهر حتى يخفي ما يشعر به فمثله كمثل جائع ينكر جوعه وألم معدته يقطعه نعم ان هذا الألم قصاص اخفاء احساساته وكان الحضور متهيجين يصيحون آه يا ستي لان هذا الهياج والصراخ يزيد المغنيات تحمساً اما السكوت فيخجلهن ولذلك ارى انهُ من الضروري وجود البعض من السامعين يفعلون هذه الحركات اذ ما اقبح السامع اذا كلمه شخص وبدا يتثاءب ويتمطى او لا يبدي اشارة تدل على فهمه ما قيل له لان هذه البلادة تعد قلة أدب وسوء تربية اما انا فبدلاً من ان اتهيج كالباقين او اظهر بلادة تسأم السامعين والمغنين أخذت قلماً ونظمت شعراً بهاتين المغنيتين ساره وليلى وهاك ما نظمتهُ :

وليــــــــل مظلم أجلتـــــــهُ ليلى	بيـــــــدر جبينهـــــا فغــــــدا نهارا
وأرخت شعرهــــــا فبــــــدا ظلام	طلبت البــــدر قــــالوا البــدر سارا
ابو الآبــــــــــــاء ابراهيم قبلي	بها قـــد هـــام عن صغر وحــــارا
وفرعون لــــــه فيهــــا مقــــال	على ابرام كـــــالحساد غــــــارا
فـتى ام اليهــود رأت لمــوسى	على الخــــدين في العليق نــــارا
لقــــد قـــال اليهود بصلب عيسى	كما قـــد جـــاء في كتب النصارى
على اولادنــــا وكـــذا علينــــا	دم المصلوب طول الــــدهر صارا
ارتني بـــالخـدود دمــا مسيحي	فزادتني برؤيتهـــــا وقــــارا

همت بـــــــان اتمم فرض ديني بتقبيـــــل فـــــأظهرت النفـــارا
ولمـا ان رأت تقـوى فـؤادي لقـــد سمحت بتقبيـــل العـــذارا
فـرحت ولا اشـك بعفـو ذنبـي لـو اني للمسيح أخــــذت ثـــارا

وصيدلية سوق الخيل كانت ملك أمين افندي الجندي الذي هو من اسرة الجندي التي أصلها من حماه وكان من أعظم سراة دمشق لانه كان مفتيها سابقاً وقد اقامه بهذه الوظيفة فؤاد باشا سنة ١٨٦٠ ثم تعين عضواً في مجلس شورى الدولة ثم أرسل الى اليمن لأجل تنظيم محاكمها ومجالسها وكل شيء علمي فيها ثم عاد الى دمشق وقطنها بعز وجاه وغنى واعتبار وكان كل أهل دمشق يقبلون يديه ومحله قرب المستشفى العسكري وهو منزلان متسعان جداً .

اما عدم توفيقه بالاولاد فأمر مستغرب وقد قال لي انه ولد له سبعة عشر ولداً زوج معظمهم فأولدوا غير انه لم يبق من نسله الا حفيده أمين .

بما ان سكني كان في باب توما والصيدلية بسوق الخيل اضطررت ان اشتري حماراً لينقلني من جهة الى اخرى وكان هذا الحمار ينهق دائماً ولما كنت اربطه على باب الصيدلية كان يقلق الجيران بصوته المزعج ويقلقني ولما أذهب الى منزل أمين افندي الجندي كنت اربطه قرب الباب غير انه كان يبدأ بالنهيق الى ما لا نهاية حتى يضطر الافندي الى السكوت احياناً والنظر اليّ بلطف فكنت اخجل منه وفي احد الايام بينما كنت اقرأ كتاباً افرنسياً اسمه تذكار الحمار رأيت به فقرت ذكرت ان اللصوص اذا ارادوا سرقة حمار ربطوا ذيله ليمنعوا نهيقه وقرأت سيرة عنترة بن شداد فرأيت بها ان متى اراد اخفاء صوت ابجره ربطه بزيله كي لا يصهل فصرت اعلل هذه المسألة طبياً وعرفت ان الحمار متى اراد النهيق يحرك ذيله خصوصاً الى الاعلى ولربما هذه الحركة تسعفه على النهيق اما اذا اثقل ذنبه فيبطل نهيقه لذلك ارتأيت ان اجرب لان التجربة أقوى الادلة العقلية والنقلية فأخذت معي عياراً نحاسياً من الصيدلية وربطته بذيله وبعد برهة بدل ما اسمع نهيق الحمار سمعت نهيقاً آخر يشتم الحمار وصاحبه فنهضت لأرى سبب ذلك وشاهدت رجلاً من الاعيان يقول لمن هذا الحمار الذي يرفس كل من مر بجانبه وما هذا الثقل المعلق بذيله فأخبرته قصته ضاحكاً قال ان نهيقه لا يضر كرفسه فأرفع عنه هذا الثقل ودعه ينهق ما شاء ولا تدع المارين تنهق ضدك .

(ناكر المعروف) في أحد الايام بينما كنت ذاهباً الى الصيدلية فلما وصلت الى الجهة الشمالية من الجامع الأموي سقط الحمار بي لان ازقـة دمشق كلها مبلطة فأخذت الارض بيدي وبقيت رجلي معلقة بالركاب فر بي رجل كنت اداويه مجاناً مدة ثلاثة اشهر نظراً لفقره ورآني بهذه الحالة وبقي ماشياً دون ان يلتفت بي واخيراً اتى شخص اجهله ومسك الحمار فخلصت رجلي منه ولما نهضت قائماً رجوته ان يمسك الحمار قليلاً واسرعت خلف الرجل الأول ولما وصلت اليه تناولت الكرباج وضربته به على رأسه ضرباً اليماً

وكنت متهيجاً جداً فأتى اصحاب الدكاكين المجاورة وكانوا يعرفونني وسألوني عن سبب ضربي الرجل فأخبرتهم حكايتي معه وكادوا يسحقونه من الضرب لنكرانه معروفي اخيراً تركته وأخذت حماري وسرت .

(مصطفى السباعي) كنا نجتمع سوياً مع هذا الذات فذكرت له هذه القصة قال اني أذكر قصة تنسيك هذه الحكاية وهي اني ذهبت في احد ايام رمضان للافطار في بيت باشكاتب مجلس الادارة ولما رأيت ان وقت الافطار لم يحن بعد دخلت احدى القهاوي ورأيت فيها رجلاً مسنداً رأسه بيده ومطرقاً بالأرض فتقدمت اليه وسألته عن سبب كدره أجاب انه غريب اتى من ديار بكر وتعين خيالاً وان راتبه لا يكفي لاطعام حصانه فأخذته معي وافطرنا سوية ثم ذهب واتي بحصانه وخرجه الى منزلي وافرزت له فيه محلاً فكان يأكل ويطعم حصانه على حسابي ويدخر راتبه وكان امياً فعلمته القراءة والكتابة وبعد خمس سنوات عينته كاتب في الادارة وصار يترقى مع الزمن الى ان صار باشكاتباً فاغتنى واقتنى القصور والجواري والسراري والمفروشات وأصبح يعد من أعيان البلاد وكنت كلما اراه يتقدم نحو المعالي ازداد سروراً وفي ليلة ذهبت لزيارته فوجدته وحده ملتفاً بفروته وشبقة (غليونه) ممدوداً الى امامه وبعد ان طارحت السلام وجلست رأيته حزيناً مكتئباً ينفخ من جهة فسألته عن سبب كدره وقلت له يجب ان تشكر الله الذي رقاك وأوصلك الى هذه الدرجة من السعادة لا ان تتكدر لأقل الاسباب فقل لي ما يغيظك أجاب انني اخجل أن أقول لك سبب كدري لئلا تتأثر قلت قل ولا حرج عليك أجاب انني اتكدر حين اراك واشتهي لك الموت لاتخلص من الذل اذ كلما رأيتك اتذكر حالتي الاصلية واخجل منها قلت اني اشكر لك حرية ضميرك واعدك بأن لا تراني فيما بعد قلت هذا وانصرفت من امامه متأثراً غير انه لم يمضي عليه وقت طويل حتى مات شر موتة . وبالحقيقة يجب على الانسان ان يصنع المعروف غير مؤمل بمكافأة من البشر بل من الله الذي لا يضيع له ثواباً ولهذا ترى ذوي الاحسان والمعروف في نجاح مستمر لان المعروف بحد ذاته كالترخون تزرعه في محل وينبت في محل آخر والمعروف هو الجوهر الكشاف للرجال فلأجل معرفة اخلاق الرجل اعمل معه معروفاً فاذا ذكره تأمل به وعده معه والا اذا انكره اجتنبه واتبع قول الحديث الشريف اتق شر من احسنت اليه لان لكثرة شره ومن جملتها ان لا يطيق جميلك ولكن انت ابتدي دائماً في المعروف فقد وجدت ان اللذين يعملون معروفاً ولو ما تكافؤا من المعمول معهم المعروف يرون اناساً لا يعرفونهم ينجدوهم مدة احتياجاتهم فهذا مبدى طبيعي .

ترددي على أمين افندي الجندي

(طبيب أمين افندي الجندي) وصرت اتردد عليه كما وعدته وأصبحت بعد مدة وجيزة طبيب منزله وكان وقتئذٍ متزوجاً حديثاً وهو في سن الخامسة والستين وقد ولد له ذكر وهو بهذا العمر لكنهُ لم يعش طويلاً اذ أُصيب باسهال أودى بحياته وفي احد الايام دعاني لعيادة جارية سوداء كانت مصابة بسعال قديم مع حمى تصحبها كل ليلة ففحصتها وسألني عن حالها وهل يمكن شفاؤها قلت يلزم لنوال هذا الامر معالجتها مدة شهر بلا انقطاع فأمرني ان اتولى هذا الامر فصنعت لها مركباً تتناول منه ملعقتين في اليوم مؤلفاً

من كرام من سلفات الكينا و٢٥٠ كرام ماء قراح وكرامين خلاصة الكيا وكرام من حمض الكلوريدريك وبعد شهر شفيت تماماً وذهب عنها السعال وعادت الى حالها الاولى فسر من هذا الشفاء أمين افندي جداً وقال لي ان سبب سروره ان الطبيب الأول الذي عاينها اخبره انها مصابة بالسل قلت قد يجوز ان يشتبه الطبيب بهذا المرض اذا لم يجر فحصاً دقيقاً لانها مصابة بالحمر الدورية التي تشبه باعراضها السل في السعال والحمى والعرق الليلي غير ان الفرق بينهما ان الطحال والكبد يكونا متمددين في الحمى الملاريا كما أصاب هذه المريضة ولعل الطبيب الأول اغفل في فحصه هذا الامر ومن ذلك الوقت أكتسبت ثقته فكان يدعوني لكل حادث وبواسطته تعرفت بذوات الشام لأنه كان يمدح من مهارتي امامهم . وفي احد الايام كنت في غرفتي وكان الثلج يتساقط بكثرة والبرد قارصاً فحضر اليَّ خادمه وطلبني أن أذهب بسرعة لأن سيده بينما كان داخلاً الى دار الحريم سقط بالأرض وغاب عن الوعي ولم يزل على حاله للان فتوجهت سريعاً ورأيته مصاباً بسكتة دماغية وفي اليوم الثاني توفي وخلف تركتهُ العظيمة الى حفيده أمين بك الذي تزوج امرأتين لم يأته منهما اولاد واشغله السكر والملاهي فبدد تلك الثروة العظيمة واخيراً توفي بلا عقب وهكذا انقرض ذلك البيت العظيم الذي نتعلم منهُ كيف ان الابناء يهدمون ما عمرَّهُ الابآء !

الخوري موسى معلمي الهجى

كان هذا الخوري آية في الفصاحة والمهارة والعلوم والعفة والاستقامة لكنهُ مصاب بداء البخل فكان يجمع كثيراً ولا يصرف شيئاً وقد شهد واقعة سنة ١٨٦٠ وانعمت عليه الدولة العلية بمبلغ وافر تعويضاً للخسائر التي لحقتهُ وقتئذٍ فبنى ببعض هذه الدراهم محلاً للبطريركخانة وكنيسة عظيمة عوض القديمة وكان عنده خادم من قريته وكان الخوري متعصباً جداً يحب ابناء بلده ولكن هذا التعصب لم يكن يدعوه للتكرم عليهم بشيء ولا اضاف احداً بزمانه الا لغاية او لخدمة او لجر مغنم وكنا نجتمع عند بعض الاصحاب وأخصهم شخص قاطن بأحد بيوت الوقف لأن للوقف منازل ايرادها خمسة وعشرون الفاً سنوياً عدا ايراد الكنيسة والنذورات وكانت اجتماعاتنا تسر جداً وكنت التذ بمسامرته لكونه كان ماهراً اديباً ظريفاً ويسر بوجودي لانني طبيب وتأصلت بيننا المودة حتى كنت اظن انه لا يرفض أي طلب ارجوه به كما اني لم أكن اتأخر عن المداواة المجانية لمن يوصيني به وصدف ان امرأة فقيرة وذات اولاد صغار طلبتني أزور ولدها المريض فزرته مجاناً مع اعطائي الدواء من جيبي وعندما طلبت أكل ارسلتها مع ورقة مني الى الخوري موسى لاعطائها كم رطل من الطحين فمزق الورقة ولم يعطها شيئاً فأخبرتني فتكدرت جداً وعند اجتماعنا في السهرة كدرته وتخاصمنا وابتديت بعمل عرضحال ضده للبطريرك فحين بلغه عزمي وعرف انني عامل على السعاية به لدى رئيسه صار يشيع انني كافر بلا دين كعادة رؤساء الدين مع الذين يخالفونهم في تنفيذ مآربهم . وكان فاتحاً دكاناً لشماس عنده يبيع فيها طحيناً فكان الشماس يغش الناس ويبيعه الطحين ناقصاً في وزنه وحين يذهب هذا ويراجع الوزن بدكان اخرى ويرى الفرق يعود الى الشماس يخاصمه على عمله وحين يسمع الخوري موسى ان احداً خاصم الشماس يقول عنه انه بلا دين وقتل ابن الطبيب البياجني في قرية بجانب دمشق فاستدعى والد القتيل حبيب خالد الحلو وطانيوس ابو

ناضر للمحاماة عن دعواه وصار كل من مدح حبيب خالد او فضله على طانيوس أبو ناضر أمام الخوري موسى يقول انه بلا دين لان طانيوس من بلده . وحين بلغني ما اشاعهُ عني قلت ان للخوري قانون ايمان مخصوص والذي يخالفه يكون بلا دين وهذا القانون هو :

قانون ايمان الخوري موسى

نؤمن بخوري واحد ضابط وقف الموارنة كل ما يرى وما لا يرى وبشماس واحد ابنهُ الوحيد لا ينقص ولا يزيد في بيع ونؤمن بطانيوس ابو ناضر المنبثق من الخوري والشماس الذي هو مع الخوري والشماس وبكنيسة واحدة بسكتاوية وبخوري واحد يبقى لدهر الداهرين ليكفر الاحياء والاموات آمين .

فكان لهذا القانون رنة عظيمة في دمشق ولما اتصل اليه ضحك رغماً عن غيظه ولكنه ظل يقول عني اني بلا دين اخيراً نظمت له قصيدة مثلت فيها بخله بكل صفاته وهذه القصيدة هي : وهي ابتداء هجوي والذي يتكدر من هجوي فليقل ما يقولهُ عني الى الخوري موسى لانهُ هو السبب :

لا تعجبوا ان رأيتم بعض طـــائفـــةٍ ... في البخـــل قـــد شهروا سراً واعلانـــا

لأنهم قبلوا عنـــــد السلام بـــــداً ... للأب موسى فـــاعـــداهم كما كـــانـــا

لو مسَّ حــــاتم طي كف حصرتـــــه ... لكــــان ابخـــل خلق الله انسانـــا

ولو حوت داره مـــــاء الفرات وقـــد ... تملك النيــــل اكرامـــاً واحسانـــا

وفي الصليب اتى يسوع سيـــــــده ... وقـــال يـــا ابني موسى بت عطشانـــاً

مـــا جـــاد عن كرم في بـــلّ أصبعـــه ... وقـــال مت ان فضل الموت ظمـــآنـــا

مـــع كـــل هـــذا لـــهُ من نسبـــة كرم ... فلا أرى مثـــل ذا زورا وبهتـــانـــاً

تفـــاؤلاً نسبوه مثـــل مـــا نسبوا ... حب المبـــارك للزهري عـوانـــــا

مـــا بين محذوف واوٍ من وظيفتـــه ... وحـــذف آخر حرف لاسمه شانـــا

قـــد أصبحت ذقنـــهُ تبـــدي للحيتـــه ... قولاً كما قيـــل في حـــانـــا وفي مـــانـــا

قـــد سنّ موسى عهوداً في شريعتـــه ... وقبـــة العهـــد للايمـــان اعطـــانـــا

من جسهـــا كـــان منقـــاداً الى عـــدمٍ ... يموت في الحال محرومـــاً ومنهـــانـــاً

فقبـــة الأب موسى بيت مونتـــه ... رغيفهـــا بـــات كـــالاقـــداس منصانـــا

عزريـــل يحرسهـــا من كـــل نـــاحيـــةٍ ... ان حضرة الاب عنهـــا بـــات غفلانـــا

وفي شهر آب سنة ١٨٩٨ توفي الاب موسى ولكن ذكره باقٍ لا يزول .

(ناشد باشا) حين أتيت الى الشام كان والياً عليها صاحب الدولة الحاج ناشد باشا وبعد مدة عزل وتعين محله ضيا باشا .

ضيا باشا

هو أحد الولاة العظام تلقى علومه في اوروبا وكان متمدناً جداً عفيف النفس ذا حمية وغيرة وقد اخبرنا ان اوربا ليست كما نظن فيها وان المعارف سائدة بكل نواحيها بل فيها من هم في حال من الجهل عظيمة وقد اخبرنا القصة الآتية .

قال كنت مسافراً بالسكة الحديدية وكان فيها عدة نساء يتكلمن عن الشرقيين ويقلن لبعضهن ان لأهل الشرق قروناً تنبت في رؤوسهم فعند ذلك تقدمت اليهن وكشفت عن رأسي وقلت لهن اسمعن لي ايتها السيدات ان اعالطكن في ما تقلنه فها انا شرقي ورأسي لا قرون فيه فلم يصدقن انني شرقي بل قلن لي لو كنت من هذا الجنس لكان برأسك قرون فانظر الى هذا الجهل السائد في بلاد المعارف .

وأهم ما فعله ضيا باشا في الشام هو :

حجرة صلاح الدين الايوبي

عندما زار ضياء باشا قبر صلاح الدين الايوبي ورآه بحالة دارسة قال لمن حوله أهكذا تفعلون بمحافظ الدين والاسلام والمدينة الا تذكرون انه هو الذي اعاد هذه البلاد الى الاسلام بتعبه وجهاده ولولاه لما كنتم فيها الان فيلزم ان نصلح هذه القبة ونقيم له مقاماً لائقاً به فأدعوا عدم وجود الدراهم قال اني اوجدها لكم وعمل لائحة وزّع بها على بعض الذوات قدراً معلوماً حتى جمع مبلغاً غير يسير وأقام حجرة عظيمة باقية حتى اليوم .

وصلاح الدين الايوبي هو الذي حكم سوريا ومصر وكان أعظم حاكم بالعدل والانصاف وقد حفظ له التاريخ ذكراً مجيداً وحسنات وشهامة لم يذكرها لسواه حتى ان اعداءه الصليبيين يشهدون له هذه الشهادة وكان عدوه الأكبر ريكاردوس قلب الأسد ملك الانكليز فكانا عند انتهاء المواقع يجتمعان ويأكلان سوية وفي الحرب يعودان الى العداء ولما تهادنا رجع ريكاردوس الى مملكته وبقي صلاح الدين في بلاده وتوفي بدمشق ولم يخلف شيئاً من المال فدفن في القلعة الأول ثم نقل الى الصالحية ثم الى جانب الجامع الاموي الشريف حيث لم يزل هناك .

وقد أناط ضيا باشا هذا العمل بصاحب الدولة احمد عزت باشا العابد الذي كان يومئذٍ رئيس الأقلام بدمشق والذي بنى الحجرة رجل نصراني من دمشق اسمه الوردي وهو من النحاتين المشهورين .

(حالة صلاح الدين) قد اخبرني يومئذٍ دولتلو احمد باشا والوردي الذي كان نحاتاً مسيحياً انهما حين ارادوا نقل التابوت الى الحجرة وجدوا الجثة على حالتها الطبيعية كأنها دفنت حديثاً وليس من ستمائة سنة وكان لم يزل شعر رأسه وشاربه ولحيته .

ولم تطل مدة ضيا باشا حتى نقل الى ادرنه وتوفي فيها وخلفه دولتلو .

(جودت باشا) ان الشهرة التي اكتسبها صاحب الدولة جودت باشا لتأليفه تاريخ الدولة العلية ولعلومه الشرقية وتبعه في ترتيب المجلة والنظامات كانت عظيمة جداً وقد اتى معه احد مواطننا الدكتور الياس افندي مطر وجعله طبيب بلدية الشام بدلاً عن الدكتور كوسيني .

(مستشفى نور الدين) كان في دمشق مستشفى قديم جداً بناه نور الدين وأوقف له اوقافاً عظيمة وعين فيه اطباء ومستخدمين عديدين منهم فئة وجدت اسماهم في دفاتر قديمة في هذا المستشفى كانت تدعى المطمنين ووظيفة المطمن ان يجلس في غرفة قريبة من محل المريض بحيث يسمع صوته ويقول ان الطبيب اخبرني عن فلان النائم في الفراش الفلاني ان مرضه بسيط جداً وسيشفى عن قريب فحين يسمع المريض هذا القول يتنشط ويكون النشاط سبباً لشفائه فانظر الى هذه العادة الجميلة التي غفلت عنها مستشفيات عصرنا .

أما حالة هذا المستشفى الان فهي عبارة عن بناء قديم من تلك الايام وأوقافه قليلة جداً تكاد تفي راتب الناظر والكاتب والمصاريف التي يتطلبها خمسة او ستة مرضى وقد خصوه للمجانين ومن واجبات طبيب البلدية زيارته وعيادة المرضى وكل اسبوع على الأقل .

في أحد الايام ذهب الياس افندي مطر الى حاصبيا بمأمورية ووكلني محله لرؤية اشغاله في البلدية ومن جملتها عيادة مستشفى نور الدين في اليوم الثاني توجهت اليه فرأيت الناظر وهو مدير الادارة والكاتب الذي يحرر كل المصاريف والمدخول ويكون كصيدلي للطبيب اي ان يقيد كل الادوية التي يأمر بها ويطلبها من صيدلية البلدية وبعد ان اجريت العيادة اجتمعنا سوية وصادقنا على مصاريف الادوية والطعام وختمنا اللائحة وارسلناها للبلدية وكان اسم الكاتب متري فارس وهو من رفقائي بمدرسة عين طورا عالم اللغتين العربية والافرنسية من اسرة معتبرة ولكنه محتاج للعمل .

(عزل متري فارس) بينما كنا جالسين سوية وقد وفد امر يحمله خيال وسلمه للناظر فأعطاه هذا للكاتب ليقرأه غير انهُ لم يكد يتلو سطره الأول حتى قفز عن كرسيه وصرخ ها أني لا ازال حياً فسألناه عن سبب اضطرابه قال انظروا الى هذا الامر فانه مذكور به بناءً على وفاة متري فارس كاتب مستشفى نور الدين قد صار تعيين فلان خلفاً له فتكدرنا لكدر متري ولكن استغربنا اعظم فكلفناه ان يذهب الى مجلس

الادارة الذي اخرج مضبطة وفاته بناءً على استدعى المعين جديداً فلم يشأ لانه دخل في خدمة كومبانية طريق الشام وأظن لم يزل حياً .

سرقة الخادم لنا

عندما رأيت المصروف كثيراً علينا والخدم يترددون عند محاسبتي اياهم بذكر بعض ما يجلبونه لذلك صرت أشك بهم اخيراً لكي أكون منهم اميناً ارتأيت طريقة وهي ان لا أسلم الخدم دراهم بل اتفق مع البائعين وما احتجت اليه ارسل به ورقة الى البائع فتبقى عنده الى آخر الاسبوع واحاسبهُ على موجبها وهكذا كنت أفعل مع الدخاخني وبائع التنباك والخضرة والجزار ففي أحد الايام وكانت جمعة عيد الفصح حضر اليّ بائع التنباك وقال لي سراً ارجوك مسامحتي وان يحسم على حسابي اربعين غرشاً لانني اشتركت مع خادمك بسرقتك وحين كنت ترسل لي ورقة بطلب ثلاث اوقيات كنت ارسل لك اوقيتين ونصف ونصف الاوقية اقتسمهُ مع خادمك وفي هذا الاسبوع اردت ان اعمل اعتراف الفصح فلم يرض الكاهن ان يمنحني السماح الا اذا ارجعت اليك ما اختلسته بالتواطوء مع خادمك فاضطررت ان آتي اليك وارجع لك ما أخذته منك ولما عملت حسابي رأيت ان لك بذمتي اربعين غرشاً وأظن انك لن تعود الى هذا العمل لانني اعتقدت بك صحة الدين وكنت فكرت ان آخذ الاربعين غرشاً التي اختلسها البائع من الخادم لأنه أقوى ذنباً بل هو الخائن الحقيقي وبعد مدة سألت الخادم هل اعترف في الفصح فأجاب سلباً فقلت له اذهب واعترف حالاً فتولى عليه العجب لاهتمامي غير المعتاد باعترافه اخيراً توجه للكنيسة ورجع ولم يعمل نظير بائع الدخان فسألتهُ هل اعترف أجاب بالايجاب قلت وهل اجازك الكاهن قال نعم قلت كأنك لم تخبره بما كنت تفعله مع بائع التنباك فتغير لونهُ ولكن نظراً لمهارته بهذه الصناعة لم يظهر عليه أدنى تأثير بل تجاهل المسألة وسألني عن الذي كنت اعنيه بقولي فلما رأيت منه هذه القحة اخبرته ما سمعته وخصمت عليه ثمانين غرشاً وصرفته من خدمتي .

ملاحظاتي على السرقة

يجب ان ينتبه صاحب البيت او صاحب المال الى الخدم الذين يكونون ابداً يقظين للسرقة لان السرقة تكون من الأدنى الى الاعلى اذ لا يخطر قط بفكر سيد ان يسرق خادمه ولكنه يكون بالعكس وكل ما يمكن تصوره يستطيع الكبير ان يصنعه مع الصغير الا السرقة وقد حصلت لي حادثة في الاملاك تؤيد هذا القول وهو ان أحد الفلاحين كان مجاوراً لملكي فتقدم بالحدود على ارضي والتزمت للتشكي عليه وكان من جملة الادلة التي سردها لتأييد دعواه انني رجل مسكين لا استطيع التعدي على فلان فأجبته امام القاضي ان الاقوياء يتعدون على الضعفاء بكل شيء ما عدا السرقة وقد فحصت هذه الدعوى وكان الحق بجانبي .

(ترك خطيبتي) في أحد الايام ورد لي تحرير من رجل معتبر في صيدا وهو قريب لخطيبتي يذكر فيه انه منذ مدة لم ترسل تحريراً الى خطيبتك وهذا ناشيء عن رغبتك بتركها على ما قيل فأن كان هذا رأيك ارجوك ان تخبرنا الحقيقة فأجبته ان هذا الامر لا صحة له وأما تأخري عن مكاتبتها فكان لانشغال فكري في تدبير احوالي بالشام لانني قدمت اليها حديثاً وبعد مدة اتاني كتاب ثانٍ فيه ان خطيبتك لا تستطيع ان تداوم على المدرسة لانها تستحي ان تتلقى دروسها مع الأطفال فان كنت تحبها وتريد الاقتران بها فرأيي ان تتزوجها وان اردت ان تكون متعلمة فيمكنك ان تستحضر لها استاذاً يلقنها درسها في منزلك اما اذا كنت لا ترغب ذلك فأنا نعد رفضك رغبة بتركها لذلك نرجوك ان تعرفنا رأيك صراحة حتى نجري الامور الكنائسية فأجبته انني رغبت ان تكون امرأتي متعلمة متهذبة لخيرها في المستقبل والعلم لا حياء به وان خجل امروء فيجب ان يخجل من جهله لا من طلبه العلم وبما انني انا الذي أدفع مصاريف العلم ولست مضطراً الان الى الزواج فلا يمكنني اجراءه الا بعد ان ارتب ذاتي واتخذ مركز الى واما تركي لها فهذا امر لم يخطر قط بفكري وقولكم انكم تريدون اجراء القوانين الكنائسية فأذكركم ولستم بحاجة للذكرى ان خطبتي لم تكن كنائسية قط ولم يحضرها كاهن ولا قسيس وهب انها كانت كنائسية واراد الخطيب ترك خطيبته فانه يجبر في هذه الحال ان يتنازل لها عما يكون اهداه اليها وهذا الامر افعله عن طيبة خاطر ولا ابالي به اما الحكم على زواجي فيستدل منه ان الفتاة اتاها خاطب خير مني او انكم تخشون تأخري في الزواج فأنا اهبكم حريتكم المطلقة في كلتا الحالتين اذ لا استطيع الزواج الا متى كنت على تمام الاستعداد له .
وبعد بضعة ايام اتاني من ذات الشخص تحرير يقول فيه اتعجب كيف انك تذكر بمكتوبك ان الخطبة لم تكن كنائسية ولم يحضرها كاهن فهل لم أكن حاضراً انا وهل لم أقل ذات الكلام والصلاة التي كان على الكاهن ان يقولها فلما قرأت كتابه قلت ان هذا الشخص ام انه يستجهلني او انه يخيفني باقاويله وتهديداته فأجبته انني اعتبرك اميراً مكرماً وكيل دولة (لانهُ كان قنصلاً) لا وكيل الاب الاقدس وانك اذا اعدت اقوالها فلا تمنح السلطة التي لخدمتها ولا اذا قلت الكلام الجوهري يستحيل الخبز والخمر الى لحم ودم اذ للوصول الى هذا الامر يجب وضع الايدي فان احببتم ادراك هذه المنزلة اطلبوا وضع الايدي ومتى قبلتموه نخطف ثانية بمعرفتكم خطبة توافقكم اما الان فاني مضطر لترك هذه الخطبة اكراماً لكم ويمكن الخطيبة ان تعتبر ذاتها حرة محلولة من كل عهد ولا اسألها شيئاً مما كنت قدمته لها وهكذا انتهت خطبتنا وهكذا كل خطبة يطول امرها لان الفساد يظهر بين الحساد فالأحسن الزواج بدون خطبة واذا شاء اختبارها فليختبر بدون خطبة .

وكنت في الشام اتردد على بيوت كثيرة وكل بيت فيه بنات يظنون انني اريد زواجهن ومن البيوت التي عرفتها لمرض في عين احد اعضائه وصداقتي مع أحد شبانه منزل عظيم فيه ابنة كانت بديعة الجمال بل هي الوحيدة التي اشتهرت في جمالها بذلك الوقت وكانت متعلمة متهذبة تتكلم اللغة الفرنساوية ادبية لطيفة المعاشرة حتى انني صممت ان لا اتزوج سواها اما الذي اعاقني عن تأخير الزواج فهو عدم انتظام احوالي المالية في دمشق كما انها كانت لا تمتلك شيئاً فافتكرت ان حبنا يزول سريعاً عند فقد المال خصوصاً لأنها ظريفة الشكل يلزم الاعتناء بها ومداراتها أكثر من سواها لأن الانسان اذا امتلك جوهرة ثمينة يحرص عليها

او ثياباً جديدة يعتني بتنظيفها او فرساً كريمة تركبه أكثر مما يركبها لذلك ترى العاقل لا يقتني لخدمته من هو خير منه اذ يكون في هذه الحال خادماً لا مخدوماً ومن اراد اقتناء الاشياء البديعة يجب ان يكون في حال تمكنه من المحافظة عليها فالجمال هو من الاشياء الثمينة جداً المحتاجة الى المدارة والخدمة والكلفة التي لا يمكن لكل انسان ان يقوم بها فجميع هذه الملاحظات كانت تعيقني عن طلب الزواج وانني احمد الله اذ منحني عقلاً منعني عن التهور وكنت في بعض الأحيان اتأثر من لطفها وجمالها واطرز اسمها بالابيات الآتية :

حسدت لأجلك عــــامنـــا الاعوامُ	وتزينت بوجودك الايـــــــام
سجـــدت لطلعتك الانـــام جلالـــة	وجثت لعزّ جمالك الاصنــــــامُ
يـــا من عبـــدت وكنت أول عـــابـــد	شهـــدت بصدق عبـــادتي الاسقـــام
بلغت محاسنك الملائك في العلى	فغـــــــــدا لهم مثلي هوى وغرام
هتفوا ونـــــــــادوا كلهم بتخشع	يـــا زينـــة الـــدنيـــا عليك سلامُ

وفي أحد الايام كنت في بيروت مع ارمل غني فسألني هل تعرف فلانة في دمشق قلت نعم بلغني انك كنت تريد زواجها فلم لم تفعل قلت هي التي رفضت طلبي اذ يقتضي لمثلها رجل أعظم مني وأغنى قلت ذلك لأسهل عليها امر الزواج وبعد مدة ذهب الى دمشق وتزوجها .

شندين آغا

ان شندين آغا من عائلة معتبرة من قبيلة الاكراد وهو رئيس قبيلة الدقوريه أتت من جهة ماردين وقد كان كريم النفس جداً فتح محلاً للضيافة حتى انهُ كان يوجد في كل يوم عنده عدد عظيم من الضيوف يأكلون ويشربون على مائدته وكان منزله في الصالحية يجلس أمامه على مقعد مخصوص وله عدة اولاد احدهم سعيد باشا الذي بعدما تقلب في مناصب عديدة اتصل ان يصير امير الحج وقضى حياته بهذه الوظيفة وأصبح غنياً جداً وكان له ابنة وحيدة تزوجها احمد باشا اليوسف وتوفت في حياته وقد خلف معظم تركته الى حفيده الذي تعين مكانه في امارة الحج رغماً عن صغر سنه وهو باقٍ في امارة الحج حتى الان ويدعى عبد الرحمن باشا اليوسف وهو اغنى وأكرم رجل في سوريا وقل من يكون غنياً كريماً وقد كان سعيد باشا اول متصرف تعين على البلقاء وتوفي بغنى عظيم .

(شندين آغا والبدوي) أمر احد ولاة الشام بشنق بدوي لذنب ارتكبه وبالصدفة كان شندين آغا حاضراً فتوسط لدى ولاة الامر حتى عفي عنه وبعد بضع سنوات تغيب شندين آغا عن دمشق لاسباب لا نعلمها وترك عائلته في الشام وكان كل سنة يأتي الى منزله شخص يدعى انه آتٍ من قبل شندين آغا ومعه كل مؤنة البيت من قمح وشعير وسمن وأرز وما شاكل وظل على هذه الحال نحو أربع سنوات حتى حضر

شندين آغا وعاد الى دمشق فسأله أهل بيته عن الشخص الذي كان يرسل لهم معه مؤنتهم السنوية فتعجب من كلامهم وقال لهم انه في مدة غيابه لم يرسل شيئاً فانذهلوا لقوله وفي آخر السنة اتى ذات الشخص ومعه المؤنة المعتادة وقال لهم انها مرسلة من شندين آغا فخرج عندئذٍ للقائه وحين رآه عرفه فسأله عن سبب عمله أجابه ارجوك عتقي لأنك من حين توسطت لي وخلصت حياتي اوقفتها لك واقسمت يميناً ان ثمرة اتعابي تكون كلها لك وها قد مر عليَّ خمس سنوات اقدم لمنزلك كل ما اجنيه فعتقه شندين آغا شاكراً له هذه المرؤة التي دعته ان يتذكر ما اجراه معهُ من المعروف فلله اين توجد هذه المرؤة وهذا الكرم والوفاء .

شندين آغا والسايح المسكوبي

في سنة ١٨٥٣ اتى الى دمشق سائح رومي وكان برفقته ترجمان عرّفه كل المحلات التي يؤمها السياح وبينما كان ماراً من أمام منزل شندين آغا رآه جالساً قرب باب بيته وحوله خلق كثير فسأل السائح الترجمان عنه قال انه من اعيان البلد يتفرج السياح على منزله حين يأتون هذه الجهات فطلب ان يزوره وتقدم الترجمان يستأذن شندين آغا فسمح له بذلك واشترط عليه ان يتناول طعامه الظهر عنده فقبل السائح هذا الشرط ولما احضروا الطعام جلس شندين آغا مع السائح في جهة وباقي الحضور في جهة الاخرى وكان السائح مسروراً جداً لرؤيتهم يأكلون بهذه الصفة ولما انتهى طعامهم وقاموا ودع شندين آغا وخرج فرأى قرب الباب حصاناً عربياً مسرجاً بعدته الكاملة وهو من خيار الخيل فسأل عنه قيل له انه هدية من الاغا لكم ويستحيل رفضه فتعجب السائح من هذا الكرم وشكر فضل شندين آغا ودّون اسمه عنده ذكراً لهذه الحادثة .

في سنة ١٨٥٤ اشهرت الدولة العلية بالاتفاق مع فرنسا وانكلترا الحرب على روسيا وحاصرت قلعة سيبستوبول وكانت الجنود العثمانية تجتمع من سائر انحاء المملكة وقد وقع بعض اسرى عثمانيين بيد الروس فأخذوهم الى داخلية البلاد وجمعوهم في محل ليفرقوهم على المدن وكان مديراً على التفريق أحد القادة العظام رتبته جنرال فكان يأخذ اسم كل واحد وبلده وأهله ولما انتهى الى رجل وطلب منه اسمه واسم ابيه قال له انه يدعى عبدالله آغا ابن شندين آغا من الشام فعند ذلك اخرجه القائد من الصف وقال له ابق هنا لوحدك فاضطرب عبدالله جداً وخاف خوفاً شديداً وبعد نهاية التفريق حضر اليه القائد وأخذه بعربته الى منزله وقال له هذه هي غرفتك وهذه العربة والمنزل والخدم كلهم تحت أمرك ومصروفك تأخذه مني كل يوم عشر ريالات مسكوبية فانذهل عبدالله من هذه المعاملة غير المنتظرة وبقي على هذه الحال مدة شهرين حتى تم الصلح وأعيدت الاسرى الى بلادها فأحضر له القائد اثني عشر بدلة من سائر الاشكال واعطاه مايتين ريالاً مسكوبياً وودعه وقال له اقر والدك شندين آغا سلامي وقل له ان السائح الذي اهديته الحصان لا زال يذكر معروفك وهو انا .

وهنا يحق لنا العجب لأننا لم نستطع الحكم على أيهما أكرم ولكن هذه الصفات الممتازة من كليهما

محبوبة جداً وتهز النفس طرباً وتسر السامع ولو بعد ألف سنة لأن الحادثة هي التي تؤثر في النفس ان خيراً او شراً .

(محيي الدين) كان يرى هذا الرجل في الاسواق وهو شبه عار من ملابسه وفي عنقه المسابح ويدعى الجذب ويطوف المدينة من محل الى محل آخر يأخذ ما يشاء من الخبز والفاكهة دون ان يتعرض له احد وكان شهيراً جداً في المدينة ففي أحد ايام الشتاء كنت جالساً في منزلي منفرداً واذ دخل حلاقي على غير ميعاد حلاقتي فسألته ماذا يريد على غير عادة أجاب اني اتيت اليك بمريض وهو محيي الدين الذي تراه في الاسواق متجولاً قلت ماذا أفعل به وهو معتوه أجاب انه مصاب بعينيه ولا تظنه معتوهاً فترى منه ما يدهشك انما لا يقابلك الا منفرداً قلت أدخله عليّ فدعاه ودخلا الى الغرفة وقفل الباب ورآه فقال له اهداء وقل للطبيب مرضك فسألته عن مرضه واسبابه فأخبرني عنه وكان يعلله لي بكل تعقل فوضعت له علاجاً وكلفته ان يرجع في اليوم الثاني ففعل وبعد اربعة ايام تم شفاؤه واراد ان يدفع لي اجرتي فأبيتها لانني علمت ان بواسطته سأنتفع كثيراً فسألته هل يوجد من يعتقد بك قال ان كثيراً من الناس يعتقدون بي الصلاح ويكرمونني وسألته هل يعرف منزل محمد بك الذي توفي منذ مدة قال اني اعرف كل من هناك فماذا تريد منهم قلت اسمع حكايتي معه .

عندما قدمت الى الشام وأعلنت انني طبيب درست في مصر اتاني كل ذوي العاهات اخصهم المزمنة الذين كانوا جربوا الاطباء الوطنيين وهم يأملون بكل طبيب جديد خيراً على ظن انهُ يكون عارفاً دواء جديداً فيرى الطبيب كثرة زبائنه فيظن بنفسهُ اغتنى ولكن لا يلبث ان يضمحل امله ويصبح كالآخرين ومن جملة من داويته كان محمد بك دعيت لعيادته ففحصته ووجدته مصاباً بالسل الرئوي فعلمت استحالة شفائه واخبرت اهله بذلك فرجوني ان اصف له علاجاً ليتسلى ولا يقطع منه فعربه فكر الموت قبل حصوله قلت اما على هذا الشرط فلا بأس ووضعت له جرعة مسكنة وفي اليوم الثاني دعوني ايضاً وقالوا لي ان البك طلبك لأنه ارتاح على علاجك ونام فأعدت لهم كلام الأمس وان شفاءه يستحيل فقالوا لي هذا الرجل غني جداً وسيترك كل غناه ويموت ولا يهمه لو أخذت قليلاً من كثير من هذه التركة فامتثلت وصرت أكرر زياراتي الى ان توفي وبعد مدة ارسلت لورثته قائمة الحساب ولكن لم يكن من مجيب ومضت مدة طويلة وأنا أطالب بمالي عندهم ولكن كنت كالكاتب على صفحات الماء اخيراً تركت هذه المسألة ولم اعد اطالب بها ولم اتشك عليهم كي لا يقال اني طبيب وتشكيت على مريض عالجته ولما يئست من كل طرق الانسانية والسياسية ارتأيت ان التجيء الى الطريقة الدينية التي ساعدتني حين كان يسرقني خادمي مع الدخاخني فقلت لمحيي الدين هل يعتقد بك أهل هذا المنزل قال نعم قلت أرجوك ان تعمل طريقة تنولني حقي وتني عن ذمة محمد بك ما عليه فقال لي غداً ان شاء الله يكون مالك عندك .

وفي اليوم الثاني نحو الظهر حضر الى منزلي وكيل محمد بك يبلغني سلام عائلته ويطلب مني الحساب الذي لي عندهم قلت اني اترك هذا الحساب للآخرة والله يفعل ما يشاء فعندما سمع ذكر الآخرة ارتعب

وقال سندفع لك حسابك حالاً غير اني ارجوك ان تخبرني عن المقدار الذي تطلبه قلت اربعين ريالاً فاستكثره وحاول تخفيض شيء منهُ فلم أقبل وقلت لهُ او ان تعطني المبلغ كلهُ او اتنازل عنهُ فذهب ورجع بعد ساعتين واعطاني ما طلبت .

وفي اليوم الثاني حضر محيي الدين يسألني عن وصول المبلغ اليَّ فأجبته بالايجاب وسألته عن الطريقة التي عملها حتى نلت حقوقي فقال انني ذهبت قبل الفجر الى منزل محمد بك وصرت اقرع الباب بشدة حتى ذعر من في البيت وقاموا بدهشة وفتحوا الباب وحين رأوني سألوني عما اريد فطلبت مقابلة أصحاب المنزل ولما رأيتهم قلت لهم ان محمد بك مديون لشخص قبل وفاته وان لم تفوا الدين الذي عليه يؤخذ منه دينه في الآخرة بدل دينه والرجل قد خلف ثروة عظيمة فلماذا لا تفوا الدين الذي عليه لطبيب وهو زهيد جداً فحالاً أمروا الوكيل ان يأتي ويدفع لك مهما طلبت فشكرت فضله واردت اعطاءه خمس ريالات فرفض قبولها .

افتكاري بالدين

بقطع النظر عما تعلمته بل ما استنتجه فكري .

فمن الآن وصاعداً صرت شاكر القائم بأفكاره وابتداء هذه المباحث كنت بسن الثلاثين بعد هاتين الحادثتين الاولى مسيحية وهي قصة خادمي مع بائع الدخان والثانية اسلامية وهي حكاية محيي الدين ابتدأت افتكر بمنافع الدين مع انني كنت كفرت بكل دين بعد حادثة الخوري موسى وصرت افتكر وأميز بين الدين وخادمه وقلت بذاتي اذا كان الخادم فاسداً او شريراً فما ذنب المخدوم واعمال الخوري موسى ليست من الدين ولا هو يأمره بها بل من شخصياته الخارجة عن وظيفته الدينية وحيث ان دمشق هي من البلاد التي تخول الانسان راحة الافتكار والتأمل لقلة الشغل فيها خصوصاً في فصل الشتاء حيث يلازم بيته فنظراً لوحدتي دون امرأة ولا عائلة كنت اتسلى أما بالقراءة او بالكتابة خصوصاً بالافتكار في كل الامور الدينية فكنت تارة اشك بها وطوراً اصدقها حسب العوامل والتأثيرات التي كانت تطرأ علي اخيراً ارتأيت ان ادع المجال لافكاري الخصوصية وأقدم البراهين من نفسي لنفسي بصرف النظر عما كنت اقرأه في الكتب الدينية والتي ضدها كمؤلفات فولتير وروسو وخلافها لانني في مدة وجودي بالشام كنت أطالع كل هذه الكتب لان كما قلت قلة الشغل تعمل هذه الامور فارتأيت ان افتكر وابرهن لذاتي باصل كل دين وعلته وقلت ان اساس كل دين هو :

الله

قالت الاديان ان الله هو أول كل أول ومبدع كل شيء المنظم والمحافظ المحيي والمميت القادر المطلق فهذه الصفات الالهية بعقل كل انسان قد اختلفوا في تمثيلها فالبعض اتخذ صنماً وأعطاه هذه الصفات

والبعض جعله ثوراً او قطاً او حيواناً من الحيوانات واخيراً قالوا ان لا صورة ولا مثال لهُ كل فئة قالت عنه حسب ما ارتأته ولكن أوصاف الاله العمومية واحدة .

وحيث ان الصانع يعرف من صنعته قالوا ان الطبيعة صنعة الخالق وبما اني درست الطب الذي هو عبارة عن درس الطبيعة ارتأيت ان اقابل الطبيعة بالصنائع التي اخترعها العقل ورأى المشابهة التي بينها فتبقى المشابهة بين فاعلين .

فالعلوم التي اخترعها الانسان من عقله دون ان يشارك بها اشغال الجسد هي :

اولاً : القراءة والكتابة
ثانياً : علم الشعر .
ثالثاً : علم الموسيقى .
رابعاً : علم الحساب .
وبعض علوم اخرى .

كيف أخترع الانسان القراءة والكتابة

لأجل وصول الانسان الى هذه الدرجة ابتدأ باختراع وضع الاحرف الهجائية التي هي عبارة عن مخارج الصوت فقال عن صوت اس علامة دعاها سيناً وعن صوت بب اشارة سماها باء وجمع من هذه المخارج علامات حسب اختلاف اللغات بعضها اربعة وعشرين وغيرها ثمانية وعشرين وأصبح كل حرف من هذه المخارج يدل على صوت دون الدلالة على معنى ولأجل دلالة المعنى وجب اجتماع حرفين على الأقل مثلاً اذا اجتمع حرف الالف بالباء تكونت منهما لفظة اب وهي تدل على حيوان متزوج له امرأة وولد واذ أضفت الى هذه الكلمة لفظة اخرى زاد المعنى مثلاً لو زدنا على كلمة اب لفظة ضرب تصورنا هذا الحيوان الكبير رفع يده وسقط على آخر وهو فعل الاب ولو اضفنا على هاتين الكلمتين كلمة ثالثة وهي ابن نعرف ان الاب ضرب الابن ولكي نعلم أي ابن ضرب نزيد عليه حرف الهاء التي تنسب هذا الابن الى ابيه فنقول ان الاب ضرب ابنه وهكذا كلما أضفنا كلمة الى اخرى تزيد المعاني التي تتحد البشر بألفهم بحيث ان هذه الاحرف اذا اضيف لبعضها مع قلتها يؤلف منها ملايين من الالفاظ والمعاني . هذه هي أول صنعة العقل تكونت من البسيط وترقت الى المركب ومن الفرد الى الجملة ومنها تألفت صنعة القراءة والكتابة .

(الشعر) مؤلف من اسباب واوتاد وفواصل متى ربطت ببعضها صارت شعراً ومن الشعر القصيدة ومنه الديوان والمبدأ واحد من البسيط الى المركب .

(الموسيقى) مؤلفة من سبع طبقات اعتبارها في الموسيقى اعتبار الاحرف في القراءة والكتابة وهي في الموسيقى الافرنجية دو ري مي فا سو لا سي وفي الموسيقى العربية الرصد والدوكا والسيكا والجهاركا والنوى والحسيني والأوج وكلها اسماء فارسية الأصل الدوكا المقام الثاني السيكا الثالث وهلمّ جراً ومن اجتماعها ببعضها تتكون الانغام والالحان .

(الحساب) يتكون من تسع مقامات وهي من الواحد الى التاسع ١٢٣٤٥٦٧٨٩ فانتقال كل رقم الى يسار آخر يزيد عشرة اضعاف وهكذا الى ما لا نهاية له هذه هي بالاختصار الصنائع التي اخترعها العقل البشري فلننظر الى الطبيعة .

(صنعة الطبيعة) فلنفحص صنعة الطبيعة ولنرى اذا كانت تشبه في تأليفها الصنائع العقلية لنبدأ بتحليل الطبيعة المكونة من ثلاث ممالك وهي المملكة الجامدة والمملكة النباتية والمملكة الحيوانية فنراها مؤلفة من احرف هجائية كصنعة الكتابة وهذه الاحرف هي الاجسام البسيطة التي عرف منها حتى الان ٧٢ جسم كالاوكسجين والهيدروجين والازوت وكل من هذه الاجسام لا منفعة له بذاته ولكن متى اجتمع مع رفيقه كوّن معنى فالاوكسجين بحد ذاته محرق والهيدروجين مطفي فلو اتحدا مع بعضهما يتكون الماء الذي هو أصل كل شيء حي وكذلك لو اختلط الاوكيسجين بالازوت يتولد الهواء الذي هو حياة النبات والحيوان وكما انه باجتماع بعض الحروق يتولد ملايين من الالفاظ والمعاني كذلك باجتماع هذه الاجسام يتولد ملايين من الكائنات فينتج من ذلك ان الطبيعة هي صنعة كصنعة الكتابة والقراءة وحيث ان هذه اخترعها العقل لذلك وجب ان يكون مخترع الطبيعة عقل عظيم لا يمكن ادراكه كما لا نستطيع ادراك صناعته وهذا الصانع ندعوه الله .

وحيث ان الطبيعة محفوظة للان بقوانينها ونواميسها ولا يمكنها ان تحيد عنها فلا بد ان يكون الذي اوجدها محافظاً عليها كي لا تخل بوظائفها اذ لو تركها لكانت تلاشت كما تتلاشى الصنائع العقلية لو اهملت هذا ما ارتأينا اثباته برهاناً على وجود الخالق الحافظ .

الدين

هو خضوع الانسان لقوة اوجدته وتحيه وتميته وقد خلق الانسان ليكون ديناً لان الاسباب التي جعلته يفتكر بقوة أعظم منه مغروسة فيه وهذه الاسباب هي الموت والمصائب والمؤذيات اذ يعتقد ان موته صادر عن قوة عظيمة تقضي عليه بذلك فيسترحم منها خاضعاً متواضعاً ان تبعد عنه زمن الموت مدة من الزمن واذا سقط في مصيبة لا يستطيع النجاة منها او ينقذ ذويه منها يرتفع عقله حالاً الى قوة غير منظورة لهذا نرى الانسان لا يذكر الدين الا في ابان الشدائد ولذلك يقولون استفقاد الله رحمه في هكذا ظروف ولكن هنا الشطط لان ليس الله يفتقد المصاب بل هو يستفقد الله اذ يرفع نفسه اليه ومن جملة الاسباب التي

تدعو الانسان لاعتبار الدين هو حبه لراحته وتجنب تعبه فلما رأى نفسه عاجزاً عن هذا الامر بذاته التجاء لقوة أعظم منه طلب منها راحته وابعاد تعبه ولذلك قسم أعماله الى قسمين فسمى ما نفعه واراحه خيراً وما ضرّه واتعبه شراً ولهذا اوجدت بعض الاديان كمذهب زردشت عند قدماء الفرس الهاً للخير والهاً للشر وكل دين مؤلف من ثلاث أمور :

الاول : الاعتقاد بقوة عامة قادرة على كل شيء تجازي او تعاقب .
الثاني : الوسيط بين هذه القوة والبشر .
الثالث : الشريعة .

وتقسم الشريعة الى ثلاثة اقسام :

الأول : واجبات الانسان نحو خالقه .
الثاني : واجباته نحو قريبه .
الثالث : واجباته نحو نفسه .

وحيث تكلمنا عن الخالق واثبتنا وجوده فلنتكلم عن القسم الثاني وهم المتشرعون اللذين ظهروا قبل الاديان المنزلة .

(المتشرعون) لا يخفى انه منذ ابتداء العالم ظهر كثير من المتشرعين في الهند والصين بودا وكنفوسيوس الذي هو اعظم القدماء بادبياته العظيمة ومن جملة اقواله انسى الاسى ولا تنسى الجميل . أمنع الشرّكي لا تتعب في قصاصه . لا يمكن تحكم عائلتك ما لم تعطها المثل وهكذا جملة حكم وفي العجم زردشت وفي اليونان سولون وفي مصر منس وكذلك عند باقي الأمم القديمة ظهر متشرعون وكما قلنا ان الصفات التي اعطيت للخالق واحدة فكذلك الصفات التي اعطيت لكل متشرع واحدة ولو اختلفت الاسماء لأن كل من سن شريعة موافقة للهيئة الاجتماعية تمنع الضرر عن القريب وتنفع الغير انه ممتاز من الله عن باقي البشر بعقله السامي وكذلك لما خصه به الله من الهبات وظروف الزمن فكيفما كان الحال فهو رجل خير مني ميزه الله عني يلزم اعتباره وقد ظهر كل منهم في زمن مختلف وسن كل شريعة توافق زمانه وبلاده واحتياجات اهل ذاك الزمن فينتج من هذا ان كل متشرع صنع ما يوافق احكام زمانه ولو فحصنا ما أمر به كل منهم تراهم متفقين في المبدأ فلو سمعنا عظة صينية او هندية او يابانية نراها واحدة لا يمكن تمييز واحد عن آخر وحيث كلامهم وشرائعهم لجهة الخلق وعبادة الخالق واحدة تصور عندهم الاعتقاد بالتقنص مثلاً ان المتشرع الفلاني ظهر من ألف سنة وقال كذا وكذا ثم بعد ألف ظهر آخر وقال مثل الأول فيكون هذا ذاك أي روحه وانه لبس قميصاً جديدة وهو الجسد وكذلك نقول اذا كان شخص عنده مباديء شخص آخر ان هذا من روح ذاك اعتبار ان كلمة فلان او مبداه هي روحه وهي هو لان اذا صدر امر سلطاني الذي هو

كلمته يلزم الخضوع له كالخضوع لآمره لان امره هو نفسه اما جعلهم اختصاصت لكل مذهب فهذا لا يمس الجوهر .

(خلفا المتشرعين) حيث ان كل انسان معرض للموت لا يمكنهُ الخلود وكان المتشرعون قد سنوا شرائعهم واحبوا ان يبقوها بعدهم وجب ان يقوم مقامهم بعد وفاتهم من يأمر باوامرهم وينهي بنواهيهم فسموا هؤلاء خلفاء واناطوا بهم المحافظة على شريعتهم لذلك يجب اعتبار الخلف كالسلف او كاعتبار الشريعة التي يحافظ عليها ويتلاشى المذهب عندما تتلاشى الجمعية المحافظة عليه فهكذا كانت تتلاشى عبادة الثور عندما تلاشت كهنته وهكذا كل مذهب وتتلاشى المحافظون عند منع تعليم هذا المذهب الى الصغار لانهم يشبون على غير افكار وغير مذهب ولذلك اعظم شيء للاشاة دين هو عدم المدارس لتعليمه .

(الشهداء) هم المحافظون على الشريعة والمحامون عنها المائتون لأجلها وباعتقادي ان اول معجزة اتوها هي محافظتهم على مبدأهم وموتهم لأجله فالذين قضوا لمحافظتهم على حياة ورفاهية الناس فيحق لهم الاعتبار الحقيقي لأنهم افنوا حياتهم بتعليم الآداب والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . قد زارني أحد تلامذة الطب وكان غير مسيحي فأخذتهُ يزور المدرسة الطبية ثم بعد ذلك اخذتهُ الى كلية الياسوعية الذي يوجد في ساحتها شخص مار يوسف فالتفت اليَّ وقال ما هذا فهل تعبد الاصنام وهل تعتبر هذا الشخص فأجبته بكل رواق ان هذه الاشخاص عندنا تمثل الفضيلة ليس كصنم باعال والثور ولكل شخص عندنا فضيلة اشتهر بها نجعل تمثاله تذكرة لفضائله التي يُكرم لأجلها فلو مررت على تمثال نابوليون الأول اما تحني رأسك للشجاعة المتجسدة في هذا الشخص وهكذا نحن نعتبر كل واحد من هؤلاء لأجل الفضيلة التي امتاز بها ولأجل تجرء الاحيا والاقتدا به وكذلك فكر زمني ايضاً ان هذا الشخص الذي تراه هو شخص مار يوسف الذي ربى المسيح في صغره فلولاه لما كانت هذه المدرسة ولا المدرسة الطبية لأن اعتقاد الياسوعيين به جلبهم الى هذه الديار وجمعوا دارهم من امريكا واوربا وبنوا لنا هذه المدارس النافعة لنا وسبب نفعهم هو اعتقادهم بهذا الشخص فأنا اكرمه فعنذ ذلك رفع طربوشه وقال وأنا أكرمهُ ايضاً لهذه الاسباب .

هذا فكرنا بشأن المتشرعين وخلفائهم والأولياء ولنتكلم الان عن القسم الثالث من الدين وهو الشريعة .

الشريعة

هي القسم الذي عليه اهمية العمل وهي التي تخضع لها العقول وتسهل الايمان لأن العقل البشري لا يستطيع ادراك الاعتقاد مها كان الدين بسيطاً ولا يمكنه استعمال عقله لأن لا عقل يفهم الاعتقاد فأي

عقل يسلم بعبادة الثور والقط والتمساح وانهم آلهة ولكنه يدرك الشريعة لأنها تأمر بالنافع وتنهي عن المضر وايمان الشخص بمن وضعها يكون حسب منفعتها فمتى رآها الانسان نافعة لا يلتفت الى عقائد ايمانه بها مثلاً لو دعى طبيب لعيادة مريض فانه يطلب منه دواء دائه لا تفصيل العلاج وتعليمه الصناعة وشفاؤه من مرضه يكسبه الثقة بالطبيب ولو لم يعرف تفصيل صنعته وابوابها وكل شريعة تنوعت حسب الزمن والحالة والاحتياج .

فالشريعة هي دواء الهيئة الاجتماعية وسبب شفائها وحين رأت بها المنافع آمنت بكل ما قيل عن منزلها .

فالباري تعالى اوجد الشريعة لأجل نفع البشر لا لنفعه لانه اذا كان قد أمر بعدم القتل فلا لانه يخشى احداً بقتله بل شفقة على مخلوقاته وحيث ان الشرائع وجدت لنفعنا ورحمة لنا فلذلك الهيئة الاجتماعية هي وكيلتها على الارض وهذه الهيئة وكلت شخص عنها فمن احبته احبه الله ومن ابغضته بغضه فلهذا نرى ان حفظ الشريعة ضروري لنا اذ لولاها لما كانت هيئة اجتماعية ولا اتفق انسان مع رفيقه بل بقي كل انسان لمفرده يعيش كالحيوانات على مجرد اهوائه فمن الضروري اذاً وجود شرائع وقوانين في كل عمل يشترك فيه شخصان أو أكثر .

(الشريعة الطبيعية) اذا لاحظنا الانسان على ما هو عليه نرى ان الشريعة مغروسة فيه لا يمكنه ان يعيش بدونها فهو حيوان قابل للاشتراك مع آخر وحيث وجد الاشتراك وجد القانون لذلك ولكي يأمن كل واحد على حقوقه سنت له الشريعة التي منها لا تقتل لا تسرق ولو زدنا تدقيقاً في هذا الشأن نرى ان العشر وصايا خلقت في كل منا قبل نزولها كتابة ويدلنا على ذلك حال البشر الذي وجدوا قبل موسى الكليم الأول .

وأول ما اشتراك الانسان مع زوجته ثم اولاده فتألفت عائلة واتحدت هذه مع اخرى لأجل رفع الضرر عنها من السوى كمقاومة الحيوانات الكاسرة والتعاضد على بناء منازل تقيها حرارة الصيف وبرد الشتاء ولمنع الحيوانات عن مزاحمتها الغذا ولو كانت العائلات تفعل ببعضها ما تفعله الحيوانات فلا يلزم والحالة هذه الاشتراك ومن هذا الاتحاد تكون الشعب وهكذا الى ما لا نهاية له وكلما زاد تمدن الانسان زادت شرائعه حتى أصبح له في كل حركة ومع كل شخص قانون فلرجل وامرأته قانون وبينه وبين اولاده قانون آخر وشريعة وهلم جرى وتناقلت الشرائع من الافراد الى الجموع ومنهم الى الشعوب والممالك وهكذا تجرد الانسان عن قواه الحيوانية وأصبح الحق قوته المجردة .

ولو لاحظنا القوانين المنتشرة الان من دينية وسياسية وأدبية وتجارية نراها كلها تصبوا الى غاية واحدة وهي عدم ضرر القريب والتفتيش على النفع فالقوانين الدينية تحكم على الضمير وهي أقوى شكيمة

والسياسية تحكم على الاعمال الظاهرة وكذلك المدنية أما حاكم الضمير والعقل فله السلطة التي لا تنازع لا ترى هيئة بدون دين فطبيعة الانسان اوجبت له الشرائع وحبه للتملك الخصوصي سن له القانون .

وأصل هذه للشرايع الامرأة فكل الاديان جعلتها السبب الأول في استعباد الرجل فانه حين رأى الامرأة واراد تخصيصها لذاته نزلت عليه وصية لا تزن وعندما اراد ان يجمع مالاً بتعبه ويتملك ارضاً يسكنها بدون معارض نزلت لهُ وصية لا تسرق وعندما خاف من قوي يقتله ويأخذ امرأته منه او ماله نزلت له وصية لا تقتل كل شريعة أو قانون وجد لردع شهوة الانسان المضرة بقريبه وبمقدار هذه الشهوات تكون الشرائع وهكذا أصبح الانسان اسير الشرائع التي تخلص منها الحيوان وكل ذلك من طمعه بالتخصيص له دون رفيقه فلأجل منع هذه التعديات عن القريب المخصص نفسه انزل الدين والحكم والمحامات وخضع الانسان لهم وبقيت الحيوانات مستريحة منهم فلا تجد حيواناً يركع أمام آخر ويقول له باركني يا سيدنا او يقدم معروضاً الى رفيقه ويقول له يعرض عبد سعادتكم فكل هذا أوجبه طمعنا وحب التخصيص وقد أصبح ضروري لنا اذا اعتبرنا الانسان الذي كان في حالة منفردة وأصبح فيما بعد عضواً في الهيئة الاجتماعية لحتمنا بوجوب وجود شرائع وقوانين دينية لهُ اولاً لأنها هي التي طمنت فكرة وجعلته يأمن لقريبه وكانت علة الاجتماع وحين اجتمع وارتاح فكره تشارك بالعمل والافكار مع قريبه فتولدت الشرائع السياسية والصنائع والاكتشافات وبناء المدن واختراع كل شيء نافع للهيئة وان الانسان فضلاً عن المنافع التي يأملها في الحياة الاخرى بواسطة الشرائع الدينية نرى منافعها عديدة في هذه الدنيا ايضاً فلنفحص منافعها لنا في حياتنا ونفحص الوصايا العشر التي هي اساس كل دين وشريعة فنقول :

منافع الدين في الدنيا

« الوصيّة الاولى » انا هو الرب الهك لا يكن لك اله غيري .

المنافع الدنيوية لهذه الوصية هي اولاً راحة الضمير بالاعتقاد باله واحد قوي قادر على كل شيء ينتقم من المعتدي ويسعف في المصائب شفيق رحيم يكافيء على احتمال النوائب والاتعاب ولكم من راحة يجد الانسان في هذا الأمل فتراه في مصائبه مرتاحاً وفي احزانه مسروراً يصبر لكل ما اصابه آملاً بالمكافأة وبالحقيقة ان المؤمن يتمتع في السعادة الموعود بها في السماء وهو على الأرض .

وعكس ذلك من لا يؤمن بهذه القوة الروحية المسعفة فتراه في حزن دائم من يأسه من كل ما هو حواليه فيرى مصيبته لا نهاية لها ولا يرجو مكافأة لصبره فهذه الحالة المتعبة المقلقة تكفيه قصاصاً لمخالفة هذه الوصية كما ان ايمانه يكفيه مكافأة فيقاسي الاول عذاب جهنم على الارض ويذوق الثاني حلاوة السعادة لان الله هو أمل واشقى الناس من قمع أمله .

وهناك براهين اخرى كثيرة لا حاجة لذكرها هنا وأهم ما قيل في الاعتقاد بالله هو اعتقاد السوى وهذا الذي يمنع الاذى اذ لو تلاشى اسم الله لتلاشت الارض وأصبح الانسان حيواناً مفترساً فالله هو حافظ الدنيا وما عليها وهو بقلب كل انسان واليه مرجع كل عمل .

« الوصية الثانية » لا تحلف باسم الله باطلاً .

الصدق هو الرباط الوحيد للمعاملات البشرية وضده الكذب والكاذب لا يعامله احد من الناس والحلف باسم الله بلا سبب موجب هو علامة الكذب وقد قال المثل لا تصدق الرجل الذي يحلف بلا داعٍ ولا الامرأة التي تبكي بسرعة وسبب ذلك ان الكاذب يحلف حتى يوهم للسامع صدقه ويخفي كذبه كاللون الاحمر الذي تتحلى به ذات اللون الاسود . والحلف بالله يدل على عدم اعتقاد الحالف به ومتى كان شخص غير مؤمن فقد حل من رباط الانسانية والهيئة الاجتماعية لان الله هو رابطها الوحيد ومن لا يؤمن بالله يستحل جميع المعاصي فتنفر الناس منهُ وتقطع معاملاتها معهُ ويعيش ذليلاً مهاناً وبالعكس متى صدق ينال كل خير لأن أي من كان يأتمنه ويسلمه .

« الوصية الثالثة » أحفظ ايام السبت .

منافع هذه الوصية صحية اذ لا بد للانسان من راحة اعضائه لتجديد قوتها وقد وجد ان الذين يداومون على الشغل بلا استراحة يتضررون فكما ان الجسم يرتاح يومياً بالنوم لا بد له من استراحة عمومية كل ثمانية ايام وقد ارتأى الفرنساويون ابان ثورتهم ان يجعلوها كل عشرة ايام فما استطاعوا والمحافظة على هذه الوصية تكسب الجسم راحة وتروض الفكر وتهذب الاخلاق اذ لا بد للانسان في هذا اليوم من حضور حفلة دينية او زيارة كنسية تدعى بيت الله .

هل الكنيسة بيت الله حقيقة وهو محصور فيها مع انه مالىء كل الكائنات السماء والارض كلا لعمري بل هذا المحل يفكرنا بالله ولا يجعلنا نعمل ما يخالف اوامره بل نطيع وصاياه ونجتنب نواهيه ونجلس فيه كاننا جالسون امام الله ولهذا عدت الكنيسة بيت الله حقيقة وبسبب هذه الزيارة ترجع الافكار الدينية الى مخيلة الانسان فيكبح شهواته ولو على افتراض غضب من قريبه واراد اذيته ومر في تلك الساعة على معبدٍ ودخله له فمتى خرج من الكنيسة تضمحل منهُ هذه الافكار الشريرة . هذا ما تفعله الكنيسة وتؤثر به على الداخلين اليها اما الصلاة فما هي الا طلب المساعدة في الاحتياج والتوفيق ورفع الضرر فيتعاهد الانسان ثانية مع الله ويتذكر دائماً وصاياه ويحفظها . هذا هو التأثير الأدبي ليوم السبت اما مكافأته فالراحة الجسدية والعقلية ينالها من يتبع هذه الوصية والعكس من خالفها وداوم على الشغل والتهى بملذاته ونسي زيارة الكنيسة والصلاة فانه يتبع شهواته التي تضره وتضر قريبه وعواقبها الوخيمة التي تطرأ عليه في المستقبل هي اعظم قصاص له .

« الوصية الرابعة » أكرم اباك وأمك .

فالباري تعالى الذي أوجد كل الاشياء للانسان لم يخلقها مباشرة بل جعل لها واسطة وواسطة خليقة الانسان ابوه وأمهُ وهما الصلة بين الله والانسان وكما ان الامر يؤدي له الاكرام فكذلك يجب ان يؤدى لمأموره لهذا يجب ان تكرم واسطة الخليقة لأنها هي الموكلة من قبل الخالق لاعطاء الحياة والمحافظة عليها فاذا كان الانسان يقدم لرجل اضافهُ واعطاه ما يلزمهُ ويسهر عليه كل ساعة ويفدي نفسهُ حتى الموت عنهُ كل أكرام واحترام فماذا يجب عليه ان يفعل للأب والام فبالطاعة والاكرام والمحبة تكون لذة الضمير وراحة الأفكار ونجاح الاعمال لأن الوالدين لا يشوران على الولد الا ما فيه صالحه . ومتى عرف الناس شخصاً يكرم والديه يقدمون لهُ الاعتبار والاحترام فاللذة الداخلية والهناء والراحة وأكرام الناس هو اعظم مكافأة في هذه الدنيا وعكس ذلك اذا كان الانسان لا يكرم والديه ولا يحترمها فانه لا يرى في الناس صديقاً او مسعفاً اذ يقال عنهُ اذا كان لم يرعَ ذمام من اوجده ورباه وعلمه وهذبه فكيف يحفظ صداقة الغير ولهذا يتركهُ الجميع وان اصابته مصيبة لا يجد من يشفق عليه بل يقال انه استحقها ومن يخالف رأيهم يتبع شهواته فيسقط في شر اعماله ويكون قصاصه في هذه الدنيا تبكيت ضميره بتقصيره في اكرام والديه واحتقار الناس له وخذلانه من حيث يؤمل نجاحاً واهم تجربة يمكن بها احتبار الانسان وهل يمكن صداقته ام لا هو النظر الى معاملته لوالديه فان كان ملتفتاً لها مكرساً نفسه لخدمتها غيوراً على مصالحها فصداقته تكن نافعة يجب التمسك بها والعكس بالعكس ومن المقرر ان ما يصنعه الانسان مع والديه يأتيه يوم يصنع فيه اولاده معه ما صنع لأنهم يقتدون به في حركاته واعماله ومبادئه .

« الوصية الخامسة » لا تقتل .

من خالف هذه الوصية يقتله الحاكم او اهل القتيل واذا اختفى او تمكن من النجاة يبقى ابداً فكره مصطرباً خائفاً وجلاً كلما سمع خبراً عن القتيل فيضطر للفرار ومغادرة ولده وبلده ووطنه وعائلته ويصير مكروهاً من الناس معرضاً للقتل في كل آن ومكان اذ يستسهل والحالة هذه عمل كل شيء أما من سامح فيكتسب محبة عدوه الذي يصير صديقاً له بعد هذا السماح ويرتاح من كل مشقات العداوة والانتقام وهذه مكافأته عن ذلك .

« الوصية السادسة » لا تزنِ .

اذا تعرض زانٍ لامرأة متزوجة ودرى به زوجها فانه يعرض نفسه للقتل وان كانت بكراً او ثيباً فأهلها يفعلون به ذات الامر ولكم يضيع الزاني وقته بالبحث على قضاء شهواته ويصرف ماله لنواله فيخسر اوقاته ويقل شغله ويكسي فقيراً ولذا قالت الامثال بشر القاتل بالقتل والزاني بالفقر ولو بعد حين ناهيك عن اضرار صحته والامراض التي تعتريه وتنهك جسده وتجعل الناس يتجنبونه وان نتج من هذا الزنا مولود فانهُ

يضطر لتحمل مصاريفه واتعابه لغيره فكانه يسرق مال غيره لان حجة الوالد قائمة بتحققه ان المولود من نسله ويكفي لرجل له ولد ان تقول له امرأته ان هذا الولد ليس من نسلك بل هو ابن سواك فيكره هذا الولد كرهاً لا يمثل له او يقال له هذا ولدكم ولو لم يكن ليحبه .

(حادثة)

جآتني امرأة وابنتها وطلبت مني دواء لاسقاط جنين فتاتها الحبلى من شهرين وقالت انها اختلفت مع خطيبها على الف غرش ثم ألمت هذه المصيبة بالفتاة وترغب ملافاتها اجبتها ان ما تطلبينه لا يمكن لطبيب ان يجريه اذ هو محرم عليه ديناً ووظيفة ولو فرض انك وجدت طبيباً او قابلة لاجراء هذا الامر فيكلفك أكثر من ألف غرش المختلفة عليها مع خطيب ابنتك ناهيك عن الاخطار والامراض وقد قلت لها هذا الامر واخفتها من عواقبه كي لا تذهب الى قابلة او الى أحد الدجالين فيجيبها الى طلبها وبعد نحو سنة اتاني رجل معه ولد مريض بعينيه وزوجته فأخذت الولد لأكشف على عينيه فبكي وكان الاب يقبله بلهفة ويرجوني ان لا أوجعه فنظرت الى الأم وعرفتها انها تلك الابنة التي أتت اليَّ وطلبت مني امها اسقاط جنينها والوالد معتقد كل الاعتقاد انه ولده ولد في الشهر السابع اذ سألني هل يعيش السباعي اجبتهُ دون شك وكانت امرأته تنظر الي وتتبسم فكيف يطاوعها ضميرها باعطاء ولد لرجل غريب يقضي تعبهُ وشغل أفكاره طول حياته لأجل هذا الولد ولو كانت عملت ما جاءت تطلبه مني لكانت تلفت صحتها ناهيك عما تقاسيه من الزل اذا افتضح امرها .

« الوصية السابعة » لا تسرق .

ان مخالفة هذه الوصية تحدث مضرات عديدة لمن يرتكبها واهما انهُ اذا عرف السارق تجازيه الحكومة عدا الاتعاب والسهر والاخطار والخطر من القتل التي يتعرض لها عند ارتكابه هذا الامر وكم من مرة لا يجتني ثمرة من اتعابه سوى النصب ولا تجد احداً يغتني بسرعة ويفتقر حالاً سوى السارق اذ تراه في الصباح فقيراً وعند المساء غنياً اذ يستسهل صرف المال لسهولة نواله وقيل ان للسارق صلاة مخصوصة يقول فيها يا الهي لا أكلفك ترزقني مالاً بل اهدني على محله وانا ضمين بالحصول عليه وأعظم ضرر يناله السارق هو سلب الأمنية منه فيكون مطروداً من الجميع محتقراً لا يخالطه احد ولا يعاشره حتى ان رفيقه بالسرقة يتنكر منه ويخافه ابوه وامه ويطردانه .

ولو افترض ان لصين سرقا مبلغاً واقتسماه واراد كل واحد ان يودع قسمه بمحل فلا يأمن لرفيقه ولذلك ترى كل ارباب المعاصي يأتمنون بعضهم الا اللصوص وأهم صفة يتميز فيها السارق هي الجبن والذل .

« الوصية الثامنة » لا تشهد بالزور .

من المعلوم ان الشاهد زوراً في مسألة يكون كأنه ارتكبها بذاته لذلك ترى الشرائع المدنية تفرض عليه قصاص من ارتكب هذه الجريمة ويكون شاهد الزور كمرتكب لكل المعاصي فهو شر من القاتل والسارق والزاني وهو مضر بالهيئة الاجتماعية أكثر من سواه وهو مكروه مرذول لا يقترب اليه أحد .

« الوصية التاسعة والعاشرة » لا تشتهي امرأة قريبك ولا تشته مقتنى غيرك .

ان مخالفة هاتين الوصيتين كمخالفة الوصيتين السادسة والسابعة وأخص احرازها الكدر الدائم لعدم حصول مرتكبها على شهواته فيتولد فيه الحسد المخالف لسائر المعاصي لان بباقي الرذائل يشعر الانسان بلذة وقيتة او منفعة قليلة اما الحسد فلا لذة له ولا منفعة لأنه يجلب الكدر وهذه هي المعصية القاهرة التي تؤثر دائماً على صاحبها ولذلك ترى دائماً الحساد في شرور وهم ارديا، ذوي وجوه عابسة يتغير لونهم لكل خبر خيري .

وهناك وصايا اخرى ضد الكبرياء والشره والحسد والنميمة وما أشبه من الزوائل التي تسبب ضرراً لفاعليها وبالاختصار ان الفضيلة هي التي تجلب الخير بعكس الرزيلة وحيث ما وجدت الفضيلة تكون محبوبة بصرف النظر عن فاعلها .

(حادثة)

أصاب الكلاب في احدى السنين داء الكلب فأمرت الحكومة بتسميم كل الكلاب وذلك بأن تطرح لها قطعة لحم فيها مقدار معين من الستركتين وصدف ان أكلت كلبة من اللحم فتسممت وماتت وكان لها اجروة صغيرة لا تستطيع الزحف فحنن الله عليها كلبة غريبة كانت تأتي وترضعها كل يوم مرتين ففي أحد الايام رأيت بوليساً مجهزاً قطعة لحم مسمومة يريد ان يطعمها لهذه الكلبة فرجوته ان لا يفعل لأنني كنت اشاهدها كل يوم واخبرتهُ ما تفعل مع الاجروة الصغار فتخشع وتحنن قلبه عليها واعطاها قطعة لحم غير مسموم وكنا نحامي عنها كمحاماتنا عن شيء عزيز . فاذا كانت الفضيلة تعتبر في البهائم فكيف بها في البشر .

هذه هي الافكار التي كانت تشغلني والتي اعتقدت بنتائجها الحسنة حسب عقلي وسرت على موجبها لانها نتيجة تعقلي الخصوصي ولست اجبر سواي على اتباعها لان لكل انسان شريعة يوحيه اليها ضمير .

(أكوب مَكز)

بينما كانت هذه الأفكار تشغلني في احدى الليالي ففعل بي النعاس فنمت وبعد ساعتين سمعت قرع الباب بشدة فاستيقظت الخادمة وفتحته فاذا برجل يدعوني لمعاينة رجل تقوّص وكان منزل المريض قريباً

منا فتوجهت ورأيت أكوب الخياط الأرمني ملقى على سريره وكان يحب الصيد فاخبرني انه اصطاد في ذلك اليوم مع اخيه جملة طيور اهداها الى قنصل ايطاليا لأنهُ يخيط له ملابسهُ ولما رجع اخوه سأله عن الطيور فأخبره ما فعل فحنق منه وقال يمكنك ان تهدي ما يخصك لا ما يخصني وقد قضيت النهار بطوله راكضاً ولم انتفع شيئاً وأدى به الخصام الى درجة حمق شديدة وناما بعد ذلك لانهما يقطنان غرفة واحدة وبعد ان نام أكوب شعر برصاصة في اذنه فانتبه وصرخ ودعاني لعيادته اما اخوه فكان قد هرب ولما رأيته يتكلم جيداً ويخبر الحادثة بلا انزعاج فحصت أذنه ولم أجد بها شيئاً سوى خدش صغير وغشاء الطبلة لم يزل موجوداً وانهُ يسمع بالأذن المصابة كرفيقتها وكان يزعم ان اخاه قوصه بمسدس نمره ١٢ فلم أصدقه وقلت له كيف كانت الحال فلا خوف عليك قط الان وسأعودك غداً وفي اليوم الثاني اتيت الى منزله وفحصت الاذن فرأيتها كالأمس انما شاهدت نقطة سوداء في آخر القناة فجسستها ورأيتها صلبة فحسبت انه مقوص بالخردق وفي اليوم الثالث رأيت البقعة السوداء زادت اتساعاً وبعد اربعة ايام عاينت طرف الرصاصة خارجاً بالعرض الى القناة وكانت الحكومة في هذه الاثناء قبضت على اخيه وأخذت مسدسه واعترف بجريمته .

(سير عجيب للرصاص)

حين رأيت المسدس أخذت رصاصة منه وقستها على فتحة الأذن فكانت أكبر منها بمرات وكيفية دخولها في هذه القناة انها بدلاً من ان تذهب رأساً الى الغشاء الطبلي وتمزقه انحرفت لجهة العظم الصدغي والقسم الحلمي الذي تركيبه يكون كاسفنجة وخرقتهُ واستقرت فيه وهذا الامر من أعظم المعجزات لسير الرصاص ولم يتسبب عنه اعراض سوى شلل القسم العيني والوجهي بسبب ضغط الرصاص على العصب وقد كان متكدراً لرؤية عينه المشتورة وهو شاب فأخبرته ان لا يمكنني استخراج الرصاص من الاذن اذ يلزم لذلك تكسير العظم في النتوء الحلمي من الخارج وهي عملية مخطرة لان العظم هناك اسفنجي اذا التهب يكون قريباً من الدماغ والخطر شديد وبقي على هذه الحال مدة شهرين يتعاطى اشغاله الى ان اتى الى دمشق طبيب من بيروت دعي لمعالجة فتى مختنق فعاين أكوب وحسن له ان يتبعه الى بيروت ليجري له العملية فأطاع وكانت سبباً لوفاته رحمه الله .

محمد الأنطاكي المنجم وكيفية تنجيمه

حضر مع دولة جودت باشا وعرفني به الدكتور الياس مطر وكان ضيفاً على دولته .

كان لما يباشر العمل يأخذ ورقة ويضع عليها نقطاً على اربعة صفوف هكذا :

...... ز
.... ف
............أ
.... ن

ويبدأ بحساب هذه النقط من الصف الأول فيعد من الواحد الى العشرة ومن العشرة الى العشرين الى المائة والمائتين والثلاثة والالف وحين يصل الى الاف يرجع الى الواحد ولما ينتهي الصف الأول يعود الى الثاني وهكذا الى النهاية وكلما اتم حساب صف يضع له حرفاً من الابجدية يماثله عدداً مثلاً لو عد الصف الأول وانتهى بعدد سبعة يضع حرف الزين والثاني بثمانين يضع حرف الفاء والثالث بواحد حرف الالف والرابع بخمسين حرف النون واصل هذا العدد للابجدية من الفينيقيين اللذين كانوا يستعملون التجارة وهم اللذين علموا الالف باء للعالم وكان كل حرف عندهم بعدد لأجل عمل الحساب مع عملاتهم وهذا ايضاً من احتراع االفينيقيين فيحصل لنا اربعة احرف هي النون والالف والفاء والزين وعنده جدول مقسوم الى ١٢ برج لكل واحد اسم مخصوص وتقسم الاحرف الابجدية على هذه البروج ويكون لكل برج حرفان او ثلاثة وفي هذه الابراج مسطور كل ما يطرأ على الانسان من فرح وكدر واحتياج وطلب ولما يستخرج هذه الحروف من آخر الصفوف يراها في أي برج كانت ومنهُ يعرف نتيجة ما يطلب منه بعد عملية اخرى لا حاجة لذكرها .

اخيراً تعلمت منه هذه الطريقة وسألتهُ هل يضع النقط بعدد معلوم لكل صف فأجاب ان الروح هي التي تلهمهُ لوضع النقط ويكون عددها كما يتراءى لفكره وهذا هو سر الارواح وسألتهُ عن ماهية الروح التي تكلمهُ وتلهمهُ فقال انه يستطيع ان يجعلني أؤمن به وذلك بسماعي كلامها فقلت له وما يجب عليَّ عمله قال ان نكون في محل مظلم منفردين وان لا يأكل الا الزيت مدة ثلاثة ايام فأجبته على طلبه وفي اليوم المعين ذهبنا الى منزلي وكنت اعزباً فصرفت الخادمة ودخلنا سوية الغرفة المظلمة .

(استحضار الروح) دخلت معه الغرفة المظلمة ووضعنا طاولة في منتصفها وجلسنا على كرسيين بازاء بعضنا وابتدأ يتمتم الفاظاً غير مفهومة ويقول لي اسمع الصفير انه يستحضر لي الارواح التي تخاطبني بواسطة تحريك الطاولة فدققت بعمله جيداً ورأيت ان الصفير والحركة منه فقلت له يظهر انه لا يوجد عفريت الا انت فتبسم وقال لي بل يوجد آخر اعظم مني وهو انت اذ تبعتني الى النهاية دعي وشأني فهذه صنعتي اتعيش بها وانتهت جلستنا بسرور عظيم وبقيت على فكري الأول بالتنجيم .

(مركز الحياء)

كان أحد العميان يدعى ابو عمر وهو سفيه اللسان لا يستحي من شيء فقلت فيه :

ذهبت اطبـــــاء الزمـــان مــــع الخبر ان الحيــــا في الرأس طبعـــــاً مستقر
لكنني لما عرفت ابــــــــــا عمر خـــــــــالفتهم وجعلت مركزه النظر

تعلمي عزف العود

لما كنت احضر بعض الليالي المطربة التي يعزفون بها على الالات وخصوصاً العود وكانوا يسمون النغمة الفلانية من السيكا والاخرى من الدوكا ولم أكن ادر هذه ولا تلك كنت اتأثر كثيراً وبالصدفة كان يتردد علي رجل يشتغل بهذا الفن وهو متقن عزف العود جداً لكنهُ لا يتعاطى عملاً لان نظره كان بدا بالضعف لاصابته بالماء الزرقاء وربما كانت صداقته لي لأجل مداواته ولكنني اغتنمت هذه الفرصة خصوصاً لقلة الشغل في دمشق وعزمت ان اتعلم عزف العود او على الأقل اتلقى عليه علم الموسيقى حتى اذا كنت في مجلس استطيع ان اميز بين نغمة واخرى وكان اسم هذا الرجل :

(جرجي كاورك)

فاشتريت عوداً من صنع يوسف النحاة الذي كان شهيراً في صناعة الاعواد وكان قد عمله الى مغنية ورفضت مشتراه غير اني لجهلي بالاعواد انخدعت بزخرفته ولم يكن صوته حسناً ولاني لم استشر من هو خبيراً بهذا الفن غرتني ظواهره وابتداء يعلمني مبتدئياً بالسلم الموسيقي معوداً اصابعي على التنقيل وكنت حين اضع اصبعي على برج اضرب عليه عدة مرات حتى تؤثر تلك النغمة عليّ ولا أعود انساها وبعد مدة رأيت ان استاذي يعرف الموسيقى بالممارسة ولكنهُ لا يعلم درسها الحقيقي وأخبرني ان الدكتور ميخائيل مشاقه الشهير قد ألف رسالة في هذا الفن مستوفية الايضاح وحيث كان الدكتور ميخائيل مشاقه من اصدقائي وهو رجل شهير بالذكاء والعلوم والمعارك الادبية توجهت اليه وسألته عن تأليفه الذي كان لم يزل خطاً فاعطاني اياه وهو التأليف الذي حاول سليم مدور حين انشاء مطبعته في الشام ان ينشره ولكن المؤلف أبى ذلك فأخذت الكتاب ودرسته ونسخت عنه بعض الاشياء وأخذتهُ اخيراً مجلة المشرق من ورثته وطبعته في اجزائها باسم الرسالة الشهابية لست بحاجة الى ذكرها وحيث ان الدكتور ميخائيل مشاقه من مشاهير رجالنا فنورد لمحة من اخباره .

(الدكتور ميخائيل مشاقه)

ولد في ٢٠ آذار سنة ١٨٠٠ في قرية رشميا في لبنان وكان أبوه خادماً عند الامير بشير فانتقل الى دير القمر وكان مغرماً بالحساب ثم درس علم الفلك واشتغل في التجارة حين كان بدمياط سنة ١٨١٧ وتولع بالموسيقى وألف الرسالة التي ذكرناها وبسبب الطاعون الذي ظهر بدمياط غادرها ورجع الى دير القمر فأرسله الامير بشير الى امراء حاصبيا الذين أكرموا وفادته ثم اغرم بعلم الطب فتلقى شيئاً منه على كريسن

الايطالياني الذي كان طبيباً في دير القمر وفي سنة ١٨٣١ حضر حصار عكا وعاد الى دمشق وراجع صناعة الطب على كلوت بك ثم صار ترجماناً للسير ودد قنصل انكلترا بدمشق وفي سنة ١٨٤٦ ذهب الى مصر ونال الشهادة الطبية من القصر العيني ورجع الى سوريا واتبع المذهب الانجيلي وألف كتباً ضد المذهب الكاثوليكي وذلك لمنافرات حصلت بينه وبين البطريرك مكسيموس مظلوم وفي سنة ١٨٥٩ تعين قنصل لاميركا في الشام وفي سنة ١٨٦٠ جرح في ابان الحادثة وقد خلصه الامير عبد القادر الجزائري وفي سنة ١٨٧٠ اصيب بفالج في جنبه الأيمن وانقطع عن الاشغال وقد عرفتهُ وهو بهذه الحال أما عقله فكان سليماً وقد حصل له حادث غريب وهو ان شبت النار يوماً في غرفته فلما أحس بقرب الخطر قفز من سريره الى الخارج بعد ان بقي ثمان سنين مفلوجاً وقد خلف اربعة ذكور وهم تصنيف الذي خلف اباه بوظيفته وسليم مبشر انجيلي وابراهيم واسكندر طبيبان وقد اهديت الدكتور ميخائيل نسخة من كتابي صحة المتزوج ونظمت له البيتين الآتيين :

ان كــــــان للتـــــأليف فخر يجتني	فلأنت جـــــانيـــــه وانت الـــــذاخر
أفضلت حتى طود لبنـــــــــان زهى	ولفضلكم هــــــــــــذا المؤلف شاكر

وقد حررت الى ولده الدكتور ابراهيم كتاباً ونظمت له الابيات الآتية ارسلتها مع منظار رحمي كنت استعرتهُ منهُ :

جـــــاءتني مـــــع منظـــــاركم أنظـــــاركم	فشفى العليـــــــل بها وطبت مـــــــآثراً
وغـــــــدا المريض بطول عمرك داعيـــــــاً	وطبيبـــــــــــــه من طيب ذكرك شاكراً

(حسن العواد) وتولعت في الموسيقى مدة حتى تعلمت أصولها النظرية أكثر من الفعلية وهذا ما كنت احتاج اليه وصرت اتأثر من حسن العزف كما انزعج من رداءته وفي احدى الليالي حضرت مجلساً فيه عواد اسمهُ حسن تشمئز من سماعه النفوس فقلت فيه هذين البيتين :

وليلـــــة حظهـــــا قـــــد بـــــات يجمعنـــــا	منهـــــا لقـــــد جمعت حـــــانـــــاً والحانـــــا
شمعت انغـــــام عود من يـــــدي حسن	كـــــــأنها لم تزل لليوم مصرانـــــــــا

موسى افندي المراداي

هو من اشراف اسرات دمشق خال دولتلو احمد عزت باشا العابد وله ذوق بفن الموسيقى وكان يجمع اليه أغلب العارفين به وهو شاعر يحب الشعر وفي احدى الجلسات كان بمجلسه الشيخ طاهر والشيخ سليم والشيخ انيس ونظم كل منهم موشحاً في الموسيقى فاقتديت بهم وهذا هو موشحي الذي نظمته :

غرّد الشحرور في وقت السحر فوق عود في دمشق اثمرا
فجنينـــا منـــهُ اثمار الشجر وغـــدت اوتـــاره لي وطرا
أطربت الحانـــهُ جنس البشر وعليـــه الطير غصنـــاً صفرا
جسهُ الشادي كنبض في ضنـــا وعيـــاءً في صبـــاه طبيـــا
فُركت اذانـــهُ مـــذ الحنـــا فبـــدا منـــهُ بكـــاءً قـــد سبـــا

دور

هيج العود فؤادي عنـــدمـــا عـــانق الطـــاءين طيبـــاً وطرب
وعليـــه الظبي لما دمـــدمـــا طـــابت الحاآن حب وحبب
فـــأرى الساقي خـــديـــداً عنـــدمـــا طـــاف بـــالخـــاءين خمر وخبب
قـــال خـــذ كـــأسي وخلي الحزنـــا والسمـــع الصادين صبـــاً وصبـــا
مـــا حوت خـــداه عقلي افتنـــا وسكرنـــا ليس مما سكبـــا

دور

يـــا سليم الود غن ساحرا بـــابي طـــاهر قـــد طـــاب السهر
فغـــدا انس أنيسي حـــاضراً يـــذهب الهم وأنواع الكـــدر
ومرادي صرت منـــه شاكرا ليت ليلي كـــان معـــدوم السحر
وقراري في الحجـــاز اعلنـــا انني عشاق هـــاتبك الظبى
وجوابي في سماح عنـــدمـــا تكشف النفس بـــاسرار الصبـــا

سليم الود هو الشيخ سليم بابي طاهر هي نغمة موسيقية قرارها الدوكا وهناك الشيخ طاهر ومرادي هو موسى افندي .

الحجاز نغمة موسيقية وكذلك العشاق نغمة وجوابي هو الجواب في الموسيقى وهو المقام السابع بعد الاستهلاك مثلاً جواب الرصد الماهو الذي هو السابع لأنك اذا حسبت الرصد والدوكا والسيكا والنوى والحسيني والأوج فيكون السابع الماهور بعد الرصد والصبا نغمة ايضاً قرارها الدوكا .

(تخميس الابيات الآتية)

قلبي لطول المدى قـــد عمـــهُ الكمـــدُ وزادني الشوق اضعـــافـــاً لما أجـــدُ
ومـــذ وهي الصبر مني وانمحى الجلـــدُ جـــاء الحبيب وعينـــاه بها رمـــدُ
والنار في مهجتي يصلي بها كبدي
وحين أقبـــل نحوي صحت واطربـــا وقت اسعى اليـــه سعي من شربـــا
وقلت يـــا مهجتي مـــا تبتغي اربـــا فقـــال ارجو علاجـــاً قلت واحربـــا
اسنّ اسياف قتلي عامداً بيدي

بيت العابد

أصل هذه الاسرة من العرب الموالي حضر منها الى الشام محمد العابد ١٨٨٠ هـ وهو امير امراء عشيرة الموالي وسكن فيها وولد قدور بك الذي ولد عمر بك والد هولو باشا الذي وصل الى اعلى المراتب والوظائف حتى أصبح نابغة الشام وقد كان متصرفاً بحماه ونابلس وعضواً في مجلس ادارة الولاية وقد اجتهد ان يعلم اولاده العلوم العصرية وهذا نادر في ذلك الزمن وقد اشتهر منهم دولتلو احمد عزت باشا الكاتب الثاني للحضرة السلطانية العلية الذي ابتدأ ان يكون كاتباً في قلم المكتبجي في الشام ثم صار مميزاً فيه ثم باشكاتب مجلس الادارة ثم رئيس محكمة الحقوق في الشام ثم مفتش عادلية سوريا ثم مفتش عادلية سالونيك ثم عضواً في محكمة بداية الاستانة العلية ثم رئيس مجلس التجارة فيها ثم عضواً في شورى الدولة ثم كاتب ثاني للحضرة العلية السغطانية والان أذكر عنهُ عما نظرته منهُ في دمشق وابقى باقي اعماله الى مشاهدتي له في الاستانة العلية عندما كنت فيها ١٩٠٣ فانهُ وصل الى درجة عظيمة وحين كنت في دمشق كان من خيرة شبانها عقلاً وذكاءً وفصاحة متقناً اللغة العربية والافرنسية والتركية وكان الوحيد بين الاسلام يعرف اللغة الافرنسية يومئذٍ يحب الشعر واجتماعاته دائماً علمية أدبية ولما كنا نجتمع نتسامر بالاشعار وكان يومئذٍ مشهوراً بالشعر الشيخ هلال الحموي الذي كان حياً وقتئذٍ يتردد على الشام ويمدح الامير عبد القادر الجزائري ومن اسرة بيت العابد مصطفى باشا شقيق دولته الذي أصبح الان والياً على الموصل فهو ذو همة ونشاط وعدل واستقامة .

(الشيخ هلال)

هو شاعر مطبوع ولكنهُ لم يحفظ مقام صنعته شاهده برهان افندي وحسن افندي اعضاء احد المجالس في حماه في قارعة الطريق بحالة غير مرضية فامرا بحبسه تلك الليلة ولما استفاق بالغد ورأى ذاته مسجوناً وعرف الذي امر بسجنه حرر الى المتصرف الابيات الآتية :

انـــــا لست اول طـــــائر ... فـــي حيز القفص انبجـــن
وهلال فضل عنـــــهُ قـــــد ... عميت عيـــون ذوي الفطـــن
في بلـــــدة عميـــــاء في ... اعيـــانها انقلب الـــزمـــن
بلـــد بـــه البرهـــان خـــافٍ ... والقبيـــح بهـــا حـــسن

وهجا اناساً بقصيدة طويلة ولم اعد أذكر منها الا الابيات الآتية :

مـــا قرّ قلبي بـــالهوى او طـــارا ... الا ليقضي منكم اوطـــــارا
قوم لقـــد خلق الشعير لهم فلا ... عجب اذا لم يشعروا الاشعـــارا
ولادعينَ بـــدعوة نوحيـــة ... يـــا رب منهم لا تزر ديـــارا

وقد وجدتها الان مطبوعة في بيروت . وهجا والده بقوله :

لو كنت جئت في زمـــان محمـــد　　مـــا جـــاء في القرآن برّ الوالـــد

ونظم تاريخاً لدار سعيد افندي الكيلاني في دمشق بابيات كل شطر منها يحوي تاريخ السنة :

١٢٨٣ سيـــد الاشراف بـــاليمن ابتنى　　بيت حسن بـاهي الشكـل مشيد ١٢٨٣
١٢٨٣ عين شمس الانس منـهُ قـد زهت　　بسنـا الامنـاح والفضل المزيـد ١٢٨٣
١٢٨٣ يـا لـهُ بيتـاً زهى بـالعز اذ　　ربـهُ ابن البـاز ذو القول السديـد ١٢٨٣
١٢٨٣ دام في أوج التهـاني مشرقـاً　　حيث في العليـاء انشاه سعيـد ١٨٢٣

ويوجد غلط في بعضها .

الامير عبد القادر الجزائري

أعظم ما يفتخر به تاريخ الجيل التاسع عشر تاريخ الشرف والمرؤة والشجاعة والشهامة والاحسان والنيرة والفضائل الانسانية التي أمتاز بها الامير عبد القادر الجزائري الذي حارب فرنسا مدة اثنتي عشر سنة غير انها احبتهُ واهدتهُ ايقونة مكتوب عليها ما قلناه وسيفاً أقسم عليه ان لا يجرده عليها مطلقاً وبقي محافظاً على يمينه حتى وفاته وكنت اعرف هذا الامير واتردد عليه وعلى اولاده الاميرين محيي الدين ومحمد اللذان بعد وفاة والدهما ذهبا الى الاساتانة العلية وتعينا ياورين فخريين للحضرة السلطانية وقد اهديته نسخة من كتابي تحفة الراغب في صحة المتزوج وزواج العازب ونظمت له الابيات الآتية :

اقبـل هـديـة عـاجز يـا من لـهُ　　تهدي القلوب وقلب هـــادٍ شاكرِ
ارجو الامير بغض طرف علومـــه　　عن « تحفـة » تـأليف عبـد قـاصرِ
ان كـان في تـأليفـه وجـدت لـهُ　　أقوال سحبـــان وقـــدرة شاعرِ
فيكون هـذا نـاشئـاً عن كونـه　　أضحى بطوع عبـد عبـد القـادر

وسألته يوما اذا كان حين حربه مع فرنسا وجد رجلاً من قبائل اخرى فأجابني هذه الكلمة الفلسفية ان الفتن تولد الرجال وقد توفي في دمشق في ١٩ رجب ١٣٠٠ ودفن في الصالحية في مقام محيي الدين العربي وله قبر لحاله وتوفي عن عشرة ذكور وست بنات فالذكور هم الامراء احمد ومحمد ومحيي الدين والهاشمي وابرهيم وعبدالله وعلي وعمر وعبد المالك وعبد الرزاق .

(لبس الخواتم للطبيب) عندما حضرت من مصر كان لي ساعة مع سلسلة ذهبية معلق فيها ذخيرة زرقاء لطيفة وأما لبس الخواتم فكنت أكرهه لان الطبيب لا يوافقه لبس الخواتم اذ يلتزم ان يغسل يديه كل دقيقة لانه يوسخها بما يلمسه ان تكون سبباً لازعاجه في النزع واللبس فضلاً عن ان الحلي بايدي الطبيب تقلل اعتباره بدلاً من ان تجعله في أعين الناس معتبراً اذ يظنون ان لا شغل له سوى التحلي وارتأيت ان مشترى كتب طبية او الات جراحية تنفعني أكثر من هذه المجوهرات التي لا فائدة منها فلذلك لم ألبس خاتماً قط أما السلسلة والذخيرة فكنت محافظاً عليها جداً لانها لا يعيقانني عن العمل بل الساعة ضرورية لي جداً لأعرف منها الوقت ولما أتيت الى الشام كان قد خف شغفها عندي ولم اعد افتكر بها وأهملت النظر الى السلسلة ويظهر ان الحلقة المعلقة بها الذخيرة انبرت وانقطعت وبالصدفة نظرت اليها فرأيتها بلا ذخيرة ولم اعلم اين فقدت وكان لي صديق صائغاً اسمه خليل بركات فذهبت اليه واخبرته امري ورجوته اذا رأى الذخيرة مع احد معرضة للبيع في السوق ان يخبرني بها .

(لقاء الذخيرة) وبعد شهرين اخبرني خليل انهُ رأى الذخيرة بيد صائغ فضبطها وقال له انها مسروقة وهي تخص فلاناً فعرَّفهُ الصائغ ان الذي اتى بها اليه هو من اعيان البلد وانه أخبره عن كيفية وصولها اليه لما سأله عن ذلك قال ان له قرية تبعد عن دمشق اربع ساعات ذهب لمراقبة أعمالها فأتى اليه فلاح وقال له انني بينما كنت ابيع تبناً في سوق الخيل بدمشق رأيت هذه الذخيرة واريد بيعها فاشتريتها منه بثلاثة غروش ولما رأيتها بلا حلقة اتيت بها اليك لعمل حلقة لها .

ولما كان الصائغ محتاجاً الى آلة للصياغة لأجل عملها اتى الى خليل بركات بالذخيرة ليعملها على آلته فلما عرفها خليل ضبطها فاخبرني ان ثمنها ثلاثة غروش فاعطيته ما طلب وارجعها اليَّ فتعجبت من تلك الصدفة الغريبة واخبرتها الى جاري نقولا افندي فرح عضو دائرة الحقوق في دمشق وكان عمره خمس وستين سنة فقال لي ان عجبك يزول حين تسمع القصة الآتية :

(الخاتم في الملفوفة) اخبرني ان من عادات اهل الشام الذهاب كل ليلة تقريباً للنزهة في الحدائق فتجلس كل عائلة أمام طاولة او يتنزهون بالسير في البساتين يلتقطون الزهور فأحدى السيدات بعد يوم نزهة فقدت خاتمها ولم تدر اين اضاعته وكان ذلك في بداية فصل الخريف ولما أقبل الشتاء مر بائع الملفوف حاملاً على حماره مقداراً يدور به على البيوت لأجل بيعه فمر على بيت هذه السيدة التي اشترت منه ملفوفتين اختارتهما من بين عشرين وفيما هي تفرطها لأجل الطبخ رأت خاتمها في احداها فكأن الخاتم سقط من أصبعها يوم النزهة في ملفوفة صغيرة لما كانت تلتقط شيئاً من الارض وكبرت الملفوفة والخاتم فيها وبقيت محافظة امينة على وديعتها حتى ارجعتها الى صاحبتها فقلت حقاً بعد ذا لا ارى عجباً.

أحمد باشا الشمعة

أصل هذه العائلة من الحجاز حضرت من ثلاثمائة سنة الى دمشق ظهر منها جملة علماء والذي دخل في التجارة هو الشيخ علي والد احمد باشا الذي ولد ١٢٦٥ هـ في دمشق ابتدا مع والده في التجارة بسن ٩ سنوات وبسن ١٥ دخل في قلم المكتبجي وبسن ١٧ توجه للاستانة في قلم الصدارة ثم حضر مع خورشيد باشا والي ببروت كان عضو للادارة مدة صبحي باشا بقي فيه تقريباً عشرين سنة وسنة ١٣٠٠ دخل بارادة سنية بمعية باشكاتب المابين وقابل الذات الشاهانية وفي اثناء ذلك أنعم عليه برتبة بكلربك وفي ١٣٢٤ نال رتبة بالا مع الأول العثماني والأول المجيدي ومدالية الامتياز الفضية والذهبية ومدالي اللياقة تعلقت على صدره بيد الذات الشاهانية عندما كان في الاستانة ثم صار رئيس كومسيون الاراضي السنية .

وله ثلاثة أولاد رشيد بك الذي هو عضو في الادارة الان وسليم بك صديقي الخصوصي وهو الذي عرفني باخوته يتعاطى الاملاك ويحب العلوم وقد نظمت لأحمد باشا الابيات الآتية عندما كان في الادارة وكنت في دمشق :

جنح الغريب كجنح ليـــــل حنــــدس	يمشي بخطوة خــــــائفٍ متوسوس
ان دار في دار الادارة لا يرى	خلا بشوشاً او يرى من مونسِ
لكن اذا رفـــع الحجـــاب انـــاره	نور الالــــه بشمعـــــةٍ في المجلسِ
يهدي الى الحق المبين بــــنــــاعين	عن صنـــع كـــل اغـــاثـــة لم تنعسِ
يرجو الغريب بــــــــه نوال مراده	من بعـــــد يـــأسٍ من عريم مفلسِ
يضحي مـــــدى الايـــام منـــه شاكراً	ولسانـــــــه عن حمـــــده لم يخرسِ

كتابي صحة المتزوج

لما كنت في مصر ابتدأت بتأليف كتابي تحفة الراغب في صحة المتزوج وزواج العازب وفي ابتداء سنة ١٨٧٩ باشرت بطبعه بمطبعة خليل افندي سركيس في بيروت وقدمته هدية لوالي ولاية سوريا حين ذاك ونظمت له القصيدة الآتية التي تغزلت بها في الابنة التي كنت أريد زواجها لها خال اسود على وجنتها البيضاء فشبهته بعنترة بن زبيبة حامي بني عبس :

فتكت سيوف لحاظهـــــــــا بفؤادي	فتكحلـت مـــن مهجـــتي بســـواد
وتكحلت عيني برؤيـــــــة عينهـــــا	بسواد ليــــل دام فيــــه سهـــادي

وعـــــدت مراض جفونها جسمي ضنى ونعـــــاسهـــــا لم يعـــــدني برقــــاد
وتمايلت عجبـــــــــاً فمال لحبها من كـــــان يلحـــــاني من الاضداد
وقـــــد أكتست ثوب الحيـــــاء بنظرتي فعلا بيـــــاض الخـــــد ورد بـــــاد
فرأيت ورد الحسن وهو مــــــدبّج تزهو ازاهره بلا ميعــــــــاد
حـــــاولت قطف الورد لكن أمهـــــا وشقيقهـــــا عملا على ابعـــــادي
واتت بخـــــال في الملاحـــــة عمهـــــا من شعرهـــــا متسلسل الاجـــــداد
فعجبت من بيضاء أصل خـــــالها عبـــــد لـــــه العشاق كـــــالعبـــــاد
يسطو بمرهف لحظهـــــا فحسبتـــــه ابن الزبيبـــــة للكفـــــاح ينـــــادي
يحمي بني العبسي من نكـــــد العـــــدى ويصون ورداً لم تطلـــــه ايـــــادي
لم يثني صن حب عبلـــــة مرهفٌ حـــــاشا فلست عمارة بن زيـــــاد
لكن دعـــــاني عن هواهـــــا شأن من رجت لهيبتـــــه ثغور بلادي
صدر لـــــدولتـــــه بثـــــاقب رأيـــــه والى الرعيـــــة مسنـــــد الاسنـــــاد
الصدر يحوي القلب من عـــــاداتـــــه ونراه صدراً حـــــالّ كـــــل فؤاد
رب الشجـــــاعـــــة والبلاغـــــة والنـــــدى لفضل والفخر الرحيب النـــــادي
اهـــــديت عليـــــاه كتـــــاباً صغتـــــه لينـــــال منـــــه ملجـــــأ القصاد
وبصحـــــة المتزوجين دعوتـــــه وملأتـــــه بفوائـــــد الارشاد
حتى الرجـــــال اذا اهتـــــدوا بنصائح فتنـــــال منـــــه صحـــــة الأولاد
تـــــأتي بمن يحكي فضائـــــل والي فـــــأكون اعظم نـــــفـــــع لبلادي

وتم طبع هذا الكتاب واستلمته يوم زواجي الواقع في ٢٢ حزيران سنة ١٨٧٩ ولما عدت الى الشام قدمته للوالي فأنهى لي بالنيشان المجيدي الرابع الذي كان يومئذٍ عزيزاً جداً ونلته في السنة التالية مع الشهادة الطبية العثمانية .

محمود افندي حمزة مفتي دمشق

هو العصامي العظامي سليل النسب التالد والحسب الطريف من أعظم رجال عصره وله مؤلفات كثيرة في اللغة وكان يشرح القرآن الشريف بالفاظ مهملة ولا نعلم مادا آل الرمان بتأليفه وقد كان متقناً جداً بالخط حتى انه كتب الفاتحة الشريفة على حبة ارز وكانت تقرءُ بالنظارة المكبرة وكتب أيضاً الفاتحة داخل زجاجة ولا أعلم كيف أدخل القلم في عنقها وكتب في داخلها وكان فصيح اللسان شاعراً أديباً ألف كتاب ترجيح البينات وبالاختصار انه كان يومئذٍ نابغة الشام وكان له أخ اسمه اسعد افندي بقي طول حياته عضواً في المحاكم وقد اكتسب شهرة عظيمة بالاستقامة وكرم الاخلاق .

الصوفانية في دمشق

الصوفانية هي عبارة عن منتزه عمومي بل هي جنة أرضية يشطرها النهر الى قسمين فكان المتنزهون يجلسون في القسمين المقابلين ويسمعون الغناء او يتعاطون المشروبات كل واحد مع اصحابه وفيما كنت يوماً جالساً وحدي على الشاطىء متأملاً هذه الرياض متعجباً من الاشجار وعظمتها وواضعاً يدي على الطاولة ومسنداً بها رأسي واذا بصوت ينادي من الجهة الاخرى وقائل يقول بم تصفن في الصوفانية ومن أي شيء تتعجب فانتبهت والتفت واذا هي احدى حور الجنة من اصدقائي ومعارفي متعلمة تحب الاشعار جداً وكانت دائماً تمزح معي لنسمع جواباتي التي كنت تسر منها على زعمها ومحمل وصفها انها كانت فريدة في الشام بعقلها وعلمها وآدابها فارتجل الشعر بخاطري ونظمت لها الابيات الآتية لان سبب الشعر استظراف موضوعه بل هو شعور النفس ينطق به الانسان ولا يدري اذا راق للغير وهاك ما نظمته لها :

ولما جلسنـــــا في حـــــدائق جلق	ومــــا بيننـــا نهر وفي قلبنـــا جمرُ
عجبت لنـــار من فؤادي بخـــدهـــا	ولا تنطفي منـــــــــه وبينهما نهرُ
وأعجب من ذا ان قلبي معلقٌ	بنحر ومـــــع ان النحور لـــــه نحرُ
ومـــا زال عقلي صاحيـــاً وهو سامـــع	حـــديثـــاً ولم يفعـــل بـــه ابـــداً سكرُ
عجيب اري فيّ الجفن سحراً ولم أزل	كما كنت لم يـــدخـــل على مهجتي سحرُ
ولو كنت مـــع حور وفي وسط جنـــة	ففي كبـــدي من خـــدهـــا ابـــدً حرّ
ومن عجب اني أقيم بجنـــــــةٍ	وتحرقني في نـــارهـــا ابـــداً سقرُ

وقلت في مخدرة اسمها نور كانت بديعة الجمال ذات خد وردي أفضله بمذهبي على كل جمال لأنه دليل الصحة وأصحابه يكونون دائماً من المحبوبين لأنه مزاج اللطف والظرف والبشاشة وقد سألني بعضهم ان أصف النور فقلت :

قـــالوا صف النور في شعر فقلت لهم	يـــــا قوم لا ينبغي وصف الى النورِ
فن تراب برانـــــا الله من عجـــلٍ	ومن ظلام ولكن نور من نورِ

وقد بلغني انها توفت هذه السنة ١٩٠٤ فحزنت عليها .

فردوس أفندي

كان هذا الرجل كاتباً في مجلس الادارة ويدعى بوظيفة مقيداً وكنت اذا دخلت غرفته ترى مركزه على يدك اليمنى قرب الباب وفي الصدر الرئيس وأولاد الذوات وكان من جملتهم أمين افندي الطرقجي أحد

الكتبة وهو من الشبان الاذكياء ذهبت يوماً الى مجلس الادارة لكي أخذ نمرة الامر السامي الوارد من الاستانة العلية بشأن الاطباء والقاضي بأن الطبيب يلزم ان يذهب الى الاستانة ليؤدي الامتحان وينال الشهادة بعد ان يدفع خمس ليرات رسمها وان الطبيب من مدرسة مصر يكفي ان يصادق على صورة شهادته من مجلس الادارة بدون ان يتوجه الى الاستانة فطلبت نمرة هذا الامر من فردوس افندي ولم يكن يعرفني فابتدى بالمحاولة ولما رآني امين افندي الطرقجي سألني عن طلبي فقلت له أتمم كتابة ما بيدك من التحارير ثم أخبرك قصتي وفي هذه المدة نظمت الابيات الآتية :

يـــا زايـــراً دار الادارة فـــانتبـــه	عنـــد الـــدخول ببـــابها تترنمُ
في صدرهـــا صف الملائك جـــالس	ورئيسهـــم بشمـــالهـا يتبسـمُ
ايـــاك تبـــدي خطوة بيمينهـــا	فردوسهـــا عنـــد القيود جهنمُ

فأخذ أمين هذه الابيات وصار ينقلها من كاتب الى آخر حتى وصلت الى الرئيس حسين افندي فطلب فردوس افندي وتلاها عليه فاتى اليَّ معتذراً وبيده نمرة الامر فقلت له اني اجزتك ثلاثة ابيات وهي تخلد ذكرك وقد بلغني انه توفي لكن ذكره باقٍ كما تنبأت عنهُ بسبب ابياتي .

زواجي في بيروت

عندما كنت في بيروت اتيت اليها لمقابلة والدي الذي حضر اليها لملاقاة رستم باشا عندما رجع من الاستانة قابلني الخواجا اسعد مطر عندما كنت عازماً على التوجه الى الشام فقال لي ان والدك يلح عليَّ منذ عدة سنوات ان أبحث لك عن فتاة تتزوجها وحيث وجدت صدفة في بيروت تعالى أريك الفتيات لعلك تخار واحدة منهن فافتكرت ان اجيبه الى طلبه لانني باق في بيروت ذلك اليوم فأخذني الى بيت رايت فيه ابنة يزيد عمرها على الثلاثين سنة سوداء حولاء واخبرني ان معها (دوطة) ثلاثين الف غرش فبقيت صامتاً الى ان خرجا فقلت له اذا كانت كل الفتيات اللواتي تعرفهن نظير هذه فخير لك ان لا تتعب وتتعبني قال اتبعني والتدبير على الله واخيراً اخذني الى اليسوعية وكانت الساعة الثانية بعد الظهر من نهار الأحد فوصلنا الى محل اجتماع الاهالي بأولادهم ورأينا ثلاث بنات مع اخوهن وكانت احداهن متزوجة واثنتان باكرات فعرفني الخواجا مطر بالجميع وجلسنا نتحدث فكانت الاختان صاغيتين لي الا واحدة كأن لم يكن أحد ولما قرع جرس الكنيسة لأجل الزياح ذهبت هذه لحضوره وبعد خروجنا سألني الخواجه مطر عن رأي بهما وهل اعجبتاني واية الابنتين اختار فقلت انني ارغب التي توجهت الى الكنيسة وسألني كيف اخترت هذه مع كونك لست متعصباً بالدين قلت انني اريد الزواج لأجل الراحة وخصوصاً كطبيب اني اميل الى البساطة فشكرني على كل فكري وقال حقيقة لقد صدقت باختيارك فهذه الفتاة متناهية بالتعقل والرزانة حتى انها تتناول بلا اعتراف كما اجيز لها وعند المساء توجهنا الى بيتهن وكأن اخوهن واخيراً اتفقنا على الأكليل بعد ثمانية ايام وزوجتي هي مريم بنت خليل التيان واسرتها من أحسن عائلات

بيروت وأقدمها وعمي كان وكيل الامير بشير أحمد قائمقام النصارى في لبنان وكان أول غني في زمانه في بيروت وكان عند زواجي متوفياً .

كان زواجنا يوم الأحد مساء في ٢٢ حزيران سنة ١٨٧٩ والذي كللنا هو الخوري يوسف بزماري وكيل مطران الدبس لأنه كان غائباً عن بيروت مع الخوري حنا العنبلي الذي لم يزل حياً وقبل توجهنا الى الشام حررت لجاري ميخائيل ملوك وهو من التجار المعتبرين بان يؤثث لي منزلي لأن ما كان فيه من الاثاث كان يوافق العزاب واخبرته عن يوم سفرنا وأخذت حماتي معي ولاقانا الملاقون الى دمر وكان دعاني الخواجه مخايل للوصول الى بيته .

لما وصلنا الى داره رأيناها مزدانة بالمصابيح والانوار والمدعوين كثيرين وهنولا الشهيرة تطرب بالحانها الشجية وكانت مائدة الأكل متقنة جداً فيها سائر انواع الحلويات والاثمار وبقينا الى ما بعد نصف الليل وعند ذلك انصرف المدعوين وحضرنا الى منزلنا فوجدنا الخواجه ملوك قد فرشه بذوق لطيف للغاية ولكنهُ لم يكن كافياً لمتزوج حديثاً فبتنا تلك الليلة وكان عندي عشية اخذتها لخدمتي منذ ستين وخادم ومعها رشيد .

ولما دخلنا الى منزلنا بالشام وكان غير متقن لانني كنت اعزباً وبقى كذلك نظراً لسرعة زواجي فرأيت ان امرأة عمي تنظر اليه بعين الاحتقار وتلتفت بابنها فقلت بذاتي يجب ان اعلمها درساً جديداً ينسيها هذه الامثولة الاولى التي تلقتها الى ابنتها فلا ترجعان الى غيرها لانني بلغت ان حماتي كانت قوية فبقى ذلك بفكري .

وفي اليوم الثاني عند الظهر كان طعامنا لذيذاً جداً ومن جملة ما فيه الصبير فأخذت واحدة وقلت ان لا يزال بها شوكة ولم تنظف جيداً وكانت الخادمة واقفة قرب المائدة فصرخت بها لماذا لم تنظفي الصبير جيداً قالت انني نظفتهُ ما استطعت عندئذٍ قمت عن الكرسي وصرت اضربها وأقول لها كم مرة نبهت عليك ان لا تجاوبي متى كلمتك وكان لها عركة عظيمة وارادت زوجتي ووالدتها ان تتداخلا وترداني عنها فلم أقبل منهما وكان عجب الخادمة اشد لأنها كانت عندي منذ نحو سنة لم اسبها بشيء وهي أول مرة رأت مني هذه المعاملة فخرجت من الغرفة ورجعت الى محلي وانا صامت آكل وانا عابس الوجه لا أكلم احداً ولما انهينا طعامنا ذهبت سراً الى الخادمة واعطيتها ريالين اجرت ضربها وقلت لها هذه أمثولة لسواك لا لك وكانت ابنة حلال جداً لأنها قبلت الدراهم وبقينا بعد ذلك نحو شهرين في الشام ولم ار من امرأة عمي ما يدعوني للشكوى منها فكنت مرتاحاً كأني غير متزوج وقد اتبعت بعملي حكاية الاخوين المتزوجين وهي :

(حكاية الاخوين) تزوج شقيقان سوية وكانت احدى الزوجتين طائعة خاضعة لزوجها مرتاحة معه وهو مسرور منها جداً عكس الثانية التي كانت تكدر رجلها ولا تدعه يوماً مرتاحاً فاتى زوج هذه وسأله

بانكسار عن السبب الذي جعل امرأته تطيعه هذه الطاعة العمياء أجابه بعد أكليلنا جلسنا على الطعام سوية كالعادة وبينما نحن نأكل تقدم هرٌ الينا تناولت خنجراً طعنته به فقتلته عند ذلك تغير لون امرأتي وصارت كل ما عملت عملاً لا ارضاه اعبس فتتذكر ليلة قتل الهر فترجع عن ذلك العمل ولا تعود اليه وهكذا لم اعد ارى حاجة لتوبيخها بأي شيء كان فلما سمع الاخ هذا الحديث عزم على اتباعه فذهب الى منزله ولما جلس على الطعام مع امرأته حضر هرّ فتناول سكيناً وقتله غير ان امرأته بدل ان تهابه ضحكت حتى استلقت على قفاها وقالت له كان هذا من الأول يا خرا عام أول .

وحقيقة الأمر ان اهابة الرجل هي التي تدرب الامرأة على السلوك الحسن ولا أقول ان هذه المعاملة واجبة مع كل النساء ولكن لا بأس من استعمالها وحيث ان عملاً كهذا اي قتل الهر لا يمس احساساتهن فلا ضرر من تجربته لأن الخوف هو الرباط العظيم لشهوات الانسان واعماله المخالفة للامور الموافقة .

(خروجي من الشام) وبعد ان مكثنا شهرين في الشام صارت امرأتي تحبب لي سكني بيروت لانه لا يوجد مستقبل حسن في الشام وهي بعيدة عن وطني لبنان عكس بيروت وان شهرتي في امراض العيون تجعل لي مركزاً حسناً رغماً عن كثرة اطبائها فافتكرت بقولها ورأيته حقيقة فاعتمدت على الانتقال من الشام الى بيروت وحيث كان فصل الصيف حين ذاك ارتأيت ان نذهب اولاً الى بكاسين لرؤية والدي لأنه لم يحضر عرسي بل كان المرحوم اخي خليل اشبيناً وشقيقة امرأتي السيدة صابات اشبينة وقد تصورت مع امرأتي واياهما صورة واحدة لم تزل عندي للآن وبعد ان ينتهي الصيف نرجع نسكن بيروت وقبل ان نبارح الشام أرسل لي أحد اصدقائي التاريخ الآتي :

سيدي الدكتور شاكر الخوري المحترم

تجشمت معما عندي من خمول القريحة البيتان الآتيان بتاريخ لزفافكم الميمون فجاء كما ترى يطلب القبول ويرتجى السماح :

بنت الكرام الى الكريم تزف كي	يسمو الضيـــــــــــآء ويلتقي القمرانِ
ولــــــذا الى الـــــدكتور شاكر من سما	بـــــــالفضل زفت مريم التيـــــــانِ
فـــــــاسلم ودم واهنـــــــاء بما أتيت من	جود المهيمن شاكر الرحمنِ
خير الغواني قـــــابلتك اخــــا النهى	فـــــأتـــــاك تـــــاريخي بخير غواني

في ٣ تموز سنة ١٨٧٩

الداعي
عبده كحيل

حضور أخي أمين من مصر الى الشام

بينما كنت أودع الشام واعد لوازمي للانتقال منها واذ حضر اخي أمين فجأة بمناسبة العطلة المدرسية وكان قد مر عليَّ أربع سنوات لم أره فيها ففرحت به جداً وبقي في الشام مدة عشرة ايام ثم طلب مني ان يسبقني الى والدي وسافر عن طريق البقاع ومنها الى مشغرة فجزين والمسافة لراكب الخيل يومين وبعد مدة التقينا في جزين وهذا هو اللقاء الوحيد الذي جمع ثلاثتنا منذ تسع عشرة سنة .

حكايتي مع المغربي

بعض هؤلاء المحتالين يدجلون في الطب خصوصاً بامراض العين ففي أحد الايام كنت جالساً قرب باب منزلي الذي كان مجاوراً لمنزل حنا عازار فسمعت مغربياً ينادي طبيب العيون انا الطبيب اشفي الامراض فناديته وشكوت له مرضاً في عيناي ولما رآني لابساً نظارات صدقني وفحصني فقال اني مصاب بالماء السوداء قلت وما دواء هذا الداء قال الكي في العنق وسألته هل معه مكوى أجاب بالايجاب فكلفته ان يدخل ويحميه وفيما هو منهمك بعمله دعوت شخصين من الجيران وافهمتهما حكايته وكلفتهما ان يمسكاه لان مرادي كيه ولما عاد الرجل والمكوى بيده مسكه الرجلان والقياه بالأرض فكويته بعنقه وقلت له هذا جزاء من يخدع الناس ويدجل عليهم ويتداخل فامراض العين وهو بريء من معرفة أدويتها فان كنت لا تكتفي بهذا القدر فأنا اسلمك للحكومة وحين عرف اني طبيب هرب وابقى المكوى عندي .

ولما كنت عند والدي في بكاسين حين مرضه الاخير وانا حزين جداً خرجت من غرفته فرأيت رجلاً واقفاً في وسط الجمع ينادي قائلاً اني اشفي المريض بدواء واحد وبينما هو يتكلم التفت ورآني فجمد في مكانه برهة ثم تقدم وسألني هل أنت الدكتور شاكر الخوري قلت نعم قال وهل قطنت دمشق أجبت أجل فنهض مسرعاً وولى هارباً دون ان ينبث ببنت شفة فسألته عن سبب هربه قال اني لا انسى ما حييت ذلك الكي وركب بغلته واسرع بها ولم يبق دقيقة واحدة في البلد .

فائدتي من الشام وتأثيرها عليَّ

لا يخفى ان الشام بلدة زراعية يقسم أهلها الى قسمين الأول اصحاب الاملاك والثاني الصناع فأصحاب الاملاك يرتبون معيشتهم حسب ايرادهم والصناع يشتغلون لهم بهذا الايراد لذلك ترى الدراهم عندهم محدودة قليلة والقريب لا يمكنهُ ان يكتسب أكثر من صانع خصوصاً اذا كان طبيباً غريباً ليس له معاش مخصوص كاطباء البلدية والعسكرية وليس هو من أهل الوطن ولا ذا عائلة ساكن عندها يضطر لدفع أجرة منزله وثمن أكله وشربه وأجرة لخدمه ولا ايراد لهُ ليقيم بهذه المصاريف لذلك مدة وجودي

بالشام اني صرفت بها علاوة على مدخولي نحو ماية ليرا ولم أقم فيها أكثر من ثلاث سنوات أما الذي دعاني على هذه الاقامة بها فهو أملي ان أكون طبيب بلديتها او بلدية اخرى تابع للولاية كنت اعيش بالأمل ومنتهى هذا العيش الخسارة ولكن لما تزوجت وصارت لي واجبات أوديها نحو سواي لأقوم بمعاشهم عارفاً ان كل سنة ستزداد عائلتي لم اعد ارى بالشام ما يكفيني لأن اهلها وسكانها يقلون لكثرة المهاجرة اذ لا يرى الصانع فيها ما يقوم بأوده ويكسب بالخارج أكثر منها أما الغنى فانه يرى فيها كل سعادة ورفاهية والراحة الجسدية والأدبية اما انا فلم أكتسب منها شيئاً مادياً قط .

أما علومها فليس فيها شيء من العلوم العصرية التي يمكن الانسان ان يعيش منها بل الجميع مقتصرون على العلوم العربية والشرعية وكدت انسى فيها صنعة الطب أما الذي أكتسبته فهو الجرأة على ممارسة العمليات الجراحية لأنني كنت الوحيد بين الاطباء الذي أقدم على ذلك في العين فصارت عندي بهذا الأمر مهارة نفعتني فيما بعد .

أما تأثيرها الأدبي فكنت لطيفاً مع الناس كعادة أهل دمشق وتولى على الكرم فصرت أحب ان أضيف اياً كان كعادة أصحاب الاملاك بدمشق فان الملاك الذي عنده القمح والفاكهة بكثرة يستسهل ما يبذله عكس التاجر الذي يدفع ثمنها دراهم معدودة فانه يهون عليه ان يدفع الى عتال فرنكاً ولا يدعوه لطعام ولو كلفه أقل من هذه القيمة أما صاحب الملك فانه يفضل ولمة تكلفه عشرة فرنكات ولا ان يدفع فرنكاً واحداً نقداً وحيث ان الشام بلدة زراعية والشغل فيها قليل فيرى الانسان ذاته متفرغاً للمطالعة والعلوم والدرس لذلك تمكنت من مطالعة كتب عديدة فقرأت فولتير وفولته وروسو واليهودي التائه وكل الكتب التي يقال انها كفرية لأعلم ماذا ورد فيها او ماذا يعلم مؤلفوها وما يقولون فبعد البحث والاطلاع وجدتها ليس فقط عديمة النفع بل مضرة لأنها تعلم الانسان الازدراء بالاديان والقوانين والشرائع ولا تلقنه واجباته او ما يقوم مقامه وضررها الأكثر انها تجعل الانسان غير مقيد بقانون فالدين مهما كان وكيف كان وأين كان يفضل كثيراً لأنه يحذر من ضرر الغير .

قبل ان نرحل من الشام أودعنا جميع امتعتنا في منزل جارنا ميخائيل افندي ملوك الذي حاسبناه بالمصاريف التي علينا أخذت منه أقمشة حريرية هدايا لوالدي ووالدتي وبعض اقاربي وكان وقتئذٍ طلب منا دراهم فأعطيته تحويلاً بخمسة عشر ألف غرش على محل اسعد ملحمه في بيروت فلما قبضه حرر لنا كمبيالة به بفائدة المائة عشرة لحين الطلب وسنذكر فيما بعد ما آلت اليه حال هذا الدين وكيف انتهى امره وكيف صح به المثل اذا ادنت أحد دراهم فتصبح عدوه في الأول اذا رفضت طلبه وفي الأخير اذا ادنته وطالبته بمالك فركبنا الداليجانس الى بيروت وارسلت الفرس التي كانت عندي مع رشيد ولما وصلنا الى بيروت بقينا ثلاثة ايام نستعد للذهاب الى الجبل ولم تكن العربات يومئذٍ قد عرفت فتوجهت مع زوجتي ورشيد ونمنا تلك الليلة في عيناب بمنزل أحد اقارب زوجتي المدعو يوسف منصور التيان لأنه كان مصيفاً هناك وفي اليوم الثاني وصلنا الى جسر القاضي بعد شروق الشمس وهناك تناولنا طعام الصباح وبينما نحن جالسون رأينا

اخي خليل قادماً لملاقاتنا من بيت الدين فتوجهنا سوية وبقينا عنده ثلاثة ايام ثم ذهبنا الى بكاسين بطريق معبور المزرعة وهي أخطر واقبح واردى طريق في الدنيا كما قلنا فأنزعجت امرأتي لهذه الاسفار ولركوبها الخيل لأنها غير معتادة عليه وقبل وصولنا الى بكاسين بساعة رأينا أهل القرية كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً آتوا لملاقاتنا باطلاق البارود والاغاني والزلاغيط ومعهم أناس من القرى المجاورة يبلغون الالف شخص وبقينا سائرين على هذا الحال حتى وصلنا الى البيت المعد لاستقبالنا وكان فيه ما ينوف عن الف مستقبل وكان يومئذٍ والدي في جزين استقبلتني والدتي في المنزل وبعد ساعة حضر والدي فلاقيناه للخارج ولما رآنا صار يبكي سروراً ويقبلنا وظل الناس يتواردون للسلام علينا من كل الاقليم مدة شهرين .

فصل الصيف في بكاسين ولبس قميص النوم

أمضينا فصل الصيف في بكاسين كعادة المتروجين حديثاً أعني بالزيارات والافراح والتنزه وكنت دائماً لابساً قميص النوم لأنها توافقني بالجلوس في أي محل كان ولا تحفظ حرارة الجسم في الصيف فكان البعض يضحك ولكن ضحكه لا يضرني مثل لبس البنطلون في هكذا محلات وحرارته الزايدة بسببه وخصوصاً كنت في بلدي يعرفوني من غير لبسي لأني مهما كنت لابساً فأنا انا عندهم فلاحسن لبس يكرمني عندهم ولا حقارته تزريني باعينهم ولم ار باستقبالهم لي فرقاً بل كانوا يكرمونني كأني لابساً طقمي الرسمي ومن ذلك الوقت صرت البس في الصيف قميص النوم وأوفر عليَّ اثقال لبس الثياب الافرنجية لان الانسان اخترع لبسه على حسب مناخ بلاده فالبنطلون لم يخلق لبلادنا بل للبلاد الباردة اذ من المطرر ان الثياب الضيقة تحفظ حرارة الجسم بعكس الملابس الواسعة التي يتجدد فيها الهواء دائماً وتوافق البلاد الحارة ولما اخترع البنطلون الذي يمنع لابسهُ عن جلوسه على الأرض اضطر ان يخترع الكرسي للجلوس عليها وحيث يلزم لتوليد الحرارة ان يأكل اللحوم بكثرة احتاج ايضاً للسكين والشوكة لأجل تقطيعها وأكلها فينتج من ذلك ان حالة البلاد هي التي اخترعت الازياء فلبسنا البنطلون لبس قهرى لا يوافق الزي والمودة فلهذا متى وجد الشخص منا فرصة لنزعه بأي محل كان لا يتأخر عن ذلك ويلبس القمصان العربية ولهذا ترى اغلب الشبان يلبسونها مدة الصيف لأنهم اقتدوا بي فبلادنا أحق أن تدعى بلاد القدوة لأن اهلها يحبون هذه العادة ويميلون اليها جداً لذلك لا ابريء وجهاء البلاد من اللوم اذ بهم يقتدي الاهالي ان كان بالحسن أو بالقبيح .

في هذه المدة حضر اخي خليل الى بكاسين وبقينا فيها الى تشرين الأول ومنها توجهت الى بيروت واستأجرت الطابق الاسفل من منزل شبلي أفندي الباحوط الكائن على طريق الشام وأحضرت معي أخي خليل لانهُ خرج من الحكومة وارسلت استحضرت امتعة بيتي من الشام وفرشتهُ قدر الامكان وذلك في ١ تشرين الأول سنة ١٨٧٩ .

سكني في بيروت

كنت في مصر ودمشق كآدم في الفردوس لا هم له سوى حاله وأما سكني في بيروت وقربي الى لبنان فكان مثله عندما خرج من الفردوس وقال له موتاً تموت اعني يموت عن حاله فصار يخدم غيره بزواجه وكنت بزيادة عنهُ انني حامل اتعاب والدي واخواني .

صدق من قال لا يهان نبي الا في بلده ولكن القائل لم يذكر سبب الاهانة هل هو ناشيء من البلد او من الشخص نفسهُ اما اعتقادي فاظن ان الشخص يكون الجاني على ذاته بتعرضه لنفع اقاربه او اهله او فئته وحزبه وهذا الاختصاص هو الذي يسقط الرئيس لانه يجب عليه ان يكون خالي الغرض او يتظاهر بذلك حتى يعتبره الجميع واننا نكرم الصورة او التمثال لصمته فلو تكلم وميز الواحد عن الآخر لسقط اعتباره قيل ان احدى العجائز كانت بعد القداس تأتي وتركع أمام صورة مار يوحنا مقطوع الرأس وتبدأ تصلي لهُ وتطلب منه ان يخبرها عن يوم وفاتها وتبقى تصلي في الكنيسة حتى يخرج الجميع فضجر منها خادم الكنيسة واختفى يوماً خلف الصورة ولما سألتها عن يوم وفاتها قال لها الخادم ستموتين يوم غداً فتكدرت من هذا النبأ وقالت مخاطبة صاحب الرسم لم يقطعوا رأسك عن شيء قليل بل لكثرة كلامك .

فأنا الذي عشت حتى الان بعيداً عن بلادي وأهلي ما كنت اعرف التحزب ولا الغرض ولكن لما عاشرتهم وسكنت بين ظهرانيهم ورأيت عدوهم يعاديني بدون سبب وصديقهم يصادقني ليسخرني لان في بلادنا الصاحب الذي يخسر أكثر من العدو لأن هذا تنتبه اليه ولا يمكنهُ يحكمك كل وقت ولكن الصاحب يخسرك أكثر خصوصاً متى كنت طبيباً والقصة الآتية مع عميلنا في بيروت تظهر حقيقة ما قلناه .

تغيرت فيَّ الطباع القديمة التي كنت اكتسبتها من هدو المصريين ودماثة اخلاق الدمشقيين فكنت أطعن بالمراءين اللذين كنت اعرفهم والقصد ان ينكشفوا ولا يغشون احداً فالبعض كان يستهاب الفضيحة ويكف عن العمل الردي والبعض كان كأبن الملوخية .

(ابن الملوخية) كان رجل اذا قيل لهُ ملوخية يتكدر ويشتم ويلعن القائل فأحد اصدقائه دعا اليه رجلاً وقال لهُ اعطيك ريالاً اذا ذهبت الى فلان وقلت له ملوخية قال هاتهُ ولما أخذ الريال توجه اليه وقال لهُ أتعرف من انا قال كلا أجاب انا ابن القواد وامي عاهرة واختي فاسقة وصناعتي لص . ملوخيه . ملوخيه . ملوخيه . فسكت الرجل فقيل لهُ لماذا لم تتكلم أجاب انهُ يفتخر بالصفات التي كنت أريد شتمهُ بها ولم تبق لي حيلة الا السكوت .

حاصله حضرت الى بيروت وسكنتها وانا لا اعرف احداً بها وكنت مصاباً بألم عصبي في رأسي يحرمني النوم ليلاً والراحة نهاراً وكان اخي خليل في البيت عندي بدون وظيفة اخي الثاني أمين لم يزل تلميذاً في مدرسة الطب بمصر ووالدي ترك بعد شهرين وظيفته وهو مديون بمائة وخمسين الفاً وهذه نتيجة خدمة الحكومة بصدق وامانة وكنت ملزوماً ان أقوم بمصاريف بيت بيروت ولا مدخول الا الذي أكسبه من عملي والشغل في بيروت كان وقتئذٍ كالعدم لأني كنت مبتدئاً فضلاً عن كيد الاعادي الذين كانوا يريدون اغتنام الفرصة لأجل خرابنا وتراكمت عليّ كل هذه المصائب والاتعاب في آن واحد فاحترت بأي امر ابتدىء ان كان اوفاء الديون أم ترضية الخصوم او البحث عن شغل للقيام بالمصاريف هذه كانت حالتي لما قدمت الى بيروت وكنت مجتهداً ان اصبر الدائنين حتى أتمكن من وفاء ما علينا غير ان الاخصام لم يرضوا ذلك وزيادة عما لهم من الدين اعتمدوا يزورون مبالغاً جديدة وهذا التزوير هو الذي نشطني لان بتزويرهم أصبح الحق معي وضعف حقهم (آه ما احسنك يا حق) فصرت انا الدائن وهم المديونون وقد كشفت هذا التزوير وتخلصت منه والوسائط التي استعملتها وساعدتني التقادير عليها هي الآتية التي تعلم كل من سقط بهكذا ظروف كيف يمكنهُ النجاة والخلاص .

اجتهدت على مركز اناله لشغلي وأحصل منهُ على شهرة وعلى مبلغ افي به ما على والدي وكانت هذه الاشياء موضوع تأملي وتفكري كذلك ان أجد واسطة توصلني الى المتصرف ليعرف الحقيقة واستعملت لذلك ثلاث طرق اولاً جسارتي التي اكتسبتها عندما ابتدوا يزورون كما قلت ثانياً عقلي الذي كان يقودني الى الطرق الموصلة للنجاح ثالثاً لساني الذي كان يوقف الذين كانوا يساعدون اخصامي على تزويرهم .

وبعدما تعرفت بالدكتور سنس الفرنساوي وذلك بسبب الالم العصبي في رأسي دعاه اليّ أحد اصحابي دخلت معه في خدمة .

المستشفى الفرنساوي الأول

أسس هذا المستشفى الأخت جلاس رئيسة راهبات المحبة في بيروت التي حضرت من أزمير ومعها راهبتان وعند حضورهن لم يجدن محلا لسكناهن فاعطاهن فورتنه بورتاليس منزله في بيروت ولمدة تسعة اشهر وذهب الى قرية بتاتر في لبنان وبنى كرخانة حرير وسكن فيها وذلك سنة ١٨٤٨ ولأجل هذه الخدمة لم تنسه الاخت جيلاس ثم اشترت ارضاً على ساحة البرج كانت بستاناً الى بيت الشلفون وبنت فيها ديراً الى الرهبان العازاريين الذين يخدمون الراهبات ثم الكنيسة الشهيرة ومحلاً لتعليم البنات ومحلاً للمرضى وآخر للاطفال المتروكين وقد طبب في هذا المستشفى بستلوسا ثم الدكتور سوكه الشهير وفي سنة ١٨٦٠ أنشأت مستشفى للتمريض والنوم خدمه الدكتور سوكه ولما حضر الدكتور سنس في ايار سنة ١٨٧٩ استلمه من الدكتور سوكه وفي ١٤ تشرين أول من هذه السنة دخلت بخدمته وكان قسم من هذا المستشفى للمرضى الداخلين والقسم الأكبر للخارجين فهو الوحيد الذي كان اولاً وكان يزوره يومياً لحد ثلاثمائة مريض .

جلاس

هي التي اسست كل ما هو للعازاريين في سوريا ولدت في ١١ كانون أول ١٨١١ بمدينة ريغريجبار بفرنسا التابعة لابرشية ليون ودخلت الرهبنة في ٦ شباط سنة ١٨٣٤ في باريز ثم حضرت الى أزمير وبقيت فيها الى سنة ١٨٤٨ وفي ٢٤ ايلول من هذه السنة حضرت الى بيروت مع راهبتين ولم تعرف انها تعينت رئيسة حتى وصلت الى بيروت وكان الرئيس على اللعازاريين الموسيو لروا وقتصل فرنسا الجنرال الموسيو بوره وكان أهالي بيروت يومئذٍ نحو عشرين الف شخص وحدودها الصور المسمى عصور .

(اعمالها) اولاً بنت الدير الموجود فيه الراهبات مع مدرسة البنات الداخلية ومكتوب علي بابه الشمالي هذه الكلمة التي عليها مدار العالم المتمدن وهي (الرحمة)

ثانياً : انشأت محلاً للبنات اليتامى جنوبي الدير .
ثالثاً : انشأت مدرسة للأولاد الايتام يتعلمون بها الصنائع .
رابعاً : أسست دير رأس بيروت .
خامساً : أوجدت الحديقة التي على طريق الشام .
سادساً : عمرت مدرسة بمحلة الكورنتينا .
سابعاً : أسست المستشفى الفرنساوي الكبير .
ثامناً : أقامت ديراً بطرابلس .
تاسعاً : جعلت ديراً في الزوق .
عاشراً : انشأت ديراً في الشام .
حادي عشر : أسست دير برمانا .
ثاني عشر : أقامت مدارس للبنات في لبنان . ثالث عشر وهو الأهم وهو الرحمة تبعينها لمستوصف الآنالذي بني محل المستشفى الأول والذي يزوره يومياً لحد مايتان مريض من كل الأمراض وهو شرقي الدير .

وكانت دائماً تقول لي انها تريد ان تنشيء داراً للعجزة وكانت تخدم المرضى بذاتها وتطعم الجياع وتقوي المرضا وتعزي الحزانى والمستوصف الباقي للان هو من صنعها ويعجز القلم عن حصر الخيرات التي عملتها هذه الأخت واذا اعتبرنا ان الانسان يكون عبداً للاحسان فيجب ان نكون جميعاً عبيداً لهذه الفاضلة التي فاقت بعقلها وتدبيرها وحسن ادارتها وسمو مداركها على فحول الرجال وقد خلفت ادارة من بعدها لا تزيلها الايام ويخضع لها قلب الانسان وهي ادارة الرحمة ومحبة الفقرا فأي قلب لا يحب فتاة كرست حياتها لخدمة البشر تطعم الجائع وتكسو العاري وتسعف الضعيف وتشفي المريض وتعزي الحزين فهي لليتيم وللقيط ام وللعاجز ملجأ وللجاهل معلمة تزور المسجونين ولا تطلب أجرة سوى رضاه تعالى وكل الذين

ذكرته عنها كنت اشاهده بأم عيني لانني قضيت معها ثمانية عشر عاماً اراها كل يوم تحضر لعندي لعيادة المرضى وتسألني عنهم وتذهب لمحل توزيع الطحين على الفقراء وتنظر مراضع اللقطاء .

وعندما كنت اشاهد هذه الاعمال من الرئيسة والراهبات وأرى منهن من كانت جميلات الصورة وغنيات من اصل شريف يخدمن المرضى خدمة لا تقوم بها اهلهم وليس لهن غاية دينوية وقد عرفت منهن الأخت مرغريت التي كانت توزع الدراهم التي تأتيها من أرث ابيها على الفقراء فزال من مخيلتي الفكر اغذي كنت اعتقده بالرهبان والراهبات وانهم لا يدخلون الاديرة الا لسد جوعهم ولكسلهم واعتقدت ان العامل الديني هو الذي يدفعهم الى هذه الاعمال وقد قلت يوماً لاحداهن لو صدق الكفار ولم تكن توجد آخرة ولا ثواب فتكوني قد خسرت خسارة فادحة أجابت ان اعتقادي بالاخرة واستراحة فكري واملي بالمكافآت الاخرى تجعلني في هذه الدنيا كفى السماء والحق يقال ان هؤلاء الراهبات كن يشتغلن أكثر من الفعلة ويعرضن انفسهن لخطر العدوى من الامراض وكفى الدين المسيحي فخراً انهُ انتج مثل هؤلاء الفاضلات لخدمة العالم ويخضعن لهن القلوب القاسية وقد سمعت بعض المترددين على المستوصف لما توفت الأخت جلاس وذلك في ٤ تشرين اول سنة ١٨٩٧ ودفنت في وسط الكنيسة الكائنة بمدرسة البنات في الدير ان المسلم يقول ان نفسها في الجنة والاسرائيلي انها في حضن ابراهيم والمسيحي انها عن يمين الاب وهذا هو تأثير الاحسان .

(مساعدة الاخت جلاس) وكانت أعظم مساعدة للرئيسة جلاس الاخت اسطفاني التي لم تزل للآن بسن ثمانين سنة حافظة كل ذكاها وقواها العقلية وهي المعلمة لكل من أتى بعد الاخت جلاس في احوال الادارة وهي من الفاضلات .

(رفيقاتي في المستشفى) لما دخلت في تطبيبه كان رئيسة الادارة فيه الاخت كليمانس وبقيت معنا حتى تعمر المستشفى الجديد ثم ذهبت الى بلاد العجم وعادت منها الى فرنسا حيث توفت بعد برهة وجيزة وكانت مدبرة ذات ذكاء ثاقب وأوصافها كباقي رفيقاتها الراهبات وخلفتها الاخت مرغريت ثم الأخت اوجني ثم الأخت جان وجميعهن باعمال واحدة في الخير لا يمكن تميز واحدة عن الاخرى كما انه لا يمكنك تميز واحدة عن الاخرى بلبسها لانه واحد ويوجد من هذه الراهبات عدد عظيم من ابناء العرب لا يمتزن عن الافرنجيات بكل عمل خيري ومنهن الاخت مريم عكر موزعة الادوية والاخت روزلين من دير القمر ايضاً تغير على الجروح وماهرة جداً بقلع الاسنان .

(الدكتور سوكه) هو طبيب صحة جمهورية فرنسا في سوريا وقد كان كما قدمنا أول طبيب للمستشفى الذي انشأته الاخت جلاس وهو الذي رفع شأن الطب في سوريا وهو الذي جعل اجرة العيادة ريالاً مجيدياً وتوفي في فرنسا وأتوا بجثته الى هنا كما أوصى يصحبها احد اقاربه وقد استقبلناها الى البحر مع

القنصل لابتيت فيل فنصل جنرال فرنسا في سوريا وتوجهنا مع سنس ودفن في صربا في القبر الذي انشأه وهو حيّ والان قائم على تلة فوق السكة الحديدية وكان ذلك سنة ١٨٨٥ .

ومن العجب انني عندما كنت أصلح هذه المسودة للطبع حضر لعندي كاهناً سريانياً من جونيه يدعوني من قبل الخواجات باغوص مانوك لحضور حفلة نقل جثة اخيهم المتوفي نجيب الى المدفن المقام له جنوبي كنيسة صربا التي جتزنا فيها الدكتور سوكه ومن ذلك الحين لليوم ما دخلتها وغبطة البطريرك الحالي اليوم كان حاضراً حفلة جناز سوكه وكان لم يزل خورياً وهو غبطة البطريك الياس الحويك الماروني ويصحبه غبطة البطريرك افرام الرحماني السرياني الكاثوليكي في هذا الاحتفال .

المستشفى الفرنساوي الحديث

قبل فتح المدرسة الطبية بنى المستشفى في المحل القائم به الان وكان رئيس اللعازارية في بيروت يومئذٍ الموسيو ده فن الذي اشترى ارضه وبناه ونقل اليه المرضى الداخليون واستقل بادارته اما المستشفى الأول فبقي للمرضى الخارجين وبقيت فيه طبيباً للعين ثم دخل الدكتور صوما بعدما تعلم في المدرسة سنة ١٨٩٥ وهو من الاطباء المعتبرين وماهر في صنعته ولم أزل لليوم منذ ثلاثين سنة اطبب فيه العيون والدكتور صوما يداوي باقي الامراض والمرضى خارجيون .

عميلنا في بيروت

ان هذه القصة تنبه كل من يتعاطى الاشغال الى عميله لان الاحتراس لازم مثلاً اذا كنت مسافراً وأخذت معك سلاحاً مفكراً ربما تلتقي بقاطع طريق فتدافع عن نفسك فاذا ما وجدت لصاً وكان معك سلاحك لا يضرك ولكن اذا ذهبت من دون سلاح ووجدت اللص فتكون خسرت يلزم ان الانسان يفتكر بالأذى له قبل حصوله ويعمل احتراسات لمنعه عن وقوعه فيه من ان يسلم نفسه بدون انتباه للذي يجد عليه من المصايب وهذه القصة هي حيث لا بد لكل رجل مهم في الجبل من عميل له في بيروت وقد اتخذ والدي هذا الرجل التاجر عميله وكان يطلب منه اغراضه في بيروت ويستدين دراهماً منه بالفائض وكانت له به ثقة عظيمة حتى أصبح كواحد منا كل منا يتعاطى معه بالأخذ والعطا خصوصاً المرحوم أخي خليل الذي كان يساعده بقضاء اشغاله ولما أتيت الى الوطن صرت اتعاطى معه ايضاً وكان والدي استدان مبلغاً من جوستي المصور الذي أوصى بتركته الى البابا والقاصد يافي وكل موسى افندي فريج بجمع الديون فسحب بروتستو على كل المديونين وقد حصل اختلاف بينه وبين والدي على رصيد الحساب الذي كان حسب والدي الف وثمانماية غرشاً وعلى حساب فريج افندي اربعة الاف غرش واخيراً كتب عميلنا لوالدي يخبره ان موسى افندي لم يقبل الا بحسابه وكان والدي يعتبر الاشخاص أكثر من الدراهم فلكي لا

يحصل اختلاف بينه وبين فريج افندي كتب للعميل ان يدفع له مطلوبه فأرسل هذا تحريراً لوالدي فيها علم الحساب ومن جملته اربعة الاف غرش لفريج افندي رصيد الحساب وكذلك بعض اغراض وبواقي حسابات وكان مجموع ما يطلبه ١٢٠٠٠ غرشاً حرر له بها والدي كمبيالة .

وبعد حضوري الى بيروت وسكني بها كلفني والدي ان أذهب الى موسى افندي فريج واستلم منه الكمبيالات لأنه دفع قيمتها كلها ولم أكن وقتئذٍ اعرفه وتوجهنا اليه وسألته عن الكمبيالات قال انها دفعت ولكن لا اسلمك اياها حتى تأتيني بالوصولات فحررت بذلك الى والدي وأجابني انها مع عميلنا فذهبت الى دكانه وسألته عنها قال انها في المنزل ويحضرها في اليوم الثاني وفي الغد لم يأتِ بها وهكذا جملة ايام بقي يراوغني ويحاولني اخيراً توجهت الى فريج وسألته عن عدد الوصولات لأنها مقيدة دون شك في دفاتره فأمر الكاتب باعطائي علمها فأخذته وارسلته لوالدي فتعجب غاية العجب من الوصل الاخير رصيد الحساب اذ مذكور فيه انه دفع لفريج افندي ١٨٠٠ غرشاً مع ان العميل ذكر انه دفع اربعة الاف غرش فعند ذلك عرفت سبب محاولة العميل وذهبت الى فريج افندي وطلبت منه تحريراً بحقيقة الحال فكتب لوالدي كتاباً يقول فيه ان رصيد الحساب الذي كان اربعة الاف غرش قبضناه اكراماً لخاطركم حسب ادارتكم الف وثمانماية غرشاً وسلمني التحرير مع الكمبيالات بعدما أخذتها افتكرت في الغش الذي ظهر من رجل كنا نحبهُ ونعتبره كواحد منا ونعتقد به كل الاعتقاد انه يلاحظ مصلحتنا ورأيناه بالعكس قد أخذ منا ما تركهُ الغريب لنا فقلت بذاتي كم غش هذا الرجل والدي هذه المدة الطويلة حين كان لا يظن بوجوب مراجعة حساباته نظراً لثقته به وافتكرت ان اذهب اليه واصفعه أمام الناس وأكشف غشه غير اني ارتأيت ان ذلك لا يوافق فأخيراً توجهت اليه وأخبرته عن خلاصنا من موسى افندي فقال لي كمبيالة باثني عشر الف غرش عند والدك اريد انقلها لاسمك لانك هنا اقرب قلت له لا بأس من ذلك فغير الكمبيالة علي وأخذت كمبيالة والدي منهُ مع تحرير اليه مفاده ان جميع الحسابات التي بيننا حتى الان قد انتهت ولم يبق لنا بذمتكم شيء ولما استلمت هذا التحرير ارسلتهُ الى والدي ورجوته ان لا يتعاطى مع هذا العميل ابداً .

ولادة ابنتي حسيبه

في اليوم الثالث عشر من شهر أيار نهار الخميس الساعة الثانية ونصف بعد الظهر سنة ١٨٨٠ ولدت لنا ابنتنا البكر التي دعوتها حسيبه باسم التي كان مرادي اتزوجها في الشام ولما عرف والدي بولادتها ارسل لنا هدية من الجبل وفي شهر حزيران ذهبت لازوره فقال لي انه تكدر لولادة ابنة لنا فأجبته لم أزل وامرأتي بأول عمرنا وسنلد لنا ذكوراً فيما بعد قال اعلم ذلك ولكن ارغب بأن اراهم قبل ان أموت وكان قوله نبوة .

وفاة والدي يوسف الخوري ابراهيم

ولد في ٩ أيار سنة ١٨١٨ وبقي حتى صار عمره خمس عشرة سنة كان يدرس في بيته العلوم البسيطة وفي هذا السن توجه الى قرية مشغرة بأمر المرحوم الامير بشير الشهابي لأجل المناظرة على الحديد الذي كان يستخرجونه من وادي السنديان بين مشغره وكفرحونه وكان لا يسوغ لأحد من اهالي جبل لبنان ارساله الى الخارج وكان ذلك سنة ١٨٣٣ وبقي في هذه الوظيفة الى ان سقط الامير المذكور وبعد ذهابه حكم أقليم جزين آل جنبلاط واتخذه احمد بك كاتباً خصوصياً له وتوجه مع مناصب لبنان بخدمة الوالي الجديد المرحوم الامير بشير ابو طحين الى يافا لمحاربة ابرهيم باشا المصري حين كان راجعاً من سوريا وبقي برفقة احمد بك حتى جرت الحادثة الاولى بين الدروز والنصارى وفي المدة التي انقضت بين الحادثة الاولى والثانية كان كاتباً عربياً في قونسلاتو دولة انكلترا الفخيمة بصيدا وكان يومئذٍ قنصل الجرال على سوريا الكولونيل روز بك ولما انتهت الحادثة الثانية طلبهُ سعيد بك جنبلاط من صيدا الى المختارة وبعد حضوره بمدة وجيزة واستخدامه كاتباً خصوصياً له صدر الامر المشيري من بيروت بتولية سعيد بك على الشوف وأقليم جزين وأقليم الخروب وأقليم التفاح وجبل الريحان وبقي في هذه الوظيفة مدة سبع عشرة سنة ورغماً عن اهماكه في الاشغال كان يتلقى العلوم العربية والفقه على فضيلة الشيخ ابرهيم الاحدب الذي استحضره سعيد بك لتعليم اولاده وقد نسخ سبعة عشر كتاباً بخط يده منها قاموس المطران والحريري والمتنبي وجملة كتب شرعية وفي هذه المدة تعين من قبل الحكومة مأمور النفوس بقضاء جزين وجبل الريحان وبعد حادثة سنة ١٨٦٠ وتشكيل متصرفية لبنان طلبتهُ الحكومة الى القومسيون المعين من ذوات لبنان لأجل التحقيق على بواقي الاموال الاميرية ولما انحل هذا القومسيون انتخب عضواً لمجلس ادارة لبنان عن قضاء جزين وهو أول عضو لهذا المجلس عن الأقليم بمدة دولتلو داود باشا وبقي ست سنوات وانتخب ثانية ثم نقله دولتلو فرانقو باشا الى مجلس الدتفرخانة الذي كان رتبه ولم يكن موجوداً في نظام جبل لبنان وبقي بوظيفته الى ان حضر دولتلو رستم باشا فألغى هذا المجلس وفي هذه المدة ذهب الى مصر لزيارتي ومعهُ ولده أمين فدخل هذا بمدرسة الطب وعند رجوعه الى لبنان عينه دولتلو رستم باشا عضواً في مجلس الجنايات الذي كان شكله حديثاً وفي هذه المدة مرض مرضاً ثقيلاً وفي ك ٢ سنة ١٨٧٦ تعين قاضياً على محكمة جزين وهو ثاني وطني كان فيها بعد سرابيون ابي رزق وبقي بهذه الوظيفة الى أول كانون الثاني سنة ١٨٨٠ فيكون قد خدم الحكومة ٤٧ سنة وعاش ٦٢ عاماً وبهذه المدة لم يعزل ولا مرة وكان له المركز الأول في الخدمات وهو أول عضو في مجلس الادارة عن أقليم جزين وأول عضو بدائرة الجنايات عن الموارنة وثاني وطني تولى قضاء جزين وكان يبعد عن الشرك بالله والاضرار بالناس .

هذا مختصر تاريخ حياته . وقد تعلم الصرف والنحو والفقه والعروض والحساب والجغرافية والتاريخ وعلم الطبيعة وعلم الفلك بدون استاذ وهو منهمك بالاشغال الادارية المهمة وقضى حياته ولم يتشك عليه أحد ولا هو تشكى على انسان في الدعاوى الحقوقية وكان يساعد اعداءه كاصدقائه وفي مرضه الاخير الذي اصابهُ في أول تموز سنة ١٨٨٠ دعاني اليه من بيروت فتوجهت وبقيت عنده الى مساء يوم الخميس

الساعة الثالثة ونصف عربية الواقع في ٥ آب سنة ١٨٨٠ وهو تاريخ نظرته الاخيرة اليَّ وكلمته الاخيرة معي وكان دفنهُ في اليوم الثاني نهار الجمعة الساعة العاشرة عربية في ٦ آب وانتشر منعاه فاجتمع الوف من اهالي اقليم جزين وعدد عظيم من الكهنة والرهبان في مأتمه ولا استطيع ان أصف الغم والكدر الذي اصابني بفقده وكل من عرف سلوكي معهُ يقدر المصيبة التي رزئت بها لفقده وكان دائماً مشغول الفكر نحوي من حيث الديون والعداوة وخلافها وكان يقول لي مدة مرضه انني حزين جداً لسبيك ولما توفي شعرت كأنني منفرد في العالم دون محب حقيقي لأن من فقد والده يفقد المخلص والمستشار أما انشغالي بالدعاوى فقد خفف من لوعتي اذ لو كنت أهملت اخصامي لكنت تلفت لا محالة لأن الموت الحقيقي هو موت الانسان وهو حي اعني وفاة كرامته وجاهه أما الموت الطبيعي فأمر عمومي على الجميع وكنت دائماً اتذكر هذا البيت :

كـــــل المصائب عنـــــد الموت في صغرٍ والموت عنـــــــــد هوان النفس في حقر

دعوى عميلنا

بعد وفاة المرحوم والدي قدم عميلنا دعوى عليه وان له بذمته خمسة وعشرين الف غرش وانهُ حولها عليَّ ورفضت التحويل ويطلب الرجوع عليه ولم يكن عندهُ لاثبات مدعاه ورقة خطية بل قدم شهوداً على صدقه وهم اصهرته وأولاد عمه والذي دربه على هذا الامر احد اقاربنا وكانت الدعوى منظورة بمحكمة جزين التي كانت يومئذٍ حسب التشكيل الاصلي مؤلفة من قاض من الطائفة الأكثر عدداً من كاتبين أول وثان وكان القاضي يومئذٍ من الطائفة المارونية ونائبه درزي والكاتب الأول من طائفة الروم الكاثوليك والثاني من الطائفة المارونية وقد سعى العميل بالحصول على توصايات عديدة من المركز الى الهيئة الحاكمة وكان كل اقربائنا يساعدونه وبقيت وحدي ادافع وارافع واشتريت نظام الحقوق وكنت أدرسه وسألت عنه بعض المتشرعين فأجابوني انه لا يمكن لقاض ان يسمعها واخيراً توجهت الى المحكمة لرؤية ما يصير وعزمت ان أكلم القاضي واعرض له الدعوى كما هي مستنداً على عدم وجود مسوغ شرعي لاستماع شهادة الشهود .

(رئيس المحكمة) لم أكن اعرف هذا الرجل ولا سبق لي ان دخلت بدعوى فكنت أظن انه يصغي للحق لأن هيئته الظاهرة الجامدة تدلني على ذلك ولما كنت أكلمه لم يكن يصغي لحديثي بل كان جوابه الوحيد ان الحق بجانب خصمي ويعلمني ان أتكلم بالمحكمة كلاماً رأيته مضراً بي واخيراً تنكرت منه ولم اعد اعتبره .

(اعتراف اللص) في أحد الايام وهو نهار الاربعا دخلت عليه فرأيته يأكل زيتوناً وزعتراً لبخله لا كما كان يدعى لدينه فأتوا له بهدية وكان كأس من اللبن فقال الى الهادي اما تعلم انني لا أكل اليوم زفراً

فضحكت وسألني عن سبب ضحكي ظناً انني حسبته بلا دين قلت قد خطرت لي حكاية اعتراف قاطع الطريق قال وما هي قلت ان احد قطاع الطريق أتى يوم العيد الكبير الى كنيسة القرية ودخلها بسلاحه فاستهابه الحاضرون لما عرفوه وأوسعوا له مجالاً فوصل الى الكاهن الجالس بكرسي الاعتراف فلما رآه ارتعب منه وسأله ماذا يريد قال اني اريد الاعتراف قال ابدأ بذكر خطاياك قال انني يوم أمس رأيت مكارياً فقتلته وأخذت ما معه وما هو بالذنب الكبير أحسبه على رجلي وذكر له جملة خطايا وكلها حسبها على رجله فصرفه الكاهن وبعد ان خرج من الكنيسة رجع وقال للكاهن يا أبت انني نسيت خطية عظيمة اظنها لا تغتفر قال وما هي قال اني أكلت لحماً يوم الاربعا قال الكاهن فأحسب هذه على رجلي انا .

ولما سمع هذه الحكاية ضحك لخبثه وعندما نظرته بهذه الحالة تركت الحضور الى الجلسات وحكم عليَّ حكم غيابي فاستأنفته وحكمه كان بقبول الشهود على تحويل والدي اليَّ بدون تحويل ولا كتابة تدل على ذلك وكان له أحكام لا تطابق النظام ولا الانسانية بل مرامه ومن جملتها الآتي :

(أحد أحكامه) ادعى رجل على آخر بأن له بناء سفلياً امام علية شخص آخر وان صاحب العلية له حق المرور على سطح هذا البناء وانه الان يقيم خيمة على السطح ويقطر العرق عليه فيتضرر من ذلك (الحكم) .

بناء على اتفاق الخصمين قبل صاحب البناء الأسفل بأن صاحب العلية لا يمكنه عمل خيمة مدة نصف سنة ابتداؤها من تشرين الثاني لغاية ايار وفي الستة اشهر الاخرى يمكنه عمل الخيمة وتقطير العرق فأخذ الرجل الحكم وابتدأ يصرخ ويقول من في بكاسين يعمل خيمة بشهر كانون ويقطر عرق العنب بشهر شباط وقد اراني الحكم فما قول القراء بهذا الحاكم وهي في محكمة قضا جزين لليوم عن سنة ١٨٨١ وبقي في وظيفته حتى تولى واصه باشا فعزله حين توجه الى جزين وعزل معه الكاتب وقد نظمت له اشعاراً ورد بعضها في القصيدة العمومية التي نظمتها لموظفي رستم باشا وكان مجتهداً في تختيم التشكر برستم باشا لابقاءه متصرفاً ليبق قاضياً وكنا نسميه النخاس وكان مستنداً على مأمور اسمه فنحاس في المركز :

وقـــــــاض في قضا جزين يقضي	عبوساً بـــــــالنساء وبـــــــالخرادِ
لـــــذلك قـــد أصيب بـــداء صرع	وكــــان الــــداّء فيــه بــازديــادِ
أتــــــاه عزل من ولاه يومـــــاً	وكـــــان قضاؤه لامـــــاً بصادِ
ولم تنجـــع بـــــه اختـــــام شكر	وكـــــان بختمـــــه ختم الفسادِ
بكــــاه نـــاحبـــاً معتوه عقـــل	طليق الـــدمـــع مـــاسور الفوادِ
ودار بنعشه يلتـــــــــاع يشكو	بنوحٍ نـــادمـــاً يـــدعو ينـــادي
فراقك يـــــــــا فساد عليَّ مرٌ	فلا تترك حبيبك في ابتعـــــــــادِ
بموتك مـــــــــات عزمي واعتزازي	وعيشي وانتعـــــاشي واشتـــــدادي

وما النخاس من فنحاس الا | كذبل من ورا كلب ورادي
يدجل بين فخذيه لضيم | يحرك يوم رغد للتعادي
ويترل رأسه للأرض يوماً | اذا ما جاءه عكس المرادِ
وفي كل الأمور فلا تراه | بحالٍ مستقيم للتمادي
ومن يرجو استقامة ذيل كلب | يقود المستقيم الى الفساد

وكان النخاس من قوم لوط .

وقد حررت له كتاباً ونظمت له ابياتاً مخصوصة لحكمه وهذه هي :

حولت قلبي اليها حين بت لها | مديون لطف وديني غير مكفول
أمضت عليه بسيف اللحظ قاتلة | لعلة فيه أضحى غير مقبولِ
حاولت ارجاعه شرعاً فما قبلت | وحاولتني بتحويل كتقبيلِ
لما رأى بندها قاضي الهوى فقضى | ظلماً عليَّ ببند غير منقول
على المحول لم ترجع حوالته | والحق عندي لذى جاه وبرطيلِ
كأنه اليوم عباس يحاكمني | والمال يغمره ضدي كمكحولِ

وكان عزله في ٣ أيلول سنة ١٨٨٣ .

استئناف الدعوى

بعد اصدار الحكم المذكور وتبليغه لي مع المضبطة استأنفته الى دائرة الحقوق بمركز متصرفية لبنان وكانت وقتئذٍ مؤلفة من افاضل اللبنانيين ورئيسها بطرس بك كرم واعضاؤها ارسانيوس افندي مذكور عن الموارنة والشيخ سعيد حمان من بتاتر عن الدروز والشيخ يوسف الخطيب عن الاسلام وجبران افندي مشاقة عن الروم الكاثوليك واسكندر الخوري عن الروم الارثوذكس والسيد علي عن المتاولة .

وعندما كنت اسمع احد الاعضاء يقول انه لا يحكم بدعوى ما لم يأمره المتصرف على ذلك لان المتصرف أكبر وأعلم منه ولولا ذلك لما أصبح متصرفاً وحيث كنت اعلم عداوة رستم باشا وتحزبه لاضداده خشيت ان تبلغه المسألة على خلاف الحقيقة فيأمر بالحكم عليَّ وعندئذٍ لا تستطيع قوة ان تضاده لان متصرف لبنان له السلطة المطلقة وكل المستخدمين تحت امرته المجردة بعزل ويولي من اراد ومتى اراد وان شاء تصدير دعوى احد يحرك عليه اقاربه فيصدرونها ويأمر بالحكم عليه فيكون الظلم شرعياً ولا أحد يمكنه ردعه الا اذا حركته الشفقة .

وكنت اعتقد باستقامة رستم باشا متى عرف الحقيقة ولكن الوشاة كانوا يحيطون به ليكتموها عنه وكل حزب يمثلها له حسب مآربه ولم يكن يتنازل ليفحص عنها بذاته بل يستخبر عنها من اتباعه المحدقين به وقد مهر اهل بلادنا بقلب الحقائق لذلك افتكرت ان ابحث عن شخص غريب اخبره حكايتي وارجوه ان يبلغها لدولته ويعرض عليه مظلمتي ويرجوه بأن لا يصغي لكلام الاعداء المفسدين ويأمر المحاكم للقضاء عليَّ واخيراً ارتأيت ان أذهب لمقابلة امرأة عبدالله باشا .

عبدالله باشا رجل انكليزي خدم الدولة المصرية ودعي بهذا الأسم ولما أحيل على المعاش اتى الى سوريا مع زوجته وبناته فتعرف برستم باشا فكان يحبهن ويكرمهن لأنه كان اعزباً ويتردد بكثرة الى منزل عبدالله فاشا فكانوا يضيفونه في بيت الدين بالسراي .

(اقتداء أهل بلادنا) نظراً لملاطفة رستم باشا للسيدات اقتدى به سائر المأمورين وكان بينهم شيخ بلغ من العمر نحو السبعين سنة حاز مركزاً عالياً وتربى التربية القديمة التي كانت تحتم على الرجل أن يقول كلمة (اجلك الله) حين ذكر النساء فصار يستقبل السيدات ببشاشة وأنس وسأله بعضهم يوماً ما هذا الانقلاب يا عم أجاب هي المودة اليوم .

وبالاختصار اننا نتطبع بسهولة بطباع رؤسائنا .

(مقابلتي امرأة عبدالله باشا) في أحد الايام توجهت لبيت عبدالله باشا وكان ساكناً في رأس بيروت ولا اعرف منهم احد فطرقت الباب وحضر الخادم فاعطيتهُ ورقة باسمي وطلبت منهُ ان يسلمها للسيدة وبقيت واقفاً في أسفل السلم وبعد قليل نزلت الى منتصف السلم وسألتني ماذا اريد وهل ارغب مقابلتها او مشاهدة الباشا زوجها ولما قلت لها انني اريد مقابلتها أجابت انني لا اعرف اللغة العربية فقلت لها انني اتكلم الفرنساوية والانكليزية فدعتني ودخلنا الى غرفة المائدة واعتذرت مني على استقبالها اياي في ذلك المحل لأنها نزلت حديثاً من الجبل ولم تتمم فرش منزلها وسألتني ماذا اريد قلت سيدتي ان الناس يتقولون كثيراً ويتهمون رستم باشا بما هو بريء منهُ ولعلمي صداقتك له جئت اخبرك ما تجريه حاشيته من المفاسد التي ينسبونها لهُ لينفذوا اغراضهم وتأييدا لقولي اسمعي قصتي ان تكرمت وذكرت لها تفصيل حكايتي مع عميلنا وتزويره بدعواه وقلت لها ان ميدانا الطبيب الذي يدعي النفوذ لدى رستم باشا من جملة انصاره وقد كفل له النجاح لانني عندما كنت في دمشق اختلفت مع الطبيب ميدانا (وكان ذكر ميدانا شفيع لي لانها تكره ابنتهُ غيرةً) فأرجوكِ أن تتداخلي بمسألتي وتخبري دولتهُ حكايتي وأنا ارضخ لكل ما يأمر به بعد ان يتلو مضبطة قضاء جزين فوعدتني ان تفعل ذلك متى عاد من الجبل واعتذرت انها لا تستطيع الكتابة لهُ فشكرت لها فضلها وحرجت .

وبعد مدة اخبرني اسكندر بك تويني الذي كان يومئذٍ منحطاً نفوذه عند دولته وكان هناك بعض

اخصامنا من المأمورين فقال لهم دولتهُ من هو الدكتور شاكر الخوري الذي بان لهُ دعوى لا يدعلون له بالحكم فيها فأجابه احدهم (وكنت أظن به الصداقة لانه لم ير منا قط معاملة سيئة ولم نؤذه بشيء) انهُ شخص مفسد مقلق أخذ دراهم شخص مسكين وحتى الان لم يدفعها لهُ فتشكى عليه قال وما هي مداخلة الطبيب ميدانا أجابه اقسم لدولتك ان ميدانا لا يعرف له وجهاً قال وهل كان هذا الطبيب بالشام أجاب الامير سعد شهاب الذي كان يومئذٍ رئيس مجلس الادارة نعم فحينئذٍ التفت رستم باشا وقال بغضب مخاطباً المفسد ان الدكتور شاكر يتشكى منهُ ومنكم جميعاً بأنكم تتداخلون ضده فيلزم ان لا تتداخلوا بدعواه فيما بعد بأي وجه كان .

ولما عرفت ان دولتهُ لا يتداخل بدعواي توجهت ثاني يوم الى دائرة الحقوق نشيطاً متقوياً وكان ضدي الرئيس بطرس بك كرم لان خصمي اتى له بعدة وصايات من سيادة مطران الدبس وكان لا يعرفني يومئذٍ ومع هذا لا يلزم مداخلته في مسألة لا يعرف حقيقتها لانه لم يستمع كلامي للحكم بيننا وهذه التوصاة احتقار للحاكم لأنه اذا كان الموصى به ممقوتاً فلا توصية سيادته تنفعه واذا كان اكراماً لخاطره يعطه الحق فهذا عيب عظيم فاذا كان سيادته معتقداً ان هذا الحاكم مستقيم فلا يلزم له وصاة حاصله هكذا كانت العادة فدخلت المجلس وكان قد مر على دعواي سبعة أشهر في الاستئناف ولم يطرحها الرئيس للمذاكرة لعله اذا طرحها لا يحكم بها فطلبت منه كالعادة انهاء الدعوى فأجابني كالعادة سنراها في الاسبوع القادم وكنت قبلاً اسمع امره ممتثلاً واخرج اما هذه المرة فأجبته حتى متى التأجيل والتسويف فقد مر عليها سبعة اشهر ولم تطرحها للمذاكرة قال تشكى عليَّ قلت هذا ما سأفعله ان لم تقدمها يوم غد للمذاكرة واعلم عندئذٍ انك انت خصمي لا الخصم ودولته لا يرضى هذا الامر خصوصاً بتحزبك لرجل مزور وكان عميلنا واقفاً فسمعني وقال انني ارفع عليك الدعوى الجزائية لاتهامك اياي بالتزوير قلت انني اثبت قولي واخرجت تحرير موسى افندي فريج الى والدي بكونه قبض منه ١٨٠٠ غرشاً مع ان هذا اخبره بكتاب مرسل منه انهُ دفع اربعة الاف غرشاً وقد رأيت هذا التحرير بين أوراق والدي وقدمته للمجلس .

فلما رأى هذه التحارير بيدي التي تثبت تزويره سكت وأصفر لونهُ كذلك عروق الرئيس جمدة فخرجت وقلت سأرجع غداً .

(المصالحة على هذه الدعوى) وفي اليوم الثاني اتيت الى المجلس وبينما انا واقف قرب بابه رآني الرئيس فخرج من الغرفة مدعياً انه يريد ازالة الضرر ولما رجع قابلته وسألته ماذا يريد ان يعمل اليوم فضحك وأخذني بيدي الى جانب وقال اصدقني الستم مديونين لهذا الرجل قلت بلى انا وأخوتي مديونون له ولكن ليس والدي قال وما هو مقدار دينكم قلت ستين الفاً قال انه يزعم ان الدين أكثر من هذا القدر اجبته قد كذب بقوله وأظهرت له تزويره وكيف كان يقيد كل دفعة يرسلها لأخي امين ثلاث مرات وأطلعته على خوافي سر هذه المسألة وقد كان بطرس بك عادلاً فحين رأى هذه البراهين وان دعواه على والدي محض افتراء اراد ان يصلحنا فقال لي ادفعوا لي ستين الفاً وانا اصرف لكم هذه الدعوى قلت لا نستطيع دفعها

مرة واحدة بل نقسطها قال وهل لك من يكفلك على ذلك قلت نعم قال فليأت ويكفلكم ونحن ننهي هذه الدعوى .

(سليم بك طرابلسي) لما تركت بطرس بك انشغل فكري لوجود كفيل لان ذلك وقتئذٍ كان عسراً جداً لأنني لم أكن اعرف احداً يستطيع تقديم هذه الكفالة خصوصاً لأن حالتنا كانت لا تجريء احداً على المخاطرة بهكذا مبلغ لكن اذا اراد الله توفيق انسان سهل له كل الوسائط من حيث لا يعلم فتوجهت حالاً لاذكر ما جرى الى ابن خالتي سليم بك طرابلسي اميرالاي ولم يخطر ببالي ان اطلب كفالته لانه كان حريصاً جداً على كل ما يملكه ولا يتعرض لمثل هذه الامور ولا استطيع أن اصف عجبي حين قال لي أذهب وقل لهم اني انا كفيلك فلم اصدقه حتى رأيت علائم الجد بادية على وجهه واعاد عليَّ كلامه فقلت له ان املاكنا تزيد على هذه القيمة فأنا ارهنها عندك قال هذا الامر لا يكون ولو ذهب المال ففداؤك فقلت بذاتي ان الله لا يريد خراب هذا البيت لذلك ارسل له مساعدة غير منتظرة وتوجهت الى المجلس واخبرتهم عن الكفيل فقبلوه وطلبوا حضوره فأتيت اليه واخبرته فنزل حالاً ووقع على كمبيالات التقسيط وشرح عليها انه يقوم بالدفع يوم الاستحقاق اذا تأخرت عن دفعها وكنت أوفر ما اجمعه حتى افي به الدين كي لا يطالب احد سليم بك بشيء وهكذا انتهت هذه الدعوى وكانت كل اقاربنا تتوجه الى زوجة سليم بك وتخوفها من الكفالة حتى تبطل زوجها فما أمكن ولا هي فعلت .

(حضور اخي أمين) لما كان والدي في حالة الخطر ارسل تلغرافاً لاخي امين يطلب حضوره اليه وكانت سنته الاخيرة في المدرسة ولم يبق عليه الا أخذ الشهادة فحضر بعد وفاة والدي بعشرين يوم ثم رجع الى المدرسة قبل انتهاء الدعوى لأخذ شهادته فتوجه الى مصر ونال شهادته واستخدم طبيباً في العسكرية ثم نقل الى مستشفى دمياط وكان بمدة استخدامه يرسل قسطه من الدين الذي عليه والذي على اخي المرحوم خليل لانه كان بلا وظيفة واخيراً اهينا كل الديون التي كانت على والدنا وقد أخذت املاكاً بما دفعته زيادة عن اخوتي والباقي اقتسمناهُ .

كل من كان يعرفنا من اعداء واصدقاء كانوا يقولون ان بيتنا قد تلاشى ومن اين لهؤلاء الاولاد ان يأتوا بهكذا مبالغ جسيمة في الجبل ولا بد لهم من بيع املاكهم التي سيأخذها شليطا الذي كان يومئذٍ شهيراً بتلك النواحي نظراً لغناه ولكن تدبير الباري قد رد كيدهم الى نحرهم .

الحية وابن الفلاح

وبعد انتهاء الدعوى اراد عميلنا ان يعيد الاشغال القديمة ونرجع نتعامل فقلت له هذا المثل كان لفلاح سيرة لزرب مواشيه وكانت تسكنها حية فكان يأخذ كل يوم ثلاث بيضات ويطعمها للحية فكانت بعد ذلك تبصق له من فمها ذهباً وترجع الى وكرها وكان يستمر على هذا الحال بدون ان يخبر أحد في

أحد الايام مرض وقارب الموت فدعى اليه ولده الأكبر وأخبره بسر المسألة وان يلزم كل يوم ان يأخذ الى الحية ما كان يأخذه والده فتوجه الولد في اليوم الثاني وقدم البيضات وقبض الذهب ثم افتكر ان لا بد من ان بطن الحية مملوء من الذهب فالأحسن بعد ما تأكل البيضات وترجع اضربها واقتلها واستخرج المال من بطنها فاستحضر على عصا واخفاها وراء ظهره فبعد رجوع الحية الى مركزها ضربها فأصاب ذنبها فانقطع فرجعت اليه ولذعته في عقبه ورجعت الى محلها فتسمم الرجل ومات وكان الأب رجع الى صحته فبعدما دفن ولده أخذ البيضات مثل العادة واتى الى الحية ودعاها الى الخروج فأبرزت رأسها من الوكر وشاهدت الأب راجعاً الى عمليته الاولى فقالت له انتهت كل معاملة مع بعضنا لفقد الأمنية فما بيننا فأنا لا يمكنني انسى قطع ذنبي ولا انت يمكنك تنسى موت ابنك فودعته وذهبت وهكذا نحن يا صاحبي وكان هذا آخر ميعادنا .

(انتهاء عميلنا) قد قيل لا تقاص من كان مرتكباً عن يدك لان استمراره على الارتكاب لا بد ان يجعل من يقوم عليه ويهلكه فان الذي اجراه عميلنا معنا جرَّأه على ان يستعمل هذه الطريقة مع الغير ولما تنبهوا الى امره صدروا الدعاوى عليه حتى انهُ نظراً لكثرتها اضطر ان يعطل شغله ولم يعد يجلس في مخزنه فخسرت تجارتهُ ولكثرة مصاريف الدعاوى انهمك جسمه الذي كان لينفاوياً صفراوياً ولم يمكنهُ احتمال هذه المشاق فمرض وتوفي مخلفاً اطفالاً صغاراً وأرملة جاهلة لا تدرك شيئاً وكان باقياً له ديون عند كثيرين في الجبل ارادوا اختلاسها فساعدتهم مع المرحوم اخي خليل وحصلنا لهم مايتين وخمسين الفاً وكانت الدراهم التي تتحصل تودع عند الأم لأنها وصية اولادها لكنها كانت تبذر المال ثم قامت الدعاوى بينها وبين اخوتها لوراثة والدها وكان الجميع يساعدونها اما الان فقد تزوجت ثانية وتركت اولادها وذهبت مع زوجها الى امريكا .

وبعد وفاة عميلنا حصلنا لهُ كل ديونه ما عدا الذي كان لهُ عند قريبنا الذي القى الفساد بيننا وبينهُ ودربهُ على تلك التزويرات ولما سقط وسقطت عائلتهُ لم يلتفت اليه بشيء وطالبهُ صهره بالمبلغ المديون وهو ستون الفاً أجابه وقد كنت حاضراً اني لا أسلم هذا المبلغ الا للأولاد واخيراً توفي وكاد الأولاد يموتون من جوعهم ولم ينلهم منهُ شيء أما نحن فنشكر فضل قريبنا الذي سعى بضررنا وخرابنا ولكن سعايتهُ عادت علينا بالنفع اذ انتبهنا لعميلنا الذي كنا نأتمنه ونستسهل الاستدانة منه حتى كدنا نصل الى الخراب ولكن تيقظنا واجتهادنا بسداد ما علينا دعانا الى كشف الستار لذلك صادقت قريبنا المذكور وصرت اخدمه في اشغاله ولما توفي لم ير غيري مدة مرضه اما الشهود الذين شهدوا على والدي فقد ألمت بهم مصائب جمة وكنت اساعدهم وقد لامني بعض الناس على ذلك فأجبتهم ان الله انتقم لي منهم عني اذا وصلهم الى هذه الحال ومهما كان انتقامي شديداً لا يوازي انتقام الله منهم .

ان هذه القصة تعلمنا ان لا نسلم ذاتنا لأحد بل يلزم التدقيق في الحسابات ويجري النظام والقانون في كل اعمالنا ولو شغلنا مع اخوتنا لاننا نرتاح اذا حصل اختلاف بيننا الذي لأجله وجدت الحكومة فكما ان

حادثتي السرقة ومحي الدين نبهتا فكري للبحث عن الدين كذلك نبهت هذه الحادثة فكري الى الحكومة وابتدأت اعمل مقابلتها مع جسمنا الذي هو محكة وهذه المقابلة هي :

ضرورة السياسة للهيئة الاجتماعية

السياسة هي أول ضروريات الهيئة الاجتماعية وعليها مدار الترتيب والنظام الاجتماعي ويستحيل الاستغناء عنها لان شهوات الافراد واطماعهم تجعل الاختلاف دائماً بينهم فوجب والحالة هذه حصرهم بحدود وشكيمة هي القوانين التي اساسها الاستقامة اي اعطاء كل ذي حق حقهُ ولما تكونت هذه الشريعة وجب لها اناس مخصوصون يديرون حركتها ويسيرون بموجبها وهؤلاء هم الساسة ولا توجد جمعية قط بدون قانون او ناموس وكل ما اشترك اثنان او أكثر بعمل فلا بد من نظام يتفق عليه قبل مباشرة العمل ويجب ان يكون النظام موافقاً صالح الفريقين نافعاً لها ومتى نفع النظام فقد وافق العقل الذي هو اساس الشرائع التي تقسم الى قسمين الواحد يتعلق بحقوق الافراد بين بعضهم وهو المهم والثاني يتعلق بحقوق الهيئة عموماً مع هيئة أخرى وهذا هو القسم السياسي اذ دائماً يفضل الصالح العام على الخاص ولأجل تنفيذ هذه الأمور كلها وجب ان يديرها فئة مخصوصة يرأسها شخص تعطى له السلطة ومن مساعدين له في اجرائها وحيث ان هؤلاء يتجردون لخدمة العموم وجب ان تخصص لهم الرواتب اللائقة بوظائفهم وان يودع المال العام تحت ادارتهم وان ينتخب مدير لهذا المال واذا حكموا بالحق وحكموا الفريق دون آخر واراد العصيان وجب قوة لردعه تكون خاضعة لهم لتنفيذ اوامرهم ومنع كل تعدي على الافراد او العموم فأنظر ترتيب الخالق لمخلوقاته فانهُ اسس كل هيئة على هذا القانون وهو ما يثبت ان الطبيعة صنعة عاقل اذ ميزت كل واحد بشيء فالواحد قوي والثاني ضعيف كبير وصغير ليتم النظام اذ لو وجد شخصان متعادلان ورفض احدهما الطاعة للاخر وحدث اضطراب في الجمعية لخربت لذلك قد حصر الباري السلطة بيد واحد . قرأت بعلم الفلك ان الشمس هي ام الكائنات وبواسطتها يتكون عالمنا الشمس ونتعلم كيف تدور النجوم السيارة حولها وكيف هي منجذبة اليها وتدور حولها على نواميس وقوانين لا تتغير وكيف ان النجوم الثابتة لها قوانين ولكل منهم سير مثل شمسنا وهو مملكة اخرى ولو فرضنا ان المريخ اراد عصيان الشمس وعدم الدوران حولها او عدم الانجذاب اليها فيتحرك حركة غير قانونية او يسير سيراً معوجاً افلا يخرب الكون الشمس .

وأعظم برهان نقدمه لو مشت النظامات السياسية عليه لكانت ثابتة ابداً وهو الترتيب الذي وضعهُ الباري في خلقه الانسان تأمل هذه الهيئة السياسية كيف تجري احكامها وترتيبها وانظر الاعضاء كيف تتمم وظائفها على ما ينبغي وتجري لغاية واحدة وهي حفظ الحياة ومتى غير عضو منها سيره الطبيعي مرض او مرضت الاعضاء الاخرى وكانت النتيجة عكس الغاية وهي الموت .

أما لأجل قيام الحياة فيلزم جهاز مخصوص مكون من اعضاء لكل منها قانون مخصوص ولنقابل الان بين اعضاء الجسم واعضاء الهيئة الاجتماعية فنقول .

المقابلة بين الحكومة والجسم

لأجل هذه المقابلة يجب ان نعرف الاعضاء التي تتألف منها الحكومة وهي :

من الحكومة	مقابلاً	من الجسم
اولاً الملك	مقابلاً	الرأس
ثانياً الوزير الأول او صدر الوزراء		الرئة
ثالثاً وزير المالية		القلب
رابعاً الخزينة		المعدة
خامساً الدرهم		الدم
سادساً العسكرية		الاطراف
سابعاً السفراء		الحواس
ثامناً الولاة		الاعصاب
تاسعاً المفسدون في المملكة		الافرازات
النتيجة منهم جميعاً العدل		الحياة

ولنفحص كل عضو من الجسم ووظيفته ووظيفة كل عضو من الحكومة ولنرى قبل كل ذلك هل السياسة ضرورية للهيئة الاجتماعية .

(الرأس) هو أعلى الاعضاء مركزاً تحيطهُ الحصون من كل ناحية فالشعر يقيه الحر والبرد وله علبة مخصوصة موضوعة في الاعلى تمنع عنه الصدمات الخارجية ولوكان الرأس محل القدمين لتعرض كل ساعة لصدمة بالأرض وله بجوانب اطرافه العليا خفراء تتقي عنه العوارض فلأي سبب نرى هذا التحفظ الكلي للرأس بخلاف الاعضا الاخرى : الجواب لان الرأس وظيفته مهمة جداً وعليه مدار الحياة وهو يدير الجسم ويحركه بأمره لأجل نفعه لانه مركز العقل ويميز النافع من الضار وحيث ان جمعية الاعضاء عرفت فضله وان كل اوامره آئلة لنفعها اطاعته فهو يشعر بكل ما يحتاج اليه باقي الاعضاء ومتى وجد عضواً في خطر يأمر باقي الاعضاء بالمحاماة عنه وانقاذه من الخطر مثلاً لو مست القدم ناراً واحترقت يشعر الرأس بذلك سريعاً فيأمر باقي الجسم بالابتعاد عنها فترجع القدم عن النار وتطيعه الاعضاء لانه يشفق عليها ويدافع عن حياتها ولو شعر باحتياج الاعضاء الى غذاء يأمر القلب موزع الدم بارسال القدر الكافي لكل عضو فهو لا يميز الواحد عن الآخر ويعطي كلاً حسب اهميته ويساوي بينها فيأخذ العضو ما خصه حسب عمله . ولو شعر ان المعدة فارغة يأمر الاعضاء كالاطراف وخلافها ان تذهب وتسعى لجلب الغذاء . ولو أحس بشيء نافع او مضر يجهز باقي الاعضاء لرفع الضرر وجلب النفع النتيجة ان الرأس يعرف كل شيء وهو عامل على سد احتياجات كل عضو وهو مربوط بالجميع ولو بعيداً عنها بواسطة الاعصاب المتصلة به

فهو هو كل شيء وجميع الاعضاء تحت امرته لا يفعلون شيئاً بلا ارادته يجلب النفع لاعضاء الجمعية ويرفع المضر عنها يقظاً عليها شفيقاً رؤوفاً والحياة متعلقة به كما ان حياته متعلقة بباقي الاعضاء ولو خرج عضو عن وظيفته يضر نفسه والجمعية والرأس .

(الملك) وظيفة الملك الحقيقية هي وظيفة الرأس فانه اعلى الجميع ومحاط بتحفظات قائمة لخدمته كالرأس فالاحتجاب والخفراء والحراس لازم له ووظيفته ملاحظة كل أمور المملكة ليعرف احتياجها ويعمل الجهد الكلي لرفع الضرر عنها وجلب النافع لها وان يحامي عن كل عضو اوكل فرد من تبعته ويلاحظ جميع المأمورين في اشغالهم حتى اذا اخل احد بوظيفته يطرده لان وجوده يضر بالهيئة وبالملك وان يجعل الصلات بينه وبين شعبه بواسطة المأمورين فيعرف منهم حقيقة احوال ملكه .

(الرئة) هي العضو الثاني في الأهمية بعد الرأس وبها يتنقى الدم ويدخل الهواء من الخارج الى الجسم وهي عضو الصوت ووظيفتها مهمة جداً ولذا وجدت في الصدر محاطة بقفص عظمي من ناحية لأجل حمايتها وبجانبها الاطراف العليا لتقيها وتحامي عنها وهي اقرب الاعضاء الى الرأس ووظيفتها مهمة جداً اذ بتنقية الدم تصطلح جميع الاعضاء فيدخل النافع الى الجسم ويطرد المضر اما اذا فسدت فتضر الجسم بل تودي بحياته .

(الصدر الاعظم) له الوظيفة المهمة بعد الملك فانهُ يصلح احوال المملكة الداخلية ويدخل اليها كل شيء نافع لبلاده فاذا فسد وادخل اشياء مضرة يضر بمملكته كالرئة التي عوض ما تدخل الهواء النقي الى الجسم تدخل اليه هواءً مملوءاً بالابخرة المضرة فضررها يكون عظيماً لأنهُ كل ما زادت اهمية الوظيفة زاد نفعها او ضررها .

(القلب) وظيفته توزيع الدم الى كل الاعضاء واستقبال الدم الوارد منها فله دورتان يستقبل لكي يصلح ومتى أصلح يوزع ويكون توزيعه بامر الرأس الذي يرسل اليه العصب الرئوي المعدي فيحركه دائماً ويفرق الدم على الاعضاء حسب حاجتها فان نقص او زاد تختل الميزانية ويتلف العضو ويحافظ عليه كمحافظة الرئة لأن اهميته عظيمة .

(وزير المالية) عليه ان يوزع المال الذي هو عبارة عن الدم الى جميع الاعضاء بأمر الملك حسب احتياجهم ويصلح المالية .

(المعدة) هي الخزينة لأنها تقتبل كل شيء داخل اليها من الخارج وتعده ليصلح للغذاء وترسله الى القلب الذي هو وزير المالية وتحيل الداخل اليها الى واحد فان قل الغذاء فقدت الاعضاء حياتها كما انه اذا فرغت الخزينة من المالية فلا تكفي مصاريف موظفيها .

(الاعصاب) هي التي تتصل من الرأس بالجسم وظيفتها ادارة العضو الواصلة اليه فتخبر عن حاجاته ولوازم الرأس وتنفذ اوامره بتحريكها وتهيئتها للعمل وهي اعظم شبيه للولاة وترافق دائماً الشرايين والاوردة التي تحمل الدم من القلب واليه وتشابه الشرايين والاوردة مديري الاموال بالجهات والاعصاب تحكم الاجزاء فلو اهملت لعدم صلاحيتها او مرضها فتتلف ومتى قطع اتصالها فلا توصل الحاجيات الى المركز وتموت .

(الولاة) هم بالحقيقة الاعصاب فانهم يخضعون لاوامر الملك وسلطته فلا يعينون الا بامره وبواسطتهم يعرف احوال رعيته لانهم يوصلون احوال الاعضاء ويرافقون وزير المالية فيجمعون المال ويصرفون الرواتب ويقبضون الخراج كما ترافق الاعصاب الشرايين والاوردة فمتى كانت هذه الاعصاب سليمة تقوم بوظائفها في انتظام وان تعطلت او اصابها مرض فسدت كذلك اذا فسد الولاة ولم يعلموا الرئيس بمرض الاعضاء ليتلافاه بالدواء اللازم وكل قسم من الجسم عبارة عن ولاية الوالي فيها بمقام العصب ومأمورو المال بمقام الشريان وكلها عائدة الى المركز الاصلي فواجبات الولاة مهمة جداً الا وهي اخبار المركز الاصلي اي الملك كل ما يلزم للولاية وما هو نافع لها ويحافظون على الذين تحت ادارته فاذا كان الوالي سليماً فهو النافع واعظم مرض للعصب هو تفرقه عن الرأس واعظم خطر يصيب الوالي هو عدم طاعته .

(الاطراف) هي التي تظهر أدنى الاعضاء وهي ذات اهمية عظمى لانها تتمم العمل وبدونها لا يقوم الجسم فهي تحمل ثقله كله كما في الاطراف السفلى وتفتش على الغذاء من الخارج كما في الاطراف العليا وتدافع عن الجسم وعن كل عضو وتمنع كل آفة وتعرض نفسها للخطر لأجل وقايته فالاطراف العليا تشبه الخيالة والسفلى المشاة .

(العسكرية) هي حاملة اتعاب المملكة والمحامية عن حقوقها فتجمع المال من كل ناحية وتفتح البلاد بدمها وترى الاطراف مرتبة بوضعها كترتيب العسكرية ومستعدة دائماً للحرب فالعسكرية مؤلفة من انفار ومن رؤساء وقادة عشرة ومئات والوف وفيها القائد الكبير وكلها تتحرك بأمر الملك والاطراف لها هذ الترتيب ايضاً اذ ترى الاصابع مركبة من السلاميات الصغيرة وتعرضها الدائم للاخطار تراها لابسة درع من الاظافر وهي عبارة عن المدرعين الذين يسيرون امام الجند كالبنطجية وبعد هذه السلاميات الثاني وهي أكبر من الاولى فالثالثة أكبر من الثانية والرابعة أكبر الجميع ثم يأتي المشط وهو عبارة عن أركان حرب يجمعها الرسغ وهو القلعة ثم الضابطان وهما الزند والقصبة والشظية في الساق ثم القائد الكبير وه العضو في الاطراف العليا والفخذ بالسفلى وتتصل اليها جميعها اوامر الملك وهو الرأس بواسطة الاعصاب فترى ان الانفار حين الحرب هي أكثر تعرضاً للخطر وعددها أكثر من الجميع ثم المشط الذي هو أكب وأقل عدداً ثم الساعد فالعضد وهذه الاعضاء التي تشبه العسكرية شبهاً كلياً هي مثلها وظيفة فالقائد الكبير أقرب للملك والوزراء من الانفار ومقامه كمقام وزير وترى الأطراف العلوية والسفلية موضوعا

كالعساكر على حدود المملكة ولها اهمية عظيمة ولكثرتها يعتاض بالواحد عن الآخر بعكس وزير المالية الذي هو واحد فان فسد لا يوجد من يقوم مقامه كالقلب وترى الاطراف موضوعة يمنة ويسرة للمحاماة بواسطة حركاتها فلو انغلبت اليمنة تقوم اليسرى لنصرتها او تخلفها وبالعكس وترى الاصابع تحامي جداً عن العضد كما ان العساكر تحامي عن قائدها لانه متى فقد القائد يتبدد العسكر ولا نرجو الاطراف مكافأة الا ما يصل اليها من الغذاء لحفظ قوتها فهي قنوعة صابرة لا تزاحم احداً .

(الافرازات) هي السوائل غير النافعة للجسم وبوجودها فيه يضر كما تضر المملكة لوجود الاشخاص المفسدين والمقلقين فيها .

وكما ان الاطراف تقنع بالغذاء القليل كذلك العسكرية التي عليها مدار شرف المملكة وحمايتها فتكتفي بغذائها فقط لان ليس لها سلطة الادارة فالقساوة على الاطراف كالقساوة على العساكر لان الاطراف لتعودها مس الارض فيقسو جلدها ويصير قليل الاحساس كالعسكر الذين يعتادون على الشغل والتعب والحر والبرد ولا يجوز لهم الترفه لانه يضرهم فلو رفهت القدم وعودته على الدفا فأدنى تعرض لبرده يضر الرأس واذا مرضت الاطراف كلها هلك الجسد كذلك لو ضعفت العساكر او غلبت فتضعف المملكة فللعسكرية يجب الاهتمام الأول لأنها هي القوة والخادم الحقيقي .

(الحواس) وظائف الحواس اشراك الجسم بالعالم المحيطة به والرأس بالعالم الخارجي فيحكم بما هو نافع لها وما هو مضر فيرفض ويقبل ما يلائمه فلو سمعت الأذن صوتاً توصله الى الرأس فان كان حسناً قبله او كريهاً رفضه وتحذر الجسم من أخطار العالم المحدقة به ولو هجم على الانسان حيوان مفترس يراه بعينه فيقاومه او يتجنبه .

(السفراء) وظائفهم ان يخبروا ملكهم احوال الممالك الاخرى ويعرضون عليه كلما يرونه فيها فيدخل النافع لبلاده ويرفض المضر وكذلك اذا اشهرت عليه مملكة اخرى حرباً فعليه ان يخبره فيقابل القوتين وان رأى ذاته كفوًا لها حارب وبالعكس سلم ويجب ان تكون الحواس خالية العيب لكي تنفع الجسد كله لأنهُ اذا كان الانسان اعمى فيسقط كل يوم في حفرة وكذا السفراء يجب ان يكونوا خالين من العيوب وكم من سفير غش ملكه وطوحه لحرب كان في غنى عنها .

(الدم) هو حياة الجسم وبدونه لا حياة له فهو يغذي الاعضاء ويقويها وينميها وفيه كل المواد النافعة للاعضاء فيسير اليها كلها وكل عضو يأخذ منه كفايته ويحيله الى منافعه الخاصة اولاً ثم الى العامة مثلاً يتجه نحو الكبد فيأخذ منه مقداراً كافياً لغذائه الخصوصي ويحيل قسماً منه الى صفراء التي وظيفتها التغذية العمومية التي يعود نفعها لعموم الاعضاء .

(المال) وظيفته ذات وظيفة الدم للجسم لانه حياة الجميع وبدونه لا تقوم قائمة ومنفعته الخصوصيا
هي كيفية توزيعه على الاعضاء ويلزم ان يأخذ منه كل مأمور حسب وظيفته وعمله في الجمعية وبعد ان
يتناول منه ما هو ضروري لمعاشه يستعمل الزائد عنه للنفع العمومي كما يجب ذلك على الاغنياء وان زاد
الدم في عضو من الهيئة امرضه وان قل اضعفه واذا دخل عليه غش او اجسام غريبة امرضه ومتى مرض
الدم مرضت الاعضاء عموماً .

(غاية وظائف الجسم) المحافظة على حياته ورفاهيته .

(غاية السياسة) المحافظة على كل فرد من الرعية والعدل لانه حياتها .

فينتج من قولنا ان التسوية هي مساواة كل عضو بحقوقه لانه من المعلوم ان الوظائف تختلف عن بعضها
في الأهمية فمنها ما لا تقوم الحياة بدونها وان فقدت هذه فقدت تلك وغيرها ينقص في كمالها غير انها لا
تموت بفقدها فالأول نظير التنفس اذ لا يمكن فقده الا بفقد الحياة ومثل الثاني الحركة فلو فقد طرف من
الاطراف او حاسة من الحواس حركة لا تفقد الحياة بل تخسر كمالها .

فيتضح من هذا ان الوظائف لا تتساوى في أهميتها ويلزم لكل عضو وظيفته يتممها ويجب ان يكون
العضو مجهزاً مركباً بكيفية تجعله لائقاً ومقتدراً ان يقوم بهذه الوظيفة مثلاً حتى يتمكن الرئيس من اصدار
الاوامر يجب ان يكون مركباً ومجهزاً من مواد مخصوصة حتى يتمكن من القيام بهذه المأمورية كذلك القلب
الذي يجب ان يكون بكيفية يتمكن فيها من توزيع الدم كالتجاويف والعضلات القوية لأجل استقبال
الدم ودفعه هكذا كل عضو فأنهُ مؤلف من اجزاء تليق بوظيفته .

فالوظائف مختلفة في الأهمية ولكل عضو وظيفة ويكون مؤلفاً بهيئة تجعله قادراً على اتمام هذه الوظيفة
وكلما كثرت أهمية العضو كان أكثر كمالاً وتركيباً وهذا التفضيل سنة من الخالق ليس من العضو ذاته وليس
من الحكمة ان يتساوى الرأس والقدم لانهما لو تساويا لأختل النظام وخربت الحياة اذ لا يمكن القدم ان
يقوم بواجبات الرأس ولا لهذا ان يخلف ذاك ولكل منهما وظيفة خصوصية يتكافى او يتجازى حسب
ضرورتها وحاجة الحياة اليها وهذا التمييز هو عين العدل مثلاً يجب للرأس بتغذيته خمسون غرام من الدم
وللقدم يلزم عشرة غرامات فيلزم ان يعطى الخمسون غرام من الدم اولاً للرأس اذ بدونه لا تقوم قائمة
للقدم ولذا ترى ان الدم أول ما يتوزع للرأس وتقسم هذه الوظائف كما يأتي :

اولاً : السهر على جميع اعضاء المملكة والبحث عن حقيقة حالهم .
ثانياً : عدم تمييز عضو عن آخر الا بحسب اهميته ووظيفته ونفعه العام .
ثالثاً : جلب النافع الى بلاده وطرد المضر والمحاماة عن كل عضو كمحاماته عن نفسه .

رابعاً : ان يعرف ان كل عضو مهما كان دنيئاً فيلزم لخدمة مملكته .

خامساً : انتقاء المأمورين حسب صفاتهم الحسنة ومعارفهم في الوظيفة التي تجب عليهم خدمتها فلا يعين مهندساً ناظراً للمالية ولا العالم الفاضل قائداً للجند وان يجري عليهم صارم القصاص لو خالفوا اوامره وبالاجمال فيطلب منه كل ما يطلب من أب لأولاده .

(الخلاصة)

السياسة طبيعية في الانسان وهي ضرورية لكل هيئة اجتماعية ولا بد لها من رأس ونظام واساسها الراحة وكما ان الدين يعلمنا عبادة الخالق ومحبة القريب وعدم اضراره فكذلك اساس السياسة الحق واساس الاجتماع المحافظة على الحقوق واساس الاداب المحافظة على الشرف والعناية واحدة وهي المحافظة على الحياة ورفاهيتها .

وأهم ملاحظة ضرورية في الادارة ان لا يعطي الحكم لفاسد اذ ذلك العمل شر ما اوجده الانسان لان الردي اذا حكم استبد وقد نظمت بذلك شعراً يوجد في قصيدة قدمتها للامير سليم منصور شهاب .

معلوم ان العجز وحده يخفي اللؤم ولو حكم لئيم لقطع شكيمته وداس الجميع وهذا ما يجب الانتباه اليه ولمعرفة اللئيم يجب ان يسأل عن اسبقياته وتصرفاته مع الذين هم أدنى منه خصوصاً من هم من أهل بيته فان رأيت اصدقاءه كثيرين فهذا دليل على جوده وكل ما كثر المشتكون من امريء وقل مادحوه فهو علامة اللؤم .

وحيث اننا تكلمنا عن الواجبات التي على الانسان مراعاتها والوصايا الدينية التي عليه حفظها فنتكلم الان عن واجبات سلوكه وتصرفه مع الافراد .

(السلوك)

اذا شئت ان تعرف كيف يرضى عنك من هو أعلى منك فقارن بين ما يرضيك مِن مَن هو دونك وسر بموجبه . يرضى الانسان من خادمه لطاعته وامتثال اوامره وخلوصه وامانته وآدابه كل ما تقرب اليه لا يطمع بمعروف بل دائماً يحفظ معروفه ويذب عن صالحه ويغار عليه ويدافع عنه جهده ويخدمه بكل شرف غير مائل الى الدناءة .

هكذا فليفعل الانسان مع من هو اعلى منهُ .

كيفية اختيار الاصدقاء

لا يظن الانسان ان كل من يبش بوجهه خصوصاً اذا كان محتاجاً اليه يكون صديقاً له فلربما صناعته توجب بشاشة الناس اليه ولربما فعل ذلك البعض هذا الامر استخداماً لهم مجاناً والبعض لقضاء اغراضهم وأقل من القليل من كان ذا محبة خالصة .

فالصاحب الحقيقي من يريد منفعة صديقه يسعى له بها ويحامي عنه بغيابه كحين حضوره ويجب على كل انسان ان يحافظ على هذا المبدأ : اذا اردت ان تتخذ صديقاً كن له صاحباً : ابدأ بالمعروف مع أي كان واستعمل الانسانية مع كل فرد من الناس ومن صنعت معهُ معروفاً ولم يكافئك عليه حين اللزوم متى كان قادراً عليه فلا تعيد معه معروفك ومن جازاك بالاساءة بدل الخير فاتركه لأنه الردي الذي اخبرتك عنه احترس منه ودافع عن نفسك جهدك ولا تدعه يتسلط عليك قط اذ يستطيع ضررك ولا يمكنك ان تناله بسوء . هذا هو الصالح العام الذي يفضل على الخاص واذا كان قد قيل اتق شر من أحسنت اليه فلا بد لهذا الغادر من السقوط يوماً ما .

من جازاك معروفاً بمعروف او باداك به فكرس لخدمته نفسك وكن له عبداً ولا تتأخر عنه اذ تلقاه في مثل هذه الظروف اذا احتجت اليه .

كل انسان يستطيع ان يفعل الخير المجرد بدون ان يمسه ضرر او يطلب مكافأة على معروفه فوق القدرة .

لا ترجو من انسان مساعدة هو محتاج لها .

خير المعروف ما صنع وقت الحاجة فلو رأيت ظمآناً بغاية الضيق وبردة لظاه بجرعة ماء او محتاجاً بغا الفاقه وانجدته او مريضاً مدنفاً وعدته وشفيته فهذا هو المعروف الحقيقي الاعظم ولذا قيل خير المعروف نجد الملهوف .

لا تتخذ لك صديقاً لغاية مالية لان المال فانٍ لا يعتمد عليه . اعتبر صاحب الفضيلة لا صاحب الما لان الغني المجرد عن الفضيلة والمنفعة لا اعتبار له ولا صاحبه بصاحب حقيقي .

اياك ثم اياك ان ترجو صداقة بخيل لانه يؤثر المال عليك ومتى رأى ان صداقتك ستخسره يستغ عنك ولو شعر ان خيانتك تكسبه مالاً لا يتأخر عن اجرائها لان المال الهه فالبخيل لا زمام ولا مرؤة و وداد له فكيف ترجو صداقته . من طبع البخيل الردآة وقساوة القلب يفضل الدرهم على كل شيء

تتأمل منه امراً ولا ترجو منه خيراً واذا لاطفك او أكرمك بالقول والبشاشة فما قصده الا الكسب منك ولو جاد عليك بأقل الاشياء يحسبها نعمة عظمى فلا تخلص من جميله الى الأبد لهذا يجب على الانسان ان يرفض منهُ كل شيء ويبعد عنه قدر الامكان اما الكريم فانهُ يحتقر المال محافظة على شرفه وسمعته ويكون ذا مروّة وحماسة ويحب صديقه ويعتبره ويصرف ماله لأجل اكتسابه فالكرم والبخل سجيتان في الانسان . اخدم الكريم بلا عوض وعامله بعمله ولا تندم على الاحسان اليه اذ يأتي يوم يقابلك فيه بالمثل وأبذل جهدك على تحبيب صفاته الممدوحة اليه .

ان رأيت عيباً في صاحب وكان عيبه غير مضر سامحه لانك لا تخلو من العيوب وقد قال المثل من طلب صديقاً بلا عيب عاش بلا صديق .

سامح صديقك بهفواته ولا تبعد عنه الا اذا رأيته تعمد ضررك ولا تتمادى بالمزاح معه الى درجة رفع التكليف بينكما اذ يأتي يوم تتبدل عليكما الايام فادنى مزاح عندئذٍ يزعجه بل يكدره منك فتبعد عنه ويكون المزاح سبب انفصالكما .

استعلم دائماً عن سيرة الذين تريد معاشرتهم وانظر تصرفاتهم مع سواك هل هم ثابتون على الود ام متقلبون وراقب سيرهم مع أهلهم فان رأيت بهم لهفة على ذويهم فتلك علامة حسنة فعاشرهم والا فاجتنبهم لان معاملتهم اذا كانت بهذه الصفة مع العود الاخضر فكيف تكون مع اليابس .

احترس من اشقر اللون النحيف الجسم ذي الوجه المتجعد العبوس الطي يضحك قهراً عنه .

احترس من من يكون بحالة واحدة مع صديقه وعدوه فهو ذو مقدرة على اخفاء احساساته فاجتنبه .

احترس من من يصادق خصمين متباعدين جداً ويظهر المودة لكل منهما فيذم الغائب ويمدح الحاضر .

احترس من الذي يدعي صداقة الجميع او يسلك مسلكاً واحداً مع عدوه وصديقه فانهُ خبيث يكمن الغيظ لحين القوة .

صادق حاد الطباع والافكار الذي تظهر عليه علامات الكدر والفرح فانه لا يغشك .

لا تصدق بسرعة من كان محتاجاً .

البشاشة علامة القلب الجيد .

لا تصدق الرجل الذي يحلف بكثرة ولا الامرأة التي تبكي بسرعة .

ابتعد عن الذي يمدح عدوه وصديقه الفاضل والرذيل اذ من واجبات الصديق ان يتكلم بصراحة لان الصديق مشتق من الصدق فصديقك من صدق معك .

ابتعد عن كل من يأتيك بدنآة وقت ضيقه وينكرك حين يستغني عنك .

كل من يغير سلوكه مع صديقه وفقاً لاحواله الدنيوية فهو دني .

لا تخجل من من لا يخجل منك المعروف هو الجوهر الكشاف للرجال من أثر فيه كان عظيماً ومن لم يؤثر فيه كان دنياً ردياً .

لا تضر احداً لان الضرر عداوة لا تمحى يعود اذاها عليك او على نسلك .

صاحب المتكبرنه لا شريف النفس اشفق على الشخص قدر شفقته على حاله وكذب الشخص يبعد الشفقة عليه .

ابتعد عن الذي لا يفرق اهانته من اعتباره لانهُ دني من مدحك بما ليس فيك ذمك بما ليس فيك .

اذكر لصديقك بعض نوادر توجب له الحماسة للشفقة فان تأثر منها صادقه والا فابتعد عنهُ لأنه لا ينفع لا تطلب زيادة عما تستحق من الاكرام .

ذو الوجه الاصفر النحيف العابس الساكت يكون حسوداً ردياً وأعظم ردي من يغمض عينيه عند الكلام معه .

اعتبر اعمال اصدقائك فقط ولا تعتمد على التمليق والكلام ولا تخدعك الظواهر .

لا يمكن الصداقة بين الارزال ولا الأمنية بينهم فهل سارق يدع ماله امانة عند سارق آخر ولو سرقوا سوية .

كيفية السير مع من هم أدنى منك

أرفق وأرحم وسامح ولا توبخ الا حين اللزوم . ولا تسامح الا اول مرة متى تحققت الغدر .

الظلم يعطي جسارة للمظلوم .

أظهر الغيرة والمرؤة والمساعدة لمن هم أدنى منك فتكتسب مودتهم ويعتبرونك .

لا تعادي من هو أصغر منك لأنك بعداوتك له تجعله نظيرك وترفعه بصداقتك له تجعله اصغر منك فانه يطيعك .

اذا ظلمت احداً لا يهابك فيما بعد وينقلب مدحه الى قدح . اذا لم تنفع فتبقى مرذولاً اعدل اذ لو تحزبت بحكمك لفريق زوراً فتخسر الفريق الآخر احترس منهم اذ تبقى ابداً عرضة لغشهم اذا شئت ان تترأس على فيئة اصرف عليهم فاذا كنت في قهوة مع جماعة ودفعت عن الجميع صار الجميع أقل منك اعتباراً ولو كان فيهم من هو أكبر .

اذا شئت ان تكتسب محبة ومجداً ومنزلة ونفوذاً واعتباراً كن كريماً ودوداً متصعاً .

لا تتكل على شرف محتدك نعم ان ذلك ليساعدك لو اقتديت باحدادك فانه يرفعك بأعين غيرك وتكون اهلاً للتقدم والعكس بالعكس ولا يبنى الحكم على الشخص الا حسب تصرفاته الشخصية وقد نظمت بعض ابيات بهذا الشأن تراها في قصيدتي للأمير سليم منصور شهاب .

(واجبات الطبيب نحو صنعته)

أخدم صنعتك تخدمك واعلم انه يجب ان تكرمها بعد الله ووالديك لانها سبب معاشك فلا تهنها واجعل تصرفك لائقاً بمقامها ولا تغش احداً ولا تكذب ابداً اخبر المريض الذي تداويه ما يطمنه وعرف اهله الحقيقة ولو قاسيت ليبقى شرفك ومهارتك محفوظين عندهم .

اتقن صنعتك قبل كل شيء اذ اعظم اهانة تلحقك اذا دعيت جاهلاً مارسها دائماً وتعلم ما يتجدد فيها اذ لو اتكلت على ما تعلمته في المدرسة فبعد مدة تراه اضحى قديماً فتتأخر .

عين وقتاً للدرس يومياً ولا تدعه يذهب سدى مارس ما تعلمته واجعل التجارب استاذك لا تمزح بصناعتك واجعل لها مقاماً لائقاً بها ولا تدع لاصحابك مجالاً ان يمزحوا معك بشأنها .

اشفق على المريض وشاركه باحساساته لانه اذا رآك لم تتأثر لمصابه تقل ثقته بك فنشطه وعزه لان صنعتك انسانية محضة ولها المحل الأعلى بين العلوم والصنائع .

لا يغرك المال وافتكر بالمريض الذي تعالجه وشفاءه قبل كل شيء ومتى عالجت اجتهد بشفائه ولو كنت

غير ماجور اذ كلما كثر الشفاء بواسطتك زاد طالبوك فتشتهر وبشهرتك تكسب الغنى ولا تحسب ان الغش يربحك اذ يأتي وقت يظهر غشك وتخسر عملك لأن المريض اذا شفي بواسطتك وعرف نصحك له فتكسب صداقته الدائمة اما اذا رآك غششته فيبعد عنك ولو كان اخوك .

لا تعتمد على اصحابك ونفعهم لك بصناعتك لأن الصديق لا يؤثرك على ذاته فلو مرض واعتقد بك عدم الكفآة لا يدعوك لمداواته لانه يخاف على حياته وبالعكس متى اعتقد بمهارتك فان عدوك يطلبك ويتذلل اليك ولا صداقة في الطب .

صديقك الحقيقي هو مهارتك في صنعتك فلا تمل من الشغل ولا ترجو الشهرة سريعاً فانها لا تنال الا بالعمل والتجارب التي يقتضي لها زمن طويل اذ قد لا يوجد مرضى تداويهم ويستحيل عليك معالجة مرضى المدينة بيوم واحد ولا تتصل اليها الا مع الزمن ومهارة الطبيب اعتقاد المريض به .

صناعة الطب لا تحيي من الموت فلو مرض الطبيب لا يمكنه دائماً ان يشفي ذاته ولكن عليه ان يخرج من المعارك فائزاً . افحص مريضك واعرف مرضه واخبر اهله كل اعراضه واستشر الاطباء امثالك حتى لا يلومك احد ولا يعود عليك ضميرك بالتوبيخ . اعتن بمريضك لأنك اذا لم تعتن به او اهملته ولم تسمع شكواه قلت ثقته بك ورفضك .

اخدم الفقير كالغني بل اعتن بالفقير زيادة لانه يزيد شهرتك ولكثرة الفقراء تؤمل منهم الكسب زيادة لان الكثرة تغلب الشجاعة . الفقير يعتبرك ويعتبر صنعتك ويفيك حقك قدر امكانه اما الغني فيظن انه قلدك جميلاً لو دعاك لمعالجته ويعتبرك ادنى منه مقاماً . اظهر ميلاً للفقراء تنال الاجر من الله والثناء من الناس والاعتبار والمكسب منهم .

لا تأمن من نكران جميل المريض بعد شفائه لانه يعد كثيراً ويفي قليلاً كالعشرة البرص الذين شفاهم المسيح ولم يرجع لشكره الا واحد منهم .

ليست صنعتك للمكسب او المال فقط بل لخدمة الانسانية لذا ترى الحكومة تعضد الاطبا وتستخدمهم كالجند لمنافعهم والقيام بمعاشهم لان الطبيب يداوي مائة مريض مجاناً وخمسة باجرة . والطبيب هو رجل الانسانية الذي يحب قريبه وهو الذي جعله المسيح مثلاً لمحبة القريب وكرم الاخلاق في مثل الرجل المسافر الى اريحا .

سامح قدر الامكان واخرج مع من تداويه على سلام ولا تدقق في الحساب معه ما لم يعتد على صناعتك وبالاجمال كن انساناً قبل ان تكن طبيباً لان الانسانية خير من الطب .

اذا استخدمت في الحكومة فاطع رئيسك واستشره ولا تعمل عملاً الا برأيه وان احسنت صنعاً بأمر فاظهر ان الفضل عائد له وانك تستفيد منه ولو كان دونك في المعارف . كن اديباً معه وأكرمه فبهذه الواسطة تتقدم ولا تعود تخشى من تقدمك لانه اذا كان حسوداً وأقوى منك يضرك ويبعدك عن مركزك خوفاً من ان تفوقه وتخلفه فيما بعد ولا يمكنك مقاومته اما اذا سرت معه بالحسنى فانك تستفيد منه علماً لو كان أعلم منك ويحبك كولده وتتقدم عنده ولو عملت على مضادته او اظهار جهله وعدم اعتباره فيلحقك الضرر ولا تنتفع شيئاً خصوصاً متى كان شهيراً . بالاختصار أكرم رئيسك ولو كان حماراً .

أكتم مهارتك لانها بهكذا ظروف وهكذا مصالح تضر بك وهذا ما يدلنا على تقدم بعض الجهال على اساتذتهم لان الجاهل يظهر لرئيسه اعتباراً واتضاعاً فلا يخشاه ويعرف انه ادنى منه معارفاً فلا يخشى تقدمه اما الذي لا يخفي افكاره ومهارته فان رئيسه يمنعهُ من التقدم ويخشى دائماً منه ولذا تراه يتأخر هذا اذا كان الرئيس درياً حسوداً اما اذا كان منصفاً فأظهر له مهارتك واطعه دائماً فانهُ يعتبرك في الباطن ويقدمك في كل مصالحك وتصرفك لأجل النفع العام فأجعل دائماً تصرفك موافقاً لاحوال رئيسك ومطامعه .

أكرم السيدات قبل كل شيء لان عليهن مدار المنزل والامرأة هي المؤثر الوحيد بانتخاب الطبيب فلو مرض الولد فهي التي تقوم بخدمته وتعتني به ولها الحق بانتخاب الطبيب الذي تريده مهما عاند زوجها برفضه فانها تعرف كيف تقنعه ولو مرض زوجها فهي تتسلط عليه بسبب ضعفه وقتئذٍ وتختار الطبيب الذي تريده كذلك اذا مرضت فالامرأة لا تلتفت الا الى الذي يكرمها ويعتني بها ويجاوبها على كل اسئلتها ويريح افكارها التي تكون مضطربة وقتئذٍ وهي التي تقابل الطبيب وكل شغله يكون معها وأكره شيء عندها عدم اعتناء الطبيب بكلامها لذلك يجب عليه ان يظهر لها الانتباه الكلي ويخبرها حالة المريض بتمامها ويهتم بما تقوله له لان المرأة متى كانت منتبهة للمريض تساعد الطبيب كثيراً لانها نظراً لحبها زوجها او ولدها تلاحظ ادنى حركاته او أقل تعب يطرأ عليه ومتى اخبرت الطبيب به يتنبه للمرض وسيره ويكتشف الادوية الجديدة فيلزم ان يشكرها دائماً على ملاحظاتها ويطمن لها افكارها جهد استطاعته هذه نصايح مستعملة لأن الحد الان رأينا كلما كتب لا يعمل به وكلما يعمل به لا يكتب فهذه متوسطة بين الاثنين .

(ولادة أولادي يوسف وحسيب)

في ٢٧ آذار سنة ١٨٨٢ عندما كنت في بكاسين بزيارة طبية حظر لعندي رشيد يبشرني ان امرأتي ولدت توماً ذكوراً فتكدرت من هذا الخبر لعلمي ان التوم لا يعيش الا نادراً لان لا بد ان يكون أحدهما ضعيفاً وهو على العموم الذي يولد اولاً ولكن ما الحيلة فبادرت حالاً بارسال مرضعتين من بكاسين لهما ورجعت الى بيروت .

سليم منصور الشهابي

ان هذا الصديق من أجل الامراء الشهابيين وهو الامير سليم منصور بن الامير حسن الامير بن الامير علي بن الامير حيدر جد الشهابيين في لبنان ومتصل نسبه مثل باقي الشهابيين باشرف نسب واثباتاً لهذا النسب تثبت ما قاله أحدهم الامير عامر شهاب الازرعي بالنسبة الى مدينة ازرع في حوران الذي حارب القرامطة في حوران منعهم عن دخول الشام وكسرهم بخمسة عشر الف فارس وكانوا أكثر من ثلاثين الفاً وعند ذلك نظم القصيدة الآتية سنة ٢٢٥ هجرية فيكون لها ١١٠٠ سنة فهي من اعظم القصايد واليكما :

قصيدة الامير عامر شهاب الازرعي سنة ٢٢٥ هجرية :

هزُّ الرشاقِ أمـــــام السادة النجب ... أحب لي من عنـاق الغيـد بـالحجبِ
وشرب كـأس المنـايـا في عجـاج وغيٍ ... الـــذ لي من كؤوس العيب بـالهربِ
مـــا همتي بجفون الغيـــد ذابلـــةً ... بـل همـتي في شؤون الـذيـل اللببِ
وليس للمرء عزٌ في مراتبــــــهِ ... ان لم يروّ ظما المنـــديــة القضبِ
عــاهــدت بيض الظبـى اني اجرعهـا ... منــاهلاً من دم الاعنـــاق واللببِ
اني امروءً لست من قوم اذا اقتتلوا ... رأوا الهزيمة منجـــــاة من العطبِ
قومي ذوي الشرف السامي قريش وقـــد ... نسبت من آل مخزوم فيـــا نسبي
سموت بـــالحارث المقــدام نعم فتى ... ومـــالك ثم سعـــدٍ خير منتسبِ
وقـــاسم وشهـــاب طـــاب مجدهم ... وسايـل العرب عن جـدي النبي وأبي
قوم حلا لهمُ المعروف في سلم ... والصدق في كلم والفتك في حربِ
هم الصدور اذا حلو الصدور وهم ... اسد العجـــاج وأهــل المنزل الرحبِ
مـــا حـــلَّ عزمهم المشدود موتهم ... تحت الرمـــاح العوالى عن علا الرتبِ
سل الرمـــاح اذا لاعبتهـــا بيـــدي ... كم قصور عفرت خـــديـــه بـــالتربِ
وسائـــل البيض في يـــدي وكم هتكت ... فروج ليثٍ بخـــدر الـــدلص محتجبِ
بني شهـــــاب لكم مني فتى اسداً ... يرى رشاق القنـــــا برءًا من العطبِ
بني شهـــــاب لكم مني اسداً ... يـرى صليـل الظبـى ضرباً من الطربِ
بني شهـــــاب لكم مني فتى اسداً ... يرى قراع العـــدا نوعـــاً من اللعبِ
بني شهـــــاب لكم مني فتى اسداً ... يرى ضرام الوغى برداً لـــــذي لهبِ
بني شهـــــاب لكم مني فتى اسداً ... يرى شراب الـــدمـــا اشهر من الحببِ
بني شهـــــاب لكم مني فتى اسداً ... يفني الكتـــــايب بين الكرّ والطلبِ
وان لي منكم اسداً اذا حملوا ... خلت الجبـــــال انثنت كراً على الهضبِ

من كـــل ادرع تحت الـــدرع تحسبـــه بـــــــدراً تقمص في ثوبٍ من السحبِ
ان هــزَّ في مفــرق الاعــــــداء اسمره تفرقوا وغــــدوا بـــالـــــذلّ والرعبِ
وسل لاعـــدائنــــا ان قـــال قـــايلنـــا هـــذي العـداة فجـدوا يـا ذوي الحسبِ
تلقى الخوارج من آل الشهـــــاب كما تلقى العفــاريت رجمــاً من لظى شهبِ
فجـــاهـــدوا يـــا بني الاعمام ان لكم عزاً تسامى على الاعجـــــام والعربِ
تمسكوا بحبـــــــال الله واعتصموا فمن يكون واثقـــــاً بـــالله لم يخبِ

هذا هو من اجداد الامير سليم الذي هو حفيد الامير بشير الشهابي الكبير من جهة والدته السيدة نور وقد تربى تربية حسنة في المدارس الياسوعية في غزير دخلها بسن عشرة سنوات لان والده توفي وهو بسن ٨ سنوات والتهى بالشغل من الصغر ودخل في البنك العثماني سنة ١٨٦٦ وهو الان رئيس دايرة الصندوق منذ ١٨٧٥ وفضلاً عن أصله الشريف فهو من أصدق الشبان وأظرفهم وأكرمهم خلقاً صاحب ذمام ولطف لا يوصف محبوب من الجميع كامل المرؤة لا عيب فيه نحو اصدقائه وهذا هو المطلوب من الشخص ان لا يغش ولا يخون صديقه واما مع عدوه فلا يطالب واذا عامله كصديق يكون غاية الكمال وقد عاشرته كثيراً وكنت أحبه كثيراً لوجهه الضحوك البشوش واعتباره لاصدقائه وذكائه وبالاجمال انه فريد بين الامراء ومع هذا كله لا تراه يفكر بأصله الشريف ولا يميز حاله عن صديقه لا تجاه ولا تكبر ولم اسمعه بعمري يتكلم مفتخراً بأصله وعائلته وقد اقترن بالسيدة جلنار ابنة الكولونيل شرشل بك احد افراد عائلة مالبروك القائد والوزير الشهير في بلاد الانكليز فنظمت له القصيدة الآتية مظهاراً لفضله الخصوصي ولكي أظهر للناس كرم خلقه لان أصل الفتى لا ينفعه ان لم يكن ذا طباع حسنة .

يـــــا اميراً في مجد جـــــد مقيما قـــد كفـــاك الالـــه فخراً عظيمـــاً
انت لا شك في علائك فرد حيث أصبحت من هجـــاءي سليمـــاً
مـــا هجـــاءي سوى بيـــان شرور لست أهجو الا الشقي الظلومـــــــا
ان للنفس كـــــــالجسوم داءً وسقـــــــام النفوس امسى جسيما
فعليـــــل الجفون يـــــدعى سقيماً وعليــــل النفوس يـــدعى لئيمـــاً
كـــل داء الى الـــدواء بـــاحتيـــاج وعليـــــــــه ان يقصدن الحكيما
فـــــدواء اللئـــــام هجو صحيح والمـداوي من يهـج هجـوا اليما
قـــــــال قوم ان المديح دواءٌ يصلح الظلم ثم يشفي الكلومـــــــا
فعلاج المديح يشفي لئيمـــــــاً كقشور الخيـــــــار تشفي حميا
ايها المادح اللئيم اجبني كيف تخفي مـــا كنت فيـــه عليما
انت تـــــدري وصاحب البيت أدرى بكلام المديح بـــــــات اليما
والعليـــــــل السقيم لم يشفي اصلاً من سقـــام مـــا لم يصدق حكيما
ان خير الـــدواء مـــا كـــان مراً يلـــذع الـــذوق عـــاجلاً والشميا

لا دواء للـؤم من غـير هجـو — دون هجو كـان الـدواء عقيما
وذوو اللؤم لا يخـافون ربـاً — بـل يخـافون بلوة وخصومـا
ويكون اللئيم طبعـاً جبـانـا — وبخيـلا وسـافـلاً ورجيمـا
خوفـه وحـده لجام لفعـل — ام رأى قـوة يـلـوك الشكيمـا
بـانكشاف الستـار عنـه تراه — يتـقي شـره وينجـي الغـريمـا
واصل العبـاد من رام ستراً — للئيم وكـان فيـه رحيما
ولئيم اللئـام من خـان صحبـاً — وبلاداً وجـاء شراً عظيما
وأشر اللئـام من كـان منهم — ذا اقتـدار او كـان « ميرا » اثيما
كم أمير واصلـه من حقير — لاجتهـاد قـد صار شهمـاً عظيما
كم حقير واصلـه من أمير — لفعـال يـدعى دنيـاً ذميما
لا لعمري فما الامـارة ارثـا — بـل صفـات تجملن الكريما
وتراهـا سماحـة ووداداً — وثبـاتـاً وهمة وعلومـا
عظم شأن ورفعـة في كريم — لتراه عنـد اللزوم حليما
دون هـذه الصفـات مـا كـان ذكر — لشهـاب ولا عرفنـا تميما
لا لأصـل أو درهـم أو جمـال — بـل لفضل قـد صار موسى كليما
لا لماء لكن لطهر وقـدس — أكرموا زمزمـا كـذا والحطيما
فعلمنـا ان للنفوس صفـات — تخفض المرء او ينـال النعيما
كـل من يـدعى الامـارة ارثـاً — دون هـذه الصفـات اضحى عـديما
كـل من حـازهـا يسمى اميراً — بسواهـا كـان الامير بهيما
والامير الفريـد وابن المعـالي — من وجـدنـا لـديـه مجداً قـديما
وتراه المنصور في كـل حـال — يغلب النـائبـات ثمَّ الهمومـا
وتراه في كـل امر وقول — وفعـال من كـل عيب سليما

سلامة . الدبس . أصفر . رعد . سنة ١٨٨٤

كان هؤلاء الاربعة من اصدقائي وكنا نجتمع كل ليلة معاً للضحك والمزاح ولعب الورق بلا دراهم تقريباً او قليلاً لأجل التسلية وكان المرحوم لطف الله رعد صديقنا ونجتمع عنده وهو رجل مستقيم الأطوار ودود يحب السلامة معتبراً في تجارته صاحب ذمة وكان يحبني جداً وهو شقيق المرحوم اسعد رعد الذي سأذكره فيما بعد لانني تعرفت على اخيه لطف الله قبله وكان عديله بطرس الدبس من عداد جمعيتنا وكذلك ابن حميه انطون الاصفر والصديق الرابع كان يعقوب سلامه .

كنا ذات ليلة نلعب (كوتيلو) وهي لعبة بالورق كانت مشهورة وقتئذٍ فدعيت لعيادة مريض ولما رجعت سألني عنه الجماعة وقالوا اعطنا ما معك لانك قد قبضت الان ونشترك سوية بالدراهم فقلت لهم يجب ان تساعدوني بخدمة المريض لتستحقوا الاجرة وتشتركوا معي بها قالوا نفعل ونعمل استشارة طبية (كونسولتو) فما مرضه ونحن نعطيك رأينا فقلت لهم ان المريض مصاب بامساك باطني ومعه مغص شديد فعملت له تحميلة دبس فضرط فصاً كالرعد وخرج خروجاً أصفر والكل راحوا على سلامه فقام الاربعة ضدي اما الحاضرون فضحكوا وقالوا ان الاجرة استحقها سلامه وفي اليوم الثاني انتشرت هذه النادرة بالبلد وعرفها الخاص والعام .

مدام فريج

نصف جيل اشغلت بيروت هذه السيدة البارعة الجمال والفائقة الذكاء واللطف والغنى والبشاشة وهي ذات جمال رائع يضرب به المثل في سوريا من أصل نمساوي ومولودة في بيروت ابنة قنصل جنرال النمسا من أصل شريف ومحتد عال ولا يمكن الانسان ان يعاشر الطف منها اذا وجدت في مجلس وكان فيه اقوام مختلفون يمكنها ان تكلم كلا بلغته كالافرنسي والايطالياني والنمساوي والانكليزي والرومي والعربي والالماني ولو اجتمع مائة شخص معها يرى كل انها تلتفت اليه فهذا تشغله بحديثها وذاك بنظرها اليه والاخر بالتفات والبعض بتبسم حتى كأنها تكلم الجميع بوقت واحد بشوشة الوجه ضحوكة تكرم ضيوفها وتلبس ابدع ملابس على احسن قوام عنقها وصدرها محليان بالجواهر وقد نالت اوسمة عديدة من البابا والنمسا واحرزت نشان الشفقة الاول من الدولة العلية ولم ار احدا لاق له الغنى نظيرها وبأي محل حضرت لها المقام الأول ان كان في المجتمعات او المجالس او المراقص ولا تفوتها دقيقة من الرقص من المساء حتى الصباح فلا تكل ولا تمل وان تكلمت فيصغى الحضور لكلامها وتشخص لها الابصار وان زارت كنيسة للصلاة فتمثل التقى والنقى ولو جمع احسان لمساعدة شخص او عائلة او منكوبين كانت أول المحرضين عليه فتراها الاولى في مواقف الهناء والعزاء والافراح والسهرات لم يأت وال او قاض او موظف او قنصل او رئيس دين الا عرفها وعرفته وزارها وأكرمته فاعتبرها ولا ذو حاجة وفقير الا ومدت اليه يد المساعدة وبالاختصار كانت زينة العصر وبهجة بيروت والذي ساعدها على ذلك زوجها الهمام المركيز .

(موسى افندي) خلق هذا الذات ليكون زوجاً لهذه السيدة البديعة فهو كامل الصورة جميلاً فصيحاً محباً للجاه ويود امرأته جداً داره يؤمها الاعيان من كل الملل والنحل ويقف بذاته خادماً للكل فهو من التجار المعتبرين نال معظم الرتب والاوسمة المعتبرة من الدولة العلية والدول الاجنبية لطيف متضع وله نجل اسمه جان .

هو الوريث الوحيد لهذه الاسرة جمع بين اللطف والعلم وقد أنعم قداسة البابا عليهم بلقب مركيز وقد نظمت هذين البيتين لمدام فريج وهما باكورة ما قلته فيها :

وتفـــاحـــة قـــد أهلكت قبـــل ادمـــاً ارتني مـــدام فريـج في وسط وجنـــة
لقـــد مـــات منهـــا آدم بعـــد أكلهـــا وأمـــا انـــا قـــد مت منهـــا بنظرة

يقال ان التفاحة هي الثمرة التي أكلها آدم وسقط بسببها وقلت فيها بفرصة اخرى :

بعصاه موسى شق بحراً احمرا فغـــدا نبيـــاً بعـــد ذا بين الورى
واليوم شقت عرسه بلحـــاظهـــا قلبـي فـــاجرت منـــه بحراً احمرا

وزرت مدام فريج يوماً فدار بيننا الحديث على الشعر العربي قالت ان للشعر العربي مديحاً ومبالغة لا يقبلها عقل بشري فيقولون لفلانة انت الشمس والقمر وما اشبه كما ترى بالاشعار التي نظمها لي حنا بك ابو صعب ومع انهُ شاعر مجيد اقرأ قصيدته وانظر ما فيها من المبالغة والغلو فأخذتها منها وقرأتها وكنت أفكر بموضوع فكتبت بقلم الرصاص على الورقة أسفل القصيدة هذين البيتين :

مـــا شبهوا بـــالبـــدر وجهك بـــالسنـــا بـــل انت حقـــاً للشموس ضيـــاء
لكن لبعـــــد منـــــالها ووصالها فلأنتما عنـــــد الوصال سواء

فطربت لها لانها أعظم ما تمدح بها النساء وشكرت لي هذا المعنى المبتكر الموافق المقام .

(نكتة) في سنة ١٩٠٧ اصابتني نزلة صدرية الزمتني لترك بيروت قبل ميعادي وسألت عن تغيبي بعض الاطباء فقال لها اني اصبت بالجنون وما ذلك الا لتعطيل شغلي وانتشر هذا الخبر سريعاً في بيروت ففي أحد الاعياد توجهت لمعايدتها كالعادة وكان هناك المركيز موسى افندي وجمهور غفير فلما رأتني شهقت وقالت بلغني انك جننت فما هذه الاشاعة عنك اجبت لو كنت معرضاً لهذا المرض لكنت جننت يوم رأيتك أول مرة فضحكت وضحك الجميع لهذا الجواب .

(كليوبترا) في سنة ١٨٩٦ أقام الجال المرحوم موسى افندي سرسق مرقصاً عمومياً متنكراً وكان كل من يحضره يلبس زياً مخصوصاً يمثل احد المشهورين من القدماء واختارت مدام فريج لبس كليوبترا وتصورت بهذا الزي واهدتني رسمها فنظمت لها ابياتاً موافقة للمقام . وكانت الصورة تمثلها مادة يدها كأنها تشير الى جهة وعلى زندها حية ملفوفة هي حية كليوبترا التي كانت ملكت في مصر بايام الدولة اليونانية وورثت كرسي الفراعنة وحاربها انطون القائد الروماني قبل ان تعشقها وبعد ان ظفر بها ابقاها ملكة ثم حاربها قيصر وحارب القائد انطون واخذها اسيرة فلما رأت ذاتها بالاسر اطلقت الحية عليها فلسعتها وقتلتها وتذكرت هذه الحوادث فنظمت لها ما يأتي :

هـذي كليوبترة التي أخـذت لنـا | في ثـار فرعون سليـل امونـا [1]
قـد اغرقت موسى ببحر جالهـا | كعصاة موسى اغرقت فرعونـا
مـدت يميـنـاً للقلوب تشقهـا | وتقلـدت عوض اليمين عيونـا
أجـرت بـرمش الجفن بحـراً احمراً | متموجـاً في الخـد نـال سكونـا
هـذا لموسى حيـة في زنـدهـا | تحيي لنـا الملـدوغ والمحزونـا
واذا بها الملسوع عز شفـاؤه | في ريقهـا تجد الـدوا المأمونـا
لو كـان هـارون يرى مـا عنـدهـا | لاضاع موسى واقتفى انطونـا

(نكتة اخرى) في أحد الاعياد توجهت لاهنئها بالعيد وكان عندها جملة اساقفة فتقدمت حسب العوائد الشرقية وقبلت ايديهم ثم يد مدام فريج فالتفت احدهم متعجباً فقالت له يا سيدنا هذه المودة اليوم ان الرجال يقبلون ايدي السيدات قلت فضلاً عن المودة ان تقبيل يديك سرني ولذني أكثر من تقبيل ايدي هؤلاء السادة فضحكت وضحك الجميع لهذا الجواب .

(ليلة رقص) للمركي موسى عادة بكرمه ان يقيم مرقصاً في منزله يدعو اليه الاكابر والاعيان ففي احدى الليالي التي أقامها احتفالاً لدعوته ناشد باشا والي سوريا كان المدعوون يحضرون ويتقدمون الى السيدة التي كانت ببهوها وتحدق بها السيدات بلبسهن البديع من الجانبين فكان الرجل يتقدم بامرأته وينحني امام صاحبة الدعوة ويترك امرأته مع السيدات ويخرج حتى تكامل عدد المدعوين وابتدأ الرقص وكانت عادتي ههكذا ظروف ان ابقى متفرجاً فلا أرقص ولا تتناول مشروباً روحياً بل انتقل من محل الى آخر وبينما انا على هذه الحال صادفت موسى افندي فسألني اذا كنت مسروراً وما رأيي الشعري بتلك الليلة فنظمت بديها الابيات الآتية وهي مطبوعة بكتابي صحة العين :

ولما دعينـا عنـد موسى بليلـة | وشاهـدت مـا تبـدي الجفون من السحر
تـذكرت فيهـا عهـد فرعون جـامعـاً | لموسى جميـع الساحرين من القطرِ
وكـان بنـا تـأثير ذا السحر مثلما | تـأثر منـه الشعب من قبـل في مصرِ
ولكن موسى كـالقـديم اتـاهم | بجفن يفوق السحر قـد حف بـالكسرِ
وقـد حـاز نصراً وهو في ذاك آيـة | لـه الجفن مكسور وقـد فـاز بـالنصرِ

وقد قلت بموسى افندي اذ رأيته واقفاً يكلم امرأته سراً .

لا شـك مـوسى كليمـا | للرب في كـل حـال
من قبـل رب البرايـا | واليـوم رب الجمـال

(١) أمون اله المصريين .

(نكتة مع الدكتور سليمان مشاقه)

كان الدكتور سليمان افندي غيوراً جداً وهو صديقي امزح معهُ خصوصاً بسبب لحيته التي أطلقها عن صغر ففي ذات يوم كنا في باتر ودعيت لمعالجة الشيخ سعيد حمدان ومعي سليمان افندي فبقينا مدة خمسة عشر يوماً هناك وذلك سنة ١٨٨١ وكان حاضراً نسيب بك جنبلاط لان الشيخ سعيد من اقاربه فقال نسيب بك يلزم ان نتزل الى النهر حيث هناك غدير فنسبح به ونتخلص من هذا الحر وذهب معنا الدكتور سليمان افندي ولما وصلنا الى النهر لم يرض ان يسبح غيره فيه فخلع ثيابه أمامنا وسبح بالماء فتذكرت قول المتنبي :

نشرت ثلاث ذوائبٍ من شعرهـــــــا	في ليلــــة فــــارت ليــــالي اربعـــا
واستقبلت قمر السماء بوجههـــــــا	فــــارتني القمرين في وقت معـــا

فعارضتها وقلت :

ذو لحيـــــة دكتور ابن مشاقـــــة	قصد الغــــدير بعصر يوم الاربعـــا
خلــع الثيــاب وغــاص قصد سبــاحــة	فــــاراني الـــذقنين في وقت معـــا

وانتشر هذان البيتان بسرعة عظيمة ولم يزل ذكرهما حتى الآن .

(كاسر الجحش)

حضر ذات يوم اليّ رجل سمين جداً وجلس على المقعد في الدار فسقط به ولكي يعتذر عن نفسه قال ما هذا الجحش فانهُ ركيك للغاية والجحش هو قطعة الخشب التي توضع عليها الالواح فقلت فيه :

سمين قــــــــد علا ديوان داري	فكسر جحشهُ واتى اعتــــــــذارا
وقــــــــال الجحش خسع قلت كلا	فـــــان الجحش لم يحمـــــل حمارا

(أخ الثور)

اتى اليّ رجل كنت اعرفهُ في مصر ورأيتهُ بعد عشرين سنة وكنت قد نسيتهُ فأخبرني عن حاله وكنت اعرفهُ فقيراً ثرثاراً كاذباً فتذكرته وقلت له قد عرفتك وانت فلان بائع الدخان بالمحل الفلاني قال نعم ولكن

احوالي قد تغيرت كثيراً وصرت من المعتبرين في مصر تكرمني الناس وانا هناك ذو نفوذ عظيم فعرفت من كلامه انهُ لم يزل على عادته بالكذب فنظمت له هذين البيتين :

تقول بمصر قد غدوت مكرماً ... فما عندنا شك بفوزك والنصر
لقد ذكر التاريخ من قبل ذا لنا ... بان اخاك الثور يعبد في مصر

رثاء بطرس البستاني

كنت سنة ١٨٦٥ تلميذاً بالمدرسة الوطنية التي أسسها في بيروت المعلم بطرس البستاني وهو أحد أصحاب النهضة العربية المجد المجتهد فانهُ الف بكل العلوم واعظم تآليفه محيط المحيط القاموس العربي الشهير ودائرة المعارف العربية وانشأ جريدتين احداها دعاها الجنة والثانية الجنان وكان مواظباً على التأليف والعلوم وتوفي فجأة بين الكتب والمحابر والأوراق في أول ايار سنة ١٨٨٣ وكنت يومئذٍ في بيروت وحضرت مشهده وحيث انه كان رئيسي ومعلمي رثيتهُ بالقصيدة الآتية :

عش في زمانك ذا نهى وبيان ... فالمرء في قلبٍ له ولسانِ
لو جرد الانسان يوماً عنهما ... لم يفرق الانسان عن حيوان
وبذا عن الحيوان كان مميزاً ... بل ميّز الانسان عن انسان
وبه ينال المجد ما بين الورى ... لا بالغنى وضخامة الابدان
ليس الفتى بالمال يخلد ذكره ... لكن خلود الذكر بالاحسان
او ما نظرت الى النبات لنفعهِ ... يجنى وليس بنضرة الاغصان
والورد ماء الورد يفضله على ... ما فيه من طيب ومن الوان
واذا نظرت الصيدلية لم تجد ... فيها خلاف جواهر العيدان
كالدهر يبقى للفتى من بعده ... فضلاً ويفنى سائر الجثمانِ
وارى الورى يخشى الممات ولم يكن ... وابيك الا منتهى الاحزان
ماذا يفيد الخوف منهُ هل ترى ... من مهرب منهُ وبرج امان
ارأيت او اخبرت او حدثت عن ... حي من الاحياء ليس بفان
أصل الحيوة هو الممات فلم نمت ... لولا الوجود بعالم العمرانِ
انا لا ارى في الموت كرهاً انما ... كرهي له ان جاء قبل زمانِ
فالمرءُ محبوب غدا باوانه ... والحلو مكروه بغير اوان
والموت مرٌ غير ان مراره ... يحلو اذا ما جاء في الاحيان
وامرّه ما اغتال شهماً فاضلاً ... فرداً عظيم النفع كالبستاني
الموت لم يفتك فقط بحياته ... بل في حياة مشيد الأوطان

تلك التي بـــــات الزمـــــان رفيقهـــــا   من حيث قـــد جـــادت ببطرس ثـــاني
فكلاهمـــــا قـــــد كـــان فيـــه صخرة   ذا للعلوم وذاك للايمـــــــــــــان
هيهـــات ابـــواب الـــردى تقـــوى عـــلى   جعـــــل اسمه في عـــــالم النسيـــــان
افنيتـــــه يـــــا مـــوت لكـــن ذكـــره   يفنيك حتى منتهـى الـــــــــدوران
كيف الردى يقـوى على ذكـر الـــــذي   قـــد بـــات صاحب جنـــة وجنـــان
لم تقـن غير الـــدمـــع عنـــد بعـــاده   لم تبكـــــهِ من امرىء عينـــــان
بـــــل كـــل عين ألف عين قـــد جرت   دمعـــــاً بلا عين لعين زمـــــان
لاقت بـــــــــــه بيروت بحراً احمراً   فغـــــدا بها البحران يلتقيـــــان
جمـــــع المحيط بموتـــــه وحيـــــاتـــــه   ذا بـــــالعلوم وذاك بـــــالاجفـــــان
لولا معـــــاهـــــدة الالـــــه بـــــانـــــهُ   لم يرسل الطوفـــــــــان للانسان
ووجوب خشيتـــــه جمعت من البكـــــا   نهراً يفيض الـــدمـــع كـــالطوفـــان
واليوم سكـــــان الكواكب شاهـــــدت   طوفـــــان نوح ليس عن طغيـــــان
بـــــل من دموع بـــــالزفير تبخرت   من حر مـــــا في القلب من نيران
وعلى بخـــــار الـــدمـــع سار الى العلى   مـــتزوداً بمـــراحـــم الـــرحمـــن
نـــادت ملائكـــة الالـــه امـــامـــهُ   هـــــذا شهيـــد العلم والعرفـــــان
فـــانـــالـــهُ رب العبـــاد مقـــامـــهُ   واقـــامـــةُ لجنـــانـــه بستـــاني

(سائق الاظعان)

في سنة ١٨٨٣ كنت موجوداً في قرية الحدث لمعالجة الامير يوسف بن الامير سليم عبدالله شهاب الذي كان قاطناً الجيه ووالدته الست سعدا بنت الامير بشير الكبير مع امرأته الثانية . حسنجهان التي رافقتها من مصر الى سوريا وكان مصاباً بداء السل الرئوي وتوفي به وكنت ازوره كل يوم وفي مدة اقامتي هناك حدث يوماً انني كنت مرافقاً الامير حافظ والامير توفيق المشهورين بالحمق والبلادة وكنت امشي خلفهما تأدباً لانهما امراء ففي اثناء سيرنا قابلت احد اصدقائي الظرفاء وسألني عنهما فقلت ارتجالاً :

سرت بـــــــالميرين توفيق الفتى   وأخيـــــه حـــــافظ ذاك الصبي
نـــــادت النـــــاس عليٍّ والى   سائق الاظعـــان يطوي البيـــدطي
منعماً عرج على كثبان طي

(دابة بلعام)

كنت في احد الايام على ساحة البرج ببيروت مجتمعاً مع بعض اصحابي الشهابيين واذ دخل علينا احد سائقي الاظعان جناب الامير حافظ الذي كان من عادته ان لا يكلم احداً ابداً فخاطبته واجابني على حديثي فتعجبوا من ذلك وقالوا لي كيف انطقته قلت ولماذا قالوا انه لا يخاطب احداً سوى والده الذي قال له مرة يا ابي رأيتك في المنام كديشاً انا راكب عليك فلما وصلنا الى النهر سقطت بي فطرده ابوه من حضرته مغضباً وقال الذين سمعوا هذا المنام الى ابيه دعه حتى ينشلك من الماء وله عدة أعمال اخرى تشبه هذه بالحمق فلما رأيتهم متعجبين قلت بهذا المعنى شعراً :

امير حـــــافظ ابـــــداً سكوت	وقـــــد عـــــدوه من بكم الزمـــــان
وقـــــــد انطقتــــــــه لما رآني	فظنوا انني بلعـــــام ثـــــاني

ان بلعام هو النبي الذي أنطق حمارته حين كان متوجهاً الى ملك الموابيين كي يلعن بني اسرائيل .

(القس المفسد)

كان أحد القسوس كثير الحركة والفساد وكان لا يرى اثنين متفقين الا ابعدهما او بلدين متوافقين الا افسدهما مع ذلك يدعي التقى والذكاء والمعارف بالانجيل وتفاسيره فيوماً ما وقد كان يفتخر بهذه العلوم المقدسة خصوصاً بمعرفة الانجيل قلت فيه :

وقس للفساد غـــــدا أمـــــامـــــاً	ولم يقض الصلاة ولا الصيـــــامـــــا
ولم يحفظ من الانجيـــــــــل قولاً	سوى (مـــــا جئت كي القى سلامـــــاً)

(حسن الاعتذار)

كان لي صديق في بيروت اتردد عليه منذ عشرين سنة واعتبره كاهلي فغبت عنه مدة شهرين ولما أتيت لزيارته عاتبوني خصوصاً امرأته فقلت مرتجلاً :

تعـــــــــاتبني اسمى على طول غيبتي	كـــأن مـــا كفـــاني في البعـــاد عـــذابـــاً
فمن كـــــان محرومـــــاً محاسن وجههـــــا	كفـــــاه قصاص لا يزاد عتـــــابـــــاً

(رابع المستحيلات)

دعيت يوماً مع بعض الاصحاب الى طعام عند أحد الامراء اسمه الامير سعيد وتعجبنا من هذه الدعوة ولكن لعل السياسة دعته لدعوتنا لأنها كانت مخصوصة لشخص مهم في السياسة ولكن مهما كان الداعي البخيل متكارماً فلا بد ان ترى على مائدته ما يدل على بخله فحين تناولنا الطعام قدموا لنا شكلاً يدعى المحشي وهو من الكوسا او الباذنجان او ورق العنب ويتكون من الأرز واللحم اما هذا المحشي فكان خالياً من اللحم واشعرت بذلك من طعمه غير اني اردت ان اتحقق ذلك ففتحت واحدة واذا بظني استحال الى حقيقة فخطرت على بالي مستحيلات العرب وهي الغول والعنقاء والخل الوفي اذ يزعمون انها اسم بلا جسم فارتجلت قائلاً :

قــــد قيـــــل ان المستحيـــــل ثلاثـــــة	والان رابعـــــــــــة اتت بمزيـــــــــــد
الغول والعنقــــــــاء والخـــــــل الوفي	واللحم في محشي الامير سعيـــــــــــد

(الشاهد المجروح)

من عادة الناس اذا سأل الواحد الاخر عن محبته له يقول قلبك شاهدك واتفق اني سئلت هل تحبيني أجابت كالعادة فقلت بذلك حسب الشاهد لان الشريعة لا تقبل شهادة مدمن على السكر او سارق او شاهد زور او امر مخل بالأدب فتجرح شهادته ويقال عنه انه شاهد مجروح فقلت بهذا المعنى هذين البيتين :

فسألتهـــــا هـــــل بـــــالأكيـــــد تحبي	قـــــالت فؤادك شاهـــــد يـــــا روحي
فـــــأجبتهـــــا أهـــــل الهوى لا يقبلوا	ابـــــداً شهـــــادة شاهـــــدٍ مجروح

(قضاء داود سنة ١٨٨١)

كان لي صديق من الامراء اللمعيين وكان اسمه الامير داود ففي ذات يوم حضر عندي الى بيروت مع امرأة جميلة اسمها نور من عائلته فسألته عنها قال انها زوجتي قلت ومتى تزوجت وكيف توفقت سريعاً الى هذا الجمال أجاب ان المسألة كانت غير منتظرة لأن الست نور كانت مخطوبة لامير يدعى الامير عامر وهي مغصوبة على هذا الزواج لانها كانت تميل الى الامير داود واتفقت معه ذات ليلة ان يأخذها خفية من بيت والدها في قرية بحنس ويأتي بها الى برمانا ليتكلل عليها وهذا ما تم وبعد ذلك اتى بها الى بيروت ليبعدها عن محل الحادثة وكلفني ان أنظم له شعراً فقلت في ذلك :

أخـــذت بهاء النور من دار عـــامر واحرمتــــه نور الهدى دون تهديـــد
وقـــد ذاق اوريـــا قـــديماً نظيره وهــــذا قضا داود في مجلس الغيـــد

اشارة لما فعله داود النبي مع اوريا اذ ارسله للحرب فقتله وتزوج امرأته وهي ام سليمان (سفر الملوك الأول) .

(تاريخ أما)

كان لي صديق في بيروت صيدلي يدعى ملحم مطر من حاصبيا تزوج السيدة أما ابنة الخواجة طعمه غبريل والخواجه طعمه من أحسن الرجال بالمرؤة واللطف والزمام والمودة وله امرأة ذات فضل وعفاف لا يقدر وله عدة اولاد من أظرف الشبان وقد تربت السيدة أما ابنته الكبرى جيداً وتهذبت بمدرسة العازاريه وكنت اعتبرها جداً نظراً لصفاتها الأدبية ومعارفها خصوصاً باللغة العربية وولعها بالشعر وقد نظمت تاريخ زواجها لأنها تزوجت بالمصيطبة ونقلت الى الدار التي عمرها رجلها في برج ابي حيدر فقلت :

للشمس برج في كـــــــــل شهر انبــــأنـــا عنـــه حساب قيصر
واليوم أرخ حلت ربوعـــــــــــاً أمـــا تراهـــا في برج حيـــدر ١٨٨١

وقد طلبت مني كتاب صحة العين فأهديته لها وكانت يومئذٍ ارملة لم أرها منذ سنتين وحررت عليه هذين البيتين :

صحـــــة العين أهـــدهـــا لعيون نـــــاعسات يواقظ وصحـــاحِ
علهـــا تتقي امـــا قـــد كفـــاهـــا مـــا أصابت قلوبنـــا من جراحِ

بعد هذه الجلسة وتقديم الكتاب لها لم ارَ وجهها مدة ثلاث سنوات وتزوجت ولم ادر بزواجها غير اني لم أزل اعتبرها واجدها وامدحها في كل مجلس ووقت لأنها تستحق كل مديح واعتبار رافقتها السلامة أين حلت كما رافقتها الطهارة اين تجلت .

وفي شهر شباط سنة ١٩٠٧ حين كنت في مصر ماراً بشارع الفجالة رأيتها عن بعد فأوقفت عربتي واتيت وسلمت عليها وعلى زوجها وسررت كثيراً لسلامتها وولادتها اولاداً فرأيتها كما كانت وكنت كما كنت .

أميرة القمل

لما كنت في الحدث كما قلت لعيادة الاميرة سعدا بنت الامير بشير الكبير وزوجة الامير سليم عبدالله التي كانت مصابة بالبول السكري ومعها نكروز في العظم الصدغي مررت ذات يوم على دار وبرفقي الخوري حنا ناصيف خادم كنيسة الحدث وقد توفي في شهر آذار سنة ١٩٠٦ وحزنت عليه لأنه كان ذا مبدأ قويم فرأينا على باب الدار اميراً شيخاً جليلاً لم أكن اعرفه من قبل فدعانا ولشدة الحاجة علينا أجبنا دعوته وكان ذلك وقت العصر ودخلنا الى غرفة فيها ديوان بالجهة القبلية واخر بالجهة الغربية ورأينا اميرة عمرها سبعون سنة تقريباً وقفت لنا وعند وقوفها سعلت لأنها كانت مصابة بسعال مع ربو وجسمها سمين للغاية فلما أبدت هذه الحركة ضربت مدفعاً بصوت جبير لاستقبالنا وسعلت وعطست وكان يسمع مع سعالها دوي قوي فكلفت الخوري ان يتقدمني ففعل وسلم على الاميرة ثم جلسنا على الديوان وكانت المدافع تتكرر مع كل سعال اخيراً حكت رأسها بشغف وجالت بين اصابعها وجمعت اظافر الابهام وفقستها فعرفنا انها قتلت قملة ولما رأيت عملها أخذت ورقة وقلم رصاص وبدأت أكتب والامير والاميرة ملتهيين بالحديث مع الأب حنا وبعد مدة سألوني عن سبب سكوتي أجبت اني اسطر بعض حسابات اخشى ان انساها وبعد برهة استأذنا بالذهاب وكان وداعنا كاستقبالنا بدوي المدافع ولما خرجنا قرأت للخوري القصيدة التي نظمتها ارتجالا فأغرب في الضحك وأخذ نسختها وتبلغتها الاميرة فنظفت ذاتها وصار اذا حصر أحد مجلسها واشعرت بالسعال تخرج من المجلس واستراحت من نهش رأسها لانها غسلته وحسب رواية الأب لم يبق في رأسها شيء مما كانت تعمله وكانت القصيدة دواؤها الوحيد لذلك القمل وقد جرت الحادثة في ١٦ آب سنة ١٨٨٣ في الحدث وهي :

جلسنا اليوم في العصر ... بقصر اميرة العصرِ
أميرة ماجد فتكت ... بجيش القمل بالعصرِ
اذا ما عطست قطت ... تنش القمل للنحرِ
هناك النفخ متصبٌ ... بايديها على شبرِ
بظفر الباهمين غدا ... قصاص القمل بالكسرِ
ترى القتلى ممددة ... هنا شطر على شطرِ
وبطن الكف ممتلىء ... من الاسرى على الصدرِ
بدت للفقس فرقعة ... ولم نعلم ولم ندرِ
اهذا الصوت من دبر ... أم الاصوات من نقرِ
سعال ثم فرقعة ... ورعد من ورا الظهرِ
وجيش القمل في هرب ... وفي نحر وفي اسرِ
ولا ملجا لمهربه ... وقد ابقته في حجرِ

عليــــــــــه الكف كوردون اقــــــامتهـــــا على النحرِ
ظنننــــا الارض مرجفـــــة كـــــان القمـــــل في الحشرِ
فويـــــل القمــــل ان وقعت بكــــف امــــيرة العصــرِ

كانت احدى الخرائد شهيرة بالجمال فريدة بلطفها وظرفها ذات لون وردي يسطع بوجنتيها عند أدنى تأمل فيها او ادنى اضطراب يصيبها غير انهُ لا بد لكل بداية من نهاية فلم يمر وقت طويل عليها أي من يوم نظمت لها الابيات الى يوم تحرير هذا الكتاب حتى أصبحت هذه الملكة عبدة فسبحان من يغير ولا يتغير وهي ذات هيئة كئيبة وأصبح ذلك الاحمرار كلطخ دهان الجدران اذا اذابهُ المطر وارتخى وجه ذلك الوجه المستدير وتجعد حتى لو مرّت عليه عربة لانقلبت بها فأين منظرها الان من ذلك المنظر البديع الأول وقد كانت وقتئذٍ ملكة الجمال في الحدث حيث نظرتها وذلك سنة ١٨٨٣ وقد أصبحت سنة ١٨٩٣ بهذه الحال ونظمت لها يومئذٍ الابيات الآتية :

هـــــذي المليكـــــة اقبلت نحوي بعـــــدّ جنودهـــــا
وخــــدودهــــا شهــــدت على عــــدم الوفـــا بعهودهـــا
قلبـي عليهـــــا شاهـــــدٌ في قتلتي بنهودهــــــــا
لما نكرت غرامهـــــــــا شهــــدت شهود خـــدودهـــا
جرحت شهودي عنـــــدمـــا حـــــاولت جرح شهودهـــا
لمــــا عجـــزت حـــرت فـــي دعواي كـــــل بنودهــــا
فرضيت مهـــــــــا كلما ترضاه دون صدودهــــــا

أما اليوم فلو رأيتها لهجوتها ولكن ما العمل وقد سبق المدح فلا يجوز القدح خصوصاً لكونها غير مذنبة .

(حوت يونس)

يونس هو يونان وكان رجل يدعى بهذا الاسم ثقيلاً سميجاً لا يقبل له كلام وهو لا يتأخر عن الرذيلة ولو مع أعز اصدقائه وقد توكل بدعوى ومع علمه تزويرها قبل الوكالة بها بغية اكتساب الدرهم بالحرام فخسرها ونهب المدعي واراد يوماً ان يغير وظيفته ويصير كاتباً لأحد الامراء الحائزين وظيفة مهمة في الجبل فحررت للامير الابيات الآتية :

يـــــا من تجلّ لـــــه مجلسا أبونس تختـــــــاره مؤنسا
الا تـــذكر الحوت مـــع هضمـــه عقـيب الثـلاثـــة قـــايـونسا

وهي قصة يونان النبي الذي ابتلعهُ الحوت وبعد ثلاثة ايام اخرجهُ من جوفه لعدم هضمه وذلك كناية على صديقنا يونس سنة ١٨٨٤ .

(شقيق النعمان)

في احدى ايام الربيع بينما انا متوجه باكراً جداً الى قرية الحدث قبل شروق الشمس وراكباً فرسي الزرقاء التي سرقت مني وصلت الى رمل الحرش فرأيت زهر الشقيق مفتحاً واللون الاحمر ناصعاً والسواد في قلبه عابساً فصرت اتأمل هذه الرياض حتى امتلا دماغي من الافكار واشعلت سيكارة دخنتها وانا واقف ثم مشيت الهوينا وكتبت هذه الاسعار على الطريق حتى وصلت الى الحدث وذلك في شهر آذار سنة ١٨٨٣ :

ولما ارتني في الخـــــديـــــد شقيقـــا	أرت أمهـــــا في ذا الشقيـق شقيقـــا
شقيقـــان بـــل خـــال وابن شقيقـــة	على خـــالـــه مـــا كـــان قط شفيقـــا
ومما بـــدا من خـــالـــه اسود قلبـــهُ	وصارت دمـــاه في الخـــدود عقيقـــا
تقول لنـــا الامثـــال ابن شقيقـــة	عـــدو لخـــال لا يكون صديقـــا
تقـــدمت في حـــال التزاع ومهجتي	بنـــار ومني الـــدمـــع كـــان طليقـــا
بـــدمعي قضى ابن الشقيقـــة نحبـــهُ	غريقـــاً ينـــادي الخـــال مـــات حريقـــا
فقبلت ذين الميتين مودعـــــــاً	واحييت ميتـــــاً وانتشلت غريقـــــا
وفي فيَّ سر نـــــاعش روح ميت	لان لماهـــا قـــد سقـــاني رحيقـــا
تقـــادم عهـــد بـــالحلاوة قطره	اذا عتق الحلو استحـــال عتيقـــا
فمن ذاقـــهُ يومـــاً ففي الحال انـــهُ	يصير الى ذاك العتيق رقيقـــــا
فما من رقيق رام في الـــدهر عتقـــهُ	فلم نرَ حتى الخصر منـــهُ عتيقـــا
وان تسألوا عن قلبها نحو حبها	قـــديماً حـــديثـــاً لم تروه رفيقـــا
وان تسألوا عن حال قلبي بحبها	تروه رقيقـــاً في هواهـــا عتيقـــا
خفوق يـــدق الصدر ساعـــة ذكرهـــا	فكـــاد لـــدق ان يموت سحيقـــا
فما أحـــد ساواه في حبـــه لها	كـــذاك سواهـــا لا يريـــد رفيقـــا

وكان المرحوم الامير سعد ابن الامير خليل بن الامير بشير الكبير يسر جداً لهذه القصيدة وهو يومئذٍ رئيس مجلس ادارة لبنان ويعرف قيمة الشعراء ويستظرف نكتهم وهو دمث الاخلاق .

نسيب بك جنبلاط قائمقام الشوف

في ٢٥ ايار سنة ١٨٨٤

كان يظن ان هذه القائمقامية لا تخرج من يد الامراء الارسلانيين لأنها العائلة الوحيدة الدرزية التي لا حزب لها كالجنبلاطيين واليزبكيين وقد ذكرت تاريخها . وعندما حضر واصه باشا متصرفاً على لبنان سنة ١٨٨٣ عين نسيب بك جنبلاط قائمقاماً على قضاء الشوف وتم القول بالفعل فسكتت الطائفة الدرزية لهذا التعيين ورضيت عنهُ فحينئذٍ نظمت له القصيدة الآتية لتهنئته :

ليس الخضوع لغير الحق من هممي ... ولا المديح لغير الفضل من شيمي
ولا ابـــالي بمن اهجوهمُ ابـــداً ... ان كـــان هجوي لهم حقـــاً ولم يلمِ
هـــل يمدحون انـــاساً ليس عنـــدهمُ ... عهـــــد لحب ولا حفظ على ذممِ
ذئبـــان فعـــل اذا عـــاهـــدتهم حنثوا ... كـــان عهـــدي لهم يومـــاً لسفك دمي
لاذوا بكم في اوان اليسر وابتعـــــدوا ... في العسر عنك فهم اسرى لنفعهم
ان يكسبوا الفلس مـــالوا نحو صاحبـــه ... كـــالميـــل عن صحبهم في فقـــد فلسهم
فهـــــل تبـــالي بمن غرشين قيمتهم ... وسعرهم لا يعـــــــادل بعرة الغنم
ان شئت تقريب مغتـــاظ وذي كـــدر ... امسك بـــايـــديك غرشاً من أمـــامهم
واصرخ لهم شو مشو شو تلقهم رجعوا ... وحركوا ذيلهم شوقـــــــاً لغرشهم
اوغـــــــاد قوم اذا وليتهم ظلموا ... وليس في حكمهم حـــــد لظلهم
هم يفرقون ابـــاً عن ابنـــه حسداً ... ويجمعون شتـــــات الحل والحرم
ان جوعوا سرقوا او اشبعوا فسقوا ... عبيـــد غرش فهـــل يسوون للحكم
من لم يكن صاحب الانعـــام عن صغر ... كريم نفس عفيف ثـــابت القـــدم
حراً حليمـــاً ودوداً لينـــاً بطلاً ... تليـــــد مجد طريف الفضل والشيم
نسيب كـــل مقـــام في العلا وعلا ... فضلاً على كـــل عـــالٍ نـــاهض الهمم
لا يرتجى منـــه ان وليتـــهُ اربـــاً ... ولم ينـــل صحـــة من كـــان ذي سقم
والفرق مـــا بين ذي فضل وذي لؤم ... كـــالفرق مـــا بين نحاس وذي قلم
هـــذا يسوس برفق حسب آلتـــه ... وذاك آلتـــهُ من آلـــة العـــدم
والفرق بينهما اصلاً ومرتبـــــــةً ... كـــالفرق مـــا بين نور الشمس والظلم
بـــأي عـــدل يساوي بينهم ابـــداً ... هـــل يستوي اليوم مخدوم مـــع الخـــدم
هجوت من كـــان كـــالنحـــاس آلتـــهُ ... مضرة نفعهـــــــا للطرق لا الحكم
مـــدحت من كـــان نفـــع النـــاس مرتبطـــاً ... فيهم وان حجبوا فـــالنـــاس في أزم
قوم يجيرون اعـــــــداهم اذا ظلموا ... ولم يفت قط شخصاً طعم خبزهم

مضت ثلاثون عـــامـــاً في الحيـــاة ولم أمـــــدح سوى صاحب الانساب والهمم
ابن السعيـــــد ومن نسل البشير ومن أضحى نسيب العلى والمجد والكرم
لجده قـــالت الامثـــال من قـــدم السيف أصدق انبـــــاء من القلم
وشهرة لابيـــــــه أصبحت مثلاً جـــاءت بـــأشهر من نـــار على علم
وكلما نسبوا في مـــدحـــه قـــدمـــاً كنت النسيب لـــه بـــل فوق مـــدحهم
قـــد نلت مـــا لم ينـــالوا في زمـــانهم احييت في جنبلاط نشر ذكرهم
جعلت اعـــداهم صحبـــاً ومـــا رفضوا عنهم انـــالوك لا بـــالسيف والحشم
لكن بما نلت من حزم ومن كرم ومن تـــــأن ومن صبرٍ ومن حكم
ومن ذكـــاء ومن لينٍ ومن سعـــةٍ ومن ثبـــــاتٍ ومن لطفٍ ومن همم
فضائـــــل حزتها لم يحوهـــــا بشرٌ عنـــد الثلاثين بـــل من مقتضى الهرم
لم انسَ يوم توليت الزمـــام بـــه وأنت مـــــا بين اجواق من الأمم
اوهـــــاهم حسداً اعلاهم شرفـــاً أقواهم هممـــــاً بـــــل رأس كلهم
قلنـــا الى جثث من حولتـــا ضخمت قوموا انظروا الفرق بين العقـــل والضخم
وعنـــدمـــا عرفوا للعقـــل منزلـــة أعلى من الشحم ابـــدوا لعن شحمهم
ذاك الـــــذي ذاب من غيظ ومن حسد والنـــار أدنى احتراقـــاً من لظى الالم
ظننت عن شحمهم يستعوضون نهى فـــأصبحوا بعـــده من انحف السهم
قـــائمقـــاميـــة الشوفين قـــد نطقت اهلاً وسهلاً بـــأهـــل الجود والكرم
لك الهنـــــاء بها ثم الهنـــــاء لها لقـــد علت رتبـــة عن سائر القـــدم
مـــا دمت بـــالعـــدل محفوفـــاً ومنتظراً فـــــأنت اثبت في حكم من الهرم
والعـــدل لا شك روح الحكم ان فقـــدت روح من الجسم كـــان الجسم في عـــدم
فـــدم على رأسهـــا كـــالنيرين كما دامت عليك صفـــــات الفضل والشيم

وقلت مؤرخاً :

قـــائمقـــاميـــة الشوفين قـــد بزغت كـــأنها نجمـــة في الأرض سيـــاره
أتت من الشرق ضمن الغرب قـــد أسرت واليوم قـــــــد هربت للشرق دواره
مـــذ خـــيروهـــا أجـــابت ارخـــوا هـــربي فـــانني لنسيب المجد مختـــاره ١٨٨٤

ونظمت له تاريخاً ثانياً تبريكاً بالرتبة الاولى التي انعم عليه بها سنة ١٨٨٨ .

فلا عجب من نيـــــل رتبتك الاولى فـــأنت بها من قبـــل من قبـــل المولى
وغيرك قـــد نـــال السعـــادة لفظـــةً وأنت بها في أربـــــع ابـــــداً أولى

سعـــادة اموالٍ سعـــادة مولـــدٍ سعـــــادة اعمال سعـــادة مستولى
ولما غـــدا التـــاريخ أمجد مـــادح اتينـــــا نهني فيك رتبتك الاولى ١٨٨٨

(ميدانا الطبيب)

وميـــدانـــا لـــه الميـــدان خـــالٍ فظن يخوضهُ خوض الجيـــــاد
فـــــإن الحق ان الركض ركض الـ ـكـــديش أقـــل من قفز النقـــاد
ولولا نفـــع ابنتـــه شفيعـــا لكـــــان الطب لا يــــأتي بزادِ
وأدويـــــة لـــــهُ أضحت رسولا وأمست للـردى أقـوى مـواد
بفم بخـــارهـــا الارواح تسري الى دار البقـــــاء من النفـــاد
تقول لمن تنـــــاولها لـــداءٍ جاد أنت فـــأرجـــع للجاد

(وصية هامان لولده فنحاس) هذه هي الوصية التي ذكرتها في متصرفية لبنان :

وفنحـــاس ينوحُ مـــع أبيــــه بـلا سبب سـوى حفظ الـوداد
فما أبكـــــاهما تتن قوي بعمشيت ولا يسمـون وادي
تفقـــه يـــا بنيَّ وكن لبيبـــاً وخـــذ عني السيـــاسة والمبـــادي
ولا تخشى من الحكـــام جوراً وشيمتنـــا خم لتم الايـــادي
وأقسم بين حكـــام وشعب واشعـــل بينهم قـــدح الزنـــاد
وهـــذا الفعـــل سموه انتقـــاقـــاً لشق يـــدخـــل المأمور غـــادي
ومن يـــدري السيـــاسة ليس يسعى لهذا الشق يومـــاً بـــانسداد
فتضحي حـــاكم الاثنين عـــالٍ بهذا الانشقـــــاق على الهوادي
وأزرع دائماً أخبـــار كـــذب الى الحكـــام من عمق الوهـــاد
وأشغـــل فكرهم في الغير دومـــاً وحـــاول ان تقيم لهم اعـــادي
بـــذا يضحون في عوز اليكم يرون بـــأنكم أقوى القيـــاد
ومن تحتـــاجـــهُ اخـــدمـــهُ مطيعـــاً وفي تمداحـــه كن أي حـــادِ
وبعـــهُ من عـــداه بحيث تشرى بـــه الأقوى لقصدٍ واستنـــادِ
ومن يظهر لكم أدنى انحراف ضعوا في طرفـــه شوك القتـــاد
وقـــل فيـــه الى الحكـــام هجواً وفي اضراره بـــالسر بـــاد
فـــان افشى بسر لم يصدق عن الاضرار مشلول الايـــادي
وان قـــابلتـــه ابـــديـــه وجهـــاً حزينـــاً اسوداً مثـــل المداد
وابكِ دمعـــةً معـــهُ ولكن فلا تسقيـــه ثقلاً من ثمارِ

وأدخـــــــــل بين اخصام لكسب | واسلب منهم سلب البوادي
لكـــــــــل منهم اظهر وداداً | ومهـــد للصداقـــة كـــالمهـــاد
ولا ضرر اذا اقسمت يومـــــــاً | برب الأرض والسبـــــع الشداد
بـــــانك خـــــالص الود محب | لكـــــــل منهم بـــــالانفراد
وأكشف سرهم بعضاً لبعض | لتمكين الصداقـــــــة والوداد
وانجز شغـــــل من اعطـــــاك قبلاً | وعرقـــل شغـــل خـــالٍ غير آد
اذا المجروح قـــد نـــاداك يومـــاً | فلا تسمـــع لـــهُ ذاك المنـــادي
وخـــــل الوعد منك بلا وفـــاء | ولا تهتم عفـــواً في الضمـــاد
ولا تنـــدب خليلاً قـــد تنـــاءى | وخـــادع من اتـــاك ولا تعـــاد
وقـــاطـــع صاحبـــاً ان غـــاب يومـــاً | فلا ذنب سوى ذنب البعـــــاد
وقبـــــل في الهبوط مـــداس دونٍ | ودس ان قـــــد علوت ذرى الجواد
وحـــــد عن ان تميـــل لكسب فخرٍ | بترك المال او فيـــــه تفـــادي
فـــان الفخر فخـــارٌ قـــديم | وليس عليـــــــه عزمي واعتمادي
وذو خزف يلـــذ بـــه لجهـــل | ويحملـــه بعنق كـــالنجـــاد
وذو الحاجـــات يعلوه مجانـــاً | بلا علف كـــذاك بلا بـــداد
فـــــاترك فخر ذي خزف واسرع | وجـــــد في كسب مـــال واحتشاد
واقنـــع بـــالهدايـــة كيف كـــانت | ولو ان الهديـــة من رمـــاد
واغطس في بحار الكسب يومـــاً | ولو بعت البلاد مـــع العبـــاد
فـلا ينفعـك غـير الكسب سراً | وكن في أكلـــه مثـــل الجراد
وتلك سيـــاستي غـــالطت فيـــا | دهـــاة النـــــاس وارتفعت عمادي
فـــأحفظهـــا تنقـــل نفعـــاً عظيمـــاً | وانشرهـــــا الى يوم المعـــاد

ولما حكم واصه باشا متصرفاً على لبنان سنة ١٨٨٣ عزل فنحاس واباه وابن عمه وسلم وظيفة فنحاس الى حنا الشهير وقد كان قبلاً فيها فقلت بهذه المناسبة :

وظيفـــة يوحنـــا القـــديم معمـــداً | وظيفـــة فنحـــاس وتطهير انفـــاس
لـــذلك يوحنـــا الجديـــد اقتـــدى بـــه | بتفريق فنحـــــاس وتطهير انجاس
(تاريخ) كالبط فنحاس في بحر الهواء زلق | تعلم الغطس من أب لـــــه وسبق
وخـــاض في كـــل عمق من جوانبـــه | مستهزئـــاً فيـــه حتى ارخوه غرق

وتوفي بغتة في شهر نيسان سنة ١٣٢٠ فقلت فيه :

غرقت في أبحر الافكـــار مكتئبـــاً | حتى قضيت وقـــابلت الـــذي خلقك
نـــاحت عليك رجـــال كنت مرشدهـــا | الى السيـــاسة حتى ارخوا غرقك (١٣٢٠

سر عزل رستم باشا كل مطارنة الطائفة المارونية لأنه كان ضدهم وقد أبعد المطران بطرس البستاني عن مقره في بيت الدين ولما أتى واصه باشا اجتمعوا في بيروت عند المطران يوسف الدبس الذي كانت لهُ اليد الطولى بعزل رستم باشا لأنهُ ارسل المرحوم عبد الأحد خضرا الى الاستانة العلية لهذه الغاية لان مدتهُ وهي عشر سنوات كانت قد انتهت أما المطارنة فكانوا المطران يوسف الدبس لبيروت اسطفان عواد لطرابلس بطرس البستاني لبيت الدين نعمة الله الدحداح للشام يوسف فريفر للبترون يوحنا الحاج لبعلبك وكان يومئذٍ البطريرك بطرس مسعد وهو الذي أمرهم بهذا الاجتماع فقلت ذلك سنة ١٨٨٣ :

لنــــــا سادة لم تخلُ منهم فضيلـــــــة — وكـــل لـــه فضل بـــه امتـاز عن ثـاني
سلامـــــة قلب الـــدبس فيـــــه شهيرة — سلاسة عواد واقـــــــدام بستــــــاني
معـــــــارف دحـــــــداح وحزم فريفر — سيـــاسة حج تجمـــع الـــذئب بـــالضان
لهم بطرك حـــــاوي الرزانـــــة كلهـــا — لـــــهُ صبر ايوب وحكمـــــــة لقمان
وقـــاهم دهى الخنـــاس والنـــاس ربهم — وقـــاهم بـــالاولى وصيـــة هـــامـــان

(عدم الوفاء)

وعدني رجل وأكد لي وعده باقسام عظيمة كما هي عادة كل كاذب اذ قيل لا تصدق رجلاً يحلف بسرعة وبلا لزوم ولا امرأة تبكي بسرعة وبعد مدة لم يف وعده وهذا الامر يضر كثيراً لان الانسان يتكل في عمله على وعد آخر يصدقه فيترك كل واسطة اخرى ولما يطالبهُ بالانجاز ولا يفي وعده فيتضرر ذلك الرجل والاجدر عدم الوعد بشيء لئلا يؤمل الموعود والأمل هو العبودية لذلك ترى كل واحد يعتبر الغني اذ يحسبون الجميع اصدقائه او قائمين بخدمته للانتفاع منهُ ولكن اذا قطع الأمل من عدم نفعه فلا أحد ينظر اليه لذلك اذا اراد الانسان ان يكون معتبراً يجب ان يكون نافعاً لان المنفعة تقل او تكثر القيمة وصدق ابن الوردي في قوله قيمة الانسان ما يحسنه وقد نظمت في هذا المعنى الابيات الآتية :

المرءُ يربط واعـــــــــداً بلسانـــــــــه — والثور في قرن وبـــــــــالسيقــــــــانِ
اوعـــــــدتني يـــــا برج عـــــال طوره — وتزوره شمس الضحى بنسان
للآن انتظر الوفـــــــاء بوعـــــــدكم — فكـــــــان وعـــــدكم عـــــديم الشأن
ربط اللسان لكم بـــدون محلـه — قـــد كـــان يلزمك الربـــاط الثـــاني

تولى الامير حسن شقيق الامير بشير الكبير كسروان فلأجل تولي اخيه طلب الامير بشير من الشيخ فضل الخازن حاكم كسروان وصاحب العهدة يومئذٍ ان يتنازل عن العهدة لاخيه الامير حسن فارسل اليه الشيخ

منصور الدحداح وطلب منه ان يتنازل عنها ويطلب ما يريد سواها فأجابه انني اتنازل بشرط ان لا يعين ناطور لمزرعة كفرذبيان (قرية الشيخ فضل) الا بامري فضحك الامير بشير من طلبه واعطاه هذا الامر وعمل حسناً بذلك لانهُ كان يأخذها قهراً فرضاه عين الفلسفة .

(الامير منقذ) هو ابن الامير عبدالله بن الامير حسن شقيق الامير بشير الكبير واخوه الامير سليم عبدالله الذي تزوج السيدة سعدا ابنة الامير بشير الكبير التي ذكرناها كان لطيفاً ظريفاً جميلاً كريم النفس تعين ياوراً عند داود باشا ثم دخل العسكرية وترقى الى ان صار صاغ قول آغاسي ثم ترك الخدمة العسكرية وانتظم في الملكية وصار مديراً على ساحل بيروت وهناك تعرفت به فعرفت لطفه وهو متفنن ذو المام بكل شيء له عدة نوادى يسلي بها محاضريه .

(نادرة) كان الامير منقذ صديقي ومضت مدة لم اره وهو يومئذٍ مدير جبيل وقد توفي بهذه الوظيفة بداء البول السكري فرأيتهُ على ساحة البرج ماشياً يوماً ومن ورآه عسكريان لان المدير له الحق بذلك فلما رأيته توجهت اليه وكنت راكباً فرسي الزرقاء التي سرقها مني شخص من جزين حين كنت اشتغل في المستشفى وماتت على الطريق وناديت الامير فالتفت اليّ وتقدم نحوي فهممت أن انزل فمنعني فقلت لهُ انني حلفت يميناً ان انزل عنها قال ولم يمينك قلت حلفت ان انزل عن فرسي احتراماً لمن هو ارذل مني فضحك وتبسم العسكريان ونزلت عن فرسي وسلمنا على بعضنا وكان هذا اجتماعنا الاخير وقد توفي ١٨٩٦ وهو مدير جبيل ولهُ ابنة وحيدة السيدة ملكة كانت أنموذج الجمال وسمعتها يوماً تطلب ان تتصور تصويراً شمسياً فنظمت لها هذين البيتين :

لقـــد طلبت مني المليكـــة رسمهـــا	فـامسكتهـا في الحال في يـدهـا اليمنى
وأخرجتهـــا للـــدار عنـــد ظهيرة	وقلت انظري فـــالشمس صورتك الحسنى

(السيدة حسن) لما كنت مقيماً في الحدث رأيت مع السيدة ملكة فتاة اخرى تدعى السيدة حسن ولكنها كانت عكس اسمها ولم تر عيني من مصريات وسوريات وخلافهن اقبح من هذه منظراً طويلة القامة نحيفة الجسم كالمسمار شبيهة المومياء وجلدها كالجلد المدبوغ للسكافة وانفها يزيد عن فمها وعينان صغيرتين مستديرتين في وقبيهما لا تفتحان أكثر من ثلاثة ميليمتر وشدق واسع اذا ضحكت تبرز منه اسنانها الكبيرة ومجموع كالباذنجان المحشي ارزاً بارز وكانت اين ذهبت السيدة ملكة تذهب معها وتجلس بجانبها فرأيتها مرة ونظمت الابيات الآتية :

قـــد اجتمـــع الشيطـــان بـالله ثـانيـاً	كما اجتمعنـــا في عهـــد ايوب سابقـــا
وقـــد قـــال كـــل يخلق اليوم صورة	مثـــالاً لـــهُ فيـــه يكون مطـــابقـــ
لـــذا خلق الرحمن وجـــه مليكـــة	ترى الشبـــه فيـــه بـالحقيقـــة نـــاطقـــ
وهـــا صورة الشيطـــان في حسن تنجلي	وهـــا وجههـــا للكون قـــد صار مـــاحقـــ

هذا هو الامير العظيم الذي كنت اجله واحترمه ولما كنت في بيروت كان ساكناً الشياح وهو وريث وقريب الامير حيدر شهاب شاحب التاريخ اللبناني القاطن شملان وهو ذو عقل رجيح وذاكرة عجيبة وقد عمي بسبب طلق ناري اصابه بعينيه وذلك في مدة الامير بشير ابو طحين فانه بينما كان عائداً من دير القمر كان رجل من الشياح اسمه معوض واقفاً بجانبه فأطلق بندقيته فاصابت عيون الامير بقضاء وقدر وبقي مدة حياته اعمى وكان يشتغل بيديه نوعاً من الورق ويعمل قطع هندسية جميلة للغاية وهو كريم النفس جداً يحب الضيف ولهُ مكتبة عظيمة فيوماً طلبت منه كتاب لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري لانه كان اخبرني وجود هذا الكتاب عنده وبعد نحو شهرين اجتمعت به صدفة في محل وقبل ان اسألهُ شيئاً قال لي بحثت عن الكتاب الذي طلبتهُ فلم أجده ولا أتذكر من استعاره مني فشكرت لهُ همته وتذكره وعده لي وكنت احبه لشهامته وظرفه وبعد هذه الحادثة نظمت لهُ هذين البيتين :

خصم رأى عينـــاً لعبـــاس الوغى ... في يقظـــة فـــارادهـــا بنعـــاس
وسبي بعبـــاس اذا غمضت لــــه ... عين تمحض كلــــه للبـــاس

أي اذا حذفت العين من عباس يبقى باس أي شدة وقوة وهذا مديح من ذات العيب الموجود فيه فسر الامير منهما جداً وشكرني لانني قليل المدح .

وبعد مدة ارسل لي الامير عباس قصيدة نظمها لكاذب كان وعده وعداً لم يفه فطالبه بانجازه وماطله جملة امرار الى ان اجتمعنا في مكان وسأله الامير أمام الحضور انجاز وعده فاشهد عليه الجماعة ان يفي وقال له امسك لحيتي عهداً لك فسكها ومع ذلك لم يف فنظم له قصيدة ومنها هذان البيتان :

امسكتي الـــــــــذقن التي ... اضحت مشاعـــــــــاً للورى
يحدهـــــا قبلـــــة بيت الخلا ... الموجود في كـــــــل القرى

بيد ان هذه القصيدة ولو بها عيوب بالوزن غير ان معانيها دقيقة فأرسلها لي لأطلع عليها وطلب رأيي بها ولم يذكر اسم المهجو فأجبته بما يأتي :

من ذا الـــــذي اضحى لهجوك مصدرا ... ولاسمه بين الورى لن تـــــذكرا
فكـــــأنـــــه فصٌ عرفت وجوده ... بـــــالسمـــــع لكن لا تراه ولا يرى
قـــــد قلت فيـــه مـــا وفى بوعوده ... ومسكتـــــه من ذقـــــه لما افترى
المرء يربط بـــــاللسان لوعـــــده ... والثور في قرن وذا امر جرى

لم يرتبط في ذقنـــه لوفــــائــــه الا قبيح او دني قــــــــد سرى
حـــددت لحيتـــه بتحـــديـــد كما قـــد جـــاء في كتب اليبوع مسطرا
ونسيت مـــا كـــل المذاهب قررت ان النجـــاسة لا تبـــاع وتشترى

فكان لهذه القصيدة رنة في بيت الامير الذي توفي بعد ستين وخلف اولاداً لم يزالوا كريمي النفس والخلق وما ضرهم الا عدم اهتمام الاهل بالعلوم والمعارف والصنائع وعدم ميلهم للعمل لأنني اعتقد ان كل غني لا يشتغل فهو فقير وبالعكس اذ لا توجد في بلادنا اموال تقوم بحاجات الانسان وتغنيه عن العمل لذلك متى حرم العمل افتقر ما لم يكن له من يشتغل مكانه لذلك الزواج باكراً ضروري للبشر حتى اذا ادرك العمر الذي لا يمكنه فيه الشغل يعتمد على ولده ومن الضربات التي تحل على بلادنا طول العمر لأن من عمر كثيراً مات فقيراً خصوصاً اذا كان لهُ اولاد لا تهتم به او لا تستطيع اسعافه بل تنهبه .

(اسرة الامير فارس منصور شهاب . الحدث)

كان هذا الامير كريماً محبوباً لطيفاً ورغماً عن شيخوخته فانه كان شاباً بالافكار وقد عاشرته مدة وجودي بالحدث سنة ١٨٨٣ وابنته السيدة رشيده زوجة الامير بشير سليم شهاب ولها اخوة هم الامراء خليل وفايز وفاتك وفاتق وشقائقهم هن دره ونجيبه ونقيه وكانت هذه سمراء اللون نظير السيدة رشيده اما نجيبة فكانت لطيفة بشوشة وقد توفت سنة ١٨٩٧ وتزوجت ابن عمها الامير سعيد ملحم شهاب من مجد المعوش والسيدة درة كانت بديعة الجمال تزوجت الامير سعيد قعدان من غزير وهو مدير عبيه وتزوج ولدها الامير فريد ابنة عمنا عبدالله نصرالله المدعوة انيسة وبعد زواجها بقليل اختلفا ولم يزالا للآن مختلفين فسافر الى تونس ثم الى مالطة وذهبت انيسة الى شقيقتها بحيفا اما السيدة رشيدة فقد كنت اعرفها أكثر من الجميع وهي من عائلة بيت الامير سليم في الجيه وزوجها ابن السيدة سعدا توفي قبل والدته فأصبحت السيدة رشيدة وولدها الصغير الامير سعيد بلا ارث وطلبت مني المساعدة لدى حماتها التي كانت يومئذٍ مريضة وانا طبيبها فرجوتها ان تكتب لحفيدها القسم الذي كان يناله ابوه لو بقي حياً فأجابت طلبي وبعد برهة وجيزة توفيت السيدة سعدا ولو لم اعجل بطلبي هذا الامر منها لأصبح الامير سعيد فقيراً لا يملك شيئاً وقد بلغ ما ورثه نحو خمسة الاف ليرة ولما كنت في الحدث اجتمعت عائلة الامير فارس وزوجته السيدة هند مع الأولاد فقلت بهذه العائلة الابيات الآتية :

رشيـــــدة عقـــــل عيروهـــــا بلونها نسوا انها من كـــــل عيب نقيـــــة
وهب لم يكن في وجههـــا وجـــه درة كفى انها في كـــل فعـــل نجيبـــة
بنو فـــارس من بـــاطن الهنـــد قـــد اتوا اتى الجود معهم والسخـــا والفضيلـــة
فكم فـــايز منهم بكـــل كرامـــة وكم فـــاتك هـــابتـــه في الحي جيرة

وكم فـــائق اقرانـــه في حاهم خليـــل لـــه منـــا القلوب خليلـــة
لفضلهم لبنـــان قـــد بـــات شاكراً بطوع والا اكرهتـــه الحقيقـــة

وقد توفي اليوم والداها والسيدة نجيبة زوجة الامير سعيد وهي نفساء فحزنت عليها كثيراً .

(حامد افندي شاول)

هو أحد عظماء الرجال بجبل لبنان وقد اشتهر والده من قبله وقد حصلت لي معه القصة الآتية وما قصدت بها الا المزح لا عدم الاعتبار .

التقيت به يوماً وهو نازل من الحدث مركز المتصرفية الى بيروت فقال لي يا عم بلغني انك هجوت كل مأموري الجبل الذين كانوا مستخدمين بأواخر مدة رستم باشا قلت نعم قال عساك لم تذكرني بسوء أجبت انني كنت نسيتك وحيث فكرتني بذاتك فسيصلك نصيبك غداً ان شاء الله اذا خطر لي معنى مبتكر اتأسف لذهابه طي الكتمان او النسيان ولو تكدر المهجو .

وفي اليوم الثاني أرسلت الى الأمير منقذ الذي كان يومئذٍ مدير الساحل البيتين الآتيين فكتبهما ووضعهما على طاولة حامد افندي قبل حضوره فلما اتى ورآهما تكدر وقابلني بعد ذلك فعاتبني لأجلهما قلت ما فيهما ما يكدر وقد نظمتهما للمزح ليس الا وهما .

اذا حمـــد الانسان مـــا الله ذمـــه لحامـــد شاول غـــد اللعن منقولا
فشاول بـــالتوراة قـــد جـــاء لعنـــه لـــذا فـــالعنوا بـــالحق حـــامـد شاولا

(يعقوب)

هو شاب ذكي جداً درس الطب بالكلية الاميريكية في بيروت وهو شاعر اديب وطبيب ماهر ومن نحسه أصيب بألم شديد في رأسه وكانت تحكمه نوبٍ في الاسبوع كان يسجن بخلالها في البيت ولما تذهب عنه النوبة يعود اليه عقله اخيراً اختل شعوره وكان فصيحاً جداً وقبل ان يصل الى هذه الدرجة اجتمعت به في الحدث قرب بئر الجسر بينما كنت عائداً مساء الى بيروت فقال لي مرَّ نصف النهار عليَّ وأنا أبحث عن طبيب من قفا كلب فقلت له لو مددت يدك الى قفاك لوجدته واستغنيت عن كل هذا التعب فضحكنا وطلبني ان اتوجه معه الى كفرشيما لعيادة مريض من بيت الشميل فتوجهت معه وبتنا تلك الليلة هناك فأضطرب فكر عائلتي لغيابي تلك الليلة دون سابق علم وكان يعقوب يطلب للخطابة ولما بلغني ذلك نظمت له هذين البيتين :

ولما بـــدا يعقوب عنـــد خطـــابـــه	ظننـــا لصوت منـــهُ نسمـــع ضراطـــاً
وكـــان خطـــاب كـــالهواء مملطـــاً	على فيـــه سموه لـــذلك ملاطـــاً

وبعد مدة رأيته على ساحة البرج في بيروت وقد أرخى لحيته فسلمنا على بعضنا واخبرته اني اريد ان أنظم تاريخاً للحيته وان نظمي يكون حسب الموضوع وهو قابل للسفاهة فنظمت له التاريخ الآتي :

لحيـــة ابشع منهـــا	وجـــه حـــاويها المؤرخ
والهوا ملط فيـــهـــا	فلـــذاك الشعر فرخ
حـــذفوا المايـــة منهـــا	عنـــد ذا الملاط صرخ
ارجعـــوا خمســـة جـــبرا	زيـــن الجـــبر فـــرخ
بقباط ارخوهـــا	فـــاستحقت قلب ارخ

والتاريخ يأتي بعد كلمة ارخوها وهو سنة ١٩٨٢ فلو حذفنا منها مائة يبقى ١٨٨٢ وان جمعنا اليه خمسة تصير ١٨٨٧ وهي السنة المطلوبة اما نكتة التاريخ فقلب ارخ .

وقد كثرت النوب على الدكتور يعقوب حتى اختل شعوره والمرض بازدياد عليه وسببه العزوبية وقد اشرت عليه بالزواج لعله يجد معزياً لأنه كان يظن ان كل اقاربه واخاه فارس اعداء له .

(قساوة القسس) في احدى الجلسات وجد قس فصيح يحب التنكيت والمزاح وكنت مباشراً عملية جراحية في العين ولما انهيتها وأخذت مكاني قال القسيس ان قساوة الاطباء شديدة قلت له ان الحقيقة عكس ما تقول لان المسيح ضرب المثل بهم معيراً قساوة القسوس واسمع ما قال :

وفي مثـــل المسافر في اريحا	اتى مثـــل القساوة في القسوس
ولكن الطبيب اتى مثـــالاً	لحب الغير مـــع كرم النطوس

وهذان البيتان يذكراننا بقول المسيح وحكاية مثل المسافر الى اريحا الذي سقط بايدي اللصوص وجرحوه وسلبوه ومر به كاهن فلم يعتن به اما السامري فاعتنى به وعالجه حتى شفي فكان الكاهن مثال القساوة والمداوي مثال الرحمة .

(جرجي دكتور) كنت يوماً في صربا مدعواً لمنزل الخواجه رزق الله خضرا وزوجته السيدة مريم نصرحا حاضرة وهي لطيفة ذكية تحب المزاح وكان موجوداً هناك الدكتور جرجي لسبب لا اعلمه وقد عرفت فيما بعد انه اتى لمعالجة بواسير الخواجه خضرا وكنا وقتئذٍ بكرخانته المشهورة فترجتني السيدة مريم

ان انظم لها شيئاً بجرجي المذكور الذي كان درس الطب بواسطة المعلمة روزا في مصر وهي احدى قريباته فنظمت :

في شخص جرجس مـارون قـد اجتمعت ... حـاجـات طب حوت كـل العقـاقير
رؤيـاه مسهلـة ايـديـه قـابضة ... وشاربـاه ربـاطـاً للبواسير

فعلا الضحك ولم أكن اعلم سببه حتى اخبرني الخواجه رزق الله انه دعاه لعيادته واشار عليه باجراء عملية ربط البواسير.

(دعوى جنائية) شرط الدعوى الجنائية والحكم بها ان يرى المشتكي اثر الجرح والدم ويأتي بالشهود يذكون دعواه ومتى تمت هذه المعاملات يحكم على الجاني ويمكن للمدعي عليه ان يتخلص بجرح شهادة الشهود وقد نظمت بهذا الشأن ما يأتي :

شكت الخـدود بـأنني جرحتهـا ... وبها دمـاء الجرح عـدن ركودا
فمضت الى رمش الجفون بـديني ... وأتت بعينيهـا على شهودا
وأتت بخط الحاجبين مـذكيـا ... فقضي بقتلي عـاجلاً مجلودا
فـأجبت يـا رمش اتئـد في قتلتي ... الخط زور مـا تراه ورودا
والطرف سكران وليس بمذهبي ... ان السكـارى يقبلون شهودا

(المعالجة) بعد هذه الجناية التي كان سببها الاخصام التقينا في مجلس انس فاذا كل يلتفت الى الاخر وكانت عيوننا تتكلم ونحن سكوت اخيراً رق الواحد منا على رفيقه وابتدأنا بالكلام وبعد ساعة تصالحنا فنظمت بهذا المعنى :

تخاصمت من ذنب العـداة بما سعوا ... اقمنـا خصامـاً قـام نـاقـة صالح
ولما تقـابلنـا اقـامت عيوننـا ... حروبـاً عليهـا النوح من كـل نـايح
ترامينـا بـالانبـال فهي بخـدهـا ... أصيبت وقلبي كـان مرمى الصفـائح
ولما رمينـا في الكفـاح توسطت ... لاصلاحنـا الاجفـان في كـل صالح
عقـدنـا عقود الصلح ثبت حكمهـا ... بتقبيـل جـارحهـا وتقبيـل جـارحي

وهذه الابيات نظمتها وادرجتها في ديواني الأول الذي نظمته في الصبا بمصر واغلبه خيال لا حقيقة له وقلت في عفيفة :

ولي في الهوى عينـــان عز وعفـــة	اداريهما من رمــــدة العشق في عمري
لعلمي بين العين والعين عــــــدوة	يعـــاب بها الانسان من حيث لا يـدري
قطعت صبـــا عمري خليـــاً من الهوى	ومن عفتي بين الورى قــد سما قــدري
ولما رأت عينـــاي عين عفيفــــة	تركت عفـــافي فوق رمـــانـــة الصدرِ

فالعينان المذكورتان في البيت الأول هما العز والعفة وما بقي من العيون فهي العفة والعشق والعمرين .

(قلب القدح) وكان في بعض الاجتماعات يتعاطون المشروبات الروحية التي كنت أكرهها جداً ولم اعتد عليها ابداً وكنت اذا وجدت في مجلس وأجبرت املأ كأساً على مناولة شيء منه واضعه أمامي والحس منه واستعيض عن الشرب بأكل ما يقدم مع العرق من الاشكال ففي ذات يوم قدموا لي الكأس فأخذته تأدباً لان الشرب يدعو للكرم وكل ما شرب الانسان يريد ان يكرم ضيفه ويتكدر جداً من الذي يرفض الشرب معه وكنت احياناً أقوم واسقي الحضور وأطرب جداً من الصوت الحسن وقدم لي أحد الحضور بجلسة كأساً من العرق فارتجلت قائلاً :

كلانـــــا سواء نــــدير القـــــدح	وقـــــد اسكرتنـــــا مــــدام الفرح
فـــأنت سكرت بـــاقـــداحهـــا	واني سكرت بقلب القــــــــــــدح

(بطرس) في أحد الايام ذهبت لزيارته مع بعض الاصحاب وكان ذلك برأس السنة فلم نجده فكتبت له هذه الابيات :

اتينـــاك في فصل الشتـــاء لزيـــارة	فـــانكرتنـــا حتى فررت كما القطـــا
فبطرس قبلاً كـــان مثلك نـــاكراً	لسيـــده جهراً واسبـــابـــه الشتـــا
ولكنـــهُ قـــد تـــاب عن ذاك عـــاجلاً	متى توبـــة منك نراهـــا متى متى

(نعوم قيقانو)

أصله من عينطورا كسروان تعلم اللغة الافرنسية بمدرستها وأتى الى بيروت ودخل في التجارة عند المستر بلاك التاجر الانكيزي ثم انتظم بحكومة جبل لبنان مدة داود باشا بواسطة المطران طوبيا عون سلف المطران يوسف الدبس وهو اشهر المطارنة واقدرهم على السياسة وكان من مبادئه ترقية وتقديم النجباء والمعتبرين من أبناء طائفته حتى يستريح في اشغاله لكي يساعدوه اذ كان مضطهداً وهو راهب من معلقة الدامور وسكن مدة في دير مشمومة وذلك حين كان جدي الخوري ابراهيم في بكاسين لأن الدير قريب منه وعندي بعض أوراق بخطه حتى الان وقد نجح هذا المطران جداً وانشأ كرسياً في بيروت وجعل اهابة

للطائفة وكان نعوم افندي من الاشخاص الذين يخصونه وتوصل الى ان صار قائمقام المركز في لبنان مدة فرنقو باشا وقد اعترضت اخيراً الدول على تسميته لانها خارجة عن الوظائف اللبنانية فعزل وبقي فرنقو باشا يدفع له معاشه بعد العزل ثم تعين عضواً بمحكمة التجارة في بيروت ثم عزل ولما حضرنا الى بيروت كان بلا وظيفة وكنت اتردد عليه لصداقته الحميمة مع والدي في لبنان .

ولكثرة ترددي عليه صرت اعد من اصدقاء المنزل واختاروني طبيباً خاصاً لهم وكنا نقضي ليالينا مع المرحوم اخي خليل الذي كان يومئذٍ معزولاً من الخدمة بأواخر مدة رستم باشا ولأجل ان نمضي اوقاتنا نتسلى بلعب الدومينو وكان نعوم افندي يتكدر جداً من الخسارة اما اذا اغلب فكان يستهزي بالمغلوب وله ولد اسمه خليل يميزه بالحب عن باقي أولاده لمرض في رجله وكان يمزح معي دائماً ان كنت غالباً او مغلوباً وكنت استحمل مزاحه اكراماً لوالده ففي احدى الليالي زاد خليل مزاحه فقلت لهم هذه الحكاية .

كان رجل صاحب ذوق لا يمكنهُ ان يسكت عن أمر ثقيل يجري امامهُ فاحتاج في بعض الايام لدراهم واتى الى صديق له يستدين منه فقال له يا صاح ان العطا لا يدوم ولو اعطيتك اليوم لا استطيع ان اعطيك غداً ولكنني ارشدك الى امر تكتسب منه بسهولة قال وما هو .

قال انه يوجد في الحي الفلاني بالمنزل كذا رجل غني وله ولد يحبهُ جداً وكل من يمدح الولد لابيه يكرمه فأذهب اليه وامدحه فتنال الغنى حتى يقضي الله امراً كان معفولاً واضطر الرجل الحر ان يمتثل لرأي صديقه فدخل على الغني وبعد ان جلس قليلاً طلب الولد فأتى وجلس بحجر والده وصار يمسك له شاربه ولحيته ويقفز على ظهره والرجل يتأمل هذا العمل وهو ساكت الى ان انتهى فقال الوالد لضيفه كيف رأيت ولدي وما حكمك عليه أجاب انه ثقيلٌ ثقيل ورزقي على الله وتوجه وانا أقول لك يا نعوم افندي ان ابنك ثقيلٌ ثقيلٌ ثقيل وسهرني على الله فضحك حتى استلقى على ظهره .

وتعين بعد ذلك نعوم افندي رئيساً لمحكمة بداية الجزاء في بيروت حين تشكلت العدلية في سوريا وكان مفتشها دولتلو احمد عزت باشا العابد الذي عين المرحوم اخي خليل عضواً ملازماً بالدائرة ذاتها وبعد نحو عشر سنوات اقيل نعوم افندي من وظيفته وعمره نحو سبعين سنة وبعد مدة توفي اما المرحوم اخي خليل فحين اتى دولتلو واصه باشا متصرفاً على لبنان اعاده الى مركزه مستنطقاً للمركز .

ولنرجع الى التقريظ ففي أحد الايام حضرت مساء فوجدت نعوم افندي مع عائلته على المائدة وجلست في الايوان الذي كنا نسهر فيه ورأيت على طاولته ديوان شعر صرت اتصفحه فعثرت على قصيدة بعثها الناظم الى زوجته وأولاده وكانت بغاية الركاكة تغزل بها بأمراته مع انهُ من أحسن رجال سوريا علماً ولطفاً وذكاءً ورأيت بآخر الديوان تقاريظ الشعراء له اذ جعلوه متنبي زمانه كعادة الشعراء المتملقين التي تخجل اشعارهم صاحبها .

(رواية الحسود) حضرت ليلة أقامها عزتلو نقولا افندي نقاش تذكاراً لمولده مثلوا فيها رواية الحسود تأليف اخيه المرحوم مارون وكان مدعو اليها والى الولاية عزيز باشا وذوات بيروت واعيانها فاستهل الحفلة ابنه بخطاب مدح فيه والده الذي كان حاضراً معنا وشكر له تهذيبه اياه وقد نجح الممثلون نجاحاً عظيماً فنظمت هذين البيتين وقلتهما اثناء التمثيل :

حكموا على شخص الحسود بـــأنـــهُ قـــد لا يسود بما يشا ويريـــد
فتوكـــل النقـــاش في دعوى لـــه وبحذقـــه جعـــل الحسود يسود

كل ما قل الشعر تكرم وكلما تكرر سقط وكان قديماً لا ينظم الا لكل ممتاز فلا يدعى اي كان العالم التحرير او البطل الصنديد او الشاعر الماهر وكأنه كان يحوي حقيقة الممدوح اما الان فبالعكس نراهم يمدحون الفاضل كاللص حتى أصبح الشعر للتمليق لا للحقيقة وحين رأى العالم والفاضل والشاعر والبطل مدحه كمدح من لا يماثله بهذه الصفات كرة الشعر ولم يعد يعتبره فلما قرأت تقاريظ هذا الديوان وهذه القصيدة من حيث عدم ذوقها سبق تأثر فكري فارتجلت هذين البيتين :

ديوان مفضال شعر جـــاء منطبقـــاً وافيتـــهُ بغتـــةً في حسن تقريظ
قـــد قلت فيـــه وقـــاربـــه يقر بـــه مـــا جـــاء من فيـــه طبقـــاً جـــاء من...

(القاضي العبوس) كان أحد القضاة ماهراً جداً بالاحكام خصوصاً متى قبض الجعل المعلوم له وحركة عظيمة يعرفها المدعي او المدعى عليه وهو ذو هيئة كئيبة وعبوسة وجه بحيث ان المدعي كان يخاف من هيئته ويكثر عليه الاسئلة والاعتراضات حتى يرتبك في الاجوبة اما اذا قبض فتزول عبوسته ويصير بشوشاً ويختصر الاسئلة فنظمت له هذه الابيات :

وذي دعوة مـــا قـــام بـــالوعـــد والوفـــا فـــانكره القـــاضي كما انكر الصفـــا
واعرض عنـــــه دون ذنب وزلـــــة وابـــدى لـــه قلبـــاً أصم من الصفـــا
ومـــد لـــه ايـــدي السؤال لصرفـــه ولما بـــدا الـــدينـــار في كفـــه عفـــا

وقلت في قاضي آخر ارتشى بكيس من الطحين :

وقـــــاض خلتـــــه في الحق طوداً وعـــــــــدوه من الركن اليمين
ولما حجـــــة المظلوم فـــــامت فزلزل ركنـــــــه كيس الطحين

مبالغة مدح الجمال

قلت في مليحة جميلة جداً لانه عند رؤيتي الجمال اندهش لأن الجمال والصوت الحسن هما عاملا سروري وأظن انهما يؤثران عليَّ اذ هما مفقودان مني لان الانسان يحب ما كان محروماً منه ومتى تأثر الانسان يخرج عن حدود عقله لذلك أقول ان لا عقل لكل ذي شهوة مثلاً اذا رأينا شخصين يتخاصمان ويتصاربان فنضحك منهما ونقول انهما مجنونان ولكن لو اصابتنا تلك الظروف لفعلنا مثلهما فأين ذهب عقلنا وقد كنا نضحك من عملهما ونستهزيء بهما واني اعتقد ان العقل هو الضعف فتى عجز الانسان او كان خالياً من الشهوات يكون عاقلاً وهكذا ترى الفلسفة والعدل اعظم افعال العدل خلقهما الانسان لغيره لا لنفسه تراه يتفلسف ويعدل متى بعد الامر عنه ومتى وصل اليه فلا يسمع ولا يرى مثلاً لو مات لانسان عزيز يتأسف ويبكي وينوح فيأتي اصدقاؤه ويسردون له جمل العزاء الرقيقة فلا يصغي لهم وبعد ساعة يبلغه موت والد صديقه فيذهب اليه ويعيد له ما كان سمعه قبلاً فماذا نفعت الفلسفة وهكذا قل في العدل لأن الانسان يعدل للغير لا لنفسه ولا يمتاز من البشر الا من حكم على نفسه بالعدل ومن منعته الفلسفة عن الغم فهؤلاء هم المختارون وقد نظمت لحسناء هذين البيتين وفيهما من المبالغة ما فيهما ولكن لفرط جهلها قلت ان الخالق عز وعلا لا بد له من تمييز الجميل عن القبيح ولا يمكنني ان افهم الا ما يدركه عقلي فأي صانع يعمل تمثالاً جميلاً ولا يتعب عليه أكثر من التمثال القبيح فقلت :

ابت الطبيعـــــــة ان تجود بمثلهـــــا	وغـــــدت كرهـــــان لاعظم فعلهـــــا
وقفت سنينـــــاً ليس يحصر عـــــدهـــــا	في صنعهـــــا حتى انتهت من شغلهـــــا

رب جميل لا يراه غيري مثلي فالجمال هو موافقة نظر واحد لآخر يستحسنه واعظم شيء عند الرجل ما يعجبه وقد قالت الامثال خير الحاجة التي تعجب صاحبها

أقول كرجل تعلم جميع العلوم تقريباً خصوصاً الطبيعية منها اني رأيت مشابهة عظيمة بين الامور الادبية والطبيعية وكما انه توجد في الطبيعة اجسام تتحد مع بعضها واجسام تتنافر كذلك في الامور الادبية نرى هذا الامر مثلاً ان الحامض الكربونيك يتبع الكلس اين ما وجد ويتحد معهُ بالتركيب ويعيشان سوية ولا أحد يعلم سر ذلك وهكذا الانسان فان فيه خاصة تجعله ينجذب قهراً عنه الى شخص لا يعرفه من قبل ويريد ان يتحد معه ولا يفارقه وهذا الامر لا يمكن تفسيره الا حسب علم الكهربائية ان لكل جسم جهاز كهربائي كعامود فولطا وخلافه متى كانت الكهربائية موجبة في ذلك تكون سلبية في الاخر فيتحدا اعني متى كان لكل منهما غرض خلاف الآخر يتحدا واما العرض الواحد يتنافر ومع الوقت نرى ان الكهربائية هي من اعظم عناصر الحياة ايضاً وقد قال المتنبي :

ومـــــا هي الا نظرة بعـــــد نظرة	اذا سكنت في قلبـــــه رحـــــل العقـــــل

فالشاعر يعربد عند رؤية الجمال ولا يعلم ماذا يقول او ماذا يعتقد مدة تهيجه ولكنهُ بعد حين يعود فيضحك على ذاته كما حصل لي فاني لما نظمت هذين البيتين كنت في حالة لست فيها الان وسبب ذلك ان ابن العشرين يفرق عن سن الخمسين فترى الانسان كل يوم في حال حسب امياله وشهواته فالفضل للعمر بذلك كله وقد قلت ولست بنادم ليتني بعد في ذلك الزمن :

جمـالـك اغـرابي وعلمـني الهـوى	فما لي بـه ذنب ومـا لك بـالسوى
فحسنك مـع عيني بقتلي تعـاهـدا	لـذلك قلبي معها ضاق واستوى
فما حيلتي ان كـان خصمي داخلي	عـدو فلا يخشى العـذاب لو أكتوى
اراه دعـاني للهلاك ولم اجـد	سواه على نـار الغرام قـد انشوى
سألت طبيب الحب من برء علتي	فجـاوبني صبراً فـذاك هو الـدوا

اسعد رعد

رجل لطيف ظريف ذو عقل راجح لطيف المعشر غني جداً ولكنه كان يتباخل بعض الاحيان وبالاختصار ان كان كريماً او بخيلاً حسب شهوته وهوسه فتراه حيناً أكرم من حاتم وطوراً ابخل من باقل وله عدة خدم مع انه لم يكن عنده سوى امرأته ومصيفه من اجمل المحلات وقد أخذ امرأته في الشتاء الى مصر وصحب معه عدة اشخاص على حسابه كلفوه نحو الف ليرة مع ذلك كنت تراه يحاسب على الباره وبالاجمال كان شخصين في شخص واحد اما تلك فكان متهوساً لوجود السيدة عفيفة .

السيدة عفيفة

كانت هذه السيدة جامعة قلوب الكل والجميع مدلهون مغرومون بها ومحضرها محضر لطف وأدب وذوق ونظر والتفات فيظن كل واحد انها تكلمه وكان اسعد يحبها لا لنية فاسدة بل كان يتهوس بها ويفعل ما تريده ويرغب سرورها وكانت تحب الأصوات الجميلة اما اسعد فكان يصحب معه الى بيت مري شخصاً اسمه المترجي يعزف بالقانون حلبي الأصل وهو اليوم في مصر ويجتمع اسعد وزوجته التي كانت تحب الطبخ وطعامها فاخر وكانت ملكة المجلس السيدة عفيفة ورجلها مثلنا يحب السرور ولطف الله شقيق اسعد رجل سليم القلب محب لطيف مثل امرأته التي كانت جميلة الصورة وكنا نجلس من الصباح الى المساء ومن المساء الى الصباح في نشيد وأكل وشرب وضحك ونظن ان النهار ساعة وكانت مهما طالت سهراتنا تتكدر لانتهائها كأننا مسحورون وما كان سحرنا الا من السيدة عفيفة بهجة المجلس ومع كل هذه الاجتماعات ورفع التكليف لم انظرها ابداً جالسة جلسة غير ادبية وبقينا في هذه الحال طول الصيف ولما نزلنا الى بيروت قضينا الشتاء كذلك سوية اخيراً لما تعلم اسعد لعب البيزيك هواه جداً وسلب عنا السيدة عفيفة التي كانت تلعب به فبطلت جمعيتنا وأذهب « الاون فوا » رونقها ولكن من أين لهذه اللعبة لطف

السيدة عفيفة او « الأدير » سحر ناظريها وقد علمتني هذه اللعبة فغرمت بها أولاً كما هي العادة وقد سألني بعضهم ما هذا الانشغاف في البيزيك فقلت لهم :

قـــــالوا شغفت ببيـــــازيك فقلت لهم بـــــل في التي علمتني اليوم بـــازيكـــا
بنصف بـــازيك اون فوا وعـــدت بـــه لكن أدير ولا بـــــالعمر توفيكـــا

قولي اوعدتني « باون موا » اي بنصف له نصف بزيك « بز » في اللغة الفرنساوية معناها قبله ولكنها لا تفيها ولكن تجعلها ادير اي في المستقبل .

وكان اسعد يحفظ اشعاراً جميلة وهو يعزف على القانون ويعرف أصول الموسيقى العربية جيداً وكذلك علم الفلك ودرس معظم الكتب الفلسفية نظير فولتر وفولنه وسواهما وكان دائماً ينشد هدين البيتين :

أتت اسما وساحبـــــة رداهـــــا على اثر المواطي من ثراهـــــــــا
فـــــديتك لو مررت على جفون لما كـــــانت تنبـــــه من كراهـــــا

وكانت هذه الابيات الجميلة مع الصوت الحسن والقانون البديع والخمر الجيد والمنظر البهيج وحركات التأثير من المنظور اليهم تخرج الانسان عن طور العقل ولربما لو وجدت هذه الاشياء امامي لاتأثر منها كالسابق وكنت نظير اسعد يأخذني الهوس أي مأخذ فلما سمعت هذين البيتين اثرا على فكري كالخمر واخيراً افتكرت بأن البيت الأول ليس فيه معنى دقيقاً بعكس الثاني وارتأيت ان اشطرهما ولما فعلت ذلك عناها اسعد وقد قلت :

اتت اسما وساحبـــــة رداهـــــا كما سحبت فؤادي في هواهـــــــا
فرشت الوحنتين لها بساطـــــاً على اثر المواطي من ثراهـــــــا
فـــــديتك لو مررت على جفونٍ وقـــد حطت رحـــالك في حشاهـــا
وحق الود يـــــا اسما في قلبي لما كـــــانت تنبـــــه من كراهـــــا

فزاد التحمس والنهوس ولما رأيت استحسانهما زدت هياجاً وصياحاً وفعل الجميع مثلي وبينما نحن في هذه الحال جالسون في الدار اذا الباب فتح فجأة ودخلت منه خزما وهي امرأة وسخة قذرة تناهز الخمسين من عمرها عليها لباس الفلاحين وثوبها وسخ جداً فتكدرت جداً لدخولها وقلت ابدلوا الاشعار وقولوا :

أتت خزمـــــا وساحبـــــة حزاهـــــا على اثر المواطي من ثراهـــــــا
عـــــدمتك لو مررت على طيور لما كنت تنبـــــه من كراهـــــا

فانقلب المجلس ضحكاً حتى خرجت خزما وتخلصنا من اوساخها وعدنا الى الاشعار ومن جملتها ما قاله اسعد وشطرته :

من مجيري من العيون المراض	فتكهـــا في الحشا كفتك المواضي
يـا آل ودي هـل عنـدكم من طبيب	عــلٌ يشفي من الهوى امراضي
قـدر الله ان أموت عـذابـاً	انـا فما قـد قـدّر الله راضي

فشطرتها حالاً وقلت :

من مجيري من العيون المراضي	قـد اباحت دمي بـدون التقـاضي
مـا استعـارت لـذاك سيفـاً ولكن	فتكهـا في الحشا كفتك المواضي
يـا آل ودي هـل عنـدكم من طبيب	او دواء الى العيون المراضِ
أن شفى سقمهـا وبـاتت سليمـاً	عــل يشفي من الهوى امراضي
قـدر الله ان اموت عـذابـاً	فـأنـا خـاضع بـدون اعتراضِ
حيث هـذا نصيب كـل محب	انـا فما قـد قـدر الله راضِ

كان يلبس ابراهيم النجار برنيطه واحياناً طربوشاً ففي أحد الليالي وكنا في محل الخواجه حبيب بسترس الصغير وكان لابساً الطربوش فكلفني الخواجه حبيب بنظم بيتين الى الخواجه ابراهيم فقلت له :

كـان لابراهيم برنيطـة	قـد أصبحت هـاجـار اعمالـه
طربوشه سارا على وجهـه	مـا زال في الحالين في حـالـه

هاجار هي امرأة ابراهيم التي طردها وسارا التي بقيت معه . فسكت وشكر الاله لانهُ لم يعرف أي الحالين قصدت القبيح ام المليح . فضحكنا وكان رحمه الله لطيفاً جداً .

(وكيل دعاوي) كان لي جار من بكاسين اسمه منصور ابو هاشم وكانت ارزاقه ملاصقة املاكي ولم استطع مشتراها من مدة حياته لأنهُ كان يأبى بيعها وضايقني جداً بسبب ذلك ولما توفي بلا عقب قام الورثة وهم اولاد عم عمه وزوجته التي كان محرراً لها كمبيالات في محلات مختلفة وكانت وحيدة لا مساعد لها فاراد باقي الورثة حرمانها من مالها ولما دريت بها اجرتها واشتريت منها الكمبيالات لترافعت مع الورثة وشهد الشهود بصحتها وحكم بها . وعوضاً عن الخضوع للحكم الذي لا مفر منهُ اخذ احد المحامين يغري الاخصام ويقنعهم بأنهم يكسبون دعواهم وكانوا سليمي النية فصدقوه واستأنف الى محكمة التجارة في بيروت وفيها حكم لي كالأول غير ان المحامي صار لكي يبرهن لموكليه ببراعته يتكلم ما لا فائدة منه فسكت الاعضاء ولم يسكت فنظمت له هذين البيتين :

عجبتم من قـــــــديم من حمار	تكلم نـــاطقــاً من أجــل غــايــة
فلم لا تعجبوا منــــــه محام	وان لصمتــــه لم تكفِ ايــــة

وعنيت بذلك حمار بلعام . وانتقل الشعر سريعاً من واحد الى آخر حتى وصل الى الرئيس فقال انا آتيكم بهذه الآية فحكم عليه واسكته .

كنت بالشام جالساً في صيدليتي بسوق الخيل وأمامي مرملة فحضر احد الظرفاء وطلب مني شعراً فيها فارتجلت له هذين البيتين :

ومرملــــة تمرمرهـــا حشاهـــا	تعزي من بغمٍ قـــد رآهـــا
اذا سكب اليراع دموع حزن	تنشفهـــا برفق مقلتـــاهـــا

البطريرك غريغوريوس يوسف

دعيت لمدرسة عين تراز لمعالجة عيون سعيد الذكر البطريرك غريغوريوس يوسف بطريرك الروم الكاثوليك الذي كان مصاباً برمد نزلي مؤلم جداً الزم الامر لاستدعائي من بيروت فذهبت ولما عاينته وصفت له قطرة كانت لم تستعمل في بلادنا وهي المرة الاولى التي أمرت بها وثمنها مايتا غرش وهي مركبة من عشرين قمحة هيدروكلورات الكوكاين وسبب غلائها منافع هذا الدواء في العين ولم تكن توجد منه كمية وافرة فارتفعت اسعاره جداً وكان الالم على البطريرك شديداً جداً لا يطاق فلما استعمل هذه القطرة زال عنهُ بسرعة فقال لي لو كانت هده القطرة تساوي اضعاف هذا الثمن لاشتريتها وبقيت عنده يومين . وهذه المدرسة هي أكليركية للطائفة ولها ايراد كافٍ وظهر منها معلمون اشتهروا كثيراً ومن أبدع ما فيها في الدار الغربية شجرة سندان بلطوا الأرض التي تحيط بها فجعلوها مقعداً يستظلون بها وكانت البطاركة خصوصاً البطريرك غريغوريوس يوسف تقضي فصل الصيف هناك .

ولد هذا البطريرك في رشيد سنة ١٨٢٣ ترهب في دير المخلص سنة ١٨٤٠ تعلم في رومه صار مطران عكا سنة ١٨٥٦ وهو من بيت عسكر انتخب خلفاً للبطريرك اكليمنضوس بحوث الذي استعفى من هذه الوظيفة سنة ١٨٦٤ وله خدمات عظيمة للطائفة وهو الذي أسس لها المدارس فالمدرسة البطريركية في بيروت هي من عمله وقد جعل للطائفة اهمية عظيمة وكان لطيفاً عالماً فاضلاً طاهراً عرفته جيداً وكان يحبني كولده ويرى لذة بمعاشرتي ويسأل عني دائماً ولما كنت اراه في بيروت كنت ازوره دائماً وقد زرته بمرضه الاخير وهو التهاب بالمثانة وتوفي في دمشق في ١٠ تموز سنة ١٨٩٧ وخلفه المطران بطرس الجريجيري الزحلاوي مطران بانياس وكان انتخابه في دير صربا للروم الكاثوليك وذلك سنة ١٨٩٨ .

حبيب بك السعد والآن حبيب باشا

هو أجل هذه الاسرة السياسي عاقل زكي عالم متداخل كريم الخلق والخلق عرفته صغيراً وكان بخلاف اخوته يهتم بالسياسة وقد انتظم في سلكها بمدة واصا باشا وتعين رئيساً للقلم العربي وفي هذه المدة أصلح احوال ترزا وخلصها والفضل بذلك له وعند حضور نعوم باشا ترك وظيفته وصار يتعلم التركية حتى مهر بها وهو صديق الوالي وأعظم موظفي الولاية وله اصدقاء واحباء يعتبرونه وقد أبدى همة عظيمة لجمعية دار الشفقة بالاستانة العلية وجمع لها الف وخمسمائة ليرا من الطائفة المارونية وارسلها الى الاستانة بواسطة سليم باشا الملحمة الماروني الذي كان رئيساً لهذه المصلحة وكان من جملة الذين قدموا البطريرك يوحنا الحاج فأنهُ ارسل لها خمسمائة ليرا واتاه بسبب ذلك النيشان العثماني الأول وبسببه نظمت لهُ قصيدتي الشهيرة .

وقد كافأته الدولة العلية بالرتبة الاولى وهي رتبة رفيعة جداً لمن كان بسنه وفي هذه المدة الاخيرة نال النشان العثماني الثالث ولما نال الرتبة الاولى مدحه الشعراء بقصائد رنانة الا انا لأنني لم افتكر بذلك واخبرني بعض الاصدقاء بأن يجب ان امدحه بشيء فلم يخطر لي شيء وقابلته اخيراً فرأيته متغيراً عن العادة وصار يقول لي بونجور بصوت منخفض فاشعرت انه متكدر مني نظراً للصداقة فعند ذلك نظمت له قصيدة قدمتها له وهي الآتية :

ولما حضر مظفر باشا جعله رئيساً لمجلس الادارة وقد عزل في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٩٠٥ والتزم بيته وقد تزوج ابنة عمه السيدة نجلا بنت الشيخ سليم الخوري

اراك عبوس الوجـــه منحرف الخـــد	كـــأني يومـــاً لا أقيم على عهـــدي
واني ارى بونجور منك ركيكـــــة	ومن قبـــل كـــانت بـــالترحيب والشدِ
وجفنك مخفوضاً وصوتك واطئـــاً	وضحكك مغصوبـــاً كهزك لليـــد
عجبت لهذا الانقلاب بسرعـــــة	ولم ار لي ذنبـــاً يؤل الى البعـــدِ
سوى قـــد بـــدى الشعراء في مـــدح رتبـــة	اتتك ولكـــن شعر شاكر لم يبــــدِ
فـــان كـــان هـــذا لا أظن خلافـــه	سأبـــدي لكم عـــذري وان لم يكن يجدي
اذا لم يكن اس المديح مهيجـــاً	الى شاعر لم تلق منـــهُ سوى الصلـــد
فرتبتك الاولى فليست لشاكر	مهيجـــة للشعر لا بـــل الى البرد
فمن كـــان يـــدري اصلكم وفصولكم	ايفرح فيهـــــا او يهيج للنشد
وهـــل مثلهـــا مما يزيـــد مقـــامكم	لكي شاكر يشدو التهـــاني مـــع الجهـــد
اذا اعتـــاد طرف المرء منظر بهجـــة	فلا بهجـــة ترضيـــه من نظر الورد

ومن عرف الابـــــــاء والجد والحمى | أيعجب من أولى لعليـــا بني السعـــد
وان حبيب السعـــد نـــال سعـــادة | وهـــل يرجـــع الاشبـــال الا الى الأسد
فمن كـــان نسل السعـــد فـــالسعـــد حقـــهُ | ومن كـــان نبـــع المجد ذا الجوهر الفرد
ولست حبيب السعـــد اصلاً لوحـــده | ولكن حبيب العلم والجود والوعـــد
حبيب العلا والجاه والمجد والنهى | ولم تخل من حب التغزل في دعـــد
وقـــد صرت محبوبـــاً لـــدى من تحبـــه | ولا حبهم يومـــاً يوازي مـــا عنـــدي
عرفتك في العشرين تصبو الى العلا | وفي وجهكم شبـــه عن الأصل والجد
وسرت على درب الجدود وفضلهم | فلا أحـــد منهم بعمرك في السعـــد
ولا شرف في نيـــل أول رتبـــة | اذا لم يكن في نيلهـــا جودة القصد
سعيت لاسعـــاف الفقير فنلتهـــا | فهـــا شرف الاولى وهـــا شرف الجنـــدي
فمن كـــان من أم تجر طهـــارة | ومن كـــان من أب غيور وذي ود
ومن كـــان نسل الفخر والسعـــد جـــده | أيعجب منـــهُ ان علا ذروة المجد
اذا كنت في نظمي بليـــداً كما ترى | فعـــذري كما قـــد قلت أكثره زهـــدي
ولكن غيري جـــاهـــل لمقـــامكم | يرى عجبـــاً من رتبـــة فـــائق الحد
فينشدكم مـــدحـــاً لنيـــل مراتب | ويجعلكم انموذجـــاً كـــذوي الكـــد
وأمـــا انـــا لم تلق مني مـــدائحـــاً | اذا لم تكن قطب المرؤة والجد
كفـــاك افتخـــاراً يـــا ابن اطيب عنصر | ومـــا ذكروا في النـــاس الا مـــع الحمـــد
ومـــا زادهم فخراً نوال سعـــادة | امـــا أنتم ابنـــاء محد بنو السعـــد
أ

اشعار الفؤاد . في رثاء الامير فؤاد

هو فؤاد بن الامير سليم منصور الشهابي الذي ذكرته كان شاباً وحيداً بلغ السنة السابعة عشر ويتعلم بمدرسة الآباء اليسوعيين فمرض بداء الجنب وتوفي وله سبع شقيقات هو وحيد بينهما فتأمل هذه الحالة المحزنة شاب عمره ١٧ سنة وحيد لوالديه بين سبع بنات فكانت المصيبة عليه عمومية وقد حزن لفقده كل من عرفه وقد نظموا له عدة مراثي وكنت من جملة من رثوه اما والدته فهي ابنة شرشل بك الانكليزي الذي كان قائمقاماً في الجند الانكليزية وهو من أسرة عريقة في الشرف لم تزل الى اليوم .

ان كـــان قصد رثـــائي ان اعزيكـــا | فلم أجـــد كلمـــة بـــالقصد تـــأتيكـــا
فكلنـــا عنـــد ذا في موقف حرجٍ | فـــالصمت أحسن شيء من معزيكـــا
وانما جـــل قصدي والمرام بـــأن | دقيقـــة عن صبيب الـــدمـــع الهيكـــا
مـــا القول عنـــدي لمن احشاؤه التهبت | بلا فواد عن النيران تغنيكـــا

مصيبة عمت الاصحاب مشركة … من كان يسمعها حتى عاديكا
لو كنت منتبهاً يوم المصاب بأن … تلاحظ الخلق من جاءت تأسكا
لكنت تسمع منهم من تحصرهم … أقوال حزن كما تبديه من فيكا
وكنت تلقى عيوناً بالدموع همت … ليست بأيسر ما جادت اماقيكا
لم ندرِ اين المعزي حيث كلهم … اصحاب ذا الخطب عانوا ما يعنيكا
ميزتهم عنك في قول لبعضهم … يا رب صبّر ابا فالقول يعنيكَ
هل للبلاد حقوق في تأسفها … وهل على شدة الاحزان لاموكا
كلا فلا لوم ان تبكي العيون دما … ويا فؤادي عماذا لست ارثيكا
ان نبكي اصلاً فأنت الفرع من شجرٍ … جذورها عن سمو المجد تنبيكا
من شرشل وشهاب بت في نسبٍ … فالشرق والغرب قد ضمت معاليكا
ان نبكي غصناً فلا العشرون تدركه … او نبكي فردا وحيداً من يباهيكا
او نبكي علماً فقبل الوقت زاخره … او نبكي ابناً مطيعاً يقتدي فيكا
ان نبكي لطفاً وظرفاً مع آداب فتى … فاللطف والظرف والآداب تنعيكا
من بين سبع الدراري قد هوى قمر … مروره كشهاب في نواحيكا
كسوفه في هلال ان ذا عجب … ان الكسوف لبدر كان يحكيكا
لو كانت الروح والاموال عنك تقي … لكنت بالروح والاموال افديكا
تسري الى منزل يسري اليه غدا … من كان يبكيك او من كان يرثيكا
نم في هناء لقد خلفت كل اسى … فلم يزل في أب حتى يلاقيكا
فيا اميراً بسلم الخلق متصفاً … سألت ربي لهذا الخطب يسيكا
ما كان شعري رثاه اليوم منتظراً … بل كان منتظراً فيه يهنيكا
يئس الزمان الذي يلحي الى عمل … عكس الذي تبتغي منه امانيكا
ان شئت في هذه الدنيا معالجة … في ذا المصاب فلا تلقى مداويكا
فالله أقوى معز في مصايبنا … فهو الوحيد الذي عنا يعزيكا
لا شك ان شهاباً ليس مركزه … سوى سماء فهذا الفكر يكفيكا
وعندما الموت ارخ حل في شهب … فلا فؤاد سليم في اراضيكا

١٨٩٠

يا من يسير الى ضريح فؤادنا … مستشهداً بالشهب والتعظيم
خليت يا هذا المؤرخ شارداً … فضريحه كل فؤاد سليم

١٨٩٠

ونظمت له تاريخاً هجرياً وهو كما قلنا فؤاد بن الامير سليم شهاب ووالدته جلنار ابنة شرشل بك الانكليزي :

مــــــذ غـــــاب عن عيني الفوا	د فجــــــل نـــــاري بـــــالعنـــــا
وشهـــــــاب حظي قـــــــد مضى	وسليم جسمي في ضنـــــــــــــــا
قـــــــل للفؤاد مؤرخـــــــاً	نم في ضريحك بـــــــــالهنـــــــا

١٣٠٧

شرشل بك

هو من اعرق الاسرة الانكليزية شرفاً ولم تزل اسرته من اللوردات في انكلترا . حضر الى سوريا مأموراً عسكرياً سنة ١٨٤٦ وبقي فيها ولم يرجع الى انكلترا وتزوج من النساء الشرقيات وهو سياسي محنك خبير رزق ابنتان وغلام سماه ونستن عرفته جيداً وتزوجت بنتاه الواحدة بالامير عبدالله شهاب والثانية بالامير سليم منصور شهاب والدة فؤاد . وكان لشرشل بك اخت في انكلترا اوصت بقسم من أملاكها او قيمة أربعة الاف ليرا انكليزية لأولاد اخيها من زوجته خانم وبعد وفاتها دخلوا بالدعاوي واخيراً اقتسموا المال حسب الوصية ونالت زوجة الامير عبدالله حصتها من الارث أما ولده فتزوج فتاة افرنسية اتى بها الى سوريا ثم انفصل عنها وتوجهت لبلادها غير انه تبعها اخيراً ولا اعلم ماذا صار بعد ذلك انما بلغني انه توفي بلا عقب .

(الدكتور دبران)

هو الدكتور الشهير في بلادنا بالامراض الباطنية وهو افرنسي الاصل اتى مدرساً الامراض الباطنية بمدرسة الطب الفرنساوية في بيروت التي تأسست سنة ١٨٨٣ وكان يوم حضوره يوجد محفل تحت ادارة الاباء اليسوعيين تلقى فيها الخطب العلمية ومركزه على طريق الشام ففي سنة ١٨٨٦ اقيمت فيه جلسة عمومية حضرها جم غفير من الرجال والنساء فخطب الدكتور دبران في موضوع النوم وكان خطابه جميلاً جداً فبعد ان عرّف ما هو النوم وابان لزومه وضرر السهر انتصبت واقفاً وقلت هذين البيتين :

الا فـــانظروا الـــدبران في الليـــل قـــائماً	يبين بـــــــــان النوم فرض على القوم
سهرنـــا ومـــا طعنـــاه من حيث اننـــا	وجـــدنـــا خطـــاب النوم احلى من النوم

وبعد ذلك قدمت بهذا المحفل خطاباً على العوينات باللغة العربية وبعد مدة ذهب الأب صاحب المحفل وتركه بعده وهو الاب برنيه الذي كان مبشراً في حمص وتوفي اخيراً وعند تبيض هذه الترجمة كان في ١٠ ايار سنة ١٩٠٨ وكانت المدرسة عاملة يوبيلها الفضي .

(ولدي حليم)

ولد في بيت مري يوم الاثنين صباحاً عند بزوغ نجمة الصبح في ٨ تموز سنة ١٨٨٩ وكنا مستأجرين منزل رجل درزي وعمدناه في كنيسة بيت مري في ١٤ ايلول يوم عيد الصليب مساء وكانت تلك الليلة مصادفة لعيد مار ساسين الذي له مقام هناك ودعوناه بالمعمودية ساسين وكان عرابه جرجي افندي نقاش وعرابته السيدة ليزه قرينة اسعد رعد وبعد عماده توجهنا الى صنوبر مار ساسين وكان جم غفير ليلة العيد والكاهن الذي عمده يدعى الخوري يوسف حنا من بيت مري وتسجلت اسماء الجميع بدفتر عماد كنيسة مار جرجس في بيت مري واما اولادي الاخر وديع ولد في ١٧ آذار سنة ١٨٨٥ في بيروت وأنيس في بكاسين في ٢٤ تموز سنة ١٨٨٦ .

(ومار ساسين) ذو المقام العظيم في بيت مري ففي ليلة العيد يجتمع خلق كثير من كل الجهات في الحرش ويبتدئون بالرقص والغناء والسكر ويمضون ليلتهم بهذه الصفة حتى الصباح وبعد القداس يعودون الى محلاتهم افواجاً وهذه العادة شائعة جداً في بيت مري .

لما كنا نجتمع كما قلنا في بيت اسعد رعد الموجود في بيت مري كان السرور يأخذ منا كل مأخذ فتقدم لي مرة الخواجه اسعد بكأس عرق وكما ذكرت كنت اقبل الكأس ولا اشربه فنظمت له هذين البيتين :

مــــذ قــــد تنــاولت عين الراح من أسد	أصبحت اسعـد كـل النـاس في خلـدي
نظرت كيف تحل الشمس في الأسد	فراحت الروح عنـــــــد الراح في فلك

عين الراح هي الشمس ولما دخل حرف العين على كلمة اسد أصبحت اسعد وهو اسم الممدوح وكذلك برج الاسد من ابراج الفلك تدخل فيه الشمس بشهر تموز وهو الشهر الذي كنا نجتمع فيه ببيت مري وقت الوليمة وكأنني أقول ان عين الراح بدخولها على أسد الذي أصبح اسعد كحلول الشمس في برج الاسد وقلت له لما اهداني صورته :

اهـــــــــــــديت روحي لخلي	بــــــــــالحال عوّض عنهـــــــــــا
فـــي صـــــورة انعشتـــــــي	وصرت اسعـــــــــــد منهـــــــــا

(اسعد عبود مأمور تلغراف بعقلين)

دعيت الى بعقلين لمعالجة علي بك حمادي الشهير وكان في ذلك الوقت اسعد عبود الذي أصله من بيت الدين مأمور تلغراف بعقلين ووالده مأمور السجن فيها وحيث كانت معنا العجلة وكنا نريد ان نقضي

يوماً في بعقلين فقلت الى رفيقي رفول فرح الذي توجه معي من بيروت لأنه كان يعرف علي بك ونام تلك الليلة مع ولده مصطفى بك ولم يدعه يغفى لكثرة الشخير وهلما جراً تعال نذهب الى المختارة لزيارة نسيب بك جنبلاط الذي كان قائمقام الدروز فتوجهنا وبعد ما قطعنا بعقلين رأينا اسعد راكباً حماراً وسألتهُ لأين ذاهب قال الى المختارة قلت ارجع الحمار وأركب معنا في العربة ففعل ولما وصلنا الى المختارة توجهنا الى منزل نسيب بك وبعد السلام صار يمزح مع اسعد مزاحاً لطيفاً واخيراً قال لي نسيب بك هل تعرف يا شاكر بك بماذا يرجوني اسعد قلت كلا قال انهُ يسألني ان ارسل من يقتل لهُ والده في السجن لأنه مأمور سجن بعقلين حيث انه شيخ لا فائدة منهُ ويتهم بقتله أحد الاغنياء ويأخذ منه ديته ثلاثين ألف غرش وهي خير من والده اذ لا سبيل له لكسب الدراهم غير هذا الباب لأن عائلته كبيرة ومعاشهُ لا يكفيه وكان اسعد يقول هذا الكلام ليضحك نسيب بك لأنهُ كان يحب والده كثيراً ولما انصرم النهار عدنا الى بعقلين .

(صدفة غريبة)

عند مرورنا في بعقلين أمام السجن قال لي اسعد ارجوك ان تنظر والدي لأنه يسعل كثيراً وهو الان في السجن قلت له لم يبق وقت الان للعيادة وغداً صباحاً نراه فذهب الى منزله وتوجهنا الى المريض علي بك وبينما نحن على المائدة واذا نفر عسكري اتاني وقال لي يرجوك اسعد افندي ان تحضر وترى والده مأمور السجن قلت وما الداعي لعيادته ليلاً وقد وعدته ان أزوره غداً فهل حصل شيء جديد قال انه يبصق الدم بكثرة فتوجهنا الى السجن ودخلنا غرفة المأمور فرأيت على نافذة صينية عليها طعام وزجاجة عرق ووالد اسعد مطروحاً على الأرض وفوق رأسه بركة من الدم وهو ميت لا حراك به فقلبته لأرى هل به اثر جرح او رض او خنق فلم ار به اثراً ظاهراً فقلت انه توفي بسكتة دماغية وصرت افتكر بقول اسعد الى نسيب بك والتعجب من الصدفة التي جعلت ذلك واخيراً ادعى اسعد ان والده مخنوق لأنه توجد في بعقلين عائلة مسيحية كانت تحرك لأخذ وظيفته فاتهمهم بخنق والده وكان يساعد هذه العائلة الخوري ميخائيل رزق وكيل المطران بطرس وفي اليوم الثاني حضر طبيب القضاء وفحص المريض الميت فلم ير فيه اثر خارجي وبقيت الجنازة مدة اخيراً قلب الى اسعد ما هذا العمل من شئم الكرام فان والدك توفي بدون اسباب خارجية فلو شرحنا الجثة فأننا لا نرى فيها اثراً وانصرف اخيراً ورفعوا الجنازة وأخذوا الجثة الى بيت الدين ودفنت هناك ورجعنا الى بيروت وظلت هذه القصة والصدفة الغريبة بفكري دائماً وبعد ثلاث سنوات توفي اسعد بغتة مثل والده .

(شفاء العين بقطع الضرس)

حضرت عندي أمرأة جليلة جداً تبلغ من العمر نحو السبعين سنة حدث لها في عينها اليمنى قرحة القرنية فأخذت بمعالجتها وعملت كل الوسائط حتى تحسنت القرحة ولما أقبل الصيف بحره تشكت منهُ فقلت لها حيث معك طبيب وقد عرف كل ما يلزم لمعالجتك فيمكنك ان ترجعي الى الجبل فرجعت وبقيت هناك

مدة الصيف والشتاء وفي ابتداء الربيع اتاني ولدها واخبرني ان والدته كانت تشكي كثيراً من ألم عينيها وأن الاطباء الذين عاينوها حكموا بأنها مصابة بسرطان في عينها وجزموا بوجوب قلعها فلم تقبل الا اذا رأتك مرة اخرى وهي الان في بعيدا فهل لك ان تذهب لعيادتها هناك فتوجهت الى بعيدا وزرتها فوجدتها مصابة بعدة قروح في القرنية خصوصاً في خط قاسم القرنية الى نصفين فأخذت بمعالجتها مدة شهر وعملت عملية للقرحة وجميع الوسائط اجريتها لها فلم تشف اخيراً الزمتها ان تنزل الى بيروت وقد احترت في امري لكنني لاحظت ان الاتروبين الذي من خواصه تمديد الحدقة لم يفعل معها شيئاً وكذلك الازرين الذي يقبضها فكأن القرنية مشلولة لأن امتصاص هذه القطرات من القرنية ففحصت الرأس فلم ار به علة وافتكرت بالاسنان لان العصب واحد .

ففحصت اسنانها ولم ار في فمها الا جزر ضرس فسألتها اذا كان يؤلمها أجابت انها لا تشعر به قلت انني اريد قلعه قالت ولأي سبب ما زلت لا اشعر به قلت لعله مؤثر على العين قالت ضاقت بك الحيل حتى وصلت الى هذا السن قلت وما ضرك قلعهُ وهو لا ينفع شيئاً فقبلت وقلعتهُ لها وفي اليوم الثاني ابتدأ الشفاء وبعد ثمانية ايام شفيت العين تماماً وهي لم تزل للآن بصحة تامة ولم تعد تشعر بشيء ابداً .

وقد انتشرت هذه القصة بكل المحلات وكان هناك طبيب سمع بها في صيف هذه السنة اتاني مريض اسمه حسين الصباغ وهو مصاب بمرض في عينيه حتى قارب العمى وسببه بزر في الجفون فعالجه الطبيب مدة طويلة لان البزر غطى العين فكانت اشبه شيء بقطعة لحم حمراء لا تعرف لها قرنية واخبرني ان الطبيب الذي كان يعالجه سمع بكوني قلعت ضرساً للسيدة أم قاسم وشفت من مرض عينيها فقلع لي اربعة اضراس ولم اشف فضحكت لجهل هذا المسكين الذي خسر اربعة من اضراسه وقلت لهُ ان مرضك يختلف عن مرض تلك السيدة وقد حصل تطبيبك كما حصل لتلميذ طبيب

الطبيب وتلميذه وجلال الحمار

ذهب طبيب مع تلميذه لعيادة مريض ولما وصلا اليه سأل الطبيب المريض هل اكلت بطيخاً فأنكر اولاً ثم أقر فعالجه وذهب فتعجب التلميذ من ذلك وسأل معلمه من أين عرفت ان المريض أكل بطيخاً قال أما نظرت عند دخولنا قشر البطيخ بكثرة قرب الباب قال بلى قال منه حكمت ان المريض أكل بطيخاً فتعلم التلميذ .

وفي ذات يوم طلب التلميذ لمريض لأن الطبيب كان غائباً فدخل على المريض وقال له لماذا أكلت لحم حمار فتعجب المريض من هذا السؤال وانكر وعرف الطبيب قصته فسأل تلميذه كيف علمت ان المريض أكل لحم حمار قال ألم تخبرني انه متى وجد شيء قرب باب المريض يكون أكل منه فأنا رأيت جلال حمار في الخارج وحكمت ان المريض أكل لحم حمار فقال الطبيب لو كان لحم الحمار يؤكل لما بقيت

الى اليوم أذهب واستبدل صنعتك لأنها لا تليق بك ولا أنت اهل لها . وهذا ما حصل لصديقنا الطبيب الذي قلع اسنان هذا المسكين بمجرد سماعه ان مرض العين شئ بهذه الواسطة دون ان يعرف ما هو المرض .

ابرهيم بك مسلم

هو من اسرة كريمة من زحله كان عضواً وحيداً عن طائفة الروم الكاثوليك بمجلس الادارة وأصبح مدة مظفر باشا رئيس قلم الأوراق والان عضو في دائرة الجزاء .

كنت جالساً معه في صيدلية مسعود الحيمري على برج الكشاف أمام حديقة البلدية في بيروت فمر علينا دب قوي فقال لي تعال نتفرج عليه فقمت ورأيته وقلت لم ادر عضو أي طائفة هو بمجلس الادارة قال هو عضو الطائفة الأكثر عدداً (وعني بذلك الطائفة المارونية) قلت بل أظن انه عضو وحيد لطائفته (وكان ابرهيم بك العضو الوحيد لطائفة الروم الكاثوليك عن زحلة) فضحكنا لهذه النكتة .

(القاضي المرتكب)

كان متهماً بالرشوة ومتى جالسه انسان يظهر التقاوة والعفة وما اشبه من الصفات الحسنة واذا دخل عليه المدعى يكثر عليه الاسئلة حتى يرتبك فقلت فيه :

عجباً لقاضي ملة ... دون القضاة له عوائد
فكاسم موصول غداً ... لا بد من صلة وعائد

(وقلت فيه ايضاً)

اذا قاضي بلادك صار يبطي ... فذاك دليل المجد ثم حطي
وان تمت له قرشت ينادي ... نعم الله ويرسون سوف يعطي

كلفتني السيدة عليا الشهيرة زوجة الامير افندي قعدان الذي بقي اخيراً ثلاث عشرة سنة رئيس مجلس الادارة وتوفي في شهر تشرين سنة ١٨٩٩ وهي ابنة الامير بشير الملقب ابو طحين لأنه كان يوزع طحيناً على الفقراء وتولي الحكم بعد الامير بشير الكبير على جبل لبنان عقب حادثة سنة ١٨٤٠ ان أنظم لها بيتين ابين فيهما ثقل رجل اسمه تحومي ففعلت وانتشرت الابيات وشطرها الشعراء وخمسوها دليل استحسانهم لها وقد نظمتها سنة ١٨٨٧ .

لما يـــا شربـــة تـــأتي جمـــاً عليـنـــا بـــالمصائب والهموم
عجبنـــا كلما ابعـــدت عنـــا على ادبـــارنـــا دومـــاً تحومي

(قلت متغزلاً)

تعلم الطب من اجفـــانها مثلاً عنـــد الجروح وليس الطب مخترعـــا
تبنج العـــاشق الولهان من نظر وسيفهـــا قـــاطـــع من قلبـــه قطعـــا

(وقلت في معنى آخر وهو تضمين لطيف)

الكتـــب تنبئـــي تحـــريـــم حبكـــم ولحظكم قـــال ان الكتب في كـــذب
شاورت قلبـي بـــذا في الحال جـــاوبني السيف اصدق انبـــاء من الكتب

(ارسل أحد اصحابي خاتم الماس الى خطيبته فقلت فيه)

اهـــديك قلبـــاً مثـــل قلبك ابيضا صلبـــاً وأقسى كـــل شيء قـــاسي
فتشت مـــا بين المعـــادن لم أجـــد شبهاً لـــه عنـــدي سوى الالماس

(وحررت على رسمي الشمسي سنة ١٨٨٧)

انـــا لبعـــادكم أصبحت رسما لأنكم فؤادي في البعـــاد
فلا عجب اذا ارسلت رسمي اليكم حيث يلقـــاه فؤادي

(سعادة خليل افندي الخوري)

هو شاعر عصره ونابغة قومه الصادق بمصلحته والامين لدولته أصله من الشويفات لبنان دخل في خدمة الحكومة السنية سنة ١٨٦٠ وكان فؤاد باشا المأمور فوق العادة يعتمد عليه كثيراً وله مدة اربعين سنة في وظيفته وهي مدير الامور الاجنبية وأكتسب ثقة كل الولاة الذين تقلبوا عليه وله خمسة دواوين شعر مطبوعة ومنشورة وهو أول من انشىء جريدة عربية في بيروت سماها حديقة الاخبار نصفها عربي والنصف الآخر فرنساوي اشتهر بالمروءة ولين الجانب والدعة ومساعدة الجميع كريم الاخلاق لم يتشك منه أحد رغماً عن مكانته العليا وبقي اعزباً الى ان تقدم في السن وخطب اخيراً في لوندرا السيدة ظافر كريمة سليم نوفل وابنة اخت سليم بسترس الشهير وقد توجه الى لوندره مع صديقه اسكندر بك تويني وهو هناك اتته الرتبة الاولى وبعد رجوعه الى بيروت نظمت له هذه الأبيات تهنئة له وتاريخاً لزواجه بالسيدة ظافر :

هـــام الخلـــل بـــدرة فـــاتى البحـــار مسافراً
لا بـــد مـــن خـــوض البحـــار لمـــن يـــروم جـــواهـــرا

نلت السعـــادة رتبـــة ورفـــاهـــة كن شاكراً
قـــد قلت في تـــاريخـــه جـــاء الخليـــل ظـــافرا سنـــة ١٨٨٧

وبعد ثمانية اشهر من زواجه توفت السيدة ظافر فحزن عليها شديداً واخيراً زوج اخاه حنا بك الخوري الذي كان قائمقاماً على الكورة وله شقيق آخر اسمه وديع وهو من الشبان الاذكياء شاعر مجيد وهو مدير جريدة حديقة الأخبار وله شقيقات اسعدهن زوجة يوسف افندي سرسق الغني الشهير الذي دخله اربعين الف ليرا سنوياً وقد تزوج بأبنته ابن عمي قيصر سليم الخوري القاطن بحيفا وسنذكر ترجمة بيت سرسق في حينها ولم يزل خليل افندي الخوري بوظيفته وهو قاطن ببروت وصديقي وكان جاري منزله غربي البيت الذي كنت ساكناً فيه وهو منزل انيس تويني شقيق اسكندر بك تويني مدير الامور الاجنبية بجبل لبنان ومنزله شرقي منزلي فأكون مجاوراً لمديري أمور أجنبية الواحد في سورية والثاني في لبنان ولا يفتكر القاريء ان السياسة تؤثر عليَّ او هي التي دفعتني لهذه الكتابة بحق خليل افندي كما انني سأكتب بحق اسكندر بك هي الحقائق التي رأيتها وخبرتها في تشرين ثاني سنة ١٩٠٧ .

وكان لله شقيق اشتهر بعلومه ومعارفه وهو سليم الخوري الذي اشترك مع سليم شحاده الذي توفي في ت ١ سنة ١٩٠٧ وهو ترجمان قونسلاتو روسيا بتأليف كتاب عظيم يسمى آثار الادهار وهو كتاب جغرافي بل تاريخ عمومي توفي في عاليه بالهواء الاصفر سنة ١٨٧٥ وتوقف بوفاته هذا التأليف فيتضح مما تقدم ان هذه الاسرة اشتغلت بالعلوم والسياسة وخدمة الوطن والدولة. وقد قلت ان خليل افندي جاري ولا يفصل بيننا سوى زاروب الحرامية (وهو اسم طريق في بيروت) .

الدكتور ملحم افندي فارس

أصله من حاصبيا من الطائفة المارونية وكان منذ صغره يحب التقدم حتى انهُ وهو في السنة الثانية عشرة من عمره هرب من منزل ابيه وأتى مع المبشرين البروتستانت ليتعلم وكان مروره على جزين فبات فيها مع المبشر تلك الليلة وكانت قد اتت من حاصبيا تحارير تدل على هربه فأخبروا بذلك المطران عبدالله البستاني الذي كان يومئذ مطراناً على مشموشة فأرسلوا ليلاً وأخذوه من المبشر وسلموه الى المطران بواسطة الخوري بطرس المعوشي فارسله المطران الى مدرسة عين ورقة للطائفة المارونية ثم انتقل الى مدرسة مار عبدا ثم الى مدرسة عينطورا وتعلم اللغة الفرنساوية ثم توجه الى مصر وعلم اللغة الافرنسية عند الفرير بمحلة الخرنفوش وكانت هي المدرسة الوحيدة التي تعلم جيداً هذه اللغة وهناك تعرف بجميع اولاد الذوات ثم عمل واسطة ودخل مدرسة الطب وكان رئيسها عرنوس بك الفرنساوي الذي كان موصى عليه فقبله كولده لأنهُ كان اعزباً وشيخاً فأحبه جداً وتعلم الطب ونال الشهادة وحضر الى بيروت ودخل مع الحكيم سوكه الشهير الذي كان حكيماً صحياً عن دولة فرنسا فتوفق معهُ وساعده في المدينة وادخله مستشفى راهبات اللعازارية وبقي فيه الى ان اتى الدكتور سنس الفرنساوي وكان سوكه قد شاخ ولم يعد يحضر الى المستشفى

وانا الذي خلفته سنة ١٨٧٩ وكان ملحم قد أصبح غنياً ولكنه لم يزل اعزباً حتى سنة ١٨٨٢ فتزوج السيدة اسما ابنة بشارة الهاني .

اسما زوجة الدكتور ملحم افندي فارس

لا استطيع أذكر هذه السيدة الا وأتأسف وأحزن عليها لأنني عرفتها وهي في المدرسة وزوجها كان من أعز اصدقائي تزوجت وعمرها ثمانية عشر سنة وأول هوى دخل فؤادها هوى ملحم كما انه لم يعرف غيرها قبلها من النساء فكانا زوجي محبة لا غاية ولا مالية وكانا يعبدان بعضهما ولم تتكدر بحياتها من رجلها ولو انها طلبت روحه لهان عليه تسليمه لها بكل سرور والخلاصة اني لم ار زوجين في بلادنا احبا بعضهما الى هذه الدرجة وكان يفضلها على أولاده واخوته وكل البشر ولم يكن أحد يلومه على حبه لأنها كانت كاملة الصفات الادبية والطبيعية متوسطة القامة جميلة الصورة معتدلة الجسم سوداء العيون بشوشة الوجه لطيفة الاخلاق كريمة النفس عزيزتها تحب الضيف والغريب قريبة للقلب فصيحة اللسان زكية تدرك فكر الانسان قبل ان يتكلم رقيقة الاحساس شريفة ادبية وبالاجمال انها كانت مثالاً للجمال والأدب والانسانية والعلم كأنها لم تخلق أمرأة لا تحب الخروج من منزلها ولا المحلات الاجتماعية تزار ولا تزور الا رغماً عنها مجلسها مجلس سرور قنوعة لا تحب الزخرفة ولا المباهاة بالغنى والجواهر مع كثرة ما عندها عاشرتها ست عشرة سنة ولم ارها ليست حليها مرة واحدة تحب اولادها محبة تقرب من العبادة وهم ذكران وانثى وكانت تعتني بلبسهم وأدبهم وعلمهم اعتناء عظيماً وكان اذا غاب صديق مدة تعاتبه لغيابه بكل لطف .

ولكن واسفاه فانه مع كل ما حوى جسمها وعقلها وأدبها تسلط عليها داء عضال لم يكن له من دواء فأنظر وتأمل حالة زوجها المسكين فانه كان يعرف النتيجة قبل الوقت ورغماً عن العلاجات الكثيرة وتبديل الهواء قد توفت في بحمدون بأول تشرين أول سنة ١٨٩٩ ودفنت في بيروت وكنت وقتئذٍ متغيباً في الجبل ولست استطيع ان اصف حالة ملحم المسكين ولما رأيته أول مرة لم اتمالك عن البكاء وفعل مثلي رحمها الله رحمة واسعة واذا احبها الله كما احبها البشر فلا شك انها خالصة وان روحها في ابدية صالحة لان صيتها واسمها وشرفها معروف في بيروت باسرها فالسلام عليها ورحمة الله والف سلام ولكن الحزن كالناس لا يبقى على حال فقد تسلى ملحم الان نوعاً ما وكنت ازوره يومياً بعد الظهر لانه جاري ولم يكن يفصل بيتنا سوى منزل خليل افندي الخوري .

هو لطيف زكي ماهر في صناعته ودود ذو مرؤة يحب الضيف ويبش للجميع يحب المزاح وقد اشتهر مزاحنا في بيروت ومن جملة نكتي معه .

كان له كلب كبير وضعه في الجنينة لحراستها ليلاً فمات هذا الكلب وطلب ان يحضروا له سواه في

ذات يوم وأنا معه في الجنينة اتوا له بكلب صغير فقال اني لا اريده لأنهُ صغير وضعيف قلت لا بأس منه فسيصير بعد مدة ملحماً (من اللحم) قال وشاكراً أجبت حين يقوى يصير فارساً واسمه ملحم فارس .

كان ملحم ابيض اللون أزرق العين قصير القامة اشقر الشعر لطيفاً جداً بشوشاً قليل الكدر فحضرت يوماً من ايام الشتاء لزيارته نحو العصر فدعاني لمناولة طعام المساء عنده فقلت معتذراً اني لم احضى ساكتي معي قال اعطيك واحدة من عندي حذراً من برد الليل فأجبت دعوته ولما أردت الذهاب طلبت منه الساكو قال ان عندي جلال حمار ان احببت اعطيك اياه قلت قصير عليَّ لأنهُ مصنوع لسواي فضحكنا . وأعظم نكتة اجريناها معه هي نادرة مح .

جبور بك رزق الله من صيدا

كنا في سهرة مع ملحم وجملة رفاق فابتدا يخبرنا حادثة جرت له مع جبور بك رزق الله من صيدا وقبل التكلم عليها نذكر شيئاً عن جبور بك وعائلته من صيدا .

هي عائلة كريمة غنية معتبرة في الطائفة المارونية أصلها من صيدا وظهر منها عدة نوابغ نجحوا ونموا وشرفوا محلاتهم ووطنهم ولم تزل هذه العائلة حتى الان على هذه الحال ومن الذين اشتهروا منها بايامي .

اسطفان رزق الله

هو من مشاهير اغنياء صيدا وكان له ثلاثة أولاد وهم حبيب ولويس ونخله وكان خذا الاخير رفيقاً لي بمدرسة المعلم بطرس البستاني وهو رجل همام يلتفت الى املاكه ويعتني باشغاله تزوج ابنة جبران افندي ابلا قنصل دولة بلجيكا بصيدا . وتوفي لويس بلا عقب وكان متزوجاً شقيقة ميشل افندي اده مدير الامور الاجنبية بولاية بيروت وبعد وفاته تزوجت ارملته الامير فريد شهاب ابن الامير عبدالله من وادي شحرور أما البكر الخواجا حبيب فهو صاحب البيت أبي النفس مضيافاً يستقبل الاكابر والأصاغر محباً للغير والخير والاحسان وهو صديقي الحميم تزوج امرأة شريفة كريمة الخلق والخلق وله منها أربعة أولاد أكبرهم يوسف الذي استلم جميع اشغال أبيه والثاني اسكندر استلم ادارة الاملاك اما اسطفان وفليب فكانا صغيرين وقد تزوجا الآن بنساء كاملات الصفات وتوفي الخواجا حبيب هذه السنة ١٩٠٧ .

(جبور بك رزق الله)

كان هذا الذات اعظم الجميع في صيدا وهو زوج عمة امرأتي وتزوج ولده سليم عديلتي السيدة تقلا وكان أغنى افراد هذه الاسرة ذهب الى الاسكندرية ومصر وكان في دمياط للتجارة ايام محمد علي باشا ولم

يزل له فيها ملك وكان يحب الصوت والغزل والنساء لطيف المعاشرة معهم وله نادرة مع ساكنه في مصر مشهورة .

وكان عناده سبباً لخرابه وقام عليه فلاحو البلد الذي اشتراه وهي قرية المطلة وسكانها من الدروز ويدعى شيخهم الحجار الذي قتل اخيراً فأهاج عليه الاهالي فعصوا وطردوا جبور بك من قريتهم فتشكى واستأنف وميز مدة عشرين سنة وبعد أن باع كل املاكه وقضى عشر سنوات في الاستانة العلية حكم له بها فحضر الى سوريا واستلم البلدة وباعها باربعة الاف ليرا الى روتشيلد اليهودي وقسم ماله بين اولاده الثلاثة وهم عديلي سليم وعزيز وبشارة وتوفي بعد ذلك اما امرأته فتوفت قبله .

ولنرجع الى قصة مع ملحم افندي فارس فنقول :

ملحم افندي فارس وجبور بك رزق الله بصيدا

سنة ١٨٦٥ كان ملحم تلميذاً بمدرسة الطب بمصر وأصيب بالهواء الأصفر الذي حصل تلك السنة وشفي منه واتى الى سوريا لأجل تبديل الهواء وكان والده واهله بصيدا وقد روى لنا هذه القصة ملحم بذاته فقال انني اتيت الى بيروت واشتريت بعض ادوية من مسعود الحيمري وذهبت الى صيدا حيث كانت عائلتي وأكتريت دكاناً وضعت فيه الادوية وكنت اطبب بملك جبور بك واتفقنا على اجرة الدكان خمسة عشر غرشاً شهرياً وفي اثناء ذلك مرض ولده سليم وكان ساكناً خارج المدينة بالحمى التيفوئيدية فطلبني والده لعيادته وكنت أذهب يومياً اليه واعالجه واراد مرة ان يستدعي طبيباً من بيروت فطمنته وأخذت عهدة شفاؤه على نفسي وبعد مدة تم شفاؤه فكلفني والدي ان اذهب الى جبور بك مع احد اقاربه نخله رزق الله لتهنئته بسلامة ولده من المرض فتوجهنا وانا احسب بفكري الدراهم التي كنت مزمعاً ان اقبضها لأنني كنت احسبه نظير بكوات مصر الذين يسعدون الطبيب الذي يعالج مرضاهم لانهم يهبون ولا يسألون خصوصاً اذا تم الشفاء واخيراً وصلنا الى الدار العامرة فاستقبلنا البيك بكل بشاشة ولطف وجلس بجانبي واظهر لي التفاتاً عظيماً وقال انني ممنون لك يا مسيو وسارني بأذني قائلاً قد حسبنا لك أجرة الولد ستين غرشاً فلما سمعت كلامه ظننت انني سقطت من محل شاهق غير اني افتكرت ان اقدم هذه الخدمة مجاناً خيراً من ان اقبض غرشاً أجرة المشوار بدلاً من ريال مجيدي فقلت له يا بيك اقدم لك هذه الخدمة اكراماً لجنابك نظراً لالتفاتك على والدي واقاربي وتركته يئساً من الطب وكنت يومئذ معيناً من قبل الحكومة حكيم صحة نظراً للهواء الاصفر وقلة الاطباء .

ولما انتهى الوباء رجعت الى مصر لاتمام دروسي وبعد نحو شهرين ورد لي تحرير من والدي يقول فيه ان جبور بك طالبه بأجرة الدكان عن ثلاثة اشهر وطلب مني ان ارسلها له فأجبت والدي ان يفكر جبور بك لمعالجتي ولده مدة شهرين وانه حسب لي الاجرة ستين غرشاً وما قبلت ان اخذها منه فلو حسب اجرة ثلاثة

اشهر بالدكان كل شهر بخمسة عشر غرشاً يكون مطلوبه خمسة واربعين غرشاً فيكون باقياً لي بذمته خمسة عشر غرشاً رجوته ان يرسلها لي غير اني لم انل رداً على هذا الخطاب ولما انهيت دروسي بمصر ونلت الشهادة اتيت الى بيروت وأكتريت منزلاً على طريق الشام بملك الباحوط وبينما انا يوماً في غرفتي دخلت عليَّ الخادمة واخبرتني ان شاباً يرغب مقابلتي فدخل وكان بيده تحرير باسمي اخذته منه بعد أن دعوته للجلوس وقرأت الكتاب فاذا هو من جبور بك يطلب به مني اجرة الدكان وكان الذي احضر التحرير المريض الذي عالجته في صيدا فعند ذلك خرجت عن دائرة الصواب وصرت اشتم والعن وقلت له انسيت معالجتي اباك وشفاءك بواسطتي وما لي عندكم من الاجرة وجاوبته جواباً قاسياً جداً ووبخته توبيخاً مراً فذهب من امامي متكدراً ومخجولاً .

وكان حين يخبرنا ملحم هذه القصة يأخذ منه الكدر والتحمس مأخذاً عظيماً كأنها حصلت معه تلك الساعة وكنا نضحك من تحمس ملحم أكثر من القصة . وقلت مرة لرفيق لي مرادي عمل حيلة على ملحم أكتب له تحريراً عن لسان جبور بك فقال لي افعل ما تريده .

(النادرة مع ملحم)

في اليوم الثاني كتبت تحريراً بخط سواي قلت فيه :

الى حضرة الدكتور الشهير ملحم افندي فارس الافخم
لا خفي حضرتكم ما كنا عليه قبلاً والان بسبب الدعاوى والامراض اصبحنا بحالة غير التي تعرفونها وفيما نحن نفتش بدفاترنا القديمة رأينا ان لنا بذمتكم أجرة دكان ثلاثة اشهر تموز وآب وايلول سنة ١٨٦٥ مع الفايظ فاذا هو وافر ونحن بحاجة اليه الان فان اردتم خلاص ذمتكم ارسلوه لنا مع حفيدنا الواصل اليكم وهو متوجه الى بيروت للمعالجة ويكون الشكر لكم واجباً علينا وان لم تحبوا دفعهُ نرجوكم تعريفنا حتى نجري الأصول غير اننا نؤمل أنكم لا تحوجوننا الى هذا الامر وبكل اعتبار نقدم الى حضرتكم تحياتنا وادام الله بقاكم .

حرر في ١٥ أيار سنة ١٨٩٢ .

محبكم المخلص
جبور رزق الله

وبعد ان انهيت هذا التحرير افتكرت بطريقة اوصلها الى ملحم بحضورنا وكان مشتركاً معي بتسطيره ناصيف بك الريس رئيس القلم العربي مدة واصا باشا ومسعود الحيمري وعدة اصدقاء وبعد مزيد التروي والتأمل افتكرت بالشخص الآتي :

(خليل الطاقة المدعى بأنه حفيد جبور بك رزق الله)

كنت يوماً بلوكاندة انكلترا التي هي على ساحة البرج اعلا صيدلية مسعود الحيمري عند مريض من عكا يدعى الخواجه الياس الابيض توفي في هذه السنة بكانون الثاني سنة ١٩٠٨ لمعالجة عينيه وكان عنده رجل من عكا يمزح معهُ وهو لطيف جداً شائب الشعر لكنه يصبغهُ فخطر لي ان اسلمه التحرير وان يزعم انه حفيد جبور بك وقلت له يا صديقي الجديد اني اطلب منك خدمة بسيطة يمكننا ان نسر بها قال وما هي اقضيها على الرأس والعين قلت ان تسلم هذا التحرير الى ملحم افندي فارس الحكيم واخبرته قصته بتمامها قال لعله يشتمني قلت لو فعل ذلك يكون قد شتم حفيد جبور بك وما قصدنا الا المزاح وانت خبير باساليبه وترجاه الياس الابيض فقبل طلبي وسألني عن الواجب عليه ان يعمله قلت تدعى انك حفيد جبور بك وتدخل الى صيدلية مسعود الحيمري نهار غدا الساعة الواحدة بعد الظهر فتعطي هذه الوصفة الى الصيدلي وتطلب منه الدواء فيطلب منك الثمن وتقول له اضفه على حساب ملحم افندي فيدلك عليه وتسلمه التحرير ومهما قال لك لا تجبه بسوى قولك جدي امرني ففعلت واجتمعت بعد ذلك مع ناصيف بك وباقي الرفاق وكلفت مسعود ان يدعونا لمناولة الطعام ظهر الغد في صيدليته لان عنده فيها غرفة داخلية كنا نجتمع فيها لأكل طعام السوق نظير فول مدمش حمص بطحينه ولحم مشوي واخبرته ماذا يقول الى الذي يأتي له بالوصفة الطبية .

وفي الغد اجتمعنا عند مسعود قبل الظهر وتناولنا الطعام في صيدليته وبعد الأكل جلس كل منا على كرسي وفيما نحن على هذه الحالة دخل خليل الطاقه العكاوي وهو الذي كان ساكناً عنده منصور بك شتوان رئيس قومسيون تخمين الاملاك في بيروت .

ولما دخل لم اتمالك من الضحك فأدرت ظهري الى ملحم الذي كان جالساً بازائي وأخذت جريدة وصرت اقرأها وأنا الاحظ الرجل الذي تقدم الى مسعود واعطاه الوصفة وقال له قيد ثمنها على ملحم افندي فارس فقال له الصيدلي هوذا ملحم افندي هنا فكلمه بهذا الشأن ولما سمع ملحم اسمه التفت لأنهُ ظن انه مريض اتى يريد المعالجة عنده له مخاطباً :

— هل حضرتك الدكتور ملحم افندي .

— نعم .

فزرر الرجل سترته وأخذ محفظة من جيبه وفتحها وناوله التحرير فقرأه وصرخ بصوت عالي يا شاكر يا شاكر قلت ماذا تريد قال تعالى انظر اعمال جبور بك وخذ اقرأ هذا التحرير بصوت عال قلت وما فيه قال انه يطلب اجرة الدكان فعند ذلك ضحكنا جميعاً وأخذنا التحرير وصرنا نقرأه اخيراً التفت ملحم الى الرجل وشتم له دينه فأجابه الرجل لا تتكدر يا سيدي مي فما انا الا مكلف وان لم تشأ دفع ما عليك حرر

الى جدي تلغرافاً اخبره انك لم تشأ تدفع لي فصرخ ملحم قائلاً اسمعوا اسمعوا انه يقول ان ارسل تلغراف لجده انني لم اشأ أدفع والتفت اليه ولعنه وبعد الصراخ والمسبات والشتائم أخذت ملحم بيده وأدخلته الى الغرفة التي أكلنا بها وقلت لهُ أجب جبور بك على تحريره واعطيته ورقة وأمليت له الجواب ولكني قلت له لا تشتمه ولا تسبه ليلا يصدر عليك دعوى فكتب التحرير الأول ثم مزقه لأنه كان كله مسبة ثم كتب تحريراً ثانياً أخذته منه لكي نرسله وخرجنا الى الصيدلية وكان ماراً جبور القرداحي من عكا وقد اخبروه القصة فحين نظر الرجل سلم عليه وسأله عن جده جبور بك وسأل ملحم عن قصته فأخبره بها عندئذ قلنا الى ملحم اعطه ريالاً فقط لانهُ محتاج ولم يعطه جده شيئاً لأنهُ أتكل عليك فلم يقبل قلنا داوه اذاً لكونه مريض واعتبره فقيراً فتوفر عليه الدراهم وبالالحاح الشديد أجاب طلبنا وسأله عن مرضهُ أجاب انهُ مصاب بالداء الزهري فالتفت الينا ملحم وقال اسمعتم ما ارذله فكلفته ان يدخل الى الغرفة الثانية السرية ودخلت مع ملحم والمريض فقال له ملحم ارني اين مرضك وابتدى ملحم يفحصه فعند ذلك لم اتمالك عن القهقهة المعروفة فيَّ وضحك الرجل وخرجنا حالاً وتركنا ملحماً لوحده متفكراً واخيراً خرجنا وكان الحضور يضحكون وكل ما مر شخص يعيد له ملحم القصة حتى كاد يختنق من الحمق والعطش وبقي على هذه الحال نحو ساعتين اخيراً كلفته ان نذهب الى المنزل فقام وسرنا وبقي طول الطريق يعيد علي قصته ويقول بعد سبع وعشرين سنة يطالبني بخمسة واربعين غرشاً . وعند دخولنا الى منزله صرخ بامرأته اسما قائلاً ان جبور بك ارسل مع حفيده يطالبني باجرة الدكان وارسل لي هذا المكتوب فاقرأيه وسلمها المكتوب فلما تلته قالت لربما احد اصدقائك اراد معك المزاح وأرسل لك المكتوب عن لسانه قال ومن أين لهُ ان يعرف ان الاشهر المطلوبة مني وهي تموز وآب وايلول سنة ١٨٦٥ فسكت واخيراً خرج من الغرفة فسألتني السيدة اسما اذا كنت انا الذي اجريت له هذا الملعوب فأجبتها بالايجاب ولما رجع زوجها اخبرته بحقيقة المسألة قال انه كاذب في قوله فكيف تأتي له معرفة الاشهر قلت لهُ يا عزيزي اما اخبرتنا ان هذه الحادثة توبعت معك لما اتيت من مصر مدة الهواء الاصفر سنة ١٨٦٥ وقد ظهر في اشهر تموز وآب وايلول ولا تحتاج هذه المسألة مزيد فلسفة وبعد التعب الكلي اقتنع وعرف اننا اجرينا معه هذا الملعوب للمزاح وهكذا انتهت هذه القصة التي نذكرها لليوم .

(لجنة فحاص الطب العثمانيين والفرنساويين)

في سنة ١٩٠٠ حضر الفحاص الى مدرسة الطب الفرنساوية في بيروت وكنت فيها معلماً بالجراحة الصغرى وأكلينيك العين وكان الفحاص وفداً من الاستانة العلية وفرنسا فالفرنساويون هم الاستاذ مورا من ليون والاستاذ فيدال من باريز والاستاذ فالاس من ليون وبتاريخه ورد تلغراف بوفاة الاستاذ اوليه معلم الجراحة في مدرسة ليون . وحضر من الاستانة بدلاً عن جميل باشا الشهير خير الدين باشا المعلم في المدرسة السلطانية العسكرية وتوفيق بك واسماعيل بك فدعاهم ملحم افندي لمناولة طعام المساء بمنزله وكان من جملة المدعوين خيري بك رئيس المستشفى العسكري في بيروت ويحيي بك الشمعة قومندان الجندرمة ومنصور بك شتوان رئيس قومسيون الاملاك وانجال فخري بك احمد ومحمود وكامل بك ناظر جمارك

بيروت وكنت من جملة المدعوين وفي اثناء ذلك نهض ملحم وشرب سر الحاضرين وقال ان هذه الجلسة جمعت كل معنى ولطف أدبي كخير الدين وخيري وتوفيق وشمعه واحمد ومحمود وكامل وشاكر وملحم وبعد ذلك قمت وقلت ان لكل منا اسم يدل على معنى ادبي كشاكر ومحمود وخير الدين الا ملحم فهو لقب لا يقال الا للحيوانات فضحك الجميع من قولي وطلب مني الحضور ان انظم شيئاً لخير الدين باشا وتوفيق بك واسماعيل بك فارتجلت هذين البيتين :

يـــــا اسماعيـــــــل توفيقي بـــــــدينى قـــــد أرى خيري
بـــــلا خـــيري وتـــوفيقـــي ارى الـــــدنيـــــا الى غيري

اذ لا اسف على الدنيا بلا خير وتوفيق .

وكانت اللغة التركية هي المتكلمة تلك الليلة وحيث انني اجهلها بقيت ساكتاً فسألني احد الذوات الحاضرين اذا كنت اعرف اللغة التركية اجبته انني لا اعرف منها شيئاً سوى :

بادشاهم جوق يشا

فصفق الجميع لذلك وعدنا جميعاً ما اعرفه من التركي

« تخميس الابيات المشهورة »

كان المرحوم اسعد رعد يغني هذه الابيات وكان صوته جميلاً وهو عارف اصول الموسيقى العربية فسمعتها منهُ وسررت منها فخمستها في بيت مري سنة ١٨٨٦ وهي :

عـــذبت قلبي بظبى لـي بـــه ولـــه اذا تبـــــــدي لنساك سهوا ولهوا
وعنـــدمـــا قـــد رأى طرفي يقبلـــه غطى الخـــديـــد بيمنـــاه فقلت لـــهُ
لا تحجب الورد عني قد وهى جلدي
يـــا محجب الورد عني كم أذوب وكم أموت حـزنـــاً ووجـــداً في الغرام ولم
فقـــل لمضنـــاك من فيـــه العـــذاب ألم هـــل ذا دلال على أهـــل المحبـــة أم
فكرت في قتلتي يا محرقا كبدي
هـــل خلت قلبي على غير الوداد رسى حتى فؤادك وهماً بـــــالسلو قسى
فـــأخبره عن ذنبـــه حتى يتوب عسى فقـــال لا بـــل رأيت الخـــال رأم اسى
يصيد قلب الشجي من داخل الجسد

رب على عرش خـــــدي في نجلتـــــه   يريـــد ان تخضع الـــدنيـــا لعظمتـــه
حملت نفسك جوراً في محبتـــــه   وقصده دائماً يسطو بصولتـــــه
على فؤادك فاستمسكته بيدي

(صيف سنة ١٨٨٧ في بيت مري)

قد اعادني هذا الصيف ابن عشرين سنة فكنت اتخيل ذاتي شاباً لا اعرف تعب السهر وطول الجلوس وكنت مسحوراً حقيقة لا ابالي بهم ولا بغم وهي الايام التي يمكنني اعتبارها من ايام سعادتي لأننا كنا نجتمع اصحاباً بلا كلفة ولكل منا الحرية المطلقة بلبسه وزياراته وكانت الاشغال تضطرني للنزول الى بيروت ٦ ايام في الاسبوع وكان منزل المرحوم اسعد رعد مجلس الجميع وكان يقطن الطابق العلوي من منزل بيت مري وفي الأسفل اخوه المرحوم لطف الله وزوجته الاديبة حنة بنت المرحوم حنا الاصفر والسيدة عفيفة فرح وزوجها التي ذكرتها سابقاً وكان مصيفاً معنا المرحوم يوسف رعد ذا الصوت الجميل وصديقنا الخواجه جرجي نقاش وسعادة فخري بك وكنا كلنا على اتفاق تام ووئام لا نجتمع الا للسرور والانشراح فيتهيج عندي الشعر وأميل الى النظم والغزل نظراً للغناء والموسيقى وكنت دائماً انشد الاشعار أما للضحك او للغزل وكانت حالتي كما يأتي :

شكوت فقـــالت كـــل هـــذا تبرحـــاً   بحبي اراح الله قلبك من حبي
ولما كتمت الوجـــد قـــالت تعنتـــاً   صبرت ومـــا هـــذا بفعـــل شجي القلبِ
فـــأدنو فتقصيني فـــابعـــد طـــالبـــاً   رضاهـــا فتعتـــد التبـــاعـــد من ذنبي
فشكواي تؤذيها وصبري يسؤهـــــا   فتزعج من بعـــــدي وتنفر من قربي
فيـــا قوم هـــل من حيلـــة تعرفونها   اشيروا بها واستوجبوا الاجر من ربي

هذه صيفية بيت مري وكنت دائماً أنشد الاشعار سراً وجهراً والجميع يسرون بها وكان لكل منا مزية يجود بها على اصدقائه كالصوت وعزف العود والذكاء والشعر وعدم التكلف وحسن المعاشرة وكان كل منا كأنهُ مسحور ومما قلته عن لسان احدى السيدات هو هذا .

(عن لسانها)

شُكرت من العزول على عفـــــافي   فـــأضحى كـــل شخص فيَّ شاعر
بلطفي قـــــــد منعت كلام شاكٍ   وفي طهـــري ملكت فـــؤاد شاكر

(ولها ايضاً)

لما رأت عينيهـــا عبـــداً لها أخـــذت تصطـــــاد عبـــداً لها في أسهم النظرِ
وعنـــدمـــا حركت اجفـــانها أخـــذت قلبـي وأصبح ذاك العبـــد بـــالقـــدرِ

(قلت في قلع ضرسها وكان نخراً)

قـد نلت يـا ضرس من ثغر الحبيب مني مـــا لم تنلـــه ملوك في عروشهم
عشرون عـــام بعـــدنٍ كنت منغرساً تمص شهـــــداً وخمراً من اعزّ فم
من كـــان في جنـــة هـل يعتريـه ضني مـــا بـــالك اليوم تشكو شدة السقم
أجـــــابني الضرس اني لم أذق عسلاً مـــع انني فيـــه مغمور الى القـــدم
لأن خلي بخيـــــل لم يبح ابـــــداً بريـــه خمراً وشهـــــداً دون طعمهم
فنـــار شوقي لـــذا قـــد احرقت كبـــدي فـــذاب قلبي بـــه من شدة الألم
وعنـــدمـــا قـــد رأى اني بلا كبـــدٍ ولا فؤاد وقـــد أصبحت كـــالعـــدم
فـــــاخرجوني من الفردوس دون أزى كـــــأنني أدم افتوا بسفك دمي
فهكـــذا كـــل من يهوى الملاح غـــدا محروق قلب ويرمى بعـــــــد حبهم

(سليم افندي عكاوي)

هو صديقي الحميم كما كان والده صديق والدي ومن العجب ان الصدفة تجعل صديق اهلي صديقاً لي وبالعكس دون ان اشعر ولعل هذا من فعل الجاذبية التي تنتقل من الاباء الى الابناء ولو اختلفت الصوالح والمصالح وهذا ما حصل لي مع سليم افندي فأننا تعلمنا سوية بالمدرسة الوطنية في بيروت وهو اصغر مني سناً وبعد ان بعدنا عن بعضنا مدة رجعت الى بيروت فرأيته يتعاطى التجارة خصوصاً في الحرير وكانت لهُ كرخانة في كفر عميل وهو رجل جد لا يلهيه شيء عن شغله ولا يلتذ الا بالعمل ولذلك نجح النجاح التام ومن توفيقه اقترانه بزوجة كاملة الصفات تليق له .

(زوجة سليم افندي)

هي مخدرة لطيفة الذات فائقة الكمال ذات عقل ثاقب بشوشة الوجه محبة الاصدقاء ودودة مدبرة اشغالها الخصوصية المنزلية عالمة تلتفت الى اللذات العقلية أكثر من اللبس والزينة تحب ذوي العقول والمباحثات العلمية ويجب اعتبارها في بلادنا كرجل أكثر من امرأة قد ربت اولادها نظيرها وبالاختصار ان التوفيق قرن الزوجين وقد توفت رحمها الله في اواخر سنة ١٩٠٥ .

(قلت متغزلاً بسهام العين والمعنى مبتكر)

ارشق سهـــامك في قلبي بلا وجـــل لسنـــا نخاف من الفولاذ تعـــذيبـــا
لا يشعر القلب بـــالسهم الـــذي رشقت فنـــاره قـــد تـــذيب السهم تـــذويبـــا

(وقلت في حفظ السر والمعنى مبتكر)

والله مـــا بحت في سرّ ومـــا علمت مني الشفـــاء بـــأن الحب في كبـــدي
اخفيتـــه حيث فكري مـــا درى ابـــداً فيـــه ولكنَّ من شوقي وهي جلـــدي
فرّق جسمي ضنـــا حتى غـــدا شجـــاً فقـــد رأوك بـــه من داخـــل الجسد

كل هذه الافكار والاشعار نظمتها بسنة واحدة وهي صيفية بيت مري لأننا كنا كما قلت في مركز بهيج وكل نظم يقوله الشاعر وهو غير متهيج او متأثر لا يكون جميلاً .

(قلت في سواد العين وهو مبتكر)

عيون كـــم لهـــا في الحي حيٍّ قتيـــل كـــان سؤددهـــا السوادا
اذا اخـــذت بـــذاك الحرم قلت عـــلى العشـــاق ألبســت الحـــدادا

(تخميس الابيات الشهيرة أنعم بوصلك لي)

يـــا من لقلبي في النوى احرقتـــه والموت منيّ والجفـــا قـــارنتـــه
واليوم يوم منيتي قربتـــــــــه أنعم بوصلك لي فهـــــذا وقتـــــه
يكفي من الهجران ما قد ذقته

ضاع الزمـــــان سدى كما ضيعتني بـــالتيـــه والهجران قـــد افنيتني
فسقـــــــام جسمي والبلا اوليتني انفقت عمري في هواك وليتني
أعطى وصولاً بالذي انفقته

انسيتني ابـــــــــا اعيش بخيره والروح عن جسمي وذا عن سيره
الهيت قلبي عن قواعـــــــد طيره يـــا من شغلت بحبـــه عن غيره
وتركت كل الناس حين عشقته

اسمع حـــديث العـــازلين وفعلهم ان لا تبـــــــالي في غرامي مثلهم
فلكي تكـــذب في البريـــة قولهم بـــالله ان سألوك عني فقـــل هم
عبدي وملك يدي وما اعتقته

جمعوا لتشتيت المحبـــــــــة شملهم وتعـــــاضدوا حتى يقّووا عــــذلهم
ارجوك ان جــــاوك تصرم حبلهم او قيـــل مشتــــاق اليك فقـــل لهم
أدرى بذا وانا الذي شوقته

لما استجرت بجفنكم مـــا جـــارني ثم استعرت نعـــاسه فـــأعـــارني
اغمضت جفني والخيـــال انـــارني يـــا حسن طيف من خيـــالك زارني
من فرحتي بلقاه ما حققته

مـــا أورث العينين غير حبيبها والروح راحت من بعـــاد حبيبهـــا
نـــادت ولا طيف بـــدا ليجيبهـــا فمضى وأبقى مهجتي بلهيبهـــا
لوكان يمكنني الرقاد لحقته

فخري بك نامي

هو ابن محمود باشا حاكم بيروت مدة ابرهيم باشا المصري ووالدته من زوجات محمد علي جد العائلة الخديوية عرفتهُ في بيروت كما أقول هذا هو الصدق المتجسد وهو الغني الشريف الكريم لطيف ظريف ذو عقل ذكي أول من حافظ على ادبياته تعين رئيساً لبلدية بيروت وعمل حديقتها من جيبه الخاص يحب التنظيم في الاشغال بدقة يخرب ما عمل ولوكلف مبلغاً متى وجده مخلاً بنظام الهندسة او الذوق تعين متصرفاً الى نابلوس ثم استعفى وانقطع الى تربية اولاده وهما احمد بك ومحمود بك الذي توفي في حياة والده وابقى لهُ الحزن الدائم .

وأفضل فضيلة في فخري بك هي الصديق لا يمكن يكذب آه لو اقتدى به كل غني لان اذا كذب الفقير او المحتاج او الضعيف يعذر ولكن انت ايها الغني فما هو عذرك ومن المستحيل الكمال عند الفقير نظراً لاحتياجاته لأن لا يكون الانسان كاملاً ظاهراً وباطناً ما لم يكن مستوفياً احتياجاته والقوة تلزمهُ لحفظ ادبياته ولكن انت ايها الغني وقد انعم الله عليك بأهم شيء وهو استيفاء احتياجاتك لماذا تكذب لماذا لا تكون كاملاً وتعطي مثلا الى من هو أصغر منك فلذلك اذا كان الفقير يبقى في المظهر عشرة ايام لأجل كذبه يلزم ان يبقى فيه الغني لأجلها عشر سنوات ولهذا قال السيد المسيح أهون ان يدخل الجمل في خرم الابرة من ان يدخل الغني ملكوت السموات ولوكان في زمن فخري بك لكان اوسع له خرم الابرة ولكن أقول يوجد اغنياء في زمن فخري بك لو نظرهم المسيح لوجد خرم الابرة واسعاً لدخولهم حاصله هذه صفات فخري بك .

(نادرة مع وكيله) هو الذي كان يدير بيت فخري بك ويخاف من مداخلة الغير معهُ فلذلك كان يعبس بوجه الجميع حتى ينزع امنية البك منهم وكان فخري بك يكرم أحد الاشخاص ووكيله يتضايق

منهُ ففي ذات يوم ونحن جلوس بعد ان اجريت العلاج اللازم لعيون اليك تقدم اليَّ الوكيل واراد ان يمزح معي وقال لي انظر المرض الذي بعيني قلت له لا دواء لعينك لأنها ضيقة فضحك الجميع لأن العين الضيقة في عرف العوام لا تطيق سواها واخيراً توجه فخري بك الى الاستانة العلية مع عائلته وهناك جرت له قصة غريبة .

(قصته في الاستانة العلية)

عندما رجع الى الاستانة العلية وكان قد سكنها قديماً سأل عن كل اصحابه الذين عرفهم اول مرة خصوصاً عن جار كان يعتبره كثيراً فقيل له انه توفي وخلف ولداً غير مستقيم الاطوار بدد اموال ابيه وأضحى محتاجاً فطلبهُ وكان شاباً عمره خمس وعشرين سنة وطيب خاطره وعزاه وقال له اعتبر هذا البيت خاصتك وأحضر اليه متى شئت فصار يتردد عليه وامتزج خصوصاً مع ولده الصغير . وكان الشاب ذكياً جداً تعلم صنعة خفة اليد التي كانوا يسمونها قديماً سيما او سحر وفي أحد الايام قال لأبن صاحب البيت اني اعرف سراً عجيباً وهو كشف الكنوز وهذا الامر لا يظهر الا على فص من الالماس متى احببت اريك هذا الامر عياناً أجابه انني لا امتلك على الماس ولكن لوالدتي حلى كثيرة فان اردت نأخذ منها الفص اللازم قال الأوفق ان تأتي بقطعة الحلى ونأخذها الى الصائغ ونختار منها الفص الموافق ونعيدها دون ان يشعر بنا أحد وتوافقا على هذا الامر وصار الشاب يأخذ الحلى الى الصائغ فيستبدل الفصوص الكريمة بزجاج كاذب ويعيدها قائلاً ان لم يوافقهُ منها شيء وهكذا حتى انتهى على سائر الحلى ولم يعجبهُ على زعمه فص منها . وفي ذات يوم ذهب صاحب المنزل فخري مع ابنته وكانت لابسة حلقاً ثميناً الى السوق فخطر له ان يستبدل حلقها بأحسن منها فر على أحد الصاغة وطلب منه حلقاً نفيساً فاراه جملة اشكال اختار منها واحداً وقال للصائغ انني اريد استبدل حلق فتاتي بسواه أكبر منه وادفع الفرق فقبل صاحب المخزن وأخذ الحلق ليمتحنه فرآه من زجاج لا يساوي شيئاً فأخبره بما رآه وكاد الرجل ان يجن لهذا الخبر فتوجه الى المنزل وسألها هل الصائغ في بيروت ابدل حلق ابنتك بسواه أجابت كلا لأننا لم نرسله الى بيروت وكشفت عن باقي حليها فلما رأتها كلها مغيرة بزجاج اغمي عليها لأن حليها كانت تساوي نحو ستة آلاف ليرا فأحتار الجميع بكيفية هذا التبديل . غير ان الانسان اذا وقع في مصيبة يقل عقله ويصير يعتقد بالخرافات فطلب مبصرة حتى تكشف له هذا السر ليصدق به المثل ما تبقي عن اللص يأخذه المبصر غير انهم اعتمدوا على هذا الرأي واستحضروا امرأة أرمنية ارتدت لباساً مخيفاً وجلست في الدار واحضرت أمامها كل اشخاص المنزل من الأولاد حتى الخدم وابتدأت تحرق البخور وتدمدم بكلام غير مفهوم اخيراً نهضة وقالت ان الذي اجرى هذا الامر سينشق بطنه بعد نصف ساعة ان لم يعترف بعمله وأبدت حركة مخيفة فخاف الولد جداً ولم يمكنهُ ان يحتمل هذا التهويل فركض الى حضن والدته وابتدأ يبكي ويقول لها انا يا امي فعلت ذلك فلما سمع الوالدان هذا الكلام زادت مصيبتها لأنهما عرفا ان السارق هو ولدهما وسألاه فأخبرهما القصة بتمامها وتوجه الرجل واخبر البوليس بما توقع لولده غير انهُ عجز عن الاثبات وذهب حقه ضياعاً اخيراً حرر على ولده بكمبيالة بستة آلاف ليرا لامر والدته لانه المذنب الحقيقي بعد ذلك توجه الى

مصر حيث كان له املاك وقد اخبرني هذه القصة عطوفتلو منصور بك شتوان مستشار نظارة المالية في الاستانة العلية حين اتى الى بيروت لأجل بقايا الاموال الاميرية وهو قد رافق البك الى دائرة البوليس حين ذهب للتشكي وله به معرفة تامة ومن جملة المصائب التي أُلمت بفخري بك ان ولده محمود بك توفي بحياة والديه وكان ذكياً محبوباً جداً رحمه الله رحمة واسعة وهو الان قاطن بيروت .

(توصية بأحد الكذابين) طلب مني أكبر الكذابين ان اوصي به صديقاً لي قادراً على توظيفه وان اشهد به انهُ صادق أمين فخطر لي ان احرر له هذين البيتين

موصل شقتي بـــــالصدق مملو ويكتم صدقـــــه حرصاً عليـــــه
فلو عـــاشرتـــه ستين عـــامـــاً ابى اخراجـــــه من شفتيـــــه

فافتكر اني امدحه بكتم السر فأخذ الشقة لصاحبي الذي ضحك منها جداً ووعده ان يرى له وظيفة على شرط ان يبطل الكذب فوعده بذلك ويظهر انه انجز وعده لأنهُ باق عنده او انه لا يكذب عليه فقط وكان مثلها مثل رجل قدم الى صديقه شخصاً وقال لهُ اني اقدم لك اعظم المنافقين أجابهُ هل ينافق معنا او علينا قال معنا أجاب له بأس اذا وهذا ما يضطر اليه الانسان احياناً حين ينقطع عنهُ الصادقون .

واصا باشا متصرف لبنان الرابع

من ١٨٨٣ الى ١٨٩٢

من أصل ارناؤوطي حضر متصرفاً على لبنان وكانت معهُ زوجته الاولى السيدة كاترين ارثوذكسية وكانت مصابة بداء السرطان توفت في بيروت ودفنت في الحازمية وهناك قبرها وكانت معه ابنته زوجة كوبليان التي توفت بالسل الرئوي ودفنت في الحازمية بجوار امرأة والدها وقد أخذ زوجتين ولم يرزق ذكراً واخيراً تزوج بمدموازل ريش افرنسية الاصل ورزق منها ولدين ذكوراً وهما الان مخائيل بك وأخيه ولهما ولوالدتهما معاشاً من الدولة وقد حضروا في سنة ١٩٠٧ الى سوريا ونزلا عند الخواجه حبيب الدوماني وكيل املاكهم في الدامور وقد أحضر واصا باشا معه اخا زوجته كاترين بوناطي افندي الذي تسمى مفتش العسكرية وكان شهماً عفيفاً ادوباً لطيفاً توفي في السل وكذلك احضر معه طبيباً رومياً وبعد مدة اختلف معه بعدما جعله طبيباً اولاً في لبنان فاستعفى ورجع الى بلاده واخيراً توفي واصا باشا في بيروت ودفن في الحازمية بين زوجته الثانية وابنته ولم يرجع من من اتوا معه حياً الا صهره كوبليان الذي لعب ملعباً عظيماً مدة حكم واصا باشا فلذلك نذكر عنه شيئاً خصوصياً .

هو الذي سود ادارة لبنان مدة واصا باشا وابقى لها اثراً قبيحاً ولولاه لكانت خير ادارة لأنها تكونت من رجل شهم بطل صادق العثمانية شجاع كريم الاخلاق والنفس وهو واصا باشا ومن رجل ماهر في سياسة البلاد وهو ناصيف بك الريس الذي كان لا يمل من الشغل والتعب وجامعاً شؤون المتصرفية يديرها بمهارته وجاعلاً لها مقاماً عظيماً اما كوبليان فما كان يعرف غير الدراهم ولا يعمل مصلحة الا بالمال وقبل ان اشتهر بهذا الامر ارسلت بحقه رسالة الى الاهرام هذا نصها :

تنين لبنان

ظهر في لبنان تنين قصير القامة اسمر اللون ذو لحية سوداء ينظر الى جميع الجهات في آن واحد لا يأكل لحماً ولا نباتاً بل معدناً وخصوصاً معدني الفضة والذهب ويجوب لبنان بالطول والعرض ويستخرج المعادن من الجيوب لا من الأرض اذا أكل ضحك ولعب ومسح شاربيه وفرك يديه وبالعكس اذا لم يقدم له الطعام هاج وماج ورفس الارض برجليه لم يظهر حيوان مثله في الكون وقيل انهُ من الحيوانات التي ظهرت قبل الطوفان لأن عندما جمع نوح عليه السلام الحيوانات في الفلك وطاف على وجه الماء استقرت السفينة على جبال اراراط في ارمينيا فخرج هذا الحيوان قبل الجميع نظراً لشراهته وفلت من السفينة وبقي في بلاد ارمينيا فنسأل دولتلو واصا باشا ان يقي البلاد منه وله من أهلها الدعاء والممنونية .

ولما ظهرت هذه الرسالة في الاهرام نفقت كل نسخها ووصلت النسخة الى فرنكين وترجمت الى كل اللغات وكل القناصيل طلبوا منها نسخاً وترجموها ولما سمع بها حمدي باشا الوالي وتليت عليه استلقى على قفاه من الضحك وقد نسب لي هذه الرسالة وابتدت العداوة بيننا بحيث كان المأمورون اللذين ينقلون لي الاخبار عن كوبليان ويدفعوني لنشرها أول من ابعدوا عني حتى لا يظن بهم شيئاً هذه احوال البلاد في ذلك الوقت عرفت ما هم أهل بلادنا وصرت اصادق كل متصرف اتى .

« الدعاوي عليَّ »

وعندما تخاصمت مع كوبليان وادارته جددوا عليَّ دعوتين احدهما من ابن خالي سليم بك ناصيف وهي دعوى ماء لي في ارضي ادعى انها له فاخيراً قامت الشريعة في جزين وحكم له سليم افندي باز فيها لان وكيلي عمل تناقض وبلغني الحكم وعملت له الشعر المشهور سنذكره في مجمع الحشرات ثم استأنفت وخسر الدعوى ابن خالي واخيراً تصالحنا .

والثانية دعوى حرش وفي هذه الدعوى ساعدني كوبليان بواسطة لا بيتيت فيل قنصل جنرال دولة فرنسا وبعدها تصالحت مع كوبليان ودايرته وبقينا اصحاب الى آخر المدة وفي اثناء ذلك دخلت في حماية فرنسا كوكيل له لدير راهبات مار يوسف .

« كيفية الحماية »

حررت ريسة الراهبات الى القنصل الجنرال تطلب اني أكون وكيل الدير وكان القنصل بتريمونيو والترجمان الأول مسيو روسو الذي هو الان قنصل فرنسا في بالرما ايطاليا فحرر القنصل الى السفارة التي طلبت ذلك من الباب العالي فأرسلت الصدارة تطلب الاستعلام من الوالي الذي كان يومئذٍ حمدي باشا وذلك قبل انفصال بيروت عن الشام والمتصرف في بيروت نصوحي بك الذي عندما انا اصلح هذه المسودة قرأت في جريدة لسان الحال انهُ تعين سفيراً للدولة في ايران فبعدما فحص نصوحي بك لان مأموريتي في بيروت عني من جميع الدواير ان كان للطابو او من الظابطة اذا كان يوجد عليَّ دعوى او اموال اميرية او خلافها ولما لم يجد شيئاً يمنع قبلت الدولة العلية حمايتي وظيفتي هذه وقد حرر نصوحي بك الى القنصلاتو بقبولي من حمايا دولة فرنسا وتقيد اسمي في دفتر الحمايات عند مدير الامور الأجنبية الذي كان يومئذٍ رجل فاضل عظيم يوسف افندي عرمان .

ولما بلغ الخبر واصا باشا اعترض الى الباب العالي واخيراً عرف سبب اعتراضه ولم يقبل وكذلك السفارة استخبرت من قنصلها فكان موسيو روسيو الذي حرر تحريراً عظيماً بحقي بتاريخ ٢٥ تشرين ثاني سنة ١٨٨٥ نمرة ٣٥ بسجل القنصلاتو وكذلك نصوحي بك عمل مظبطة عظيمة بحقي انني من اصدق العثمانيين وان لا على شيء يوجب رفض حمايتي وهكذا انتهت .

وعندما كنت في دعوى الحرش في جزين كان قائمقامها قسطنطين بك الخازن الذي هو اشطر سياسي لأنهُ بقي طول عمره الذي هو ٩٥ سنة لا أحد يعرفه من أي غرض مستقيم عفيف عديم الاذى مع انه كان تقريباً امياً وقصة فحل محل اي فحل محل مشهورة عنه وكان رئيس المحكمة ذيب افندي صفا وكان رجلاً لطيفاً عالماً لا يحب ضرر أحد بل يساوي كل شيء بالصلح وهو الذي دخل بيني وبين ابن خالي سليم بك ناصيف في دعوى الماء وصالحنا وكذلك قد مشى العدل في دعوى الحرش وكان سليم بك ناصيف ابن خالي من المساعدين لي .

والعضو الذي كان مع الرئيس اسمه حسن وكان يحبني جداً وانا كذلك وكان يحب دائماً المزح معي وقد حصل لي معهُ النادرة الآتية :

(نادرتي مع حسن) لما كنت في المحكمة والقاضي يستمع الشهود وانا جالس بناحية منزوية ارسل لي

حسن ورقة يقول فيها انهُ حاصل له حريق عند البراز ويخرج معه قليل من الدم فيدنا ماذا نعمل له بلا رزالة فأجبتهُ بلغنا مرضكم ولا شك ان ما بكم هو من البواسير لان الحريق مع الدم يدلان عليه وهو يشتد معكم متى كانت المعدة قابضة في هذه الاحوال الجزاء حسن . وكان اسمه حسنا فحين قرأها ضحك ولعن كاتبها .

(نادرة مع العضو الثاني) لما انصرفنا من المحكمة قابلني العضو ودعاني الى منزله وسألته اين هو قال فوق مار مارون بجزين وكنا عندئذ على النعصة فقلت له يا صاحبي لوكان مار مارون بذاته دعاني الى هناك لما توجهت لان المحل عالي وطلعته مخيفة قال ان اخي هناك يريد مقابلتك اجبته اقرءه السلام قال وما توصي له قلت لا شيء والح عليَّ بما اوصي له فقلت له لما ضجرت منه قبل قفاه فضحك الجميع من هذا الجواب .

بعدما رجعت كانت زوجة كوبليان ابنة واصا باشا قد توفت ودفنت في الحازمية حيث دفنت قبلها خالتها امرأة ابيها السيدة كاترين التي توفت بداء السرطان وقد حضرت مأتم امرأة كوبليان التي كانت عفيفة الذيل جداً متهذبة متعلمة لا تحب الكدر وتكره اعمال زوجها وقد رزقت منه ابنتان كان جدهما يحبهما جداً وكثيراً ما كانت توبخ زوجها على حبه الرشوة .

(نوادر كوبليان) حضر الشيخ رشيد الى كوبليان يرجوه لتوظيف مدير فطلب منه مايتي ليرا وابى الشيخ ولما لم يتفقا قام الشيخ ليذهب وقبل خروجه قال له كوبليان يا شيخ رشيد بلغني ان كاتب المحكمة يرتشي فانتبه لهُ فقال لهُ الشيخ رشيد وماذا كنا نعمل الان عندك يا افندي فضحك كوبليان وسكت .

(نادرة اخرى) كان أحد المأمورين مشغوفاً بحب احدى النساء ويعزها كثيراً فعرف كوبليان قصته وفي أحد الايام حضر ذلك المأمور الى بيت الدين وقابل كوبليان فقال له صدر اليوم امراً لجنابكم بنفي امرأة في بلدكم وابعادها فهل لم يصلكم قال كلا ومن هي هذه الامرأة أجاب كوبليان هي التي تدعى لالالا طي طي طي فه لطيف فرجف المأمور وقال ولم ذلك يا سيدي قال لأن الجميع يتشكون منك وأنك بصفتك مدير تترك الاشغال وتقيم عندها ليلاً ونهاراً ودولة المتصرف نظراً لخاطرك لا يريد عزلك لذلك امر بنفي الامرأة الى المتن فسأله اذا كان الامر قد صدر ام لا فأجابه سيصدر عصاري اليوم وأسرع المأمور يسأل بعض المقربين وكانت المسألة مربوطة معهُ فأجابه هذا بما وافق قول كوبليان اخيراً أخذ المأمور بيده خمسين ليرا ودفعها الى كوبليان كي لا يصدر الامر بنفي خليلته وهكذا ربح الخمسين ليرا غنيمة باردة .

وقلت في أميركان صاحبي وعاداني عندما توظف :

سعيـــــد في رئـــــاستـــــه	على نواب لبنـــــــــــان
بحق قـــــد وجـــــدنـــــاه	اميراً مـــــا لـــــه ثـــــاني

عندما وصلت له علقها وانشرح منها وعندها فسرها لهُ بعض اللذين اخبرتهم معناها الاصلي خزقها ولعن قايلها .

ذكرت انه في سنة ١٨٨٤ بسبب مرض ولدي المرحوم يوسف قضيت فصل الصيف في بلدٍ وكانت جميع افراد اسرتها الاشراف اصدقائي فلما أتيت مع ولدي المريض حضر الجميع يعرضون عليَّ مساعدتهم الا واحد اسمه شبل لأنه افتكر حسب الطريقة القديمة ان تجب على زيارته اولاً وفي آخر الصيف حررت الابيات الآتية :

لكم يا بني الاسياد في الناس رتبة	فما أحد من فوقها ابداً يعلو
فأنتم اسود الغاب في حومة الوغى	واعلاكم سبع وادناكم شبل

والشبل هو أبن الأسد

(خليل جدعون) وقد نظمت له هذين البيتين :

فغيرك يدعى عوناً لخالٍ	ولكن عند جد لا يكون
خليل أنت لي في كل حالٍ	وحقاً انت لي في الحدعون

وقلت في خليل بك عيسى :

لقد حبتك كل الناس طراً	للطف قد غدوت به انيسا
ومثلي الانبياء هوتك ايضاً	لذلك قد دعوك خليل عيسى

(السيدة سلمى) مررت يوماً لأزورها في مصيفها في عيناب فأرتني عينها واخيراً لفت ورقة واعطتني اياها نظير اجرة ففتحتها ورأيت فيها نحاسه فضحكنا وقلت لا بد لهذه من شعر فارتجلت :

ونحاسة حاكت خدود مليحة	في لونها وحكت صلابة قلبها
مذنلت منها الصلب نفسي ايقنت	ان عن قريب قد أفوز بقلبها

وقد توفت المسكينة بداء الجدري في بيروت رحمها الله اما زوجها فلم يزل حياً .

(الدكتور بشاره) من عادة اهالي بلادنا انهم اذا رأوا مريضاً موجوعاً يتراكضون من كل ناحية يبحثون على الاطباء فصادفت يوماً ما رجلاً مصاباً بداء السداد طلبوا له الحكيم الأول فأجرى له اللازم

وقبل ان يأخذ الدواء مفعوله طلبوا له الثاني والثالث وهكذا احضروا له ستة اطباء تلك الليلة ولكن في هكذا احوال قل من يأخذ اجرته واخيراً حضر طبيب اسمه بشاره وكان المريض قد استوفى كل الوسائط فلما وصل الطبيب بشاره غاظ المريض وارتاح فنسب اهله شفاءه الى هذا الطبيب مع انهُ لم يجر له شيئاً فقلت فيه :

مريض بـــالسداد غـــدا مصابـــاً ولم تظهر لصحتـــــــه اشاره
ولما أقبـــــل الاسى عليـــــه فغـــاظ وكـــان غـــائظـــه بشاره

(المحامي حنا) هو رجل يحب التزوير في الدعاوي واشتهر به مع ان هذه الصناعة انما هي لتحصيل الحقوق التي هي أعز من النفس لان الرجل لو كان ذا مال واقيمت عليه دعاوى تزويرية حتى افتقر لفضل الموت على هذه الحال وأغلب الذين حلى بهم الخراب هم من هذا القبيل وقد قيل في الامثال الفرنساوية الصلح الردي خير من الحكم الحسن وكان هذا المحامي شهيراً بتزويره :

فصيح عـــالم التزوير طبعـــاً يرينـــا كـــل يوم منـــه فنـــا
يعـــادي كـــل ذي حق بـــدعوى ولكن حيث كـــان الفلس حنـــا

فنظمت هذين البيتين لجريدة المصباح :

فـــاذا ذهبت الى الكنيف فـــاحترس من طنمـــة خوفـــاً من الاشبـــاحِ
واذا اردت ان تبرز آمنـــــــاً مطمئنـــاً برّز على المصبـــاحِ

حبيب بسترس الصغير

هذه الاسرة اشرف اسرات بيروت قديمة العهد والغنى وهي الوحيدة التي كانت منذ خمسين سنة وقد ذكر عنها الشيخ ناصيف اليازجي الشاعر الشهير بابتداء شعره وذكرها نقولا الترك الشاعر الذي كان في زمن الامير بشير الشهابي فاجتماع الشعراء على مدحها دليل على قدمها في الاعتبار ولم تزل حتى اليوم معتبرة بالغنى والجاه واستمرت محافظة على مقامها العالي واللذين عرفتهم من هذه الاسرة هم من خير رجال الوطن واثباتاً لقولي أذكر بعض أبيات من قصيدة للشيخ ناصيف اليازجي رثى بها موسى بتسرس الذي توفي سنة ١٢٦٦ هجرية التي مطلعها :

مـــا بـــال موسى بلا سمع ولا بصرٍ فلا يجيب الـــذي يـــدعوه في السحرِ
الى أن يقول

يـا صاحبي زر ثرى موسى الكريم وقـل	يـــا أكرم الترب هـــذا أكرم البشر
هــل كــان قبلك من رمس ترابيــة	أمسى ضريحاً فـــأضحى منزل القمرِ
اتــاك تــابوت موسى في محافلـه	يبقى كتــابوت عهـــد الله معتبرِ
من كــان يعلو سروج الخيــل مـذهبـة	قـــد زارك اليوم بــالالواح والــدثرِ
من كــان أقرب اهــل الارض منفعـة	وكــان أبعــد أهــل الارض عن ضررِ
القـــائـــل الحق في سر وفي علن	والفـــاعـــل الخير في صفو وفي كـــدرِ
وكلما ازداد مـــالاً زاد مكرمــة	كـالـدوح مـا زال غصنـاً زاد بـالثمرِ
وكلما ازداد من مـــالٍ ومن شرفٍ	زادت وداعتـــه في القـــدر والقـــدرِ
قــد خط في قلبــه مـا كـان منتقشاً	في كف موسى على لوح من الحجرِ
مشي على سنن الخيرات من صغرٍ	حتى استمــد فكــانت عــادة الكبرِ
مـــا ذم قط ولا ذمت خلائقـــهُ	يومـــاً فمات حميـــد العين والاثرِ
يبكيـــه كــل يتيم كــان يحسبــهُ	ابــاه وهو الــذي ربــاه من صغرِ
وكــل ذي حــاجـة من كـل ذي امـلٍ	وكــل ذي فــاقــة من كــل ذي وطرِ
ركـن تهدم في بيروت فـــانـــدفعت	أهوال صعقتـــــــه في المدن والخبر

فيستدل من هذه القصيدة انه كان رجل زمانه لان الشعراء لا تمدح الا من كان مشتهراً في المجد والجاه والأدب وبرهاني على صدق قولي من هو موجود من سلالته اذ قيل من ثمارهم تعرفونهم . وقد عرفتهم كلهم في بيروت وأول من عرفته حبيب الملقب بالصغير تمييزاً له عن حبيب الكبير .

عرفت حبيب الصغير وهو بسن الخمسين من عمره وكان ذكياً ثابت الجأش مدبراً تعلم معظم ما يعرفه من نفسه لانه كان امياً فتعلم العربية والفرنساوية واليونانية وكان مع شغله التجاري يحب العلوم خصوصاً التاريخ ومتى سمع برجل زكي يزوره ويتعرف عليه ويعاشره وكان يدبر ماليته احسن تدبير حتى انهُ خلف ثروة عظيمة وكان يجمع الاصحاب الى بيته ويدعوهم للأكل وفي احدى الليالي دعا جملة شعراء وادباء منهم ابرهيم بك كرامه ابن المرحوم بطرس كرامه الشاعر الشهير وقد كلفوني ان امدح صاحب الدعوة فارتجلت هذين البيتين :

لا تظنوا خـــالفنـــا للهجو وعـــداً	وانتقلنـــــــــا الى المديح الغصيب
قـــد عشقنـــا فضل الحبيب لهذا	اعـــذرونـــا على مـــديح الحبيب

وكنت اضطر اغلب الليالي لقضاء السهرة عنده وأعزه جداً ففي احد الايام كان عرس ابن عمه وجاره جرجي افندي بتسرس ابن الخواجه حبيب الكبير وكنا مدعوين لهذه الحفلة وفيما انا آتٍ بالعربة فلما وصلت الى زاروب الحرامية التقيت بالامير سليم سعيد من بيت مري فاوقفني وقال لا تذهب للفرح فسألته

عن السبب فأخبرني ان حبيب الصغير توفي فجأة ولا استطيع اصف الغم والكدر اللذان الما بي لما سمعت هذا النبأ فبقيت جامداً في مكانب وصرت ازرف الدمع السخين ثم ذهبت الى منزله فرأيت الحبيب ملقياً لا حراك به وحتى الان لم أكن مصدقاً وفاته ولا اعلم اين ذهب ذلك العقل الفريد فبكيت عليه كانه والدي وكان الاسف بادياً على الجميع وابتدل فرحهم الى ترح وكان المرحوم حبيب مصاباً بداء القلب مع ربو فالظاهر انه تضايق من القلب وقلة التنفس فاصابهُ ما اصابهُ في شهر حزيران سنة ١٨٨٦ .

(السيدة زاهية مدام هنري كلياردو)

هي السيدة التي عاشرتها أكثر من سواها بسبب صداقتي مع الموسيو هنري كلياردو والترجمان الأول في قونسلاتو فرنسا فهذه السيدة كانت أنموذج السيدات والزوجات فصيحة لسنة اتقنت اللغة الفرنساوية حتى كانت لا تميز عن افرنسية محبوبة من الجميع لطيفة المعشر كريمة النفس تحب الناس شفيقة على الفقراء تحب مساعدة المحتاجين لينة الطباع مع الجميع نقية عفيفة بشوشة الوجه مغرمة بالشغل لم أزرها مرة الا وأرى الشغل في يدها وقد اتقنت اخيراً فن التصوير الشمسي وتولعت به حتى صارت تعد أحسن مصورة وقد ذهبت مخصوص الى تدمر وهي المدينة التي اشتهرت بزمن زينوبا ملكتها وهي أول امرأة وطنية زارت خرائب تلك المدينة فكأن زنوبيا قد عادت اليها بهذه الزيارة .

(نادرة معها واشعاري لها) كان شكري افندي ابيلا يتردد على بيت كلياردو لان الموسيو هنري كان أصله من صيدا وكنت أتوجه معه للسهرة هناك وفي ذات ليلة طلب مني امامها ان انظم لها بعض ابيات فمن مزيد اتضاعها قالت لست استحق المديح بشيء غير انني ارتجلت هذه الابيات :

قصد المديح بيـــــان كـــــل فضيلــــة	خفيت عن الــدنيــا لتعلم مــاهيـــه
عبثـــاً تهيم بمدح من من اصلهــــا	فيهـــا الفضائـــل والمكـــارم زاهيــه
ان شئت تعــــــــداد المحاسن اختشي	من ان تضيق على مديحي القافيه ١٩٠٦

واراد شكري المزح فقال ان الشعراء لا يصدقون وكل ما قلته عنها غير موجود فيها وكان ذلك مزحاً امامها فأجبته حالاً :

نعم ان شعري في الانــــام حقيقـــــة	فلا أحـــــد في الكون يسطو على فكري
ولست لغير الحق يومـــــــــاً بشاكرٍ	وان قلت غير الحق فليلعنوا شكري

فعلت ضجة الاستحسان والضحك خصوصاً من شكري لأنه لطيف جداً ومن اسرة معتبرة وصديقاً حميماً لي من صيدا وقد تزوج سنة ١٩٠٣ ابنة المرحوم بشاره الهاني وقد نظرته معها في باريس وقد

اصيبت الست زاهية بمصائب شتى في اخويها جرجي الذي توفي بغتة وبأخيها ميشل غرقاً وباقي لها الشاب اللطيف جان وللمرحوم سليم دي بسترس ولدان احدهما موسى وهو شاب لطيف ظريف من أحسن شبان عصره عرفته في الاسكندرية اما الشاب الذي فاق اقرانه بالكرم والجود واللطف والظرف هو الخواجه ادوار ابو راجي بسترس الذي تفتخر به سوريا على مصر لا بل على كل أهل عصره وكذلك اخوه البر والخواجه جبران بسترس فأنهم من الاغنياء الاماجد .

(نادرة مع شاعر حديث السن) في ذات يوم عند الظهر كنت جالساً في بيتي اتناول الطعام فدخل عليَّ الى غرفة الأكل والد هذا الشاعر وكان يفتخر به وقال عجل في طعامك لان ولدي الشاعر ينتظرك وأن تأخرت يهجوك قلت هذا ما اريده وارغبه فذهب وبعد قليل رجع ومعهُ هذين البيتين :

هـــذا الـــذي بكلامـــه	ذم الأكـــابر والاصاغر
مـــا انت الا قـــادح	كـــذب الـــذي سماك شاكر

وهذان البيتان قالها احد الشعراء الى جابر الذي ظهر بأيام الخلفاء العباسيين وألف كتاباً في الكيمياء فجربوا عملياته ولم تنجح فأمر الخليفة بضربه لكذبه فكتب له احد الشعراء ما يأتي :

هـــذا الـــذي بكتـــابـــه	غش الاوائـــل والأواخر
مـــا أنت الا كـــاسر	كـــذب الـــذي سماك جـــابر

فغيرهما ولا عتب عليه بالنظر لسنه فأتى بهما والده وهو جذل مسرور فقلت لهُ حذ الجواب وكتبت :

هـــذا الـــذي مـــع صغره	عمـــل الكبـــائر والصغـــائر
لا شك اني كـــاذب	ابـــداً لـــهُ ان كنت شاكر

فضحكنا وبقينا اصدقاء .

(فريد بك) قد كثر المتلقبون بهذا اللقب حتى صرت ازدري بهم فيكون كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد وكان من جملتهم فريد بك ولست اعرف كيف لقبوه به مع انهُ لم ينل الا الرتبة الثالثة ولقبها رفعتلو فنظمت له البيت الآتي :

لما أتت للبيك ثـــالث رتبـــة	رفعت الى العليـــاء نقطـــة رأسه

(لا تطرحوا) كنا ذات ليلة مجتمعين نتناشد الاشعار والحضور مسرورين يسمعون اشعاري وانا مسرور

لسرورهم وحكمهم على اشعاري واذا بواحد قال مع رفقائه البلداء دعونا من الاشعار ولنلعب بالورق فتكدرت وقلت لهم اسمعوا هذين البيتين وهما آخر ما اسمعكم اياه وارتجلت حالاً :

ولقـــــد حفظت عن المسيح وصيــــةً وهي التي لا تحفــــدوا بــــل اصفحوا
وعصيتـــــــــه في طرح شعري بينكم يــــا ليتني قــــد طعت في لا تطرحوا

وهي الآية الانجيلية لا تطرحوا جواهركم قدام الخنازير فضحك الذين يفهمون وطلب اللعب سواهم .

(لعب القمار وتأثيره)

ينسى المدمن على لعب القمار كل لذة خلافه ولا يتبع عادة سواه فيترك العلم والأدب والمسامرة وكل لذة عقلية ويصير وحشياً بالكاد يرد السلام او يتكلم ففكره دائماً في كدر ان ربح خشي من الخسارة وان خسر خاف من الزيادة يصغر عقله حتى يصير يعتقد بالسعد والنحس وان رأيتهُ خسراناً تراه يجلس ثم يقوم ثم يقلب الكرسي ويخرج قليلاً ويصنع حركات مضحكة ومن طبعي بغض هذه الالعاب . والذي يلعب التسلي يخسر دائماً لأنهُ لا يحصر فكره بالربح خلافاً لمن يجعل القمار صناعته وهذا ما اصاب هؤلاء .

(كسر الجفون) تغزلت يوماً بكسر الجفون وكنت احياناً أنظم الشعر غير قاصد شخصاً معلوماً بل لأجل المعنى وعذوبته او الحادثة جرت فقلت :

فؤادي مـــــــــع جفونك في عراك ومـــــا أحـــــد تمتـــع بـــانتصارِ
ولكـن الكفـــــاح غــــدا سواء فهـــــا قلبي وطرفك بـــــانكسارِ

وقد ذكرت هذين البيتين في كتابي صحة العين بباب التغزل وما قيل في كسرها :

(القس بطرس) كان هذا القسيس خادماً عند أحد الذوات المعتبرين الذين كنت أزورهم ويخدمه بكل شيء فتكدر منه معلمه وطرده فذهب ودرس اللاهوت بثلاثة اشهر وسيم قساً باسم بطرس وطلب مني تاريخاً لرسامته او شعراً لهُ :

سامـوك قسيساً لـــترشـد انفسـاً من حيث انك كـــــامـــــل الأوصاف
فلأجلك الانجيـــل جـــاء بـــآيـــةٍ يـــــــا بطرسُ ذا اليوم إرع خرافي

من كلمتين .

(رواية الوردتين للمعلم عبدالله البستاني)

وهي الوردة البيضاء والوردة الحمراء وهي الحرب التي جرت بين الملك ادوار واقاربه فاتخذ كل حزب وردة شعاراً لهُ وقد سكب هذه الرواية في قالب شعري بديع ولما مثلت كنت من الحاضرين وكان الشعراء يقرظونها عقب كل فصل وكثر المقرظون حتى لم يبق وقت لاستماع الرواية فلكي أدع حداً لأقوال الشعراء نظمت هذين البيتين وقلتهما فكانا ايضاً تقريظاً للرواية :

روايـــــة الـوردتين اليوم قـــــد ظهرت فقرظت كـــــــــــل تقريظ كتلبيخ
لا شك في ان ذا التقريظ ينفعهـــــــا لا بـــــد للورد من ذبـــــل لتسبيخ

المستخدمون مدة واصا باشا

(المحاسبه جي) هاشم افندي .

(دائرة الجزاء) نسيب بك جنبلاط ١٨٨٣ : ١٨٨٤ قاسم بك العماد ١٨٨٤ : ١٨٨٨ ملحم بك تلحوق ١٨٨٨ : ١٨٩٢ .

(دائرة الحقوق) الامير نجيب شهاب ١٨٨٣ : ١٨٨٤ بطرس بك كرم ١٨٨٤ : ١٨٨٧ الامير نجيب شهاب ١٨٨٧ : ١٨٩٥ .

(مدير دير القمر) قسطنطين بك الخازن ١٨٨٢ : ١٨٨٦ الامير مسعود أمين ١٨٨٦ : ١٨٨٧ قسطنطين بك الخازن ١٨٨٧ : ١٨٩٣ .

(مجلس الادارة) الامير سعد شهاب ١٨٨٣ : ١٨٨٧ الامير افندي شهاب ١٨٨٧ : ١٨٩٩ .

(مدير البوليتيك) كوبليان ١٨٨٣ : ١٨٩٢ .

(الترجمان الأول) اسكندر بك التويني .

« رئيس القلم الأجنبي » كوبليان . دياب افندي .

« ترجمان » الامير مالك شهاب ١٨٨٤ .

« رئيس القلم التركي » ناصيف بك الريس ١٨٨٤ : ١٨٩٢ .

« رئيس القلم العربي » حنا بك ابو ضعب ١٨٨٤ : ١٨٨٧ خليل بك الخوري ١٨٨٧ : ١٨٩٠ حبيب بك سعد ١٨٩٠ : ١٨٩٤ .

« قلم الأوراق » ابرهيم افندي ذيب ١٨٨٣ : ١٨٨٤ ملحم شميل ١٨٨٤ : ١٨٨٥ اسكندر شميل ١٨٨٥ : ١٨٩٢ .

« قائمقام الشوف » نسيب بك جنبلاط سنة ١٨٨٤ : ١٨٩١ .

« قائمقام جزين » الامير نجيب شهاب ١٨٨٤ : ١٨٨٤ الشيخ رشيد الخازن ١٨٨٤ : ١٨٨٦ قسطنطين الخازن ١٨٨٦ : ١٨٨٧ الامير سعد شهاب ١٨٨٧ : ١٨٩٣ .

« قائمقام زحلة » اسكندر الحداد ١٨٨٤ : ١٨٩١ حبيب بك لطف الله ١٨٩١ : ١٨٩٢ .

« قائمقام المتن » الامير يوسف علي ١٨٨٤ وتوفي الامير نجيب شهاب ١٨٨٥ : ١٨٨٦ الشيخ رشيد الخازن ١٨٨٦ : ١٨٩١ الامير يوسف اسماعيل ١٨٩١ : ١٨٩٢ .

« قائمقام كسروان » الامير قيس قعدان شهاب ١٨٨٣ : ١٨٨٥ الامير يوسف اسماعيل ١٨٨٥ : ١٨٩١ الشيخ رشيد الخازن ١٨٩١ : ١٨٩٣ .

« قائمقام البترون » الامير سعد شهاب ١٨٨٣ : ١٨٨٦ اسعد بك كرم ١٨٨٦ : ١٨٩٢ .

« محاكمة التاريخ لواصا باشا »

كان واصا باشا رجلا لطيفاً يحب المعاشرة وهو من الشعراء الاماجد في الايطاليانية وهو مؤلف رواية عالم علامة لكنهُ لا يحب الشغل ولا يلتذ باشغال الجبل كالدعاوى وخلافها وليس لهُ جلد على هكذا عمل ورأى بناصيف بك الريس كل الشروط المناسبة لاتمام العمل ففوضهُ ولم يكن لكوبليان سوى المقاولات والقبض وكان واصا باشا عفيف النفس لا يقبل ولا يعرف رشوة وقد أكد لي ذلك نسيب بك جنبلاط الذي لا ينكر ذلك عن كوبليان وكان نشطاً جسوراً لا يهاب احد متى وجد ان الحق معهُ وكان اميناً جداً نحو الدولة وقد عمل اعظم الطرقات في لبنان اولها الطريق من عين عنوب الى بتدين وأهمها وأظرفها الطريق الحالية من دير القمر الى بتدين وأعظم من هذا وذاك طريق نهر الكلب وراحة العالم من ذاك السلم

وهو أول من عمل سرايات للحكومة مجاناً من الاهالي اولهم سراية بعبدا التي ابتدى بها ثم كملها نعوم باشا وكذلك سرايا جونيه وخلافها ومن بعده امتد هذا العمل ونظم الكراكونات وله جملة طرق ولكن هذه العمومية النافعة وكان جميل الطلعة وقد ابتدى بتأليف كتاب كان يقرأه لي عندما كنت ازوره وهو عشر سنوات في لبنان لا ادري ماذا جرى به وكانت افكاره شعرية بحيث ما كان يلتذ بكلما هو مادي يبغض دعاوى لبنان كريم النفس وبالاختصار شخصه عظيم ولكن وجود كوبليان وسخ حكمه وقد ابعدوه عنه الى الاستانة واخيراً ارجعوه لأجل خاطره لأنهُ صهره وبالاختصار ان حكمه نافع ذا اهابة لا يمكن لأحد التعدي على حكمه وجعل كل فيئة في مركزها واخيراً كان مصاباً في القلب فازداد عليه المرض وتوفي في بيروت في حارة جدي الذي توفى فيها فرنكو باشا بالمرض نفسه وقد حكم تسع سنوات ودفن في الحازمية .

(الشاكريه)

هي قصيدة نظمت عندما اتى دور الوليمة اليَّ والى ناصيف بك الريس وملحم لان الاسماء الموجودة في القصيدة اجتمعت كما موضوع فيها وابتدت تعمل ولائم كل نهار خميس وكان أحد الهيئة يدفع كل مرة فرنكين عن كل شخص الى اللوكاندة واخيراً لكي يظهر البعض كرمه ابتدى يزيد عن الحساب المعتاد حتى وصل مصروف الوليمة الى عشر ليرات وكان صاحب الدعوة يجلس على الكرسي اسمها كرسي الرياسة وكان دور الولائم حسب القرعة وقد انفقت مع ناصيف بك وملحم افندي ان عند دورنا نقدم لهم القصيدة الآتية وهي :

يـــــا ايها الامراء بـــــالاقطـــــار ... والمكرمون بـــبـــذلـــة الـــدينـــار
مـــــا منكم الا اميرٌ مـــــاجـــــدٌ ... قـــد يحسب الـــدينـــار كـــالاحجـــار
جمعتكمُ حسن الخصال أخصهـــــــا ... كرم يصب كصيب الامطـــــــــار
ان الشهـــــابـي ابتـــــدا لا تعجبوا [1] ... في بـــدئـــه بمكـــارم الاخبـــار
فـــاضت مكـــارمكم من النبـــع الـــذي ... اروى البلاد وكـــافـــة الاقطـــار
من بعـــده جـــاء السليم مسلمـــاً [2] ... ايـــاي في ايـــديكم كـــالقـــاري
لكن بـــــدا لي بعـــــد ذلك انني ... سلمت دون سلامـــــة الافكـــار
لكن قنعت بقسمـــــة قسمت لنـــا ... الاقـــدار يومـــاً من يـــد الاشرار
وقنعت في أكـــــــل بسيط شاكراً ... اشكـــالـــه مـــع رخصة الاشعـــار

(١) وهو الامير سليم شهاب
(٢) سليم شحاده أول من ادخلني .

[٣] جـــاء الشقير يحفنـــا بكنـــافـــةٍ ... فـــــامتنكفت منهـــــا جيوب الجار
لكنـــه اهـــدى لنـــا احلى وقـــد ... جمـــــع الكنور لهيئـــــة الحضار
[١] قـــد زادهـــا كرم الحبيب بخمرةٍ ... قـــــد التزمتنـــــا للعنـــــة الخمار
كـــانت على قلب الـــذي لم يـــأتـــهِ ... دور مسببـــــــة الى الأكـــــــدار
[٢] دارت بنـــا صرفـــاً فـــأضحى سرهـــا ... في شربها من أحسن الاسرار
[٣] أمـــا الرشيـــد فقـــد أضاع لرشده ... فـــــاتتـــــه غير معوض الاضرار
يهتز تيهـــاً عنـــد مج كؤوسهـــا ... بشوارب تزري بـــــذيـــــل حمار
[٤] أمـــا الامير أمين في وعـــدٍ لـــه ... قـــد جاد بـــالاكرام كـــالاحرار
كـرسي الرئـاسـة طوشت افكـــاره ... سيقول عنـــد حسابـــه يـــا بـــاري
[٥] واسكنـــدر جمـــع الفطور بجوده ... مـــــا لـــــذ للأذواق والابصار
متبسمـــــاً لكنـــــه في فكره ... لعن الـــذي القـــاه في الاخطـــار
امـــا النسيب فكنز كـــل مكـــارمٍ ... مغروسة فيـــــه من الادهـــــار
لو كـــان دعوتنـــا فطور سيـــاسةٍ ... لوجـــــدت سمن الرز كـــالانهار
[٦] ووجود شمعون يشمـــع خيطـــه ... لكن حماستـــــه بـــــدون قرار
كرسي الرئـــاسة عنـــده في منزلٍ ... اعـــلا مـــن الجـــوزاء والفـــرار
[٧] ان كـــان مسعود يقوم بوعـــده ... فيكـــون منحـــوساً بقـــرب مـــزار
خير لـــــه مـــــا لم يكن في اسمه ... متكبراً يختـــــار كـــــل فرار
[٨] وابن الرئيس عن الرئـــاسة تـــازلٌ ... بحقوقـــــهُ لنسيبـــــه المختـــــار
[١] أمـــا الـــذي من فضلكم وجميلكم ... اضحى سمينـــاً ملحمـــاً بـــل خـــاري

(٣) اسبر شقير أول من اتى بالكنافة لأنه دعى نسيب بك والدوماني .
(١) حبيب الدوماني .
(٢) شربنا نخب واصا باشا .
(٣) رشيد معوض ذو شارب كبير .
(٤) الامير امين ارسلان كلمة بقولها الدروز حين النقمة .
(٥) اسكندر الدوماني ابن عمه حبيب الذي دعاه نسيب بك جنبلاط .
(٦) سليمان شمعون .
(٧) مسعود الحيمري تكبير حمار .
(٨) ناصيف بك الريس .
(١) ملحم افندي فارس

أضحى بلا عزم لفعـــــــــل عزيمةٍ	مقطوع ظهر مفكك الازرار
يـــدعو لكم بنجـــاحكم وبقـــائكم	لضيـــافـــة وبطولـــة الاعمار
مـــا عنـــده تسديـــد ادوار لـــه	الا حساب بـــات في ايـــار
يرجوكم ان تمسكوا مـــــا بينكم	ان شئتم معـــه حساب جـــاري
لا خوف من تفليسه اذ قـــد غـــدا [٢]	من غير ثروتـــه فكـــافـــل يري
وأنـــا الـــذي أصبحت فيكم شاعراً	بـــل شاكراً أمـــا ابعـــدت ادواري
ان كنت قـــد ضيعت وقتي خـــاسراً	نفعي من المنصاب بـــــالاضرار
فوجـــدت بين الاعميين تفـــاوتـــاً	وعمى البصيرة فـــاق عن ابصار
هـــذي المكـــارم اغرقت من بعـــدكم	حتى غـــدا من بعـــدكم في نـــار
يحتـــار في ايفـــاء عزة جودكم	فـــأحتـــار عنهـــا تحفـــة الاشعـــار
مـــا قـــل عقلكم بعلفكمُ لنـــا	هـــل تجهلوا الامثـــال في الاخبـــار
نحن الـــذين يقـــال عنـــا دائماً	أكلوا الطعـــام وشخوا عـــنـــار

كان قاض له شهرة عظيمة بالرشوة فلا يحكم بدونها وسرعة حكمه تكون حسب المبلغ المقبوض وقد أخبرني أحد أصدقائي ان له دعوى بالمحكمة من مدة لأنه كان رئيسها ولم يحكم له بها فأجبته على ذلك :

ان كنت تطمـــع ان ترى مبسوطـــا	قبـــل لقـــاض كفـــه المبسوطـــا
وأقلب لـــه الـــدعوى تنـــل ما تشتهي	أحكـــامـــه في قلبهـــا مشروطـــا

أعني يوعد (وهي قلب دعوة) بالرشوة .

كنت ذاهباً بالعربة لزيارة مريض وبينما انا سائر في الطريق رأيت منزلاً جديداً مدهوناً بألوان جميلة لامعة وصاحبته مطلة من احدى النوافذ ووجهها أبيض كالجدار فقلت فيها :

مررت على ديـــــــارٍ في بهاء	بـــدهن جـــدارهـــا للعين قره
رأيت الست سلمى في بيـــــاضٍ	تزيـــد على دهـــان البيت مرة

كنت أحمل ساعة تغير اوقاتها وحركاتها حسب حركاتي فتمشي اذا مشيت وتقف ان وقفت فقلت فيها :

(٢) هي رتبة كما قدمنا .

لي ساعـــة حركـــاتها موقوفـــة لحـراك جسمي ان وقفت فتـوقـفُ
ان نمت نـــامت فهي طـــاقّـــة لنـــا يـــا ليت عــــذالي بها تتعرفُ

وجدت قصيدة في صيدلية مسعود الحيمري ولم أتم قرأتها حتى تناولت قلماً وكتبت على ذات النسخة ما يأتي :

في صيـــدليـــة مسعود قـــد انتشرت قصيـــدة قـــد غـــدا دومـــاً يعظمهـــا
غراء في بـــابها موضوعهـــا بهج تـــاريخهـــا بـــارد لا شك يهدمهـــا
فقلت للصيـــدلي مز جـــاء شاورني اعط القصيـــدة وأحفظ مـــا يوخمهـــا
تـــاريخهـــا نـــافـع للصيـــدليـــة اذ يغنيك عن مسهل كاحلام ناظمهـــا

وبعد ذلك نظمت القصيدة الآتية تهنئة لناصيف بك الريس الذي تزوج سنة ١٨٩١ وكنت ابطئت في نظمها وتقديمها :

بودك مـــا الابطـــاء عن مـــدحكم مطـــلُ اذا كـــان يعزى لي فما عنـــد لكم عـــدلُ
تـــأخرت عن نظم التهـــاني لأنني درست مـــديحاً كنت اجهلـــه قبـــلُ
ومـــذ صار لي خبر اتيتك نـــاظمـــاً فلا تفتكر في غيرك المدح لي سهـــلُ
فلو لم يكن قلبي دليـــل قريحتي لما فـــاق مني الشعر مـــا جنت النحـــلُ
وكـــان اعتقـــادي انني غير قـــادر على المدح لكن خـــاب ظني والنقـــلُ
لأني ارى شعري يسيـــل بسرعـــة بهذي التهـــاني ليس لي قبلـــه مثـــلُ
تيقنت من ذا ان عجزي لم يكن سوى عـــدم الموضوع للمـــدح لا يخـــلُ
فغيري يقول الشعر عن فكر غيره ويعتبر التقريظ فرضاً لمن وُلوا
وينسب للممـــدوح مـــا ليس عنـــده ولو كـــان اعمى العين زينهـــا الكحـــلُ
ولكنَّ شعري وهو فكري مترجمٌ فؤادي ولم يـــذكر صفـــات لمن اخلوا
ومـــا هو عنـــدي صنعـــة او بضاعـــة سوى مقصد للجـــد يستره الهزلُ
لـــذلك لا اخشى بيـــان حقيقـــةٍ ولو غضب الموصوف وانقطـــع الحبـــلُ
ومـــا حسنـــهُ الا حقيقـــة مـــا بـــه ولا بحره مرٌ ولا وزنـــهُ ثقـــلُ
ولا يحدثن للسامعين تثـــاؤبـــاً ولا يـــدع الحضار ان سمعوا ولوا
ولا الشمس والأقمار والظبي والقنـــا ولا عنتر او حـــاتم لهم دخـــلُ
أفضل كسر الشعر مـــع حسن سمعـــه على نظم موزون لسامعـــه قتـــلُ
ولست بنظمي مـــادحـــاً من أحبـــهُ ولا هـــاجيـــاً بـــل قـــائلاً مـــا هو الشكـــلُ
فشعري للموصوف مرآة خلقـــه يرى صورة الموصوف فهو لـــه ظـــلُ

لـذلك ان ابـديت هجواً ومـدحـةً — فكـن واثقـاً فيا أقول ومـا اجلو
شهـادة من مثلي بـألف شهـادة — فلم يثنيني عن حقهـا اللوم والعـذلُ
ضميرك في قولي احق شهـادة — بصدقي ومـا اطريت في صفـة تخلو
فهـل قلت انت الليث في حومـة الوغى — ورمحك يغشاهـا وسيفك ينسلُ
ولكن جعلت الرمح والسيف عنـدكم — يراعـاً بـه تسمو وعقلاً بـه تعلوا
فصدقت اقـوالي وابجـح شاعـرٍ — يصدق من ممدوحـه عنـد من جلو
فلا مهجتي تهوى ولا الشعر يرتجى — لغير الـذي قـد زانـهُ الفضلُ والعقـلُ
وان كنت اهـدي المدح شهمـاً اخ النهى — فـأنت بـه أولى وأنت لـه اهـلُ
تجسست يومـاً كي ارى فيك داعيـاً — الى الهجو لكن مسني بعـده الخبـلُ
وذلك من بعـدي لأن بعـادكم — خلاف لما يلقـاه من قربكم خـلُ
فـانت كـدرٍ في بعـادك مختفٍ — فقربك يـديـه فتعلو كما يغلو
وهب انني ابغي القريض فلم يكن — لي الفضل لكن من منـاقبك الفضلُ
الا وهي مقصودي وبيت قصيـدتي — فلولاك لا شعر ولا شاعر يحلو
اذا كنت وحـدي شاكراً بصفـاتـه — يقـال بـأني في فضائلـه اغلو
ولكن رأيت الشاكرين بفضلـه — كثيراً ومـا ابقوا لقولي ومـا خلوا
ولم يبق لي وصف جـديـد أقولـه — فما أنـا الا جـامـع مـا هم املوا
اذا قلت شهم صادق ذو مروءةٍ — تولى على اعمالـه الصدق والعقـلُ
فلا الجاه يلهيـه ولا العز والعلا — عن الود لا ينسى خليلاً ولا يسلو
ويوليك معروفـاً وينسى صنيعـهُ — ويسبق قبـل القول في صنعـه الفعـلْ
ومـع كثرة الاشغـال من كـل جـانب — فزائره يلقـاه ليس لـه شغـلْ
ولا تعلمن يسرى يـديـه بما أتت — من الشغـل يمنـاه ولو علمـه جـلْ
تبين لـديك العجز في كـل فعلـه — وبين يـديـه الامر والعقـد والحلُ
يقولون ذا سـاصيف والوصف وصفـه — كـان عليـه بـالاصابـع قـد دلوا
وأحسن فعـل كـان فعـل اقترانـه — بسلمى فلا سعـدى لـديها ولا جمـلُ
لقـد جمعت حسن الخصال وقـد حوت — جمالاً ومـا قـد فـاتها العقـل والاصلُ
فـدم سالماً رأساً لسلمى معظمـاً — ولا تفتكر في غيرك المدح لي سهـلُ

(تاريخ الرتبة الثانية المتمايزة)

وحين نال الرتبة الثانية المتمايزة هنأته بهذه الابيات :

كم من سواك بعزة قـد لقبوا — لكن عزة نفسكم مـا حـازوا

نــــالوا العلى رتبــــاً وفعلاً قصروا وعليك من شرف العلا مــا فــازوا
كنت الرئيس بعفـــة وامــانـــة انصفت في رتب عليك اجـــازوا
انصافكـم نظـم المـورخ دره أنت النصيف بعزة ممتــــازُ

سنة ١٨٨٨

طبعت كتاب في مطبعة كانت حروفها دائماً ناقصة فقرظتها بهذين البيتين :

اذا زرت يومــاً دار مطبعـــة ترى حروفــاً بنقصان خصوصاً من القـــاء
وضاد ولام لم تجد قط أصلهـــــا فما كثرت فيهـــا سوى الخـــاء والراء

وقد عملت لسيدة اسمها لمس عملية ماء الزرقاء فشفت وطلبت مني شعراً لترسله الى زوجها المسمى سليم وهو سليم بك ابو نكد المشهور في المحافظة على ادبيات الجيل الماضي ووالد الشهم ملحم بك ريس العائلة الان بالغنا وهو من عظام رجال لبنان .

ولما عين لمس قـــــد اضاءت يلمس طبيبهـــا ويـــد العظيم
فما فرحت بهذا النور الا لكي تروي من الوجــــه السليم

كان رجل يدعى حماد يتقلد بعض الاحيان وظائف غير ذات اهمية أما في بلادنا فكثير من الاهالي يحبون نوال الوظائف ولو خسروا مالهم وما ذلك الا من حبهم لنكاية بعضهم لتولي البعض الرئاسة وهم لا يستحقونها .

ذكروا عن أحد البطاركة انه تقدم في العمر وعجز عن الحركة حتى لم يعد يستطيع النزول من سريره فاستأجروا له خادماً كي يقدم له المستعملة متى أراد البراز فسر الخادم كثيراً لهذه الوظيفة التي نالها عن جدارة ولياقة وخصوصاً لأنها كانت بخدمة البطريرك وكان اسمه مسعود سليم فصار اذا كتب لاحد مكتوباً بذيله بالتوقيع الآتي :

أخوكم
مسعود سليم
محرّي غبطته

فأنظر لسخافة هذا العقل وقلة الادراك الى أي درجة توصل بصاحبها . وكثيرون من الاهالي يرغبون نوال الوظائف لأجل رفع السلطة عنهم اما صاحبنا حماد فكان اذا توظف بمصلحة ما يقوم ظهره حتى اذا فصل عنها ينحني وكان يعرف اذا كان موظفاً ام لا من قامته وانحنائها فنظمت له هذين البيتين :

قـــد كـــان ظهر حماد في بطـــالتـــهُ   كـــالـــدال في اسمه يبـــدو الى الراني
من بعـــد توظيفـــه قـــد صار معتـــدلاً   فـــأصبحت دالـــه بـــالعـــدل كـــالراء

وقلت في جريدة استغنم صاحبها فرصة نفوذه وكان يطرحها للاشتراك حتى اشترك ثلاثمائة لا يعرفون القراة فقلت فيها :

هـــــذه الجريـــــدة في البلاد جرادة   أمسى بها لبنـــــان أصلـــــع اجردا
مـــــــأكولها من ابيضٍ او اصفرٍ   وبرازهـــــا ابـــــداً تراه اسودا

وقلت في هذه الجريدة التي أتت بعد تلك لصاحبها خليل واسمها الروضة :

هـــذه الجريـــدة في البلاد خريـــدة   بيضاء امحت في سنـــاهـــا الاسودا
بخليلهـــــا لبنـــــان أصبح روضة   من بعـــد مـــا قـــد كـــان اصلـــع اجردا

وقلت في رجل لا يثبت على شيء خصوصاً بالصداقة وكان في محل يراعى به لأجل رئيسه :

صداقـــة هـــذا المرء عنـــدي مهمـــة   تقربني عنـــــــد الرئيس بلا شرط
ولكنهـــــا مثـــل الوضوء اذا بـــدا   يقرب من مولى ويفسد بـــــالضرط

(عرس ميشل بسترس)

هو ابن حبيب بسترس الكبير ووالدته من اللاذقية من اسرة نعمة وقد دعانا لحفلة زفافه وكان معنا صديقنا ملحم افندي فارس فلما جلسنا على المائدة طلب مني ملحم ان انظم شعراً بهذه المناسبة وكان بجانبي والح على أمام الجميع لدرجة التزمت ان اجيب بها طلبه فقلت ما يأتي :

قـــال الملائك لا تقـــارن بيننـــا   واليوم ميشل الرئيس عريس
لا شك ان عروسه من جنسه   يـــا نعم هـــذا الجنس والتجنيس
لم يـــأتنـــا من نسلهم بزواجهم   الا ملاك طـــاهر قـــديس
هـــذا زواج طـــاهر ومقـــدس   مـــع ان فيـــه حـــاضراً ابليس

سنة ١٨٩٠

واشرت الى ملحم فضحك الجميع والعروس هي كريمة المرحوم خليل سرسق .

(السيدة هند) كانت تأتي الى بيروت وتضيف اقاربها اولاد الشيخ قعدان الخازن وهما الشيخ فيليب والشيخ فريد وكانا جارين لنا فتعرفت بها وكنا نقضي السهرة سوية .

فهذان الشابان من خيرة الشبان ادباً ولطفاً فالشيخ فيليب شاب ظريف الصورة شجاع صاحب ذمام ووداد ومبدأ قويم وهو الذي نال امتياز جريدة الأرز وكذلك نقول عن الشيخ فريد .

ولنعد في حديثنا الى السيدة هند ففي أحدى الليالي ونحن مجتمعون سوية في السهرة واذ حضر شيخ يدعى اسد وكان الجميع يتحادثون مع السيدة هند لأنها كانت عروس المجلس اما الشيخ اسد فجلس امامها وابتدأ يتكلم معها حتى حجبها عن الجميع فنظمت له هذين البيتين :

ليس هــــذا اسد او شبلــــه   انما حوت اتـــانـــا بـــالقـــدر
ودليلي يـــا صحـــابي انـــهُ   بـــالـــع مـــا بيننـــا هنـــد القمر

في ١٣ كانون ثاني سنة ١٨٩٣ .

وهذا الاعتقاد بين العامة عن خسوف القمر ان حوتاً بلعه ولذلك يدقون الاجراس ويضجون حتى يترك الحوت القمر .

(حبيب الجاره) لبس حبيب البنطلون بعد خلعه اللباس العربي وطلب مني تقريظ بنطلونهُ كما طلبهُ من غيري فقلت له :

أنظر لهذا البنطلون وفعلـــــه   فكـــأنـــهُ أقوى الورى بقيـــادة
ضم الامـــام الى الورا متعـــانقـــاً   وتصاحبـــا مثـــل الحبيب وجـــارة

وكان قاض اسمه نوفل عزل بسرعة وكان بجزين وكان فيها يومئذٍ اختلاف بين القس لويس والقس حنا :

قطّ بجزين تنبـــــلْ   داس الحقـــوق وأهمـــل
ربـــــاه قس لويس   مـــا كـــان بـــالضرب يخجـــل
فـــالقس حنـــا اتـــاه   فصار للجوز معمـــــل

صار اختلاف عليـــــــــــــــــه جـــــــــــــاء الرئيس وأفصل
فـــــابعـــــــد القط عنهم والحكم كـــــان معجـــــل
بسرعــــــة فيــــــه حتى من قبـــل ان قـــال نوفـــل

أي نو هي اللفظة التي يقولها القط وقلَّ من ذهب يذهب .

(تاريخ رسامة المطران نعمة الله سلوان رئيس اساقفة قبرص)

بقرنة شهوان الذي توفي سنة ١٩٠٥

يأخذ تاريخ حياته أي متى بصير النور من برنامج غانم وهذا مي تاريخ سيامته :

في عين سلوان قـــد ابرى المسيح لنـــا من عظم نعمتــــه ابصار عميــــان
وروحــــه اليوم حلت عنـــه نـــائبيـــة في عين سلوان بـــل في قـــدس مطران
اعطـــــاه نعمتـــــه يشفي القلوب بها من كـــل داء ويهدى كـــل انسان
فـــاليوم كـــالأمس ارخ شاكراً ابـــداً فلم تزل نعمـــــــــة الله بسلوان
سنة ١٨٩٢

وقد توفي هذا المطران فجأة في سنة ١٩٠٦ وانتخبوا خلفاً له الأب بطرس الزغبي وقد نظمت له تاريخاً بهذا المعنى .

المطران بطرس الزغبي

ولد في قرنة شهوان سنة ١٨٣٣ دخل عين ورقة سنة ١٨٤٦ دخل مدرسة غزير للياسوعيين سنة ١٨٥٠ سيم كاهناً سنة ١٨٦١ وسامه المطران حنا الحج تعين معلماً في عين ورقه سنة ١٨٦٢ الى ١٨٦٨ ثم عين نائباً اسقفياً على ابرشية قبرص ايام المطران يوسف جعجع سنة ١٨٧٠ وعندما توفي المطران جعجع سنة ١٨٨٢ وصدر انتخاب خلفه كانت الأصوات له ولكن الظروف منعت وانتخب المطران يوسف الزغبي عوضه سنة ١٨٨٣ وبقي نائب اسقفي وعندما توفي المطران يوسف سنة ١٨٩٠ انتخب ايضاً والظروف منعت فصار الخوري نعمة الله سلوان مطراناً على الكرسي سنة ١٨٩٢ وتوفي سنة ١٩٠٥ وناب عنه الخوري بطرس صاحب الترجمة واخيراً في ١١ شباط سنة ١٩٠٦ رقاه البطريرك الياس الحويك في سيدة بكركي الى الاسقفية التي انتخب لها ثلاث مرات ولم يتوفق فاخيراً قبر ثلاثة مطارين وأصبح مطراناً وهذا من الله لأن هذه المطارنة جهزت له الابرشية مادياً لأنه لا ينفع في الماديات وهو الذي حفظ الوصية

لا تحمل لك فضة او ذهباً فلو كان اتى قبل المطران يوسف او سلوان لما وجد الكرسي في هكذا احوال ولا المدرسة لان المطرانين المرحومين كانا امهر منه في جمع المال فلذلك اخره الله الى هذا اليوم لينال الراحة ويرحم الفقير لانني اسمع ان كلما يدخل جيبه يصرفه ذلك النهار على الفقرا فعسى باقي المطارنة اللذين اكتفوا في عمل كراسيهم يبتدون بمنفعة الناس منها وقد نظمت لسيادته التاريخ الآتي الذي بالصدفة تاريخه الهجري وافق اسمه وهو هذا :

من قبـــل عشرين عـــام كنت منتظراً	ومستحقـــاً مقـــام الأسقف الصعب
لأنكم مـــــذ حلقتم فيكم خلقت	اوصافــه في عفـــاف النفس والأدب
لكن سيـــاسة ذاك الوقت مـــا سمحت	لكنهـــا قـــد اتتنـــا اليوم بـــالأرب
لأنها قـــد رأت في عـــامهـــا عـــدداً	موافقـــاً لا سمك المحبوب والعـــذب
والـــدين نـــادى بحق عـــدل بطركنـــا	تواقف الـــدين والـــدنيـــا على الطلب
فـــالـــدين كلفني ابـــدي لعـــالمنـــا	عـــامـــاً بـــه صرتمُ في أقـــدس الرتب
ارختكم بطرس الزغبـي شرفـــــه	ثم الـــــدنى ارختكم بطرس الزغبـي
سنة ١٩٠٦	١٣٢١ هجرية

والأعجب من كل هذا ان سيادته بسن ٧٥ الان اقوى وأحسن من شاب ولا يفتر عن الشغل واعطاء الاحسان وأهم شيء فيه الطُهارة ولا أقول عن طهارته الان لان سن خمسة وسبعين من أعظم الطاهرين ولكن عن حياته الماضية وهذا الذي كان سبباً لسيامته مطراناً من يد الحويك الذي جعل الطهارة موضوع انتخاب مطارنته لأنه يعتبر ان لا شيء يعيب الاكليركي الا عدم الطهارة والحق معه بذلك .

(الخواجه مخايل ملوك)

قد ذكرت انه عند زواجي في بيروت دعاني في الشام جاري الخواجه ملوك وكان فرش لي البيت واستدان مني خمسة عشر الفاً من القروش بالفايظ المابة عشرة وحضرت الى بيروت وعند استحقاقها طلبتها اعتذر فبقيت في هذا الاعتذار ثمانية عشر سنة لا اريد اغيظه بدعوى لأنهُ استقبلني يوم زواجي واخيراً توجهت بالصدفة الى الشام وقابلته فكان قد شاخ ولم يعد له كلام مع ولده قيصر الذي عندما رأى الكمبيالة قال مضى عليها الزمان قهراً عن تحارير والده بالتعهد بها اخيراً التجيت الى الدعوى بمجلس التجارة الذي كان مؤلفاً من الرئيس حسن بك سيفي والاعضاء أمين افندي كلارامينه وابراهيم افندي الترزي اما حسن بك فهو صهر دولتلو احمد عزت باشا العابد وبعد مدة صار متصرف اللاذقية ثم عكا ثم طرابلس وانفلج فيها وتوفى سنة ١٩٠٧ وحزنت عليه لأنهُ كان صادقاً ودوداً فأعرضت لهؤلاء الذوات مسألتي فأشاروا عليَّ بتصدير الدعوى ففعلت ولم يحضر الخصم في اليوم المعين فحكم عليه غيابياً وتبلغ

الحكم بكل سرعة وانتهت الدعوى بالصلح بعد مرور ثمانية عشر سنة قبضت من الدين الذي كان قدره خمسة عشر الف غرش ما عدا الفايظ مبلغ الفين وخمسين غرشاً دفعتها اجرة مصاريف الدعوى .

اخيراً عندما غادرت دمشق وركبت القطار الحديدي لوحدي في الموقع الأول كنت متأثراً من معروف والطاف أهل الشام فنظمت هذه القصيدة التي سميتها الشاكرة وتصورت فيها درب الزينبيه مساء الأحد وهي محل المتنزه العمومي بين البساتين عند باب توما تخرج اليه النساء والرجال والشيوخ والشبان بكل أدب ويمشون سوياً بدون ضجة وازدحام .

(الشاكرة في الشام)

عن الشام لا ابدي هيامي ولا وجدي ... بأعين غزلان على القرب والبعدِ

أصبت كغيري من غدا زائراً لها ... فتشغفه هند ويصبو الى دعدِ

فلا لحظ اسمى فيه يبقى تعقلاً ... ولا لفظ سلمى يترك القلب في رغدِ

فيصبح سكراناً يسمع ونظرةٍ ... وقد بات مجروحاً بلحظٍ وفي قدِ

ولم يدر اين الارض والبدر والفضا ... احيٌ يرى او بات ميتاً من الوجدِ

يظن بأن الارض في صدر خولةٍ ... تدور وان القطب في وسط النهدِ

ويحسب ان البدر وجه فريدة ... وان رياض الكائنات على الخدِ

وان حراك القلب فيه متابع ... حراك جفون والتنقل من هندِ

يردد طرفاً في سليمى وان رأى ... محاسن ليلى هام في شعرها الجعدِ

فما باله ما بين الفين قد جرت ... من الغيد تمشى كالمجرة في المدِ

محجبة في الأرز تحسب انها ... غيوماً كست تلك الزواهر بالبردِ

لهن وجوه مشرقات ضواحك ... يشرن سلاماً بالحواجب والزندِ

اذا حدثت فالطرف منها كأنه ... يقول خطاباً عكس طرفك بالضدِ

فتخفضه عند الوداع بلحظة ... فترميك نحو الأرض جسماً بلا رشدِ

تبيت صريعاً جامداً غير ناطق ... وتتبعها باللحظ والقلب في وقدِ

وان ارجعت منها اليك التفاتة ... تسير ولا سير المطهمة الجردِ

وتجمد عند القرب منها مغالطاً ... كأنك لم تقدم اليها على وعدِ

وحين تراها قد مشت بعض خطوة ... تجد وتلقى ان جدك لا يجدي

فتبقى الى حين الغروب مجاهداً ... فترجع مشغوف واحقر من عبدِ

الى غرفة تطوي بها الليل ساهراً ... مع النجم في ذل وشوق وفي نكدِ

فويل لمن قد بات في ذلّ حاجة ... وعزة نفس فهو لا شك في لحدِ

تصدق قولا قيل في الشام انها ... تذل لها اسد وتسطو على الجندِ

فمن كان هذا حاله من يلومه ... اذا لم يدر ذكر الرجال ولا يخدي

وأما انا ان جئت في ذكر فاضل ... يكون الهوى ولى وها زمن الجد

فانَّ لي الخمسون ابقت تعقلاً ... لذكر رجال قد علوا ذروة المجد

وأما اذا ما جئت يوماً بذكرهم ... تراني لدى العشرين والشيب في فوْدي

فلا العمر يثني شاعراً فهو دائماً ... لدى النظم في سن الشبيبة والوجد

يكون كما الموضوع في كل حالة ... ويترل من اعلى الجبال الى الوهدِ

غدا عاشقاً ان بات يبدي تغزلاً ... ويصبح ليثاً ان تكلم عن اسد

فمن شعره لا يستدل لعمره ... ولا فرق بين الاب والابن والجد

ومن طالع ابن الفارضيَّ فهل يرى ... تغزل شيخ شاخ او غزل المرد

رجال لهم فضل عليٍّ ومنة ... لقد حفظوا وعدي وما نكثوا عهدي

اذا المرء لم يذكر جميلاً لفاضل ... فهذا دليل اللؤم والسفل الوغدي

واني امرؤ قلبي يقود عواطفي ... واني عبد الفضل والجود والوعدِ

وبالعكس اني لست يوماً بشاكرٍ ... لمن هضموا حقي او اشتغلوا ضدي

مدحت لاسباب واهجوا لضدها ... ولا ذنب في الحالين مقترفٌ عندي

وكل امرٔ لا يفرق الفضل والاذى ... فلا خير فيه لا يكون من العمد

ومن سامح الانذال سهلاً بعوفه ... تعرض للأخطار والذل والفقدِ

رجال دمشق لو عرفت بما بهم ... من الأنس والمعروف واللطف والود

لما ذكرت اسما وسلمي وخولة ... ولا هيم في هند وفي خدها الوردي

صفات تميل الوحش للأنس عاجلاً ... وعدل يميل الظالمين الى الزهدِ

كبار لدى المعروف والجود والوفا ... صغار اذا ما جئت عن وجودهم تبدي

اذا كنت في عز بعيداً تراهمُ ... وتلقاهم يوم الكريهة والشدِ

كأنك اعلا رتبة ان سألتهم ... قضاء أمور لا تقابل بالصدِ

اذا ساعدوا الانسان سروا لكسبه ... وفاقوه في بسط لهم فاق الحدِ

لهم لذة المعروف اعظم لذة ... خصوص الى القاض ولو كان من سند

وان وجدوا دعواك ليست محقة ... تبدل ذاك اللين واللطف بالصلد

على رأسهم شهم وزير يزيدهم ... محاسن عدل والجميع له تفدي

جرى حبه في قلبهم مثلما جرى ... رسيس دماء القلب في جسمهم يغدي

وأصبح قطب العدل تلتف حوله ... رجال كما انضمت الى الجوهر الفرد

فمن كان ذا عدل وحلم وعفة ... وصاحب معروف وفضل وذا كدِ

فأي فؤاد لا يميل لحبه ... واية نفس لا تميل الى الشهدِ

وان كنت وحدي ناظماً عدل ناظم (١) ... بشعري ولكن لست شاكره وحدي

(١) ناظم باشا .

وان كنت في شك بقولي وخبرتي ... فعرج على الفيحـــاء او جنـــة الخلـــدِ
تلاق بـــــدرب الزينبيـــــة في المسا ... بـــدوراً مساء الاحـــاد مطلعهـــا يهدي
وتلقى وليـــاً في الولايـــة قـــائماً [٢] ... لـــه الأسم ممتـــاز واعطى من نـــدِ
عرفنـــاه قبلاً مثلما اليوم مـــاجـــداً ... هـو الصادق الصديق من قبـــل او بعـــد
وان زرت داراً للتجـــــــارة دائراً ... ترى الانس مـــع عـــدل وصدا مـــع الحد
تنـــاديك هـــاتيك المنـــازل فـــانشرح ... وكـن واثقـــاً ان العـــدالـــة في مهـــدي
فعضوي أمين والخليـــل خليلـــه [٣] ... كما العـــدل حسني والنزاهـة من مجدي [٤]
فما كـــان في وسعي قضاء بساعتي ... فني الغـــد لا شغـــل لـــه ابـــداً عنـــدي
لان لـــذيـــذ العـــدل يـــذهب بـــاطلاً ... بعطـــل مملٍ من ذوي الحل والعقـــدِ
وان شئت ريـــا النفس بـــالـــدين والتقى ... لـدى نـائب البطرك حنا ترى قصدي [٥]
تلاقى حنـــانيـــا يرد ضلالـــة ... هنـــاك اهتـدى القـديس بولس من جـدِ
تلاقي محبـــاً للفقير مساعـــداً ... وتعرف كم تعلو الرجـــال مـــع الجهـــد
فهـــاك رجـــالاً في دمشق عرفتهم ... بهذي المبـــادي ان ذلك من سعـــدي
عظـــام لهم عنـــدي منـــازل رفعـــة ... كرام لهم شكري وطول المدى حمـــدي

طبعت في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٨٩٨

للبطريرك يوحنا الحاج

عندما نال العثماني لتقديمه اعانة الى دار العجزة في الاستانة ١٨٩٨ ومن القصيدة يعرف كل ما عمل وما كان :

أصدرك اليوم محتـــــــاج لنيشان ... وفيـــه قلب تعـــالى فوق تيجـــان
خـــاض المعـــامـــع والسبعين مـــا قـــدرت ... تميلـــــــــــه عن كمالات وايمان
قـــد بـــات صخرة ايمان لطـــائفـــة ... وحفظ كـــل ذمـــام نحو سلطـــان

(٢) ولي افندي .
(٣) امين افندي عضو .
(٤) حسني بك ريس .
(٥) الخوري حنا كيللروس .

حتى غدا منزلاً للدين مشتهراً ودار حب لسلطان واحسان

مذ بات دارهما قاما بزينته لذاك اهداك مولى الشرق عثماني

لسنا نهنيء فيه شخص حامله لكن نهنيء فيه كل موراني

ان توج الرأس فالاعضاء نائلة ما ناله من رفيع المجد والشأن

لا يفلح المرء يوماً في وظيفته ما لم يكن فيه طبعاً شرطها الباني

شرط الرئاسة قلب لا يخاف اذى ولا يبالي بتهديد وعدوان

عقل لشهوات نفس عاقل ابداً قساوة ثم لين بعض احيان

طرف على كل امر ساهر يقظ وغضهُ عن مسيء بعض أزمان

ولا يضيع امراً وقت منفعة ولا يحرك امراً وقت خسران

هذي رئاسة دنيا لا تبالي بها ونحن نتبعها حفظاً لوجدان

لكن سياسة دين انت تابعها هي سياسة احسان وغفران

اعطاك ربك اوصافاً تكون بها رئيس دين ودنيا غير غفلان

لذلك سدت بعصر أنت بهجتهُ وقد علوت على عصر واقران

احسنت حباً باحسان بلا غرض لمذهب او لجنس او لأوطان

لا فرق عندك ان اعطيت ذا عوزٍ ما بين أبناء مارون وسودان

ان كنت بطرك دين عند طائفة فبالمروؤة بابا كل انسان

أصبحت فرداً لشعب لن يري ابداً قبلاً شبيهاً له او بعده ثاني

لا تعجبن صاحبي من قول شاكره ما قال قولاً ولم يثبت ببرهان

حتى غدا شعره تذكار من نشرت افعاله فيه لا يبلى بنسيان

ن كان ذاكراتي يوماً لمن سلفوا يكون جاءت به اشعار ازمان

والشعر بالصدق لا باللفظ قيمتهُ وقوله ببيان لا بأوزان

فمن رآني لشعري صار يعرفني هجواً غدا او مديحاً صدقه داني

فلا يرد عليه حيث سامعه مصدق قوله من دون نكرانِ

برهان قولي بذا من قبل بطركنا قد شاد للدين كرسياً باتقان

من شامها ظن كسرى اليوم منبعثاً في كسروان وهذا نفس ابوان

ومن اتى بعده لم يلقَ منْ عوزٍ يقيم اعظم منها غير بنيان

من قبله شاد في باريس مدرسة وعند لاون احيي ذكر سمعاني

والقدس منه رأت بيتاً يقدسها كقدسه ما رأت عينا سليمانِ

كأن هيكلها ليست تزينهُ من قبل او بعد الا ارض لبنانِ

وان بطركنا حنا أقام به ومن رآه فهذا نفس سمعانِ

من قبله ما سمعنا بطركاً ابداً قد نال أول نيشان لعثماني

ومن أتى بعده لم يعلُ رتبتهُ لان لا رتبة اعلى لنيشان

وليس في الشرق أعلى اليوم منزلـــــــة — من بطريرك وهـــــذا حـــــد موراني
فكـــل شخص من الاعيـــان حج لــــه — لكسب فضل وأنوار لاذهـــــــــان
هـــذي براهين قولي لا شبيــــه لـــه — في الشرق بـــالفضل من اربـــاب اديـــان
فـــــاق الحدود بفضل مــــا علاه سوي — يـوحنـــــا مـــــارون في حزم واحسان
يــــا ليت يصغي الى ابنـــائـــه كرمـــاً — ويستمـــــد لنــــا من فضل رحمان
ابقـــــاء بطركنـــــا فخراً لطـــائفـــة — وان يزاد لـــــــــه في العمر عمران

رثاء المطران يوحنا الحبيب

مجدد جمعية المرسلين المارونية

لو لم يكن وعـــــــد الى الانسان — لهوى الى ادنى من الحيوانِ
وغـــدا الـــذي لم يـــدر اين مسيره — في الـــذات والافعـــال كـــالشيطـــانِ
لم يرسل الرحمن اعظم نعمــــــــة — من نعمـــــة الايمان في الاديـــــان
لولاه مــــا حنَّ الغني لفـــاقـــة — لولاه لم يصبر على الهجران
لولاه مــا احتمــل التنسك عــابــدٌ — بعــــــــداً عن الاهلين والخلانِ
وبـــدا يقـــدم نفسه كضحيــــة — لفعـــــائــــل الخيرات والاحسانِ
لا بـــالقوى والعقـــل بـــات مميزاً — عن ضيغم بـــل ميز بـــــالايمانِ
لا العقـــــل يهديني الى دار البقـــــا — لا العقـــل عن كـــل اللـــذيـــذ نهاني
لكنـــــه يهدي لجر منـــــافـــــع — مخصوصة وعن العطـــــــــا الهاني
امـــــا على حب القريب ونفعـــــه — متفـــانيـــاً فـــالـــدين قـــد ربـــاني
لا شك ان الــــــدين انزل من علا — لم يـــــأتِ من ارض ومن انسان
ان كنت في شك فخــــذ يـــا صاحبي — مني على مــــا قلتـــــه برهـــــاني
مـــا الـــدين الا رابط الانسان عن — ميـــــل وشهوات وعن عـــــدوان
لم تلق حيوانـــــاً يقيـــــد نفسه — لكن يقيـــــده قوي ثـــــاني
ان تلق سبعـــاً بـــالحديـــد مكبلاً — لا بـــــد من غير عليـــــه الجاني
لا بـــد من أقوى من الانساني قـــد — ينهيــــه عن غيٍ وعن طغيـــــان
لم يشرع الانسان ضد طبــــاعــــه — ارأيت حراً يلتجي لعنـــــــان
دين الحقيقـــة من غـــدا عن شهوة — يُنهى ولا في شهوة اوصاني
مـــا الفضل ان آخيت من اخـــاك او — اعطيت من اعطـــاك بـــــالميزان
حب العـــدى ضد الطبيعـــة لا نرى — من طبــــــع انسان من الغفران

لا شك ذا طبع الاله وان من ... قد قاله هو سيد الاكوان

ان التقي هو السعيد حقيقة ... في الأرض قبل سعادة الازمان

فضميره في راحة ومعاشه ... وحياته ومماته بأمان

لم تلق محبوباً على وجه الثرى ... مثل الذي يعزي الى الاديان

تلقاه ما بين المصائب ضاحكاً ... ومن العدا قد فاز بالرضوان

لا يعرف الانسان فضل ديانة ... ما لم يكن في حالة الاحزان

وكذاك لا يدري لا كلٍ قيمة ... ما لم يكن في حالة الجوعاني

لولا ثلاث لم يكن دين ولا ... ذكر من الانسان للديان

موت وافلاس وضعف كلما ... عنه نائت يدنو من الكفران

من لم يكن حب القريب شعاره ... وكريم خلق ليس بالانسان

من كان للاديان عبداً طائعاً ... ومشى بسامر وصية الاحسان

فهو الذي حاز القداسة والتقى ... وهو الذي يعلو على الاقران

ان شئت مني قدوة فاذهب الى ... دير الكريم الرافع الصلبان [١]

[٢] مذ نعمة الله اعتلته رئاسة ... قد بات شكر الله فرض جناني [٣]

زر تربة ضمت حبيباً للملا ... تنظر بها حنا الحبيب الثاني

هذا الذي رب العباد اقامه ... مطران ناصرة عليَّ الشأن [٤]

وطن ليسوع الذي من اسمه ... كل تسمى في الورى نصراني

ابدي لنا حبراً بهمة رسله ... حفظت مبادي شعبه الموراني

اوصاه يسوع بأولاد له ... هم مرسلون لنصرة الايمان

في مثلما اوصى الحبيب بأمه ... مذ بات أوجاع الصليب يعاني

من بعد الف تسعمائة قد خلت ... ست بهذا اليوم في لبنان

من قبله لم يلق قص مسيحنا ... خلا حبيباً مثل ذا المطران

سنة ١٨٩٤

(١) يضع المرسلون صليباً احمراً على قلنسواتهم .

(٢) المطران نعمة الله سلوان كان رئيساً على الكريم .

(٣) وكذلك المطران شكرالله .

(٤) لأنه كان مطران الناصره .

الى خير الدين باشا رئيس اللجنة الطبية العثمانية لفحص تلامذة المدرسة الافرنسية في بيروت :

تركنـــــا خير دنيـــــانـــــا لخـــير خـــيره اغـــنى
فخير الارض مهـــــدوم وخير الـــــدين لا يفنى

(أحمد مرتضى) كنت في أحد الايام جالساً عند فخري بك نامي فأتى لزيارته مصريان اب وولده وكان الأب شيخاً جليلاً متعمماً بعمامة خضراء اما الأبن فكان لابساً حسب الزي الافرنجي ويتكلم اللغة الفرنساوية جيداً ويتقلد الافرنج بحركاتهم وبكلامهم اللغة العربية فكان يلفظ الضاد داد وهي الحرف الذي ميز به العرب عن سواهم حتى قيل عنهم الناطقون بالضاد فعند ذلك ارتجلت هذين البيتين :

مـــذ بـــات احمـــد مرتضي متفرنجاً لم يحسن الالفـــاظ بـــاسم ابيـــه
ان قـــال عمـــة والـــدي خضرا تجد من غير ضاد اخرجت من فيـــه

فحين سمعها فخري استلقى على ظهره من الضحك وسر من المعنى .

(ملكه) طلبت مني هذه السيدة نسخة من كتابي صحة العين تذكاراً فكتبت عليها هذين البيتين :

يـــا صحـــة العين غض العين محتشمـــاً عنـــد اللقـــاء ولا تبـــدي ولا حركـــة
ان العيون التي قـــد بت تنظرهـــا أصبحت عبـــداً لها اذ انها ملكـــة

اسما وسلمى

هما بنات الامير سليم منصور شهاب الذي ذكرت عنهُ قبلاً وهما على جانب عظيم من اللطف والاداب والعلم مدحتها وخصصت بمديحي الجد الاصلي شهاب وبشير أول حاكم لبنان من هذه الاسرة والامير سليم ووالده الامير منصور ووالدته نور وبنتيه اسما وسلمى فقلت بذلك :

تشاورت الفضائـــل في سماهـــا لترسل بعضهـــا للأرض قسما
فقـــد أخـــذت شهـــاب الجو سلكـــاً يضم الارض والعليـــاء ضما
وقـــد كـــان الشهـــاب لنـــا بشيراً يبشر ارضنـــا عـــدلاً وحلما
ولما بـــات منصوراً عليهـــا فـــأضحى والـــداً والنور أمـــا
لـــذا دعيت بـــاسم بني شهـــاب وقـــد أخـــذت لها في الأرض حكمـــا
وقت اعطت لـــذي عقـــل سليم ليعطي الكـــل القـــابـــاً واسما

فسمى الظرف والادراك اسما وسمى العلم والآداب سلمى
فسلمى من عيوب الارض سلمى واسما من سماء الأرض اسمى

املي جورج سرسق

اشتهرت هذه السيدة بفضلها ومبراتها في سوريا ولها مآثر عديدة لا يمكن نكرانها تساعد الفقير والمسكين وهي مؤسسة ورئيسة المدرسة الارثوذكسية للبنات ومؤسسة لراهبات مخصوصة ومساعدة المستشفى الارثوذكسي في بيروت وقد تصورت بهيئة (مرفيليوز merveilleuse) ونظمت لها ثلاث ابيات حررتها على صورتها ولكن قبل الكلام عن الاشعار أذكر شيئاً عن عائلة سرسق .

عائلة سرسق

لم يكن أصل هذه العائلة غنياً كما هي عليه الان بل أكتسب افرادها غناهم سنة ١٨٥٦ من تجارتهم بمصر وكانوا ستة اخوة وهم نقولا وموسى وخليل وابراهيم ويوسف ولطف الله لم يبق منهم سوى يوسف وانقسمت هذه العائلة الى ستة بيوت كلهم اغنياء حتى قيل ان كل واحد منهم يملك ثلاثين او اربعين الف ليرا ايراداً ولم يقترب احد الى هذه الاسرة ما لم يغتني فهم يتساهلون جداً مع مستخدميهم ومن هذه العائلة الياس بك سرسق قنصل جنرال دولة ايران وهو من الاذكياء وكريم النفس وكذلك اخوه الخواجه نقولا من الشبان المعتبرين وكل من الخواجات جرجي موسى واخوته وميشل خليل سرسق اللذين اعرفهم من المعتبرين وأما الخواجه يوسف الباقي من الستة فهو رجل عظيم كريم الاخلاق محب الخير وكذلك ولده نجيب الذي نال أعظم الوسامات والمقامات نظراً لمبراته وقد تزوج ابن عمي قيصر الخوري باحدى بنات الخواجه يوسف وعلى العموم ان هذه العائلة كثيرة الاحسان لا يلصق اليها احد ما لم تغنيه وعندما أصل الى سياحتي في الاسكندرية اذكر الخواجه اسكندر نقولا سرسق الغني العظيم وأولاده لأنهم من أهم التجار في الاسكندرية وكذلك عن الخواجه جورج لطف الله .

ولما أقامت اميلي المرقص المتنكر وكانت متنكرة بزي ذات المعجزات كما قدمنا اعطتني صورتها فنظمت لها الاشعار الآتية :

لم يكفنا عجب مما فيك من ادب حتى برزت لنا في زيك العجبِ
ما دمت في عجب من كل ناحية ان كان في الزي والآداب والحسب
عذراً لناظم شعر ليس يدرك من أضحت منازلها اعلى من السحب

الاوادم الطازا

او تأثير المال في الرجال

نقلتها جريدة الروضة نمرة ٦٦٥ ١٧ ت ١ سنة ١٩٠٦

لجناب النطاسي الشهير رفعتلو الدكتور شاكر بك الخوري الشاعر المعروف قالت الروضة هذه المقالة ستظهر في كتابه « مجموع المسرات » نشرناها هنا لنبين للقراء ان هذا الكتاب الذي بشرت بقدومه عالم الأدب السن الصحافة يحتوي على كل المواضيع التاريخية والانتقادية لا كما يتصور السواد الأعظم انه مجموع اشعار قالها جناب الدكتور المومى اليه اذ ان الحقيقة هي ان الشعر فيه قليل جداً نظراً لما فيه من المباحث التاريخية والانتقادية وذاك لأن صاحبه لم يدع بابا من الكتابة الا طرقه وما نال هذه الشهرة العظيمة عن قصيدة وقصيدتين ومقالة ومقالتين. وهاكم ما قال في الاوادم الطازا او تأثير المال في الرجال :

اذا امتلأت كف اللئيم من الغنى	تمرد كالمرحاض فاح وانتنا
وان كريم الأصل كالغصن كلما	تحمل بالاثمار مال وانحنى

هذا هو تأثير المال في الرجال فهو لا يغير الصفات بل يزيدها فاذا زار كريماً ازداد كرماً او بخيلاً ازداد بخلاً او لئيماً ازداد لؤماً ولا يجعل البخيل كريماً ولا الكريم بخيلاً وما أكثر هذه الشواهد والبراهين على هذا القول في ايامنا المنقلبة وقد قلت مراراً أن ابواب الغني كثيرة في هذا العصر لأننا نعرف بعض اناس كانوا لا يملكون درهماً قد أصبحوا اصحاب ثروة طائلة غير ان اخلاقهم لم تزل كما كانت وما زادهم المال غير وقاحة وقباحة اذ صرت ترى احدهم اذا رجع الى بلاده وتذكر ما كان عليه ونظر الى حالته الحاضرة تنخه العظمة ويتولد في فكره الحسد القديم وتهب في صدره عواصف الانتقام من سيده القديم فيغير ظواهر بيته باذلاً امواله عليه حتى يصير شبيهاً ببيت سيده كأنما قد فاته ان اتساع البيت بكثرة ضيوفه وهذا هو الاساس الراسخ للبيوت القديمة ولكن من أين ذلك لغنينا الجديد الذي يصح ان يقال عنه :

رأى الصيف مكتوباً على باب داره	فصفحه ضيفاً فقام الى السيف
فقلنا له خيراً فظن بأننا	نقول له خبزاً فمات من الخوف

والأهم من الغني هي اسبابه لأن اللص يغتني سريعاً والمجتهد يحصل الاموال رويداً رويداً ولكن أيمكن ان يكون اكرامهما واحداً لأجل الغني كلا. بل الكرامة تأتي من اسباب الغنى ولا يعتبر اللص غير لص نظيره ولكن ظاهراً فقط لأنه لو فرض ان لصين سرقا الف غرش وقسماها بينهما واراد بعدئذ كل فرد منهما

ان يستودع احد الناس قسمه فهل يسلمه لرفيقه ؟ كلا وان كان شريكين في العمل بل يستودع قسمه رجلاً معروفاً بالأمانة والفضيلة فيكون من هذا البرهان ان الاعتبار للفضيلة ليس الا .

لو دخلت بلدة ورأيت فيها منزلاً عالياً والناس تزدحم حوله من جهة فتعجبت حتى انك سألت لمن هذه الدار العالية العظيمة فأجابوك ان هذا كله لرجل لص دنيء « عمل الطريقة الفلانية » ونهب مال فلان وفلان وكلما هو عليه من الغنى أكتسبه عن طريق النهب والذل فهل يبقى له بعد هذا ذاك المقام والاعتبار في عينيك ؟ — كلا .

وقد رأيت من هؤلاء (الاوادم الطازا) من يستخدم والدته في البيت ويجعلها صامتة امامه لا تتكلم لكي تعتبره بصمتها وهو يظن ان له في العمل اعتباراً فكل من هؤلاء يصح ان يقال له :

لئن كانت الدنيا انالتك ثروة ... انالت بني الدنيا بلاء ونقمة
فكل من الرحمن يطلب طلبة ... ليخزي كذا مال ويلعن صدفة
غدوت بها في اليسر مذ كنت في العسرِ
فقد كشف الاثراء منك حقائقاً ... بأنك من بعد الغنى صرت فاسقاً
ومن قبل ذا لا شك قد كنت سارقاً ... وهذي فعال عرفتنا خلائقاً
من اللوم كانت تحت ثوب من الفقر

وكيفما تجول الانسان فانه يجد امثالاً لهذه الامور وبالعكس فانه يرى اناساً كانوا فقراء فزادهم غناهم شيمة ومحبة للقريب والسلام وسلكوا الطريق المستقيم وجعلوا الرب الثاني الذي هو المال تحت امر الرب الأول فلمثل هؤلاء يليق الغنى والجاه اذ تكون منهم منفعة عظيمة للبلاد ومن فتش عن اسباب غناهم عرف ان ذلك ناتج عن جدهم واجتهادهم وصدقهم وامانتهم فانظروا الفرق بين هؤلاء وأولئك .

ولو اعتبرنا ان الانسان مهما كان غنياً لا يأخذ من الدنيا أكثر من غيره نعرف ان الغني وكيل مسخر بل هو خادم غيره لا الغير يخدمه كما يتوهم .

والغني رجل مفلوج يحتاج الى من يلبسه ويطعمه ويسوسهُ ويمشيه وكل ذلك يكلفه كثيراً اذ افتكر كم قضى من التعب والشقاء حتى حصل هذه الدراهم التي يدفعها الان الى خدمه وكم كلفته (بوسة يده) وكلمة يا (معلمي) لأن كل هذا لا يوازي اتعابه الماضية حتى حصل المال واتعابه الحاضرة على حفظه وخصوصاً متى كان واضعاً ماله عند أحد التجار وأفلس وقد قال احد الفلاسفة : ان كلما تملكه زيادة عن احتياجك فهو ليس لك .

وبينما كنت زائر احد الاغنياء الكبار الكرماء في بلادنا اصحاب الدور الواسعة والضيوف المتراكمة والحشم العديدة وهو نسيب بك جنبلاط لأنهُ هو الوحيد الان الحافظ عادة اصحاب الضيافة القدماء وأظن تنتهي بعده سألته كم من الارغفة عندك هذه الليلة فضحك وأجاب لا ادري فقلت بالله عليك يا بيك اسأل لي (الكرارجي) فسأله فأجاب انه يوجد عنده نحو مائتي رغيف فقلت له كم رغيف منهم الى البيك فأجاب كلهم له ولكنه لا يأكل غير واحدة وما بقي الى الضيوف والخدم فيكون البيك مادياً كأحدهم ومعنوياً صاحب الكل ويبيع رزقه من ضيوفه بكلمة (يا سيدي ومتشكرون ودايم) وهذا الدعاء الاخير يعود للضيف يعني انه دوماً يأكل عنده وعلى هـ : الكلام شرح عظيم ولكن لا فائدة منه اذ لا احد في الدنيا يكره الغني مهما ذاق لأجله من العنا ولكن هذه الكلمات علاج يُسكن به ألم الفقير وهذا التقدير يوجد وقت العجز وكل العلوم والفلسفة لتسكين الأوجاع وتعزية المصاب واذا لم تكن مصيبة فلا تلزم تعزية وكلامي هذا اوجهه الى المحتاجين كيلا يحسدوا الاغنياء الذين لا راحة لهم حقيقة لان حفظ المال متعب أكثر من تحصيله وقد سأل احد الملوك وزيره ان يأتيه برجل لا هم له فشرع هذا الوزير بالسؤال وكان يفتكر ان الخالي من الهم هو من كان لا يعرفه ولكنه عند السؤال كان يراه كرفقائه الى ان ذهب ذات يوم الى الصيد فوصل الى غابة وهناك وجد رجلاً عرياناً تحت ظل شجرة فسأله الوزير ايها الرجل هل عندك هم ؟ فأجاب الحمد الله كلا فقال له الوزير ولماذا انت عريان ولا تخيط لك قميصاً تستتر فيه فأجابه ان تسألني اذا كنت خالياً من الهم كأنك تجهل اني اذا لبست قميصاً لبست معها الهم اذ يصير يهمي غسلها وترقيعها واذا جلست على الأرض اخاف عليها من الوسخ فدعني من همّ لا لزوم له عندي . فاذا كانت القميص تهم فكيف الالوف من الليرات والقصور الشاهقة والاملاك الواسعة ؟ الا تقتل اصحابها ومع ذلك تراهم يكتفون بأن يقول لهم الناس يا سيدي .

أما الآن فأراني خرجت عن الموضوع الذي هو تأثير المال في الرجال لا الغنى والفقر ومع كل هذا لا يمكنني ان أفصل الواحد عن الآخر ولكن بالاختصار أقول في تأثير المال :

المال كالريح ان مرت على عطر   تزكو وتنتن ان مرت على جيف

وبالاختصار فليفتكر كل غني ان لا اعتبار حقيقي له ما لم يجعل الرب الثاني تحت امر الرب الأول .

وقلت مؤرخاً زواج الخواجه يوسف مرهج من دير القمر بالسيدة السيدة نظيره التي بالحقيقة ليس لها نظيره بالجمال والذكاء والعلم

وعرس مرهج فيه تجلت   عروس في محاسنها اميره
أقول ليوسف ارخ فريحاً   عروسي ما لها ابداً نظيره (١٨٩٥)

توفي في صيف سنة ١٩٠٠ .

الى صديقي مسيو هنري كليياردو ترجمان أول في قنصلية فرنسا في بيروت والان قنصلها في حيفا

مـــــــــا أنت اول ترجما	ن لـــــدولـــــة خـــدم الوطن
بــــــــــل أنت اول ترجمان	جئت في المبـــــــــــدأ الحسن
من كنت انت صديقـــــــــــه	فصديقـــــــــــــه طول الزمن
وعلى مصالح دولـــــــــــةٍ	وحقـــــوق شعـب مـــؤتمـــن
لزمـــــــامـــــه وخصالـــــه	كليـــــــــــاردو في القلب سكن
مـــــالت لـــــه كـــــل القلو	ب وحبـــــــه اهـــــل الفطن
ارخ هنـــــــــا في رتبـــــــة	بـــــالعـــــدل هنريكوس ركن (١٨٩٦)

(كليمنتين عنحوري)

هذه السيدة اللطيفة الذكية هي شقيقة عقيلة شارل بك كليياردو حضرت الى بيروت مع شقيقتها وعائلتها من مصر سنة ١٨٩٩ وكان بيدها دفتر تعطيه لاي صديق كان يحرر به افكاره وعندما اعطتني اياه وما كان بفكري الا مدحها قلت لها الابيات الآتية متفكراً بموسى وتية بني اسرائيل الخ .

أتيـت اليـــوم مـــن مصـر	بغير التيـــــــــــه والطور
فـــــأنت اليوم مرسلـــــــة	لتهــــــــديـنـــــا الى النورِ
بعقــــــل جـــــاء عن ملك	ولطف جــــــــاء عن حورِ
فبـــــات الكـــــل مهتـــــديـــــاً	وحـــــتى شاكــــر الخـــوري

يوحنا كان بلاعاً شلاعاً كما يقول المثل نهب البلاد فقلت فيه :

اذا كــــــان الجراد سريـــــع هضم	اذا حــــــــــــل الفلا قحط البلاد
فما حـــــال البلاد وفيهــــا حنـــــا	ويـوحنـــــا الـــــذي قطـــع الجراد [1]

(ظهر القضيب)

هو مكان فوق أرز لبنان بل هو أعلى محل في سوريا ويفوق جبل الشيخ بالارتفاع وصنين فوق بشري التي اسمها الاصلي بشراي اي القاعدة ويوجد في قضاء البترون دير قزحيا للطائفة المارونية الذي فيه مغارة

(١) لان مار يوحنا كان يأكل الجراد .

يعتقدون ان مار انطونيوس الذي تسمى الدير باسمه يظهر فيها معجزاته بشفاء الامراض خصوصاً داء الجنون وقد صدف ان احد قضاتها كان مختل الشعور ولكنه لم يعط هذا اللقب لان العادة في بلادنا ان يكون لكل مرض اسمان اسم للمرضى الاغنياء وآخر للفقراء فقليل الذكاء عند الفريق الأول يدعى طيب القلب بسيطه وعند الفريق الثاني يسمى حماراً مع ان الداء واحد .

ولنرجع الى موضوعنا . فوصفت علاجاً لصاحبنا قاضي تلك الجهات لأنه محتاج للمعالجة وذلك في شعر نظمته فقلت :

دواء في قضاء البترون قـــــاض ... لمختـــــل الشعور بلا طبيب
لـــــه في غـــار قزحيـــا شتـــاءً ... كـــــذاك الصيف في ظهر القضيب

(نيشان الاكاديمي الفرنساوي)

فلما نلت هذا الوسام قالت لي احدى السيدات المعتبرات التي كانت صديقة لي اهنيك بالوسام الذي زين صدرك فقلت بهذا المعنى :

لما وسام معـــــارف صدري علا ... وغـــدوت منـــه عـــاليـــاً بفخـــاره
قـــالت فرحت لزينـــة فـــأجبتهـــا ... كـــل امرىء يصبو لزينـــة داره

قلت في ريكا اسوسكي الجميلة وكانت تداوي احدى عينيها عندي والعين الاخرى كانت سليمة وهي اسرائيلية .

لها مقلـــة مرضى واخرى سليمـــة ... اعـــالج احـــداهـــا تعـــالجني الاخرى
فبين علاجـي في الهوى وعلاجهـــا ... لقـــد ذهب الاثنـــان عقلي والاجره

(لا دين لمن غيرّ دينه)

قد كنت في مجلس اتكلم عن قانون الصحة واثبت بشواهد توجد في الاديان تثبيت الصحة لأنه يوجد في كل دين بعض شرائع لا يقال انها انزلت الا للصحة كتحريم أكل لحم الحيوانات النجسة لأنها عسرة المضم فحرم أكلها وكذلك صيام اليومين في الجمعة هو قانون صحي لأجل تجديد شهوة أكل اللحوم وكان حاضراً تلك الجلسة الرجل المدعو نمراً فصار يجادل ليؤيد مدعاه الذي كان يخالف معتقدي جدالاً اقرب منه الى النزاع فقلت :

مـــا بين اجنـــاس البهـــائم لم أجـــد على مـــــــذهب التوراة انجس من نمر
ترى لحمــــه بخساً كـــذا الـــدين نصه وعنـــد بني الآداب يوصف بـــالغـــدر
فلا تعجبن ان قـــابـــل الخير بـــالأذى رفعت لـــه علمـــاً فكوفيت بـــالمكرى
واني امروء العين بـــالعين مـــذهبي كـــذلك في الاحسان فـــالشكر بـــالشكر

(المجادلة في الدين)

المجادلة في الدين لا تزيده ولا تنقصه ولا تزيله ولا توجده ولا ترفعه ولا تخفضه بل كل فئة تبقى متحزبة للفئة التي تنتمي اليها أكثر من ذي قبل لان الدين ليس كعلم الحساب او باقي العلوم لو خالفنا منهُ قاعدة لفسد المبدأ وكم من جاهل يفتكر انه اذا عاب جملة او حقيقة تاريخية من دين يزيله بعد ان مرت عليه الوف من السنين ويظن بعضهم ان السامعين يميلون الى هذا الحزب او ذاك لمجرد براعته في نطق المتكلم ولا يعرفون ان الدين ليس بالمنطق ولا بالفصاحة وان العقل لا يغير منه شيئاً فالدين سر من اسرار الطبيعة موحى به لا دخل للعقل فيه . يتمسك المرء بدين ويتركه قهراً عنه ويبقى الانسان جاهلاً السبب الذي يدعوه للتمسك به فالدين من خصائص القلب لا العقل .

(البخل)

فكـــــل البخـــــل ان يرضى غنيـــــاً يعيش زمـــــانـــــــه عيش الفقير

البخل مرض في القلب لا في العقل ولأجل ذلك يجب ان نفحص ما هي افعال القلب وما هي افعال العقل .

العقل اعطى الى الانسان لكي يسير بموجبه حتى يدبر اشغاله واعماله كي تعود عليه بالنفع وهي النفع المادي فقط والقلب اعطى الى الانسان لكي يعيش به مع قريبه ومن يحبه فيضحي النافع لأجل الاحساس والعقل يضحى الاحساس لأجل النفع فكل من حب جمع المال وعدم بذله يكون العقل مسيطراً عليه وكل من يبذل المال لأجل رضى نفسه وغيره يكون خاضعاً لسلطة القلب . فمحبة الأولاد والقريب وهلمَّ جراً تخص القلب نرى الانسان يضحى ماله لأجلها ويجب ان يكون غنياً لأجلها وعندما نقرأ بعض اقوال ابي العلاء المعري نراها عظيمة اذا لاحظنا العقل وبعيدة جداً اذا لاحظنا القلب ومن جملة قوله عن الأولاد وهكذا كل اقواله معقولة عديمة الاحساس .

لعمرك ليس بـــــــــالأولاد خير فطوبـى للـــــــــــذي أضحى عقيما
فـــــأمـــــا ان تربيـــــه عـــــدواً وأمـــــــــــا ان يربوه يتيما
وأمـــــــــا ان يموت وانت حيٌ فتبقى بعـــــــده صبـــــــاً اليما

وبالحقيقة لو تأملها الانسان بعقله يراها مخالفة للعقل لأن الرجل الذي يتعب ويشقى ويقع في كل خطر مهلك لأجل كسب المال فليس من العقل ان يضحيه ويضيعه لميل صغير او مدح طفيف او لقضاء شهوة ولكن متى وصل هذا الميل الى القلب فانهُ يضحي حاله وماله لأجل من يحبه فالبخل والكرم صفتان مولودتان في طبيعة الانسان كما ان الاسمر خلق اسمراً والابيض ابيضاً فالبخل مرض في القلب بل هو الداء المميت لهذا العضو الحساس فلا شفقة ولا رحمة ولا محبة مع هذا الداء . ترى البخيل عاقلاً وفيلسوفاً في كلامه واعماله متى كان من ورائها صرف الدراهم تراه قد اتخذ مبدأ وقاعدة قوله ادخر القرش الابيض لليوم الاسود . لا ينفع الانسان الا دراهمه . قيمة المرء قيمة ما معه ليس من التعقل ان تنغش بمديح او شفقة لتبذل دراهمك . ويتناهى البخيل في فلسفته وذكر اعذار واهية ولكنها مقبولة ومعقولة خصوصاً اعتذار ابي الاسود الدوئلي عن بخله وهو عذر لا ريب فيه .

يلومونني بــــالبخـــــل جهلاً وخلـــة وللبخـــــل خير من سؤال البخيـــــل

لم أجد عذراً أحق من عذر هذا البخيل لأنهُ يفضل البخل على طلبه شيء من بخيل .

العذر هو طريقة حقيقة او شبه حقيقة يقدمها الانسان ليحلص من ملامته وغالباً يختلقها بعد العمل والعمل هو الأصل والفاعل هو الاحساس فالبخيل يجد اعذاراً عديدة لبخله والكريم نجد ايضاً اعذاراً لكرمه ولكن ليست الاعذار هي المحركة بل الطبع أما الرجل المتوسط فيجب عليه ان يكون تارةً بخيلاً وطوراً كريماً حسب الظروف الحقيقة ان كل كريم محبوب وكل بخيل مذموم لان كل انسان يتأمل بالكريم وكرمه لان امله به يكون وطيداً وقد قلت من يريد يعرف قيمة الدرهم يستدينه من بخيل .

(من اسباب البخل)

ان للعادة تأثيراً عظيماً على الانسان فمتى اعتاد الانسان على كثرة المصاريف لا يعود يبالي بها قلت او كثرت ويهون عليه دفعها فالرجل ذو العائلة لا يمكنهُ ان يتباخل كالرجل الذي لا عائلة له لذلك ترى اغلب عديمي الاولاد بخلاء لأن الذي يحب ولده يصرف عليه بسهولة وهذا الحب غير موجود عند الذين لا أولاد لهم وتتحول محبة اولادهم الى محبة الدراهم وللكرم وللبخل سبب آخر وهو ان الذي لا يتعب بكسب درهمه يهون عليه صرفه بسهولة بعكس من يتعب بجمعه فالتاجر يفضل صرف الدرهم على الحاصلات بعكس الزارع الذي اذا ضفته يقدم لك افخر الطعام من خبز وفاكهة وطيور عن طيب خاطر ولكنك لو طلبت منه درهماً يتمنع عن اعطائه مع ان هذا الطعام يكلفه أكثر من هذا بكثير وما ذلك الا لأن المحصولات موجودة عنده بكثرة فلا يعرف لها قيمة وبالعكس ترى التاجر انهُ يهون عليه ان يعطى درهماً ولا يضيف احداً لأنهُ يعرف انهُ يشتري الخبز والخضر والدجاج بدراهم يعرف قيمتها لذلك ترى أهل الجبال كرماء بضيافتهم بخيلين بعطائهم وأهل المدن يبذلون دراهمهم ولا يضيفون احداً وكل ذلك من

تأثير العادات قد أكثرنا من الفلسفة بهذا الموضوع فبالاختصار نقول ان البخيل بخيل من طبعه والكريم كريم من خلقه وهذه الحوادث الاخرى ما هي الا مثل صقل الحجر اذا كان قابلاً للصقل كالرخام يكون ناعماً ولو صقل حجر معتاد حتى صار يشبه الرخام بنعومته فانهُ يظهر عند كسره وتعرف طبيعته فالتجارب هي وحدها التي تعرف الكريم من البخيل ولنرجع الان الى موضوعنا الأول .

وقد مرض بخيل في آخر السنة وشاع خبر موته ثم شفي فقلت فيه :

تمنى يوسف الموت اقتصاداً ... وقبل نهاية السنة الجديدة
لكي ينجو بلا تلكٍ لابن ... صباح الخير في السنة الجديدة

وقد توفي بطريرك منتقم فاراح البشر من انتقاماته ونظمت له هذا :

توفي بطرك الدنيا اغتيالاً ... وقد ترك البلاد وما وراها
وسلم نفسهُ لله طوعاً ... ولٰكن الله لن يرضى يراها

وقلت في طبيب جاهل :

أراد الموت تعيير الوزارة ... اتى الطاعون واحمى اليه
فلم يقبل بتلك ومذ اتاه ... فريد العصر قد خلعت عليه

(حرب الانسان) فترى الانسان مجتهداً دائماً لمناصبة ما يضره فهو في حرب دائم مع نفسه والطبيعة ولولا وجود الضرر لما وجدت الصنعة فحربه قائمة دائماً اولاً ضد الطبيعة فكل من البرد والحر والهواء مضاد له ويعمل وسايلاً لمنع ضرره ثانياً ضد شهواته التي لا يمكنه مقاومتها اما لعجزه او لفقره او لسلطة عليه ثالثاً مع مزاحميه على حاجات معيشته من انسان او حيوان .

وكان في بيت اسكنه اشجار من المشمش اللوزي والاكي دني وقبلما اتناول ثمرة ناضجة منها ارى الوطواط او الخفاش يزاحمني عليها ويأتيها ليلاً ويسبقني عليها وكنت افكر انني ادفع احرة هذه الجنينة واصحابها تعبت في غرسها وأموال امريها والوطواط مرتاح الفكر من كل هذا ويسابقني في اكلها فمن منا اسعد من الاخر .

فالسعيد من كانت حاجاته أقل من قوته والتعيس من كانت قوته أقل من حاجاته فيتوهم الانسان مع عجزه وتعبه انه يستطيع ان يجد ما يريحه وهذا التوهم يؤديه الى الاعتقاد بالخلاص .

(الاعتبار قدر الحاجة)

كلما احتاج انسان لآخر يكون أدنى منهُ فالانسان في ذات يوم يكون كبيراً وصغيراً عدة مرار فأنت يا طبيب لو احتجت الى اسكاف لعمل حذاء لك تقول له ارجوك يا فلان ان تصنع لي حذاء حسناً فان كان منهمكا في شغله يجيبك لا وقت عندي لعمله فأنت في تلك الساعة محتاج اليه خصوصاً اذا لم يكن من اسكاف سواه وأنت مضطر لحذائك فتتذلل اليه وتكون في تلك الساعة صغيراً وهو الكبير وبعد ساعة تصيبه نكبة في عينه فيأتي اليك ويرجوك لمداواته فتفعل ما فعل معك ويتذلل اليك فتكبر عندئذ ويصغر أمامك فالكبير من قلّ احتياجه والصغير من كثرت احتياجاته . وحيث ان الاحتياج هو كل شيء فالصناعة تكون معظمة قدر الحاجة اليها فالطب هو الصناعة التي تشفي الامراض وتريح من الأوجاع وهي أول ما يحتاج اليها الانسان ولذلك ترى صاحبها مكرماً وذا سلطة ولو وقتية .

(نادرة مع والٍ)

طلبني احد الولاة في بيروت لعيادة ابنه ومعالجة رمد في عينيه فزرته وعالجته حتى شفي فأمر احد وكلائه ان يدفع لي اجرتي فرفضت قبولها لأنني قلت بذاتي انني مهما أخذت منه فعطاؤه لا يغنيني خصوصاً وانني أكون قد خدمت حاكم البلاد ويمكنني ان أكتسب اعتباره وقد توجهت مرة الى دار الحكومة لمقابلة الوالي فوجدت عنده عدة من ذوات البلد واغنيائها والجميع جالسون أمامه مكتفين لا يهمسون ببنت شفة فلما دخلت عليهم وقف لي ودعاني الى جانبه فأخبرته عن حاجتي وخرجت وبينما انا واقف قرب الباب خرج أحد كبار الاغنياء وسألني عن كيفية تعرفي على الوالي وسبب اعتباره لي فأجبته لا تظن يا سيدي ان الاعتبار لا يكون الا للغني فقط أما تعرف اننا معاشر الاطباء معتبرون لصناعتنا أكثر من صناعتكم فالواحد منكم ليتعرف على والٍ او عظيم يتكلف لدعوة يبذل فيها ما لا يقل عن الخمسين ليره وما ذلك الا ليزوركم او يعرف اسمكم ولربما بعد مناولة الطعام يصيبه عسر هضم فيدعوني لمعالجته فأعطيه مسهلاً فيشفى فيكون ممنوناً لي من خروج أكلك أكثر منك من طعامه له واذا قلت له ان الطعام كان غير جيد وعسر الهضم يقول لي عفارم وعنك بازونك فما اعتراضك بهذا القول اجابني صدقت وانصرفنا .

(اركع وأدفع) وكان لي صديق ينتقد على الاكليروس في بلادنا ويذكر قلة نفعهم وانهم ضربة على رقاب العباد وهي أفكار يرتأيها كل واحد بالاكليريكي عديم النفع وكثيراً ما كان يساورني بأفكاره ولكن كنت أجيبه انهُ يجب على الانسان مراعاة الحوادث في ظروفها وهي اننا نعيش بالتأثيرات الدينية وان بلادنا بلاد الدين وبلاد التأمل والتصور الديني ومتى قوي التصور على العقل ظهرت المعجزات والمعجزة لا تزول الا باخرى وأقول ان المعجزة تصديقك المعجزة فعلى الرجل العاقل الواجب عليه ان يعيش فيها ان يسير حسب هواها يلزمه استنشاق الهواء الحاضر لا المستقبل يلزمه ان يلبس لكل حلة لبوسها والمسكين من تقدمت افكاره عصرها فهو الذي يكون الضحية الاولى . واني نظراً لهذه التجارب قلت لصديقي ان افكاره

كلها تذهب سدى فلا حيلة بذلك خصوصاً بين الطوايف الشرقية التي افرادها عبارة عن عائلة واحدة وكلهم ينتسبون الى بعضهم ولكل منهم قريب او نسيب اكليريكي فلا يمكنك ابعادهم عنك لمنافك الشخصية والاعجب عندما كنا نتباحث سويةً في هذا الموضوع وهو محتد جداً ويبرهن بعدم لزوم الاكليروس والا دخل علينا مطران الدبس فأول من رفع طربوشه وقبّل وركع فقلت في نفسي هذا هو البطل الذي يريد ازالة الاكليروس وما تجاسر عند دخول احدهم ان لا يقلع طربوشه ويركع فهنيت الاكليروس بفكري بهكذا اخصام ثم نظمت له :

مـــــــا دام موت وامراض وتفليسُ	مـــــــا دام في الارض مطران وقسيسُ
ان شئت تغيير حكم فـــاتخذ وطنـــاً	لا موت فيـــــــــه ولا داء وتفليسُ
او أخلق النـــاس يومـــاً غير مـــا خلقت	ان كـــــــان يمكن للانسان تجنيسُ
مـــــــا دمت انت كما انت فلا فرج	فـــالعيش عنـــدك تبويس وتكبيس
اركـــع وادفـــع وصم صومـــاً وطـــع خبراً	وطـــــــأطيء الرأس ان دقت نـواقيسُ
هـــــذي نواميس ارض انت ساكنهـــا	ومـــا لنـــا غيرهـــا في الارض نـــاموسُ
تعصى اوامرهـــــا في صحــــةٍ واذا	جـــــــــاء المماتُ اتى ذلٌّ وتنكيسُ
لا تعصى يـــا صاحبي جهلاً اوامرهـــا	فـــــأنت في العجز لا يغريك ابليسُ

فالدين للأوجاع الادبية كالمورفين للألم الطبيعية فلا مسكن غيره .

(الخوري حنا كليرللوس وكيل بطريرك الموارنة في دمشق)

هو كاهن العصر كريم النفس محب الغريب والفقير وبالاختصار عكس الخوري موسى وكنت كل رأس سنة اعايده بشعر ففي سنة ١٩٠٠ ارسلت له الابيات الآتية وكان لي سنة من الزمان لم ار منه تحريراً :

قـــاطعت عـــامـــاً فخلنـــا	الفـــاً مـــع التسعمايـــة
فـــدم برغـــدٍ فهـــذه	لشاكر كـــل غـــايـــة
ودم لغيري الفـــــــاً	لترسلن الف صايـــــــــة

لان كل سنة كانت تطلب منهُ الصايات الى المطارنة .

وقد نال الوسام المجيدي الثالث فأرسلت له هذين البيتين :

قـــد حـــلّ فيك من الالـــه الثـــالثُ	وعليك من شرف الخليفـــة ثـــالث
ارجو الالـــه بـــأن فما بيننـــا	ابـــداً ودومـــاً لا يحل الثـــالث

وفي تلك السنة أرسلت اليه هذين البيتين :

وغـيري شاكـر ابـــدأً كـــذا الخوري كـــذا النوري
وغـيري لا تـرى احـدأً دوامـــأً شاكر الخوري

وهنأته بالحيل العشرين فقلت :

ادامـك الله جيـلاً كـذا تقول الشبـابُ
هـذا الـدعـا مستحيـل لكنـهُ يستطـاب

الدرهم النقدي

بعد التفكر وجدت ان الدرهم النقدي هو كل شيء في الحاضر بخلاف المستقبل مثلاً ان الدرهم النقدي لا بد ان تنقص قيمته كما جرى في الماضي فقد كان فائض المائة اربعين او اربعة وعشرين غرشاً سنوياً وأصبح الآن بالمائة تسعة قانونياً وربما نقص عن هذا القدر والمادة التي كانت تقابله قد ارتفع سعرها فد القمح كان بعشرة غروش وأصبح الان يساوي عشرين غرشاً فيستدل من هذا ان الدرهم النقدي نقصت قيمته وزادت قيمة الحاصلات والصنائع ومثل الذي يذخر مالاً نقدياً مثل مسافر في البحر وصاحب الاملاك كالمسافر في البر نعم ان سفر البحر اريح ولكن لو غرق لذهب مع ماله أما المسافر براً فلو انه يتجشم المشاق ولكنه يكون آمناً انهُ لو سقط وكسر رجله او رض ذراعه لبقى له أمل بالنجاة ورخصه ناشيء ايضاً عما يخرج من الذهب سنوياً من الارض الذي يقدر بمليار فرنك الذي يتراكم مع القديم الذي لا يأكل .

(سعدا الدوماني)

هي زوجة صديقي الخواجه حبيب دوماني صاحب الكرم والزمام لم يتفق وجود البشاشة واللطف والذكاء والوداد وكرم النفس والاخلاق الرضية الا مع السيدة سعدا الدوماني عقيلة الخواجه حبيب الدوماني وكريمة ايوب ثابت من بيروت اعطتني صورتها فكتبت عليها هذه الابيات .

ملاك اتى فـالشمس عنـد نزولـه الى أرضنـا ابـدت لصورتـه رسما
وقـالت خـذوا عنهـا المحاسن والبهـا ولا تـذكروا من بعـد سعـدا لكم اسما

(جميل بك ابو نكد) رجل صادق مملوء شهامة ومرؤة وشرف نفس وقد اختبرته وعرفت فيه هذه الصفات وقد طلب مني صورتي فاهديته اياها وقد حررت له عليها الابيات الآتية :

انت الجميــــل فلا جميــــل لي اذا هـــــام الفؤاد بحبكم والخـــــاطر
فـــــاذا قبلت محبتي فلك الثنـــــا مـــني ورسمـــي مـــن جميلك شاكـــر

وقد قلت في تشبيه الناس بالقراطيس ما يأتي :

النـــــاس عنـــــدي قراطيس وقيمتهـــــا بقــــــدر مـــــا يحتوي بطن القراطيس

فبالحقيقة يوجد فرق ما بين ورقة قيمتها عظيمة وبين ورقة نُظم فيها بيت من شعر بليد .

المدرسة الطبية الفرنساوية

كان أول درس في ١٥ تشرين أول سنة ١٨٨٣

ان الذي سعى بتأسيس هذه المدرسة هو الأب نورمان رئيس الآباء اليسوعيين وساعده على ذلك الموسيو بتريمونيو قنصل جنرال فرنسا في بيروت بمصادقة الدولة العلية اخيراً اعتمدت الحكومة الفرنساوية على تأسيس هذه المدرسة وسلمت ادارتها الى الاباء اليسوعيين الذين ينتخبون المعلمين والحكومة الفرنساوية تصادق عليهم .

(اليسوعيون)

لا اذكر هنا تاريخ الآباء اليسوعيين ولا قوانينهم وما عملوا وما عمل لهم في الدنيا غير اني أذكر ما شاهدت منهم وما عرفته فيهم مدة اثني عشرين سنة فأقول ان اليسوعي هو رجل قانونه لا يتعداه ولا يسمح لأحد ان يعتدي عليه رجل العمل نظير السكة الحديدية لا بد لها من المسير وكل من يقاومها تسحقه ولا تبالي به ولا تدع شيئاً يعيقها في سيرها ولو قصر قليلاً رئيسهم الأكبر بواجباته لأنزلوه عن مركزه ونصبوا سواه فالكبير فيهم من لا يكلّ عن العمل ولا يحيد عن طريق واجباته وهذه السكك الحديدية تمشي بلا ضجة ولا صفير حتى لا تعرف اذا كانت سائرة او واقفة وتجرّ معها كل من يتعلق بها ومحرك هذه السكة هي الساعة فأنها توقفها وتحركها والجميع خاضعون لها فتى دقت الساعة لعمل ما يتحرك لصوتها كل عامل ومتى دقت للوقوف وقف جميع عمالها كل منهم ينسى نفسه لخدمة الجسم كله ولا يعرف الا المصلحة العمومية فيتجرد عن كل شيء في العالم لخدمة مصلحته لا يعرف اباً ولا اماً ولا اخاً ولا صديقاً واليسوعي

هو الوحيد الذي اتبع وصية المسيح بقوله دع الموتى تدفن موتاها وهو الذي يكرس فكره وذاته لنجاح مصلحته وعمله العمومي ويحمل صليباً ويتبع سيده .

اليسوعي عامل لا يكل من التعب ولا تراه قط بلا عمل الا مدة النوم ومن يعلم ماذا يشتغل ساعة نومه وفي ساعة العمل لا يفرق بينهم الشاب من الشيخ ولا تجد ياسوعياً يمشي على مهله بل بكل سرعة ممكنة فلو جردنا كل الرهبانات عن ثوبها الرسمي ومشت لعرف اليسوعي من مشيه عنها وخصوصاً متى كان اكليريكي شرقي ولا غرو من ذلك لأن مشي اليسوعي مشي عسكري وباقي الرهبانات مشي قضاة وأعضاء مجالس يشتغل الواحد منهم ان كان جالساً او قائماً اما بالقراءة او بالعمل او بالكلام ولا يدع لذاته دقيقة يفتكر فيها بنفسه كل منهم رئيس في عمله ومتى انتهى منهُ يخضع لرئيسه وبالاختصار هم رجال الكد والجد والعمل لا يرهبهم شيء الا مخالفة قانونهم ومتى ابتدأوا في عملهم فلا احد يؤخرهم عنه متبعين بذلك قول رئيسهم الاعلى القديس اغناطيوس دي ليولا قبل ما تعمل عملاً اتكل على الله ومتى ابتدأت به اعمله كأنه لم يوجد فأنظر الى هذا الاجتهاد ما ابعد مرماه .

لست احتاج ان اذكر ان يوجد عندهم جميع العلوم والصنائع وما يلزم للانسان والاغرب فيهم ان عددهم في الدنيا لا يتجاوز ١٣ الف يسوعي من كل الملل والاجناس ولكنهم كلهم كرجل واحد لا يفرق بينهم جنس ولا وطن ولا لغة يجمعهم لقب واحد يسوعي تصور شخص في العالم له ست وعشرون الف عين وست وعشرون الف اذن ومثل هذا العدد ايدي وأرجل وثلاثة عشر ألف لسان فمن يضاهيه بقوته وهذه الاعين والايدي ممتدة الى اربعة اطراف المعمور وهي بالحري تلغراف بلا شلك توصل الاخبار الى بعضها من كل ناحية ولست أذكر شيئاً عن مداخلاتهم بين الناس اذ لا توجد مدينة عظيمة من العالم الا ولهم اخوية او عميل فيها .

المعلمون حسب حضورهم

فالذي حضر اولاً هو روفيه معلم الولادة وقد علم في السنة الاولى التشريح ثانياً سنس ابتدى بتعليم الجراحة الصغرى وكان ابتدى الدروس في ١٥ ت ١ سنة ١٨٨٣ بأمر تلغرافي حضر من باريس وبعد ذلك حضر نكر معلم التشريح ودبران معلم الامراض الباطنة وفلافار وعندما ابتدى سنس بالجراحة الكبرى وما عاد امكنه يعلم الجراحة الصغرى طلب معلماً لذلك وحيث كنت موجوداً في المستشفى الفرنساوي كما قلت مع سنس من سنة ١٨٧٩ دعاني ريس المدرسة الاب لوفافر والشنسليه الاب مرسليه بناء على قرار المدرسة ومصادقة قنصلاتو فرنسا الذي كان يومئذ موسيو بتريمونيو ان أكون معلماً للجراحة الصغرى وحيث لا يوجد بين المعلمين من يدرس الامراض العينية وكنت مشهوراً بها عينت ان أكون معلماً للأكلينك العيني ايضاً وابتدى درسي سنة ١٨٨٥ وفي سنة ١٨٩٥ انعمت علي دولة فرنسا بنشان الاكادمي مثل باقي المعلمين وها هي المعاملات الرسمية . حضر لي أولاً هذه التذكرة من القنصل الجنرال .

BEYROUTH Samedi 6 Avril 1895

Mon cher docteur Chaker Khouri.

Je m'empresse de vous donner une nouvelle qui vous fera plaisir. sur la proposition du Consulat général. vous êtes nommé officier d'academie. le brevet vous sera transmis officiellement.

Mille félicitations et croyez moi votre tout dévoué.

L. Saint René Taillandier.

هذه ترجمتها بيروت السبت في ٦ نيسان سنة ١٨٩٥

عزيزي الدكتور شاكر الخوري

تراني مسرعاً باخبارك خبر يسرك جداً وهو ان القنصلاتو الجنرالية طلبت تسميتك اوفيسه داكادمي وقد تسميت وستصلك البراءة رسمياً أقبل مني ألف تهنئة واعتقد انني مخلص جداً .

سن رنه تالنديه

Consulat Général de France en Syrie
BEYROUTH. 8 Avril 1895

Monsieur

J'ai l'honneur de vous informer que sur la proposition de Mr. Jullemier gérant du consulat général de France à Beyrouth appuyée par Monsieur Cambon. ambassadeur de la République à Constantinople et par moi-même. le ministre de l'instruction publique et des Beaux-arts. vous a conféré les palmes d'officiers d'academie en récompense des services que vous avez rendus.

Monsieur le docteur Chaker Khouri professeur à la faculté de médecine de Beyrouth.

A l'enseignement comme chargé des cours de la Faculté de médecine française de cette ville.

Vous trouverez ci-joint le brevet de cette décoration. délivré à la date du 8 Février dernier.

Il m'est particulièrement agréable Monsieur d'avoir à porter à votre connaissance cette bienveillante décision du gouvernement de la République. et en vous adressant mes plus sincères félicitations pour la distinction dont vous venez d'être l'objet. je vous prie de recevoir l'assurance de ma considération très distinguée.

L. Saint René Taillandier

(ترجمته) قنصلاتو جنرال فرنسا في سوريا بيروت في ٨ نيسان سنة ١٨٩٥

مسيو لي الشرف ان ابلغك انهُ حسب طلب مسيو حلميه وكيل قنصلاتو جنرال فرنسا في بيروت وعضد

مسيو كامبون سفير المشيخة في الاستانة لهذا الطلب وعضدي ايضاً قد سماك وزير المعارف والصنايع اوفسيه داكادمي مكافأة لما اديته من الخدامات .

(مسيو الدكتور شاكر الخوري استاذ في المدرسة الطبية في بيروت) بتعليمك في المدرسة الطبية الفرنساوية في هذه المدينة وباطنه براءة هذا النيشان المعطاة في ٨ شباط الماضي .

وانا منشرح جداً بتبليغك هذا القرار الحسن التي عملته حكومة المشيخة ومع تقديم اخلص التهاني بهذا الامتياز الذي كنتم موضوعه ارجوك ان تأكد اعتباري الفايق جداً .

سنزنه تلنديه

وهذه البراءة هي

REPUBLIQUE Française

Ministère de l'instruction publique des Beaux-arts et des cultes.
Le ministre de l'instruction publique des Beaux-arts.
Vu l'article 32 du decret organique du 17 Mars 1808.
Vu les ordonances royales du 14 Novembre 1844, 9 Septembre 1845 et 1 Novembre 1846 vu les decrets de 9 Décembre 1850, 7 Avril, 27 Décembre 1866 et 24 décembre 1885.

ARRETE

Monsieur le docteur Chaker Kouri, professeur à la faculté française de Beyrouth, est nommé officier d'Academie.

Fait à Paris le 8 Février 1895
Le Ministre de l'instruction Publique
des Beaux-Arts et des cultes

Pour ampliation
Le chef du Cabinet
Signè

B. POINCARE

وهذه ترجمتها

المشيخة الأفرنسية

وزارة المعارف والصنايع والاديان

قد رأى وزير المعارف والصنايع والاديان .

مادة ٣٢ من النظام الاساسي ١٧ آذار سنة ١٨٠٨

والأوامر الملوكانية في ١٤ ت ٢ سنة ١٨٤٤ وتسعة ايلول سنة ١٨٤٥ وأول ت ٢ سنة ١٨٤٦ .

وقرارات ٩ ك ٢ سنة ١٨٥٠ وسبعة نيسان و٢٧ ك ٢ سنة ١٨٦٦ واربعة وعشرين ك ٢ سنة ١٨٨٥

يسمى

مسيو الدكتور شاكر الخوري استاذ في المدرسة الطبية الافرنسية في بيروت

اوفسيه داكادمي

اعطي في باريز في ٨ شباط سنة ١٨٩٥ — ريس الاوضة

وزير المعارف والصنايع والاديان — الامضا

بوانكاره

وهذا النيشان من فضه بشكل نخله وله شريط بنفسجي

وعندما استلمت هذا النيشان اخبرت عنهُ الأب كلره الذي كان يومئذٍ ريس مدرسة الطب Recteur وريس عام للرهبنة اليسوعية في سوريا .

وكان يومئذٍ في تعنايل فحرر لي التحرير الآتي :

TENAIL 12 Avril 1895

Mon cher docteur,

Je vous remercie de la nouvelle que vous m'avez annoncée, et j'envoie mes plus cordiales félicitations au nouvel officier d'academie.

C'est une distinction que vous avez bien méritée par vos années de service déjà longues et par le dévoûment que vous apportez à remplir les fonctions que vous a confiées l'administration de l'école fière de vous compter au nombre de ses professeurs.

Veuillez agréer mon cher docteur l'assurance de mes sentiments dévoués

E. CLAIRET S.J.

وهذه ترجمته

تعنايل في ١٢ نيسان سنة ١٨٩٥

العنوان الى الدكتور شاكر الخوري استاذ في المدرسة الطبية الكاثوليكية الافرنسية

عزيزي الدكتور شاكر

اشكرك لتبشيري بالخبر المحرر عنه وأقدم التهاني الى الاوفسيه داكادمي الجديد

وبكل استحقاق نلت هذا الامتياز نظراً للسنين الطويلة التي خدمت فيها وللغيرة التي أظهرتها باتمام الوظايف التي سلمتها لك ادارة المدرسة التي تفتخر ان تعدك من جملة اساتذتها .

أقبل يا عزيزي الدكتور تأكيدات احساساتي الفايقة

كلره

وحيث ان النظام عندما ينال أحد نيشان من دولة أجنبية يلزم له الرخصة بحمله من دولته فقد قدمت لمتصرفنا نعوم باشا عرضحالاً بذلك فحضر لي الأمر الآتي وهو

الى الدكتور شاكر افندي الخوري

متصرفية جبل لبنان

تحريرات عربية قلم

عدد

٢٠٨

رفعتلو افندي

بناء على استدعاكم صار تقديم الانها لجانب مقام الصدارة العظمى بشأن تعليق نيشان اوفسيه داكادمي المعطى لكم من طرف دولة فرنسا فحصل التشرف بأمر سامي مؤرخ في ١٧ ذي الحجة سنة ٣١٢ و٢٩ مايو سنة ٣١١ نمرة ١١ يعلن بالامر الوسيم بأنه لدى الاستئذان صار شرف صدور الارادة السنية الملوكانية بالرخصة بتعليقه وعليه مع اظهار محظوظيتنا بهذه المنحة وارتياحاً للتبريك بها اقتضى ترقيم هذه الشقة المخصوصة بها .

في ١٠ محرم سنة ٣١٣ و٣٠ حزيران سنة ٣١١ الختم نعوم

وبعد خمس سنوات نلت من مشيخة فرنسا نيشان اوفسيه دانستريكسيون ببليك اي نيشان مجلس المعارف وهو بهيئة الأول لكن من ذهب وهو أعظم نيشان للعلماء .

وقد طلبوا لي الجيون دونر مرتين كما انهم طلبوا لغيري من المعلمين جملة امرار ما أحد ناله الا الدكتور دبرن لأنهُ طبيب صحي لفرنسا وقد ناله الدكتور روفيه ايضاً الذي استعفى سنة ١٩٠٦ .

وباقي المعلمين مذكورين في تاريخ المدرسة كالدكتور هاش الذي حضر محل سنس وكذلك بويه الذي توفي وكذلك لابونرديه ومن الياسوعيين الأب مرسليه الذي كان شنسليه ومعلم الطبيعة وهو الذي عمل جميع بنايات المدرسة وعمل ترتيبها ودروسها واليوم يمشي بموجبها وابتدى في المكتبة وصار مرتين شنسليه هو من الرجال الياسوعيين العظام وكذلك الأب فنسن الذي كان يعلم التاريخ الطبيعي وتوفى ومحله الأب بولوا الفاضل وكذلك الأب كولنجة والمعلم الأول الأب سولرن .

(دبران) معلم البتالوجيا الباطنية أي الأمراض الباطنة اشطر المعلمين سياسة ومكسباً وكان يمزح معي احياناً .

(نادرة معي)

توجهت يوماً الى المستشفى لاتوجه مع دبران لعيادة مريض من بعبدا وكان موجوداً تلك الساعة في الاكلينيك مع التلامذة وكان يعاين مريضة مصابة بالنزلة الصدرية وفي عينها مرض غير ذي بال وبعدما اتفقنا على الوقت الذي نذهب فيه لعيادة المريض خرجت فناداني وقال لي تعال انظر اذا كان يقتضي قلع عين هذه الامرأة وضحك فأجبته اذا بقيت حية ليوم غداً ننظر في امرها فضحك وضحكت التلامذة .

وأتاه يوماً مريض فقال له يا دكتور انني كاثوليكي وابن الكنيسة فأرجوك ان تعالج لي البواسير التي معي ففحصه ورآه مصاباً بزوائد زهرية فقال له يا صاحبي ان كنت كاثوليكياً فليست بواسيرك كذلك .

(الأب كاتين)

(ريس المدرسة الحالي) هو الذي جعل مدرسة الطب على ما هي عليه الآن مدرسة حقيقية لأن قبل توليه ادارتها كانت التلامذة تذهب الى الاستانة لنوال الشهادة فاخيراً تحصلوا على ارادة سنية ان يتوجه كل سنة ثلاثة من اساتذة مدرسة الطب في الاستانة مع المعلمين الثلاثة الذين ترسلهم جمهورية فرنسا لفحص التلامذة واعطاءهم الشهادتين العثمانية والافرنسية .

وقد ألف الأب كاتن جمعية طبية تجتمع فيها التلامذة القدماء مع المعلمين كل سنة ويقدم كل منهم تقرير طبي بما رآه وجد عليه علماً وقد نظمت له هذه القصيدة بأول اجتماع الذي كان في ١٨ ايار سنة ١٨٩٩ في الحفلة العمومية :

مـا بين مـدحي وزهـد الأب كـاتـان	في حيرة واضطراب القلب تلقـاني
اذا مـدحت نهاه بـات في خجـل	كـأن قولي من زور وبهتـان
يحمر وجهـاً اذا عـددت فضائلـه	ويعبس الوجـه من مـدح وشكران
مـع انـهُ لبشوش الوجـه مشتهر	وألطف الخلق في استقبـال انسان
سكتُ عن مـدحـه كي لا أكـدره	ولا يرى شاكراً في وجـه غضبـان
ولا يظن بـأني قـد اجربـه	ضد التواضع في تعـداد احسان
سكتُ حتى سكوتي كـاد يزعجني	وخـانني الصبر في صمتي وكتماني
أصبحت في حيرة هـل ان أكـدره	ام هـل أكـدر نفسي طول ازمـاني
لما أتى عيـده قـد خـانني جلـدي	ولم يعـد ابـداً صمتي بـأمكـاني
قـدمت شعري لـديـه اليوم معتـذراً	ان لم يكن عـاذري فـالحلم غفراني
مـدحتـهُ بلسان ليس يعرفـهُ	كي لا اجرح تقواه بعرفـان
ان كـان من بعـد حين بـات يعرفـهُ	من ترجم الشعر في تكـديره جـاني
مـع كـل هـذا فـأني لست امـدحـه	لكنني ذاكر تـاريخ اوطـاني
فكتب الطب لولا فرط همتـه	لطب من بعـد اتعـاب وخسران
خـاض البحـار وجـاب البر مجتهداً	وضمّ مـا بين فيلكس وسلطـان [1]
وكم أتت بفصيح القول غيرتـه	حتى يثبت مبـداه برهـان
لقـد غـدا مكتبـاً في الشرق معتبراً	من كـل فرد فرنسي وعثماني
مـذ بـات لاون من عرش يبـاركـه	تجلـه في الورى اربـاب اديـان
ان كـان مكتبنـا الطبي في نعم	فـالفضل في كـل ذا للأب كـاتـان

وكتب لي يوسف ابو سليمان معلم البيان في كلية القديس يوسف للآباء اليسوعيين هذين البيتين بعد تلاوة هذه القصيدة :

لله درك شاعراً متحريـاً	نظم القوافي طـالبـاً البـابها
امـا القصيـدة في مـديح رئيسنـاً	فهي وحقك طرفـة في بـابها

(١) هو فلكس فور رئيس المشيخة يومئذٍ .

(استعفائي من مدرسة الطب)

بسبب نزلة صدرية اصابتني سنة ١٩٠٥ تركت الشغل مدة ثم رجعت السنة الثانية اليه واخيراً اشعرت بقلة جلد وضعف في الجسم فقدمت استعفائي وقد قدم الدكتور هاش استعفاه ايضاً في هذه السنة ١٩٠٨ نتأسف لمفارقته هذه البلاد لانهُ جراح عظيم .

وقد الغلوا بعدي درسي في الجراحة الصغرى واعطوا الاكلينيك العيني الى تلميذي ابراهيم افندي المدور معاون للدكتور دبران وهو من الاطباء الماهرين بالامراض الباطنة .

(الخوري يوسف ذيب) عرفت هذا الاب شماساً وكان اسمهُ حنا ذيب يعلم في مدرسة اليسوعية وهو راعي الاولاد وفي ١٥ كانون ثاني سنة ١٨٩٧ سيم كاهناً وقدمت له هذه الابيات :

رجـــــال يسوع اضحوا	اعجوبـــــة في المساعي
وخـــير مسعــى اتـــوه	تغيير نسل الافـــاعي
لو ارشدوا اليـوم ذئبـــاً	وكـــان قـــاسي الطبـــاع
لوعظهم « حنـــا ذئب »	وأصبــح اليــوم راعـــي

ودعي حنا ذيب باسم الخوري يوسف ذيب .

(الخوري اغناطيوس جعجع) هو مثال الآداب وانموذج الكهنة الطاهرين قد خلق ليكون كاهناً وهو وديع لطيف ذو مرؤة وغيرة يحب الفقير ويعتبره له سمعة جيدة وهو مدرس في كلية القديس يوسف للآباء اليسوعيين .

(مهندس الطرقات)

وكان احد مهندسي الطرقات يفتخر في صنعته ويفضلها على كل صنعة حتى الطب وكان ذلك أمامي فخطر لي هذا المعنى فقلتهُ له نظماً :

اذا صعــــد الحمارُ على جبــــالٍ	يهنـــدسُ طرقهـــا وهو يسيرُ
فهــذا مهنــدس الطرقــات اصلاً	ومــا زالت تهنــدسهــا الحميرُ

فبالحقيقة ان الحيوانات هي التي هندست كل الطرقات الجبلية لأن الانسان يمشي على القادومية كما

يقول وعندما كنت في مصيفي في جبل طورا وكانت طرقاته عسرة المسلك افتكرت ان اصلح بعضها فأرسلت لذلك فعلة مع وكيل عليهم

فذهبت في اليوم الثاني لأرى الشغل الذي وجدته كالعدم فاخيراً اخبرت الوكيل ان يسوق حماراً ويتبعه ويحفر وراءه وعند انتهى الطريق يرجع ويشتغل على الحفر ففعل ذلك وكانت أحسن طريق وهذا معقول لاننا نهندس الطريق لأجل تسهيل مرور الحيوانات عليها فالحيوان يعرف الطريق التي يستريح بسلوكها أكثر منا فتراه يمشي ويدور حسب راحته فاذا لا يلزم نستخف بالحمار ولا يلزم ان يتكدر من نقول له حمار لأنهُ عرف انهُ أول مهندس الطرقات واذا فحصت ترى جملة اشياء عملتنا اياها الحيوانات خصوصاً الطب فالذي علمنا الحقنة هو طير البجع ومستكشف الكينا هو الأسد والذي استكشف خواص البن هو الخنزير ومثله الضفدعة استكشفت الكهربائية وهكذا اذا فتشنا عن كل شيء ترى الحيوانات اساتذتنا ما عدا الكذب فانه من اختراعاتنا لأن عندما الانسان ابطل الزراعة والفلاحة ابتدى يكذب ويغش الفلاح لأخذ غذاءه منهُ لأن الغذاء هو أصل كل شيء .

(الدنى والفقر من عمل الانسان)

العقل قوة يميز بها الانسان النافع من المضر والخير من الشر وجلب النافع وابعاد المضر اولاً عن الانسان نفسه ثم عن الهيئة العمومية وعندما اعطانا الباري هذا العقل اعطى لنا الحرية لاستعماله فالعقل هو موهبة من الله وأما نتيجة استعمالك له للخير وللشر للنفع وللمضر فهو منك مثلاً .

قبلما اجتمع الانسان على هذه الهيئة الحاضرة كان كالوحوش في عيشته وللآن ترى شعوباً يعيشون على هذه الحالة فكان الانسان يأخذ غذاءه من أي محل كان من الارض ويشرب ماءه من أي نبع كان وينام في محلات مخصوصة التي تقيهُ من البرد والحر فبالطبع ان محل سكنه لا يتوقف بقرب محل غذاءه وشربه فكان يأكل في محل ويشرب من محل آخر وينام في محل ثالث فلأجل ذلك كانت تلزمه الحركة فاذا ما تحرك يموت جوعاً فكان يلتزم اذا كان نائماً وعطش ان ينهض من محل نومه ويذهب ليلاً ـن محل الماء وهكذا في الغذاء وعندما وجد حاله تعباناً في هذه الحالة وبالصدفة وجد حجراً مجوفاً فيه قليل من الماء وكان الحجر صغيراً يمكنه حمله افتكر ان يأخذه معه الى منزله بحيث اذا عطش ليلاً يشرب منه ويوفر تعب السفر عليه ليلاً فعمل ذلك وهكذا عمل في جمع الغذاء بحيث استراح جداً وكان لهذا الرجل جار لم يشأ يفعل ما عمله جاره فكان يتعب ويشقى واذا احتاج الشرب في احدى الليالي يـ حى جاره ليعطيه قليلاً من الماء فصار في هذه الحالة ادنى من جاره الذي تسلط عليه باحتياجه له بفضله ـنيه لعوزه وهكذا صار فكل من يسد عوز اخر خصوصاً بالاكل والشرب فهو أكبر منهُ لا محالة .

فينتج من ذلك ان الغني والفقر من يد الانسان لان صاحب التدبير اغتنى واراح فكره وصاحب

الاهمال وعديم الادارة افتقر وتعب فماذا يخص الباري من ذلك فانهُ اعطاك عقلاً مثل جارك لماذا لم تقتد به فاذا ماكان عندك قوة عقل مثله للاختراع فهو يظهر لك الطريقة لماذا لم تفعل مثله فيكون اذاً راحتك وشقاك من يدك فللنجاح طرق وللخساير طرق وللانسان الحرية التامة في استعمال احدهما فالشقي يكون شقياً من يده والمرتاح كذلك ربما يعترض ان كثيرين ممن يتعبون ولا يجدون توفيقاً نعم ان ذلك حقيقة ولكنه نادر وأغلب النجاح هو المشي على طرقه حاصله انظر الى أين اوصلنا الحمار بسبب هندسته وهذا يعلمنا ان الانسان لا يلوم الا نفسه ولا يتشكى من الخالق ويصح القول الذي هو خلاصك في يدك يا اسرائيل فاذا مشيت على طرايق النجاح ولم تنجح فلا ملام عليك ولا تلوم نفسك لان اللوم بالقصير هو قصاص للمذنب وهذه هي جهنم له .

(اسعد بك لحود)

شاب زكي لطيف جميل الطلعة وهو أكرم أهل زمانه مالاً وجاهاً ومروؤة يفدي نفسه وصالحه لخدمة اصحابه طلق المحيا ذو غيرة عظيمة حاد الطبع لا يغش ابداً ولا يكتم حقداً وكان عضو عن كسروان في مجلس ادارة لبنان وكان بمنزلة مضيافاً كريماً وعقيلته هي ابنة عمه وهي على غاية ما يكون من الجمال والكمال كريمة الاخلاق لطيفة المعاشرة بشوشة الوجه طلقة المحيا ذات جمال بديع على وجنتيها صفان من الخالات وهي تتجاوز السبعة على كل جهة كأنها صور تحيط بورد الخد وهي تدعى روزه وهو لفظ افرنجي معناه الورد .

وقد حررت على صورة السيدة روزه هذين البيتين :

لروزة اسعـــــد في الخـــــد ورد	لـــــه صور من الشامـــات يعبـــد
فمن قـــد شامـــه اضحى سعيـــداً	ومـن قـــد شمّـــه لا شك اسعـــد

(غيره)

لروزة في الخـــــــدود بهيّ روض	تقيم بـــــه العبيـــــد على الحدودِ
لتحرس ورده مـن كـــــــل لصٍ	فهـــل لي ان أكون مـن العبيـــد

واسعد بك من اللذين توجهوا الى الاستانة من قبل لبنان في يوبيل مولانا السلطان الاعظم ونال المثول بين يديه وهو قائمقام جزين الان .

قنصلية جنرال دولة فرنسا في بيروت

أول من عرفت فيها بتريمونيو وترجمانها الأول مسيو روسو ثم لا بتيتفيل ومسيو كيو وكذلك مسيو سنرنه تلنديه ومسيو جيلميه ثم بعده المسيو سوار الذي اهداني صورته مع صورة قرينته التي نظمت عليها :

ان شمســـــــــا رسمت كمال جمالك ... فقلوبنـــــــــا رسمت جمال كمالكِ
اشغلت قلب النـــــــاظرين وطرفهم ... وجمال وجهك صدقى فيها لكِ
لا يختشون سوى بعـــــــادك عنهم ... وكـــــــذا اذا انكسر وأفن اهمالك

وأعطتني صورة ولديها متعانقين فكتبت عليها :

سمعنـــــــا من قـــــديم عن ملاك ... بشير مـــــع ملاك قـــــد ترافق
وقبـــــل بني سوار مــــا سمعنـــــا ... ملاك مـــع ملاك قـــــد تعـــانق

وقد حررت على صورته ومعه عدة وسامات :

هـــــــذا الوزير سوار للورى عضد ... ومـــــا علا صدره برهـــــان برهـــاني
لو صوروا مــــا حوى في صدره ادبـــاً ... لكـــــان يعلو سوار فوق تيجـــــان

وخلف موسيو سوار الكونت دي سرسه ومعه مسيو بيان ثم حضر مسيو فوك دي بارك مع مسيو كامبانيا الذي انتقل اليوم للوزارة مع مسيو بيان .

(فوك دي برك) ولد سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٨٦ توظف في سفارة برلين وسنة ١٨٩٩ كان محرر الادارة السياسية في الشرق الأقصى ثم كاتم اسرارها من الدرجة الاولى سنة ١٩٠٠ ثم وكيل قنصلاتو جنرالية بيروت سنة ١٩٠٥ وهو زكي رايق كأنه ليس بافرنسي معتدل اللهجة متأني يسمع كلامك وبعينه يفحص هيئتك لا يصدق كل الكلام بسهولة بل يفحصه في فكره وبالاختصار انه من المهمين ومدامته من عائلة الدكتور هاش .

(رئيس محكمة مديون مفلس)

(اعرابه)

مــــــا فيـــــه من رفـــــع سوي ... رفـــــــــــع الشوارب وهو لاحس

مبني على نصب وقد　　　كسروره في كل المجالس
وبه علامة جزمة　　　لسكونه بين النواعس

(مجلس حكمه)

واذا نظرت جنابه　　　في دكة الاحكام جالس
فترى الجموع بضجة　　　لدخولهم قبل الدسايس
يتزاحمون ببابه　　　لديونهم والشهم عابس
هذا يدفش جاره　　　ويقول دوري وهو داعس
هذا يطالب ماله　　　عند الرئيس عن الملابس
هذاك في حق الطحين　　　وغيره حق المكانس
لو كان يدفع دينه　　　قفلوا المحاكم والمجالس

(حالة الشعر)

لا بد للشعر خصم　　　ان كان مدحاً وذماً
اذا مدحت فلاناً　　　فخصمه صار خصماً
اذا هجوت عدواً　　　عليك قد بات يحمى
اذا تغزلت يوماً　　　قالوا تهتكت رغماً
قالوا جننت سريعاً　　　اذا تحمست لما
اذا افتخرت بأصل　　　قالوا تكبرت ظلما
يقال عنك كذوب　　　ان قلت أعمى لاعمى
دع عنك شعراً وأنزع　　　من قلبك اليوم هما
واصبر على كل عيب　　　وكن بليداً اصما

(تخميس)

اعار وميض البرق بارق ثغره　　　وشهب الدراري أصبحت عقد نحره
ودر الثريا قد احاط بخصره　　　أضاف الدجى معنى الى لون شعره
فطال ولولا ذاك ما خص بالجرِ
وقد خفنا من كسر القلوب اذا رنت　　　بكسر جفون فاتقينا وما اتقت
ظننا بنون الحاجبين قد انوقت　　　فحاجبه نون الوقاية ما وقت
على شرطها فعل الجفون من الكسر

(حالة الانسان في الشرق)

الله اوجـــــدني في أرض لبنـــــان | والأصل سريـــــــان والايمان موراني
أصبحت مضطهـداً من كـل طـائفـة | من كـــل جنس ولو كـــانوا كجيراني
ان قلت سريـــان فـــالاعراب تبعـدني | والسود تبغضني والفرس تهزاني
امــــا الفرنجي فودي لا يصدقـــه | لو كـــان ايمانـــه في الـــدين ايماني
او شامي عربـي في نهى وذكـــا | يقول في قلبـــه ذا الوغـــد سريـــاني
او شامي مسلم في الجاه مفتخراً | يقول في سره ذا الكلب نصراني
او شامي ارثوذكسي فـــاعجبـــهُ | يقول يـــا ليتـــه قـــد كـــان يونـــاني
اذا لقـــــاني فرنجيٌ ومـــــازحني | يقول في قلبـــه هـــذا لفتـــاني
ان البروتستنت ان يـــابلتـــهُ سحرا | نـــادى اعوذ بربـي ذاك رومـــاني
اذا اتيت لصيـــــــدا واشتهرت بها | قـــالوا بـــأني فلاح ولبنـــاني
لا العلم ينفعني لا العقـــــــل يرفعني | لا العـــدل يحفظني من مـــذهب ثـــاني
اين البلاد التي تحنو الى أدب | وتحسب اليوم افضالاً لانسان
من دون جنس ودين او بلا وطن | يقـــــدرون الفتى قـــدراً لاحسان
مـــا الـــذنب لي ان يراني الله في بلـــد | صغيرة او بـــــدين غير اديـــانِ
او كـــان لبسي طربوشاً وكوفيـــة | او مـــــأكلي دون سكين لالوان
فـــالرأس رأسي وكفي لي غـــدت وكـــذا | والأرض ارضي والاسنـــان اسنـــاني
لو كـــان أكلي بلا سكين مصطلحـــاً | يضرّ اسنـــانـــه بـــالحق ينهـــاني
لو كـــان ديني ينـــادي كي اضرّ بـــه | لـــــــه عليَّ حقوق الكراه والجاني
لكن بـــالعكس ديني قـــد يعلمني | اذا اسآء ابـــــاديـــــه بغفران
لـــــه عليَّ يمين لا اضرّ بـــــه | هـــذا هو الـــدين والـــدنيـــا للانسان

(وقلت الى صديق اتاه لقب باشا)

وهو فريد باشا باباز اوغلي مدير الاشغال العمومية في مصر وهو ابن ايوب باباز اوغلي الشهير في القطر المصري بكرم الاخلاق وقد نال رتبة ميرميران فحررت له هذه الابيات وهو عديل اخي الدكتور أمين زوج السيدة كليوبترا .

لم تزدنـــا في صنف بـــاشا انـــدهـــاشا | بـــــل سروراً وبهجـــة وانتعـــاشا
كلما زدت في المعـــالي ارتفـــاعـــاً | زدت حبـــاً وداعـــةً وانكمـــاشا
كـــــل مرءٍ سواك يسوى سواكـــــا | ان علا فعلى المحبين هـــــــــاشا

وتراه ان قيـــل يـــا شيخ اهلاً ‏ مرحبـــاً فيك قـــام رأساً وطـــاشا
وتملى من شاربيـــه ارتفـــاعـــاً ‏ فهو شيخ فكيف لو كـــان بـــاشا
ربكم عـــارف بـــأكثر منـــا ‏ فهو يعطي الى الخلائق مـــا شا

ثم قلت له هذا التاريخ سنة ١٩٠٨

انت بـــابـــاز لصدق ‏ مثـــل ايوب لشغـــل
وفريـــد في صفـــات ‏ عنـــد اشفـــاق وعـــدل
مير ميرانـــا ارخ ‏ صـــرت للعليـــا اوغـــلي

وهو من الرجال التي تفتخر فيهم اصلاً سوريا .

وقد نظمت هذه الابيات لحضرة محمد افندي بيهم صاحب البيت البديع المقابل الفنار في رأس بيروت وهو أظرف محل في بيروت :

لكم بيت تحجّ لـــه القلوب ‏ وقلب لا تحجّ لـــه الـــذنوب
فلا للشمس عنـــه من غيـــاب ‏ وليس لجودكم فيـــه غروب
غـــدا رأساً ببيروت مكـــانـــا ‏ وانـــك رأس بـــيروت الأديـــب
غـــدوتم بيهم من كـــل حـــال ‏ فنعـــم الأصـــل منكـــم والحليب
فليس لفضلكم ابـــداً حـــدود ‏ وان مـــديحنـــا فيكم يطيب

وعندما تزوج المرحوم يوسف افندي المطران ابن المرحوم حبيب باشا المطران من افراد سوريا واخو ندره بك والياس بك المشهورين بعلو الهمة بالسيدة فاني الفرنساوية حررت له الابيات الآتية :

لمثـــلك واجـــب يـــوم اقـــتران ‏ مـــديح مـــا تعوده لساني
فـــلا تفكـــر بهـــذا المـــدح اني ‏ تغيّر خـــاطري وخلقت ثـــاني
وعـــودت اللسان على مـــديح ‏ وقـــد مشيتـــه حسب الاوان
فما والله مـــدحك من لساني ‏ ولكن كـــل مـــدحك من جنـــاني
عجـــايب فعلكم قـــد حيرتني ‏ وقـــد جـــاءت بـــايـــات الزمـــانِ
وقـــد نلتم مقـــامـــاً ثم جـــاهـــاً ‏ لـــه في ارضنـــا اعلى مكـــانِ
كسبت من المغـــارب قلب فـــاني ‏ وذكرا في المشارق غير فـــاني

وقد توالت عليه المصايب كسرعة تقدمه فبئس الزمن وقد توفت فاني بعد زواجها بعشرين يوماً وهو بعدها بشهرين حزناً عليها .

(قوة الجمال)

مـــــا عليكم حـــاكم غير الجمال	وفـــــداه كـــــل جـــاهٍ وكمال
لم تقـــــــاوم نفس حر نظرة	من عيون نـــــــاعسات ودلال
فهو عبـــد عنـــدمـــا ينظرهـــا	ويهـــان الجـــاه والمـــال الحـــلال
كم شجـــاع بـــات عبـــداً طـــائعـــاً	وقوى عنـــد مراهـــا خيـــال
كم عنيـــد بـــات سهلاً لينـــاً	كم بخيـــل قـــد غـــدا سهـــل المنـــال
كم جهول بـــات فيهـــا عـــاقلاً	كم ثقيـــل خف وزنـــا لا محال
كم من الانـــــذال اضحت اسداً	عنـــدمـــا قـــد وعـــدتها بـــالوصال
يحـــرم الانســـان عقـــلاً حينمـــا	يجعـــل الـــدين محطـــا للجـــدال
وكـــذا فـــالـــدين يفني مـــذ يرى	درهماً في الجيب قـــد صال وجـــال
وكـــذا الـــدرهم يمضي مـــذ يرى	صاحب الـــدرهم ربـــات النصال
لجمال كـــــل شيء خـــــاضع	مـــــا عليكم حـــاكم غير الجمال

(فارس بك شقير)

قائمقام الكورة سابقاً كان لفارس بك اخ شاعر مجيد كاتب مفلق اسمه شاكر توفي بمصر وكان صديقاً للمرحوم اخي خليل الذي كان شاعراً ايضاً وتوفي قبل شاكر فاتى فارس بك لزيارتي وتعزيتي بفقده ورثاه بقصيدة بليغة فلما توفي اخوه شاكر حررت له هذه الابيات :

اتـــذكر مـــا قـــد قلت يومـــاً لشاكر	فهـــا شاكر بيـــديـــه في فقـــد شاكر
كلانـــا نعزي بعضنـــا والـــذي مضى	ففي راحـــة من كـــل امر مخاطرِ
تيقن بـــأن الموت اشقى على الـــذي	يعزي فما والله هـــذا بخـــاطري
فـــأي فواد لا يـــذوب توجعـــاً	بمرأى شقيقٍ للمقـــابر زاير
تنـــادي فلا يسمـــع وتبكي فلا يرى	وعما قليـــل لا يرى في المقـــابر
وقـــد كنت قبلاً ساعـــة صاغيـــاً لـــه	ويـــديك بـــالافكـــار لست بفـــاكر
فـــأين القوى والعقـــل والصدق والـــذكـــا	وأين النهى والعلم او نظم شاعرِ

وقد توفي فارس بك فجأة في ٢٨ ك ٢ سنة ١٩٠٨ وقد رثاه بديع ابن اخي المرحوم خليل وله من العمر ١٦ سنة لان فارس بك رثى اباه ومن الرثاء هذا :

فيـــا نفس خير الراحلين لك البقـــا	بحضن (خليـــل) لا يفـــاجئك الضد
ومنهـــا تـــأخرت عن تـــأبينـــه وتقـــدمت	رثـــاني مراثٍ ليس يحصرهـــا عـــدّ

وذاك لان الحزن قيـــد منطقي لفقـــدي فرداً لا يضارعـــه فرد
فـــأني ابن ذيـــاك « الخليـــل » ولم يمت بقلبـي حبٌ شاده الاب والجد

وقد بكيته كخليل وما أمكنني أقول في رثاه غير هذا البيت :

ارثي لحالي اذا مـــا كنت ارثيكـــا فـــالـــدهر لم يبق لي دمعـــاً لابكيكـــا

« كميل اده »

هو أكبر اولاد ميشيل افندي اده مدير سياسة ولاية بيروت وهو من الرجال المفردين في عصرهم رجل الذكاء والسياسة والامانة نحو دولته توفي سنة ١٩٠٧ وقد خلفه ولده كميل في وظيفته وصفاته وقد نال رتبة فنظمت له هذه الابيات :

قبـــل سن الكمـــال نلت الكمـــالا بـــذكـــاء ورتبـــة يـــا كميـــلُ
وبجاه لوالـــد نلت جـــاهـــاً من مليك ونعمـــة لا تزولُ
ادِ شكراً ودم لنيـــل المعـــالي ودع الحـــاسدون مهمـــا يقـــولـــوا

« تخميس »

بئس الزمـــان وبئس المال مـــا فعلا جميلـــة الوجـــه اضحى بعلهـــا جُعلا
وطـــاب بـــالكـــأس شيطـــان ومـــا انجلا ليت الملاح وليت الراح قـــد جعلا
في جهة الليث او في قبة الفلك
لو شام ذلك حرمـــات بـــالكـــد وليس عن غيرة منـــه وعن حسد
لكن لصون جمال من يـــد الوغـــد كي لا يقبـــل ذا حسن سوى امـــدِ
ولا يطوف بكاسات سوى ملك

زرت أحدى البيوت الاسرائيلية نهار السبت وكانت سهواً سيكارة بيدي فتقدمت اسلم بالايدي على السيدة فرفضت فعرفت ذلك وقلت :

من آل موسى فتـــاة قـــد فتنت بها فزرتها يوم سبت بعـــد افطـــارِ
لما رأت في يـــدي سيكـــارة نفرت ولم تشأ مسهـــا خوفـــاً من النـــارِ
اجبتهـــا عجبـــاً تخشين من قبس والنـــار في الخـــد كم حيرت افكـــاري

ان كنت ابنــة موسى فــاسمحي كرمــاً اطفـــاء نـــار بتقبيـــلٍ وامطـــارِ
قــالت لنــا نــار موسى ليس يلمسهــا لكنَّ يعبـــدهـــا من يعبـــد البـــاري

استأجرت الطابق السفلي لبيت جميل كان لصاحبه ولزوجته عادة يغمضا اعينها عند التكلم معك وكان الحق بالتغميض للمخاطب .

قيل ان احد الاغنياء بني منزلاً جميلاً جداً واتقن فرشه من أحسن الرياش فحضر لزيارته صديق وبعد ما تفرج عن المترل وتعجب من فخامته واتقان فرشه ودار كل غرفه بصق في وجه صاحب الدار وقال له اعذرني لأنني لم اجد محلاً اوسخ من هذا لابصق فيه وكان صاحب البيت قبيح الوجه جداً وكان يسكن الطابق العلوي اسكندر افندي الجاويش وكان عنده ديك يقلقني بصياحه فحررت له :

الى اسكندر الجاويش جئت اشتكي الديكا يطلّـــع ديني في الصبـــاح بكي كيكـــا
فيحرمني نوم الصبـــــاح صيـــاحـــــه ويجعـــل بعـــد الظهر في المضم تليكـــا
وفيا انـــــا في عز نومي مسطحـــــاً وأحلم احلامـــاً تلـــذ لـــداعيكـــا
فـــاسمع صوتـــاً منـــه تهتز اضلعي ويحدث في اعضاء جسمي تشبيكـــــا
فـــأرفـــع رأسي بغتـــة عن مخدتي وافرك عيني في يميني تفريكـــــــا
لأعلم مـــا هـــذا وايـــة ضربـــة فـــاخرج من تحتي اهرول ملبوكـــا
ارى حضرة الـــــديك المصون مرنماً يوقـــع الحانـــاً على الرصد والسيكـــا
أكلمـــه لطفـــاً فيغمض جفنـــه كـــأن مودة التغميض في الحي انتيكـــا [١]
فـــأوسعـــه سبـــاً فيرجـــع دائراً لنـــا ظهره اذ ذاك اسحب لستيكـــا
لاضربـــه فيـــه ولكن لم أصل الى ضربـــه بـــالصبر احمـــل تـــذريكـــا
فهـــا أنني من عهـــد شهرين صابر على جوره لم ابـــد امراً وتحريكـــا
ولا عجب ان فـــارق الصبر مهجتي وان اشتكي ديكـــاً اليك وتـــدبيكـــا [٢]
اذا كـــان قلبي بطرس وهو صخرة لـــدين أضاع الـــدين مـــذ سمع الـــديكـــا
فما حـــال عبـــد واهن الـــدين والقوي وينظر في كـــلِ الحقـــائق تشكيكـــا
ولا شك هـــذا الـــديك مؤذٍ وذبحه حلال فـــاعط الامر بـــالـــذبح من فيكـــا
لان جنـــاب الست فيـــه شفيعـــة واني ارجوهـــا كـــذلك ارجوكـــا
برفـــع الأذى عني بمنـــع صيـــاحـــه بـــذبح ببعـــدٍ كـــل مـــا كـــان يرضيكـــا

(١) اشارت الى صاحب الدار وامرأته اللذان يغمضا اعينهما .
(٢) لأنه قاطن الطابق العلوي ودائماً نسمع ديكه .

ولما وصلت اليه هذه القصيدة امر بذبح الديك ونظمت لديكه هذا الرثاء :

الى اسكندر الجاويش جئت اندب الديكا ... واشكر فضلاً ثم فيـــه اعزيكـــا

وأخبره عما جرى من فراقـــــه ... على قلب زوجـــات عساه يواسيكـــا

سمعت نواحـــاً في غروب عشيـــة ... بفرط التبـــاع احزن اليوم داعيكـــا

فجئت لنحو الصوت أكشف امره ... لاعلم اسبـــاب البكـــا في نواحيكـــا

وجـــدت دجـــاجـــات بنوح وكربـــة ... وينقرن في أرض كنقر اعـــاديكـــا

ينحن على ديك عريس مزين ... بـــابـــدع ريش من سلالـــة افريكـــا

فواحـــدة في الأرض خلت مصابـــة ... بنوبـــة هستريـــا تمرمـــغ ارضيكـــا

واخرى تمد العنق ثم تضمـــــهُ ... كمنظر سكران بـــاقـــة مستيكـــا (عرق)

ولما نظرن الوجـــه مني عشيـــة ... لقـــد قلن لي انت المسبب يخزيكـــا

ذبحت لنـــا زوجـــاً فصرنـــا اراملاً ... وسل ارملاً عن حـــالنـــا اليوم ينبيكـــا

اذا كنت شيخـــاً هـــل نسيت شبيبـــة ... وكم صحت مثل الديك كيكاوكي كيكا

وأقلقت جيرانـــاً وغـــافلت حـــارساً ... وايقظت نعسانـــاً لـــه اسوة فيكـــا

ومن أعظم الاكـــدار للشاب ان يرى ... مراقبـــة الختيـــار في لعب بـــازيكـــا

فقلت لقوم الـــديك هـــذا نصيبكم ... خلقتم لـــذبح من يـــدي من يلاقيكـــا

فـــاعـــداكم مـــع صحبهم مثـــل بعضهك ... فبعضهم يقليك والبعض يشويكـــا

فلا تفرقوا بين ابن آوى وسيـــد ... ومـــا بين مطران وقس وبطريكـــا

نراهم جميعـــاً في سبـــاق لأكلكم ... وليس حرام عنـــدهم مـــا يقليكـــا

اذا اختلفوا مـــع بعضهم او تحاربوا ... فما حربهم الا لأكـــل معـــاريكـــا

تعزوا بنيـــل الـــديك اعظم تربـــة ... كمعـــدة جـــاويش وبـــاشا مريكـــا [1]

فقلن نعم هـــذه حقيقـــة حـــالنـــا ... ولكننـــا نهوى القعود بنـــاديكـــا

لان عـــذاب الموت في فكركم بـــه ... وليس عـــذاب ان تراه يضاحيكـــا

ومن نعم الرحمن للخلق جهلهم ... بساعـــة موت ان اتى كيف يـــأتيكـــا

فلا نلتجي في أي حـــال لثعلب ... لترزقنـــا موتـــاً سريعـــاً وتلبيكـــا

فعنـــدكم لا نـــدري ساعـــة موتنـــا ... فتلهوننـــا عنـــه كما الارض تلهوكـــا

نحب لـــذيـــذ العيش مـــع من يسوسنـــا ... ولو كـــان كـــالاعـــداء قتلاً وتهتيكـــا

فـــان غرنـــا فـــالعيش يغريك مثلنـــا ... ومـــع كـــل هـــذا بهجـــة الكون تغريكـــا

تغركم الـــدنيـــا كما قـــد غررتم ... ديوكـــاً وهـــذا الحكم من عـــدل بـــاريكـــا

(١) اعني اسكندر الجاويش وابن عمه ابراهيم الباشا .

وفي السنة التالية ١٩٠٨ جمع الافندي الجاويش كل دجاج البلاد وربى قرقة واتى بديك حبشي ونسي القصيدة وفضّل الديك علينا فسكرنا الشباك وقطعنا الزيارات وتوفي صاحب البيت وبعد توفيه اجرت زوجته البيت التي كانت فيه مدرسة للبنات فسكرنا الشباك الثاني وصرنا بين ديوك وفراخ .

الخوري طوبيا داويت ولده وعند الحساب ذهب ولم يرجع فحرّرت له ما يأتي :
حضرة الأب وبعد الدفع المحترم

غب طلب الدراهم قبل دعاكم ومن ذلك تعرفون الباقي لا تجعلوني غير شاكر الخوري ونظمت له هذين البيتين :

يقولون طوبيـــــا القــــــديم لبره	يبيت بلا أكـــل ليــــدفن انسانـــا
فطوبيــا هــذا العصر بــالعكس فــاعــل	ينبش امواتــاً ويــأكــل اكفـــانــا

وبعد هذه الكتابة بيومين حضر ودفع ما عليه لذلك ادعوه الان محترماً .

دولتلو نعوم باشا متصرف لبنان الخامس

في سنة ١٨٩٢ : ١٩٠٢

أول ما أهتم دولته في تدبير المأمورين وحلّ مجلس الادارة ثم دايرة الحقوق وعزل وولى وهؤلاء هم المأمورون :

المحاسبه جي	هاشم افندي
دائرة الجزا	نسيب بك جنبلاط من سنة ١٨٩٢ : ١٨٩٣ سعيد بك تلحوق من سنة ١٨٩٣ : ١٩٠٢ .
وكيل المدعي العمومي	نعمان بك حبيش ١٨٩٢ : ١٨٩٣ الامير مالك ١٨٩٣ : ١٧٩٦ نعمان بك حبيش ١٨٩٦ : ١٩٠١ نجيب افندي البستاني ١٩٠١ : ١٩٠٥ وهذه الوظيفة اوجدها نعوم باشا
رئيس دائرة الحقوق	سليم بك عمون ١٨٩٥ : ١٧٩٦ الامير نجيب شهاب ١٨٩٦ : ١٩٠١ نعمان بك حبيش ١٩٠١ : ١٩٠٣ .
مدير دير القمر	الشيخ أمين الخازن ١٨٩٣ : ١٨٩٤ الامير خليل سعد شهاب ١٨٩٤ : ١٨٩٩ الشيخ يوسف عواد ١٨٩٩ : ١٩٠٠ الشيخ كنعان الضاهر ١٩٠٠ : ١٩٠١ الامير فائق شهاب ١٩٠١ : ١٩٠٢ .

وكلاء مجلس الادارة	الامير قبلان ابي اللمع ١٨٩٩ : ١٩٠١
مدير البوليتيك	اسكندر بك التويني وهذا كان المعتمد
رئيس القلم الأجنبي	دياب افندي
الترجمان	الامير مالك
رئيس القلم التركي	بهجت بك
رئيس القلم العربي	سليم بك عمون ١٨٩٤ : ١٧٩٤ خليل بك الخوري .
قلم الأوراق	اسكندر افندي شميل
قائمقام الشوف	الشيخ سعيد حمدان ١٨٩٢ : ١٨٩٢ الامير مصطفى ١٨٩٢ : ١٩٠٢ الامير شكيب ارسلان ١٩٠٢ : ١٩٠٢ .
قائمقام جزين	نعمان بك حبيش ١٨٩٣ : ١٨٩٦ سليم بك عمون ١٨٩٦ : ١٨٩٩ الامير حارس شهاب ١٨٩٩ : ١٩٠٢ .
قائمقام زحلة	الياس بك الباشا ١٨٩٢ : ١٨٩٥ حبيب لطف الله ١٨٩٥ : ١٨٩٧ الياس الباشا ١٨٩٧ : ١٩٠٩ سليمان الجاهل ١٩٠٠ : ١٩٠٣ .
قائمقام المتن	الامير قبلان ١٨٩٣ : ١٨٩٩ الشيخ رشيد الخازن ١٨٩٩ : ١٩٠٢ .
قائمقام كسروان	الامير نجيب شهاب ١٨٩٣ : ١٨٩٤ الشيخ رشيد الخازن ١٨٩٤ : ١٨٩٨ اسعد بك كرم ١٨٩٨ : ١٩٠١ سليم بك عمون ١٩٩١ : ١٩٠٢ .
قائمقام البترون	علوان بك حبيش ١٨٩٢ : ١٨٩٤ الامير نجيب شهاب ١٨٩٤ : ١٨٩٦ اسعد بك كرم ١٨٩٦ : ١٨٩٨ الشيخ رشيد الخازن ١٨٩٨ : ١٨٩٩ سليم بك عمون ١٨٩٩ : ١٩٠١ اسعد بك كرم ١٩٠١ : ١٩٠٢ .
قائمقامية الكورة	حنا الخوري ١٨٩٦ : ١٨٩٩ اسعد طالب ١٨٩٩ : ١٩٠١ . أمين الجريديني ١٩٠١ : ١٩٠٢

لا يظهر جميل لحي في بلادنا الا بعد موته وهذه البلاد هي دون شك بلاد المسيح لأننا لو نظرنا ما عمله المسيح من اقامة الميت يوم السبت وما عملوا له من الاستقبال نهار الشعانين وفي الاسبوع التالي صلب حياً لا نتعجب مما نكافيء عليه منهم .

في بلادنا عادة انهم يقيمون احد شعانين لكل قادم حديثاً اليها ويصلبونه يوم ذهابه فالعاقل لا يغره الاستقبال الحسن . قال جنرال لنابوليون بونابرت بعد انتصاره العظيم في موقعة اوسترليتز واستقبال الشعب له . انظر يا سيدي لهذا الاحتفال الذي لا نظير له أجابه بونابرت لو كنت ذاهباً الى الشنق لالتأم حولي هكذا .

المرحوم اخي خليل

(ولد في ١٥ تموز سنة ١٨٥٠ توفي في ٢٥ تموز سنة ١٨٩٤)

تعلم في الابتداء مثلنا في القرية وهو أول تلميذ دخل المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني في بيروت وخرج منها بعد سنة ونصف لأن صحته منعته عن اتمام دروسه وصار يمارس العربية بنفسه وكان أول كاتب وشاعر فيها ثم استخدم في الحكومة مدة فرنكو باشا في قلم المحاسبة وقد أصبح مدة رستم باشا كاتباً في مجلس الادارة عندما كان رئيسه عمون بك عمون ثم انتقل باشكاتب دايرة الجزاء ثم خرج منها وحضر معي الى بيروت وصار عضواً في دايرة جزاء بيروت مدة رياسة نعوم افندي قيقانو وعندما حضر واصا باشا تعين مستنطق مركز جبل لبنان ثم الغيت هذه الوظيفة وبعده صار عضواً في محكمة الشوف عن الموارنة ثم باشكاتب في القلم العربي في المركز ثم عضو ادارة جبل لبنان عن اقليم جزين مدة نعوم باشا الذي حل مجلس الادارة يومئذ وكان عضو فيه عن جزين ابن خالي سليم بك ناصيف وقد توفي وهو في هذه الوظيفة في دير القمر ونقلناه ليلاً الى بكاسين ودفن في المدفن الذي عملته لولدي يوسف الذي توفي في بيروت في ١٦ نيسان سنة ١٨٩٣ ثم نقلته الى بكاسين وعملت المدفن المشهور فيها الآن باسم والدي الذي نقلت رفاته اليه .

وقد توفي المرحوم خليل عن ابنة اسمها عفيفه ولدت سنة ١٨٩٠ وعن ذكر اسمه بديع ولد سنة ١٨٩١ وولد آخر توفي بعده اصغر من بديع بحيث ترك هذه العائلة في هكذا عمر وزوجته هي عادليده ابنة المرحوم عمه يوسف بك مبارك يا ليته لم يكن اخي حتى اصدق بما اقوله عنه من الصفات الحميدة التي قلما تجتمع في شخص واحد فهو محتاج الى درهم ويصرفه على ضيفه كأنه صاحب ملايين ويرفض الوفا اذا تصور انها تأتيه بدون شرف وأوصافه مشهورة في لبنان وكان أول شاعر وله ديوان سيطبعه له ولده بديع الذي اصبح شاعراً ابن ستة عشر سنة .

لم يقدر القلم يشرح ما ألم بي من الغم والاحزان عن مصيبتين اصباتاني سنة بعد اخرى اولها توفي ولدي يوسف الذي كان بسن اثني عشر سنة يتعلم في المدرسة الكلية اليسوعية في بيروت وكنت اعبده نظراً لاطباعه اللطيفة وذكاءه وما مرض غير يومين من ١٤ نيسان الى ١٦ والثانية في المرحوم اخي الذي كان عضداً لي ولكل لبنان افتخر فيه بشرف النفس والعلم وجميع الصفات الحميدة بحيث غمي على ولدي واخي ووالدي وجدي لم يمكني في رثاء واحد منهم وكلما شئت ان انظم شيئاً يغلب عليَّ البكاء ويضيع فكري ولحد الان ايضاً لم يمكنني التفكر بهم بدون بكاء وكلما امكنني اقوله هو هذا البيت :

يـا ليتني ذقت مـا في الـدهر من نكـد ولا بكيت اخي او صحت يـا ولـدي

وعند كتابتي هذا البيت الان بكيت وقد رثته الشعراء، وفي مقدمتهم اخوه امين بقصيدة طويلة محزنة جداً ثمانين بيتاً اولها :

عـــدمتك مـــا هـــذا التجلـد يـا قلبي ... يموت ولم تخرج لك الويـــل من صدري
ولم تتبــــــع فيـــــــه التصبر والنهى ... ولـــذة عيش قــد ثوت معـــه في القبر
اتطمـــع ان تحيـــا وقـد مـات من لـه ... تعيش وترجو ان تمتـــــع بــــالعمر

والذي عزاني هي مجابرة نعوم باشا الذي حزن عليه مثلي لأنهُ فقد خادماً اميناً وقد أرسل مع الجنازة خيالين الى بكاسين وارسل تلغراف للقائمقام نعمان بك حبيش ينوب عنه بالحفلة والذي لم أزل ممنوناً له المرحوم نجيب بك جنبلاط الذي حضر من المختارة سفر ثلاث ساعات عن بكاسين وحضر الدفن من دون دعوى وعتب لعدم اخباره لأنهُ كان لاقانا ليلاً باهل الشوف ونشكر اهل الكحلونية ومزرعة الشوف اللذين لاقونا ليلاً وحملوا بالجثة في خراجهم .

وقد نظمت اولا هذه الابيات على صورة نعوم باشا الشمسية التي اهداني اياها ولم تزل عندي :

اذا كـــــان رسم الجسم للشمس معجزاً ... ففي رسم افضال فما يفعـــــل العقـــــل
وان كـــــان شعري راسماً بعض فضلكم ... فما ذاك من رسم ولكنـــــه ظـــــلُ
فسبـــــع ملوك سلمتك زمـــــامنـــــا ... لفضل ثمان قـــد سمت فيك من قبـــلُ
عفـــــافك والتقوى وعفوك والقوى ... ولطفك والعليـــــا وحلمك والعـــــدلُ

ولما زار امبراطور المانيا هذه الديار واجرى له نعوم باشا ذلك الاستقبال الشائق في عاليه اهداه نيشان النسر الأحمر من الرتبة الاولى فنظمت لدولته هذه الابيات وكان صدره مزداناً بالنياشين التي كان يزيد عددها عن الخمسة والعشرين .

سابقت في أوج المعـــــالي مـــع النسر ... فقصّر عنكم فــــــــاستراح على الصدرِ
ماء غـــدا ذا الصدر من حيث قـد حوى ... هلالاً ونسرا مــــــع بهى الانجم الزهرِ
مـــا انـــا ممن يرصد الصدر ظـــاهراً ... ولكن رصدي مــــا حواه من الكبرِ
شعـــــة اكس قـــــد حوتها نواظري ... لكشف الـــذي عنـــا تحجب بـــالسرِ
ا لم أجـــــد خلف الوسام فضيلـــــة ... فلا نـــــاظم شعري ولا مُظهرٌ شكري
ـــأكليـــل شوكٍ مـــع فضيلـة حـامـلٍ ... ولا تـــاج در بـــالخيـــانـــة والغـــدر
ا كـــــان ظهر الصدر جمـــع جواهرٍ ... فبـــاطنـــه جمـــع الشهـــامـــة والطهر

لا أقول فيه ما يأتي حيث انه لم يزل حياً وفي مركز عالٍ فما هذه هي الطريقة التي استعملتها للان بل طريقتي طريقة الصدق لأن لا يثبت غيره في التاريخ فأقول ان نعوم باشا رجل حليم طبعاً بعيد عن الضرر وهو أول متصرف يجادلك بالبرهان المعقول تدخل عنده تكدراً وترجع منشرحاً بدون ان تنال منه غرضك فقط تكون مقتنعاً من برهان عمله لا يكل من التعب ولا يلهيه شيء عن شغله سهران على مصلحته يعزز المأمور ولا يقبل عليه تشكي الا بالبرهان ولكن يوبخ ويهدد سراً ويعززه ظاهراً ولا يمكن ان تذكر له عيوب مأمور الا بحيلة وقد صدف معي انني كنت اعرف احد المأمورين الذي اشبعني كذباً في مسألة وما كانت تنتهي اخيراً انوجدت بحضرة دولته وسألني عن هذا المأمور الذي كان يعتقد فيه الكذب فقلت لدولته لحد الان ما كاذ يمكنني ادراك التثليث والتوحيد عند النصارى الا اليوم فقال كيف ذلك قلت عرفته من المأمور الفلاني لانهُ يقول شيئاً ويعمل ضده ويكتب شيئاً ثالثاً وكله كذب والثلاثة واحد فضحك .

وكنت عنده مرة اخرى وفتحنا تاريخ مدينة جبيل فقلت ان هذه المدينة كانت من أعظم المدن وابتدت تنزل نزولاً فاحشاً حتى اصبح فلان مديرها فضحك وعرف أعمال المدير .

حاصله ان من اعماله فتح طريق العربيات من بيروت الى صيدا الى جزين وهو الذي اوصلها الى البترون وعمل الجسر الحديدي لنهر ابراهيم وجدد جسر نهر الكلب الذي خرب كما قلت عنه وفي زمانه امتدت السكة الحديدية من بيروت الى المعاملتين والعربيات من بتدين الى صوفر ولم يحدث أدنى حادث في زمانه وكان له اخصام تعرضوا ضد تسميته للخمسة سنين الاخرى وتجاهروا بذلك وعرفوا وبعد تثبيته قال له احد اصحابه ماذا تفعل بالمضادين فقال ولا شيء لأن الباري تعالى نصرني عليهم وبقيت ضد ارادتهم كفاهم قصاصاً انظر العدل والانسانية وعند خروجه من لبنان تأسف الجميع عليه لان لبنان كان بكل راحة فالتاريخ يحترم ويكرم هذا المتصرف الذي كان كأبٍ للبنان .

وفي مدته انفتحت جزين الى كل العالم لان معبورها وهو صخر ابدي كان مانعاً دخول العربيات اليها فبهمة قائمقامها سليم بك عمون حفر هذا الصخر لعمق عشرة اذرع بطولماية ووسع ستة ومشت العربيات به الى صيدا وهذا عمل مشكور من سليم بك عمون الذي ما كان أمكن عمله من غيره لانهُ افتكر يخلد اسمه بذلك وهكذا حصل .

السيدة مريم مدام نعوم باشا

هذه السيدة بل الاميرة هي عنصر الكمال والآداب واللطف والذكاء والعلم والمودة والشفقة والصداقة وهي ابنة المرحوم فرنكو باشا متصرف لبنان الاسبق وابنة خال بعلها نعوم باشا فهي ابنة امير وزوجة امير وستكون ان شاء الله والدة امير لأن ملامح الامارة ظاهرة على محيا ذلك الشبل السعيد الأديب اللطيف الودود الوارث صفات ابوية .

حضرت احد البالات في بيت الخواجه جورج موسى سرسق وكان من الشروط ان يتنكر كل واحد بزي غريب فارتدت الاميرة لبس الهة الفنون عند الاقدمين من اليونان وارتسمت بهذا الزي فقلت بذلك على الصورة :

لبست ثوب الـــــــه قـــد كـــان في الروم يكرم
فنحن ابنـــــــاء قوم لنـــــا عبـــادة مريم

ولما حضر جلالة غليوم الثاني امبراطور المانيا كما قلت أخذ يدها وقبلها واهدى لها سواراً من ذهب عليه صورته الكريمة فضجت البلاد لهذا الخبر وكادوا لا يصدقونه حسب عوائد بلادنا وسألتها عنه فصادقت على صحته وارتني السوار الذهبي والرسم الامبراطوري فقلت لها لا بد لهذه الهدية من شعر وارتجلت قائلاً :

قبّـــل العـــاهـــل ايـــدي مريم ظنهـــا ملكـــاً جـــديـــداً مكتسب
فغـــدا في رسمه يحرسهـــا وأقـــام الحد صوراً من ذهب

توفي مدام نعوم باشا

في ١٨ ت ٢ سنة ١٩٠٧ حضر تلغراف من الاستانة لدولة يوسف فرنكو باشا متصرف لبنان الحالي بتوفي شقيقته السيدة ماري مدام نعوم باشا فكان لهذا الخبر فاجعة عظيمة في كل لبنان فتأسف الجميع عليها وقد عزيت دولة زوجها وولده وحيث كنت متأسفاً جداً طلبت صورتها وكتبت ما يأتي :

تخاصمت السما والارض حتى تكوني لهذه او تلك قسما
ففضلت المات على حيـــــاة لكي لا تجعلي في الكون خصما
فـــــاعطيت السما نفساً تسامت وأودعت الثرى والأرض جسما
وعنـــد ملايك خلـــدت نفساً كما خلـــدت في لبنـــان اسما

ومن دار السعـــــادة غبت عنـــا لـــــدار سعـــــادةٍ ابقى واسمى
ولما شخصك السامي توارى أقمت لرسمه في الارض رسما

وعندما رأت الذات العلية السلطانية حزن هذا الخادم الامين نعوم باشا وولده انعم على ولده عزتلو سعيد بك نعوم بالرتبة الثانية المتمايزة وامر بتوظيفه في الخارجية عند والده انظر هذه العواطف الشريفة عند سلطاننا المعظم فحررت الى سعيد بك تحريراً مع الاشعار :

نوالكم رتبـــة الممتـــاز بشرنـــا ان قـــد اخـــذتم لكم في العرش اعوانـــا
ذا تلغراف اتى في ان والـــــــدة نـــالت من الله رضوانـــاً وغفرانـــا
تشفعت فيكم في نيـــــل مرتبـــة لظنهـــا لحظـــة تنسيكـــا احزانـــا
لما الالـــه استجـــاب اليوم مـــا طلبت اوحى خليفتـــه اعطـــاك احسانـــا
فلم تزل في السما كـــالارض طـــاليـــة مجداً لكم ومن الرحمان رضوانـــــــا
اعطتكم نسبـــاً نـــاهيك من نسبٍ ابـــاً وجـــداً وخـــالاً منهم كـــانـــا
حكـــام لبنـــان في انصافهم شهروا وكلهم زينوا بـــالعـــدل لبنـــانـــا
لكم ملاكـــان عنـــد الله والـــدة ووالـــد عنـــد مولاكم ومولانـــا
بـــالحق انت سعيـــد كي تـــدوم كـــذا فـــاسمع مقـــالـــة حرٍ قط مـــاخـــانـــا
لله كن شاكراً في كـــل طـــارقـــةٍ وارضِ خليفتـــــه سراً واعلانـــــا

صاحبة الجليس ومحلة الانيس

السيدة الكسندره كريمة المرحوم قسطنطين الخوري البيروتية الأصل فكما زين ملك السماوات وجهها بالجمال وعقلها بالكمال زينت ملوك الأرض صدرها بالوسامات واسمها باسمى المقامات واقتداءً لاوامر الله وللملوك الارض نظمت لها ما يأتي عندما جلالة ملك ايطاليا لقبها بلقب اميره :

لقب الاميرة لا يزيـــــــــد علاكِ لـــو كـــــان من اعلا الملوك اتـــاكِ
انت التي لفضايـــــل وشمائـــــل كنـــت الامـــيرة قبلمـــا سمـــاكِ
ان كـــان اعطـــاكِ المليك شعـــارهـــا فـــالله اسّ امـــارةٍ اعطـــاكِ
اس الامـــارة عزةٌ وشهـــامـــةٌ وعليها ربيت منـــذ صبـــاكِ
هـــل من مليك قـــادر بعطى الورى هـــذي الصفـــات النـــاشرات لواكِ
لولا الصفـــــات لما دعيت اميرة والفضل في اعطـــاءهـــا لنهـــاكِ
لما ملكت شعورنـــا وعقولنـــا وقلوبنـــا قـــد أصبحت مـــأواكِ

صرت الملكـــة لا الاميرة فـــاعلمي ان الامــــــارة حطــــــةٌ لعلاكِ
ولقـــد ملكت قلوبنـــا وعقولنـــا لا بـــالقـــدود ومـــا حواه لمالكِ
لكن لفضل وهو أعظم مـــــالكٍ وبـــه ملكت اليوم قلب عـــداكِ
ملـك العيـون مـوقت لكنمـــا ملك الفضيلـــــــة اثبتُ الاملاك
ولقـــد خلقت شريفـــة وجميلـــة وكما اشتهيت الله قــــــــد سواك
رجت بك الاسكنـدريـة مـذ غـدت تهتـز فخـراً فـي بهـى حـلاكِ
ارجعت مـا قـد كـان فيهـا ضايعـاً وجعلت من فيهـــــا اسير هواك
احييت مكتبـــةً لها لما غـــدت في الصدر كـل علومهـا تلقـاك
ارجعت نور منـــارةٍ لانيسهـــا وغـــدا انيس جليسهـــا مرآك
كـــانت تنير التـــاهين بـــابحرٍ واليوم قـــد تهنـــا ببحر زكـــاك
احييت بـــالاقـــدام ذكر اسكنـــدر لو كـــان حيًّـــا لاشتهى ملقـــاك
لا زلت في أفق الصحـــافـــة شمسهُ وجميـــع اهـــل العلم تبغي بقـــاك

(الشيخ رشيد الخازن قائمقام المتن) ١٨٩٩

هـــل للمودة والوفـــا في الارض شهمٌ كـــاينُ
هـل خـازن لفضائـل الـ اجــــداد حرٌ صاينُ
وبرشده وبعقلـــــه هـــل للسيـــاسة وازنُ
وانـــا بـذي الافكـار قـد نـــادى المبشر آمنوا
رجـــل المروة قـــد اتى واليـــوم ربـــك آذنُ
فـي المـتن ارخ شعـره فهـو الرشيـــد الخـــازن

مظفر باشا متصرف لبنان السادس

١٩٠٢ — ١٩٠٧

هو المتصرف السادس لجبل لبنان أصله امير بولوني خدم والده الدولة العلية ولم يرضى الخضوع لروسيا وأنتظم هو في عسكرية الدولة العلية وترقى فيها حتى حاز رتبة مشير .

(مأمورون مظفر باشا)

المحاسبه جي هاشم افندي
رئيس دائرة الجزا ملحم بك تلحوق ١٩٠٢ : ١٩٠٥ مصطفى بك العماد

وكيل المدعى العمومي	سليم افندي باز أول عالم ومؤلف بالقوانين
رئيس دائرة الحقوق	يوسف افندي الخوري ١٩٠٢ : ١٩٠٣ سليم افندي ثابت ١٩٠٣
مدير دير القمر	الامير فايز افندي شهاب ١٩٠٢ : ١٩٠٧ ملحم بك ناصيف ١٩٠٧
وكيل الادارة	حبيب باشا السعد ١٩٠٢ : ١٩٠٥ حبيب بك البيطار ١٩٠٥ : ١٩٠٥ الامير قبلان ابي اللمع ١٩٠٥
ترجمان أول	عبدالله بك الخوري ١٩٠٧
رئيس قليم الأجنبي	الشيخ يوسف حبيش ١٩٠٧
ترجمان	بطرس كرامة ١٩٠٢ : ١٩٠٣ جرجي بك زوين ١٩٠٣ : ١٩٠٧ الامير فائق شهاب ١٩٠٧
رئيس القلم التركي	ناصيف بك الريس ١٩٠٢
رئيس القلم العربي	خليل بك الخوري ١٨٩٤
رئيس قليم الاوراق	ابراهيم مسلم ١٩٠٢ : ١٩٠٦ نخله الخوري ١٩٠٦
قائمقام الشوف	نسيب بك جنبلاط ١٩٠٢ : ١٩٠٤ الامير سامي ارسلان ١٩٠٤ : ١٩٠٥ الامير توفيق ارسلان ١٩٠٥
قائمقام جزين	الامير فائق شهاب ١٩٠١ : ١٩٠٣ الشيخ كنعان الظاهر ١٩٠٣ : ١٩٠٤ الامير فائق شهاب ١٩٠٤ : ١٩٠٧ الامير فايز شهاب ١٩٠٧
قائمقام زحلة	ابراهيم بك ابو خاطر ١٩٠٣ : ١٩٠٦ سليمان الجاهل ١٩٠٦
قائمقام المتن	الامير قبلان ابي اللمع ١٩٠٢ : ١٩٠٣ الامير يوسف اسماعيل ١٩٠٣ : ١٩٠٦ الشيخ كنعان الظاهر ١٩٠٦
قائمقام كسروان	الامير يوسف اسماعيل ١٩٠٢ : ١٩٠٣ الشيخ رشيد الخازن ١٩٠٣ : ١٩٠٤ الشيخ كنعان الظاهر ١٩٠٤ : ١٩٠٥ الشيخ حبيب البيطار ١٩٠٥ : ١٩٠٦ الامير يوسف اسماعيل ١٩٠٦
قائمقام البترون	سليم بك عمون ١٩٠٢ : ١٩٠٣ الامير فائق شهاب ١٩٠٢ : ١٩٠٤ نعمان بك حبيش ١٩٠٤ : ١٩٠٤ الشيخ كنعان الظاهر ١٩٠٤ : ١٩٠٦ الشيخ حبيب البيطار ١٩٠٦ ولم يزل
قائمقامية الكورة	عبدالله الخوري ١٩٠٢ : ١٩٠٣ فارس شقير ١٩٠٦ : ١٩٠٥ اسعد طالب ١٩٠٥

وعند حضوره نظمت له هذه الابيات :

لما رأوا الشهم المظفر عـــابـــداً ۔ في قلبـه عبـد الحميـد الثـاني

ومشير حرب في البلاد لبـــأسه ۔ ولصدق ود يـــاور السلطـــان

لاح المجيـــدي من صداقـــة خـــدمـــة متـلألأ في صـــدره العثمـــاني
فلوده ولبـــأسه ولصدقــــه ظفر المظفر في لوا لبنــــــــانِ

وطلب دولته ابيات لتوضع على الباب الذي جدد بناءه في سراي بعبدا وهو باب مدخل السرامي التي انشأها واصا باشا وأكملها نعوم باشا وحيث ان باب مدخلها ضيق غير مناسب غيره دولة مظفر باشا فقلت بذلك حسب طلبه :

ادخـــل لهيكـــل حكم العـــدل واحتشم وأطلب لعبـــد الحميـــد السيـــد العلمِ
سلطـــانـنـــا دام في عز وفي مرحٍ وفي انتصار وفي رغـــــد وفي نعمِ
قـــد شاده عبـــده واصا وأكملـــه نعوم لكن لهذا البـــــاب لم يقمِ
جـــآء المظفر بـــاب العـــدل وسعـــه حتى غـــدا مركزاً للـــذئب والغنمِ

وكان دولته طلب ايضاً من جملة شعراء كما طلب مني وعندما كثرت الاشعار عمل لجنة لفحصها وكتابة الاحسن منها وكانت هذه اللجنة سياسية راعت جانب شعراءها المأمورين بحيث لم يكتب شعري فقلت في ذلك :

قـــد كـــان في فحص شعري كـــرٌ وجحشٌ وعـــيرْ
لـــو ان شعـــري شعـــيرٌ لاستطيبتـــــه الحميرُ
لكـــنْ شعـــري شعـــورٌ هــــل للحمير شعورُ

فانتشرت هذه الابيات أكثر من التي كتبة على البوابة .

وكان حضر مع دولته ابنتا اخته نديا وايزا وطلبتا مني شعراً لها فقلت بذلك :

كـــانَّ عيون نـــديـــا ذات يوم اصابـت قلـب مـركـــونـي بفتـــكٍ
تحرك قلبـــــــــه لحراك عين فنبّـــــه فكره من بـــــدون شك
لسير الجاذبيـــــــة دون وصل فـــانشأ التلغراف بـــــدون سلك

وقد قلت لمظفر باشا يوم الاستقبال في بيته :

رعى الله بيتـــــاً للمظفر بـــــاسما بـــدولتـــه اصل المكـــارم والمجدِ
فمن حولـــه الجنـــات ليست بعرفهـــا بـــاطيب من ذكر المظفر بـــالحمـــدِ
لـــه موعـــد الزوار في يوم جمعـــة وجـــدت بـــه جمـــع القلوب على ودِ
ولما رنت ايزا ونـــديـــا من الحمى عجبت لغزلان تعيش مـــع الاسد

لا شك ان مظفر باشا كان عادلاً وعديم الضرر لكنه مصاب بمرض في دماغه وهذا سبب عدم ركزه على امر وجميع تقلبات أوامره ناشئة عن هذا المرض فصار بسببه عدم اعتبار للاوامر فأخذت الاهالي الطمع به ولذلك كثرت القلاقل بين الشعب وأصبح كل فرد يتجاسر على اوامره وكان محاطاً بزوجته وولده فواد اللذان لم يراعيا صيته وكانا يغصبان دولته على كل عمل يريدانه ولضعف جسمه ما كان يمكنه المقاومة فيرضى او يقهر على ما يريدانه ومصيبة ولده الاول رشيد والحكم عليه بالاشغال الشاقة في اوربا اثرت فيه جداً فكان المسكين بين مصايبه الداخلية واشغاله الخارجية معرضاً لكل غلط وهكذا انتهت حياته في ٢٩ حزيران سنة ١٩٠٧ وأخذت جثته الى الاستانة وفي تشرين الثاني لهذه السنة توفت زوجته في المستشفى وكذلك توفى ولده رشيد في حبس ايطاليا وقد شفقت الدولة على ولده فؤاد وارسلته قنصلاً الى البرازيل وهو فيها وهكذا اضمحلت هذه العائلة بكل سرعة واما نديا وايزا لا يعرفا اين هما وماذا جرى لهما .

وكانت صداقة قوية بين احمد افندي جميل قاضي صيدا سنة ١٩٠٠ وبيني نظراً لاستقامته وصدقه وكنت مدة بعد مدة احرر له ويحرر لي وكنت عالجت عيونه وقد حررت له :

لم يجتمـــع قـــاض وخوري معـــاً	مـــا لم تكن جمعيـــة التفريق
نحن اجتمعنـــا والمحبـــة بيننـــا	من حيث قـــد جئنـــا بغير طريق
(غيره) فلا لقب القاضي ولا الخوري بيننا	لقـــد جمعـــا في الحب بين وبينكـــا
ولكن مني الشكر والحمـــد منكم	تجانسا في افعـــال حبي وحبكـــا

كنت في احد الايام الشتا لشغل في بعبدا مركز الحكومة فصادفت عضواً فأخذ يدي للسلام فقال هنياً لك اما يدك دافية فأجبته حيث انها مضبوبة ولكن اليد المبسوطة مثلك تكون دايماً باردة فضحكنا وقد عرف الجميع مزحي بحيث لم يعد أحد يزعل من قولي بل يضحك حتى المقال له :

وقد عملوا تقويم الى جريدة المشرق ابتدا سنة ١٩٠٢ فنظمت له الاشعار الآتية التي نشرت جملة امرار

بعـــد الف ثم	تسعمايـــة واثنين عـــام
عـــاد للمشرق نجم	نـــوره يمحـــي الظـــلام
فيـــه تقويم لعـــام	فيـــه تقويم الانـــام
صوتـــه العـــالي ينـــادي	دون ان يبـــدي كلام
في العـــلا لله مجـــدٌ	وعـــلى الأرض الســـلام

في أحد الايام بينما كنت ماراً من تلك الجهات في الصيف عرجت عليه لازوره فوجدت هناك الرهبان ولم الق الرئيس فسألتهم عنه وأخبروني بغيابه وسألوني عن الذي اطلبه منهُ فقلت لهم اعطوه هذه الورقة وسلمتها لهم ولم يتنازل أحد منهم لدعوتي للاستراحة فقلت من ذلك :

رهبـــــان صير قـــد عرفنـــا انهم ... لا يرتجى منهم جميـــــــــل للبشر
لم يشبهوا يـــــاسوع في تـــــاريخهم ... الا بميلاد لـــــــــــه بين البقر

خطبة لنسيب بك جنبلاط عندما تولى قائمقامية الشوف للمرة الثانية في ٨ ك سنة ١٩٠٢ في الشويفات

سيدي الحسيب النسيب

لا اهني الحسيب في ذا النصيب ... بـــــــل اهني النصيب في ذا النسيب
لا ينـــــــــادي لصاحب البيت اهلاً ... بـــل ينـــادي الى الـــدخيـــل الغريب

سيدي شكراً لمن احياني لهذا اليوم الثاني الذي اراك فيه قائماً بين اجواق من الامم هاتفين بدوام عزك وبقاك في منصب خلقت له وخلق لك .

اي شيء يحتاج الشوف وما حواه شخصك الكريم ايحتاج الى الكرم والعفة فأنت الكريكم العفيف او الحسب والنسب فأنت الحسيب النسيب ايحتاج الى رحمة وشفقة فأنت ملجأ الضعيف ان حبك لهذا المقام حب والدة تضي فؤادها لراحة بيتها وأولادها ولولا هذا لما تركت القصور الشاهقة التي تجري من تحتها الانهار لتسكن بلداً يباع فيه الماء كالنهار ولا كنت تركت املاكاً تخدمها المئات لتحفظ ملك الغير من التعديات هذه غايتك ولا غاية لك سواها .

واذا قيل ان قصدك نوال الشرف فأنت شرف الشوف او الكرامة فهي تابعتك اين كنت وكيف كنت .

لــــه الكرامـــة عنـــد النـــاس واحـــدة ... ان قـــام او نـــام او قـــد عـــام او غرقـــا

وان كان قصدك الغنى فهو يرجو غناك وليس له سواك فأصبحت أنت الشوف والشوف انت تعنيه ويعنيك .

مـــا سمعنـــا في الشوف تـــاريخ بيت غـــير بيـت لجنبـلاط رحيب
لا ولا حـــــــاكم خلاف عليٍّ وبشير قبـــــل السعيـــد التسيب

مولاي لوكنت في ديار غريبة لكنت أطلت الكلام ولكن حديثي ابسطه لقوم يعرفونك أكثر مني فقولي تحصيل حاصل والسلام وقد اقتصرت عن النظم في هذا اليوم لكثرة الناظمين :

فلـم تـترك لـي الشعراء معنى بمدحكم ولا ادنى عبـــــارة
اذا كررت مــا قــد قيــل فيكم كـــأني في ثيـــاب مستعـــارة

فوقفت وقفة الرفيق لا فرق بين الصدق والتمليق فمن بعد السماع والتدقيق حكمت :

مــا قــد سمعت من النظـام من قــدم واليوم في مــدحكم مــع كــل مــا نطقوا
فيـــه اختلاف بـــأوزان وقـــافيـــة لكنهم بـــاتفـــاق كلهم صدقوا
وصدق شاكرك

(عبد الجلال افندي) كان عبد الجلال من المتمسكين بحركات الشعر كالرقص والنقص أكثر من معانيه البديعة وكنت نظراً لضيق الوقت وماكنت اهتم بهذه الحركات لعلمي ان المعنى يظهر من مخيلتي بسهولة الفاظه وقوله الطبيعي وكنت افتكر ان مع المراجعة تتصلح تلك الهفوات ولكن معناها يذهب اذا ابطئت عن نظمها لذلك كانت اشعاري تنتشر قبل اصلاحها وكنت كلما قلت شعراً لأحد يداوله بسهولة ومثل شعري مثل ابنة جميلة جداً لكنها عريانة فكل من يراها يأسف على جمالها فيعيرها قطعة من ملابسه حتى تبدوا اخيراً مكتسبة اجمل الملابس فشعري يكون غالباً مصاباً باحدى الحركات فينظره الغير ويلبسه ثوباً اي كلمة او حرفاً الا عبد الجلال يبقي يعيبه فقلت :

ارى عبـــــــد الجلال يعيب شعري ويرمي كـــل اشعـــاري بعبـــارِ
فكيـف يعيب شعري ذو جلال ومـــا عبـــد الجلال سوى الحمارِ

فانتهى اعتراض عبد الجلال بهذين البيتين وكانت اشعاره كاشعار ذاك الامير الذي مرض ذات يوم فدعى طبيبه فقال له الطبيب يلزم لجنابك مسهل فسأله الاميركم مرة اخرج على هذا المسهل فأجابه الطبيب مرتين او ثلاث فقال له الامير اذا خرجت أكثر او اقل اقطع رأسك اترضى بذلك فأجابه الطبيب لا شك لا ارضى وهكذا عمل مع كل طبيب دعاه فاتصل الخبر الى أحد الدجالين المفلسين قال لا بد ان اخاطر بروحي وأذهب الى الامير فذهب فطلب منه الامير الشرط أجاب بقبوله اي يعطيه مسهلاً يخرج عليه اربع مرات فقال الدجال ان لي شرط ايضاً يلزم تقبله مني وهو ان منذ اخذك المسهل الى انتهاء لا

تتكلم ابداً فقبل الامير الشرط فلأجل عدم السبب للتكلم قفل الابواب وبقي ينظر من الشباك واذ بجمال محملة كانت تأتي تحت شباكه وتحط وتترل فهاج في فكره الشعر لانهُ كان يدعيه وعندما مضى النهار وجد انه لم يخرج على المسهل الا مرتين فقط فدعى الطبيب وقال له لم اخرج الا مرتين فقط لا بد من قطع رأسك فسأله الدجال احلف لي انك ما تكلمت ابداً أجابه ما تكلمت فقط نظمت بيتين من الشعر عندما رأيت الجمال فقال الدجال فما هي هذه الاشعار فقال الامير هي :

يـــــا جمال البـويعـــــات	الحـامـــلات الثقـــــلات
الرافعـــــــــــات روسهنَّ	هكـــــــذات هكـــــذات

فأجاب الدجال لقد تم الشرط تقول انك خرجت اثنتين من فوق وهاتين اثنتين من تحت فهذه هي الاربعة .

(أحول) كان احول لا يستقر على رأي دابه الفساد ويتداخل مع كل حزب فقلت فيه :

لا تـــــركـــــن لاصـــــولٍ	اذ لا يقـــــر عـــلى خـــمر
يعطي لحزب عينـــــــــــــــه	ويـــــــــــدير اخرى للأخر

(الى اوجيني مدام بستاني)

أصبحت وردة بستـــــاني يحافظهـــــا الـ	ـنجيب من كـــــل لص دان او جـــاني
والـورد للعين لا للثغر مرجعـــــــــــــه	فلا تخافي العـــــدا مـــــا دام بستـــــاني

(الى السيدة مريم زوجة المرحوم رزق الله خضرا)

لها صورةٌ تسبي القلوب بنظرةٍ	وهي مريم حـــــاكت بعفتهـــــا العـــــذرا
ولكـن تراني عنـــــد ملقى جمالهـــــا	ولـو كنت في الخمسين نفسي بها خضرا

(تاريخ رزق الله خضرا)

هذا هو رجل الجد أول من احيا صوفر ويلزم ان تسمى الخضرا باسمه وطول حياته يعمر ويشتغل توفى في جونيه ودفن في صربا وايجاباً لطلب امرأته السيدة مريم نصر قلت هذه الابيات :

قـــــد كـــــــان لله رزق في الارض قـــــد عــــاش حرا
وكــــــل ارض اتــــــاهـــــا اضحت بمســــــــــاه خضرا
مـــــذ بـــــات زوجـــــاً عفيفـــــاً لمريم نـــــــــــال نصرا
قـــــد عـــــاش سبعين عـــــامـــــاً لله لـــــم يعصـى امـــــرا
مـــــن غـــــير سبعـــين عمـــراً ارخـــت رزق الله خضـــــــرا

لو جمعت أحرف رزق الله خضرا وحذف منها سبعون لكان الباقي ١٩٠٤ وهي تاريخ وفاته .

(نظيره في الدامور)

قصدت الدامور وهي واقعة قرب السعديات على طريق صيدا لأجل النزهة وكان من جملة من معي السيدة نظيرة وكان النهار مغيماً وقبل الغروب بقليل بينما نحن في السعديات اشرقت الشمس وكان قسماً منها غاطساً بالبحر والاخر يستره الغيم فقالت لي نظيره انظر هذا المنظر البديع وتأمله فانه يستحق الشعر وكانت جالسة بجانبي لابسة ثوباً اسود فقلت :

ولما في ربـى الــــــــدامور قمنـــــــا بشـوق نـــرقب الشمس المنـــيرة
واذ بزغت لنـــــــا مـــــــا بين بحر وغيم خلتهـــــــــــــا تلك الاميرة
بثوب اسود تصطـــــــــاد فيــــــه قلوبـــــــاً في محبتهـــــــا اسيرة
فلم اعلم يقينـــــــــــاً اي شمس من الشمسين للاخرى نظيره (١٩٠٤)

(نظيره) هي شقيقة نعمان بك الخوري قنصل فرنسا في مداغور ونجيب بك في صفاقص وأخت عادليدا ارملة المرحوم اخي وابنة عمي المرحوم يوسف بك مبارك قاضي دير القمر سابقاً . فيوماً كنا نتنزه سوية عند الصباح وبرجوعنا الى بيروت من الحدث مررنا بحقل مملوء بالشقائق المسمى شقائق النعمان فقلت :

ولما بـــــدت صبحـــــاً شقيقـــــة نعمان لقـــــد خجلت منهـــا شقــــائق نعمان
لـــذاك قـــد أحمرت حيـــاء خـــدودهـــا وقـــــد احرقت قلبـــــاً بغيظ ونيران
وقـــــالت بـــــدت لي في الانـــــام نظيرة وقـــــد جمعت في وجههـــا كـــل الوان
لها نرجس الالحاظ عني زيـــــــــادة ووجنـــــــة تفـــــاح وثمرة رمـــــان
ولما بـــــدت ازهـــــارهـــــا قلت هـــــاتفـــــاً ايـــا ليتني قـــد كنت حـــارس بستـــان

(القسان اللصان)

كان قسان شقيقين يقدسان سوية فدخلت مرة الى الكنيسة وحين رأيتهما قرب المذبح الذي عليه الصليب قلت :

لما رأيت صليباً فوق مذبحه ... ما بين حنا وجبرائيل قسين
حسبته واقفاً من فوق جلجلة ... وانهُ لم يزل ما بين لصين

كانت جميلة اسمها مريم تشم وردة لم تزل زراً فقلت لها :

وعندما يا أمر يا الورد قابلكِ ... وضم فاهاً لتقبيل وقبلك
والله لم ندرِ في تقبيله ابداً ... فأي ثغر من الثغرين فهو لك

وقلت في صاحب مكتبة لا يعرف منها شيئاً :

قالوا فريد من حديث قد بدا ... في جمع مكتبة تعي الاشعارا
فأجبتهم هذا افتراء بل له ... عشرين عاماً يحمل الاسفارا

وقد سيم مطران للسياسة أكثر من الدين لأنهُ لا يعتقد فيه انهُ رجل دين وكلما يقال في مدحه انه عظيم الجسم ولا احد يقول انهُ تقي او دين وكانت سيامته في آذار الذي تحل فيه الشمس في برج الحمل حسب علم الفلك فقلت :

في حلول الشمس في برج الحمل ... حل روح القدس في هذا الجمل
لا تخف ان وعظه يهيك عن ... اعتزل ذكر الاغاني والغزل

وهكذا كل قصيدة ابن الوردي والبيت الاخير :

للذي يأمن في تقواه قل ... كيف يسعى في جنون من عقل

(المراءيون)

ان السيد المسيح مثل الصبر والاحتمال والمغفرة وحب الاعداء ما غضب الا على المراءين فكان في صلبه يغفر لصالبيه ولكن ما أمكنه احتمال الخبث والغش تحت طي الصداقة فأنا معذور ايضاً فكنت في

احدى الجلسات امرأة متوسطة العمر خبيثة ومعها ولدها بسن الخامسة والعشرين من انحس الاولاد وكان معي ولدي حليم وكنت اتحدث بحدة عن رجل قبيح وعند الحدة يفقد العقل ويفلت اللسان فقلت عنهُ عكروت لأن هذا وصفهُ فهل عندك اسم له خلافه مهما تلاطفت واذا ما قلت الاسم سريعاً نشير عليه فيفهم السامع كأنك قلته حاصله عندما قلت ذلك اجابتني السيدة ان هذه الالفاظ معيبة لا يلزم تتكلم بها أمام ابنك فأجبتها ان ولدي لا بد ان يتعلمها فليتعلمها مني احسن لأني اعرفها له حقيقاً وانها كلمة معيبة وصنعتها العن فيرتدع عنها أحسن ما يستحسنها من غير فهل حضرتك تكلمتي بهذه الكلمة أمام ولدك قالت كلا فقلت لها لماذا طلع أول عكروت لو افهمتيه اياها أولاً برواق لكان تحاشاها فضحك الكل وعرفوا خبثها .

(حادثة اخرى) وكنا في جلسة مع سيدة تدعي بالجمال وتنكت على الغير جميلين فارادت ان تعمل معي هذه النكتة فقالت يا دكتور لماذا كل أهل الجبل اوجههم ملخبطة فقلت لها حيث انهم لا يغيرون البذار فسكتت وتابت عن هكذا سؤال :

وقلت لراهب اسمهُ عريان كان سميناً بليداً :

لو كـــان يسوع ينسى فضل جـــدكم | عليـــه في مزود مـــذ بـــات بردانـــا
لكـــــان يمحي من الغبراء ذكركم | ولن ترى في ربى لبنـــان عريـــانـــا

قلت في مدير المعارف ولم يعرف شيئاً منها وكان اجرداً :

لعلمكم ان المعـــــارف جمـــــة | عجبتم بـــان اليوم نـــاطرهـــا اجرد
ومـــــا ذاك الا لاختراع علومـــــه | بتقـــــديمه حطي وتـــأخيره ابجد
فهنوه بـــــــالنصف الاخير لسعفص | تطيب لـــه قرشت وفي ضظـــغ يسعـــد

(عرس اسما شهاب) هي احدى السيدتين التي نظمت لها الابيات التي ذكرتها سابقاً وكانت حفلة الاكليل في ٢١ حزيران سنة ١٩٠٣ :

فمن كـــــان اصلاً سليـــــل شهـــــاب | ومن نسل نور أمـــــــــــا يعتلي
وان الخـــــــدود لمن جلنـــــــار | بـقلب سلـيم نـقي جـلي
فوالله حق لطلعـــــــــــة اسما | تقول الشمس النهـــــــــار اخجلي
وانـــــــا نقول بهذي الليـــــــالي | اقيمي دوامـــــــــــاً ولا تعجلي
ونشرب كـــــأسا بسر الشهـــــاب | فسر الشهـــــــــاب شريف علي
وفيك ايـــــا دهر ارخت كـــــأساً | فـــــــاسما عروس ات تنجلي (١٩٠٣)

(وقلت في مليحة اسمها مريم)

لما بـــدت مريم في الصدر حـــاملـــة رمـــان عـــدن وفي الخـــدين ازهـــارا
عجبت في الحال من رمـــانـــة حملت في منظر واحـــــــــد زهراً واثمارا

(مكتبة انطون كنعان)

كنت أزور مكتبة هذا الرجل فلم أجد فيها غير زبور داود المشكلة ولا يوجد فيها كتاب علمي وكانت ممتلئة من الخوارنة من كل الاجناس فطلب مني ان اقرظ المكتبة فقلت فيها :

ومكتبـــــــة لكنعـــــــان تسامت بملقى كـــــــــل قسيس وخوري
كـــأن جمعيـــــة التوراة يومـــــاً اقـــــامتهـــــا لتشكيـــــل الزبور

(خلف الستار)

كنت جالساً ازاء نافذة عليها ستار مسدول كان خلفهُ بديعة لا تظهر الا قليلاً وكنت اتحسر كي اعلم من هي على عادة الشرقيين بالفضول خصوصاً بهكذا ظروف وبيما كنت ارتقب الفرص اذا بنسمة لطيفة ابعدت الستار وارتني من خلفه تلك المليحة فنظمت لهذه الصدفة ما يأتي :

وغـــــانيـــــة خلف الستـــــار تحجبت لـــــذلك قـــــد ذاب الفؤاد من الجوى
اتت نسمـــــة زاحت ستـــــار حجـــابها فلاح جبين قـــــد اعـــــاد لي القوى
فلم تـــذكر العشاق من قبـــل صدفـــة بـــأن الهوا الممـــدود قـــد ساعـــد الهوى

(مطران اسود في ثوب احمر)

قابلت أحد المطارنة الذين يلبسون الثياب الحمراء وهو اسود اللون فحالاً افتكرت بحقل كنت ماراً فيه رأيته مملوءاً من شقائق النعمان وبينها نبات يسمى اللوف وهو ذو زنبور تدعوه العامة بز العبد فقلت بذلك :

ولما بـــدت صبحـــاً شقـــائق نعمان تحيط ببز العبــــــد من أصل سوداني
علا رأسه عنهـــا فحـــالاً حسبتـــه سيـــــادة عمان بحلـــــة مطران

(سن الخمسين)

كنا في جلسة نتغازل الاشعار وكانت احدى السيدات الجميلات حاضرة وهي تحب المزاح معي فقالت لي اراك تحب اشعار الغزل كأنك لم تزل بسن العشرين فقلت بذلك :

قــالوا تعــديت حــد العشق في عمر اذ صرت مــــا بين خمسين وستين
نراك تــذكر اسما كــل طــالعــة تصبو اليهــا كمن في سن عشرين
اجبتهم سادتي مــا دمت في ولــه احس في نبــل عين بــات يرميني
ودمت اشعر في الطــاف انسكم لا فرق بين عشرين وتسعين

(المصور الاخ جبرائيل)

هذا الاخ ماهر جداً بفن التصوير وكان وكيلاً لمصروف مدرسة الحكمة في بيروت التي اسسها المطران يوسف الدبس وقد وضع لي صورة تشبهني جداً فاعجبتني وطلب مني شعراً فقلت فيه :

ولما بــدا الرحمن صورة ادم هنــالك جبرايــل قــد كــان حــاضراً
فعلمــه الرحمان تصوير خلقــة لــذلك في ذا الفن قــد صار مــاهراً
فمن شاء فليــذهب اليــه فــانــهُ بلا شك مثلي يرجــع اليوم شاكراً

(تخميس غصبوا الصباح)

قوم لقــد أخــذوا الكرام جــدودا وهم ظبــاء قــد ولــدن اسودا
من بعــد مــا سلبوا الحشا وكبودا غصبوا الصبــاح فقسموه خــدودا
وتناهبوا قضب الاراك قدودا

هتكوا بعز جمالهم احوالنــا وتحجبوا كي لا ننــال منــالنــا
وخشوا بضوء جبينهم اوصالنــا فتظفروا بظفــائر بــدلوا لنــا
ضوء النهار بليلها معقودا

مــع انهم ملكوا المرؤة عينهــا لنفوسهم غــدت المرؤة دينهــا
كي لا ترى نفساً تقــارب بينهــا صاغوا الثغور من الاقــاح وبينهــا
ماء الحياة لمن اردن ورودا

وقــد اختشوا من بعــد ذل غــدرنــا لم يتركوا من الســة في حربنــا
وتفننوا كــل الفنون لقهرنــا لم يكفهم حــد الاسنــة والقنــا
حتى استعاروا اعيناً ونهودا

وعندما كنت ماراً أمام كنيسة وجدت كاهناً يدعى متى محاطاً بناس تقبل ايديه وهو يبارك فخطر ما يأتي بفكري فنظمت :

لما بـــــدا متى يبـــــارك قومــــــه	وتبـــــاس ايـــــديــــه بكـــــل وقـــــار
أيست اذ عـــــاينت اهــــل بلادنــــا	سقطت عقولهم لـــــــذا المقـــــدار
نعم أن تـــــاريخ البلاد افـــــادنــــا	عن قوم مصر عـــــابـــــدي الابقـــــار
وكـــــذاك قـــد عبـــدوا البهـــايم كلهـــا	لكنَّ مـــــــــــا لثموا أكف حمار

اخبرت ان الامير سعيد يذم احد اصحابي ويقول كلاماً قبيحاً قلت بذلك :

ان الامير سعيـــــد من عـــــاداتـــــه	زمَّ الاحبـــة والعـــدا مـــع ذاتـــه
فكلامـــــه افراز مـــــا في قلبـــــه	فيكون طبعـــــاً مثـــــل افرازاتـــــه

وكنت أنشد بعض اشعاري فقال لي احد الحاضرين ان قولك وكلك مرٌّ فأجبته (ومعي البول السكري) :

اذا كـــــان قولي ظـــــاهراً ذا مرارة	فبولي من فرط الحلاوة قـــــــــد يسمو
نصحتك علمـــــاً بـــــالـــــذي في حشاشتي	بجربـــــة فـــــاختر لنفسك مـــــا يحلو

(شاكر بك هيكل)

هذا هو الان معلقة الدامور بالغنا والجاه والكرم وملقى الاكابر زرته في ١٧ حزيران سنة ١٩٠٦ فنظرت على جدار صاليته صورة اسدين احدهما راكع والاخر قايم فقيل لي انهما من شغل ابرة مدامته السيدة فرجيني كريمة المرحوم دركلو قنصل فرنسا في صيدا الذي ذكرت عن همته في حادثة الستين واخت مسيو اوجن الذي كان يومئذ قنصلاً محل والده وتوفى سنة ١٩٠٧ فقلت عن الصورة :

بـــــــــــدت في دار فرجيني اسودٌ	لو انتسبت لهم كـــــانوا جـــــدودا
قـــــد اصطـــــادتهم بشبـــــاك جفن	فخروا نحو طلعتهـــــــــــــا سجودا
مقيـــــــدةٌ بـــــــابرتها برسم	ومـــــــا زالوا لهيبتهـــــا قعودا
ولم نعجب لسبـــــعٍ قـــــاد سبعـــاً	ولكن ظبيـــــــــــة اسرت اسودا

(المطران باسيليوس حجار مطران صيدا للروم الكاثوليك)

ولد في جزين سنة ١٨٣٩ دخل المخلصية ثم توجه الى مدرسة رومه واخيراً اصبح مطراناً على حوران والان على صيدا عرفته في دمشق مطراناً لحوران الذي عمل فيها اعمالاً تذكر في القاء الصلح بين القبايل وتخليص ابنة اسمها حرابا من السبي وبعد توفي مطران صيدا انتخب لها وهو الذي اظهر صيدا للوجود لان البنايات التي عملها في خارج البوابات اظهرت صيدا ونقلتها من الظلمة الى النور ومشى الجميع على هندسة بناياته واعطى كل ذلك للوقف وقد عمل مدرسة الان في دير القمر لا يكل من التعب صاحب غيرة على أي من طلب مساعدته يتحمس للعمل ويخاطر بجاهه للمساعدة زار الاستانة وقابل الذات الشهانية ونال كل الوسامات وعندما كنت في صيدا نهار عيد الفصح سنة الف ١٩٠٦ عيدته ووجدت فرصة لاقدم له ما يأتي :

لكم شاكر قـد جاء في العيـد شاكراً	يهنيكم فيـه بـأصدق اشعـارِ
يعلـل مـا سميت فيـه لعـالم	لتعلم كـل النـاس مـا أنت في الـدار
دعيت ببـاسيـل لأنك بـازلٌ	حيـاة لحب الخير والبر للجـار
ولما رأوا مـا شدتـه من كنـائس	ونزل واسواق دعوك بحجـارِ

(السيدة اليس مطران سنة ١٩٠٤)

هي ابنة الخواجه خليل زهار امتازت بذكائها ولطفها ومعارفها عرفت والدها في القاهرة وقد تزوجت خير الشبان وأكملهم مروة ومودة وكرماً وهو رشيد افندي بن اسعد بك مطران من افراد هذه الاسرة الكريمة في بعلبك واتت الى بيروت وكان لها ولد صغير أصيب برمد في عينيه فعالجته وشفي وبعد سنة اتى رشيد افندي مع اخيه نسيب افندي الذي كان يضارعه بالصفات الحميدة وأتت معهما عقيلة رشيد افندي السيدة اليس وكانوا يحبون استماع بعض اشعاري وارى السيدة تسر لتلاوتها فاستنتجت من ذلك انها ذات علم وأدب لأن اغلب الناس ينامون عند تلاوة الاشعار وهذا دليل على جهلهم وبلادتهم لذلك قدمت لها الاشعار الآتية :

اليس زهرة زهـار مكرمـة	وقـد غـدت زينـة في رأس نسوان
ان شئت تعلم من أي الزهور غـدت	فـانظر الى نرجس بـالعين نعسان
لا شك زهرة زهـار مقـدسة	هـذا هو اليوم ايماني وبرهـاني
لو لم تكن بين ازهـار مقـدسة	مـا كـان ربك اهـداهـا لمطران

والاغرب انه عند تصليح هذه الاشعار حضرت السيدة اليس مع زوجها رشيد وسلفها الى بيروت ومعهم ولد مريض باعينه كأخيه والان اداويه سنة ١٩٠٨ وشفي .

(خطرات افكار)

لم يظهر الانسان ضد شريعـــة مـــا لم تضادد عنـــده شهواتـــه
ان كـــان ميـــالاً لجانب سرقـــة فـــالكـــل شر مـــا عـــدا سرقـــاتـــه
(غيره) من يعتقـــد ان الحقيقـــة عنـــده فهو السعيـــد وغيره المنحوس
(غيره) يرى الانسان فلسفـــة وعـــدلاً لغير لا لـــه بئس العـــدالـــة
وأعظم عـــادل او فيلسوف غـــدت تجري عليـــه لا محالـــة

(دراهم البخيل)

لا لـــذة البخيـــل في دراهمه الا برؤيتهـــا في الجيب كـــالهرمِ
دراهم البخـــل كـــالاسنـــان في رجـــل تـــأتي وتـــذهب بـــالاكـــدار والالمِ

(لاهي الحمار)

دخلت على رجل مقامر وكلمته مدة لعبه عندما خسر ادعى انني الهيته وهذا سبب الخسارة فقلت عن لسانه :

الهيتني يـــا شاكرا مـــا هكـــذا فعـــل الصديق
فـــأجبتـــه اني الـــذي يلهـــي الحمـــار عـــن العليـــق

وكان رجل اسمه الخناس لا يحمل سراً وكانت والدته عوراء ويقال له احياناً ابن العوراء وكلما قيل له سراً ينكشف في ساعته فقيل عنه :

الا فـاحـذروا النخـاس يـا اهـل بلـده فلا كـــاتم سراً ولا يبـــدي معروفـــا
يظـن بـــأن السرّ عـــورة امـــه يكـــون عـلى كـــل النـــواظـر مكشوفـــا

(نكتة) قد كنت في مجلس فسألني أحد الحاضرين هل هجوت فلاناً وادخلته في مجمع الحشرات وكان فلان حاضراً وهو ذو هامة هايلة فأجبته انني لم أزل في الحشرات ولم اصل الى ذات الحوافر حسب تقسيم التاريخ الطبيعي .

(تهنئة دولتلو احمد عزت باشا العابد بنيشان الامتياز المرصع)

بعد رجوعي الى بيروت من صيفية سنة ١٩٠٤ قرأت في الجرائد خبر انعام الحضرة العلية السلطانية على عبدها احمد عزت باشا كاتبها الثاني بالنيشان المذكور وانها البسته اياه بيدها الكريمة وهذا امتياز اعظم من نوال النيشان المذكور فأرسلت لدولته التاريخ الآتي

في عزة ونعيم دمت متشحـــــــــاً ... فـــذا جزا عـــابـــد المولى ومرضيـــهِ
لما رأى قلبكم رب البلاد غـــــــدا ... مثـــــل المرصع في ود يصافيـــــه
وكنتم في امتيـــــاز في نهى وزكـــــا ... وفي امـــانـــة متبوع وتفـــديـــهِ
اهـــداكم اليوم نيشانـــا لمملكـــة ... فيـــه امتيـــاز وتعظيم لحاويـــهِ
(١٩٠٤) اضحى المرصع ارخ وسم صدركم ... قـــد بـــات يعلو عليـــه مثـــل مـــا فيـــهِ

(اعترافي للخوري)

اراد كاهن تعريبي فقلت له بعد الاعتراف :

من بعـــد تعـــداد ذنبي والقرار بـــه ... قـــد حلني كـــاهني من كـــل تقصيرِ
نـــاديتـــه يـــا ابي ارجوك مغفرة ... نسيت ذنبـــاً فـــاني شاكر الخوري

اختلاف مطران مع قس

حدث في صيفية سنة ١٩٠٤ اختلاف بين مطران وقس وانقسمت البلاد قسمين وصار كل حزب ينشر اعلاناً ويطرحه في الطرقات ناسباً الى الحزب الثاني كل معصية وقد اطلعت على هذه الاعلانات القبيحة في بابها وقد قلت في ذلك :

في سب قس ومطران نرى علنـــــــا ... في كـــل سوق على الحيطـــان اعلانـــا
كـــل يثبت مـــا في الغير من زلـــل ... اذ يحسبن نفسه حراً ومنصانـــــــا
قـــد كنت في مجلس دار الحديث على ... من منهما يـــدعى زوراً وبهتـــانـــاً
فقلت يـــا سادتي فـــالـــدين يمنعنـــا ... من ان نكـــذب قسيساً ومطرانـــا

« تخميس أبيات تنح عن القبيح »

وقول ديـــانـــة للنـــاس عــده وكـــرره عـلى مـن لم تجـده
يلــذ لكـــل من لم يقتعـــده تنــح عــن القبيــح ولم تـرده
ومن زودته حسنا فزده

ولكن للسيـــاسة غير قيـــد وتصطـــاد الرجـــال بغير صيـــد
وقـــد قـــال المجرب عن رشيـــد ستلقى من عـــدوك كـــل كيـــد
اذا كاد العدو ولم تكده

« أحمد ومحمود نجلا فخري بك نامي »

يزداد فخري كـــل مـــا شاهـــدتكم فلـــذلك احمـــد كم مـــدى الايـــام
وغـــــــــدوت محموداً لاني شاكر مـــا دمت شاكركم ففخري نـــامي

« على ضريح هجاء عظيم »

هـــذا ضريح الـــذي ولى بلا أسف هجـــا ملوكـــاً وخلانـــا تلاطفـــه
حتى هجـــا كـــل فرد من اقـــاربـــه وكـــل من قـــد يراه او يصادفـــه
لم يبق شخص على الغبراء مشتهراً الا وأضحى بشر القول يقـــذفـــه
ان كـــان لم يهج بين النـــاس والـــده مـــا ذاك الا لعـــذر ليس يعرفـــه

آل جنبلاط الآن

بعد توفي سعيد بك جنبلاط وكان الدعاوي عليه من كل جهة وقد ظبطت أملاكه وهربت اولاده وقامت عليه أصحاب الديون التي كانت لحد مليون غرش لأن عندي علم بذلك من والدي وسكن العسكر الشهاني المختارة قامت في هذه المصايب مقام الرجل زوجة سعيد بك الست بدرامين الدين والدة نجيب بك ونسيب بك اولاد سعيد بك المتوفي وكان عمر نجيب بك في الثالثة عشر ونسيب بك بالسابعة فجردت هذه الست نفسها لخدمة هذا البيت وعملت اعمالاً تعجز عنه فحول الرجال وبحسن سياستها وكدها حفظت البيت كما هو ووفت جميع الديون وحفظت البيت من الخراب خصوصاً بدعوى نعمان بك اخي نسيب بك الذي يحق له نصف الملك ارثاً عن ابيه ولها قصة غريبة حتى اتصلت الى تعيين معاش الى نعمان بك اربعين الف غرش سنوياً وهكذا انهت جميع الدعاوي ووظفت مدة رستم باشا اولادها نجيب ونسيب مديري الشوفين بعدما كان خطار بك جنبلاط وعلي بك جنبلاط مديرين فيهما وبقت الاعمال في يدها الى

ان رشد البكوات وقسموا الاملاك بينهما فأصبح كل منهما مديراً في الشوف احدهما للسويجياني تسمى بذلك بالنسبة لبني السويجيان الذين حضروا مع بني الفوارس الى لبنان وسكنوا فيها والثاني في الشوف الحيثي .

وقد كان حزبان بين الدروز في لبنان جنبلاطي ويزبكي وأما الان لا يعرف الواحد من الآخر بل كل يتبع منفعتهُ فنظام لبنان حسب التوظيف يعطي لدرزي وظيفة درزي آخر وليس وظيفة موراني والموراني وخلافه بالمثل فما عاد نفور بين درزي ودرزي وموراني وموراني وحيث توظيف الدرزي يكون حسب يزبكي وجنبلاطي صار اليزبكي ضد اليزبكي والجنبلاطي ضد الجنبلاطي والحقيقة ان الحزب تابع المنفعة والدراهم .

فكل هذه المقدمة الى ان نصل الى توظيف نسيب بك قائمقاماً على الدروز لأن كان يفتكر الجميع ان لا يرضى الحزب اليزبكي بذلك ولا يكون حسب الاصطلاح القديم تحت امر شيخ مثله بل كان الحزبان يخضعنا للامراء آل ارسلان فاتفق حزب من اليزبكي مع نسيب بك لأجل طلب القائمقامية فاخيراً نالها مدة واصا باشا فأصبح نسيب بك قائمقام الدروز وقد نال ما اراده فوق الأمل وهو رجل عظيم كريم الاخلاق والنفس وقصايدي له تغني عن وصفي وأما نجيب فكان رجل محب لاصحابه وكان مقتنع بمديرية الشوف الذي توفي فيها وله ولدان علي بك وفؤاد بك اللذان تقلبا في مديرية الشوف وأما علي بك فانه باع كل أملاكه في جبل لبنان واشترى عوضها في بيروت وهو قاطن بيروت وعمل جيداً بذلك لأن ما عاد يجد فلاحاً لأملاكه في الجبل بسبب المهاجرة لامريكا وقد تزوج وله ذكران وأما فؤاد بك لم يزل في المختارة مديراً دو اعتبار عند الجميع ووارثاً محل اجداده .

علي باشا جنبلاط

هو أبن احمد بن حسن اخو الشيخ بشير جنبلاط وكان والده قاطن بيروت فاراً من سعيد بك الذي كان ضابطاً املاكه مع انه صهره وعندما بلغ علي باشا سن الاربع عشر سنة جذبه سعيد بك الى المختارة قهراً عن أبيه وزوجه بابنته الست امنه وذلك قبل حادثة الستين واسكنه في بعزران دار اجداده فبعد الحادثة صار علي بك مديراً على الشوف بعد الشيخ خطار الذي زعل منه جداً لأخذ وظيفته وكان الشيخ خطار زوج عمته بدون عقب فنكاية فيه وقف أملاكه الى نسيب بك ومنها الملالية فوق صيدا التي شاد فيها نسيب بك قصره الان الذي عملت له التاريخ ثم توجه علي بك الى البرامية وسكن فيها وشاد فيها قصره الجميل الان واعتنا بأملاكه التي كانت تدخل له اولاً من الاربعين الى الخمسين الف غرش أصبحت تدخل لحد الاف والخمسماية ليرا وقد نال رتباً حتى وصل الى رتبة روملي بكلر بك بلقب باشا ما عدا النياشين المجيدي والعثماني الثالث والايراني الثالث وهو رجل سلامة بعيد عن الشر يحب راحة الفكر وقد توفت زوجته ابنة سعيد بك وله منها الان شكيب بك عضو بمجلس الادارة عن قضا جزين وقد تزوج

ثانية وطلق والان بسن خمسة وسبعين سنة تزوج وولد له ذكراً واتى يتملك في بيروت لان زوجته منها وأهمل البرامية .

ومن الفرع الثاني من بيت جنبلاط محمود بك ابن عم نسيب بك اي نسيب بك متزوجاً باخته الست خولا التي لها المنزلة العظيمة بين النسا بالعقل والعلم واللطف كما ولوالدتها وقد توظف محمود بك بجملة وظايف وطلع عاقلاً جداً باعتناءه بالاملاك فأصبح غنياً ولم يزل يلتفت الى صالحه وهو من الازكياء يبعد عن الشر .

ومن اللذين عرفتهم الان من آل جنبلاط هم فريد بك الذي صار مدير الشوفين مدة نعوم باشا وكذلك احويه الشيخ مجيد والشيخ عبد الحميد وهما من الادباء ومما ارى اقول ان قضي الامر على المختارة التي هي من أعظم محلات لبنان فصار أكثر آل جنبلاط في البرامية وتاركين المختارة وهذا غلط منهم لأنهم بين قومهم وأهلهم .

« تاريخ دار نسيب بك جنبلاط بن سعيد بك في الهلالية »

بنى نحل السعيـــــــــد اليوم قصراً	نسيب المجد ذو الأصل الشريفِ
ترى غربـــاً لـــه جنـــات عـــدنٍ	وشرقـــاً هـــام لبنـــان المنيفِ
ترى ميعـــــاد موسى من جنوب	شمالاً بحر يونـــــان العفيفِ
ومـــا بين الحدود لـــه اتساع	كوسعـــة صدره عنـــد الصفوفِ
ومـــا فيـــه سوى عيب وحيـــد	لأنـــه لم يسع كـــل الضيوفِ
رعـــاه الله الفـــاً بعـــد تسع	من المئـــات في جـــد الظريف ١٣١٨

وهذه الدار يحيطها غرباً جنات صيدا وشرقاً قمم لبنان وجنوباً أرض الميعاد وشمالاً الجيه التي فيها مقام النبي يونس ويحدها البحر الذي غرق فيه يونان النبي وهي قائمة على قمة جبل الهلالية وتكشف كل الجهات ومنه عدر في جد الظريف سنة ١٣١٨ .

(تخميس زرعت باللحظ)

نبيٌ حسن اراني عظيم آيتـــــه	وجهـــاً كبـــدر على اغصان قـــامتـــه
لما رأيت زهوراً بين جنتـــــه	زرعت بـــاللحظ ورداً فوق وجنتـــه

حقاً لطرفي ان يجني الذي غرسا

قطفتـــه كي اداوي من بـــه مرض	وليس لي غير هـــذا عنـــده غرض

وكــــل شيء سواه عنــــدنـــا عرض | فـــان أبـي فـــالاقـــاحي منـــه لي عـوض
من عرض الدر عن زهر فما بخسا

(تاريخ لأبن بطرس الدبس)

للـــــدبس بطرس قـــــد أتى | ولـــــــد بكـــــــانون رسا
تـــــاريخــــــه قـــــال لك | هــــــذا خليفـــــة بطرسا ١٨٨٣

(الى قائمقام بعد عزله)

عهـــدي بعـــامر شامـخ متعجرف | ويـزيـــد عنـــد الفـــوز بـالمحصـول
واليـــوم أضحـــى بـاللطـافـــة فـائقاً | لا شك ذاك تلطـــف المعـــزول

(برديوت) هي رتبة زائر الكنائس وتدعى باللغة السريانية سعور وقد منحت هذه السنة لأحد الكهنة فقلت فيه :

أنت المعلم في اسرائيــــــل من قـــــدم | في أرض ميعـــــاد قـــد أصبحت مغرورا
في أنزلوك مقـــــامـــــاً في سيـــــامتهم | اذ كنت تيساً وصرت اليوم ساعورا

(الخوري يوسف العلم) هو وكيل المطران يوسف الدبس ورئيس الديوان الاسقفي من الكهنة المعلمين الماهرين في حسن السياسة شاعر مجيد وقد نظم قصيدة بمديح مريم العذراء في عيد يوبيلها الحبل بلا دنس وسماها حمامة الشرق وترجمها وارسلها الى البابا فنالت شهرة عظيمة وقلت مقرظاً الحمامة :

في حب مريم هـــــامت مهجـــــة العلم | حتى غـــــــــدا مثلاً للحب في الأمم
شعر الحمامـــــة مشهور لـــــذاك غـــدت | منـــــه حمامتـــــه نــــاراً على علم

(مونسنيور) يجوز لحامل هذه الرتبة ان يلبس خاتماً وله امتياز بملابسه وقد كثرت جداً وصار الكهنة يتزاحمون على نوالها ومن جملتهم كاتم اسرار احد المطارنة فقلت فيه :

الى كـــــاتم الاسرار قـــد جـــاء رتبـــة | تفوضه الابـــــــآء في لبس خــــــاتم
فرحت لمونسنيـور في نيلــــــــه العلا | واهـــــديتـــــه اذ جئتـــــه فص خـــاتمي

(الى حبيب بك البيطار قائمقام كسروان سنة ١٩٠٥)

هو ابن سمعان بن فارس بن يعقوب بن سمعان البيطار من غسطا ولد في ١٥ ك ٢ سنة ١٨٦٥ درس ٣ سنوات عند الدبس و ٥ في عين طورا وتعين مدير غسطا محل عمه واكيم ثم قائمقام كسروان مدة مظفر ثم رئيس الادارة ثم قائمقام كسروان ثم البترون ثم جزين ثم كسروان وهو أحسن ما يوجده العصر في الشهامة والكرم وحب الخير وليس له مبغض وهذه الصفات هي صفات العائلة كانت ولم تزل وهو زوج ابنة عمي مريم كريمة المرحوم سليم الخوري وعندما اصبح قائمقاماً على كسروان فرحت به الجموع من كل الاجناس أولهم الاكليروس حتى والمشايخ ايضاً فقلت له :

جمعتم بـــــــــاسمك الزاهي اموراً تخولك الرئـــــــاسة والمفـــــــاخر
فـــــافعـــــل كلما تلقـــــاه عـــدلاً واسمع ان رضيت لقول شاكر
فكن للطـــــائعين اخـــــاً حبيبـــــاً وبيطـــــــــــاراً لمن يعصى الاوامر

« وقلت لجماعة »

[1] لما رأى نـــــاظر الاسطبـــــل انكم مما تولى عليهم قبـــــــل لبنـــــانِ
تعـــــداكم اليوم بيطـــــاراً لزومكم فقـــــابلوا فضلـــــه دومـــــاً بشكرانِ

وقلت في رجل يدعى ابن متى كان فقيراً جداً واغتنى وصار من الاوادم الطازا

هـذا ابن متى الـذي قـد عـاش متخـذاً انجيـــــل متى كقـــــانون وسفرين
لم يحملن فضة يومـــــاً ولا ذهبـــــاً ولا قنى عملـــــه في الـــــدهر توبين
اذا صفعت لـــه خـــداً يـــدير لك الـ شـــــــــــاني وتسخيره ميلاً بميلين

واليوم يهتز تيهاً عند خطواته كأنه قد نسي حمل الجرابين .

(١) مظفر باشا متصرف لبنان .

هذا ديوان قيصر بك ابراهيم المعلوف من اهالي زحلة القاطن سان باولو في البرازيل ارسله هدية اليَّ مع هذه الكتابة هدية واكرام الى جناب الشاعر العصري المتفنن والدكتور النطاسي شاكر بك الخوري من المعجب بخفة روحه .

قيصر ابراهيم معلوف

لما رأيتك للمعـــــارف عـــــاضداً وبكرمـــة الآداب أفضل عـــامـــلِ
القيت بين يـــــــديك ديواني على أمـــل بـــأن يحظى بنقـــد عـــادلِ

« الجواب سيدي القيصر » كفاك اسمك لتكون سيداً تطلب حكمي وانتقادي على تذكار المهاجر فحكمت نقداً بأن قيصر الشعر شعر قيصر وهذا قرار الحكم :

مـــذ دخلنـــا ديوانكم قـــد رأينـــا فحـــــل شعر معلوف در وجوهر
ليس فيـــــه غزالـــــة او غزال لا ولا حـــــائم كـــــذاك وعنتر
مـــاشيـــا في السهول مثـــل القوافي من معـــاني الصدور قـــد كـــان يسكر
فنويت تقـــــديم شكر بشعر في مـــديح لقيصر الشعر يـــذكر
فرأني القريض اني بليـــــد في مـــديحي فقـــال لي وهو اخبر
لست اهلاً للمـــدح في كـــل حـــالٍ قم واعطي لقيصرٍ مـــا لقيصر

وقلت في جميلة اسمها روزا حضرت لمعالجة عيونها وكانت بديعة في الجمال :

طرف روزا لولاي قـــد بـــات روزا مـــذ كشفت السواد منـــه سبـــاني
كـــاد يعمى لولا علاجي وطبي مـــذ رآني بسهمـــه قـــد رمـــاني
كـــان عبـــداً حررتـــه في علاجي في علاجي جفنـــاه فـــاستعبـــداني
قبح الله اسوداً كـــــل حين ليس يومـــاً لاسود من امـــان
فهو عبـــدٌ لا تشتري العبـــد الا ان ذا قـــالـــه نبي المعـــاني

اشارة الى المتنبي الذي قال لا تشتري العبد الا والعصا معه . وروزا معناها ورد وقد شخصت في اليسوعية رواية وفاء السموءل تأليف الاب خليل اده وقد قرظتها :

حضرت روايـــــــة فرأيت فيهـــــــا مثـــــــالاً للشهـــــامــــــة لا يزولُ
وقـــــــد نظمت بها تلك الـــــدراري بنظم مـــــا لـــــه ابـــداً مثيـــلُ
توهمت السمؤل عـــــاد حيـــــاً وللاعراب قـــد رجـــع الخيـــلُ

الخليل هو الذي وضع العروض للشعر .

وقد اعطتني السيدة اسما كريمة الخواجه خليل سركيس وزوجة الشهم الفاضل جرج افندي فيلبيزي مدير الظابطة في بور سعيد كارت بوستال عليها صورتها فحررت عليها ما يأتي :

مـــا هـــذي هي كرت بوستـال كظاهرهـا لكنهـــــا تلغراف الشهم مــــــاركوني
انظر الى عين اسما عنـــــد جــــانبهـــا تجرُّ من دون سلك قلب مشجون
فـــان غـــدت في حجـاب عن نواظرنـا فـــالفكر فيهـــا غـــدا سلكـــاً لمفتون
لـــــذاك فكري بها قـــد بـــات يجذبني لبور سعيـــــدٍ مــــع اني في بحمـــدون
الف وتسعـــــة مئــــاتٍ وثــــامنـــة يسير طيـــــار عينيهـــــا بكـــــانون

وقد حررت لها هذه الابيات بخط يدي الذي هو غير جيد فلكي اعتذر لها عن شناعة الخط قلت ما يأتي :

لا تنكري سقم خطي في مكـــــــاتبتي ولا سطوراً عن التخطيط منحرفــــــــه
فـــــالفكر فيك كطيـــــار يهزُّ يـــدي فكيف تحسن خطـــــاً وهي مرتجفـــــه

وقلت عندما كنت في البترون زائراً ابراهيم بك عقل مديرها ورئيسها واكرمها وشاكراً الطاف مدامته السيده الماسة :

رأت في فضا البترون عينـــــــاي درةً يقـــــال لها الماسة مـــــا لها مثـــــل
تبيت مـــدى الايـــام في الجاه والصفـــا بلا كـــدرٍ من حيث حـــافظهـــا العقـــل

« منصور بك شتوان واخوه يوسف بك »

هو من عائلة شتوان الشهيرة من طرابلس الغرب وقد حضره والده الى الاستانة العلية وكان عالما مكرماً وله اعتبار عظيم لدى الوزراء ومن جملة ما اخبرني عن صداقة والده مع عالي باشا الصدر الاعظم الشهير وذلك ان والده كفل رجلاً بمبلغ خمسة الاف ليرا وأفلس الرجل فالتزم والده ان يدفع الدين ولكن

الداين أبى الا ان يحسب فايض لهذا المبلغ ولما عجز عن اقناعه للعدول عن رأيه توجه الى صديقهُ عالي باشا ليعمل واسطة مع الداين اخيراً دفع عالي باشا كل المبلغ من ماله وقال انني اغتنم هذه الفرصة لاخدم حضرتك فتأمل هذه الشهامة حضر منصور بك وأخوه يوسف الى بيروت سنة ١٨٨٧ وكان وكيلاً للمدعي العمومي وأخوه محامياً للرجي ثم عاد الى بيروت مرة ثانية مأموراً للبقايا الاميرية ثم رجع مرة ثالثة رئيس قومسيون الاملاك وقد أصبح مستشاراً للمالية واخوه يوسف بك مفتشاً للعادلية برتبة بالا فاهنيهما من صميم الفؤاد وعند سياحتي الى الاستانة أذكر ما لاقيت منهما من الأنس والالطاف وقد نظمت لمنصور بك هذين البيتين عندما كان وكيل مدعي عمومي في بيروت :

لا يـــدعي احـــد بقلبي شفعـــة	من حيث قـــد أضحت بملك المدعي
والحب منصور عليـــــــه دائماً	وهوى اليـــه من المحل الارفـــع

« صحة العين »

ألفت هذا الكتاب وقدمتهُ لاعتاب مولانا وسلطاننا الأعظم عين الزمان :

﴿ عبد الحميد خان ﴾

مع قصيدة جمعت فيها كل معاني العين وهي :

الى السدة العليـــاء قـــد شخصت عيني	وهـــل عـــاقـــل يرنو بعين الى العين (١)
فحبي لاطراء المليك هو الـــــذي	دعاني اخوض البحر لا خوف من عين (٢)
متى سكن الحب الفؤاد فلم يعـــد	الى العقـــل موضوعـــاً ولو ضر بـــالعين (٣)
وان كنت لا اقفو بنظمي ابـــــا العلا	فموضوع مـــدحي لي شفيـــع لـــدى العين (٤)
فما قصدت نفسي بـــذا نيـــل شهرة	ولا الجاه في الـــدنيـــا ولا الفوز بـــالعين (٥)
ولكن لاشفي النفس فيما قـــد اشتهت	فهـــذي هي الـــدنيـــا وذي قرة العين (٦)
ومـــا أنـــا في نظم الفريض مملقـــاً	ولم اهـــدِ أنواع الثنـــاء الى العين (٧)

(١) معناها الشمس (٢) الضرر بالعين (٣) بالنفس (٤) الشريف (٥) الدينار (٦) الباصرة (٧) أحد

ولكنني اشدو بمن طـــــــاب عنصراً　وفـاق رجـال العصر بـالحسن كـالعين [٨]
لـــه شهرة بـــالعـــدل والجود والنهى　مضوعـــة في كـل صقـع من العين [٩]
فلست سوى ذا الشهم يومـــــاً بشاكر　ولو جـاد في الـدنيـا وما ثم من عين [١٠]
وجـــدت منى قلبي بـــذات مليكنـــا　لـه العـدل طبع وهو اعدل من عين [١١]
سليـــــل ملوك ساهر لرعيـــــةٍ　كما سهرت ام على الأبن والعين [١٢]
فـان نـدعـه عبـد الحميـد فـاننـا　عبيـــد لـــه يلقون اطوع من عين [١٣]
ولكنـــهُ لا كـــالعبيـــد يسوسنـــا　ولكن كـــابنـــاء لـــه موضع العين [١٤]
رؤوف حليم عـــــادل ذو سماحـــــة　تفيض كفيض القطر من سحب العين [١٥]
يجازي أمينـــاً او يعـــاقب خـــائنـــاً　ويقضي بـــه في الشرع للعين بـــالعين [١٦]
فما ولي الاجساد قهراً وانما　جرى حبـه في القلب كـالماء من عين [١٧]
رقـــاب البرايـــا ملكـــه كقلوبهم　لـــذا خضعت رأسي ومـــا ركعت عيني [١٨]
فهـــــذا هو الحكم الصحيح وعرشه　مـدى الـدهر محفوظ من الضر والعين [١٩]
ويطرب قريـــــــاً ويفرح شاعراً　وينشده صوت البلابـــــــل والعين [٢٠]
فهــــذا افتخـــار للملوك بحكمهم　وليس بجور في الرعيـــــــة او عين [٢١]
ولما سمي بـــالعـــدل عصر مليكنـــا　تسامت بـــه كـــل المدارس كـــالعيني [٢٢]
وفـــــاضت على الطلاب انوار شمسه　كما اشتهرت شمس الضحى في ضيا العين [٢٣]
فخفت على ابصارهم من دروسهم　فجئت لهم بـــالحال في صحـــة العين [٢٤]
فلا غـــايتي فيـــه بيـــان فصاحـــة　ولا نظم در اللفظ من لجة العين [٢٥]
ولكن قصدي حفظ صحـــة يـــافـــع　ليخـــــدم سلطـــان البلاد بلا عين [٢٦]
ويجمـــع مـــا بين القلوب لالفـــة　كما جمعت في كلمـــة لفظـــة العين [٢٧]
ولا يرتضي حب المليك تبـــــادلاً　ويقضي ولا يخشى مراقبـــــة العين [٢٨]
الى بـــابك الاعلى تقـــدم جـــاثيـــاً　على رأسه لا بـــــل على ركب العين [٢٩]
اعـــاديـــه بـــالقرب الـــذي منك نـــالـــه　مرارتهم شقت كشبح من العين [٣٠]

(٨) قبلة العراق (٩) الناحية (١٠) الذهب (١١) عين الميزان (١٢) الاخ الشقيق (١٣) جريان الماء (١٤) الضمير (١٥) السيل الذي لا ينقطع (١٦) المثل بالمثل (١٧) نبع (١٨) الركبة (١٩) الاصابة (٢٠) طير (٢١) ضرر (٢٢) مدرسة قصر العيني (٢٣) شعاع الشمس (٢٤) اسم الكتاب (٢٥) اسم كتاب للخليل (٢٦) ريب في المكاشفة (٢٧) عين الكلمة وسطها (٢٨) الجاسوس (٢٩) نقرة الركبة (٣٠) خرم في المرارة

لقــد نــال فخراً بعــدمــا كــان صاغراً	على كرة الـــدنيـــا كراس من العين [٣١]
فحيت بـــه أهـــل البلاد جميعهـــا	وقـــد فرحت فيـــه المنـــازل كـــالعين [٣٢]
واصفت لـــــه اهـــل العقول لأنـــه	أرق من الشكوى واحلى من العين [٣٣]
جمعت بـــه كـــل المعـــاني بعينـــه	ولم يبق لـــــــه معنى يردد في عين [٣٤]
ولا ينتهـــي مـــني المديـــح وانما	على الرغم قـــد انهتـــه فـــاقيـــة العين [٣٥]

وقلت في صدر الكتاب

لسلطـــــان الورى عصر جـــديـــــد	أنت لفلاحـــــه كـــــل العنـــاصر
فتلنـــــا من عـــدالتـــــه نجاحـــاً	وأضحى الكـــل حتى العبـــد شاكر

قدمت من هذا الكتاب نسخة مذهبة من أحسن ما صنع تلى جلالة مولانا السلطان الاعظم بواسطة دولتلو عزيز باشا والي بيروت وكذلك قدمت نسخة منه بواسطة المكتوبجي حسن افندي الايوبي لنظارة المعارف الجليلة في الاستانة العلية واتاني جواب شكر من وزيرها بواسطة اسماعيل كمال بك والي بيروت ولم يزل هذا التحرير عندي وهذه صورته :

تحرير الولاية   بيروت ولايتي مكتوبي قلمي عدد ٣٤

لقد صار مطالعة التحريرات الواردة من مقامكم العالي المؤرخة في ١٦ تشرين ثاني سنة ٣٠٧ والمتضمنة ارسال اربع نسخ من كتاب صحة العين الذي توفق لتأليفه الدكتور شاكر افندي الخوري من ادباء بيروت واطباءها الحاذقين وحيث ان همة وغيرة المومى اليه بهذا الخصوص موجبة للمكافآت فانشاء الله سيصير الاجتهاد بتطييب خاطره في الوقت المناسب فتفضلوا بتفهيم ذلك وبيان المحظوظية منه باسم النظارة ٢٢ جماد الأول سنة ٣٠٩ — ١٢ كانون أول سنة ٣٠٧

نمرة
٤٢٢

الى الدكتور شاكر افندي الخوري من اطباء بيروت .

ان التحريرات الجوابية الواردة من نظارة المعارف الجليلة بناء على تقديم نسخ معلومة من كتاب صحة العين الذي الفتوه وارسلتوه بواسطة مقام الولاية صار نقل الصورة عينها اعلاه فنبلغكم ذلك في ١٨ رجب سنة ٣٠٨ و١٥ شباط سنة ٣٠٧ والي بيروت اسماعيل وبعد مدة نلت النيشان العثماني الرابع مكافاة .

(٣١) اسم بلدة (٣٢) اهل الدار (٣٣) المعاشرة (٣٤) لفظة مشترك (٣٥) حرف العين .

وقد ارسلت نسختين من كتاب صحة العين الى باي تونس والى الوزير الأكبر عن يد ابن عمنا نعمان بك الخوري الذي كان يومئذٍ في الوزارة التونسية فورد لي التحرير الآتي من الوزير الأكبر وهي :

الحكومة التونسية الوزارة الكبرى الحمد لله الفاضل الأديب الاني على فنون الحكمة باحسن الاساليب الدكتور السيد شاكر الخوري ادام الله رعيه وشكر سعيه

أما بعد فانهُ بلغنا كتابكم مصحوباً بنسختين من تأليف جنابكم الممتع المقيد المهدي للعيون من النصايح ما تريد المسمى بصحة العين بواسطة نخبة اقرانه الاكتب البارع الشيخ السيد نعمان الخوري فتلقينا ذلك بالسره ورأينا من هذا التأليف ما اهدى للعيون قره مع ما هو موشح به من الاداب وبلغنا لحضرة المعظم الارفع مولاي وسيدي دام عزه وعلاه النسخة التي خصصتوها لعالي جنابه فتلقاه دام بقاؤه بالبشرى واثنى على جنابكم بما هو به احرى ونحن نشكر جنابكم على اتحافنا بهذا التأليف الشاهد لدينا جنس مؤلفه بالاجاده واهليته للابداع والافادة والله تعالى يديم ترقيكم في مدارج العرفان ويعينكم على ابدى المسامرة الحميلة للعيان .

حرره الفقير الى ربه تعالى امير الامراء محمد العزيز بوعتور الوزير الأكبر عفا الله عنه في ذي القعدة الحرام سنة ١٣٠٩ .

محمد عزيز بوعتور

وهذا ما قلته في صدر الكتاب :

وجـــدت لعميـــان البواصر صحـــة ولكن لعميـــان النصاير لم أجـــد
فمن شاء يومـــاً حفظ صحـــة عينـــه بلا شبهة عن صحـــة العين لم يحد

نادرة مع الخوري يوسف العلم

تقابلت معه صباحاً وأنا ذاهب الى مستشفى راهبات المحبة لأجل مداواة اعين المرضى فقال لي أين انت ذاهب بهذا الصباح اجبته الى حيث انت ذاهب قال وكيف ذلك قلت اننا نسعى لعمل واحد وغاية واحدة فانني اسعى لمداواة مرضى العيون ومعاشي عليهم ويشفون أما انت فعاشك على عميان القلوب ولم يشفوا .

وقد وجدته مرة اخرى مع ابن عمي الذي هو الان المطران شكرالله متوجهاً نحو كنيسة مار جرجس فصرخت له هل ذاهب بابن عمي على جناح الهيكل لان الشيطان أصعد المسيح الى هناك .

(على صورتي في كتاب صحة العين)

على الوطن العزيز وقفت نفسي ... لما يبـــديـــه نحوي من مـــآثر
سأحمـــد فضلـــه مـــا دمت حيـــاً ... وبعـــد الموت هـــذا الرسم شاكر

طرزت هذه الأبيات باسم اسما

اسرت فؤادي عينهـــا ففـــدا بها ... متحركـــاً بحراكهـــا وسكونها
سمعي وعقلي والحواس واجمعي ... لم يـــدركوا السر الـــذي بعيونها
مسقومـــة نعسانـــة سكرانـــة ... حملت على المغنى بسيف جفونها
اجفـــانها عمـــداً تخون اسيرهـــا ... مـــع انـــه ابـــداً يفي بيمينهـــا

وقلت في كحال دجال اسمه امين ولكن لا على العين :

وكحـــال يعـــالج كـــل عين ... نظير الضرس بـــالقلـــع المتينِ
لـــه ايـــد عصا موسى تحاكي ... تفجر كـــل يوم الف عينِ
اذا مـــد الشمال لكحـــل عين ... فخـــذ عكـــازة لك بـــاليمين
لـــه في الطب دومـــاً معجزات ... مخالفـــة لايـــات ابن نونِ
فيوشع رد شمـــا في غروب ... وذا اخفـــاهـــا عن متكحلينِ
ومـــذ طمست بما قـــد كـــانوا ظنوا ... اصاب سوادهـــا كحـــل الامينِ
فلو القـــاه في بـــدر وشمس ... بـــلا شـــك لاعمـــى النيريـــنِ
ولـــه : يـــا زاير الكحـــال صبحاً فـانتبه ... ان الرجـوع يكـون في وقـت المسا
لا تزعجن فلن من عـــاداتـــه ... لمريضه لقيـــادة يعطى العصا

(حسين افندي الاحدب)

هو ابن الشيخ ابراهيم الاحدب العالم العلامة الشاعر اللغوي الفقيه المستقيم الذي كان معلمي حين كان عند سعيد بك جنبلاط معلماً لأولاده وفيما بعد انتقل الى المحكمة الشرعية في بيروت وتعين فيها باشكاتباً وبقي في هذه الوظيفة حتى سنة وفاته سنة ١٣٠٨ هجرية وقد اخلف ذكوراً وأكبرهم رشيد الذي توفي بعده بمدة قليلة وسعيد الذي كان باشكاتب مجلس الادارة في بيروت وكان رشيد في المحكمة الشرعية ايضاً واخوهم عبد الحميد من التجار المعتبرين الان وحسين افندي المذكور الذي هو رئيس قلم الأوراق في الولاية وهو أنموذج الصدق والامانة والمودة والذكاء حتى أجمع الكل من سائر الملل والنحل وتباين المذاهب والاغراض على امتداحه وقد نال الرتبة العليا والنياشين العظيمة وقد رزق ولد ذكر سنة ١٣٢٢ هجرية وسماه ابراهيم باسم جده وطلب مني تاريخاً هجرياً لولادته فنظمت له ما يأتي :

نسـل الحسـين مطهـر	ومشـرف ومـؤدبُ
يحيى الحفيـد فضائلاً	في الجد كـانت تطربُ
ولي ابراهيم شاهـدٌ	فيمـا أقـول وأكتـب
عشر واربـع حجـة	قـد غـات ذاك الكوكب
واليوم ارخ شمتـه	رجـع ابراهيم الاحدبُ ١٣٢٢

وقولنا عشر واربع حجة اعني اربع عشرة سنة وهي المدة التي مضت على وفاة ابراهيم الجد فاذا حذفت هذه المدة من سني ولادة ابراهيم الحفيد يبقى ١٣٠٨ وهي سنة وفاة الجد فيكون هذه الابيات قد حوت تاريخين الأول لولادة ابراهيم والثاني لوفاة ابراهيم الجد .

اسكندر بك التويني

هو الرجل الذي خدم حكومة لبنان مدة ٣٦ سنة متصلة وكان سياسياً عظيماً ليس بالعنفوان والقوة بل بالبرهان والرفق واللين وكان صديقاً لصديقه وحزبه لم ينفك عنه ابداً فتارة يرتفع الى اعلى الدرجات فيرفع معه من يخصه وحين كان يهبط يهبط معه اصدقاؤه وهو الوحيد الذي حافظ على حزب سياسي في لبنان بيروتي الأصل من عائلة كريمة اشتهرت بعمرانها منها عمه المرحوم الخواجه جرجس التويني صاحب الجاه وكرم الاخلاق وأولاده منهم الخواجه نخله معدن اللطف والانسانية واحد تراجمة قنصلاتو فرنسا وقد دخل في خدمة الحكومة اللبنانية مدة فرنكو باشا كترجمان المتصرفية ثم أصبح مدة نعوم باشا مدير البوليتك وبقي في وظيفته الى مدة مظفر باشا سنة ١٩٠٢ وبعد ترك وظيفته تقريباً توفت زوجته السيدة نظله صاحبة العقل الذكي والتدبير والسياسة ولم يمض على وفاتها ثمانية اشهر تقريباً حتى تبعها زوجها اسكندر بك الذي كان قد تعين عضواً بمجلس ادارة ولاية بيروت .

وقد نظمت هذه القصيدة للسيدة نظله متعرضاً بها لشاعر لم يزل كشعراء الف سنة يشبه الممدوح بالشمس والقمر والغصن فالموضوع بين هلالين من قصيدته :

مـذ شبهوا نظلـة بـالريم والـذهبِ	والله قـد أنزلوهـا اليوم عن رتبِ
مـا الريم مـا الغصن مـا الاقمار في فلك	(مـا الصبح مـا بين مخمور ومضطرب)
فصارت النـاس غير الارض عـابـدة	بـل كـل فضل وعقـل رائق طرب
هـل عن ملاك يقـال الليـل طرتـه	(من فوق غصن بـانـداء النهى رطب)
ان شئت وصف ملاك مثـل نظلـة قـل	هي الكمـال ولا (اصفى من الـذهب)
ولـن تحدث عن أوصافهـا ابـداً	في السن النـاس من عجم ومن عرب
بـل خـذ لسان ملاك حين تـذكرهـا	مسترفعـاً في سماء المجد بـالسحب

عن نعمة الله حدث حين احدثها ... من خير والدة لاقت لخير ابِ
وعندما خرجت من حضن الدة ... منها تملأ حضن المجد والحسب
والعلم والجود والمعروف قد خلقت ... تجسدت فدعوها نظلة الحقب
ما هذه بشر لو منهم وجدت ... نرى عيوباً بها والله لم تعب
بل روح قدس لغات الخلق قد عرفت ... حلت على اسكندر الاعلى من الشهب
من كان يا شاعر هذه محاسنه ... هل جاز تشبيهه بالخمر والعنب
لكنني عاذر لا شاكر ابداً ... فما اتيت به في الوصف واللقب
من حيث انك مهزار رضيت به ... وأكل الثمر قد شبهت بالرطب
بالخمر فالخمر احلى ما تهيم بها ... شبهتها دون تكليف ولا تعب
وعندما قد قصدت المدح في ملك ... قد كنت (ما بين مخمور وذي عجب)
لا شك انك اقوى شاعر بزغت ... له الدراري بالفاظ من الضرب
لا عيب في الوقص او في النقص عندكم ... ولا زحاف ولا بالخبن والسبب
فأنت بالشعر بحر كامل عذب ... لكن في مدح ذات الفضل لم تصب
لو كنت من قبل وزن الشعر ممتدحاً ... وزنت عقلاً لما عرضت للشغب
عروض شعرك تعريض بلا غرض ... مستفعلٌ فاعلٌ ما جاء بالطلب
ما كان اغناك يا مهزار لو كرماً ... ملطت فاك ولم تدخل بذا السبب
لان لا شاعراً منا يني غرضاً ... في مدح نظلة ذات الفضل والأدب

وعندما لبست في البالو لبس جنية وهي عبارة عن شبكة وضعتها على رأسها ورفعتها على ايديها نظمت لها ما يأتي على صورتها التي تصورت بها بهذا الزي :

مهما اشتبكت بسترٍ ... هل يخفي شمساً شباكُ
ولو لبست كجنٍ ... ما أنت الا ملاكُ

ولما تولى متصرفية لبنان نعوم باشا وعاد اسكندر بك لنفوذه الأول بعد ذهاب كوبليان قدمت له هذه القصيدة :

من كان في مجده او جده غرقا ... تراه يصغي لهزل طيبه عبقا
أينظر الشعر في حين الرضى ابدا ... ام يحسبنه خيالاً قل ما صدقا
ظرافة الشعر في الموضوع كائنة ... لا في معانيه او لفظ به نسقا
فالهجو كالمدح في غير أهله عدم ... وما له رهجة ان جال او شرقا
فالشعر عندي شعور القلب اعرضه ... لا ادري ان حسناً قد جاء او لبقا

لا بد من بعضهم عنه بلا غرض ... راض وبعض لاغراض له حمقا
مدحت قوماً فقالوا مدحهم كذب ... فربما صدق الراوي وما رفقا
هجوت قوماً فقالوا الصدق شيمتهُ ... والبعض قد كذبوا من بينهم فرقا
لا بد من سبب للمدح اعرضه ... وللهجا سبب كالصبح قد فلقا
ان كنت أصدق في الحالين لا عتب ... بل كل لزم على من أوجب القلقا
لا يعرف المرء الا حين قدرته ... لأنها تجعل المطوي منفلقا
ان كان في هذه الأحوال ذا كرم ... أمدح ولا تخش تكذيباً ولا زلقا
او كان بالعكس فاذمم لا تخف ابداً ... لان هذي طباع المرء لو برقا
من كان بالذل منحطاً بأكثر ما ... يلقى ففي العز غداراً ومخترقا
ان الذليل لئيم عند قدرته ... وابن الكرام لذل يلحق الشفقا
والكل في المدح لاموني ولا أحد ... في الهجو الا لضحك شدقه انشدقا
اقسمت من بعد ذا لا المدح انظمه ... حتى ارى الكل في الممدرج متفقا
فكرت في اسكندر المقدام شيمته ... دون اعتراض ولا من ضدها نهقا
ولم تجد قط مأموراً يقابله ... ويشتكي راجعاً ان جيبه انخزقا
ولا حزين وذا دعوى يساعده ... ويشتكي قبل حكم فله نفقا
ولم تجد ذكره ان جال في بلدٍ ... لسان كل امرىء في لعنه نطقا
ولا الذي قد رآه خرَّ مكرمة ... لكن عليه اذا دار القفا بصقا
ولم تجد صاحباً ممن يعاشره ... قد شك في صدقه او فيه ما وثقا
له الكرامة عند الناس واحدة ... ان نام او قام او قد عام او غرقا
فاليوم جئت بهذا الشعر مفتخراً ... فيه على كل شعرٍ في الورى سبقا
وفخره وافتخاري قول سامعه ... وقول كل امرىء عنه لقد صدقا

وقلت في تعزية له بفقد ولده البكر جرجي بسن ١١ سنة ١٨٩١ :

ان الذي ابكاك قد ابكاني ... فمن الذي منا يعزي الثاني
ان قلت اولى منك تعزية به ... لا تعجبن فاصغ الي برهاني
انت الذي سبب التياعك واحد ... وانا الشريك به ومثلك عان
وزيادتي اني اراك بذا الاسى ... ولقد عهدتكم رقيق جنان
لوحل هذا الخطب في اعدى العدى ... كنت الحزين فكيف بالولدان
ولقاه والدة بشاشة وجهها ... تنبي عن المحزون كل هوان
نند بدلت من نضرة ومسرةٍ ... عبرات حزن فضنَ كالطوفان
حسراتها وجدا ولوعة جدةٍ ... يصدعن قلباً قدَّ من صوان

وأرى منـــــازل كـــــان افراحي بها	واليوم أضحت ملتقى احزاني
تلك المشاهــــــد حجتي في لوعـــــة	لي فوق لوعتكم وحزن ثـــــــــان
فعلام ذاك الانقلاب بسرعـــــــــــة	فغيـــاب جرجي قـــالب الأزمـــان
يا أيها المولى الحزين لفقـده	انـــــا عليـــــه في الأسى سيَّـــان
أعطـاك ربـك الكثير فقـل مـن	أعطى كما أعطيت من احسان
اعطـاك عقـلاً كـامـلاً وشهـامـةً	ووجـــاهـــــة ومكـــارم الاعيـــان
وبشاشة ومرؤة ومعـــــارفـــــــاً	ومحبـــــة الاعـــــداء والخلان
وقرينـــــة حوت الفضايـــــل كلهـــا	وكـــــذا ملايكـــــة من الغلمان
فقـــــد القليـــــل من الكثير خسارة	وذهـــاب كـــل غـــايـــة الخسران
لا تيـــأسن ان قـــد فقـــدت قليلــه	كن صابراً بـــــــــل شاكر الرحمان
مـــــاذا أقول معزيـــــاً ومسليـــــاً	وبـــــأي الفـــــاظ واي لسان
او كيف يمكن ان اعزى والــــــــداً	وانـــا بـــذا مـــا واحـــدٌ عزاني
من لا ينوح على الزكي وعلى النهى	من لا ينوح على فتى الفتيـــــــان
من كـــان يعرفـــه ومـــا عرف البكـــا	لبكــــــاءه لم تكفـــــه عينـــــان
يـــــــا قـــــدوة الاولاد لم ابرَّهم	بـــــالوالـــــدين وسلوة الاخوان
ان غبت عن عيني فـــأنت ممتـــــلء	في خـــــاطري وهواك في الاذهـــــان
انت الملاك فلا مقرك دارنــــــــــا	دار الشقـــــاء بـــــل في نعيم جنـــــان
دعنـــا نعـــاني العيش بعـــدك غصة	نم واسترح في جنـــــةٍ بـــــامـــــان

في ١٥ ك ١ سنة ١٨٩١

من صديقه

الدكتور شاكر الخوري

وقد انسريت جداً من تعين ولده اسعد ترجمان متصرفية لبنان وذلك من انعام دولتلو يوسف باشا الدي عرف خدمة اسكندر بك بزمان والده وصهره فهنا دليل العنصر الكريم وذلك في ك ٢ سنة ١٩٠٨ .

المطران بولس عواد

عائلة عواد من حصرون لاوية دون شك ويقول اخر ان افرادها لاوين الطائفة المارونية لأنهم كلهم كهنة ومطارنة وبطاركة ولو قرأت تاريخ هذه العائلة نجد صدق قولنا فقد ظهب منا السمعاني الشهير وسمعاني آخر والبطريرك سمعان عواد والبطريرك يعقوب عواد والمطران والمطران يعقوب عواد الذي عمر دير قطين والان منها مطرانان هما المطران اسطفاناالذي توفى سنة ١٩٠٨ والمطران بولس وجملة كهنة ايضاً وافراد هذه العائلة نشيطون جداً وقد أتى كل فرد من بطاركنها ومطاريبها بحركة قوية في زمن البطريرك يعقوب حصل انقسام كلي بين المطارنة وبعدما أنزلوه رجع بأمر روحه وقهر اخصامه وفي زمن البطريرك

سمعان اختلفت الطائفة على بطريركين وأما المطران بولس الذي صار مطراناً مع ان قسماً عظيماً له فهو مثال النشاط والكد وهو الوحيد من المطارنة صاحب التأليف فقد كان خورياً عند القاصد بياقي وكان تلميذه بالنفوذ والنشاط وهو يحب النفوذ كثيراً ولذا ترى له اخصام بكثرة ويحب الشغل وقد ترجم مصنفات مار توما اللاهوتي الى اللغة العربية ويأخذ بافي تاريخه من برنامج غانم وهو شقيق يوسف بك عواد مدير حصرون الدايم وكذلك الشيخ لطف الله والشيخ مخايل من الذوات الكرام والتجار العظام .

(الى لساني)

يــــا لساني أكفف عن الهجو وأعلم ... ان كشف العيوب مر كعلقم
افتبغي من ذاك اصلاح شأن ... لرجـــال خــــدعت للصمت الزم
سابق الظعن حـــافظ قلت فيـــه ... هـــل بهذا ظننتــــه صار يفهم
قـــد هجوت امبرة القمـــل حقـــاً ... هـــــل ظننت احوالها تنتظم
لا وربي فـــــــذاك امر محال ... ان نراه وحق عيسى ومريم
كـــل وغـــد على خطـــاه مقيم ... لم يشا تركـــه ولو بـــات معـــدم
مـــالك عـــايـــد سوى كسب خصم ... كـــل يوم تلقى عـــدواً مقتم
ان كسبنـــا بـــالهجو خلا وحيـــداً ... ألف خصم نراه حولك حرم
واذا مـــــا اضحكت مرأ بهزل ... الف نـــذل يبكيك دمعـــاً معتـــدم
سامـــع الشعر منك يبـــدي ابتسامـــاً ... ويريـــد اسماعـــه لو تـــألم
وبسر يلوم من قـــــد تلاه ... ثم يخشى اشعـــارنـــا لو تبسم
دع رجـــــالاً عيوبهم في حشاهم ... دع وودع قوافي الهجو تسلم
كم قبيح هجوتـــــه لعيوب ... خلتـــه ساقطـــاً لـــذاك تقـــدم
ان هـــذاالزمـــان وقـــد وبهوى ... كـــل وغـــد في فسقـــه قـــد تلطم
فـــأجـــاب اللسان دعي وشأني ... كـــــل شعر من غير هجو محرم
أظننت المحـــــاء مي لكسب ... او لشان او غـــــــابتي ان اكرم
انما مـــذهبي وجـــــل مرامي ... اظهر الحق لو غـــــدوت مهشم
افتـــدري يـــا صاح لم صار شعري ... عنـــد ذي الـــذوق عـــاليـــاً ومعظم
لا نظـــــم لا ولا لـــروى ... لا لبحرٍ ولا لوزنٍ نحكم
بـــل ترى الحق واضحـــاً فيـــه طبعـــاً ... واخــــــا القبح مثلما هو يرسم
ان طبعي اذا وجـــدت قبيحـــاً ... قلت في هجوه القريض منظم
ان اتـــاني بـــالفكر معنى ضحوك ... فغرامي ابـــديـــه شعراً ليعلم
ان منعنـــا عن القريض اغتصابـــاً ... ووجـــدنـــا في نظمـــه القلب بظلم
احفر الارض غيلـــة وانـــادي ... ان نخاســـــــا دني ملطم

الكذب

(ارسلتها الى مدير المهذب في زحله الفاضل الخوري بولس الكفوري)

سيدي مهذب المهذب

اعلم سيدي انني ابتدأت بتحرير هذه الرسالة الساعة الثالثة بعد نصف الليل هببت لها من رقادي وقد اضأت القنديل بجانبي ولعدم انتباهي له وكان قوياً انكسرت الزجاجة ، فاستعضت بغيره حالاً ولكني لم انل مقدار الضوء الكافي لانارتي .

واما سبب قيامي في تلك الساعة فهو انشغال فكري واضطرابي واسي وهلم جراً من حادثة جرت لي يومئذ ، وذلك انه كان لي صديق قديم العهد . وبالاولى انا كنت صديقه لان الصديق من صدق معك ، فكنت انشرح منه لظرافة حديثه ودماثة اخلاقه ، فكانت هذه عملته معي وانا منشرح منها . وكنت مقابلة لذلك اخدمه بكل ما قدرت عليه ان كان طباً او حباً .

فمن مدة شهر حصل لي شغل عنده لغيري يمكنه عمله . فرجوته . فوعد ولم يفعل مدة شهر . فانزعجت جداً من هذه المحاولات خصوصاً من رجل كنت افتكر انه يفدي نفسه لأجل خدمتي فخاب الأمل . وناهيك ما هناك من الغيظ والكدر والتأسف والاحتقار بكذبه عليَّ لان للكذب تأثيرين الأول انه اضلك عن الحقيقة وتضررت بضلالك عنها والثاني ان الكذاب قد احتقرك لما سحر بك وعرفك غير الحقيقة .

وبينما انا في تلك الحالة وجدت بجانبي كتابكم الذي وصلني في ذاك اليوم والذي تطلبون به مني بعض مقالات لادراجها في مهذبكم . وما ذاك الا من غيرتكم على جريدتكم التي تصرفون اجتهادكم لنجاحها وانشراح وافادة القاريء كباقي اعمالكم . وحيث كنت متأثراً من كذب الرجل وكنت اراجع في فكري اضرار الكذب فجعلته موضوع المقالة . وحيث جريدتكم المهذب قصدها كأسمها فأول تهذيب هو التعود على الصدق . وحيث وجودكم في مدرسة وعندكم شبان حديثي السن فيكون التهذيب مؤثراً فيهم خيراً ونافعاً أكثر من الذين مضى زمن تهذيبهم وانقطع منهم الرجاء .

لا اعيد ما قاله المهذبون والدين والاداب عن الكذب وتحريمه واضراره فهذا تحصيل حاصل . ولكن غايتي الوحيدة ان اعالج هذا الداء كوبآء مميت . فكل من تكلم عن الكذب يذكر لنا قبحه فقط ولكن لا يقول الطريقة لردعه او تخفيف انتشاره فغاية مقالتي هذه ان ابين أسباب الكذب حتى تعرف هذه الاسباب ويبتعد عنها .

فأول اسباب الكذب هو التربية القاسية لأن الولد يكذب ليتخلص من ذنب ارتكبهُ لانهُ لحد الان لا يعرف ان يتخلص منه فكل من الوالدين والمدارس هم بالاكثر يولدون الكذابين لان الكذابين على جملة أنواع وعلى حسب السن والصنعة والحالة فالولد يكذب ليخلص من قصاص والكبير للغش والمنفعة وهذا هو اللص الحقيقي مع ان كل ذلك غير صحيح لان الذي يغش ويغافل الناس فغشه يكون مرة واحدة فلا يمكنه ان يعيدها لصاحبها مرة اخرى وهذا المغشوش يفضح الكذاب ويعطل شغله وقد رأيت الان في احوال التجارة ان من هو صادق يكسب أكثر من الجميع . لأنهُ من زمن عندما كان الكذب قليلاً والصدق أكثر كان الذي يكذب يربح لبساطة المشتري واليوم حيث كثر الكذب صار الذي يكسب هو الصادق .

وأما التربية وخصوصاً في المدارس فهي ينبوع الكذب فقساوة المعلم وقصاصاته الصارمة هي التي تجعل التلميذ كاذباً فليفتكر كل منا عندما كان تلميذاً وسقط بخطأ كيف احضره المعلم والرئيس وكيف كان وجهاهما العابسان والقضيب في ايديهما ويقولان له قرّ في ذنبك فكيف يقرّ ولكن لو أخذوه باللطف والبشاشة وقالوا له بلغنا انك عملت الامر الفلاني الذي هو مضر وضرره كذا وكذا وله قصاص ولكن حيث هذه أول مرة نسامحك فقل لنا كيف صارت المسئلة واذا قلت لا قصاص عليك وبالعكس اذا كذبت فتراه يقر حالاً ولم يعد الى ما عمل وبهذه الكيفية لا يتعود الولد على الكذب . لان في تكرار العمل تصير العادة وتنمى وبالعكس اذا لم يتكرر هذا دواء عظيم لهذا الوباء .

والتربية هي اعظم شيء كما قلنا فلو كانت الأهل والمدارس تجعل اهمية عظيمة لمنع الكذب لكان يقل جداً وهذا العمل يلزم ان يكون من قبل الأهل والمدارس والهيئة الاجتماعية ان تقاصص الكذاب وترميه من هيئتها فحينئذ يعرف مقدار خطائه

عندما كنت في مصر سنة ١٨٧٠ وجدت رجلاً من أهل بلادنا فسألته عن شغله فقال انه مستخدم عند لورد انكليزي حضر هذه البلاد ليسكنها فأجبته كيف يترك سكن انكلترا ويأتي الى هنا خصوصاً مدة الصيف فضحك وقال ان له قصة غريبة فقلت له وما هي قال ان من عادة اللوردات ان تعاشر بعضها وقليل ما تختلط بغيرها ففي أحد الايام كان لوردنا يلعب الورق مع رفاقه فوجدوا ورقة ضائعة فسألوا عنها فانكرها الجميع واخيراً وجدوها معهُ فعند ذلك كتبت الجرائد عنه وطردته اللوردات من بينها وامرأته تبرأت منه فما عاد يمكنهُ ان يسكن انكلترا انظر تأثير التربية .

مثلٌ آخر اخبرني عنهُ بعض الذوات وهو انهُ دعا رجلاً من بلادنا له معرفة في الخيل واعطاه مائة ليرا ليذهب الى العرب ويشتري له حصاناً فتوجه هذا الرجل ودخل على شيخ قبيلة وطلب منه حصاناً ظريفاً فأراه الشيخ واحداً وطلب في ثمنه مابة ليرا فرفض الرجل ودفع له خمسين فلم يرض الشيخ فأخيراً طلب منه الرجل ان يرسل معه دليلاً يوصله الى قبيلة اخرى لمشترى حصان فطلب الشيخ صعلوكاً من العرب

وأوصاه ان يرافق الرجل ويرجع معهُ فتوجها وعندما وصلا الى شيخ القبيلة الثانية طلب الرجل حصاناً فأحضروه له فطلب الشيخ ثمنه مائة ليرة فأجاب الرجل انه عرض عليَّ حصان من الشيخ الفلاني بخمسين ليرة مثله وما رضيت فعند ذلك خرج الصعلوك رفيق الرجل من الخيمة وناداه فخرج الرجل فقال له الصعلوك انني راجع الى قبيلتي الان ولا ارافقك فأجابه لماذا فقال له انت كذاب قلت ان الحصان عرض عليك بخمسين وما قبلت فهذا كذب لا ارافق الكذاب فرغماً عما وعده واعطاه ليبقى معهُ فما قبل فتركه . انظر هذه التربية فلو كان هذا الصعلوك أمامي لكنت اقبله والرجل نفسه اخبر هذه القصة .

وقد اتفق لي عندما كنت في الشام وحضرت الى بيروت انني اشتريت عدة كتب بلغ ثمنها مائة فرنك فقلت للبائع سأعطيك تحويلاً على فلان عميلي . فقط لا تقول له انه ثمن كتب لانه يستغليها وربما لا يدفعها لأن العميل كان صاحبي جداً ولا يريد ان افرط الدراهم . فقال لي اذا سألني أقول له ولا يمكنني ان أكذب وهذا الرجل ليس بغني بل محتاج فقلت له اذاً انا اترك الكتب فقال اتركها فتركتها وذهبت ولم يأسف على تركها . ولكن بقيت مؤثرة فيَّ شهامة هذا الرجل وصدقه فأخبرت عميلي انني اشتريت كتباً من فلان لازمة لي سأحول عليك بمائة فرنك فقبل ففي اليوم التالي رجعت اليه وقبلته بين عينيه واعطيته التحويل وكان أغلب رجوعي لصدقه لانني قلت لا بد ان يكون صدقه سبب خسارته فيتعلم الكذب اخيراً على حسابي وقلت له عن ذلك وحرضته على مداومة الصدق ولحد الان لم انسَ هذا الرجل من مدة ثلاثين سنة وما عدت نظرته عمري وهو اخو مسيو عصاعيصو التاجر في بيروت وعسى ان يكون لم يزل كما كان .

فهذه الحوادث تلذ جداً حتى الكذاب نفسه ينشرح منها لأن الكذب ليس بطبيعي في الانسان بل أخذه الخوف او لجر منفعة ويعرف جيداً انه معيب لأنه لو لم يكن معيباً لما يستحي الكذاب اذا قالوا عنه كذاباً.

والخلاصة ان باباً كهذا متسعاً جداً يوجد له جملة كتابات ولكن فليعلم الكذاب ان باحتقار الناس له وعدم ثقتهم فيه كفاه قصاصاً . فأعظم محب للشخص هو والده وقد كان لرجل ثلاثة اولاد احدهما كذوب جداً لا يصدق والثاني صادق جداً لا يكذب والثالث تارة في حالة الكذب وتارة بالصدق فسألوا والدهم اذا طلب الباري تعالى منك ولداً يريد ان يميته فأيهم تسمح به فقال بالذي تارة يصدق وتارة يكذب لان الكذاب عرفته فلا أصدقه مهما قال فكري مرتاح معه والصادق مرتاح معه أكثر وأما الثالث فيبقى فكري مشغولاً بين صدقه وكذبه فالله يريحني منه .

وكان رجل يرتكب جملة معاصي ولا يرتدع عنها وكان تحليله لها انها مخفية فقالوا له لا تطلب منك تركها فقط نطلب منها واحدة وهي ان تصدقنا ولا تكذب فوعد فعند آخر السهرة حضر فسألوه اين كنت

فما اراد ان يكذب فقال فعابوه فعند ذلك ارتدع بالتدريج واصلح حاله بترك الكذب والضرر الحقيقي للكذاب هو احتقار الناس له مهما كان غنياً .

فلو كنت في مجلس ورأيت رجلاً مهاباً غنياً فصيح الكلام حلو الالفاظ عالم في كل فن كم تعتبره في عينيك ولكن بعد كل هذا قالوا لك انه كذاب فتراه يسقط من عينيك ابدا وقد قلت في هذا المعنى :

مهما يقولون هـــــذا الشاب محتشم	مؤدب عـــــالم او صاحب الـــذهب
فلا يوازي اذا من بعـــــد ذا عطفوا	لكنـــه كـــاذب فـــالمدح لم يطب

هذه افكاري واعتبر ان الكذاب مضر بالهيئة الاجتماعية فنرجو الموكلين بالتربية من هذه الهيئة ان تخلص حالها منه وتقاصصه في نفيه مها وعدم اعتبارها له وانفراده منها وهذا يمكن بكل سهولة وكذلك المربين في البيوت والمدارس بان يعطوا اعظم قصاص للكذاب ويسامحوا الصادق اذا ذنب وأقر بذنبه وبذلك ترى اولادنا جيلا بعد جيل يستريحون وارجو من المهذب ان يمسك هذا المبدأ ضد الكذابين وبذلك يكون هذب حقيقة .

واعظم ضرر للكذاب عدم حياءه من الكذب فلكثرة العادة لم يعد يختشي ويغش نفسه . صدف لأحد الكذابين انه رجع من سفر بعيد من عند العرب فحضرت الناس تهنئه بسلامة الرجوع وكان حاضراً في هذه الحفلة رجل حر الضمير لا يطيق الكذب فسألت المهنئون الرجل عن سفره وما حدث له فأجاب انني كنت في بلد عند العرب فيها نهر عظيم (كالبردوني مثلاً) فكان عندما تأتيه الجمال لتشرب تنشف الماء تحت محل شربها فهز الرجل الحر رأسه فاخيراً قال ايضاً انه عندما اراد ان يعلق الى حصانه ادخله الى حاصل الشعير فأكل ربعه فهز الرجل الحر رأسه بزيادة واخيراً قال ذلك الرجل انه بينما كنت جالساً واذا بامرأة بدوية تصيح وتأتي نحوي فقالت لي : والله ما انت ولد فلان ؟ فقلت في نفسي ربما يكون لهذه المرأة ثأر على والدي فتأخذه مني فأجبتها حالاً كلا لست بولده فعند ذلك امى الرجل الحر غليونه من يده وقال له يخرب بيتك حتى باسمك تكذب وخرج فكان لذلك ضجة ضحك ولكن الكذاب لم يخجل .

أقبل أيها الرئيس احتراماتي الفائقة ولا تعد ذلك من جملة المقالة بل اعتبرها من أصدق الصدق وان شاء الله أقدم قدر الامكان ما يخطر لي في البال وأكون سعيداً ان قدرت أقدم كل مدة بعض افكاري عسى تنفع القارىء واملي ان جريدتكم تمشي بكل نجاح وقد تصفحت اعدادها الماضية فوجدتها نافعة مهذبة ملذة المواضيع وخصوصاً خالية من اخبار اليابان ونروج والولايات المتحدة وغيرها مما لا يهمنا ولا ينفعنا امرها فدوموا للتهذيب بدعاء .

شاكر الخوري الكفوري

أكليروس بلادنا

الاكليروس فئة من البشر لا يفتخرون بالحسب والنسب مثل جدهم ملكي صاداق الذي لا يذكر له اب ولا ام في ساير الأمم وهكذا كانت الرسل بل يفتخرون بالاعمال الحسنة والعلوم والسلوك الحسن ويكرمون لأجل ذلك فلهذا لا اذكر نسب واحد منهم ولا ما كان عليه قبل دخوله في هذه الوظيفة فكيفما كان حاله فيكون اشرف نسباً من نسب الرسل فقط أذكر ما عمله من المبرات وما أبقى من الاثارات مبتداءً بالطائفة الأكثر عدداً في لبنان وهي الطائفة المارونية التي خلد ذكر أكليرسها الفاضل يوسف افندي خطار غانم الكافليري الشهير ولو كنت من الاكليروس لكنت لا انسى فضله لانه جمع وتعب وصرف واخيراً أفلس ولكنه باقي ريس جمعية مار مارون وقد تشكى يوسف المذكور من عدم وفاء الاكليروس الماروني معه ونشر صور التحارير التي حضرت له من اللذين قدم لهم نسخاً ومن جملتها قداسة البابا وقد نال نيشان برتبة كافلير وكتب هذا التحرير البابوي بالايطاليانية واسم الكاب برنامج اخوية مار مارون فقلت له :

لا تنعين يـــا يوسف كن عـــادلاً	وتـــأمـــل الافكـــار في اشعـــاري
هب لم تنـــل من آل مـــارون منـــاً	من جمعك البرنـــامج الخطـــارِ
ان كـــان من جهـــة خسرت دراهماً	فكسبت من اخرى الـــــــذً ثمارِ
لولاه مـــا سميت طليـــانيـــة	جوزيـــي او لقبت كـــافليري
ولكـل اسم قـد أخـذت تقـاعـداً	مـــن كسبـه والقبـض فـي نـوار
وتقـول مـع هـذا فلست بغـانـم	يـــا خيبـــة المعروف بـــالاشرار
هـذا جـزء للـذي فـي كتبـه	لا يفـرق الاشرار عـن اخيـار

غبطة البطريرك الياس الحويك

حاصله ان رئيس الطائفة المورانية الان هو غبطة مار الياس الحويك رجل الدين حقيقة وعنده في الكرسي مطرانان وهما المطران يوسف نجم والمطران بولس عواد الذي ذكرناه مع عائلته وأما المطران يوسف نجم فهو رجل سياسي ماهر كاتب عظيم وهو وكيل البطريرك الزمني وأما الكتاب فهم ابن عمي الخوري عبدالله الخوري الذي نال ثقة البطريرك وهو المونسنيور الأكبر وصاحب الأهمية والخوري يوسف صقر الخوري اللطيف الكاتب صاحب البشاشة والعلم والخوري عريضة عالم لاهوتي واما المطارنة منهم مطران بيروت ومطران صيدا اللذان سأذكرهم واما مطران بعلبك فهو المطران حنا مراد ابن اخت البطريرك حنا الحج فهو محافظ على اموال الوقف لا يفرط منها وملتفت لنجاح ابرشيته كما والمطران يوسف اسطفان الذي انشأ التمدن العماري في عين ورقة فرتبها على النمط الجديد لاستقبال التلامذة وهو من عائلة تستحق المدح

لوقفها هذه المدرسة للطائفة التي رفعتها بالعلوم والمعارف في زمن الجهل واما المطران بولس مسعد مطران دمشق من عائلة انعمت على الطائفة ببطرك وهو البطريرك بولس مسعد عالم نزيه مملو شرف فانه رفض مايتي الف ليرا من لافجري في حادثة الستين حتى لا يقال عنه شيئاً وقد احيا المطران بولس الابرشية بعد ما كانت خربتها ديون المرحوم المطران نعمة الله الدحداح فبنى لها كرسي عظيمة تنطح الجو بعلوها وهي مصيف عظيم وعلى العموم ان مطارنة هذه الطائفة حريصون جداً على أموال الوقف وهم اللذين بسعيهم وجدهم اوجدوها وشادوا هذه الكراسي لأن من مدة ماية سنة تقريباً كانوا ضيوفاً عند البطريرك او في احدى الاديرة فلهم الفضل في كلما جمعوا وعملوا من الماديات وتراهم الان محافظين عليها ولا تنفع سواهم ولكن يأتي وقت تنتفع منها الطائفة فمثلهم كمثل بخيل يجمع أولاده .

وخلاف الأمور المالية التي رتبوها فأنهم يحافظون على دين طائفتهم واذا ما كانوا اهدوا اصحاب الاديان الاخرى الى دينهم لكنهم حافظوا على من عندهم وبقت طوايفهم لهم فيا ليت الاكليروس اللاتيني حافظ على شعبه في اوربا وحفظه مثلما هذه الرعاة حفظت شعوبها .

وخلاف ذلك فهم رؤساء طوائفهم حقيقة لأن الشعب مشغول في معاشه وعياله ولم يعد أحد منه يمون على اثنين فكل طائفة تعتبر ذاتها عائلة واحدة ووالدها الاكليروس حافظ اموالها وأوقافها ولهم هيئة مرتبة من شماس الى خوري الى مطران الى بطريرك وأما الشعب ليس له هذه الهيئة فالأوقاف تخص كل فرد من الشعب اذا اراد الدخول في هذا السلك ولا يخص عائلة واحدة حتى تحاربها كما كان في زمن اللاوين .

(هارون والارملة)

ذكر تلمود بابل ترجمة جيلبر كولمن Gilbert Goulmin صفحة ١٦٩ نمرة ٢٩٦ الحادثة الآتية التي جعلت اختلافاً عظيماً بين هارون الكاهن الاعظم وبين كوره وابيران ودانان من بني اسرائيل من جهة احرى وهي كان لأرملة فقيرة غنمة لا تملك سواها فجزت صوفها لأول مرة فعندئذ حضر هارون وأخذ صوفها مدعياً ان أول صوف هو للرب حسب الشريعة فذهبت الارملة الى كوره تتشكى من هذه المعاملة فذهب كوره الى هارون وكلمه فلم يجبه اخيراً دفع كوره الى الارملة ثمن الصوف وذهب ساخطاً على هارون فبعد مدة ولدت الغنمة حملاً فحضر هارون وأخذه مدعياً ان بكر حيواناتك للرب حسب الشريعة فتشكت الارملة ثانية الى كوره الذي لم يستفيد شيئاً فغضبت الامرأة اخيراً وذبحت الغنمة فأخذ هارون الكرش والكتف لأنها للكاهن فعند الارملة ذلك لعنت الغنمة فحملها هارون كلها بقوله الشرعي ان كل ملعون يكون لك فكيف لو كان هذا معنا الان فنشكر فضل المسيح الذي خلصنا من هارون .

فهذه الاديرة هي دار عجزة لمن اراد الدخول فيها وقد قالوا ان مرادهم يخصصوا ديرين للعجزة فضحكت لعلمي ان كلها دور عجزة ،

واما العائلات التي لها الفضل على الطائفة بأوقافها هي عائلة بيت اسطفان لعين ورقة وبيت اصاف لمار عبدا هرهريا ومن جديد وقديم عائلة بيت زوين الذي شاد رئيسها المرحوم الخوري لويس المدرسة في غزير التي يستفيد منها كل طالب من كل الطوائف والذي يديرها اليوم بكل اجتهاد ونشاط منسنيور الخوري لويس ابن اخيه .

وحيث كنت موجوداً في سيامة البطريرك الياس الحويك الذي اعرفه خورياً ومطراناً وفي كل ادواره ممثل الصيت الحميد والدين المجيد وهو الذي يشتغل ضد صالحه ولا يشتغل ضد ضميره وقد حضر من رومية لأجل الانتخاب فنظمت له هذه القصيدة في سيامته التي كانت في ٦ كانون ثاني ١٨٩٩ وهو خلف البطريرك يوحنا الحج وكانت الأصوات بينه وبين المطران يوسف ابو نجم والاغلبية معه فعند ذلك قدم المطران ابو نجم اصوانه له حتى تم الانتخاب لان يلزم له ثلثي الاصوات وهذا ما رفع المطران ابو نجم في أعين الجميع لأنهُ صرف مشكلاً عظيماً عن الطائفة تحسبه له وهذه القصيدة هي :

بيوم هللت فيــــه الشعوبُ   ونــادى الله هــذا ابني الحبيبُ
بمركبــة البخــار كما توارى   اتـانـا اليـاس عن رب ينوبُ
لعرش البطركيــة قــد دعـاه   لكي بـدعـائـه تمحي الـذنوبُ
أجــاب دعــاءه والقلب مني   وغير الحي طبعــاً لا يجيبُ
فيوحنـا اعــدَّ لــه طريقـاً   وقــال لقومــه صوموا وتوبوا
ومن بعــدي الــذي يـأتي اليكم   يعمــدكم بنـار لا تــذيبُ
ويعطي الفــأس كي يبرى اصولا   لاشجــار بلا ثمر يطيبُ
ينقي بيــدراً ويصون قمحــاً   ويرمي التبن يــأكلــه اللهيبُ
يقيم من الحجــارة من جــديــد   لابـراهيم اولاداً تنـوبُ
ولكن لم يقــل من يجر هــذا   من الاصلاح اخره الصليبُ
لعلم منــهُ ان اليــاس حيٌ   شجــاع ليس ترهبــهُ الخطوبُ
ولم يرهبــهُ صلب او عــذاب   بحب الله جـور أو حـروبُ
امــار اليــاس يرهب من احــاب   وبعــل ام يخـادعــه الكـذوبُ
تزهــد في متــاع الارض حتى   تراه كــأنــه فيهــا الغريبُ
ومن قفــل الجيوب لزهــد دين   اليــه اليوم تنفتح القلوبُ
علا فوق الثرى حتى الثريــا   بنفس حـرة لا تستهـيبُ
سوى مــا كــان ضد الله امراً   ومــا متضرر منــه القريبُ
لفضل نــال هــذا العرش حقــاً   ولم يمنحــهُ ابــاه النصيبُ
وفكر الكــل متفق عليــه   وفكر الكــل متفقــاً يصيبُ
وشعب واحــد لم ينتخبــه   الى هــذه الاريكــة بــل شعوبٌ

فكنا قبل ان خضنا حديثاً ... على خلف ليحيى منذ يغيبُ
اشار الكل مع شكر اليكم ... وأول شاكر هذا الطبيبُ
اذا سألت قد داستكم لماذا ... اشير اليكم بانا المجيبُ
اذا الجندي وافى عن بعيدٍ ... ألم يعرفهُ من زي رقيبُ
فأنتم قد لبستم ثوب طهرٍ ... وذا ثوب البطاركة المهيبُ
بهذا الثوب قبلاً قد عرفتم ... وليس لعرفه امر عجيبُ
فلا لون الحرير ينوب عنه ... ولا يعتاضهْ البرد القشيبُ
تحل البطركية اين حلت ... فليس سواه جلباب رهيبُ
ولا عجب لهذا الطهر فيكم ... اما رباكم البيت الحسيبُ
مدرسة اليسوعيين روضٌ ... وقد غذاكم الروض الخصيبُ
أليس جوار مارون اخذتم ... لكم وطناً تحن له القلوبُ
اما لاون عاشرتم فزدتم ... على أفضالكم فضلاً يطيبُ
نشرتم طيبكم شرقاً وغرباً ... وليس لفضلكم ابداً غروبُ
ولا في قولكم اقوال ريبٍ ... ولا في صيتكم امر يشوبُ
حوى صدقاً وزهداً ثم علما ... وحب الله صدركم الرحيبُ
اذا أُلقيت اربعة سواكم ... نظيركم فمن هجوي اتوبُ
غدوتم راسنا من غير عيب ... ونحن الخاضعون لنا عيوبُ
ومن فرض الاصحا ان يداووا ... مريضاً قلبه المضنى كئيبُ
ارونا بعض ما قد قال يحيى ... ليحيى الذين اذ تبرى الذنوبُ
ودوموا ما يدوم الياس حياً ... أظن الله مني يستجيبُ

وعند رجوعه من سياحته ونواله العثماني المرصع ارخت ذلك ١٩٠٥ :

سحتم وزادكم غدا تقواكم ... من كان هذا زاده لم يعثرِ
فضميركم قد كان قائد فعلكم ... فلذا حللتم في المحل الأكبر
مذ بيوس قد باسكم عشراً فقد ... أصبحت أقدس بطرك في الاعصر
نلت امتيازاً من خليفة بطرس ... أصبحت منها فوق اعلا المنبر
واستقبلتك حكومة فرنسا كما ... شأن الملوك بها ومثل القيصر
وجلالة السلطان من احسانه ... اهدى مرصعهُ لأول محضر
ما ذاك الا قدر رأى في صدركم ... قلباً تقياً جوهراً لم يمكر
مذ صدركم ارخ به جمع التقى ... فتساقط الالماس فوق الجوهر

وقلت عندما نال وسام القبر المقدس من غبطة البطريرك اللاتيني على القدس :

لما رأى القبر المقـــــدس قلبكم … في كـــل ليلـــة طـــايفـــاً في انسه
وافـــاه امسى كي يرد زيـــارة … وبرى قـــداسة قلبكم في نفسه
فعلا على صدر يفيض طهـــارةً … فكـــانـــهُ لم يفترق عن قـــدسه

الامضا ولدكم

قـــديمـــاً شـــاكـــر الخـــوري … جـــديـــداً شـــاكـــر البطـــرك
وأحيـــانـــاً لمطـــرانٍ … اذا قـــاسمني شكـــرك

فدخلت على غبطته بعد ذلك بسنة وكان عنده جمهور عظيم ومن جملتهم سليم بك فقال لي غبطته لم تزل شاكر البطرك أجبتهُ حيث لم تتغير بعد فأني لم أزل كما كنت فأجاب سليم بك وكان سمع ذلك مني مرة ان شاكر يبقى شاكراً ما دام ذنبه محفوظاً ولكنهُ متى قطع يصبح شاكياً اعني عن الراء التي في آخر شاكر اذا زالت يصير شاك فأجبتهُ صدقت والذنب ذنبهم ان لم يبقوا لي ذنبي سليماً فضحك الجميع وانقطع ذنب سليم وسكت .

وقد توفت والدة البطريرك بسن التسعين وكانت منذ عشرين سنة تنام في الكنيسة متعبدة جداً وعند توفيها نظمت هذه الابيات لغبطته ولم تصله :

اشار لي بعض صحبي ان اعزيكـــا … في فقـــد والـــدة كـــانت تواسيكـــا
من كـــان يعرف ايمانـــاً لكم ابـــداً … فلا يعزيك فيهـــا بـــل يهنيكـــا
في سن تسعين مـــاتت وهي طـــالبـــةٌ … من سن ستين ملقى الله بـــاريكـــا
واليوم نـــالت منـــاهـــا من يشك بها … بـــأنها لم تكن في دار فـــاديكـــا
ان كـــان يسوع اضحى لاعنـــاً شجراً … لا ثمر فيـــه فهـــذا الامر ينبيكـــا
بـــانـــهُ مكرم من كـــان ذا ثمرٍ … مبـــارك كـــل غصن فيـــه تبريكـــا
من اثمرت مثـــل مـــار اليـــاس بطركنـــا … فهـــل لها غير عـــدن ان تلاقيكـــا
سمعت في أذن ايماني يقـــال لها … اهلاً بمن اثمرت للكون بطريكـــا
وعنـــد اقـــدام يسوع لجاثيـــة … ترجوه للبر والخيرات يبقيكـــا
من بعـــد ذا هـــل لكم عـــذر لفـــاجعـــة … او فرط حزن عليهـــا اليوم يبكيكـــا
أظن ان سكن الفردوس أحسن من … حلتـــا (١) وأطيب عيشاً من نواحيكـــا

(١) بلد غبطته .

وقد حدث حادثة مثلها مع اسعد رعد الذي توفت والدته بسن ثمانين ولا يخفى ما يكون عليه الانسان في هذا السن وكان اسعد صديقي جداً وعندما توجهت لاعزيه قلت له انشاء الله تكون في حضن ابراهيم (لان هذا مركزنا في الاخرة) ولكن الله يساعد ابرهيم هذه الليلة فضحك وهو يبكي .

وقد قابلت شاكر بك الخوري ترجمان الجيش المصري في مصر وقد شكى لي امر توفي زوجته وهو حزين جداً فقلت له اشكر ربك الذي انت بكيتها ولا بكتك لان لا بد من واحد يبكي الآخر فضحك وحلف ان هذه أول تعزية دخلت عقله وسمعها .

ففي يوم عيد غبطة البطريرك الواقع في ٦ ك ٢ لكل سنة يعطى غبطته ولمة عمومية وعند الأكل يضع الشماس اسماء الزائرين ليجلسوا على المائدة حسب ترتيبه فينظر الواحد منا اناساً فوقه دونه لان ذلك شيخاً وهذا متوظف وهذا راهب وهذا كاهن وهذا قريب مطران وقد وجدت مرة فرأيت نفسي تقريباً الاخير مع انه في الايام المعتادة الذي أتناول فيها الطعام على مايدة غبطته يضعني بعد المطارين فعند ذلك نظمت القصيدة الاتية حتى يصير الانتباه لذلك .

الى البطريرك الياس ذي الغبطة الكبرى ... ومقدامنا في الشرق جئت اشتكي الامرا
فحبي دعاني ان ابث شكايتي ... لأني سمعت اللوم في حقكم مرا
وما ذاك من ذنب عليكم وانما ... تعدُّ ذنوب التابعين لكم شرا
ففي عيدك المأنوس تعطى ولمة ... تلاقي عليها القس والشيخ والحرَّا
يرتبهم شماسكم في حلوسهم ... فلا نعرف الاسباب في ذا ولا السرا
تلاقي فلاناً جالساً فوق آخر ... فما سبب التفضيل شماسكم أدرى
ولما جلسنا قد نظرت لجانبي ... فأبصرت فوقي زمرة دوننا قدرا
وما بينهم شخص قبيحٌ مملقٌ ... فليس له فضل سوى كان مجترًّا
كذلك شيخ ما له من فضيلة ... سوى لقب عن عيبه يسبل السترًّا
كذلك عضو لو وعدنا بعدله ... ففي حكمه من كان ينصفه عرَّا
ومنهم مديرٌ قبلما نال قصده ... فكم مرة خرًّا وكم درهم برَّا
ارى ضابطاً فوقي يميس بسيفه ... اذا قابل الاعداء أول من فرَّا
ولكنَّ في حال السلام معجرفٌ ... وقد تنفرُ الانفارُ منه اذا عرَّا
كذلك رهبانٌ واعضاء مجلس ... كذلك شماسٌ لشماسكم خرَّا
ففتشت في نفسي وجدت بأن لي ... من الشعر نظم خلته الايةُ الكبرى
واني استاذُ العيونِ معلمٌ ... بمدرسة فاقت علاء على الشعرى
ولي شهرةٌ في كل قطر ومجلس ... وفي كل ناد قد أقاموا لها ذكرا
واني خطيبٌ عالمٌ ذو معارف ... وعندي وساماتٌ تزودني الفخرا

واني من افرنسا حمايةُ شعبها   فتحرسني بحراً وتكرمني برًّا
وعندي تأليفٌ اذا ما ذكرتها   كأني ذكرتُ الشهدَ والسحرَ والدرًّا
وعندي مالٌ لو يقاس بمالهم   ليرفعني فتراً ويخفضهم مترا
واني متى شئت الدراهم حاجة   فأجمعها نثراً واقبضها شعرا
فكم سهرت عيني لنيل مراتبٍ   وكم سامرت نجماً وكم شاهدت فجرا
واني منسوبٌ لنعمان من آتت   على ذكره التوراةُ في سفرها سفرا
ومنا بنو الحليان فرسان عصرهم   فقد أكتسبوا حمداً وقد زينوا العصرا
فمنا بنو كاروز اصحاب جبةٍ   لهم في سما مجد هلالٌ غدا بدرا
فمنهم غدت في كل ماضٍ وحاضرٍ   اسودٌ وفي تاريخهم زينوا الدهرا
غدا ارز لبنان شعار ثباتهم   فلا يعرفون الغدر والمكرَ والكفرا
ومنا بنو الحلو الذي شاع صيتهم   ببطركهم حنا الذي خلد الذكرا
كذلك ابناء الغريب من بهم   يحرر ذا رقٍ ويستعبد الحرَّا
بنو ملهب منا لهيب عيارهم   يُكسر اعداء وما عرفوا الكسرا
بنو فاضل منا بنو الفضل والعلا   بحرهم ذاك الذي شرف الحبرا
ونحن بنو الخوري قد نلنا شهرة   يقر بها خصم لنا اين ما قرًّا
(١) فمنا غدت نوابُ لبنان اولاً   تعلموا منا الطهر والفضل والبرًّا
(٢) ومنا قضاة عدلهم فاق علمهم   فمن نظرة في الجاني قد كشفوا الغدرا
(٣) ومنا مطارين ومنا قناصل   ومنا اطباء ومنا بنو غرًّا (٤)
(٥) وعندنا ابطال فاضعف واحداً   اذا اشتبك الفرسان أول من كرًّا
(٦) وعندنا تجار اذا بات درهم   باعلا من الجوزا لجيبهم انجرًّا
(٧) ومنا شياطين ومنا فطاحلٍ   وكهنتنا قد بات ايمانهم صخرا (٨)
ومنا نساءٌ كالرجال مهابةً   وعندنا رهبان بهم نرهب الضرًّا (٩)
(١٠) في كل وقت بات منهم مدبر   كذاك رئيس العام منهم غدا شهرا (١١)
تنازل خوف الشر واعظم راهب   وأفضلهم من يرهب الله والشرا
فكم راهب منهم رئيس مكرم   لاديرة كبرى واديرة صغرى

(١) والدي واخي خليل (٢) والدي لجزين ويوسف بك مبارك لدير القمر (٣) المطران شكرالله ونعمان بن يوسف بك (٤) اطباء أنا واخي أمين وولدي حسيب وتوما الخوري وولده شكري (٥) منصور مبارك (٦) ابراهيم نصرالله واخوته وسليم شهدان (٧) انا وأنا (٨) الخوري ابراهيم (٩) عمانويل وغناطيوس (١٠) وجيدوس (١١) ارسانوس النيحادي تنازل

تراسوا اعوامـــاً وعنــد رحيلهم فما أخــذوا من غير احسانهم زخرا
ومنــا عبيــد الله كتم سركم ومــع صغره قــد نــال ميلكمُ جهرا [١٢]
وانّــا لنــا في كــل قطر كرامــة فضيفنــا مكروم ولو نهب العمرا
فننسى العطــا لكن لم ننس نعمــة اتتنــا ودومــاً قــد تقيم لها شكرا
نصاهر دومــاً كــل من كــان مثلنــا وتبعــد عنــا كــل من جــار او ضرًا
ولا نخفض النفس لغير ضيوفنــا ولا نختشِ جوراً ولا نرهب الفقرا
نعيش برغــد لا بــذلٍ كغيرنــا ولا لخلاف الموت نخي لنــا ظهرا
وانّــا اذا يومــاً بلينــا بنكبــةٍ فنحملهــا طوعــاً ونــدرع الصبرا
فــان لم نجد صبراً وكــادت تــذلنــا نفضل عن اذلالها القبر والحشرا
وقهراً لما لي عنــدكم من معزةٍ وجــاهٍ واكرام وحب ومــا جرًا
ومــع كــل هــذا لم انــل ادنى نظرة (من اعين شماس كــان لم يكن امرا)
فــأولى بشماس يمثلهــا حفلــة يرتب من قــد بــات من حولكم ترا
ويترك من يبقى بــدون مراقب ليلقى لــه من نفسه مركزاً حرًا
بــذلك لا عتبٌ عليــه ولا يُرى الى مثلنــا في عتبــه يلتقي عــذرا
حلفت يمينــاً لم أكن يوم عبــدكم اذا لم يكن شماسكم يعرف القــدرا
لاني ارى نفسي صغيراً على الغــدا وكــان مقــامي اقصر من ابي سمرا

عائلة بيت الخوري في بكاسين

حيث الزمتي ظروف الحال ان اذكر هذه القصيدة فاختصر تاريخ عائلتي فيها وهي :

ان أصل هذه العائلة من عين حليا وهي شمالي الزبداني ولم يبق فيها شيء سوى عين ماء وتوتة وقد زرتها والتقليد يقول انها بلد نعمان الابرص وزير ملك ارام في دمشق الذي ذهب للمداواة عند اليشاع النبي اخبرني مفتي الزبداني ان عنده اوراق قديمة تقول انه جرى حرب بين أهل عين حليا مع عائلة من بلودان اسمها بيت هلال لقتيل بينهما التي تغلبت على أهل عين حليا وحرقت البلد وشتت اهاليها ويقول النقل انه مرَّ على عين حليا والي الشام يومئذٍ ونزل ضيفاً على جدنا جمعة الذي كان اغنى البلد ورأى عنده ابنة جميلة اسمها ست الاخوة فطلبها منه فوعده بها حتى تكون بلغت لانها صغيرة وتوجه الوالي فعند ذلك هرب جمعة واتى لبنان الى بشراي كما ذكره الدويهي في كتابه تاريخ الموارنة صفحة ١٤٠ سنة ١٤٧٠ في

(١٢) الخوري عبدالله .

ايام المقدم رزق الله ابن جمال الدين بن سيف قال الدويهي بسبب ما اشتهر به لبنان يومئذٍ من الأمن قصده الناس من الأماكن البعيدة مثل أولاد جمعة الذين تركوا عين حليا وسكنوا بشراي فجمعة هو الأب الاصلي لهذه العائلة وكان له ستة اولاد: كيروز ورزق وحنوش وضاهر وشدياق وابو يزبك وسماهم الدويهي عناحلة وهم الذين حكموا مثل مقدمين في جبة بشري كما ذكره الدويهي .

وعندما سكنوا بشراي سكنوا برج ابو كاروز للان وهو محل راجي بك ويوجد مرج يقال له مرج ابي كاروز نزل فيه جمعة وأولاده وعندما عرف والي الشام بهرب جمعة بابنته ارسل حرق عين حليا وتشتت سكانها اللذين كانوا سريان ارثوذكس وعندما تفرقت الاهالي كان لجمعة اخان احدهما توجه الى راشيا وبقي محافظاً على مذهبه السرياني الارثوذكسي تسمى بعائلة الحلياني في راشيا والاخ الثاني اسمه الحلو ذهب لجهة حمص وحماه وسكن محل اسمه مشتى بيت الحلو ومنه عائلات بيت الحلو في بعبدا وجزين وغوسطا الذي كان منها البطريرك يوحنا الحلو والذين بقوا في المشتى بقوا روم ارثوذكس وخلافهم تمورنوا لوجودهم بين الموارنة .

وقد تفرع من هذه الثلاث اخوة عيال عديدة خصوصاً عائلة ابو كاروز من بشراي التي منها بيت ابو ملهب في بمهري وبيت الغريب في بعقلين وبيت ابو كاروز من يحشوش وبيت ابو فاضل من البوشرية وبيت دياب من حلب أخذها السلطان سليم .

وعائلة بيت الخوري في بكاسين

اتى جدها الخوري جرجس عبود مع اخيه ابو سمرا الى نيحا في الشوف لخدمتها الدينية مع مزارعها ومن جملة مزارعها بكاسين وقد رسمه البطريرك اسطفان الدويهي في كنيسة غوسطا على نيحا ومزارعها سنة ١٧٠٣ كما في سجلات البطريركية فتوجه اليها وكان ذلك مدة حكم محمود باشا ابو هرموش رئيس الحزب اليمني الذي كان قاطناً نيحا وكان للخوري ابنة جميلة عرفها احد خادمي الباشا نصراني وطلب ان يتزوجها فرفض الخوري ذلك لأنه ليس من مزاويجه فوسط الخادم الباشا الذي توجه في السهرة الى بيت الخوري وعند خروجه وضع صرة في الشباك وقال يا صرة اريد ابنة الخوري مجهزة لزواجها بخادمي فلان وخرج هكذا كانت العادة وعندما تأكد الخوري ان ليس له مناص من ذلك رحل ليلاً الى عماطور لان لها حق تحمي من يأتيها مدة سنة فأكرمته اهل عماطور وقدمت له كل لوازم معيشته وبعد هذه السنة رحل الى الباروك لانها تخص الحزب القيسي فلا دخل لأبي هرموش فيها فتوفى فيها وكان له ثلاثة أولاد الأكبر كان متروجاً من بكاسين عندما كان والده يأتي اليها من عائلة بيت عفيف وكانت والدتهم من عائلة عيسى سيف من عرمون كسروان التي رحلت الى بيت لهيا وخدمت عند الامراء الشهابيين بسبب حروب بينهم وبين بيت حبيش لان احدى رجال بيت عيسى سيف قتل حبيشي عندما كان يعارضه في سقي الماء وقد اخبرني القس زوين الراهب انه كان يوجد اتفاقية بين بيت حبيش وبيت زوين على عداوة بيت عيسى

سيف وان الذي يخون من الاثنين يكون عكروتاً (هكذا كانت المعاهدات) فعندما توفي زوجها أخذت اولادها الى عند اخوتها في بيت لهيا اللذين سموا بالكساروه وعندما احتاجت بكاسين الى كاهن طلبوا صهر الضيعة ابن الخوري عبود الذي رسمه المطران سمعان عواد على مذبح مار تقلا في بكاسين في ٢٤ ك ٢ سنة ١٧٢٨ كما هو موجود في أوراق المطران المذكور في بكركي وهذه هي صورة السيامة .

انتخب الثالث الأقدس الشماس اسطفان ابن المرحوم الخوري عبود قساً على قرية بكاسين من معاملة جزين اذ تم عن يد المطران سمعان عواد الحصروني مطران دمشق الشام (فيكون روحنا من روح بيت عواد) وهو الخوري اسطفان الأول وبقت اخوته في بيت لهيا وهي عائلة الخوري الآن وكان للخوري المذكور عندما حضر لبكاسين ثلاثة أولاد أكبرهم ابو عساف رزق الله والثاني الخوري ابراهيم والثالث ابو فارس انطون وقد قال الخوري الى أولاده انكم في ارض غريبة وحتى تكونوا معتبرين بين اهلها يلزم ان يرتسم منكم كاهناً على القرية واخر يخدم حاكم البلاد وهكذا حصل فأبو عساف خدم عند الشيخ علي جنبلاط أول جنبلاطي حكم وكان وكيل املاكه في أقليم جزين وساحل صيدا ووكيله في الأحكام توفي له ابنتان تزوج أحدهما فرنسيس العازوري وهذا سبب دخول بيت العازوري في خدمة بيت جنبلاط وقد تزوج بالثانية اخو سلفته الخورية ابراهيم وابن عمه يوسف الخوري من نسل اخي الخوري عبود الذي بقي في نيحا واسكنه بكاسين وهو جد بيت نصرالله في بكاسين وتوفت عن ابنة تزوجها خالد ثم تزوج امرأة ثانية من بيت عزيز في جزين ارملة رجل من دسري وكان عمره سبعين سنة حين ولد ثلاثة اولاد ذكور نصرالله وفتح الله ويوسف فنصرالله خلف عبدالله وابراهيم وسليم وسليمان ولويس والبادري قيصر سليم سكن حيفا له ثلاثة أولاد يوسف قيصر نصرالله وعبدالله وسليمان توفيا بدون عقب ذكر وابراهيم عازب ولويس خلف فريد ونصرالله وجميل وقيصر هو رئيس اللعازارية في الاسكندرية وفتح الله خلف داود الذي خلف سليمان وجاد وفتح الله ويوسف سليمان وجاد في البرازيل وفتح الله توفي وسليمان له قيصر والياس والفردواما يوسف اخو نصرالله خلف وبطرس ومرعي الذي ولد ولدان وقد حضر من بيت لهيا صمور ومن نسله عازر حمود الذي ولد ولدان شديد وخليل سكننا حيفا .

وأما الحوري أبراهيم ابن الخوري اسطفان ولد الخوري اسطفان الثاني وغنطوس المسمى ابا خالد فمن نسل الخوري اسطفان جدي الحوري ابراهيم والخوري عبدالله الخوري ابراهيم ولد يوسف والدي الذي ولد شاكر وخليل وأمين وشاكر ولد يوسف توفي وحسيب وديع وأنيس وحليم وابنة اسمها حسيبه وخليل ولد بديع وعفيفه .

والخوري عبدالله ولد الخوري اسطفان وسعد وفرنسيس وتوما فالخوري اسطفان ولد جملة اولاد حبيب وفرح من الاحياء وبشارة وابراهيم ولويس ويعقوب توفوا ولحبيب ولدان عزيز وبديع ولفرح ولدان يوسف ونجيب سعد توفي عازباً فرنسيس ولد القس عمانويل ويوسف في اميركا البرازيل وتوما ولد ولداً وهو شكري .

وغنطوس ابن الخوري ابراهيم الأول ولد خالد ومبارك وتادي وريشا .

خالد ولد الخوري يعقوب توفي دون عقب وكليب ولد خطار ومبارك ولد عبد الأحد ويوسف وحنون ومنصور واسكندر توفوا بدون عقب ما عدا يوسف له نعمان ونجيب ولنجيب ولد جورج ولحنون سليم وتادي له خليل وغنطوس وبطرس خليل بدون عقب غنطوس له ثلاثة اثنان في اميركا خالد وتادي وواحد بشارة في بكاسين وبطرس له ولدان في اميريكا عبدالله ويوسف .

ريشا له مرعي وابراهيم والقس يوسف مرعي له سليم ولسليم ثلاثة الكبير نجيب وقد توفي وباقي شكري والياس وابراهيم له عبدالله ولعبدالله ولدان حبيب في اميركا ويوسف ولابراهيم ايضاً مارون وأمين لمارون يوسف وابراهيم وخليل وجورج ولأمين طانيوس .

ولانطون ابو فارس اخي الخوري ابراهيم وابن الخوري اسطفان الأول ولد اسمه فارس وفارس خلف لبوس وجدعون وابو اسطفان الذي توجه الى الاستانة في ذلك الزمن على قدميه وجدعون توفى في حياة والده وخلف انطون الذي توفى بدون عقب ذكر .

وأما لبوس فولد شهدان ومارون فشهدان ولد سليمان وشكرالله وسليم وعبدالله وشكرالله مطران صور وعبدالله خوري كاتم اسرار البطريرك الياس الحويك وسليم له ولدان يوسف وجورج واما مارون فله يوسف رفعة وفريد في اميركا وحليم توفي .

والفرع الثاني لهذا الفرع هو بيت الخوري في بيت لهيا والخوري الحصباني ونسله .

والفرع الثاني الذي بقي في نيحا وعرى تشتت في البلاد والذي اشتهر منه القس ارسانيوس النحاوي والقس غناطيوس وفرح النحاوي في حاصبيا واخيه ولم يبق أحد منهم في حاصبيا بل أولادهم سليم في بيروت وشاكر في حيفا ولشاكر اولاد وسليمان نجم من فرع عريه في بيروت .

المشهورون من عائلة بيت الخوري

في الدين المطران شكرالله مطران صور الى مصر واخيه الخوري عبدالله كاتم اسرار البطريرك الياس الحويك والخوري اسطفان انموذج التقوى بسن ٨٤ سنة وابن اخيه القس عمانوئيل رئيس دير الناعمة والقس اغناطيوس رئيس دير بحنين وكان منهم قديماً رئيس عام الرهبنة اللبنانية ارسانيوس النيحاوي ومدبر القس جيدوس بيت لهيا وجدي الخوري ابرهيم الذي كان وكيل البطريرك والمطران في ابرشية صور وصيدا سابقاً .

ومنهم الأب البادري قيصر رئيس الاديرة العازرية في الاسكندرية أول مدبر وخطيب وعالم .

وفي السياسة الان نعمان قنصل فرنسا في مغدور في مراكش واخوه نجيب مفتش بلدية صفاقص في تونس وابن عمهم سليم في مصر من كتبة الداخلية وفرح ابن الخوري اسطفان يوزباشي في الجندرمة اللبنانية ثم مدير في فتوح كسروان وكان منهم والدي يوسف الخوري عضو مجلس ادارة لبنان عن جزين ثم عضو في دائرة الجزاء ثم قاضي على جزين وكذلك المرحوم اخي خليل عضو ادارة وابن عمي يوسف بك مبارك مديراً على سوق الغرب وقاضي دير القمر وتوما الذي كان عضو مجلس في عكا ثم مدير المقاولات في قضاء جزين وسليم مرعي كان مستنطق البوليس في بيروت وولده شكري صراف البور وأول شيخ القرية منصور مبارك وخيال القضا وبعده شهدان في مشيخة القرية .

وفي العلوم الطبية انا الذي تعلمت في مصر وعلمت في المدرسة الطبية الفرنساوية في بيروت وألفت صحة المتزوج ونايب الطبيب وصحة العين ومجمع المسرات والثاني اخي الدكتور أمين تعلم في مصر وهو شاعر وكاتب له روايات ادبية طبيب الجيش اولاً ثم طبيب بلدية دمياط ثالثاً ولدي الدكتور حسيب ملازم أول في الجيش المصري الان كطبيب رابعاً ولدي وديع طبيب اسنان اصولي في بيروت خامساً ولدي انيس صيدلي عملي سادساً الدكتور شكري توما تلميذي في مدرسة الطب اليسوعية سابعاً والده توما والمرحوم ابن عمه الدكتور بشاره تلميذ الاستانة والذي توفي جديداً بكل اسف الدكتور نجيب سليم مرعي طبيب قضاء جنين .

وفي التجارة اولهم وأغناهم سليم نصرالله الخوري في حيفا وأخوه ابرهيم ومن بعده اولاده الان وكان اخوهم عبدالله باشكاتب مجلس التجارة في بيروت وهو الذي دبر اخوته وله الفضل عليهم والتجار الان في امريكا هم جاد الخوري في البرازيل مع اخيه يوسف وكذلك اخوه سليمان ويوسف فرنسيس وخالد غنطوس واخوه وأولاد عمه بطرس وحبيب عبدالله وكان قبلهم ابن عمهم مارون ومن أصحاب الصنايع اليدوية بالحفر الياس سليم مرعي في صيدا وأهم التجار في القطر المصري سليم شهدان وقد أدخلت في بيروت ولدى حليم للتجارة في محل برانجة في سوق الطويلة الذي مديره الخواجه نقولا الشويري من اشطر شبان بلادنا وصاحب ادارة عظيمة وقد تزوج اخيراً وقدم له ولدي حليم الخطبة الآتية :

« سيدي »

ان لموقفي هذا ثلاثة اغراض . اوله لأهنئك بزواج اتمنى لك به السعادة والتوفيق . وثانيها لاظهر ممنونيتي لما علمتني في الاشغال من البحث والتدقيق . وثالثها وأهمها لاقدم شكري لكم ولموسيو برانجه ذي العنصر الكريم لاعطائكما لنا هذا الدرس العظيم وهو انتخاب زوجات جميلات فاضلات وسيدات تقيات عفيفات فلا شك انكما ماهرين بانتخاب العرايس أكثر من الملابس دوما بالسعادة والاقبال ولكما

منا الشكر والامتثال . وانت ايتها الروزة المزهرة في آذار قبل اوانها . اهنيكِ برجل كريمٍ ساهر وشئيم ماهر ودليل مهارته . انتخابه لك رفيقة لحياته وشريكة لصفاته . وانت ايها المدير الجديد بالثناء اتمنى لك البنين بأقرب حين ولكن نحن على ثقة ويقين انهم لا يحبونك أكثر من تلاميذك المجتمعين في هذا المجلس العظيم حتى ولا مثل احدهم حليم الذي يهنئك من صميم الفؤاد ويقول لك طالباً من رب العباد :

دم في نعيم وفي رغـــــــد وفي فرحٍ وفي انشراح وفي عزٍ وفي سلم
وافرح بمن امهـــا بـــدرٌ وجـــدتها شمسٌ ووالــــدهـــا من اسلم الأمم
وانها قــــد غــــدت يوم الطراد لكم فنلتهـــا مثـــل تهم عـــالي الهمم
لها غــــــــدوتم تقولا وهيٍ روزتكم فـــاهنـــأ بما نلت فضل الكــد والشيم
مــــذ نلت روزا بتـــاريخ يقرٍلنـــا نـــال الشويري تقولا كـــافـــة النعم

١٩٠٨

ومن التجار وأصحاب الضمانات في بكاسين حبيب ابن الخوري اسطفان وسليمان شهدان الذي كان خيالاً في القضا .

أصحاب الرتب والنياشين رتبة ثانية متمايزة الى المرحوم سليم نصرالله مع كومندار البابا بيوس التاسع .

وأنا صاحب المجيدي في الرابع والعثماني الرابع ثم العثماني الثالث ونيشان جمعية الاكاديمي الفرنساوي ونيشان مجلس المعارف الفرنساوي ونيشان محامي القديس بطرس مع لقب بك من الذات الشاهانية وترجمان من تراجمة دولة فرنسا في بيروت وحمايتها .

فهذه هي العائلة التي التزمت ان افتخر فيها عندما وضعني الشماس تقريباً في آخر المائدة فتكون هذه العائلة مكونة من بيت الحلياني في راشيا وبيت الحلو في مشتى بيت الحلو وبيت ابو كاروز في بشراي وبيت ابو كاروز في يحشوش بيت ابو ملهب في بمهري بيت الغريب في بعقلين بيت الحلو في بعبدا وفي جزين وفي غسطا بيت ابو فاضل في البوشرية ووادي شحرور بيت الخوري في بكاسين بيت الخوري في بيت لهيا وفي اهمج من فرع الحلو بيت دياب في حلب وبيت ابي شقرا في مزرعة الشوف .

المطران شكرالله الخوري مطران صور

كان هذا المطران يرفض المطرنة لأنه رئيس مرسلين الكريم وهو مرتاح فاخيراً انجبر بقبولها وقسمت الابرشية الى قسمين صيدا بقي فيها المطران بصبوص والقسم الثاني صور اعطيت للمطران شكرالله مع اربعة

الاف ليرا من ابرشية صيدا وقد ارتسم يوم سبت النور في ١٤ نيسان سنة ١٩٠٦ وقد قلت الى البطريرك ان ابن عمنا استغاث بك لأجل اعفائه من المطرنة فلم ترض كما وانه استغاث في رومية فكذلك وختمتم ان يستغيث بالمسيح ويخلص رسمتموه مطران في اليوم الذي كان فيه المسيح في القبر وقدمت له القصيدة الآتية :

اوشعنا في العلى

يا ليت ما كنت من اهلي وأوطاني ... حتى أصدق من أنس ومن جانِ

ولا يقال باني شاكرٌ رجلاً ... لانهُ كان من اهلي وجيراني

قد كنت ابغي سكوتاً عن صفاتكمُ ... خوفاً من الشك في قولي وبرهاني

لكنني اذ سمعت اليوم مدحكمُ ... من العدى مثل تمداحي وايماني

نظمتُ مدحي بشعر وهو ما سمعت ... بالسرِ والجهر من اعداك اذ آتي

والان جئت به عمداً أقدمه ... حتى تري منزلتكم عند أوطانِ

ولا أتيت اليك اليوم مفتخراً ... عُجباً برتبة جثليق ومطرانِ

ولا فرحت باطواق مذهبةٍ ... ولا بثوبٍ حريرٍ احمرٍ قانِ

من كان مثلي فلا يغريه قاطبة ... الوان ثوبٍ ولا تغميض اجفانِ

لكن فخري بكم بل فخر عائلةٍ ... في لبسكم ثوب طهرٍ طول أزمان

في سن عشرين مثل الاربعين غدا ... ثوباً نظيفاً عفيفاً كل احيانِ

لا العمر دنسه يوماً ولا احدٌ ... ولا مكانٌ ولا آنٌ من الان

في كسروان وفي الأقليم مولدكم ... وفي الكريم وفي انجاد لبنان

فأنتمُ انتمُ في كل طارقة ... وانتمُ ابن ما كنتم بطهران

اعطاك ربك عقلاً سامياً فطناً ... اعطاك وجهاً بشوشاً رايقاً داني

لو ان رآهُ مجوسي بلا عظةٍ ... لبات في الحال نصراني وموراني

هذه صفات لكم ارث عائلةٍ ... في كهنة قبلكم جالت بميدان

كان اسطفان وابراهيم قبلكم ... وقيصر خالكم في الفضل اركاني

سبقتهم فلذا اصبحت اسقفهم ... فكل ما نلته من فضل رحماني

فدم كما كنت شكرالله عن صغرٍ ... فكن له وحده دوماً بشكرانِ

وعندما روحه حلت ببطركنا ... أصبحت مطران صور وارض عمانِ

اقامك الله في ارضٍ مقدسة ... قد ذاق يسوع فيها كل احزانِ

أقام ميتاً وابرا الصُمَّ مع برصٍ ... وصيّر النور في ابصار عميان

كانت مكافأته صلباً فكن يقظاً ... هذه مكافأة دنيانا لاحسانِ

في الصلب فخر ولا للعز منزلةً — في الدين فأحمل صليباً فوق امكاني

حملتهُ مثل خوري براسكم [1] — فأحملهُ في عنقكم من اجل مطران

ان كان للمرء فخر بعد عيشتهِ — في الصلب لا بالغنى او لبس نيشان

هذه بلاد تلاقي الانبياء بها — ماتت برجمٍ ونشر فوق صلبان

وايقظوا البعض منهم بعد ميته [2] — فلم يجد راحةً حتى بأكفان

عش كالمسيح بلا مأوى ولا سكن — وطف وكن سايحاً في كل بلدان

وكن كما الياس من غارٍ الى جبلٍ [3] — وأجعل غذاءك من انعام غربان

وقم من الموت ابراشيةً وجدت — أشبع بربع رغيف كل جيعان

لو لم تكن قادراً ما كنت منتخباً — من بطرك الياس اؤمن بابا روماني

من حيث عصمته باتت مؤكدة — في ظنه فيكم ليس بغلطان

كن مستعداً صبوراً رايقاً يقظاً — براً غيورا وقبل الكل عثماني

كيرياليسون

ابن عمكم الدكتور شاكر الخوري

« المطران بولس بصبوص »

من التاريخ تعرف حياته الادبية وهو ١٩٠٠ :

خدمت بسائر الاقطار ديناً — بكل امانة وبكل حين

فكل يدعي فيك اختصاصاً — ويعطيك الرئاسة عن يقين

تنادي اسكندرية ذا يميي — وباريز تجاوبها معيي

وصيدا تدعي ذا تاج راسي — وبيت الدين ذا بصبوص عيي

فمار الياس رب الدين فينا — رأى البصبزص الزم من يمين

قضى عدلاً واهى عن ضمير — وقال لبوليس الابن الامين

لخدمة دينك التاريخ حيا — فحقك في وراثة بيت دين (١٨٩٩)

(١) لان مرسلون الكريم يضعون علامة الصليب فوق قلنسوتهم .

(٢) اشارة لشاول الذي أقام صاموئيل بواسطة العرافة .

(٣) اشارة لمار الياس الذي كان تاهاً من وجه أخاب وكان الغراب يأتيه بالغذاء .

« ليلة ١٧ شباط »

وحيث المطران بصبوص مطراننا ذهبت ليلة سيامته الى بكركي ونحن هناك فاتفق وجود بطرس افندي نايماً في غرفتي فبدت منه كل هذه الافعال المذكورة في القصيدة فقلت :

يــا ليلــة بتهــا مــع بطرس الترس
تبــاً لها ليلــة قــد طيرت نعسي

لم يبق ثقب بــه مــا جــاء نغم
قــد كــان يغني قسوس الــدير عن جرس

كــانت لانغــامــه الاوزان قــائمة
على البروج خلاف الربــع والخمس

واصلهــا من عشا فــاصوليــا انهضمت
عنــد المساء وبــات الليــل في مغس

لــذاك قــد أصبحت لحنــاً موافقــة
لوزن فــا صو لا سي من ذلك الفلس

لما سمعت دويــاً تحت ملحفــة
رفعت في الحال لحفــاً من على رأسي

من بعـد دو قـدر مي فـا صو فقـال لنـا
قرب فقلت لــه لا لا فقــال سي

متممــاً سلم الانغــام مجتهداً
في جمــع فـا دائماً مـع صو فيـا تعسي

أدور الرأس والاذان اصدمهــا
بــاصبعي كي أرى الانغــام في خرس

حتى اشتهيت العمى في الصبح مع صمم
في الليــل في الفجر صابون مــع المرس

كي لا أرى منظراً في الصبح او سمعــاً
في الليــل او ضجراً في الفجر من تعس

ضاقت بي الـدنيـا مـذ دوت مـدافعهـا
مــع نفحــة ضيقت من شمهــا نفسي

كــان حرب البوير اليوم منتقــل
لاوضتي وبها المرتين في قبس

قت اللحــاف على كتفي وطفت بــه
كــل الماشي وامشي مشي مختلس

حتى وصلنــا الى صالون سهرتنــا
وكنت مفتكراً لم ألق من أنس

وعنــدمــا جئت ابغي رقــدة فــاذا
صوت الشخير من الشماس في غلس

نهضت في الحال ابغي ششمة فعسى
لم ألق شماسا او مــدفــع الترس

فضلت نومتهــا عن اوضة جمعت
صوت المدافــع والانغــام مــع رجس

مــالي وليلــة اريــاح اقــابلهــا
قــد كــان أولى بــه غيري من القسس

من بـدر بـدري ومن لم يـدرِ كيف جرى
يقول في فكره كفــاً من العــدس

« كريستوف كولومبو ومعرض شيكاغو »

كريستوف كولومبو الايطالي الاصل ذهب بامر ملكة اسبانيا وأكتشف القارة الاميركية بعد تعب وعناد زائدين ولما أقيم معرض شيكاغو سنة ١٨٩٣ أقاموا الى كريستوف كولومب تمثالاً وحرروا عليه اشعاراً بكل اللغات وارسل من بيروت اشعاراً باللغة العربية وكنت من جملة الذين نظموا وكولومبو معناها الحمامة فقلت :

مــذ كنت حيـاً يـا كـولـومب حـامـة اغنت شيكـاغو عن حامـة نوح
واليوم فيهـا قـد حللت ولم تكـن من قوم نوح بـل حامـة روح
فجميـع السنـة الورى انطقتهـا شعراً على تمثـالك الممنوح

ملحوظاتي على من نجحوا في الدنيا مثل كريستوف كولومب وخلافه أقول ان الصدفة وظروف الاحوال جعلت النجاح لهؤلاء لأنه لوكان صادف كريستوف كولومب احدى الزوابع في الاتلنتيك وغرقت مراكبه لما كان استكشف امريكا ولو ولد نابوليون الأول في زمن لويس الرابع عشر لما أمكنه الوصول الى الدرجة التي وصل اليها وهكذا نرى لكل مأثور ظروف صدفة حصلت له وهذا ما نسميه عناية مخصوصة الهية مهدت لذاك الشخص طرق النجاح .

وكان رجل اسمه الاب جبور يعلم في مدرسة في لبنان وقد ظهر منه فساداً عظيماً فطردوه وكان طرده مدة الشتاء وكان النهار ممطراً فخاف عليه البعض من الغرق لكثرة الامطار فقلت :

خـافوا على الأب جبور لـدى سفر من الغريق لامطـار بلبنـان
فقلت لا تخشوا من موتـه غرقـاً لم يغرق الله لوطيـاً بطوفـان

كان يدعي احد الثقلاء انني صديقه وكيف انني الان ابعدته عني فقلت بذلك :

كـان خلي سيـدي سعيـد وكنـا من قـديم اسكنتـه في حشاءي
فعراني من ثقلـه عسر هضم فلهـذا اخرجتـه من معـاءي

(المطران يوسف الدبس)

ان ما قلته في يوبيله كافٍ وقد توفي في ت ١ سنة ١٩٠٧ .

أكليروس الروم الكاثوليك

ان هذا الأكليروس هو مثال الهمة والنشاط فهو الذي رفع شأن الطائفة واقتنى لها املاك الوقف وكل ذُلك من كده وجده ولم يكن عندهم امراء او مشايخ كما في الطائفة المارونية لتوقف لهم املاكاً بل كل ذلك من كدهم وجدهم قهراً عما حصل لهم في الابتداء من المقاومات وتعب السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم كما ان الفضل في تقدمهم المادي والعلمي عايد الى بطريركهم السعيد الذكر غريوغريوس يوسف الأول الذي عرفته جيداً وكتبت عنه وكان يرجى كثيراً من السعيد الذكر البطريرك الحريجيري

ولكن الاضطراب الذي حصل في ايامه وبسببه أصيب بمرضه الاخير أخر كل نتيجة حسنة وأما الذي جمع الراحة والسكينة في الطائفة وتابع اسلافه في النشاط والغيرة هو :

غبطة البطريرك الحالي كيرلس الثامن جحا

الذي له الفضل العظيم في راحة الطائفة ولهُ الحمد الفخيم اولاً على انتخابه مطارنة لا يمكن يقال عنهم شيء وللذين عرفتهم منهم ثلاث عنصر اللطف والظرف والعلم والاداب والهمة وهم سيادة مطران اثناسيوس صوايا مطران بيروت الذي اسمه يغني عن الوصف والمطران مكاريوس سابا في مصر والمطران ديمتريوس قاضي في حلب الذي زرته في حلب ونظمت له هذين البيتين :

يـــا رئيساً لا عيب فيـــه وفيـــه كـــل خير مستقبـــل مثـــل مـــاضي
مـــذ رأتك الشهبـــاء خرَّت وقـــالت فلك الأمر فـــاقضِ مـــا أنت قـــاضِ

فترى عبطته كل يوم في أقليم وفي منطقة لصالح طائفته وقد ترأس هذه السنة حفلة مار يوحنا فم الذهب في رومة وقد نال اعظم ابهة وأبهى شرف الى الشرق ولهُ اعمال خيرية عظيمة .

واما مثل الاجتهاد والنجاح الوطني نراه بسيادة المطران باسيلوس حجار الذي مر ذكره وكذلك بسيادة غريغوريوس حجار مطران عكا والسيدين المطران افتيموس زلحف مطران صور والمطران كليمنضوس معلوف مطران بانياس وقد اوجد هذه الكرسي من العدم المرحوم الجريجيري وامد الذي احيا بعليك وجمع .. وقاف تذكر وبنايات عصيمة فالمطران اغابيوس معلوف وأما النايب البطريركي سيادة المطران اغناطيوس حمصي الذي عرفته وهو في عين تراز رئيساً كان أنموذج الاجتهاد صادق نحو رؤساء محب الخير ولد في دمشق في ١٥ ت ١ سنة ١٨٥٢ ثم دخل في المدارس الاكليريكية وترأس في عين تراز وفي مدرسة باريز الى ان اتصل الى درجة اسقف في ٨ أيلول سنة ١٨٩٩ ورقاهُ المرحوم الجريجيري وجعلهُ نايباً عاماً على الكرسي الانطاكي ونال وسام الاكادمي الفرنساوي والعثماني الرابع والمجيدي الثاني ولأجل اعطاء برهاناً عما قلت عن غيرة واجتهاد اكليروس هذه الطائفة أذكر .

(سيادة كيرلس مغبغب مطران الفرزل وزحله وما يليها)

هذا الذي خاض البحار ومشى القفار وتعرض للاخطار لأجل نجاح ابرشيته ولأجل ذلك أذكر تاريخه بالتطويل ليعلم القاري صدق مقالي .

ولد سيادته في عين زحلته في ١٠ ت ٢ سنة ١٨٥٥ دخل مدرسة عين تراز سنة ١٨٧٢ مدة سنتين ثم

توجه الى مدرسة القديس اثناسيوس في رومية وبقي فيها احدى عشر سنة ثم ارتسم كاهناً في ٢٥ آذار سنة ١٨٨٣ ورجع مديراً لمدرسة عين تراز وعلم فيها الفلسفة واليوناني والتاريخ المقدس من سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٩١ وأخذ دكتورية من البروبوكاندا سنة ١٨٩١ ثم رجع الى فرنسا يعلم ويتعلم مدة اربع سنوات وبعده رجع رئيساً الى عين تراز سنة ١٨٩٧ ثم صار كاتم اسرار السعيد الذكر الجريجيري ورافقه الى رومية ومصر والى الاستانة العلية وحينئذ فرغت كرسي زحلة فرسمهُ البطريرك مطراناً على زحلة في ٢٨ ايار سنة ١٨٩٩ في الاستانة فتوجه الى رومية وأخذ أذن من البابا لاون الثالث عشر للسياحة في اوروبا واميريكا وذلك سنة ١٩٠٣ توجه اولاً الى سويسرا ثم الالزاس واللورين ثم الى بلجيكا ثم الى هولندا ثم فرنسا ثم الى البرازيل في امريكا فيلزم ان نضع أمامنا خارطة امريكا الجنوبية والشمالية لتعرف اسماء المحلات التي دخلها زار ١٢ ولاية من البرازيل واشترى ارض وقفها على ابرشية زحلة وبعده توجه الى ولاية اوركان ثم الارجنتين زار فيها ١١ ولاية ثم صعد جبال الثلج على البغال التي علوها ٤٦٠٠ متر عن البحر وفوق هذه الجبال صليباً هو الحد الفاصل بين الشيلي والارجنتين وبقي مدة ستة اشهر في الشيلي ومنها توجه الى البرو ثم الى بولونيا وقطع بحرة تيتي كاكا المتجلدة بعلو ٤٢٠٠ متر ثم رجع الى البرو ثم الى بنا بقي فيها ٢٧ يوما ثم الى كولومبيا ثم الى جمايك ومنها الى كوبا وستيا كوكوبا ثم الى فانا ومنها الى المكسيك ماراً في فراكوزا ومن المكسيك الى لادروستانونو واخيراً الى سنلويس ومنها الى كانيسس ومنها الى لوسيني ومنها الى اوهاما برسكو ثم شيكاغو فيلادلفيا ثم الى نيويورك بوسطن ثم نيويورك ثم الهافر باريس ليون مرسيليا الى بيروت في ١٢ آب سنة ١٩٠٧ . أظن كريستوف كولومب ما زار هذه الأماكن كلها ولا سايح واحد زار كل هذه البلاد وكل ذلك لخدمة طائفته وابرشيته ولذلك مدة غيابه اقام وكيله الخوري مقصود النشيط البناء في الكرسي فبنى الانطوش في زحلة وعمل خلافه في الفرزل ثم في سرعين كلف لحد الفين ليرة ويوجد عشرون مدرسة في ابرشيته يدفع معلميها ومصاريفها خوارنته لحد ٥٥ خوري ومنها لحد التسعة يأكلون على مائدته في زحلة بصورة دائمة واسس جمعيات خيرية ونال المجيدي الثاني ويعرف من اللغات العربي والعبراني واليوناني واللاتيني والتلياني والفرنساوي والبرتغالي والاسبانيولي وقليلاً من الانكليزي فلا شك ان حلَّ عليه الروح القدس لمعرفته هذه اللغات .

فهذا مثال الجد في العلوم واللغات والاسفار والاخطار لأجل نجاح ابرشيته وخدمة طائفته ومثال كرم الاخلاق والذكاء واللطف وتوقد الفكر وحياته برهان قولي وقد قلت فيه الابيات الآتية :

من شرط شعري يرى للناس مأثرة ... في الشخص يُخفى على غيري من البشر
فلم أجد شرط اشعاري باسقفنا ... لذاك قد قلت فيه قول مختصر
فكلما عدَّ فضلٌ من فضايله ... اراه منتشراً في البدو والحضر
يكفي لصاحب افضالٍ يقال له ... انت المغبغب كالتعريف للقمر

ومن عدا المطارنة الغيورين لهذه الطائفة يوجد فيها ثلاث رهبنات المخلصية والشويرية والحلبية وفيهم

افاضل اجلاء والذي له الفضل على بلادنا وعلى الشرق اجمع هو دير مار يوحنا الشوير الذي ابتدت فيه اول مطبعة في الشرق بالعربية والفضل في ذلك الى رجل اسمه عبدالله زاخر الذي أول من تعلّم العربية من المسيحيين في حلب وهرب منها وأتى الى دير الشوير حيث كان أخوه رئيساً عليه وعمل أول مطبعة فكان هو الحفار لأنهُ كان جوهر حبياً والصفيف والطابع وأول ما ظهر مطبوعاً زبور داود ١٧٣٣ وقد توفي عبدالله واستلمت الرهبنة المطبعة .

وقد زرت المدرسة الكلية الشرقية الزحلاوية مدة رئيسها الفاضل الخوري بولس الكفوري ونظرت الاجتهاد والسهر والترتيب الجديد للعلوم المفيدة فكانت صور الماشي مملوءة من الصور النباتية والحيوانية والجلوجيا حتى تربية دود الحرير وعلوم اللغات الحية الضرورية لبلادنا العربية والتركية والانكليزية والافرنسية ويخرج تلميذها عارفاً هذه اللغات على ما ينبغي واخيراً عمل مطبعة وجريدة اسمها المهذب واكراماً لخاطره كنت احرر فيها بعض مقالات فهذا مثل الاجتهاد والغيرة في الرهبنة .

أكليروس الروم الارثوذكس

ويوجد جملة افاضل لا اعرفهم لان في شرط كتابتي عن شخص أن أكون اعرفه .

ان اكليروس بلادنا لهذه الطائفة قد نهض نهضة عظيمة لم يذكر التاريخ مثلها نهضة دون عراك وسفك دماء وهي انتقال البطريركية الانطاكية من يد الاروام ليد الوطنيين فمن ذلك الزمن ابتدت البطركية الانطاكية في التقدم والنجاح أول هؤلاء البطاركة سعيد الذكر ملاتيوس دوماني الذي اجتمعت الاراء على انتخابه وقد عرفت غبطة البطريرك الحالي غريغوريوس حداد في دمشق عندما كان منتخب بطريركي وفي ١٨ حزيران غربي لسنة ١٩٠٦ أصبح بطريركاً على الكرسي الانطاكي وقد قدمت من بيروت لغبطته هذه الابيات :

هو اليوم بعـــد الالف والتسعمايـــة	وستـــة اعوام الينـــا الصفـــا عـــادا
يقيم لانطـــاكيـــــة خير بطركٍ	يسود ويسمو بـــالجهـــاد كما سادا
اتى الشام لكن غير أعمى كبولس	مشى بـــالطريق المستقيم ومـــا حـــادا
وقـد جمـع السادات من كـل جـانب	لينتخبوا رأساً لبرأس اسيـــــادا
لـــذا حـــل روح القـــدس يوم اجتماعهم	كما حـــلّ في صهيون قـــدمـــاً وقـــد جـادا
ومـــذ جعلوا التقوى شعـــار انتخـــابهم	غـــدا منهم الحداد اذ ذاك صيـــادا
ولـولا التقى والطهر والبر والوفـــا	لما كـــان صيـــادٌ يوكـــل حـــدادا

ومن العبث ان أذكر ما لغبطته من الأنس واللطف والعلوم والاجتهاد على تقدم الطايفة وقد ذكرت

عن التقدم الذي حصل للكرسي عندما تولتها الوطنيون وأقدم مثالاً لذلك الحبرين الجليلين اللذين عرفتهما وهما :

« سيادة المطران مسره مطران بيروت »

أقول ما اجراه سيادته من الاعمال العظيمة ومن النهضة في بيروت فقد ابتدى بعمل مدرسة للحقوق ونال الرخصة السلطانية بذلك وعمر الوقف ان كان في بيروت او في سوق الغرب ولم يزل كل يوم يفتش على مسرة للشعب وعمل خيري له فصيح غيور يحب الالفة بين الطوايف وهو الممتزج بين جميع الرؤساء من اية طايفة كانت وهذا أهم شيء للراحة ولا اذكر شيئاً من اعماله القديمة وعلومه وولادته وسيامته لان كل ذلك مذكور والحبر الثاني هو :

« سيادة المطران بولس ابو عضل مطران جبيل والبترون »

قد رجعت هذه الكرسي بعد مدة طويلة كأنها قامت من بين الاموات وبالحقيقة ان بولس احياها وقد زرته في مركزه في الحدث وكان مستأجراً محلاً لسكنه ومباشراً بعمل مركز في أجمل محل في الحدث وكان مفتكراً يومئذ بعمل شعار لهذا المركز بالنخل والأرز شعار لبنان وقد نظمت لها التاريخ الآتي سنة ١٩٠٨ :

عـــادت الى الروم كرسيٌ قـــد ارتفعت	كـــالنخـــل والأرز في لبنـــان بـــالعمـــل
أقـــامهـــا حبرهـــا المفضال من عـــدمٍ	مـن بعـــد الف وقطـــع الجهـــد والعمـــل
من يحيي ميتـــاً بلا شك يكون لـــه	روح مقـــــدسة جسم بلا علـــــل
فحبرنـــا بـــات بـــالتـــاريخ نورده	فـــالروح من بولس والجسم من عضل

فهذه كرسي جديدة اوجدها أهل الوطن وقد عرفت عند زيارتي حمص .

« سيادة المطران اثناسيوس عطاالله »

فرأيته على جانب عظيم من اللطف والأنس والاجتهاد في انتشار المعارف في ابرشيته والالفة بين الطوايف وهذا ما نشكر فيه الاكليروس من جميع الطوايف .

ولا اذكر ما عندنا من الاكليروس الاجنبي لان القصد في كتابي ذكر من اعرفهم فقط وليس تاريخ عمومي لان بلادنا أصبحت الان مجمع الاكليروس ورؤساء الاديان وأهم هذه المراكز الكاثوليكية هي :

القصادة الرسولية

اعني وكيل الاب الاقدس البابا على كل الطوائف الكاثوليكية في الشرق وطنية وأجنبية ومركزها بيروت شتاء وحريصا في لبنان صيفاً اذكر من عرفت منهم عرفت المرحوم بيافي الذي صار فيما بعد بطريركاً للاتين في القدس وتوفي فيها كان رجلاً يحب السلطة والمداخلة فلذلك تولد في ايامه قلاقل كثيرة ولكنه كان رجلاً قديراً في السياسة فهو من الرجال العظام وخلفه في الوظيفة نايبه كودنسيو الذي كان محباً للسلامة اخيراً انتقل الى قصادة القطر المصري وتوفى فيها وكان لهذين القاصدين كاتم اسرار المطران بولس عواد .

وقد حضر القاصد ديغال مع وكيله الاب بره فكان ديفال رجل عظيم يحب السكينة ولا يتداخل في الجمعيات الاكليريكية كالرهبنة المارونية مثلما كان يتداخل بيافي ويحصل الانقسام فكان يشتغل بكل سكينة فكان النشاط عند الاب بره واخيراً توفي ديفال وكان قد شرع في عمل شخص سيدة لبنان مع عبطة البطريرك الياس الحويك الذي حضر في هذه السنة ١٩٠٨ ونصب فوق جونية وكرسه البطريرك الياس مع القاصد الحديد .

سيادة فرديانو جنيني

ايطالياني الأصل ولد سنة ١٨٦١ من الرهبنة الافرنسيسكانية أقدم رهبنة دخلت بلادنا سنة ١٢٥٠ مسيحية بعد ما تعلم سيادته وعلم وترأس اديرة واخر رياسته تسمى كيستود في القدس اي محافظ على جميع الاديرة في الشرق سيم مطران شرف سنة ١٩٠٥ وسمى قاصد رسولي في سوريا ونائب رسولي في حلب ولا أظن انه يوجد رجل ذو جاذبية للقلوب مثله يحبه أي من رآه بشوش لطيف وعند الجد ثابت العزم يتكلم الافرنسية ولا يتداخل الا بالأمور المهمة واما نائبه الاب شيلو فهو من الرجال المهمين يعرف العربية جيداً وكذلك الافرنسية وعليه اشغال القصادة ويوجد معه الاب كوسا أصله وطني من رهبنة الفرنسيسكان رجل لطيف وعسى في ايام القصادة نرى ترتيباً حديداً للرهبنة المارونية بعد فحص الأب بنيديكتوس .

سياحتي بالاختصار

وعندما بلغت من السادسة والخمسين وصرت قريباً من الآخرة قلت في نفسي لا بد لي من معرفة الدنيا قبل الاخرة لانه بلا شك لا رجوع لنا فلنغتنم فرصة ما بقي لنا .

ولعلمي انه يوجد ثلاث مدن في العالم تغنيك ان زرتها عن زيارة مدن الدنيا لأن ما بقي فهو ظل لها توجهت افكاري لزيارتها اولاً وهذه المدن هي :

الاولى : من يريد ينظر الطبيعة وجمالها فليزر الاستانة فهي ابدع ما خلق بحر يشق برين وبرٌ يشق بحرين وكل ذلك تحت اقدامها خلقت لتتسلط وتحكم غيرها .

الثانية : من يريد ان يرى الساحرة الكبرى ذات الفرح الدايم التي تريك الليل نهاراً والنهار ليلاً تجعل الحيوان انساناً بمعارفها والانسان حيواناً بملذاتها فليزر باريز .

الثالثة : من يريد ان يعرف اشغال الانسان وقوة صنعته وكده وجده والورشة الدايمة الشغل فلينظر لوندرا .

وقد صح لي ان انظر هذه العواصم الكبرى فوجدت فيها كل توفيق وراحة فأقول مبتدءاً من الاستانة العلية اي دار الخلافة العظمى .

(السياحة في الاستانة)

قصدت الاستانة العلية لنوال الشهادات الى ولدي حسيب كطبيب والى وديع كطبيب اسنان فتوجهت بصحبة سعادة محمود باشا حقي رئيس الدروس في المكتب الطبي الشاهاني وخير الدين باشا معلم الجراحة فيها ورفعت باشا حسام الدين معلم التشريح المرضي الذين حضروا الى بيروت لفحص تلامذة المدرسة الطبية الاميركانية التي نالت هذا الامتياز بعد امتياز المدرسة الطبية الافرنسية مع انها ابتدت قبلها من جملة سنين .

وقلت لاحد الوزراء الذي عرفته وهو صغير وكانت اعداه تعد له عيوباً .

تعد لك الاعدا عيوباً فلم نقل ... بأنك معصوم وروحك من قدس

عيوبك لم تنظر لنور فضائل ... كما لم نر من نورها كلف الشمس

ففاحص عيب فيك اضحى كفاحص ... على كلف في الشمس يعمى ولا يمسي

وانشدته ايضاً

من كان في منزل اعلا من السحب ... او كان في نسب من اشرف النسبِ

أيتزل اليوم من علياه ثانية ... لسمع شعر به امرٌ من العجب

قد صاغه شاكر من فضله درراً ... حتى غدا جوهراً في الدهر والحقب

فهو المصدر آداب الفتى خلقاً ... وشعره كاشف ما كان في الحجب

لا ترهب النوم اذ قد بت سامعه ... ولا التثاؤب او ميلاً الى الهرب

فالجد باطنه والهزل ظاهره ... والصدق قايده واللفظ كالرطب

فـالمزح كـالنوم فيـه راحـة لفتى ... بـل ذاك ترويض فكر كـل من تعب
ذي وصفـة من طبيب شاب من محن ... شعراً ولكنـه في الشعر لم يشب
كم شاعر خـاض بحر الشعر مشتغلاً ... ليلاً نهاراً وكم قـد ذاق من وصب
حتى يقول لكم انتم ضيـا قمرٍ ... او عنتر او غزال او ضيـا الشهب
او غصن بـان ونـار الخـد ملتهب ... والقلب من ذاك محروق من اللهب
وان تعطف بـالأوصاف مكرمـة ... يقول عن ثغركم يفتر عن شنب
تبـاً لنـاظم شعر ليس يعجبـه ... غير الغزالـة او غصن على كثب
ولم ير في الـذي قـد بـات مـادحـه ... من عزة النفس والاخلاق كـالضرب
لم يـدر من أنزل الابـات من قـدم ... كم قـال تبـاً الى حمالـة الحطب
مضى زمـان غزال مـع تغزلـه ... وبـات من كـان معشوقـاً بلا ذنب
وعـابـدو الشمس قـد زالوا بلا أسف ... وعـابـدو النـار ايضاً مـع ابي لهب
هـذا الـذي حط للاشعـار قيمتهـا ... وأصبح الشعر بنـداً من فضا الكـذب
لو اظهروا من صفـات المرء صحتهـا ... بـالحسن والقبح لا يلقون من غضب
لكنهم البسوا في شعرهم عبثـاً ... ثوب الصحيح الى من كـان في جرب
فـالشعر بـالصدق لا بـالوزن قيمتـه ... ولا بوقص ولا في أبحر الخبب
والصدق في الشعر موقوف على ادب ... كـالصدق في القول موقوف على نسب
مهما يقولون هـذا الشاب محتشم ... او عـالم او كريم صاحب القبب
فلا توازي اذا من بعـد ذا عطفوا ... لكنـه كـاذب فـالمدح لم يطب
ان الكرام اذ مـا يسروا ذكروا ... من قبـل عليـاهم من كـان في صحب
امـا اللئـام اذا مـا يسروا نكروا ... فضل الـذي كـان بجاهم من الكرب
من كـان ينكر فضلاً سابقـاً ومضى ... سينكر اليوم فضل الله ثم نبي
ان العلا دوحـة كـالبحر يـدركهـا ... من كـان متشلاً من اسفـل الترب
لكنً من كـان معتـاد العلو فلا ... نرى لـه دوحـة لو بـات في السحب
اعراضهـا (الفشر) في عز وفي نعم ... ومنـة لم تطق والكـذب مـع عجب
فعكسهـا ذو العـلا ينسى فضيلتـه ... كـأنها لم تكن يومـاً ولم تصب
شرط الكرام غـدا نسيـان فضلهم ... وليس ينساه من فيـه نمى وربي
أمـا اللئـام فلا تنسى هـديتهـا ... ومن أتى فضلهم ينسى ولم يجب
فلا أمر على حر يقول الى ... من كـان عبـداً لـه يـا سيـدي وابي
تهي ولا ردهـا قيـل من قـدمٍ ... من كـان رأساً فلا ينقـاد للـذنب
يلا الـذ على عبـد يقول الى ... من كـان سيـده في البعـد والقرب
يلتقي نعمـة من فضل غيرتـه ... يمسى لها شاكراً ينجو من العطب
ن لم يكن ربك العـاطي فلا أمـل ... في نيـل صاحب اغراض من الارب

لا خيب الله عبـــــداً كـــــان شاكره ... بـــــل زاده رفعــــة في صدره الرحب
اعطاك ربك حظاً في نهى وذكى ... وفي عفـــــــافٍ وفي ود وفي حسب
خليفـة الله طـوعـاً للالــه غـدا ... يعطيك مـــا قـــد حبـاك الله من وهب
لـذاك قـد نلت حظاً من خليفته ... ان تفتخر فـــافتخر بــــالأصل والسبب
مـع كـل هـذا فـأنت اليوم مشتهر ... في رقـــــــة النفس والمعروف والأدب
فكنت ان جئت من لي عنـــــدهم غرض ... احتـــــار في القول معهم في قضا طلبي
فجـــــــال في الفكر ان اذكركم لهمُ ... فكـــــان ذكركم في الحال يشفــــع بي
عرفتكم من قـــديم العهـــد مرتفعـــاً ... واليوم متضعــــــاً مــــع كثرة اللقب
أصبحت كـــالغصن ان اثماره كثرة ... فينحني نفعـــــــــــه للقرب والغرب
قـد قيـل من قبلكم والقول مشتهر ... السيف اصدق انبـــــــاء من الكتب
واليوم مـن اجلكم فـالنـاس قايلة ... الصدق انبـــــاء من سيف ومن ذهب
كم خضت من ابحر حتى وصلت الى ... دار السعـــــادة دم فيهـــــا ولا تغب
دم في نعيم وفي عز وفي شرف ... وفي امـــــانـــــة مولى العجم والعرب

وقد تعرضت بهذه القصيدة الى الشعراء اللذين لم يزالوا يشبهون هذه التشبيهات حتى الموصوفون لم يقبلوها وهذا ما يقال عن لسان موصوفةٍ :

تقول وقـــد شبهت بـــالورد خـــدهـــا ... لقـــد شبـــه المجنون خـــدي بـــالورد
كما قـــــــال ان الاقحوان كمبسمي ... وان قضيب البـــــان يشبه قـــــدّي
اذا كـــان هـــذا في البساتين عنـــده ... سلوه لماذا جـــاء بطلبـــه عنـــدي

وبعد حضوري من الاستانة طلبت صورة دولته الرسمية فأرسلها لي فنظمت فيها الابيات الآتية :

أصبحت آلــــــــــــة تصوير لرسمكمُ ... من نوره لستُ محتـــاجـــاً الى النورِ
فـــــالعين بلورة تهدي اشعتـــــــهُ ... الى قلوب غـــدت صفحـــات تصوير
لـــــذاك في كـــل قلب جـــال رسمكم ... لكنـــهُ خـــالـــد في شاكر الخوري

وقد هنئته بالوسام المرصع كما ذكرت .

وقد زرت دولة نعوم باشا متصرفنا السابق في الخارجية وتعرفت يومئذ بأبن عمه دولتلو يوسف باشا فرنكو وحييته كمتصرف مستقبل للبنان ولم أنس مجاملة سعادة منصور بك شتوان وعطوفة اخيه يوسف بك اللذان دعياني لطعام الظهر في مصيفها حيدر باشا .

وعندما كنت في جنينة اسمها (بتي شان) نظمت الابيات الآتية :

الا يـــا داخـــل (دار السعـــادة)	يتزه طرفــــــه ببحور مــــــاء
فلا تنظر لغـــــادات تبـــــدت	بطرف أكحـــــل عنــــد المساء
مخافـــــة ان تبيت اخي غريقـــاً	ببحر اسود عنــــــد اللقـــــاء
فيغـــدو الطرف في (دار السعـــادة)	ويمسي القلب في دار الشقـــــاء

وعندما ودعت الاستانة نظمت بيتين لمحمود باشا حقي ناظر الدروس وقد أبدى لي كل لطف ومعروف :

هـــذا الـــذي بعلومـــه سبق الاوائـــل والاواخر
من كـــان محموداً فلا يحتـــاج يومـــاً شكر شاكر

وقلت في صهره خالد بك طبيب الاسنان وهو من ألطف الرجال :

هـــــذا طبيب عظيم في كـــل فن مجاهـــد
لو مسَّ سنـــاً مريضاً لأصبح السن خـــالـــد

ومن اطباء بلادنا الشهم صاحب السعادة يوسف بك الرامي معلم التشريح الذي حضر كرئيس اللجنة العثمانية لفحص تلامذة مدرستنا في بيروت فهو من الاطباء العظام وصاحب الرتب والوسامات والهمة والنشاط .

وقد شاهدت رجلاً يدعى الملهوف مصاحباً لنجيب باشا ملحمه لا ينفك عنه ليلاً ونهاراً ويأخذ غذاءه في بيته وعندما اجتمعنا سوية كلفني نجيب ان أنظم ابياتاً تمثل حالة الملهوف فقلت :

فلما بـــدا الملهوف وسط ديـــاركم	ولـــهُ مساء كـــل يوم مطعمـــه
صدقت قولاً قـــد يقـــال بـــارضنـــا	ان الكلاب تعيش حول الملحمــــه

الجنائن

عندما كنت جالساً في منتزه بتي شان في الاستانة سمعت رجلاً يقول الى رفيقه ارجوك يا صاحبي ان تخبرني عن سبب خصوبة حديقتك فانها لا تساوي مساحةً ربع حديقتي ومع ذلك يدخل لك منها أكثر مما

تدخله حديقتي وكان السايل ارمنياً والمساؤل المانياً وكان من عادة الارمني ان يدعى خوريه نهار عيد العنصرة ويرش الحديقة بالماء المبارك ويهمل باقي لوازمها واما الالماني فكان يكثر الزبل فيها فأجابه يا صاحبي ان الجناين (بدها خرا وما بدها صلاة) .

الشاهد العيان

كنت في احدى الجلسات مع قوم مختلف الملل فقال الارثوذكسي مازحاً ان الحق معنا بولادة المسيح لأنه ولد في يوم ممطر وعيد ميلاده عندنا في هذه السنة كان ممطراً وأما الموارنة فكان عيدهم صافيا الجو فأجابه احد الموارنة وكان ضخم الجسم جداً كلا فالحق معنا فارجع الاثنان الحكم لي بذلك لأجل المزح فأجبت ان الحق مع الموارنة لان فلان اي الضخم كان شاهداً عياناً لانه كان ينفخ على المسيح عند ولادته فانصرفت الجلسة على تصديقي لمشابهة صاحبنا بالثور .

السياحة الى باريز

وقد توجهت من الاستانة الى باريز في السكة الحديدية أكسبرس اور يانتال ومررت بصوفيا في البلغار والسرب وبودابست في المجر وفيانا ومنيك في بافاريا الى ان وصلت اخيراً الى باريز والذي أوجب سفري اليها هو شوقي الى ولدي حسيبه وزوجها الخواجه يوسف اسعد رحيم من جزين شريك صهره وابن عمه داود بمحل قومسيون يتعاملا مع اميركا ويا ليتني لم أكن عمه لاشرح اوصافه الحميدة بالصدق والدراية مع الصفات الحسنة التي تلزم للانسان وعرفت اخيراً انه شاعر بارساله لي الاشعار الآتية بعضها مشطر وبعضها مخمس .

فعجبت من تاجر شاعر وهذه الاشعار لجمال الدين الافغاني وتشطيرها له :

بـروحي جـيرة ابقـوا دموعي	ولم يـرثـوا لـزلـي وانكسـاري
شكوت فراقهم قـالوا اصطبـارا	وقـد رحلوا بقلبـي واصطبـاري
كـأنـا للمجـاورة اقتسمنـا	وكـل طـالب حق الجواري
كـذا الايـام قـد حكمت علينـا	فقلبـي جـارهم والـدمـع جـاري

وقد خمس ما يأتي :

أطلت بهجراني واقصرت حيلتي	ومـا بسوى مرآك بروءٌ لعلتي
فعطفـاً على حـالي ورفقـاً بـذلتي	الى الطـاير النسر انظري كـل ليلـة

فاني اليه بالعيشة ناظر

ومـــا نـــال مني الطير قلبـــاً متيمـــاً ولا لحظـــــه يشفي كلحظك مغرمـــــا
ولكنـــه عهـــدٌ لنـــا قـــد تقـــدمـــا عسى يلتقي طرفي وطرفك في السما

فنشكو اليه ما تكنُّ الضماير

وقد سبق لي وخمست هذه الابيات وهذا هو التخميس :

اذا كنت مثلي في الهوى ذات لوعـــــة وكـــــــان لظى العشاق يطغي بنظرة
لما وجـــدت عيني لـــذا غير حيلـــة الى الطـــاير النسر انظري كـــل ليلـــة

فأني اليه بالعيشة ناظر

فما دامت العزال في الارض مثلما رأينـــــا ولم تشفِ فؤاداً متيمـــــاً
دعينـــا نراعي الكـــائنـــات لربما عسى يلتقي طرفي وطرفك في السما

فنشكو اليه ما تكنُّ الضمايرُ

وقد تعرفت في باريز بقنصل جنرال دولتنا العلية عطوفة الشيخ شديد حبيش وغيره من السوريين اللذين تفتخر البلاد باستقامتهم وهمتهم .

وكان دليلي في زيارات باريز ولدى حسيبه التي تركت كل شيء وتبعتني ولم تبق شيئاً من الواجبات نحو والدها فاتمنى لكل محب ابنة مثلها وكان يرافقنا احياناً صهري العزيز قهراً عن اشغاله الكثيرة .

(سياحتي الى لوندرا)

ثم بعد ذلك زرت لوندرا والتقيت فيها بالشهم العظيم قنصل جنرال بيروت الانكليزي مسيو درموند هي الذي اظهر لي انس ولطف ومن هناك رجعت الى باريز وسافرت منها في اواسط ايلول عن طريق ليون ومرسيليا ومنها الى نابولي واليونان ثم الى الاستانة وعند وصولي اليها توجهت حالاً الى منزل دولتلو احمد عزة باشا فامر حالاً باعطائي النيشان العثماني الثالث الذي صدرت به الارادة السنية بعد انهاء دولتلو رشيد بك والي بيروت الاسبق الذي يضرب به المثل بحفظ الوداد لاصحابه والامانة نحو دولته ومعرفة السياسة ثم حضرت الى بيروت برفقة الوالي الحالي دولتلو خليل باشا الساهر على الراحة ومن اعماله العظيمة انشاء مدرسة الصنايع التي تفوق كل مدرسة .

وكان برفقتنا من مرسيليا الى اثينا عائلة يونانية كريمة الأصل مع ابنة اسمها سبازيا وهي اسم امرأة ركليس وكانت آية من الجمال والكمال وهي عذراء ووالدتها كاملة الأوصاف وبقيت اكاتب والدتها

وتكاتبني مدة ثلاث سنوات وبعده انقطع خبرها ولا ادري ماذا جرى بها وقد نظمت لاسبازيا شعراً عندما نظرتها تعزف في البيانو وتنقل اياديها بكل سرعة عليها :

ولما ببحر الروم تـــــاهت عقولنـــــا ... وبتنـــا بـــارض طـــاب ذكر جـــدودهـــا
رأينـــا ضيـــاء اسبـــازيـــا فوق مركب ... كنجمـــة صبح يهتـــدي بوقودهـــا
فـــأضحت قلوب الظـــاعنين مراكبـــاً ... تحركهم دومـــاً بنـــار صدودهـــا
ولما رأت الامهم من حريقهم ... فعزتهمُ في ارغـــل من قصيـــدهـــا
تنقـــل كفـــاً لا تراه لسرعـــةٍ ... كـــأن يـــديها فوق نـــار خـــدودهـــا
فـــأمنت بـــالتقميص من حيث ارجعت ... الى أرضنـــا اسبـــازيـــا مـــع عهودهـــا

(سياحتي الى مصر سنة ١٩٠٧)

عندما جمعت كتابي هذا وشئت اطبعه اشار عليَّ الخواجه ابرهيم يعقوب ثابت وهو أول من فكرني ان اجمع هذه الاشعار والحوادث التي جرت لي ان اتوجه الى مصر وهو رجل عظيم في غناء اعظم يحب العلم وينشطه فقهراً على ما هو عليه من ضعف الجسم وهو من أعظم رجال التجارة .

فتوجهت من بيروت في ٢٦ ك ١ سنة ١٩٠٦ وصلت في اليوم الثاني الى بور سعيد وعندما عرف بقدومي اخي الدكتور امين القاطن المنصورة حضر الى بور سعيد وتوجهنا معاً اليها من طريق بحيرة المنزله الى المطريه ونزلت ضيفاً عنده واشكر ما لاقيت من الانسانية والاكرام من السيدة عزيزة زوجته وبعد ثمانية ايام توجهت الى مصر ومعي تحارير توصاه من مسيو فوك دي بارك قنصل جنرال فرنسا في بيروت الى وزير فرنسا فيها الذي استقبلني بكل اكرام سألني عما اريد فطلبت اليه مقابلة سمو الخديوي فحرر الى وزير السر تشريفات بذلك وبعده حضر لي التحرير الآتي من وكالة فرنسا السياسية في القاهرة :

Agence diplomatique de France
Le 16 Janvier 1907, Cair

Mon Cher Bey docteur Chaker Khouri
Le grand ministre de cérémonies vient de faire savoir à Monsieur le ministre que vous pourrez être reçu par son Altesse le samedi prochain 17 Janvier en 11h. 30.
Monsieur Klobukozysky devait lui-même vous présenter au Khedive vous prie de vouloir vous trouver à l'Agence à 11h. très-précie.
Il vous Conduira au palais d'Abdine.
Croyez Cher Bey à mes sentiments très distingués.

Felcourt.

من الوكالة السياسية الافرنسية في مصر في ١٦ ك ٢ سنة ١٩٠٧

ايها البيك العزيز الدكتور شاكر الخوري

ان وزير التشريفات اعلم حضرة الوزير بانه يمكن لفخامة الخديوي ان يستقبلك يوم السبت القادم في ١٩ ك ٢ الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة وحيث ان موسيو كلوبيكوسكي سيقدمك بنفسه الى الحضرة الخديوية يرجوك ان تكون في الوكالة الساعة الحادية عشرة تماماً وهو يرافقك الى سرايا عابدين اعتقد ايها العزيز باحساساتي لك الممتازة

فلكور

فذهبت في الوقت المعين الى الوكالة المذكورة فوجدت الوزير باستنظاري فأخذني في مركبته الخاصة الرسمية ومشى أمامها اثنين من المجرين وعند وصولنا الى السرايا اخذ سلامنا فرقة من العسكر وقابلنا رئيس التشريفات وصعد بنا الى الطابق العلوي ثم ادخلنا ردهة الاستقبال وكانت الحضرة الخديوية على بابه فدخلنا الى اخره ولما استقر بنا المقام قال الوزير مخاطباً الخديوي ان الدكتور من معلمي مدرستنا الطبية في بيروت فتكلمت انا اذ ذاك موجهاً الحديث الى فخامته ان العلوم التي تعلمتها في مصر مدة ساكن الجنان جدك اسماعيل هي التي اعلمها في بلادي كما انني حضرت افراح ساكن الجنان والدك وسمعت أول مدفع بشر بطلوعك على هذا العالم ثم تركت مصر منذ ذلك الوقت ثم عند رجوعي اليها الان وجدتها بحالة غير التي تركتها عليها ولما كنت أنظم الشعر في بعض الاحيان نظمت لفخامته الابيات الآتية وكان قد كتبها بخطه الجميل على رقعة جميلة حضرة نجيب بك هواويني الخطاط الشهير هذه هي :

اتيت لمصر منقـــــــــــــاداً لامير	من الله المحيط بكـــــــــــل علمِ
يقول لخلقـــــــه هيـــــــا اليهـــــا	بـــــأمن وارتعوا بـــــديـــــار سلمِ
ديـــــار للفراعنـــــة ادخلوهـــــا	ولا تخشوا اذى رق وظلمِ
لان ارسلت مـــــــع فرعون سخطي	فقـــــد ارسلت مـــــع عبـــــاس حلمي

فسر فخامته جداً وشكرني عليها ثم طلبت منه الاطلاع على السجلات لأقف على بعض نقط تاريخية فاصدر امره بذلك الى شفيق بك رئيس القلم العربي والأجنبي في المعيه فكنت احضر اليها وهناك تعرفت بشفيق بك والشاعر الشهير شوقي بك وبعد ثمانية ايام من ذلك الوقت كان عيد الاضحى فذهبت لاهنىء فخامته وانا بين مئات من المعيدين مارين امام فخامته دعاني باسمي الخصوصي فتقدمت اليه فاعطاني يده فشكرت لفخامته هذا اللطف ومن هذا الالتفات وقلت في ذلك :

حلمت ان زرت مصـــــراً	أنـــــال جـــــاهـــــاً لعلمي
فـــــالحلم اضحي يقينـــــاً	مـــــا عشت اشكر حلمي

وقد نشرت كل جرايد مصر المهمة مقابلتي واشعاري فاشكر جميعها هذا الفضل .

كما واني اشكر سعادة ادريس بك راغب لاستقباله اللطيف لي ولوالده الفضل عليّ بدخولي في المدرسة الطبية كما ذكرت وقد نظمت له هذين البيتين :

ايـــا راغبـــاً بـــالفضل والعلم والعلا   فكـــل اخي فضل لـــذكركم حيـــا
فلا شك مثـــل ادريس للخير والزكى   سيبقى مـــدى الايـــام ذكركم حيـــا

وقد لاقيت كل أنس وملاطفة من الكونت حبيب باشا السكاكيني صاحب القصر الشاهق في الضاهر ومن سعادة مصطفى باشا وهبي البغدادي الشاعر العظيم في العلوم وحافظها وسأذكر في سياحتي الخصوصية في مصر جميع الذوات الذين زرتهم وزاروني ومن لطفهم سحروني اخص منهم اسكندر بك عمون وسليم افندي بسترس الصيداوي وعائلة الصدناوي التي بكل أسف فقدت رئيسها المأسوف عليه سليم وكذلك البكوات حنا وانطون صباغ ومنصور باشا شكور وعمه ملحم بك وبالأخص عديل اخي فريد باشا بابازاوغلي مع مدامته المحترمة ولو شئت تعداد الجميع لاقتضى لذلك كتاب آخر .

وكذلك توجهت الى الاسكندرية وطنطنا ودمنهور والسويس ودمياط والاسماعيلية والفيوم وفي كل محل كنت ارى من اولاد الوطن نجاحاً عظيماً .

والذي سرنا جداً مقابلة سعادة عبدالله بك العازوري الذي يفتخر به وطناً السوري وسعادة شاكر بك الخوري الحاصباني والصديق الحميم اسكندر افندي شاكر صهيون صاحب صاحبه وسعادة جورج بك عيد قنصل بلجيكا ومؤسس كل جمعيات مصر تقريباً وكذلك الخواجه انطون اده رئيس كمبانية ليون في مصر وكذلك سليمان بك ناصيف من المعتمدين هناك وقد قابلت في الاسكندرية الخواجه يوسف دوماني صاحب الاملاك العظيمة واللطف الاعظم وهو مشهور جداً وكذلك أكرم اهل زمانه الخواجه ادوار ابو راجي بسترس الذي تفتخر به وبكرمه النازله السورية وكذلك موسى افندي بسترس ابن المرحوم سليم دي بسترس والخواجه نجيب يوسف سرسق الرجل المهم في الاشغال وابن عمه الخواجه اسكندر سرسق وقد ابتهجت جداً عندما حظيت بمشاهدة رفيقي في المدرسة الوطنية الخواجه روفايل عبدالله الخوري مدير بنك الرهونات والخواجه يوسف بطرس خضير الذي نجح نجاحاً عظيماً وانشاء الله لم تصبه البورس في شيء.

(السيدة سلمى بولاد)

هذه هي السيدة التي قابلتها في بيتها في المحلة الكبرى وأظنها سميت كبرى بوجود السيدة سلمى فيها فهي مدام الخواجه سليم بولاد من الطف السيدات وأكرمهن واعلمهن تحب العلوم والمعارف ولم يفتها شيء من

الكمال ويصادق على قولي هذا كل من يعرفها حضرت أزورها وكان وقت غدا الظهر فجلست معها على المايدة وقد صادف وجود الخواجه سليم في مصر وكان معنا كاهن هرم لكنه يحب المزح فعندما رأى السيدة سلمى ملتهية مشتغلة معي بالحديث قال لي لم تدع لي مجالاً أتكلم مع السيدة سلمى فاجبته ان الأحسن ان نقسمها بيننا سلمى لي وبولاد لك فضحكنا جميعنا وكاد هو ان يستلقى على قفاه .

وقبل خروجي من القطر المصري رجعت الى المنصورة لوداع اخي وشكرت جميع من لقيت هناك من الاصدقاء الذي اذا شئت تعدادهم اخاف من ملل القاري فلذلك اختصر وابتدي بالشكر لحضرة الخوري يوحنا الخوام الكاهن الحقيقي الذي يحب السلامة والامتزاج بين الطوايف وهو رئيس كهنة الروم الكاثوليك فيها وقد تشرفت بمعرفة السيد الجليل حسين بك العمري صاحب الجامع العظيم ومدرسة للفقراء وهو ابن عبد الباقي افندي العمري البغدادي الشهير وكذلك من الخواجات انطونيوس وانطون صالح وبلدينا يوسف حرفوش .

واشكر على الخصوص لميشيل افندي الخوري مفتش التلغراف في الزقازيق ولكل من انسوني بالطافهم وحال حضوري الى الفيوم وجدت كل موانسة من الخواجه شكري الحداد الصديق القديم ومن مدامته الشهيرة باللطف والانس وكذلك من الدكتور الشيخ سليم تلحوق والدكتور غبريل افندي من عبرا الذي سرني نجاحها بما لا يقدر كما وقد سررت ايضاً من نجاح تلميذي الدكتور لكح في الاسكندرية الذي حصل شهرة عظيمة وكذلك الدكتورين فتح الله افندي الدهان وسليم افندي نمور في طنطنا كما انني لا انس في طنطا الخواجه جورج خوري صاحب فابور القطن والخواجه اسكندر بكته التاجر الشهير او ابراهيم بك مظهر في دمنهور والخواجه خليل طراد الذي زرته مع اخيه ومدامته اسكندر بك طراد المحامي الشهير .

« رجوعنا من سياحة مصر »

في ٢٩ آذار خرجنا من بور سعيد وأصبحنا في يافا وكان برفقتنا اسبر افندي شقير بروتوقنسلس دولة انكلترا في بيروت ولهذه المناسبة اذكر لمحة عن هذه القنصلاتو التي لها أهمية عظيمة في بلادنا .

ان أول قنصل تسمى لهذه القنصلاتو هو بتر ابوت Beter Abbot سنة ١٨٢٠ حتى هذه السنة ١٩٠٨ مر عليها ثمانية قناصل والذي عرفته العموم سنة ١٨٤١ هو الكولونيل روز الشهير وبعده القنصل مور والذي عرفته على الأخص هو القنصل الجنرال مسيو درموندهي الأخير عرفته في بيروت وقد التقيت به صدفة في بحر المنش فابدى لي كل لطف مدة اقامتي معه في لوندرا بنزل سن ارمنس وستمنستر وهذه ترجمته التي تدل على أصله الشريف وأعماله العظيمة .

(هذه ترجمة القنصل)

هو السر [1] روبرت درمندهاي قنصل جنرال دولة انكلترا في بيروت ابن السر الشريف جون هاي درمندهاي الذي بقي اربعين سنة معتمداً فوق العادة ووزيراً مفوضاً في مملكة مراكش وهو من عائلة اسكوتلندية عريقة بالنسب ذات املاك واسعة بقيت كلها لبيت كبير العشيرة نحو الف سنة وقد اقترن بالسيدة افاميا كاترين ويليس فلامنغ كريمة المرحوم تومس ويليس فلامنغ من جنوبي ستونهام همبشير من اعضاء البرلمان الانكليزي عن ولاية ونشستر وكان أبوه قبله عضواً في البرلمان حيثما بقي فيه خمسين سنة متتابعة .

وقد دخل اولاً في السلك القونسلوس بمعية المرحوم والده في طنجة سنة ١٨٦٩ وبقي الى سنة ١٨٧٥ فتعين حينئذٍ قونصلاتو في مدينة ماغادور وقد رافق والده المومى اليه بمأمورية مخصوصة الى بلاط مملكة مراكش سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٧٣ ثم تعين مأموراً ليرافق العمدة المراكشية المخصوصية التي زارت انكلترا سنة ١٨٧٦ ثم تعين قنصلا في ستوكهولم عاصمة بلاد اسوج سنة ١٨٧٩ ومنها انتقل الى تونس سنة ١٨٨٩ حيثما تسمى قنصل جنرال سنة ١٨٩١ ثم تعين قنصل جنرال في سورية مع حق المناظرة على قنصليتي الشام والقدس وذلك سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩٧ اخذ مدالية يوبيل جلالة المرحومة الملكة فيكتوريا ونال نيشان سان ميشيل وسان جورج سنة ١٩٠٢ ثم منح لقب سر الشريف سنة ١٩٠٦ وانتقل من بيروت للتقاعد في ٢٠ ك ٢ سنة ١٩٠٨ .

(اسبر افندي شقير)

هو الرجل الوحيد الباقي من أصحاب السياسة القديمة والجديدة في بلادنا فهو رجل فريد علم نفسه وهذبها حتى توصل على ما هو عليهُ الان من سمو المقام وعلو الهمة وسمو المبادي وهو ابن عبدالله بن لحود شقير من الشويفات سمي ترجماناً لامريكا في بيروت سنة ١٨٧٣ وفي سنة ١٨٧٥ دخل ترجماناً في كونصلاتو انكلترا ترقى الى وظيفة كونشلير ثم بروتوقونصل اي انه صار يمكنه ان يحلف اليمين ويصادق على الامضاوات ثم رافق سفير انكلترا في سوريا السر هنري ونال النيشان المجيدي الثاني من الدولة العلية وهو رجل لين الطباع طويل القناة حاذق الفكر لطيف المعشر لو فتشت انكلترا الف سنة على مثله لم تجد اللهم الا اذا كان ولده فؤاد : ومن هذه الاسرة المرحوم اخوه عبود بك الذي خلف لنا صديقاً فاضلاً الا وهو حليم بك شقير يوزباشي الجندرمة اللبنانية وكذلك عبدالله بك شقير احد موظفي الحربية في مصر وهو صهر اسبر افندي .

(١) أصلها عربية أعني السري .

وكانت هذه السنة وبالاً على علماء النحو والشعراء والكتاب في بلادنا قلت بذلك :

اتى عـــام هو العـــام المبيـــد	فـــافنى من يشاء ومن يريـــد
من العلماء عز الـــدهر يومـــاً	وليس بمثلهم يومـــاً نجود
بـــدا بـــاليـــازجي امـــام علم	وثنى بـــالمدور يستجيـــد
جميـــلٌ في العلوم لـــه جميـــلٌ	نجيبٌ في معـــانيـــه فريـــد
وابن حبيقـــه قـــد كـــان ركنـــاً	وذكر الـــدبس في الـــدنيـــا حميـــد
وشرتون بكت اسفـــاً رشيـــداً	وذاك بكـــل مـــدرسة رشيـــد
سليم شحـــادة ميشال (اده)	ونقـــاش الحديث غـــدا يبيـــد
وعبـــاس الغريب في صبـــاه	عن الشعر المنظم لا يحيـــد
خليـــل بـــات للخوري نسيـــاً	وهـــذا في فنون الشعر سيـــد
قـــد انتهت المصائب في شقير	هو العلامـــة الفرد المجيـــد
فلم يبقى لنـــا ذا العـــام علمـــاً	ولا من مخبر عن جـــاء زيـــد

(سياحتي الى بعلبك وحمص وحما وحلب)

خرجت من بكاسين في ٤ تموز سنة ١٩٠٧ مستصحباً معي وكيلي امين مخايل ميزان فهم شعري الذي ذكرت عنه حين توجهنا الى بتدين ومنها الى الباروك ثم صوفر وأخذنا السكة الحديدية فيها الى بعلبك التي هي حسب فكري أجمل مدينة في العالم بالنسبة لمركزها لان ماءها من رأسها وتسمى رأس العين والشهير فيها قلعتها التي كانت مركز الدين مثل القدس الان وجبيل في الماضي وبعل معناها السيد بك ربما كان معناه في السريانية البقاع يعني سيد البقاع وكل الناس تعرف قلعة بعلبك وما لها من العظمة ودقة البناء وزخرفته فقلت فيها :

فـــي بعلبـــك عـــروسٌ	يزورهـــا كـــل آت
فهـــي عـــلى رأس عيـــي	لم أنسهـــا للمات

ومن الاسر الشهيرة فيها قديماً اسرة الامراء آل حرفوش حكام تلك البلاد فلم يبق منهم احد بصفة حاكم واسرة آل حيدر كانت كأخية عند الاسرة الاولى والمشهور فيها الان اسعد بك خليل حيدر رجل محب للعلم فاضل واخوه الدكتور حسين بك حيدر تلميذي في الطب من رجال بعلبك ومن الاسرة الكريمة فيها ايضاً اسرة آل مطران وهناك نزيلاً نازل سعيد باشا سليمان وكذلك آل هراوي التي سكنتها حديثاً وفيها يوسف بك الهراوي الذي انتقل من عضوية المحكمة الى عضوية الادارة صاحب املاك واسعة وله ثلاثة أولاد ذكور من الشبان الازكيا وكذلك اسرة بيت نجم في دورس قرب بعلبك ومنها ابرهيم بك

والياس بك اولاد مخايل بك وكلهم اصحاب املاك ونفوذ وقد تقلبوا في مراكز الحكومة مراراً وكنت أنزل في فندق كرباج أجد فيها كل حرية وراحة وله عايلة مؤلفة من شبان ذات لطف وزوجة الطف وأظرف وفي اليوم الثاني نزلت الى :

(حمص)

وكان النهار حرا جداً وكان في المحطة الخواجه قبوات فقابلت في حمص رفيقي العزيز في المدرسة حبيب افندي جبور الذي كان طبيب بلدية زحلة سنة ١٨٧٥ ثم في بعلبك مدة ٦ سنوات ثم في حمص مدة اربع سنوات وهو من عشرين سنة قاطنها وقد سررت جداً من تقدمه ونجاح اولاده الذين بعضهم توجه الى امريكا وبعده قابلت سيادة المطران اثناسيوس عطاالله نموذج الاجتهاد والغيرة لابناء رعيته وقد نظمت لما هي عليه من شدة الحر بيتاً من الشعر اتبعته بابيات بعلبك فقلت :

فحمص قـــــــــــد حمصتني حتى بــــــــــــدت قبواتي

(حما)

ومنها توجهنا الى حماة في يوم من ايام جهنم ولكن الله رحمني بمعرفتي الخواجه كبس مدير المحطة فأنزلني عنده وفي اليوم الثاني نزلنا الى البلد وكان حرٌ لا يطاق ولم أزر احد سوى اديب افندي الجراح الشامي رئيس دائرة الجزاء لانني صديق عائلته منذ كنت في الشام وقد تفرجت هناك على النواعير التي تستحق الزيارة وقلت في حماه ابياتاً اتبعتها باشعار بعلبك :

(نهر العاصي)

يـــــا ليتني انـــــا عـــــاص [1] ومـــــــــا نظرت حماتي
قـــــد كـــــان فيهـــــا انيني كـــــائنـــــة الثـــــاكلات
حـــــاكت نواعير مـــــاء لكن بعكس الصفـــــات
فتلـــــك انـــــت لـــــبردٍ والحـــــر اضـــــنى لهـــــاتي

وقبل خروجي من حمص زرت مقام سيدنا خالد بن الوليد الذي اتغزل في طاعته وشجاعته دائماً لأنه وفر على الاسلام اختلافاً عظيماً بطاعته عندما عزله سيدنا عمر وأطاع الاوامر بقصاصه وكانوا يومئذ ابتدوا بترميم القبر وهو بجانب العاصي فقلت في ذلك :

عجبت لمن قـــــد كـــــان أول طـــــائـــــع يجاور طول الـــــدهر في قبره العـــــاصي
لطـــــاعتـــــه قـــــد بـــــات بـــــالمجد خـــــالـــــداً وبـــــالسيف كم افنى وطوع من عـــــاص

« حلب »

عجبت لمدينة يحيطها القفر من كل ناحية وتبعد عن البحر مسافة وترى فيها التمدن والتجارة والعلوم والحضارة فمن عرف تاريخ حلب وما انتجت من الرجال والعلماء يعرف ما لها من الفضل على سوريا فليطلع القارىء على مقالة الاب شيخو في المشرق تظهر له الحقيقة جلية واضحة وها اني اقتصر عما اعرفه من رجالها الافاضل فأقول ان اول من أوجد مطبعة في الشرق حلبي وهو عبدالله زاخر وكذلك مؤسسي الرهبنة المارونية حلبيون ومن ينسى افضال المطران جرمانوس فرحات على اللغة وعلى تنظيم ترتيبات الكنيسة المارونية ومن ينسى افضال السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم على طائفة الروم الكاثوليك وفضل بطركها الحالي غبطة كيرللس جحا على اني اقول كلمة موجزة انني دخلت حلب في ٧ تموز في القطار الحديدي الذي لولاه لما نظرتها عمري وهو من مآثر الذات الشاهانية ايدها الله فرأيت بناياتها عظيمة على النسق الجديد والشوارع متسعة وقد رأيت المدينة القديمة ذات اسواق مبلطة نظيفة متسعة كأحسن مدن سوريا والأهم فيها قلعتها عديمة النظر في بلادنا ومركز البلد من اجمل المراكز فهي على سهل كاشف لا تصدمه الجبال ومن حولها ارتفاعات قليلة وهي بشكل هلالي .

وأكثر فرش بيوتها على النسق الاوروباوي الجديد والالفة سائدة بين جميع الطوائف والهدو شامل حتى متنزهاتها وكل ذلك لا يوازي لطف وشغل وحمية ونشاط رجالها فترى منها في الدنيا كلها تابعة التجارة والعلوم .

وقد نزلت في اللوكندة العزيزية وهي لوكندة عظيمة يزينها لطف صاحبها ومدامته وقد افردوا لي غرفة في الجهة الشرقية وهناك مربط الخاروف والديك والحمار وهلما جرا فكان الخاروف يصرخ مساء والحمار ينهق ليلاً والديك يصيح صباحاً واخيراً اخبرت صاحب النزل الذي ذبح الخاروف وابعد الحمار وأما الديك فابقاه فكأني لم أزل في غرفتي في بيروت مع ديك الجاويش فقلت لصاحب النزل واسمه كورك اوهانيان :

اذا كـــان صوت الـــديك ارجـــع بطرساً	الى دينـــه بـــالعكس يفعـــل مـــع ديني
الا فـــابعـــدوا عنـــا صيـــاحـــاً لـــديككم	والا لعنـــــــا دينكم عنـــــــد تلحين

كأني ما لعنت شيئاً فضحك وابقى الديك فسكت لأن سفري كان قريباً .

« الفردوس الارضي »

اتفق انه كان في النزل رجل انكليزي من مستخدمي مصر وعندما كنا على المائدة اخذ يتكلم عن الفردوس الارضي اذا كان قرب الفرات او في دمشق او في الهند فأجبته انه لا يوجد فردوس ارضي

فأجاب كيف تنكر التوراة التي ذكرته وما هو برهانك لعدم وجوده فقلت أعظم برهان عندي لعدم وجوده هو انه لوكان موجوداً لملكته انكلترا لان جهنم التي هي افريقيا دخلتها فكيف لوكان يوجد فردوس في الارض فعند ذلك استلقى على ظهره من الضحك مع السامعين .

« سادات وذوات حلب »

فتوجهت في اليوم الثاني لأزور سيادة مطراني المطران يوسف دياب في كرسيه ولم يسبق لي معرفة به فعرفته في نفسي فلاقيت منه كل انس ولطف وقد دعاني الى مائدة مخصوصة في اليوم الثاني وكان ظاهراً فيها كرم سيادته ومن عرف تاريخ اصله وفعله لا يستغرب ذلك فوالدته من عائلة كوبا الكريمة الشهيرة في ليفورنا وأصل عائلته من بشري من الكوارزة فنكون من اصل واحد كما ذكر الدكتور رشيد شكرالله الحلو من بعدنا في سلسلة بيت الحلو حاصله انه خلف الشمالي وقد جدد كل بنايات الكرسي وانشأ المدارس واشترى أملاكاً للكرسي ووزع احساناً وهو انموذج الاجتهاد ولد سنة ١٨٤٩ في حلب ووالده انطون وسيم مطراناً سنة ١٨٩٦ ونال المجيدي الأول والعثماني الثاني من لدن جلالة السلطان الاعظم وله غيرة عظيمة على خرافه وقد عرفني بذوات الطائفة وزرت بمعيته الخواجه يوسف اندريا من التجار العظام وكذلك جرجي بك عابديي الذي لاقيت منه كل التفات وهو الذي كان يقدمني الى ذوات حلب وكان يرافقني النهار بطوله مبارك الله في الانسانية واللطف الكامل وفضلاً عن ذلك فهو من التجار المعتبرين وعضو ادارة عن الموارنة وقد عرفني بالشهم الكريم صاحب النبل الخواجه يوسف الاسود الذي رأيت منه كل ملاطفة فهذه العائلات المارونية احضرها من لبنان ساكن الجنان السلطان سليم واسكنها حلب لأجل حركة التجارة ومنها عائلة جورج بك عابديي لم يزل اسم عابدين عليها وحضر جدها الى حلب وكان كاهناً اسمه الخوري موسى سنة ١٥١٦ .

ولا انسى لطف الخواجه البر حمصي الذي رافقني مع جرجي بك وهذه العائلة هي من أعظم العيال واغناها كاملة الخلق والاخلاق وعرفت منهم الخواجات نعوم ودزيره وكذلك الخواجه نصرالله بطرس وهم من الذوات الكرام والذي عرفته وجذبني اليه لطفه بسرعة هو الخواجه هانري ماركوني من التجار العظام وفي اليوم الثاني زرت سيادة المطران ديمتريوس القاضي وقد ذكرت عنه .

والذي أنست به جداً هو سعادة يحيى بك الشمعة كومندان الجندرمة في ولاية حلب وكنت عرفته في بيروت وهو من الذوات الكرام وخدمة الدولة الامناء اينما حل تحل الراحة والسكينة وقد كنت مسروراً جداً من استقباله وكنت أجول في البلد محل المتنزهات وفوضت امري بالتنزه الى العربجي يأخذني اين شاء ولكن لم افوض اليه امري بالحساب وادفع له ما شاء لان الغريب مطمعة اين ما كان خصوصاً وقد علمتني كثرة الاسفار اشياء كثيرة وكان منظر المدافن في حلب مدهش وعندما كنت أمر على تربة اتصور ان الاموات

قامت وان كل واحد واضعاً على صدره لوحاً يشير على اسمه وقد قابلت رفيقي في المدرسة الدكتور انطون افندي الشعراوي الذي سررت جداً وقدمني لمعرفة مدامته وبناته اللطيفات .

ولم يضايقني في حلب سوى الحر الشديد والهواء الحار الذي لا يطاق وهذا سبب سرعة رجوعي وقد قلت في ذلك :

اعطيت مس رب السما	وصلاً يفيد لدى الطلب
في خصم عام كامل	في مدتي بين اللهب
عن كل يوم بتة	ما بين حمص وحلب

ولكن ليس الذنب على حلب بل الذنب على من يزورها بغير فصلها العظيم لأن البلاد كالعباد لا يمكن الكمال فيها فالبلد التي تكون باردة في الشتاء تكون لطيفة في الصيف وهكذا ففصل حلب هو فصل الربيع وفي هذا الفصل كانت تحلو فيه زيارتها ولكن فرصتي لم تكن ذاك الفصل والخلاصة اني خرجت منها ممتناً لاهلها جداً واذا كان حرها شديد فلا ذنب عليهم فهم مثلنا يتألمون فرجعت منها الى بعلبك رأساً ومن بعلبك الى صوفر ومنها الى بتدين ومنها الى المختارة الى عين قنيا وزرت هناك .

« زين الدين باشا حسن »

وهنا لا يمكن السكوت عن ترجمة هذا النابغة في عصره لاني اعرفه من صغره ولد في عينقنيه سنة ١٢٥٠ هجرية وعرفته عندما كنت في المختارة وكان يومئذ من تلامذة الشيخ ابرهيم الاحدب وكان بعهد داود باشا محامياً لحقوق الطائفة الدرزية ثم محامياً لدعاوي بيت جبلاط واحسن شيء عمله هو تربية وتعليم أولاده الثلاث أكبرهم محمد بك وثانيهم سلمان بك وثالثهم سعيد بك وقد نال زين الدين باشا رتبة امير الامراء مع لقب باشا وأولاده مثله في حفظ الزمام وكرم الاخلاق تقلبوا بمأموريات عديدة .

ثم بعد ذلك ذهبت الى باتر مع ملحم بك حمدان نجل الشيخ سعيد حمدان .

« الشيخ سعيد حمدان »

ان هذا الرجل هو الصدق المجسد عرفته من مدة مديدة لا يعرف الكذب ودود صادق لا يميز العدو من الصديق عند الحكم وقد أصبح لفضيلته قائمقام الشوف الامر الذي لم يتأت لغيره من عائلات المشائخ وهو العضو الدائم الدرزي لدائرة الحقوق وكان قاضي في الشوف فلا يؤثر عليه المناخ ولا الظروف ولا الاحوال دائم الصدق وولده الشيخ ملحم مقتفي اثره في هذه الصفات وكان عضو محكمة جزين وله ولد

اسمه كامل وهو مثل باقي العائلة وعائلة آل حمدان هذه كانت ذات مقاطعة اخذت منها واعطيت لخلافها في أيام الأمير حيدر وهي عائلة كريمة تصل بها صلة الرحم ببيت جنبلاط وبالاختصار ان الشيخ سعيد هو انموذج الصدق والزمام ولم يزل عضواً في دائرة الحقوق للان .

وقبل وصولنا الى باتر عرجنا على عاطمور لزيارة قاسم افندي وحسين افندي عبد الصمد وهم من عائلة بيت عبد الصمد الشهيرة التي لها حزب في البلاد فيقال هذا صمدي وهذا شقراوي نسبة لعائلة اخرى كريمة في عماطور وهي عائلة بيت ابو شقرا ولهاتين العائلتين اهمية كبرى في الشوف فقد كانتا تملكان اقليم التفاح باجمعه ملكاً مطلقاً وهوكناية عن عشرين الى ثلاثين بلد أما الان فلم يبق لهما شيء فقد بيعت تلك الارزاق وانفق ثمنها في سبيل الكرم والضيافة واما الصداقة التي بيننا وبين قاسم افندي وحسين افندي هي قديمة من زمن والدي مع جدهما الشيخ احمد علي المشهور وقاسم افندي الان عضو في محكمة جزين وحسين افندي كاتب في دائرة الحقوق الاستئنافية وقد بنى قصراً في عماطور جميلاً . ومن باتر رجعنا الى جزين الى بكاسين لتكملة فصل الصيف هذه هي سياحتنا الاخيرة .

« محكمة الشوف »

عندما تأملت في هذه المحكمة وبمن ترأسها وبالقائمقاميين اللذين تولوها وجدت فيها امر عجيباً وسراً اعجب كيف انها جمعت رؤساء وقائمقامين لا عيب فيهم بالرشوة يعطون ولا يأخذون اولهم الامير ملحم ثم الامير مصطفى ثم نسيب بك جنبلاط والان الامير توفيق فلم يوجد اشرف نفساً من هؤلاء فلذلك كانت رؤساء المحاكم مثلهم ولذلك لا يلزم ان نسكت عن صفات هؤلاء الرؤساء ليكونوا مثلاً لمن بعدهم فالذي عرفته منهم هو المرحوم .

« الشيخ سعيد تقي الدين »

لا أتكلم عنه الا بصفة رئيس محكمة وليس بصفة عضو في دائرة الجزاء وبغير مأموريات فهو أزكى سامع وأفصح متكلم عالم اديب وهو من عائلة اولدت رجالاً مهمين منذ ابتداءها حضرت مع المعنيين وظهر منها الشيخ زين الدين عبد الغفار الذي اشتهر بكتبه اولها مجرى الزمان وثانيها النقط والدوائر وهما أحسن الكتب الدينية الدرزية ثم الشيخ احمد تقي الدين الذي تولى القضاء في جبل لبنان مدة حكم الامير بشير قاسم الشهابي وعند تشكيل لبنان تولى قضاء الشوف الشيخ ابو صالح تقي الدين المشهور بالعفة والاستقامة فهذه هي العائلة الدرزية العلمية ولم تزل اولادها مقتفية اثر العلم منهم اولاد المرحوم الشيخ سعيد الخمسة أكبرهم محمد افندي وهو الان مدير مال الشوف والثاني طبيب في حكومة امريكا والثالث امين يدرس الحقوق في المدرسة الافرنسية في مصر وشاهدته هناك والرابع يتعلم الطب في بيروت وكان أول سنة تلميذي في مدرسة الطب الافرنسية ثم انتقل منها الى الامريكانية والخامس في المدارس حتى

واصهرته من اصحاب العلم ايضا كالدكتور علي سليمان من أمهر والطف الاطباء وهو طبيب خستخانة بعقلين الانكليزية .

والعائلة الثانية العلمية والتي خلفت رئيساً لمحكمة الشوف مملو استقامة وعفة نفس هي عائلة عز الدين الذي ظهر منها مدة الامير بشير الشيخ حسين ماضي شيخ العقل والان منها صاحب الشهرة كما قلنا .

« محمد افندي عز الدين »

الذي ترأس كما قلنا محكمة الشوف وهو الان عضو في دائرة الجزاء ومنها من الاطباء قاسم بك عز الدين طبيب كرنتينة ببروت من الاطباء الممتازين وقد ترأس هذه المحكمة الشيخ سعيد حمدان كما قلت وكذلك عباس افندي حميه ولو كان ضدي في دعوى ماء بكاسين لكنه من الرجال المستقيمين واخيراً استعفى منها لكثرة اشغاله ومهما اختلفت مشارب القائمقامين مع بعضهم فلم يختلفوا بانتخاب قضاة صادقين لهذه المحكمة فهذا من توفيقاتها .

« العطاء الجزيل بدون وفاء »

في اثناء هذه السياحة بينما نحن في السكة الحديدية بين حمص وحلب سمعت رجلاً يخبر قصة جرت له وهي انه دخل على رجل عظيم وانشده قصيدة بليغة (كأنهُ شاعر) فامر له بمائة ليرا ففرح هذا الرجل حتى كاد يطير من الفرح فبقي ينتظر الدفع من يوم الى اخر حتى ضجر وكان الرجل يهرب منه تقريباً كلما صادفه ففي ذات يوم ارسل له الاشعار الآتية :

عطـــاك جزيـــل غير انك ممطـــل	وتـــذهب لـــذات المكـــارم بـــالمطـــل
فوسى كليم الله اوعـــــــد قومـــــــهُ	ولما أطـــال المكث مـــالوا الى العجـــل

ومع كل هذا لم يقبض شيئاً فأصبح الشاعر عدوه وبئس العداوة فبدل المدح بالهجو وكان هجوه مراً.

(قصة نديم) طلب أحد الملوك من وزيره نديماً لانهُ اشتهر بظرفه ومنادمته فأمر الوزير النديم ان يعمل جهده ليسر الملك ونبه عليه ان لا يطلب دراهماً منهُ واذا طلب يقطع رأسهُ فدخل النديم عند الملك وجاد في المنادمة حتى سر الملك جداً وعند انتهاء السهر قام الملك ليدخل الى الحريم فافتكر النديم ان كل تعبه ذهب سدى وان الملك مسرور وهذه الفرصة لا ترجع فتقدم الى الملك وقال لهُ مولاي لقد نبهوا علي ان لا اطلب دراهماً من جلالتك ولكن من نبه عليك ان لا تعطيني فضحك الملك وامر له بجائزة عظيمة وعندما علم الوزير بذلك سأل النديم فأجاب انني ما طلبت حسب امرك لكن قلت كذا فضحك الوزير واجازه .

زيارتي للقدس

صرت حاجاً

لا شك بأن ما يسمعه الانسان في صغره يؤثر عليه في كبره لان المرء ابن تربيته ولا بد ان يبقى اعتقاده الأول راسخاً في ذهنه ولو كبر وغير معتقده فلا العلم ولا العمر يمكنهُ ان يزيل منهُ ما تعلمهُ صغيراً فالقدس او اورشليم وساكنيها هو أول ما يسمعه الانسان في الشرق والغرب ويعتقد به فمنذ أول ادراكي ومعرفتي كنت اسمع بمزامير داود النبي والملك واقرأ ما ورد فيها عن صهيون جبل قدسه وسليمان وحكمته وامثاله وغناه وما اشبه حتى انني كنت اتشوق كسواي لمعرفة مركز هؤلاء الانبياء والملوك الذين هم حتى الان مخلدي الذكر رغماً عن تقدم العلوم والمعارف وما استطاع أحد من الفلاسفة او العلماء ان يشتهر نظيرهم ولم يزل زبور داود في كل لغة منتشراً يترنمون به في كل كنيسة كما ان حكمة سليمان وامثاله لم تزل حجة الأقوال وليس عن عبث احترم الجنس البشري هؤلاء الانبياء والملوك معاً وأكرمهم وهذا الامر نادر جداً لولا عناية مخصوصة ولا جرم بأن الارض التي وطئوها ممتازة كامتيازهم عن باقي البشر . أما الامر المهم الذي جعل اورشليم قدس الاقداس فهو وجود المسيح فيها وقصته وأعماله ومعجزاته وهذا ما تعلمناه في الصغر ولذلك كنت اتشوق لارى تلك الارض المقدسة ولكن الظروف لم تنلني مأربي الا في هذه السنة بعد رجوعي من مصر ان ازورها وجعلت شرط زيارتي منوطاً بميناء يافا التي اشتهرت برداءتها وهي التي تمنع أكثر الناس من زيارة القدس غير ان الله اذا اراد امرا سهل وسائطه فقد وصلنا الى يافا ورأيت الميناء بغاية الهدوء والسكينة والبحر صاف كأنه بر فحالاً نزلت من الوابور ووصلت الى البر بكل راحة اما فكري فكان مضطرباً لان شهرة هذه الميناء برداءتها لا تجعل الانسان اميناً منها كعادة كل شرير لا يأمن له الانسان ولو تظاهر بالصلاح فزرت بيت الخواجات حاج وبعد الظهر بساعتين توجهنا الى القدس مع نجيب افندي الحاج ومدامة رشيد افندي الحاج بالسكة الحديدية ومررنا بالطريق على اللد والرملة وسجد وبيتر وبعد اربع ساعات وصلنا الى اورشليم الساعة السادسة من سبت النور الواقع في ٣٠ آذار سنة ١٩٠٧ وكان البرد قارصاً والريح عاصفاً .

« زائرو اورشليم »

يزور القدس ثلاثة ملل لكل ملة غاية مخصوصة وافكار مخصوصة . يزورها اليهودي والمسيحي والمسلم . فاليهودي يتذكر بها عزه وجاهه وداود وسليمان والهيكل وباقي ملوك أمته فيتأسف ويتحسر وينوح فهي له ذكرى حزن في الحاضر وعظمة في الماضي والمسلم يتذكر بها معراج النبي صلعم وصعوده بالمحراب ودخول عمر اليها وصلاته فيها وهي مركز قدس له كانت ولم تزل حتى اليوم اما المسيحي فيتذكر بها صلب واهانة وعذاب واحتقار وميتة معلمه وسيده ذاك الذي لم يجد له مأوى لولادته ولا لموته ولا في حياته ولد في مزود وعاش على الطرقات ومات على صليب معلقاً وفي ايام عزه ومجده استعار حماراً وركبه . وتزول هذه

الاحزان القديمة عند المسيحي حين يرى ملوك الارض ورؤسائها وشعبها يأتون الى هذا المكان يفتشون على التراب الذي داسته اقدامه ليمرغوا به تيجانهم فيعرف ان أكليل الشوك قد تسامى على أكليل الجوهر فينسر ذلك الحزن القديم ويناجي ذاته قائلاً . بالحقيقة لو جحد البعض الوهية المسيح في السماء فبلا شك بأنه اله الارض .

﴿ القبر المقدس ﴾

لا اتعرض لمحل هذا القبر ان كان هو الحقيقي ام لا لأن العلماء اختلفوا في آرائهم بهذا الشأن وهل كان خارج المدينة او داخلها وما هذا الامر بالجوهري حتى يؤثر على الاعتقاد لان المهم بذلك كله ان حكاية المسيح جرت في هذه المدينة ولا احد ينكر مجيء المسيح اليها وصلبه وموته فيها ولا بد لأي محل يدوسه الانسان فيها ان يكون قد سبق وداسه المسيح فقبره كمحل اقامته لانه لم يبق في القبر سوى ثلاثة ايام وقام من بين الاموات كذلك معرفة محل صلبه ليس بالامر الجوهري لان المكان اذا لم يعرف بالوضع فبالتصور ومع ذلك فقد اجمعوا منذ القديم على هذا المحل بكونه القبر المقدس وهب انهم اخطأوا بحكمهم فطول الزمن الذي قد مر عليه يجعل له الاحترام وبعدما انهينا من هذه الزيارة التي لم استعد فيها لفكر تخشعي نظراً لظروفها وعدم الاحتشام الديني لان كنيسة القيامة والقبر المقدس كانا كسوق يدخلهُ الزائرون ويدورون حيث لا يستقرون في محل للصلاة وفي كل جهة يسمع الانسان الصياح بكل اللغات والعساكر تسير بكل جهة وقد كان يخشى الجميع ان احدى الطوائف تدوس محلاً لا يخصها او تطفيء قنديلاً لا تملكه لئلا تقوم القيامة فافتكرت بأن المسيح الذي اتى الى الارض ليعلم السلام والوئام فقد أبدلوا تعليمه بالاختلاف عليه فعندئذٍ ركعت أمام القبر وقلت مصلياً :

سيـــــــــــــدي يسوع مها جئت من	رحمــــــةٍ للنــــــاس مـــــذ خلصتهم
لا يوازي شر من قـــــد خــــالفوا	ويقولون بــــــــــــــــان خلفتهم

وخرجت من ذلك المحل تاركاً ما كان عندي من بقايا الدين على باب القيامة.

الجامع الأقصى

في ظهر ذلك اليوم اتانا احد انفار الجندرمة من قبل نجيب بك القباني مدعي عمومي القدس ليتوجه معنا لزيارة الجامع الاقصى وهو ابن صاحب السعادة عبد القادر افندي القباني مدير معارف ولاية بيروت ولا استطيع وصف ما هو عليه هذا الشاب من الأدب والمرؤة والاخلاق الحسنة ومن ترجمة سعادة والده يعرف ان هذا سجية طبيعية متأصلة في العائلة .

ولا استطيع وصف الدهشة التي ألمت بي حين اشرفت على القسم الذي فيه الجامع الاقصى وهو جبل موريا حيث كان هيكل سليمان (اي الهادي) وحيث اعتمدت ان لا اذكر ما ذكره غيري اقتصرت عن ذكر جبل موريا والجامع الاقصى القائم عليه وأقول بالاختصار انه أول جامع مما رأيتهم في حياتي .

« عبد القادر افندي القباني »

ولد السيد عبد القادر افندي قباني ابن السيد مصطفى الذي نال من ساكن الجنان السلطان محمود رتبة اسطبل عامره مديري في بيروت سنة ١٢٦٥ هـ وفي سنة ١٢٩٢ تحصل على امتياز جريدة ثمرات الفنون التي خدمت ولم تزل تخدم الوطن وأول دخوله في خدمة الحكومة كان عضواً لادارة بيروت ثم عضو محكمتها الابتدائية ثم عضو محكمة الاستئناف ثم وكالة رئاسة البلدية ثم رئيساً للبلدية ثم مدير المعارف في ولاية بيروت بارادة سنية ولم يزل فيها صاحب الرتبة الاولى صنف أول والنيشان المجيدي الثاني والعثماني الثالث ومدالية التخليص ومدالية السكة الحديدية الحجازية ومدالية وصول السكة الى معان وهو اخو السيد سعد الدين باشا القباني الذي توفي سنة ١٣١٨ الذي من اولاده سعادة عبد الغني باشا فينتج من ذلك ان هذه عائلة كريمة خدمت مدة طويلة الحكومة ولم تزل اولادها ماشية على الخطة ذاتها فلا عجب من امانة وصدق نجيب بك .

« الروح القدس المقوي المعزي »

من عرف تاريخ الرسل قبل حلول روح القدس عليهم وبعده يعتقدون دون شك بأنه هو الروح المقوي ومن كان يظن بالرسل جبناً كهذا ليلة مسك المسيح ونكره بطرس وفر رفقاؤه عنه بعد ان اجرى لهم تلك المعجزات العظيمة وكيف انهم بعد حلول الروح القدس عليهم جاهروا بايمانهم وسلموا ذواتهم الى الموت وطافوا الارض مع انهم خافوا قبلاً من رجال قيافا والبرد وكيف انهم بحالة جهالة كانوا يعمهون وهم دائماً في شك يتعجبون لكل كلمة يسمعونها وقد كتبوا فيما بعد ما كتبوه كرسالة مار بطرس ويعقوب ومن يقول ان هذا الكلام يصدر من صياد ومن اين اتته تلك الشجاعة التي دعته ان يذهب الى رومية وسواها ويعرض نفسه للموت وبالحقيقة ان روح القدس هو الروح المعزي المقوي المنير للعقول الذي جعل البكم فصحاء ويا ليته كان حل عليَّ وعمل معي خلاف ما عمله مع الرسل الذين وهبهم الفصاحة ويا ليته كان اسكتني واخرسني فلكنت استرحت من كل منتقد .

« الزيارات »

وقد كان معنا في زيارات البطريرك اللاتيني ورئيس دير الفرنسيسكان والمتصرف وقنصل فرنسا المونسنيور الخوري يوسف المعلم الوكيل البطريركي الماروني في القدس وهو رجل مجتهد وصاحب غيرة

وحمية وله صداقة مع رفيقي نجيب افندي بحيث أنزلنا عنده فرأينا جماعة من الزوار الموارنة نازلين هناك والمحل متسع لكنه منفرد وليس فيه تذكار وهو داخل المدينة وقد اقام المونسنيور يوسف كنيسة باسم مار مارون وعندما نظرت غيرته نظمت له الابيات الآتية ومحل المطرانخانة في جبل صهيون :

قد كان يوسف للمسيح معلماً ... واتى به يوماً الى صهيونا
واليوم يوسفنا الجديد لقد أتى ... وأقام في صهيون مار مارونا
ولكثرة الزوار دوماً حوله ... فحسبت صهيوناً غدا البطرونا

ففي أوقات زياراتي وجدنا رئيساً مدعياً غشيماً كما هي العادة فعرفونا به . فقلت شعراً :

وعندما زرت قدساً زرت اديرة ... للقبط والروم سريان ولاتين
قد كان ما بينهم علجٌ يظن به ... في سن خمسين أو في سن ستين
قد عرفوني به تعريف مشتهر ... بانه خير قسٍ في فلسطين
من نسل ذاك الذي يسوع شرفه ... اذ قد علا ظهره يوم الشعانين

« زيارة المتصرف »

في مساء يوم الثلاثاء زارنا نجيب افندي قباني كما قدمت وطلبنا منه ان نزور المتصرف فأجاب طلبنا وفي اليوم الثاني توجهت معه وصحبنا الخوري يوسف ونجيب الحج فرأيت المتصرف من أطرف وألطف الشبان يتكلم اللغة الفرنساوية ويجيدها كأفرنسي وهو ابن كمال بك الشاعر الشهير وقد علمه والده سائر العلوم في منزله ثم خدم المابين الهمايوني ست عشرة سنة وأول وظيفة تولاها في الخارج هي متصرفية القدس ويدعى علي أكرم بك وقد نظمت له هذه الابيات :

فلو عيسى جاء القدس قصد كرامة ... لكان علي ذو الكمال له أكرم
وكان له من كل كيد مخلصاً ... ولم يدع المظلوم في حكمه يظلم
فمن كان من بيت الكمال شعاره ... فلا عجب ان بات في حكمه يرحم

« بيت لحم أي بيت الخبز »

هي افراته القديمة ومعناها المخصبة لأنها اخصب ارض هناك تبعد عن القدس تسع كيلومترات ويمكن الزائر ان يقطع هذه المسافة سيراً على الاقدام كما يفعل زوار الروس .

وبعد ذلك وصلنا الى بيت لحم وكانت أصغر قرى يهوذا ولكن نظراً للحادثتين اللتين جرتا بها فقد اشتهرت جداً وهما ولادة داود وتكريس صاموئيل له فيها وولادة المسيح وهي قائمة على سفح جبل محاط بأراض مخصبة بالزيتون والفاكهة بعكس القدس المخزنة القاحلة .

المغارة

التي ولد فيها المسيح ولم تزل في محلها لا يشك فيها كما يشك في القبر المقدس وقد بني عليها كنائس واديرة وفيها كنيسة للروم من عهد الملكة هيلانة وكنيسة ثانية للأرمن والثالثة للاتين باسم القديسة كاترينا وهي بيد الرهبان الفرنسيسكان .

اثر علي مرأى المغارة عكس تأثير كنيسة القيامة ففيها ترى التأمل والسكوت وبها يركع الزائر ويصلي ولا احد يعكر صفاء تأمله فهي خشوعية أكثر من كنيسة القيامة وقد افتكرت في غشم هيرودس الذي يدعي المعرفة والسياسة بكونه اتكل على المجوس ليرجعوا ويعطوه الخبر عن المسيح فما هذا فعل رجل سياسي فكان يلزمه عندما رأى غرباء يفتشون على ولادة ملك ان يصحبهم برجال من عنده ليعرف تصرفهم ويطلع على الحقيقة ولا ينتقم من الاطفال فكان أولى به ان يقتل نفسه لخطأه السياسي عوضاً عن الأطفال ولكن هذا أمر الهي لا ندركه كما وان المجوس أول من آمنوا في المسيح ولحد الآن لم يؤمن به أحد من بلادهم لأنهم من الفرس أو الشرق كل ذلك عجيب .

« نادرة مع اهالي القدس »

في أحد الليالي حضر عدة اشخاص لتمضية السهرة معنا وكان بينهم رجل ظريف لطيف جداً فقال لي قد أتيت الى هنا لتتقدس دون شك منا لأننا قوم مقدسون ومنا ظهر كافة الانبياء والمسيح قد اتى في وسطنا فأجبته ان المسيح اتى اليكم لا لقصد الاكرام بل لأنهُ عرف انه سيصلب فداء عن البشر فنزل الى الارض لهذه الغاية من اعلى السماوات وتسأل عن ارذل خلقه في الدنيا ليتجاسر ويصلب ابن الله ولم ير بين مخلوقاته شراً منكم فأتى اليكم لتصلبوه وكما انك لو رأيت عدة اطباء خارجين من محل ما فتعرف دون شك ان اجتماعهم انما لمداواة مريض وحيث الانبياء هم اطباء الروح وروحكم مريضة لذلك اجتمع الانبياء عندكم لاصلاحكم ولكنهم لم يفلحوا فأتى اليكم المسيح ولما يئس منكم قال عنكم مخاطباً مدينتكم يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين كم من مرة اردت ان اجمع فيك بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها وما تريدين . فاذا كان المسيح ما جمع كلمتكم هل من بشر يقدر فيما بعد على ذلك .

فضحك وقال أحمد الله لكوني لست من أصل قدسي والحق يقال ان سكان القدس الان هم غير

الذين كانوا في زمن المسيح بل هم جماعة من سائر الاجناس والملل والنحل ينطقون بسائر اللغات كأنهم غاروا من الرسل فحل عليهم الروح القدس ثانية واتقنوا سائر اللغات ومحمل القول اننا في الساعة الثامنة من يوم الاربعا الواقع في ٣ نيسان سنة ١٩٠٧ توجهنا الى يافا ووصلنا اليها الظهر تماماً فذهبت مع رفيقي نجيب افندي الحج الى منزله وسألت عن ميعاد الوابورات الذاهبة الى بيروت فقيل لي ان في الغد وهو يوم الخميس يسافر الفرنساوي منها فسررت جداً .

«كنيسة الطائفة المارونية في يافا»

بعد ان وصلنا الى يافا بنصف ساعة درى بنا الاب الدكتور القس بولس عبود من افراد الرهبان البلدية من غوسطا وهو ابن اخت الرئيس العام المرحوم مرتينوس غسطاوي الذي تولى الرئاسة العامة من مدة طويلة وشقيق المثري الشهير بطرس عبود وقد تلقى دروسه في رومية حتى حاز شهرة عظيمة جداً وحين اتى الى يافا رئيساً للدير رأى كنيستها صغيرة تكاد لا تذكر فجمع لها الدراهم اللازمة لأجل انشائها وكلفتهُ مبلغاً طائلاً فأقامها على نسق بديع جداً وقد تم بناؤها وزارها البطريرك الياس عند ذهابه الى رومية وبعد حضوره توجه سيادة ابن عمنا المطران شكرالله الخوري الى هناك وكرسها لانها تابعة لابرشيته وانها تخص الرهبنة البلدية الذي كان رئيسها يومئذ الاب يوسف رفول الاجعي وقد وعدت الاب المذكور بتقديم تاريخ للكنيسة لأنها مشيدة على اسم مار انطونيوس فنظمت له الابيات الآتية :

أقـــــام بولس عبود للمتـــــه	مقـــــام دين بشكر الله كرسه
قـد زاره البطرك اليــاس الـذي اشتهرت	افضالـــه فلــذاك الله قــدسه
رهبـــان لبنـــان في ايـــام يوسفهم	قــد وكلت فيـــه انطونـــا ليحرسه
لـذاك تـاريخـه قـد حن عن ثقـة	لا يهدم الله ركنـــاً كـــان أسسه

سنة ١٩٠٧

وقابلت في ذلك النهار الشيخ سليم بن الشيخ خطار الدحداح استاذي القديم وهو شاب ذكي اديب متعلم ورئيس ادارة رزي التنباك واحواله على غاية ما يرام فسررت جداً لمرآه وكان من جملة الاصدقاء الذين قابلتهم شكيب افندي الحج شقيق نجيب افندي وهو محرر النفوس بقضاء يافا ومداخلاته حسنة مع القائمقام وكان مركزه في الميناء يتناول الجوازات من الركاب فطلب مني ان انظم بعض ابيات لقائمقام يافا محمد رضا افندي لانه صديقه فأجبت طلبه وقلت :

يـــا يـــافـــا [1] انت جميلـــة وجمـالـك لا ينقضـــى

(١) يافا لفظة سريانية معناها جميلة .

هبت عليك عواصف وزوابع لا ترتضى
فالان كوني امينة من كل شر قد مضى
من ربك ومليكك ومحمد نلتِ الرضا

وفي يوم الخميس بعد الظهر بساعتين توجهت الى الوابور فقام عند غروب الشمس وفي الساعة السادسة من يوم الغد في ٥ نيسان وصلنا الى بيروت حيث لاقاني اولادي وديع حليم .

(نكتة) طلبت من بعض اصحابي واسمهُ كامل قضاء حاجة الى صديق لي وألححت عليه جداً فأجابني ماذا تفعل اذا ما قضيتها أجبته يصير كل منا عكس اسمه .

(نكتة أخرى) كنت في مجلس واذ دخل علينا رجل اسود الوجه مع زوجة تخجل البدر فابتدا الحاضرون ينظرون بعضهم بعضاً ويتغامزون كما هي العادة ويقول كل بفكره يا للخسارة فقلت بذلك :

تكدرت الخواطر مذ رأينا برفقة اسود بدر التمام
فلا عجبٌ بذا اذ قد عرفنا بان البدر يطلع في الظلام

(لاميل باغوص) تعشق عينك هذا الشاب لطيف الخلق والاخلاق لأول نظرة تنظره وتلحقها اذنك لأول حديث منه تسمعه ويتبعها قلبك عندما ترى الاخلاق الكريمة والمرؤة والشهامة وبعد ربع ساعة تصبح كلك له وكله لك هذه أوصاف العائلة وقد طلب مني كتابي تحفة الراغب في صحة المتزوج وزواج العازب فقلت له :

ارسلت تطلب مني تحفة جعلت لنصح متزوج او زيجة العذب
كي تلقى من نصحها يوماً بلا تعب نسلاً جميلاً صحيح الخلق والادب
فسل اذا شئت عن ذا السر والدة تغنيك عن كلما قد جاء في الكتب
لأنها وضعتكم في الدنى مثلاً للطف والظرف من عجم ومن عرب

رآني احد الشبان كنت اعرفه قديماً فقال لي بهزء قد شبت وما عدت تنفع فأجبته الحمد لله الذي ابقاني لأرى شيبي وربما انت لا تراه .

وقلت في وغد متفرنج كان يلبس برنيطة ويحدفها الى الوراء ويمشي متعجرفاً كأنه خلق البرنيطة وما تقبعها غيره وهو من أصل دني جداً وكان مصاباً بالداء الافرنجي فقلت فيه :

انظر لهذا الوغـــد مـــا بين الورى	يتقلـــد الافرنج من بعـــد العرى
فتراهُ يحني للورا برنيطـــــــةً	فكـــأنـــه اخـــذ الفرنجي من ورا

قلت في مدرسة كثر فيها الفساد من المعلمين والرؤساء وعندما حضر رئيسها الجديد قلنا له ما يأتي ليعلم انه اذا مشى مثل سالفه يكتسب الشهرة نفسها وكان يفتخر رئيسها السابق بخيله وعربته وهلمَّ جراً :

الى ملجـــا الرئـــاسة والحضارة	سنبـــدي مـــا امرَّ من المرارة
فليس يهمنـــا ان كـــان خيـــل	بيـــاخور وان كـــانت حماره
ولكن الـــذي نبغيـــه منكم	تنـــام براحـــة في الليـــل جـــاره
ولم نسمـــع صراخـــاً كـــل ليـــل	وتهديـــد البوليس وشيخ حـــاره
ولا ابقـــاء مـــدرسة لفسق	لغير او لاونـــان سفـــاره

عير واونان هما اولاد يهوذاولكي تعرفهما اقرأ الاصحاح ٣٨ من سفر التكوين .

(نكتة) التقيت بمطران راكباً عربة وبجانبه كاتم اسراره وكنت ماشياً وبالصدفة بجانبي كلب فطلب كاتم الاسرار من سيادته ان يسألني عن الذي بجانبي فقال لي سيادته ما هذا الرفيق الذي بجانبك فأجبته كاتم اسراري فضحك ما عدا الكاتم الذي كتم الغيظ أكثر من السر .

ونظمت تاريخاً لدار الخواجه درويش الشيخاني حيث طلبه مني عندما كنت في بكفيا ليكتب فوق البوابة ١٩٠٦ :

هـــذا جزاء الـــذي قـــد بـــات مجتهداً	وضيـــع العمر في جـــد وتفتيش
نـــال الغنى والمنى والجاه مفتخراً	بـــاسم نقي بلا عيب وتخديش
في سفح لبنـــان والتـــاريخ قيـــده	قـــد بـــات ايوان كسرى بيت درويش

ويوجد في بكفيا عائلة عظيمة ظهر منها في كل زمن رجال عظام وهي عائلة بيت زلزل الذي منها الان الشهم اللطيف السياسي فيليب افندي زلزل من متوظفي قنصلاتو فرنسا في بيروت وهو الوحيد من ابناء العرب الموجود في القونصلاتو وكل ذلك من استقامته وصدق مودته وامانته .

« جرائد بلادنا »

أذكر ما قرأته وعرفته منها أولها جريدة لسان الحال لصاحبها خليل افندي سركيس صاحبي القديم فهو الذي عرفني بالجريدة وليس هي عرفتني به وهو رجل أديب لا يحب المجادلة اسهل من الماء يمتزج مع

الكل وكذلك جريدة ثمرات الفنون لصاحبها صاحب السعادة عبد القادر افندي القباني ثم جريدة بيروت لسعادة عبد القادر افندي الدنا رئيس بلدية بيروت الحالي ورئيس مجلس التجارة سابقاً وهو من أصحاب السلام وممترج مع كل الانام .

ولي في جريدة البشير مقالات كنت انشرها من كتابي نائب الطبيب كما وان لي في مجلة المشرق جملة مراسلات علمية .

والجريدة التي لم تزل تصاحبني لليوم منذ ظهورها هي جريدة الأرز فأصحابها اثبت من الأرز بالصدق والمودة والمبادىء وهما الشيخان فيليب وفريد الخازن ولي في جريدة الروضة مقالات ايضاً كما وفي جريدة المهذب لصاحبها حضرة الأب بولس الكفوري الذي ذكرت عنه .

هذه هي الجرائد التي قرأتها وعرفتها وأقدمها في بيروت حديقة الاخبار للمرحوم خليل افندي الخوري .

(نكتة) كنت مشتركاً باحدى الجرائد وعند آخر السنة ارسل صاحب الادارة يطلب قيمة الاشتراك فأرسلت له نشرة كتابي مجمع المسرات وقيمة الاشتراك دفعة واحدة فقبل بكل سرور المبادلة فحررت له ان قيمة جريدتكم وكتابنا واحدة الان ولكن الفرق بينهما في آخر السنة اين يكون كل منهما .

(نكتة اخرى) ارسل لي صاحب جريدة جريدته بدون طلب مني فكانت تخبرني عن كل من مات وتمم واجباته الدينية (كأنني مأمور الانفس) وعن المرطبات والالوان التي قدمها فلان عندما شرفه فلان (كأنني عشي) وعن الزياحات والاحتفالات التي اقيمت في عيد القديس الفلاني (كأنني من المرسلين) وعن تشريف الأجل الاكرم او قدس فلان او عدالة فلان قبلما يصلوا وبعد مدة حضر من قبله وصل لدفع لاشتراك الذي قيمته ثلاث ريالات مجيدي فقلت الى الرسول هل معك ثلاث ريالات لاعطيك ليرة انكليزية قال نعم فدفعها لي ثم حررت له وصلاً أقول فيه وصلني ثلاث ريالات مجيدي من فلان الفلاني اجرة قراءتي جريدته فتعجب الرسول فقلت له خذها له اخيراً أخذها الى صاحب الجريدة وبعدما حلف لا يرسلها لي فيما بعد ارجعت له الثلاث ريالات .

(الدور الثاني لمتصرفي لبنان)

يوسف باشا فرنكو متصرف لبنان السابع

وأول متصرف ابن متصرف لبنان . تموز سنة ١٩٠٧

ولد دولته في الاستانة العلية سنة ١٨٥٨ وتعلم العلوم في بيته وفي سن العشرين دخل في الخارجية

وأصبح مدير القلم الخصوصي لرابورتات السفراء والخارجية ولم يخرج منها الا متصرفاً على لبنان وقد ألغيت من بعده هذه الوظيفة .

تزوج بالسيدة لوسي كريمة كبورال صاحب بنك في الاستانة افرنسية الأصل ذات صفات ممدوحة لا يهمها اشغال المتصرفية ولا يمكنا نقول شيئاً عن دولته لأنه مستجداً ولكن الذي شاهدناه لحد الان يدل على انه رجل حزوم عزوم ذو اهابة والبرهان انه قبل حضوره كان لبنان مضطرباً جداً لان السنة الاخيرة لمظفر باشا كانت توجب الاضطراب لأنه كان مريضاً لم يمكنه حفظ النظام فأصبحت الاهالي غير معتبرة الحكومة وكان كل واحد من المتوظفين كمتصرف لان على العموم متى كان الحاكم ليناً يستبد كل مأمور وبالعكس متى كان صارماً لم يكن غيره فالأحسن استبداد واحد ولا مئات فعندما حضر اوقف كل واحد على حده فرأوا منه القوة وعدم السماح لمن يخطئ ويتعدى الحقوق وأهم شيء عدم قبول الرجاء في معزول وعدم تأثير احد على فكره واعتداله مع الاحزاب الذي يريد كل منهم ان يهلك الاخر فهذا كفاية الان وانشاء الله نرى منه اصلاحات عديدة كما نرى من استعداده ومن عدله ابقى كل متوظف في محله وابتدى يفحص عنه فغير البعض وابقى الكل تقريباً وهؤلاء هم المتوظفون الحاليون .

مأموري يوسف باشا

(وكيله في الادارة) الامير قبلان ابي اللمع رجل الحزم والصدق مع الاصحاب وله من عزة النفس أعزها ولا يسمح لأحد يدوس حقوقه .

(رئيس دائرة الحقوق) سليم افندي ثابت.

(رئيس دائرة الجزاء) مصطفى بك العماد .

(المحاسب جي) هاشم افندي.

(وكيل المدعي العمومي) سليم افندي باز .

(رئيس القلم الأجنبي) الشيخ يوسف يعقوب حبيش رجل محب السلامة ولا احد يتشكى منه الا الكرسي وهو قادر في الافرنسية .

(رئيس القلم التركي) ناصيف بك الريس .

(رئيس القلم العربي) خليل بك الخوري ابن المرحوم الشيخ بشارة الشهير وهو من الفرع العلمي لعائلة مشايخ الخوري من رشميا .

(ترجمان أول) اسعد بك التويني ابن المرحوم اسكندر بك التويني هذا الذي جدده دولته نظراً لخدامات والده مدة ٣٦ سنة وهذا شاهد على عدل وذمام متصرفنا .

(ترجمان) الامير فاتق سعد شهاب البق من ترجم وأصدق من خدم صاحب المودة والزمام .

(رئيس قلم الاوراق) نخله بك الخوري .
(مدير دير القمر) ملحم بك ناصيف .
(قائمقام كسروان) سليم بك عمون ١٩٠٨ حبيب بك البيطار .
(قائمقام البترون) الشيخ رشيد الخازن .
(قائمقام الشوف) الامير توفيق نجيب ارسلان .
(قائمقام المتن) الامير مالك شهاب .
(قائمقام جزين) حبيب بك البيطار ١٩٠٨ اسعد بك لحود .
(قائمقام زحله) سليمان افندي الجاهل ١٩٠٨ الياس بك الباشا .
(قائمقام الكورة) الياس بك بحمدوني .

وقد اوجد دولته هاتين المأموريتين وهما :

(مفتش العادلية) سليم بك ظاهر المعوشي .
(مفتش المالية) نمر افندي شمعون .

وقبلما انهي كتابي اريد ان أضع هذه المقالة التي نشرتها في المشرق لأن فائدتها عظيمة وهي :

التدخين

والدكتور شاكر بك الخوري

مدرسة الاكلينيك العيني والجراحة الصغرى في المكتب الطبي

بعث الينا الدكتور شاكر بك الخوري الرسالة الآتية :

سيدي مدير المشرق المحترم

ابعث اليك بهذه المقالة التي كتبتها منذ اربع سنوات وما كنت اتجرأ على نشرها لاني كنت أكذب قولي بعملي ، ولا نفع في قول يكذبه الفعل ، واما الان ، فقد تطابق عندي القول والعمل ، وتركت تلك العادة التي استعبدتني خمسين سنة فلا اخشى من ان ابعث بهذه النبذة راجياً ادراجها في مجلتكم الغراء عساها

تفتح عيون المبتلين بداء التدخين وتحملهم الى التخلص منه كما فعلت انا . وقبل الخوض في بيان أصل الدخان واضراره اذكر تاريخ عبوديتي له وتحرري منه تفكهة لقراء المشرق الكرام ورغبة في انقاذ من كان مثلي عبداً لتلك العادة السيئة

١

« تاريخ عبوديتي لشرب الدخان » بدأت بالتدخين وانا ابن سبع سنوات وقد كنت مدفوعاً الى ذلك بمشاهدتي شيوخاً رانهم الشيب ووقار العمر غلايينهم في افواههم كل اين وآن وزاد تشوّقي بما كنت اشاهده في بيتنا ايام جدي ووالدي في ليالي الشتاء الطوال حيث كان يجتمع عندنا زهاء ثلاثين الى اربعين شخصاً كل ليلة فيمد كل واحد قصبة غليونه الطويلة امامه ويحشوه تبغاً ثم يشعله فيتصاعد الدخان كثيفاً كأنه خارج من المداخن فيملأ البيت فيكون تأثيره في المستشفى اشد من تأثيره في المدخن نفسه . فلما كنت ارى ذلك كانت تدفعني الرغبة الى ان أجرب وأفعل ما يفعله اولئك وكان بامكاني ان احصل الدخان دون عناء ولا مال لأن ابي كان يدخر منه مؤونة كاذخاره للحنطة . وأما جدي ووالدي فكانا يمنعاني عن التدخين باشد العقوبات لكنها لم تكن تؤثر فيّ أقل تأثير حيث كنت أقول في نفسي : ان كان التدخين شراً فلم لا ينقطعان عنه هما . واذ لم اجد برهاناً يقنعني بابطاله مضيت في سبيلي وركبت هواي وداومت التدخين وهذا ما منعني عن نشر ما انشره الان قبل الاقلاع عن عادة اذمها وانا ملازم لها :

لا تنـــه عن خلق وتـــأتي مثلـــه عـــــــــارٌ عليك اذا فعلت عظيمُ

فأحسن الوعظ المثل ومن لا يعمل حسب ما يقول لا يصدق فبقيت اذ ذاك مواظباً على التدخين مستعملاً التبغ البلدي ثم انتقلت من هذا الى تبغ الرجي حتى بلغت بي العادة الى تفريغ ثلاث علب نمرو ٢ يومياً وذلك عبارة عن احراق ستين لفافة (سيكارة) في اليوم ولبثت على ذلك لغاية يوم الاثنين الواقع في ١٤ تشرين الأول سنة ١٩٠٤ صباحاً عند الساعة السادسة اذ مددت يدي الى جيبي لأخذ العلبة حسب مألوف عادتي فعنّ لي ان أقلع عن التدخين . وقد كنت نهار الأحد احرقت ستين لفافة فأخذت العلبة وكتبت عليها اليوم والساعة والسنة كما ذكر ورميتها في الصندوق وأقفلته وخرجت الى شغلي في مستشفى راهبات المحبة اللعازاريات .

ولكن يا له من يوم شديد عليّ فلا أظن أحداً كان في وسعه ان يراني في تلك الحال ويتمالك من الضحك اذ كنت امد يدي الى جيبي واخرجها فارغة وكنت معتاداً ان اشعل في كل ربع ساعة سيكارة فكانت اذ ذاك تأتيني النوبة في كل ربع ساعة مرة وانا اصبر نفسي فقضيت ثمانية ايام على هذه الحال وكادت تنقطع مني الانفاس . فعمدت الى النارجيلة تخفيفاً لبعض مما كان بي وتسلية لنفسي في انفرادي وتنبيها لفكري حين الكتابة لظني ان التدخين ينبه الفكر ويسلي خاطر المنفرد واذا كنت أكتب وانا منفرد

وحدي . فالنارجيلة التي أخذتها لمجرد التسلية أصبحت على تراخي الزمن عادة جائرة فكنت ابتاع اجود جنس من التنباك واتقن نظام النارجيلة لأنها لا تلذ المبقبق فيها ما لم تكن منظمة غاية التنظيم . لذلك كنت انهر الخادم لاهماله وتارة اتضجر لانطفاء الفحم وأصبت بالنزلة الصدرية فتوفرت عندي الاسباب لترك النارجيلة فتركتها وأصبحت حراً معتقاً من التدخين والبقبقة . واذ مضى عليَّ سنة وشهر من ذلك العهد اعتقدت اني ابطلت العادة وأصبحت مالكاً قياد نفسي فعدت الى تجبير مقالتي هذه وفي اثنائها كنت افتكر بالعقوبات التي حلت بي بسبب التدخين في البيت من قبل جدي ووالدي وفي مدرسة عين طورا من قبل النظار والرؤساء وانا لم أكن ارتدع ولا ارعوي وكم كنت أقدم من الاعذار الفارغة لمن يشير علي بابطاله فكان يقول لي كل من يراني بعد الغداء اشعل سيكارة وراء اختها الى الخامسة : يا دكتور انت طبيب وتعتقد بضرر التدخين فلماذا تستعمله اذن؟ فكنت أجيب اني اعتدت على التدخين قبل الطب . فما أمهر الانسان في استنباط المعاذير الفارغة للدفاع عن امياله المنحرفة او ارادته على كل ما نوى . ومن قال : « لا استطيع الاقلاع عن عادة التدخين او عن غيرها من العوائد المضرة » فهو ضعيف الارادة ليس الا — انتهت حكايتي مع التدخين فلنبحث الآن عن تاريخ استعماله وعن اضراره .

« التبغ والتدخين به » ان الخالق جعل في الارض نباتات تختلف طوائفها وأنواعها الى ما لا حد ولا عد فهمجيو امريكا الاولون كانوا يؤثرون النبات على اللحم وكانوا يأكلون من كل الحشائش فعرفوا بالاختبار والمشاهدة ان التبغ ليس بغذاء بل انما هو نبات مقيء سام فكانوا يسممون بعصارته اسهمهم لابادة اعدائهم . فلما شاهدوا فتك سمه بالاعداء رفعوه الى رتبة الالهة ودعوه باسم باتن (Pétun) فهذا كان دأب الانسان قديماً فكان يعبد النافع لمنافعه ويسجد للمضر تخلصاً من اذاه وقد كانت تقام لهذا الاله اعياد مخصوصة يحرق فيها التبغ فيستنشقون دخانه وتلذ لهم رائحته فنشأت من جراء ذلك عادة التدخين وانتشرت عبادة هذا الاله في كل الاقطار وكل يوم يزداد عدد المتعبدين له الدائنين بدينه حتى بلغ الرسم على الدخان في انكلترا ٢٠٠ مليون فرنك سنوياً وفي فرنسا ٣٠٠ مليون وفي الولايات المتحدة ١٢٥٠ مليوناً . ويبلغ عدد الذين يستعملون الافيون ومركباته ٤٠٠ مليون والذين يستعملون الحشيشة ٣٠٠ مليون عدا المولعين بالكوكا والبيتال (Pétal) .

« اسم التبغ ومادته السامة » ان أصل التبغ من الهند العربية وجده الاسبانيون في جزيرة (Tabago) فسموه باسم الجزيرة تاباغو فعرّبه العرب ودعوه تبغاً وفي سنة ١٥١٨ ارسل بذره الى الملك كارلوس الخامس فاقتبله كهدية من البحارة الاسبانيين وفي سنة ١٥٦٠ قدّم هدية منه يوحنا نيكوت سفير فرنسا وقتئذ في البرتغال الى الملكة كاترين دي مدسيس فعُرف باسم حشيشة الملكة ودعاه غيرهم بحشيشة نيكوت . ثم خصوا باسمه ما يتضمنه التبغ من المادة السامة فدعوها بالنيكوتين .

والنيكوتين من أقوى السموم واسوأها فعلاً بعد الحامض السيدانريك فالمقدار الموجود منهُ في سيكارة

واحدة يبلغ ٧ في المئة وهو اذا استحضر بالنقع يقتل رجلين واذا وضعت نقطة واحدة على لسان كلب تميته الفور واذا استنشق المستحضر رائحته يموت في الحال .

وكمية النيكوتين تختلف في ضروب التبغ وكلما زاد مقدار النيكوتين عُدّ الجنس أجود فالدخان اليوناني والمجري يتضمن واحداً في المائة والعربي والبرازيلي والهافاني والباراغي اثنين في المائة . واللو (le Lot) وهو أقوى الاجناس ٦ و٧ و٩ في المائة .

٢

« مفاعيل الدخان » ذكر الاطباء انه بين ٣٠٠ ولد يشتغلون في معامل التبغ لاحضار اللفائف قد اصيب ٧٢ بامراض مختلفة في سنة واحدة ومات بعضهم .

فالتدخين يؤثر كثيرا في الاعصاب المرافقة للشرايين وعلى التمادي يضعف النبض ويجعله مضطرباً متقطعاً وكثيراً ما يحدث الموت .

وأشد الاعضاء تأثراً من التدخين هو القلب فيحصل من جراء خفقان وعدم انتظام في الدورة الدموية واغماء .

ومن تأثيره في المعدة انه يسبب عسر الهضم ويفقد شهوة الأكل سيما اذا استعمل على الريق .

وكذلك يؤثر في العين فاني قد ذكرت في كتابي صحة العين الداء المعروف بالكمنة Amblyopie ويصيب عيناً واحدة وهذا ما يميزه عن الكمنات الاخرى التي تختلف اسبابها وما الكمنة الا نوع من العمى فترى المصاب بها يمشي وهو رافع رأسه طلباً للضوء على عكس المصاب بالماء الزرقاء او الكتركتا فانك تراه مكساً رأسه الى الأرض هرباً من النور وكذلك يعرف جنس المرض من مشية المريض .

وللتبغ تأثير في الفم فيسبب احياناً فيه اوراماً سرطانية وقروحاً وغير ذلك من انواع البثور . لكنه اشد تأثيراً في المخ فانه يسبب الامراض العصبية والصداع والجنون احياناً . ويحدث في الذاكرة آفة النسيان فيغفل المدخنون خصوصاً عن اسماء الاعلام . وهذا من غرائب الامور فانك ترى لبعض الاشخاص ذاكرة عجيبة فاذا أكثروا من التدخين مدة اعتراهم هذا الداء فلا يتذكرون اسم فلان وفلان مع انهم يتذكرون بقية الاشياء .

وقد شوهد قلة العمل والكسل عند المدخنين فقد اختبرت الامر بنفسي لما كان العملة يشتغلون في

اراضيّ فالذين كانوا يواظبون على التدخين كانوا قليل العمل والنشاط بطيئي الحركة يضربون الارض بكسل لارتخاء اعصابهم فضلاً عما كانوا يضيعون من الزمان بلف اللفائف واشعالها . ولاضاعة الوقت كانوا يستعملون القداحة . فلتلافي الامر كنت ابتاع علب كبريت وأدفع لمن لا يدخن عشرين بارة علاوة عمن يدخن وذلك بحق وصواب وقد لوحظ في المدارس ان الطلبة المولعين بالتدخين بطيئوا الحافظة خاملو الذاكرة ، وقد لوحظ أيضاً في الجنود ان أصحاب التدخين هم أقل شجاعة ممن سواهم وبالجملة ان كل مدخن كثير الكلام قليل العمل .

وزد على ذلك ان للتبغ عملاً سيئاً في جهاز التنفس وكثيراً ما يؤثر التدخين في الصوت والحنجرة لذلك ترى الكثيرين من المولعين به تبح اصواتهم او يصابون بامراض الشعب والسل .

أما النساء فقد ذكر الدكتور برادل انهنَّ اذا اشتغلن بمعامل التبغ كان حملهن نادراً وان حملن يسقطن الجنين او تكون اولادهن ضعفاء البنية .

« تأثيره الادبي والمادي » وجد بعد الاحصاء من بين ٦٠٣ اولاد ممن يتعاطون السرقة ان ٤٣٥ ولداً يألفون التدخين . وهكذا قل عن القتلة وبقية المجرمين فأكثرهم من اصحاب التدخين . وأقول بالجملة ان جميع المخدرات مؤذية مادياً وأدبياً وصحياً لكن أكثرها ضررا وأذية الدخان .

وللتدخين ما عدا ما ذكرنا تأثير مادي ايضاً فاذا اعتبرنا تعطيل الاراضي التي يزرع فيها الدخان والحريق المسبب عن السيكارة وتعطيل اوقات مستخدمي التبغ والمدخنين وسائر المهربين ونفقات التدخين لوجدنا الخسائر باهظة وتستلفت الانظار اشد استلفات . فانك ترى المدخنين لا ينفقون على الطعام والشراب مقدار ما ينفقون على التدخين . فقد اتفق لي ان رجلاً أتاني لمعالجة عينيه فطلبت منه مبلغاً قدره خمسمائة غرش لاشفيه فأجاب انه ليس بطاقته دفع هذا المبلغ لان راتبه الشهري لا يتجاوز هذه القيمة . طلبت منه سيكارة فأخرج علبة نمرة ١ تساوي قيمتها ربع مجيدي فقلت له : كم علبة تدخن في النهار . قال واحدة . فقلت له : ان هذه القيمة التي تنفقها على ما يؤذيك تني وبأود معالجتك فلم لا تنفق جزءاً منها على ما يعود عليك بالنفع ويزيل المرض عن عينيك . فأجاب : أفضل العمى على ابطال التدخين . فقلت له : ان عمى القلب اشدّ من عمى البصر . فتأمل بهذه العادة وقبحها .

والتدخين يضر كثيراً بالحوذيين وخيلهم فان المولع منهم به يوقف الخيل مراراً كثيرة ليلف السيكارة او يشعلها وبعد ذلك يوسع الخيل ضرباً لتعدو بسرعة وتعوض عما أضاعه صاحبها من الزمان فيوجع الخيل ويتعبها لأجل التدخين (فتكون الخيل المسكينة أكلتها على كيس الدخان) . فاذا كنت راكباً في عربة فتأمل بعد اشعال السيكارة بطقطقة الحوافر وانسياب الساط متلاعباً في الفضاء وهزيم الدواليب ولهث الجياد مع الخطر بانقلاب العجلة .

وقبل الختام يجدر بنا ان نذكر القراء الكرام ان كثيرين من مشاهير الكتبة وفطاحل الشعراء كتبوا عن اضرار التدخين . وقد اثنى الشاعر الانكليزي الجيرون على يعقوب الأول ملك انكلترا لانه قطع رأس رالبغ (Raleigh) الذي أدخل في بلاده التبغ .

ويوجد في ايامنا جمعيات كثيرة غايتها مقاومة التدخين كان من اعضاء أحداهن المرحوم والد الدكتور هامش زميلنا الذي شاهدته عندما كان في بيروت فاخبرني عن نجاح الجمعية .

وقد يحتج البعض للمداومة على التدخين بان الدخان يقتل المكروب ويحمي منه كما ادعى الدكتور بيشاليه من مونبليه وهذا زعم وهمي غير مبني على مبادىء العلم الثابتة فقد شوهد المكروب في مقوع الدخان وقد وجد بالاحصاءات ان الوفيات بالسل والهواء الاصفر وبقية الاوبئة كانت في المدخنين أكثر مما كانت في غيرهم .

وكفى بما مرّ لاظهار مضرّة التدخين حتى لا يخال قولنا من قبيل التخويف والتهويل وان قال قائل اني لا اشعر بشيء مما ذكر ولا ارى الدخان احدث بي ضرراً وانا دائب اليه من زمان طويل فأجيبه : كل آتٍ قريب فأبشر بوخيم العاقبة فعادة التدخين كسائر العوائد السيئة أولها حلاوة وآخرها مرارة فمتى جاوزت الخمسين او ناهزت الستين تتراكم عليك اضرار التدخين . وما أجدر بالحكام ان يقفوا في وجه هذا العدو المدلس ويقتدوا بمشترع ولاية نيوجرسي (New-Jersey) في الولايات المتحدة الذي حرم بيع الدخان للذين لم يبلغوا السادسة عشرة من عمرهم .

فعلى الوالدين والمعلمين منع الأولاد بكل قوة عن التورّط بهذه العادة المضرة وذلك بوسائل اللطف والاقناع فالذي يخلص ولداً من عادة التدخين يحييه مادياً وادبياً اذ يوفر عليه اموالاً كثيرة وامراضاً شديدة . ثم اننا نثني خاصة على عقال الدروز الذين يعدون التدخين في جملة المسكرات وهو محرم في معتقدهم .

وهاءنذا احصي ما وجدته من المنافع من ابطالي التدخين : « أولاً » عادت اليّ شهوة الأكل التي كدت افقدها . « ثانياً » اشتد النبض الذي كان ضعيفاً عاجزاً عن اتصال الدم على اطراف الجسم والى الوجه خاصة لذلك كنت أصفر اللون أما الان فقد عاد لون الشفتين الى احمراره وبقي لون الوجه على حاله لأن اللون الاحمر لا يظهر على الوجه الاسمر . « ثالثاً » ان الدوار الذي كنت اشعر فيه كالسكران زال عني . « رابعاً » اشتدت عضلات جسمي واعصابي التي كانت ارتخت حتى كنت اتمايل يميناً وشمالاً في مشيتي كالثمل ولم يكن قدمي يثبت في الارض والان صرت امشي كالاسد . « خامساً » وهذه أهم المنافع كنت أصبت بالنسيان والنسيان آفة الانسان وهذه المصيبة كانت من أكبر المصائب عليَّ لأن الذاكرة رأس مال الفتى فلم تعد حافظتي تعي ما كنت اسمعه وكنت انسى خاصة اسماء الاعلام . وأما الان والحمد لله

فقد عادت اليَّ القوة الحافظة ورجعت الذاكرة . والبرهان على ذلك اني ما نسيت ان أكتب هذه المقالة عن أضرار التدخين لينتفع منها كل مغرور به فيتلافى الشر قبل وقوعه ولو استاء بفعلي ولاة امر (الرجي) وباتعوا الدخان ولكي أوكد لهم بان لا خوف عليهم لأن المثل يقول ما أكثر الناصحين وأقل السامعين .

كما انني بالتدخين قدمت نصيحة للرجال فأقدم بالكحل مثلها للسيدات ولو ما صادقن عليها وبربرن عليَّ ولكن هذا الحق .

في الكحل

نشرت في مجلة المشرق في السنة الاولى ١٨٩٨ وجه ٢٠٦

كأن الانسان لم يكتف بالامراض العديدة التي تحيط به حتى اخترع بعض امور تلذ له ظواهرها وعاقبتها عذاب له وأوجاع والمرء يعذر اذا اصيب بعلة اتته بقضاء ربه من حيث لا يدري لان اسباب الهلاك لا يعدها احصاء فهما صنع الانسان لا يمكنه التملص منها جميعاً لكن من الامراض انواعاً لا علة لها سوى ارادة من ابتلى بها ومخالفة للقوانين الصحية فاذا عبرت احداً لم يستطع ان يبدي عذراً لانه جلبها لنفسه باطلاقه العنان لشهواته مع معرفته بسوء عواقبها فتراه لا يسمع كلام نذير ولا امر مدبر ولا مختبر حتى تؤدي به الى هلاكه فتباً لها من شهوات نضيع العقل وتعدم الراحة والصحة وتضحي انواع الرفاهية في سبيل الهوى الباطل .

وما يزيد في غرابة الامر ان بعض هذه الامراض ناتج عن اقدام الانسان على شيء يلتذ به غيره ولا هو ينال منه الا الضرر والالم لكنه يفعل ذلك لينسب اليه الجمال ولعله هو خلوٌ منه ولا يجهل كذب من يصفه به .

ومن جملة هذه العادات السيئة كحل العيون فاني متكفل باظهار اضراره وشرح عواقبه لمن يستعمله طبعاً في استحسان غيره لمنظره وكفى المتكحل ذماً ما يقال في حقه انه ذو العين السوداء الكاذبة واني استيمح المعذرة من المتكحلات اذا ما اتى الشيء يسوءهن في اثناء مقالتي هذه عن شرح مضار الكحل فانني طبيب رمدي وبهذه الصفة اشاهد عدداً وافراً من السيدات المصابات بامراض في عيونهن لا سبب لها غير الكحل ولا يمكن للطبيب ان يرى عادة يتأتى منها عدة اضرار ويسكت عنها فمن ثم قد تكلفنا هنا شرح ما تورثه هذه العادة الوخيمة من المرضى في العيون الا وهو المرض الكحلي .

وقبل الابتداء بشرح اعراض المرض نذكر نبذة تاريخية في هذه العادة الجارية في العالم من القدم ولا نعلم ان احد بحث فيها بحثاً مدققاً لتبيين مضارها رغماً عن قدمها .

« تاريخ الكحل »

قد ذكرنا في كتابنا صحة العين في فصل زينة العين عن تاريخ هذه العادة التي ابتدت ولم تزل في الشرق فأحببنا لأجل اتمام الفائدة ان نختصر ما قلناه وهو :

ان هذه العادة قديمة كالعالم فكل من المصريين والكلدانيين والاسرائيليين كان يستعملها وذكر المؤرخون دوريس وساموس ونقولا ويهموريوس عن سردانابال ملك اشور انه كان يقضي مدة من الوقت في تكحيل عينيه وصبغ حاجبيه وتحسين وجهه وذكر ايضاً مؤرخو اليونان واللاتين هذه العادة فمنهم أوفيد قال ان النساء كن يحشون حواجبهن في المحل الخالي من الشعر ولم يكن يخجلن من تزيين العين بمسحوق ناعم او بزعفران قيليقية وذكر بلين الطبيعي انه لم يكن يمضي يوم واحد على اهداب رجال زمانه ونساء عصره من دون ان تصبغ وذكر عدة مؤرخين عن استعمال مزيج من الاثمد والكبريت لتكحل العين ومن جملتهم بلين المذكور وفي الجيل الثالث عشر كانوا يعتبرون العيون السود اعتباراً عظيماً بحيث ان سواد العين كان يعد من أقوى الاسباب لاستمالة القلوب في ذلك الوقت فكانت صاحبة العين الزرقاء تجعلها سوداء بوسائط متعددة منها وضع عصارة الخمرة (البلادونا) داخل الجفن لأن خواص هذه العصارة ان تمدد الحدقة فتصير العين سوداء فكان ينتج من هذا التمدد المستديم ضرر عظيم بالبصر .

أما أهل الصين فيستعملون ورق زهر الورد والتتر يحبون اللون الاصفر الضارب الى الحمرة فيتخذون لذلك العصيرة (البلسمين) ولا نتعرض في مقالتنا هذه لبقية المواد المستعملة لصبغ الوجه والحواجب وان كان تأثرها مضراً بالعين ايضاً وبالخصوص السبيداج الذي هو مركب رصاصي . وقد وجدوا في مدافن المصريين والفينيقيين مكاحل ومراود وغير ذلك .

« قصة مضحكة » كنت زائراً حلوان وهي مياه معدنية كبريتية وكانت احدى السيدات من جملة الزائرات وعندما خرجت من محل المياه ونظرت نفسها في المرآة وجدت لها وجهاً اسوداً كالزنوج فصرخت ونادتني وارتني حالها مفتكرة ان مرض غريب اصابها فطمنتها لانني عرفت ان السبيداج الذي كان على وجهها هو مركب رصاصي اتحد مع الكبريت المتصاعد فكون كبريتور الرصاص الذي هو الكحل ونصحتها ان لا تأتي حلوان مع الاسبيداج والا يذهب الحلوان .

وكانوا بالأكثر يرسمون على هذه الالات صورة مسخ شنيع المنظر يدعونه البس يزعمون انه زوج الزهرة الاهة العشق وكانت غايتهم بهذا النقب ان يشيروا الى رجال قبيحي الصورة يتزوجون بجميلات .

أما المرايا فكانت مشوهة برسم هذا المسخ لا تخلو منه البتة وربما غايتهم في ذلك الوقت ان يحسنوا للنساء في وجوههن وذلك ان التي تنظر وجهها في المرآة تجد هيئتها دائماً جميلة بالنسبة الى صورة المسخ

الشنيعة واحياناً كانوا يرسمون شخص هذا المسخ قائماً بنفسه وحاملاً مكحلة فيها ميل بقدمها الى المتكحلات .

« اعراض المرض »

لا يمضي يوم الا ويحضر الينا مرضى يشكون حرقاً في العين مع تدمع غزير وبعد الفحص المدقق نجد من الكحل كمية وافرة في بطن الجفن السفلي وهو المسبب لهذا الهيجان وعدا عن ذلك ترى حافة الجفن الملتصق عليها التكحل متهيجة سميكة والغدد التي توجد بين انسجتها ملتهبة ايضاً وحافة الجفن محمرة ملتهبة ويصير الشعر سريع الانقصاف والسقوط حتى يتلف تماماً وينتثر ويصير المنظر كريهاً جداً ويتعسر ابطال عادة التكحيل لان من اعتاده وتسلت بذلك اهدابه يحاول اخفاء هذا التشويه الناتج عن استعمال الكحل كما يحصل للذين يزينون وجوههم لكي يستروا التجعدات المسببة من استعمال الزينة .

وقد أحصيت عدد هؤلاء المرضى فكان في هذه السنة ما ينيف على المائة والخمسين وجميعهم في سن الشبوبية وكان خير علاج لهم ابطال هذه العادة فقط وبعض غسولات لنظافة الاهداف من التكحل ولعل جهل مضار هذه العادة كانت سبباً لانتشارها في بلادنا .

ويحتمل ايضاً ان هذه العادة لم يجر عليها فقط للزينة بل ايضاً تخفيفاً لاشعة الشمس الزائدة عن المقدار اللازم للبصر في البلاد الحارة وكان ذلك كالمام مطابق للطبيعة لان اغلب سكان البلاد الحارة لهم عيون سود لأجل امتصاص واحتمال اشعة الشمس القوية .

(تركيب الكحل الكيماوي)

يوجد عند العامة نوعان من الكحل : الاصبهاني والحجري وعند الكيماويين نوعان ايضاً الأول كبريتور الرصاص والثاني كبريتور الانتيمون الاسود وهذا الثاني أكثر استعمالاً من الأول ويعتني الناس به اعتناء كبيراً فضلاً عن التأثير الموضعي الذي يفعله في الهدب وفي الجفن كجسم غريب فان فعله الكيماوي اشد تأثيراً خصوصاً على غدد ميبوميوس (Meibimuis) وهي التي تفرز المادة الدهنية لأجل نعومة الجلد والشعر فبالاتحادات الكيماوية التي تحصل بين هذه المادة الذهنية وكبريتور الكحل تتولد اجسام اخرى لها خواص مخالفة للخواص الموجودة في المادة الدهنية فيفقد الشعر لينه ويتقصف والقدر المفرزة تلتهب ويقل افرازها فتسمك حافة الجفن ثم ان البويصلات الشعرية تصاب ايضاً فالشعر النابت فيها يكون ضعيفاً قليلاً ويتصل الالتهاب من حافة الاجفان الى الفتحات الدمعية وقنواتها فيسبب انسدادها فيسيل الدمع على الخدود سيلاً مستمراً يلزم ان يتعالج من اعتل به معالجة طويلة المدة .

فهذه هي الاضرار التي اراها يومياً من الكحل فاردت ان انشر هذه الرسالة لا طمعاً بان تسمع المتكحلات المزمنات لقولي وينتفعن به ولكن لكي انبه اللواتي يتكحلن من عهد حديث او اللواتي لم يتعودون الى الان على التكحل فيرتدعن عن اتخاذه ولعل هذه الرسالة تهيج عليَّ غضب المتكحلات المزمنات ولكن استمرارهن على استعمال هذه العادة بعد هذه المقالة بأخذ ثأرنا منهن فالأمل منهن عندما ينظرن وجوههن بالمرآة يتأملن في عيونهنّ ويعرفن صدق مقالنا .

« المعالجة الأدبية »

ان عادة التكحيل قد دخلت في هذه السنين الاخيرة بكثرة عند المتمدنات في بلادنا وعند النساء العاقلات ظناً منهن انها لا تضر وتزيد الهيئة جمالاً فعبثاً نحاول ازالة هذه العادة برسالة كهذه لأننا أول من كتب عنها ولا رجاء لنا ان تبطل هذه العادة عند من يألفها وانما غايتنا ردع من اراد ان يتعود عليها في المستقبل وخصوصاً البنات الخارجات من المدارس وأرى ان المعلمات في المدارس يجب عليهن ان يظهرن للتلميذات اضرار هذه العادة ويعطين درساً بالاملاء عليها وعلى اضرارها حتى تأنف التلميذات منها فكما ان غاية المدارس هي حفظ الآداب كذلك يقتضي ان يتعلم التلامذة البعد عن اضرار الجسم والعقل والصحة فكما يوصيهم الاستاذ بتحاش ضرر القريب كذلك يلزم ردعهم عن ضرر ذاتهم .

وعلى المعلمة ان تبين للبنات ضرر زينة العين والوجه وليوضع صور في المدارس للمصابين باضرار التكحل كما يلزم فعل ذلك في مدارس الصبيان من تعودوا شرب الدخان والمسكرات فيفهمون اضرارها سواءً كان بالعقل او في الصحة او المال فهذا ضروري جداً .

وسابين أن شاء الله في كتاب اسمه (أمراض التمدن) جميع هذه الاضرار الناتجة من الدخان والمسكرات وزينة الوجه والفساد ولعب القمار واضرارها الصحية والعقلية والمالية والادبية لان هذه الامراض مضرة جداً وليس من قانون لمنعها ولا مبشر بمضارها لان الاباحة سهلت لفاعليها الاكثار من استعمالها ليس لها مانع الا العقل والعقل لا يقوى على العادة الا نادراً .

وربما رأيت عقلاء يعرفون هذه الاضرار جيداً كالاطباء المجربين كل ذلك مثلاً ومع ذلك تتغلب العادة على عقلهم واختبارهم وتعمي الانسان عن صالحه فكم يلزم من الملاحظة من الأهل والمعلمين والمعلمات لمنع هذه العادة عند هؤلاء الصغار اللذين سلمتهم اياهم يد الربانية ولا يكفي في الابيداء وعظهم بالعقل فقط لانه لا عقل لهؤلاء الأولاد حتى يدركوا الاضرار المستقبلة غير المحسوسة بل يلزم القوة والقصاص لمنعهم واذا كبروا فليعملوا بالعقل الذي تساعده القوة المستعملة قبلاً والتربية الاولى فينبذون هذه العادة الذميمة ولولا ذلك لما فعل العقل شيئاً ما لم تحل نعمة خصوصية قوية جداً سماوية تحمل الانسان على ترك عوائده وقد اقتصرت في مقالتي هذه على ذكر الاضرار التي تحصل من كحل العين لانني اشاهدها

يومياً راجياً بأن تنتبه السيدات ويمنع الاباء والامهات بناتهم عنه وحتى تعرف الابنة الى اين مصيرها بعد هذه العادة ارجوها ان تطلب من والدتها المتعودة على الكحل ان ترها نفسها عند الصباح بعد قيامها من النوم فترى تلك العيون المسلخة المحمرة المدمعة والحكة المستمرة بها والشعر الضعيف الذليل كأنه محروق مقصف واذا كان باقياً اثر الكحلة السابقة ترى حول الشعر مواد فحمية كعيون الوقادي في البواخر واذا حل لون الكحل بسبب التدمع على خديها فترى ميازيب مواد قزره ولر بما كلفتك ايتها الابنة والدتك ان تقتعلي ما يحرق عينها ويسبب لها الحكة فتجدين في باطن جفنها السفلي خيوطاً مسودة مستقرة في هذا الميزاب بين الجفن والعين التي تتهيج من احتكاكها ببقايا الكحل كأنه رمل او غبار متلبد داخل العين وخصوصاً اذا كانت زينة والدتك ليست مقتصرة على العين فقط فترين الوجه والحواجب والاسنان بحالة أفضل منها سن الثمانين فتأملي ايتها الابنة النضرة الصباء واتعظي وأكتفي بما اعطاك الله من الهيئة الطبيعية والصحة والعقل واطلبي من الله ان يرجع عقل والدتك لها ويريحها من كل ذلك وان لا يدخلك في التجارب بل ينجيك من التكحيل آمين .

(حكاية) كنت جالساً مع بعض البخلاء الاغنياء يدعي العلم وكنت اقرأ له في كتابي مجمع المسرات فكان كلما اصل الى مدح فلان يقول انه دافع الاشتراك أكثر من غيره وهكذا بحيث كان يبني اساس المدح والذم حسب الدفع او حسب طبعه فاخيراً قلت له فلنفترض ان هذا ممدوح لأجل اعطائه الاشتراك أما العطاء فضيلة تمدح اتنكر ان هذا المشترك كريم النفس يحب العلم اوكما تقول انه خائف مني أما الخوف فضيلة ايضاً وبه الانسان يستر عرضه لانه قيل ان اعظم المال ما يصرف لوقاية العرض ومع هذا أي شيء يخوف هؤلاء المشتركين اللذين هم أكبر مني ومنك واذا كان يريد الشهرة يذكر اسمه فهذا احساس جميل ايضاً دليل على شرف النفس وحب الجاه فبأية طريقة كانت أو بأي سبب كان فان العاطي يمدح ويكرم مهما كان عذره للعطاء ولكن ما هو عذر من كان مثلك بخيلاً منتناً لا يتحمس ولا يندفع ولا يهمه غير حفظ الدرهم والذي بعدما يكتب اسمه يلحسه فهل تتساوى مع ذاك بالمدح فالأحسن ان تسكت على عيبك ولا تنفي شرف النفس والغيرة والحب من الدنيا فخرس عند ذلك والأمل ان يخرس كل نتن مثله يفتكر هكذا فكر .

انتهى كتابي هذا بمتصرفية دولة يوسف باشا ومن الان وصاعداً أجمع ما يجد عليَّ وما أنظم واجمعه في آخر كل سنة فيكون ذيلاً لمجمع المسرات وعدد الاذيال يكون حسب سني حياتي في المستقبل وجعلت بدل هذا الذيل ريالين مجيدي وكل سنة فمن اراد الاشتراك فليخابرني ويدفع سلفاً وربما البعض يقول إنشاء الله لا يطلع له ولا ذيل والاخر يقول انشاء الله تتكرر اذياله بحث ان الانسان يكون شيطاناً عند فئة وملاكاً عند اخرى فمثلي مثل باقي البشر .

﴿ توفيق الكتاب ﴾

من أعظم توفيقات كتابي مجمع المسرات انتهاء طبعه في ٢٤ تموز ١٩٠٨ في اليوم العظيم الذي نشر به الدستور ونودي بالحرية فيكون حبل به في الظلم وولد في الحرية وقهراً عن ذلك فهو في تأليفه حر قبل الحرية .

﴿ فلتحي الحرية ﴾

الحرية التي نعرف حقيقتها فالحر حسب فكري من لا يكذب قوله فعله ولا يوبخه ضميره وجاره فالحر من استعبد لقوانين العدل ونظام الانسانية الحر من يكشف عن جبينه ويقول من يعيبني فهل من مرتكب او سارق او فاسق يمكنه يقول هذا القول فاذا ليس بحرٍ فالحرُّ من حافظ على حقوق غيره وحقوقه هذه هي الحرية الحقيقية وليس كما اتخذتها صبيان قريتنا عندما بلغ معلمهم خبر الحرية اعطاهم يوم عطلة اكراماً لها وقال لهم انتم اليوم احرار اذهبوا بسلام فذهب قسم منهم ينهب عريشة جاره والاخر تينته والاخر سحرته وهكذا فهموا في الحرية فالأمل ان نفهم عكس ذلك ونعرفها انها طاعة لقوانين الهيئة الاجتماعية ولا يمكن تعبيرها بغير ذلك فاذا اخذنا الكلمة على محورها اللفظي نقول ان الحرية هي ان يفعل الانسان ما يريد ولأجل فعل ما يريد يلزم ان يكن قادراً فمن من البشر قادر على فعل ارادته المطلقة وهل ارادتنا هي حرة كلا لاننا لا نفعلها الا لعرض اوجبنا فعلها مثلاً اذا خيرت بين الذهاب والجلوس فلا يمكنني افعل هذا او ذاك الا لسبب فهذا السبب هو العبودية لارادتي فاذا لست بحر فالحرية الشخصية عديمة الوجود ولكن الحرية السياسية التي نلناها هي خلاصنا من الجاسوسية والمراقبة فالاولى تخربنا وتجعلنا محتالين غشاشين قاتلين وتجعل حياتنا بيد مفسد دني يبيعنا حسب شهواته والثانية تجعلنا في جهل وتأخر بحيث نرى نفسنا أدنى من الحيوانات فالمراقبة هي التي جعلت صاحب مطبعة كتابي ان يقول طبع في مصر مع انه طبعه في بيروت والذي علمه الكذب هي المراقبة فلا ظلم امر من الجاسوسية ولا صعف أذل من المراقبة التي تفتكر ان بمجرد كتاب او حرف في كلمة اوكلمة في جملة تخرب المملكة وتتغير افكار العالم فالفضل ليس لها بل لمن سفك دمه لانتشارها فهم مرسلها وشهداها ولذلك عندما تلاشت مرسلي زردشت ذهبت الزندافستا وهكذا غيرها .

والسبب الثاني لانتشار مبدى هو جعل الناس مستعدة لقبوله فالظلم السابق يجعل الانسان يتغير بسهولة وينتقل الى مبدى ضده فهذه هي الاسباب التي تغير الافكار فالدستور الذي هو الكتاب السياسي المقدس للمملكة العثمانية لا يمكن حفظه ما لم تحفظه الجندية وتحامي عنه فيلزم عند دخول الجندي في العسكرية ان يحلف يميناً بالمحافظة عليه وكذلك كل مستخدم والأمل من المبعوثان تعديله ولا يكون اجتماعهم كبرج بابل تتبلبل فيه اللغات لكثرتها ويتقلدون الخطباء الاقدمين بخطاباتهم ويخرجون من موضوع الاصلاح

الحالي وان يسنّ لكل ولاية بعض قوانين مخصوصة حسب عوايدها ومناخها وعلمها وجهلها ليكن الاتحاد اعظم كما فعلت الولايات المتحدة لأن مملكتنا مكونة من ولايات فيها أعظم تمدن ومن اخرى متوحشة جداً فلا يمكن تكلم الاثنين بلغة واحدة فحكمة المبعوثان ترتب ذلك .

قصة عن المراقبة

قبلما شئت طبع كتابي طلبت أحد المراقبين للنظر به كي اذا طبع لا يوجد سبب سياسي يوقفه فحضر وعندما وصلنا الى لفظة امير قال يلزم حذف الحرف الأول حتى لا يشتبه بأمير المؤمنين فقلت له ان لفظة مؤمنين تميز هذا الشبه فقال لا تجادل هكذا الامر وعندما رأيت لا سبيل للتعقل صرفته وذهب مع مراقبته بحفظ أمير حسب حذفي لا حسب حذفه .

الجندية

عليك سلام الله يا صاحبة السيف ولم تجرديه لأعظم عمل في الدنيا وهو تنزيل هيئة ظالمة واقامة اخرى حرة لم يذكر التاريخ حادثة مثلها لم يسفك فيها دماً فهذا من اعظم حكمتك يا ايتها الجمعية المعظمة جمعية الاتحاد والترقي التي ادهشت السياسة وخضعت لك الرياسة عليكما سلام الله يا نيازي وانور ناشري الدستور ومدبري الامور .

يا كتابي

تحت ظـــــــل السيوف أصبحت حراً   قم وحي السيوف في ذي الصفوفِ
قـــد غـــدوتم في جنـــةٍ بعـــد نـــارٍ   جنـــة الخلـــد تحت ظـــل السيوفِ

مضامين الكتاب[1]

(١) لقد ارتأينا في وضعنا مضامين الكتاب اختيار بعض العناوين الهامة . (الناشر) .

تم طبعه في المطبعة العربية ببيروت
في الفصل الاول من
سنة الف وتسعمائة وخمسة وثمانين

